مكتبة
الأسرة
1999

مهرجان القراءة للجميع

الأعمال الفكرية

القاهرة

شحاتة عيسى إبراهيم



الهيئة المصرية العامة للكتاب



القاهــرة

القاهـــرة

شحاته عيسى إبراهيم



مهرجان القراءة للجميع ٩٩

مكتبة الأسرة

برعاية السيدة سوزان مبارك

(سلسلة المصريات)

القاهــرة

شحاته عيسى إبراهيم

الجهات المشاركة:
جمعية الرعاية المتكاملة المركزية
وزارة الثقافة
وزارة الإعلام
وزارة التعليم
وزارة التنمية الريفية
المجلس الأعلى للشباب والرياضة
التنفيذ : هيئة الكتاب

الغلاف
والإشراف الفنى:
الفنان: محمود الهندى
المشرف العام:
د. سمير سرحان

على سبيل التقديم

وتمضى قافلة «مكتبة الأسرة» طموحة منتصرة كل عام، وها هى تصدر لعامها السادس على التوالى برعاية كريمة من السيدة سوزان مبارك تحمل دائمًا كل ما يثرى الفكر والوجدان ... عام جديد ودورة جديدة واستمرار لإصدار روائع أعمال المعرفة الإنسانية العربية والعالمية فى تسع سلاسل فكرية وعلمية وإبداعية ودينية ومكتبة خاصة بالشباب. تطبع فى ملايين النسخ التى يتلقفها شبابنا صباح كل يوم .. ومشروع جيل تقوده السيدة العظيمة سوزان مبارك التى تعمل ليل نهار من أجل مصر الأجمل والأروع والأعظم.

د. سمير سرحان

مقدمة

دراسة تاريخ القاهرة وتطورها ، ودراسة النواحى الاقتصادية والثقافية والاجتماعية والفنية بها ، هى فى الواقع دراسة تاريخ مصر فى العصور الاسلامية المختلفة ، منذ الفتح العربى ، حتى وقتنا الحالى . وهى دراسة لايكفيها مثل هذا الكتاب بصفحاته القليلة الحاضرة ، وانما لابد لها من موسوعة يكون لها من الصفحات أضعاف هذا الكتاب ، يتوفر عليها بالدرس والبحث جمهرة من الباحثين

ولكن كان من الضرورى مع ذلك أن يكون للقاهرة كتاب ، تتركز فيه هذه الدراسة ، بقدر الاستطاعة ، لتغنى القارىء عن البحث فى شتى المصادر . فاذا ما استهواه جانب منها ، وأغراه ذلك على الاستزادة ، رجع الى الأصول والمصادر الأصلية . وهذا هو أحد الأهداف التى قصدت اليها

ولقد طرق هذا الباب فى اللغة العربية قبلى كاتبان فاضلان ، كتبا عن القاهرة ، أحدهما البكباشى عبد الرحمن زكى ، والثانى المهندس فؤاد فرج. وقد كتب الأول كتابه منذ اثنين وعشرين عاما ، والثانى منذ هذا الوقت تقريبا . وبذا يكون قد تقادم العهد بعض الشىء على الكتابين ، ولم يدركا بطبيعة الحال التطور الحديث الذى طرأ على القاهرة . هذا فضلا عن أن لكل منهما منهجه الذى يختلف عن منهج الكتاب الحالى . ومع ذلك فقد كان لهما فضل السبق ، والفضل كما يقولون للمتقدم

وكتبت عن القاهرة فى اللغات الأجنبية كتب قليلة ، أو وردت عنها اشارات فى كتب الرحالة الافرنج ، غير أن هؤلاء الكتّاب لم يكونوا دائما صادقى التعبير عن القاهرة ، فلأغلبهم أهداف خاصة من كتاباتهم ، ونواح معينة تستهويهم ، عندما يكتبون عن القاهرة ، أو عن مصر والمصريين ،

ليست صادقة تماما . هذا فضلا عن عدم احاطتهم بالمصادر الأصلية ، وجهل أكثرهم باللغة العربية وآدابها

غير أن للمستشرق الانجليزى ستانلى لينپول كتابا عن القاهرة هو The Story of Cairo كتبه عام ١٩٠٠ م ، أى أنه مضى على ظهوره قرابة ستين عاما ، وكان يعتبر من أحسن ماكتب عن القاهرة الى ذلك الحين. وقد نقل الى اللغة العربية عام ١٩٥٠ بعنوان (سيرة القاهرة) . كذلك ظهر عام ١٩٣٣ كتاب بالفرنسية عن القاهرة للأستاذ M.Clergé عالج النواحى الاقتصادية للقاهرة بافاضة واسهاب

لذلك كتبت كتاب القاهرة الحالى ، وعالجت فيه تطورها التاريخى حتى وقتنا الحاضر . ولهذا كان ضروريا أن أمهد للكلام عن القاهرة بذكر الحواضر التى سبقتها منذ الفتح العربى، وهى الفسطاط والعسكر والقطائع، ثم أتابع تطورها ونموها فى العهود اللاحقة بعد انشائها . وعالجت فى كل مرحلة من هذه المراحل النواحى الاقتصادية والاجتماعية والثقافية والفنية. وبهذا انقسم الكتاب الى تسعة أبواب هى :

١ ــ الفسطاط ، ٢ ــ العسكر ، ٣ ــ القطائع ، ٤ ــ القاهرة المعزية ، ٥ ــ قاهرة صلاح الدين ، ٦ ــ قاهرة المماليك ، ٧ ــ القاهرة فى عهد العثمانيين ، ٨ ــ القاهرة فى القرن التاسع عشر ، ٩ ــ القاهرة فى عهد الثورة

ثم اختتمت البحث بفصل عن قاهرة الغد ، أبنت فيه عن عيوب القاهرة والتخطيط المقترح لها . وقد قسمت كل باب الى فصول ، تعالج تطور المدينة ، وتشرح نواحيها الاقتصادية والاجتماعية والثقافية والفنية كما ذكرت آنفا

وهدف آخر حفزنى الى تأليف هذا الكتاب ، ذلك هو رغبتى فى أن يتسع أفق النظر ودائرة التفكير عند شبابنا ، الذين يقتصرون عند درسهم

تاريخ مصر الاسلامية على الأحداث التاريخية ، دون التوغل قليلا فى درس النواحى الاقتصادية والثقافية والفنية ، أو الالمام بصفة خاصة بما خلّفه الأقدمون من آثار وتحف . وقلّما يعنى هـذا الشباب بزيارة للمتحف الاسلامى ، القائم بين ظهرانينا ، فى قلب القاهرة ، لاستجلاء مفاتن الفن الاسلامى ، وتتبع أدوار تقدمه ورقيه . ونادرا ما يكلف نفسه عناء البحث عن منشىء هذا المسجد أو ذاك ، والعصر الذى شيد فيه ، ومكانه من الطرز الاسلامية المختلفة ، والدور الذى أداه فى عصره والعصور التالية فى النواحى الدينية والثقافية والاجتماعية . كما انه لا يعنى كثيرا أو قليلا بالبحث فى أحياء القاهرة الحالية ، وأسـواقها ، وشـوارعها ، وحاراتها ، وكيف تطورت ، والعادات الحالية ، ومتى نشأت ، وكيف تسللت الى عصرنا الراهن

ومن الغريب أن يعنى بكثير من هذه الأمور السائحون والرحالة الذين يتوافدون على القاهرة ، ولا يعيرها التفاتا شبابنا وكثير من المثقفين منـا

فلعل هذا الكتاب ، مع قصوره عن توضيح هذه النواحى كل الايضاح ، يغرى الشباب على البحث والقراءة والملاحظة وتقصّى الحقائق ، والكشف عن آثار السلف الصالح ، واظهار جهود العاملين ، من آبائنا الأقدمين ، فى شتى نواحى الحياة

وفضلا عن المتعة التى أرجو أن يشعر بها الشباب حينئذ ، فلا مشاحة فى أن هذه هى سبيل المواطن المستنير ، الذى يجب أن يلم بكل ما يتصل ببلاده ، ويعرف لها قدرها ومكانها فى نشر الحضارة والمدنية قديما ، بين أمم العالم ، عندما لم تكن حضارة سوى الحضـارة الاسلامية ، بينما كانت أوربا تتخبط فى ظلمات الجهل ، وتضرب فى بيداء الهمجية

ولست أطمع فى أن تصادف جميع فصول هذا الكتاب قبولا لدى جميع القراء ، ولكنى أعتقد أن ما من قارىء الا وسيجد ناحية فيه تستهويه ،

ومع ذلك فالمقدمات التاريخية ، التى يتقدم بها المؤلف لكل موضوع ، يتألف منها تاريخ مركز لمصر ، منذ الفتح العربى حتى الوقت الحاضر ، يهم القارىء المتعجل . كذلك تطور القاهرة فى عصورها المختلفة ، وتتبع الأحياء والشوارع الجديدة . وما تخلل ذلك من معلومات طريفة ، كلها نواح يحتاج الى معرفتها والالمام بها سكان القاهرة بصفة خاصة ، والمواطنون أجمعون بصفة عامة .

وأخيرا ، لقدشجع كثير من الزملاء المؤلف على المضى فى مجهوده المتواضع الحاضر ، الشاق فى نفس الوقت . ولولا هذا التشجيع ، لما قدر له الظهور الى عالم الوجود ، والوصول الى أيدى القراء ، لكثرة الأعباء الملقاة على عاتقه ، التى تتطلبها وظيفته ، وعمله فى التفتيش ، متنقلا عاما بعد آخر ، من اقليم الى اقليم ، ومن بلد الى بلد

ويرى المؤلف لزاما عليه أن يقر بفضل هؤلاء الزملاء ، والسادة العلماء ، الذين نقل عنهم ، واستقى من معينهم ، وأفاد من علمهم ، وترى أسماءهم مسطورة فى ثبت المصادر المسجلة فى نهاية الكتاب وفى حواشيه ، وهو يرجو للأحياء منهم طول العمر ، وموفور القوة ، ليتابعوا جهودهم فى أداء رسالتهم ، نحو العلم والمعرفة ، وللذين قضوا ، رحمة من الله ورضوانا

غير أنى أود أن أخص بالشكر وعرفان الجميل السيد الأستاذ حسن عبد الوهاب ، كبير مفتشى الآثار الاسلامية ، لبذله كثيرا من العون لى ، طواعية وعن طيب خاطر ، وتفضله بمراجعة كثير من فصول هذا الكتاب ، وامدادى بملاحظاته الثمينة ، وبكثير من الصور من مجموعته القيمة الحافلة ، والزميل الدكتور عبد الرحمن زكى الذى تفضل بالاطلاع على أصول الكتاب وكانت له ملاحظات قيمة أفدت منها كثيرا ، والزميل الأستاذ عبد العزيز عبد الحق المدير المساعد بادارة الثقافة لتطوعه لقراءة الكتاب ، قراءة أخيرة ، وافادتى من علمه الغزير ورأيه السديد

كما أشكر للسيدين الأستاذ صادق فرج فريج المدرس بمدرسة القربية الاعدادية لتفضله برسم بعض خرائط الكتاب ، والأستاذ محمد ابراهيم سيد أحمد المدرس الأول بمدارس المعلمين العامة لتفضله بامدادى ببعض الصور التى وردت فى الكتاب ، ومعاونته معاونة مشكورة فى عمل الكشاف المسطور فى نهاية الكتاب

والله أرجو ، واليه ابتهل أن يكلأ الكنانة برعايته ، والجمهورية العربية المتحدة بعين عنايته ، وأن يوفق القائمين على أمرها من نصر الى نصر ومن خير الى خير ، فيعظم شأنها ، وتثبت دعائمها ، ويمتد ظلها ويعلو فى السماء غرسها ، ويرتفع رأسها عاليا بين أمم الأرض ، انه سميع مجيب

شحاته عيسى ابراهيم

تمهيد

نشأة القاهرة وتطورها

تتألف القاهرة الحالية من أربع مدن قديمة ، كانت كل واحدة منها عاصمة حقبة من الزمان ، وتعاقبت فى الظهور ، الواحدة تلو الأخرى ، وتمثل كل منها طورا فى حياة العهد الاسلامى بمصر ، والنظم السياسية ، والحياة الاجتماعية والاقتصادية بها . هذه المدن هى على الترتيب : الفسطاط ، والعسكر ، والقطائع ، والقاهرة المعزية . والمشاهد أنها جميعا تقع فيما بين شاطىء النيل الشرقى وتلال المقطم . وكان طبيعيا أن تلى الواحدة الأخرى ناحية الشمال ، أو بعبارة أخرى أن يكون نمو القاهرة وامتدادها من الجنوب الى الشمال ، ما دامت تلال المقطم تقف حائلا دون نموها ناحية الشرق ، والنيل من ناحية الغرب . هذا اذا استثنينا الأرض التى كان النيل يطرحها على شاطئه الشرقى ، بعد أن يتحول ناحية الغرب ، اذ المعروف أن النيل كان يحف بجدران جامع عمرو وقت انشائه ، ولكنه ابتعد عنه اليوم مسافة تزيد على خمسمائة متر

فالفسطاط أول حاضرة لمصر الاسلامية ، وأقدم الحواضر الاسلامية بمصر جميعا . أنشأها عمرو بن العاص عقب فتحه لمصر سنة ٢٠ هـ (٦٤١م) . وظلت مركز السيادة طوال عصر الخلفاء الراشدين ، والدولة الأموية . فلما أفل نجم الأمويين ، ودالت دولتهم ، وقامت على أنقاضها دولة بنى العباس ، أنشأ أبو عون عبد الملك بن يزيد ، والى مصر من قبل الخليفة أبى العباس عبدالله السفاح ، أول الخلفاء العباسيين مدينة العسكر سنة ١٣٣هـ (٧٥١م) واتخذها قصبة لولايته

ولما آل حكم مصر الى الأمير أحمد بن طولون ، أنشأ له عاصمة جديدة

سنة ٢٥٦ هـ (٨٧٠ م) ، هى مدينة القطائع ، وظلت كذلك طوال عصر الطولونيين والاخشيديين

فلما غزا الفاطميون مصر ، كان أول ما قام به جوهر الصقلى ، قائد المعز لدين الله الفاطمى ، بعد أن امتلك زمام مصر ، وأخضعها لنفوذ الفاطميين ، أن أنشأ عاصمة جديدة سنة ٣٥٨ هـ (٩٦٩ م) . تلك هى القاهرة المعزية ، التى انتقلت اليها حاضرة ملك الفاطميين ، ومركزسيادتهم من شمالى افريقية . وانتشر فى الخافقين صيتها ، وذاعت شهرتها ، حتى فاقت بغداد وقرطبة ، وصارت فى وقت من الأوقات عاصمة العالم الاسلامى بأسره ، ومركز تلاقى شعوبه ، ومبعث النشاط والثقافة والعلوم الاسلامية

فلما قضى صلاح الدين الأيوبى على الدولة الفاطمية ، وأنشأ دولته لأيوبية ، شرع يجمع العواصم الأربع سنة ٥٧٢ هـ (١١٧٦ م) فى صعيد واحد ، ليتخذ منها عاصمة موحدة ، تتفق وجلال امبراطوريته ، وعظمة ملكه . ولهذا الغرض ، ولكى تكون قادرة على رد هجوم الأعداء ، والصمود أمام غارات المغيرين ، أخذ يحيطها بسور عظيم . ولكنه توفى قبل اتمامه ، فأتمه خلفاؤه من بعده . ويمتد من أثر النبى ، جنوبى الفسطاط وينتهى عند قلعة المقس (١)

ظلت القاهرة منذ عهد الفاطميين حتى الوقت الحاضر عاصمة البلاد ، وحاضرة الملك ، ومركز السيادة فيها ، ولم يقتصر تخطيطها على الحدود التى حددت بها وقت أن أنشأها الفاطميون ، بل ظلت تمتد شمالا وغربا مسافات طويلة ، ولم يقف النيل عقبة فى سبيل امتدادها غربا ، بل انها تزداد مساحة ، عاما بعد عام ، ويتوالى زحفها باستمرار ، حتى تلاقت بحدود مديريتى الجيزة والقليوبية ، وذلك بفضل ما أنشىء على النيل من

---

(١) يحدد مكانها المرحوم العلامة محمد (بك)رمزى بعمارتى الاوقاف وراتب (باشا) المجاورتين لجامع أولاد عنان ، من الجهة البحرية الشرقية بميدان باب الحديد — حاليا ميدان رمسيس — (حاشية رقم ٤ ص ٣٩ ج ٤ من كتاب النجوم الزاهرة لابن تغرى بردى)

قناطر (كبارى) ربطت بين شاطئى النيل ، وجعلت امتداد القاهرة ناحية الغرب أمرا ميسورا وضروريا ، لمقابلة الزيادة المطردة فى عدد السكان

هـذه نظرة عابرة ، تصور تاريخ القاهرة ، وأدوار تطورها ، والآن نتناول ما أجملنا بالشرح والتفصيل

الباب الأول

الفسطاط

– ١ –

لما أتم عمرو بن العاص فتح مصر سنة ٢٠ هـ (٦٤١ م) (١) ، وأجلى الروم عن الاسكندرية ، آخر معقل لهم بمصر ، وانقشع كل أمل لهم (٢) فى مزاحمة العرب على امتلاكها ، عندئذ انصرف القائد العربى الى تنظيم البلاد تنظيما يتفق ومقتضيات العهد الجديد ، الذى تستقبله البلاد ، ألا وهو العهد الاسلامى المبارك . فكان فى مقدمة ما عنى به من الأمور تخير مكان يرابط فيه جيشه ، وليكون مقرا لحكم البلاد ، بعد أن نهاه الخليفة عمر بن الخطاب عن المقام بالاسكندرية ، حاضرة الروم فى مصر (٣)

اختيار موقع الفسطاط :

والواقع أن الاسكندرية وان اتفقت مع حكم الروم لمصر ، فلم تكن لتتفق بحال من الأحوال مع حكم العرب : فوقوعها فى أقصى شمال مصر ، جعلها أقرب الى روما أو بيزنطة (القسطنطينية) من أى بلد مصرى آخر . ولكنها أبعد من أى بلد من البلاد المصرية ، بالنسبة الى المدينة المنورة ، قصبة الدولة العربية ، التى صارت مصر لها تبعا . يضاف الى ذلك أنها فى موضع يشق على الجنود العربية أن تشخص منه الى أطراف القطر ، اذا ما دعا الى ذلك داع سريع . كذلك الأمر بالنسبة للوالى ، فانه يصعب

(١) بتلر : فتح العرب لمصر ، تعريب الاستاذ محمد فريد ابى حديد ، ص ٢٨٩

(٢) الواقع ان الروم لما تبدد أملهم تماما فى استعادة مصر ، حاولوا ذلك فى عهد عبد الله بن سعد بن ابى سرح فى موقعة ذات الصوارى التى حدثت بالقرب من الساحل الجنوبى لآسيا الصغرى ، والتى منوا فيها بالهزيمة سنة ٣٤ هـ (٦٥٥ م)

(٣) كتب عمر بن الخطاب الى سعد بن ابى وقاص ، وهو نازل بمدائن كسرى ، والى عامله بالبصرة ، والى عمرو بن العاص وهو نازل بالاسكندرية : « الا تجعلوا بينى وبينكم ماء ، متى أردت ان اركب اليكم راحلتى حتى اقدم عليكم قدمت » ، فتحول سعد من مدائن كسرى الى الكوفة ، وتحول صاحب البصرة من المكان الذى كان فيه فنزل البصرة ، وتحول عمرو بن العاص من الاسكندرية الى الفسطاط — (المقريزى : الخطط ، الجزء الثانى ص ٧٦)

عليه أن يشمل البلاد جميعها بعين ساهرة ، من مكان قصى كالاسكندرية جال عمرو ببصره فى أنحاء البلاد ، فوقع اختياره على السهل الذى يلى بابليون الحصن الرومانى الشهير ، من ناحية الشمال ، والذى يحده جبل المقطم من شرقيه ، ويقع النيل فى غربيه ، وهو الذى كان يعسكر فيه بجنوده ، ابان فتح الحصن . وقد كانت تقوم تجاه هـذا الموضع ، فى الضفة المقابلة للنيل ، مدينة منف القديمة ، فصار النيـل يربط العاصمة القديمة بالعاصمة الحديثة ، وان فرقت بينهما القرون والأجيال

وقد أطلق على ذلك المكان اسم الفسطاط ، وهو الذى صـار نواة العاصمة الجديدة . وقبل أن نمضى فى تحديد موضع الفسطاط ، ووصف خططها ودورها ، والحياة بها ، يجدر بنا أن نعرض لهذه التسمية ومنشأها ، وما أحاط بها من آراء

تسمية الفسطاط :

يروى المؤرخون العرب فى سبب تسمية الفسطاط بهذا الاسم قصـة ملخصها أن عمرا لما أراد التوجه لفتح الاسكندرية ، أمر بنزع فسطاطه ـ أعنى خيمته ـ فاذا فيه يمامة قد فرخت . فقال عمرو : « لقد تحـرم منا بمتحـرم » فأمر به فأقـر كما هو ، وأوصى صاحب القصر به . فلما قفل المسلمون من الاسكندرية ، قالوا : «أين تنزل؟» قالوا : «الفسطاط» يعنون فسطاط عمرو ، الذى خلفه بمصر ، مضروبا لأجل اليمامة ، فغلب عليه ذلك (١)

ولكن مؤرخى الفرنجة ، ومن نحا نحوهم ، ينكرون هـذه القصة ، ويرون أنها من نسج الخيال، ويشكون فى تأويل كلمة الفسطاط بالخيمة (٢). ومبعث ذلك عندهم انهم يرتابون فى أن العرب استخدموا الخيام فى حروبهم فى ذلك الوقت (٣) ويرجعون كلمة الفسطاط الى اللفظ اليونانى (فسّاطم)

---

(١) النجوم الزاهرة لابن تغرى بردى ، ج ١ ص ٦٤ . والخطط للمقريزى ، ج ٢ ص ٧٥
(٢) بتلر : فتح العرب لمصر ، تعريب الاستاذ محمد فريد أبى حديد ص ٢٩٤
(٣) المصدر السابق : هامش ٢ ص ٢٩٥

المشتق من اللفظ اللاتينى Fossatum، والذى يطلقه الرومان على معسكراتهم الحربيــة (١) ، أو المدن الحصــينة ، وقد سمعه العرب من الروم عند فتح الشام ، أو عند حصارهم لحصن بابليون

ورفض قصة اليمامة لمجرد شك من جانب مؤرخى الفرنجة هو تعسف لايبيحه منطق . بل ان الذى يؤيده التاريخ عكس ما يذهب اليه هؤلاء . فقليل من المعرفة بحياة البدو وعاداتهم لا تترك شكا فى أن العرب اتخذوا الخيام مساكن لهم ، وبيوتا يأوون اليها فى الصحراء . وتلك ميزة تميز بها سكان البــادية عن سكان الحضر « والله جعل لكم من بيوتكم سكنا ، وجعل لكم من جلود الأنعام بيوتا تستخفونها يوم ظعنكم ويوم اقامتكم ، ومن أصوافها وأوبارها وأشعارها أثاثا ومتاعا الى حين »

واذا كانوا قد أفادوا من الخيام فى وقت السلم ، فأحر بهم أن يفيدوا منها فى حروبهم ، لاسيما اذا كانوا يحاربون فى قطر غير قطرهم ، وبلاد هم غرباء عن أهلها ، وليس لهم ما يأوون اليه فيها سوى ما يحملون من خيام . ولاشك أن عمرا كان يتخذ لنفسه واحدة منها ، هى التى أفرخت اليمامة فيها

وهنالك مع ذلك أدلة تاريخية تثبت أن العرب استخدموا الخيــام فى حروبهم ، قبل فتحهم مصر ، فقد جاء فى السيرة الحلبية فى الكلام عن غزوة الطائف ما ننقله بحروفه « وكان معه صلى الله عليه وســلم من نســائه أم سلمة ، وزينب ، رضى الله تعالى عنهما ، فضرب لهما قبتين ، وكان يصلى بين القبتين الصلاة مقصورة ، مدة حصار الطائف ، وكانت ثمانية عشر يوما ودخل صلى الله عليه وسلم خيمة أم سلمة ، وعندها أخوها عبد الله ... الخ » (٢)

فالشك فى أن العرب استخدموا الخيام فى حروبهم ، وقت فتحهم مصر ، مردود ، ولا محل له ، وليس ثمة شك فى أنه كان لعمرو فسطاط أو خيمة ،

---

(١) مصر فى فجر الاسلام لسيدة اسماعيل كاشف ص ٢٤٤
(٢) السيرة الحلبية ــ الجزء الثالث ص ١٣٣

يقيم فيها فى أثناء حصار العرب لحصن بابليون ، وبذلك يسقط اعتراض مؤرخى الفرنجة على قصة اليمامة ، وهى لاشك صحيحة ، ولا يضيرها أن كلمة فسطاط تعنى أيضا « مجتمع الناس » أو « المدينة الحصينة » وأن العرب سموا هذه المعانى عند فتحهم الشام ، أو عند حصارهم لحصن بابليون ، وأن بعض الحروف فى كلمة Fossatum تتفق وحروف كلمة فسطاط ، فليس ذلك يمنع من أن تكون قصة اليمامة صحيحة

— ٢ —

والآن نمضى الى تحديد موقع العاصـــمة الجـديدة ، وذكر كلمة عن خططها ، ومبانيها ، واتساع رقعتها ، وذيوع شأنها . وليس من شك فى أنه من الصعوبة بمكان أن يحاول المرء رسم حدود دقيقة لمدينة انقضى على انشائها نيف وثلاثمائة وألف سنة مثل مدينة الفسطاط لسببين رئيسيين :

أولا : ان هـــذه المدينة لم تظل على حالها الأول حين خططت فى عهد عمرو بن العاص ، فلم يكن عمرو يبغى منها سوى أن تكون مقرا لعسكره ، ومقاما لقواده وأعوانه . ولم يدر أنه يضع أساس عاصمة جديدة للبلاد ، ما لبثت أن صارت مقر الحكومة ، ومبعث النشاط الأقتصادى فى القطر كله ، ومركزا هاما من مراكز الحياة العلمية والفنيـــة فى العالم الاسلامى بأسره . فأخذ هذا المعسكر بطبيعة موقعه الجغرافى يمتد شمالا ، اذ كان الجبل يحول دون امتداده شرقا ، كما يحول النيل كذلك دون امتداده غربا

ثانيا : اندثار كثير من المعالم التى يمكن الاستدلال بها على تحديد موقعها . فالروايات التاريخية التى تحدد موقع مدينة الفسطاط ، وفى مقدمتها رواية المقريزى ، انما تحدد موقعها بعد انشائها بقرون عدة ، تزيد على ستة قرون ، وبعد أن وصلت الى أوج عزها ، ثم توالت عليها صروف الزمان ونوائبه . ومع بعد الشقة بين عصر المقريزى والعصر الذى بنيت فيه المدينة ، فقد كانت روايته فى تحديد موقع الفسطاط وما زالت أساسا

لجميع من حاولوا الكشف عن آثارها ، وفى مقدمة هؤلاء المرحوم على بهجت سنة ١٩١٤ م (١)

ويقول المقريزى : « ان مدينـــة مصر محدودة بحدود أربعة ، فحدها الشرقى اليوم ــ أى سنة ٨٢٠ هـ (١٤١٧ م) ــ من قلعة الجبل ، وأنت آخذ الى باب القرافة ، فتمر من داخل السور الفاصل بين القرافة ومصر الى كوم الجارح ، وتمر من كوم الجارح وتجعل كيمان مصر كلها عن يمينك حتى تنتهى الى الرصد ، حيث أول بركة الحبش (٢) تحت الرصد ، حيث انتهى الحد الشرقى ، فهذا عرض مصر من جهة الجنوب التى يسميها أهل مصر الجهة القبلية . وحدها البحرى من قناطر السباع حيث ابتدأ الحد الغربى الى قلعة الجبل ، حيث ابتدأ الحد الشرقى ، فهذا عرض مصر من جهة الشمال ، التى تعرف بمصر بالجهة البحرية . وما بين هذه الجهات الأربع يطلق عليه الآن مصر »

وقد انتهى المرحوم على (بك) بهجت (٣) بعد تطبيقه رواية المقريزى السابقة على بقايا الفسطاط ، ومقارنة المبانى التى وجدت فى وسطها بتلك التى وجدت فى أطرافها ، الى تحديد الفسطاط على النحو الآتى :

الحد الشمالى : ويقع بين كوم الجارح وقنطرة السد

الحد القبلى : ويمتد ما بين الرصد (٤) ــ وكان قائما على ذروة الشرف المطل على بركة الحبش ــ وشاطىء النيل غربا

الحد الغربى : الشاطىء الأيمن للنيل ، وهذا الحد كان يتنقل على تتابع السنين مع تنقل الجسر نحو الغرب

الحد الشرقى : وكان يمتد فيما وراء الحد الذى عينه المقريزى ، أى الى حدود القرافة الحالية ، ويسير جنوبا حتى الرصد

(١) انظر كتاب حفائر الفسطاط للمرحوم على (بك) بهجت
(٢) موضع هذه البركة اليوم منطقة الاراضى الزراعية التابعة لزمام قرية دير الطين وزمام قرية البساتين
(٣) انظر « حفائر الفسطاط » ص ٢٥ ــ ٢٧
(٤) الرصد مكان رصد الكواكب والنجوم على المرتفع المطـــــل على بركة الحبش الذى امر بتشييده الافضل شاهنشاه بن بدر الجمالى

ولقد استمرت الفسطاط عاصمة للديار المصرية ودارا للامارة ، ينزل بها أمراء مصر ، حتى بنيت العسكر، بظاهر الفسطاط سنة ١٣٣ هـ (٧٥١ م) ، فنزل فيها أمراء مصر وسكنوها. فلما شيد أحمد بن طولون مدينة القطائع، سنة ٢٥٦ هـ (٨٧٠ م) وأقام فيها ، سكنها أمراء مصر أيضا ، وظلوا يسكنونها الى أن انقرضت دولة بنى طولون ، فعادوا الى العسكر، وأقاموا بها الى أن قدم الى مصر جوهر الصقلى ، قائد المعز لدين الله الفاطمى ، وشيد القاهرة . غير أن الرعية استمرت تسكن الفسطاط ، التى بلغت من وفرة العمارة وكثرة السكان ما جعلها من أكبر المدن العالمية اذ ذاك

حريق الفسطاط :

وما زالت الفسطاط فى نمو وازدهار حتى قدم الى مصر أمورى ملك الصليبيين ، ونزل بجنوده على بركة الحبش ، يريد الاستيلاء على الفسطاط والقاهرة ، فأمر شاور بن مجير السعدى وزير العاضد الفاطمى الناس باخلاء الفسطاط ، واللحاق بالقاهرة . فارتحلوا عنها وساروا بأسرهم الى القاهرة ، حاملين معهم ما خف حمله ، وغلا ثمنه « وبلغ كراء الدابة من مصر الى القاهرة بضعة عشر دينارا ، وكراء الجمل الى ثلاثين دينارا ، ونزلوا بالقاهرة فى المساجد والحمامات والأزقة وعلى الطرقات » (١)

وأمر شاور باحراق الفسطاط سنة ٥٦٤ هـ (١١٦٨ م) ، وأرسل لذلك « عشرين ألف قارورة نفط ، وعشرة آلاف مشعل نار ، فرق ذلك فيها ، فارتفع لهب النار ودخان الحريق الى السماء ، فصار منظرا مهولا ، واستمرت النار تأتى على مساكن مصر لتمام أربعة وخمسين يوما » (٢)

فلما رحل أمورى عن البلاد أخذ الناس يعودون الى الفسطاط ، ويصلحون ما تلف من أبنيتها شيئا فشيئا . ولكن ذلك كان قاصرا على القسم الغربى من الفسطاط ، فيما بين جامع عمرو وشاطىء النيل . أما القسم الشرقى منها فظل خرابا حتى يومنا هذا ، وفى ذلك يقول المقريزى :

---

(١) الخطط للمقريزى ، ج ٢ ص ١٤٣
(٢) المصدر السابق ، ج ٢ ص ١٤٣

« ولم تزل الفسطاط فى نقص وخراب الى أيامنا هذه » أى حتى القرن الخامس عشر الميلادى

تخطيط الفسطاط (١) :

وبعد أن وضع عمرو بن العاص أساس جامعه سنة ٢١هـ (٦٤١ـ٦٤٢م) ، وكل الى أربعة من قواده تخطيط الأرض حول الجامع الى خطط ، وانزال كل قبيلة بخطتها ، وهم (٢) : معاوية بن حديج التجيبى ، وشريك بن سُمَىّ الغُطيفى، وعمرو بن قحزم الخولانى ، وحيويل بن ناشرة المعافرى. فأخذت كل قبيلة فى بناء مساكنها ، وكانت بسيطة فى عمارتها وتخطيطها ، يتكون كل منها من طابق واحد . وكان لكل قبيلة مسجدها الذى تقام فيه الصلوات الخمس . أما جامع عمرو ، فهو المسجد الجامع الذى تقام فيه الصلوات الجامعة ، وهى صلاة الجمعة ، وصلاة العيدين . كما كان يجتمع فيه الوالى بعماله وقواده للنظر فى شئون البلاد ، ويفصل فى المظالم التى ترفع اليه ، ويخطب الناس كلما اقتضى الأمر . وكان يجلس فيه القضاة للقضاء ، بعد أن فصلت وظيفة القضاء عن الوالى . ويحضر فيه النـاس دروسا فى الدين والحديث والفقه عن أعلام المسلمين والمتفقهين فى الدين ، لتبصير الناس بأمر دينهم ودنياهم

ومن تلك الخطط خطة مهرة ، وخطة تـجيب ، وخطط لخم وجـذام وخطة بنى بحر وهم قوم من الأزد ، وخطة ثقيف وخطة غافق وخطة حضرموت ، وخطة يَحْـصب ، وخطة المعافر ، وخطة سبأ ، وخطة بنى وائل وخطة القـبَض ، وخطة مَذحج ، وخطة بنى غُطيف وبنى وعلان وخطة بَلِى ، وخطة خَوْلان، وخطة الصدف ، وخطة غَنَب ، وخطة سلامان ، وخطة

(١) تقول بعض المصادر ، ومن بينها ابن تغرى بردى ، ان عمرا وضع أساس الفسطاط أولا ثم اخذ فى بناء الجامع بعد ذلك . وتقول مصادر اخرى عكس هذا . ولكن مادام لا يوجد ما يرجح رواية على أخرى ، فالمعقول ان يكون اول ما بدأ به عمرو هو بناء الجامع ، اذ هو اول ما يعنى به المسلمون : لاقامة الصلاة ، ولاجتماع رؤساء الجيش وامرائه ، لتدبير شئون البلاد ، وادارة امورها

(٢) النجوم الزاهرة ، ج ١ ص ٦٥

السُّلَف ، وخطة رُعَين ، وخطة الكَلاع ، وخطة نافع ، وخطة مراء ، وخطط الحمراوات والفارسيين (١) وأغلب أصحاب تلك الخطط من عرب الجنوب أو اليمنية . أما عرب الشمال أو قيس فكانوا أقلية ضئيلة . وانما تكاثروا فى عهد هشام بن عبد الملك (١٠٥ ــ ١٢٥ هـ) ، حيث انتقلت الى مصر بطون كثيرة منها . ولكنهم لم ينزلوا الفسطاط وانما نزلوا الحوف الشرقى

وقد عرف من بين تلك الخطط خطة أهل الراية ، وهم جماعة من قريش والأنصار وخزاعة ، وتمتد من جامع عمرو جنوبا حتى قصر الشمع ، وخطة مهرة ، وتقع الى الجنوب الشرقى من خطة أهل الراية ، كما كان لها خطة أخرى على جبل يشكر ، وخطة تجيب ، وتقع الى الجنوب الشرقى من مهرة ، وخطط لخم وهى ثلاث ، أهمها تلك التى تقع فى الشمال الشرقى من جامع عمرو . وخطة اللفيف ، وكانت تلاصق خطة أهل الراية . وخطة وعلان فى جنوبى قصر الشمع . وقد أفرد لغير العرب ، وهم الذين لقبوا بالحمراء خطط ثلاث ، تمتد من جامع عمرو حتى جبل يشكر ، الذى سكنته احدى هذه القبائل ، ولذا سمى باسمها ، وهذه الخطط الثلاث هى الحمراء العليا والحمراء الوسطى وتقعان داخل حدود الفسطاط ، والحمراء الدنيا أو القصوى ، وتقع خارج حدود الفسطاط الأصلية ، من ناحية الشمال

ولعله من المفيد أن نشير هنا الى أن لفظ خُط ، الذى ظل مستعملا الى عهد قريب ، هو نفس لفظ خِطة ، الذى استعمل وقت الفتح وما تلاه ، ولكن بعد ضم أوله وحذف التاء من آخره . فقد كان يقال خُط المغربلين ، وخط السيدة نفيسة ، وخط الحسينية وهكذا

تراجع النيل :

ولا يتبادر الى الذهن أن شاطىء النيل الحالى من جهة الشرق هو نفسه الذى كان موجودا وقت انشاء مدينة الفسطاط . فالشاطىء الحالى يبعد

(١) خطط المقريزى ، ج ٢ ص ٧٦ ــ ٨٠

عن الشاطىء القديم بنحو خمسمائة متر ، انتقلها الشاطىء القديم نحو الغرب (١) . وهذه ظاهرة جغرافية تمتاز بها الأنهار فى مجاريها الدنيا ، اذ يضعف التيار هنا ، فينحت فى الجانب الغربى ، ويبنى فى الجانب الشرقى ، عا يجلبه معه من رواسب وطمى ، وبهذا الشكل تزداد مساحة الأرض فيما جاور الساحل الشرقى ، بينما يتسع المجرى فى الساحل الغربى . وهـذا ما حدث بالفعل للنيل فى المنطقة الممتدة حاليا من ساحل أثر النبى بمصر القديمة حتى روض الفرج . فقد روت المصادر التاريخية أن حصن بابليون وقت الفتح ، وجامع عمرو ، كانا يشرفان على النيل . كذلك قرية أم دنين ، التى كانت تقع فى مكان جامع أولاد عنان الحالى ، كانت هى الأخرى تشرف على النيل . وأن المقوقس ، عندما شرع يفاوض عمرو بن العاص فى شروط التسليم ، خرج من باب الحصن الغربى ، الذى كان يعرف بباب الحديد ــ وكان مشرفا على النيل ــ وركب زورقا عبر به النيل الى جزيرة الروضة على الضفة الغربية . وهذا الباب الذى يوجد اليوم فى كنيسة المعلقة ، يبعد عن النيل حاليا بنحو خمسمائة متر ، كما يبعد جامع عمرو عن النيل بنفس المسافة

مدينة مصر :

ومن هنا يظهر أن المنطقة ما بين جامع عمرو وسيالة الروضة قد استحدثت منذ الفتح العربى لمصر (٢) . وأن الفسطاط الأصلية تقع شرقى خط يمتد من جامع عمرو الى قصر الشمع ، الذى تعرف بقـاياه اليوم بالكنيسة المعلقة ، وقد شمل هذا الاسم أيضا المنطقة المستجدة ، الواقعة غربى هذا

---

(١) انظر مقال الجغرافية التاريخية لمدينة القاهرة للمرحوم الاستاذ محمد رمزى بمجـلة العلوم ، السنة التاسعة ، المجلد الخامس ص ٦٤٨

(٢) وقد استمر تحول النيل نحو الغرب فيما جاور هذه المنطقة منذ سنة ٢٠ هـ (٦٤١ م) حتى قدوم الحملة الفرنسية الى مصر سنة ١٧٩٨ م ، وتخلف عن ذلك اراض جديدة أضيفت الى القاهرة ، من بينها خطط اللوق ، وبولاق ، والمنطقة الواقعة حول مستشفى قصر العينى ، ومدرسة الطب ، والسيدة زينب ، وخطة محطة مصر (ميدان رمسيس) ، وانمـا يصعب تحـديد مراحل هذا التحول تحديدا زمنيا دقيقا ، كما يصعب تحديد وقت ظهور كل من هذه الخطط

الخط حتى سيالة الروضة . وقد ظلت هذه التسمية حتى آخر القرن السابع الهجرى (الثالث عشر الميلادى) . فلما استولى الخراب على القسم الشرقى ، اختفى اسم الفسطاط ، وحل محله اسم مدينة مصر ، التى تعرف اليوم باسم مصر القديمة (١)

جامع عمرو :

وجامع عمرو، ويسمى تاج الجوامع ، أوالمسجد العتيق ، هو أول مسجد أنشيء فى مصر ، كانت مساحته وقت انشائه (٥٠ × ٣٠ ذراعا) أو (٢٩×١٧مترا) . وأرضه يغطيها الحصى ، وكان سقفه المنخفض ، المصنوع من الجريد ، محمولا على دعامات من جذوع النخل . ولم يكن له صحن أو مئذنة أو محراب . وقد شيد له عمرو منبرا . ولكن الخليفة عمر أمره بازالته ، قائلا له : « أما بحسبك أن تقوم قائما ، والمسلمون جلوس عند عقبيك؟» . وكانت له ستة أبواب ، بابان فى كل جانب ، ماعدا جانب القبلة. وبلغ الضيق بالمصلين أنهم كانوا يصطفون وقت الصلاة خارج المسجد . وقد كان يحيط به من الخارج طريق عرضه سبعة أذرع فى بعض الجهات

فأنت ترى من وصف جامع عمرو انه كان بدائيا فى تصميمه وبنائه . وان البناء الحالى يختلف عن الجامع الأصلى اختلافا تاما . فقد هدم عدة مرات ، وفى كل مرة يعاد بناؤه ، ويزاد فى مساحته ، ويعدل تخطيطه . ويضيق المقام هنا عن تتبع المراحل التى مر بها حتى وصل الى شكله الحاضر . ولكنه مما لاريب فيه أن من أهم التعديلات تلك التى أدخلت عليه فى عهد «قــرة بن شريك» والى مصر من قبل الخليفة الأموى الوليد ابن عبد الملك سنة ٩٣ هـ (٧١٠ م) ، اذ هدمه وزاد فى مساحته ، وأنشأ فيه محرابا مجوفا « مقعرا » . ومنبرا خشبيا ، ومقصورة . وصار للجامع أربعة أبواب ، فى كل من الواجهتين الشرقية والغربية ، وثلاثة فى الواجهة البحرية . ولم يصل المسجد الى مساحته الحالية (١١٢٫٥×١٢٠٫٥ مترا)

(١) المقال سالف الذكر للمرحوم الاستاذ محمد رمزى

الا فى سنة ٢١٢ هـ (٨٢٧ م) ، فى عهد عبد الله بن طاهر ، والى مصر من قِبَل الخليفة العباسى المأمون ، فقد زاد فى مساحته الى الضِّعف ، وكانت هذه الزيادة خاتمة الزيادات

وقد توالت على هذا المسجد عهود من الرعاية ، وأخرى من الاهمال : ففى عهد كان مكانا لاجتماع الباعة ، ولعب الأطفال والمهرجين . وفى آخر ازيّن ، واستكمل زخرفه ، وحفل بالمصلين وطلاب العلم ، مما استحق معه أن يسمى بتاج الجوامع

وقد زار ناصر خسرو ، الرحالة الفارسى مصر من سنة ٤٣٧ الى سنة ٤٣٩ هـ (١٠٤٥ ــ ١٠٤٧م) فى عصر الخليفة المستنصر الفاطمى ، وشاهد جامع عمرو. ومما ذكره فى وصفه «أنه قائم على أربعمائة عمود من الرخام، والجدار الذى عليه المحراب مغطى كله بألواح الرخام الأبيض التى كتبت عليها آيات من القرآن بخط جميل . وتحيط بالمسجد الأسواق من جهاته الأربع ، وعليها تفتح أبوابه » (١) وقال أيضا : « وكان يوقد فى ليالى المواسم أكثر من سبعمائة قنديل ، ويفرش بعشر طبقات من الحصير الملون ، بعضها فوق بعض . ويضاء كل ليلة بأكثر من مائة قنديل . وهو مكان اجتماع سكان المدينة الكبيرة . ولا يقل من فيه فى أى وقت عن خمسة آلاف من طلاب العلم والغرباء ، والكتاب الذين يحررون الصكوك والعقود وغيرها » (٢)

وفى سنة ٥٦٤ هـ (١١٦٨ ــ ١١٦٩ م) لحق بجامع عمرو من جراء حريق الفسطاط أضرار بالغة . فلما آل مُلك مصر الى صلاح الدين الأيوبى سنة ٥٦٨ هـ (١١٧٢ م) رَمَّم الجامع ، وجدد بعض أجزائه ، وأعاد بياضه

وفى سنة ٧٠٢ هـ (١٣٠٢ ــ ١٣٠٣م) حدث زلزال أضر بكثير من مبانى القاهرة ، فتشققت جدران جامع عمرو ، وانفصلت أعمدته بعضها عن بعض.

---

(١) و (٢) سفرنامة لناصر خسرو علوى ، تعريب الدكتور يحى الخشاب ص ٥٩

فعهد الناصر محمد بن قلاوون الى الأمير سلار ، نائب السلطنة فى تعمير الجامع تعميرا شاملا . ومن آثار هذه العمارة الشبابيك الجصية بالواجهة الغربية ، والمحراب الجصى الخارجى فى هذه الواجهة ، الحافل بالزخارف والكتابات النسخية

وفى سنة ١٢١٢ هـ (١٧٩٧ م) أمر مراد بك ، والى مصر باصلاح المسجد، اذكانت أعمدته قد مالت وأواوينه قدسقطت.غيرأنه غير اتجاه عقود الأروقة ، فجعلها عمودية على جدار القبلة ، وبذلك سدت الشبابيك . والمنارتان الباقيتان الى اليوم هما من آثار عمارته ، التى تمت فى أواخر شهر رمضان من هذه السنة ، فصلى فيه آخر جمعة من ذلك الشهر ، فدرج ولاة مصر منذ ذلك التاريخ ، الى عهد قريب ، على صلاة الجمعة الأخيرة من شهر رمضان فى هذا الجامع .وقد كان هذا التقليد متبعا أيضا فى عهد الفاطميين .

دار عمرو الكبرى وداره الصغرى :

وكان عمرو قد بنى لنفسه دارا شرقى المسجد عرفت باسم دار عمرو الكبرى ، وبنى عبد الله بن عمرو لنفسه دارا أخرى ، تلاصق دار أبيه من جهة الشمال ، وقد عرفت بدار عمرو الصغرى . وفى غربى هذه الدار بنى الزبير بن العوام لنفسه دارا ولكنها هدمت جميعا ودخلت فى مساحة المسجد عندما ضاعف عبد الله بن طاهر من مساحته

— ٣ —

ظلت الفسطاط عاصمة للديار المصرية منذ نشأتها سنة ٢١ هـ (٦٤١م) حتى سقوط الدولة الأموية ، وقيام الدولة العباسية سنة ١٣٣ هـ (٧٥٠م). وقد نشأت الفسطاط فى أول أمرها بسيطة التخطيط والمبانى ، ولكنها ما لبثت أن ازداد عمرانها ، وكثرت دورها ، وحسنت عمارتها ، وتعددت

شوارعها وطرقاتها ، وعمرت أسـواقها ، وتقدمت صناعاتها ، وحفلت بالفقهاء والمحدثين وأهل العلم . وبالجملة فقد أصبحت مدينة عامرة ، طار صيتها ، وطبقت الخافقين شهرتها ، واجتذبت اليها الزائرين والسائحين من مختلف أنحاء العالم

المباني :

وكانت الدور فى أول الأمر تبنى من اللّبِن ، ومن طبقة واحدة ، كما هو الحال اليوم فى كثير من ريف مصر . ويحكى عن خارجة بن حذافة أنه بنى غرفة فوق داره فنهاه الخليفة عمر بن الخطاب عن ذلك ، وكتب الى عمرو بن العاص يقول : « سلام ، أما بعد ، فانه بلغنى أن خارجة بن حذافة بنى غرفة ، ولقد أراد خارجة أن يطلع على عورات جيرانه ، فاذا أتاك كتابى هذا فاهدمها ان شاء الله والسلام » (١)

ثم أخذت عمارة الدور فى التقدم بالتدريج ، متمشية مع مقتضيات الأحوال ، وسنة التقدم والرقى ، وحاجيات السكان ، وقد دلت أعمال التنقيب التى قام بها المرحوم على بهجت سنة ١٩١٤ م . فى حفائر الفسطاط أن الدور « قوامها الآجر ــ الطوب المحروق ــ تتخلله حامات ثخينة ، ومونة متخذة من الجير والقصرمل ، أو من الجير والحمرة ، وبلاط من الحجر الجيرى ، وأنابيب مصنوعة من الفخار ، وشباك من المجارير المنقورة فى الصخر » (٢)

وتشتمل بعض هذه الدور على أفنية بوسطها فسقيات تصل اليها المياه ، وتنصرف منها فى مجار مبلطة . وتحيط بتلك الأفنية أروقة وقاعات وغرف ، بعضها لسكنى الحريم ، والبعض الآخر للاستقبال. كما يحددها من الجنوب أحواض الزهور ، وتظللها من جهة الغرب الأشجار (٣)

(١) فتوح مصر لابن عبد الحكم ، ص ١٠٤
(٢) حفائر الفسطاط ، للمرحوم على بهجت ص ١٣١
(٣) المصدر السابق ، ص ٧٦

ولكن يجب أن يكون مفهوما أن الدور التى كشفت عنها هذه الحفائر لايمكن أن ترجع الى عصر الفتح ، وانما ترجع الى عصر ازدهار الفسطاط ، وبلوغها أوج عزها ، حوالى القرن الرابع الهجرى (العاشر الميلادى)

وكانت المبانى تزخرف بوضع الآجر على هيئات مخصوصة ، ومن ألوان مختلفة ، فيوضع الحجر الأبيض والآجر الأحمر على هيئة تعاريج ومشبكات وكحلة اللحامات بمونة بيضاء ناصعة ، بارزة قليلا من وجه الجدار[1]. ولقد استعيض عن هذه الطريقة فى العصرين الطولونى والفاطمى بطلاء الأبنية بالجص من الداخل والخارج . فلما استخدم الحجر بدل الآجر فى أبنية القاهرة ، منذ أواخر العصر الفاطمى ، قضى بطبيعة الحال على هذه الطريقة ، وصارت الزخارف تحفر فى الأحجار

وازدانت الفسطاط بكثير من الدور والقصور والبساتين ، من ذلك دار عمرو الكبرى ، ودار ابنه عبد الله ، التى عرفت بدار عمرو الصغرى ، وكانتا شرقى جامع عمرو كما أسلفنا ، ودار الزبير بن العوام ، غربى دار عبد الله بن عمرو. وشيد عبد الله بن سعد بن أبى سرح لنفسه قصرا كبيرا ، كان يعرف بقصر الجن ، لكبره وضخامته . كما أمر مروان بن الحكم ببناء الدار البيضاء التى سكنها فى أثناء اقامته بمصر . كذلك أمر عبد العزيز ابن مروان ببناء الدار الذهبية سنة ٦٧ هـ (٦٨٦ ــ ٨٧ م) ، غربى المسجد الجامع ، وكان يطلق عليها المدينة ، لعظمها

ومعروف ان الاسلام قد حض على النظافة ، حتى انه اعتبرها من الايمان « النظافة من الايمان » ، فأمر بالوضوء قبل كل صلاة خمس مرات فى اليوم ، والاغتسال ، لذلك كثرت بالفسطاط الحمامات ، ويذكر المقريزى أنه كان يوجد بالفسطاط ألف ومائة وسبعون حماما ، وكانت حمامات القاهرة فى عام ٦٨٥ هـ (١٢٨٦ م) ثمانين حماما فقط (٢)

---

(١) المصدر السابق ، ص ١٣٦
(٢) الحضارة الاسلامية فى القرن الرابع الهجرى ، تأليف آدم متز وتعريب الدكتور محمد عبد الهادى أبو ريده ، ج ٢ ص ١٨٦

وبلغ عدد الطبقات ، فى بعض الدور بالفسطاط ، وهى فى أوج عزها ، ثمانيا ، فبدت كالمنائر ، وأسفل الدور غير مسكون . وربما سكن الدار الواحدة المائتان من الناس ، وهذا يدلك على سعتها ، وعظم ارتفاعها . ويقول ناصر خسرو ، الرحالة الفارسي المشهور : « وترى مصر ، من بعيد كأنها جبل ، وبها بيوت من أربع عشرة طبقة ، وبيوت من سبع طبقات .. وبها أسواق وشوارع ، توقد فيها القناديل ، لأن ضوء الشمس لا يصل الى أرضها — لأنها مسقوفة » (١)

وكان الحمالون يحملون الماء من النيل الى المنازل فى الروايا «القرب» ، ويصعدون الدور ، كل طبقة بنصف دانق . ويحكى ناصر خسرو أنه كان بمصر والقاهرة عام ٤٤٠ هـ (١٠٤٨ — ٤٩ م) اثنان وخمسون ألف جمل لحمل قرب ماء الشرب ، فى هاتين المدينتين (٢)

ومما ذكره أيضا أن ركوب الخيل كان وقفا على الجند والمتصلين بالجيش. بينما كان سائر الأهلين ينتقلون على حمير ذات سروج جميلة . وكان فى الفسطاط والقاهرة نحو خمسين ألف حمار للتأجير ، يشاهد المرء عددا كبيرا منها عند مداخل الشوارع والأسواق (٣)

الحالة الاقتصادية :

كانت الفسطاط مركزا اقتصاديا عظيما ، وسوقا تجاريا كبيرا ، بالاضافة الى أنها قصبة الحكم ، وعاصمة البلاد . ولم تفقد شهرتها كسوق تجارى عظيم حتى بعد بناء القطائع والعسكر ، بل والقاهرة أيضا . فظلت مركز الحركة التجارية والاقتصادية . ذلك لسهولة اتصالها بداخلية البلاد ، وبالعالم الخارجى أيضا

فقد كانت على اتصال وثيق بداخلية البلاد ، بواسطة النيل ، فترد اليها

(١) سفرنامة لناصر خسرو علوى ، ترجمة الدكتور يحى الخشاب ص ٥٨
(٢) المصدر السابق ص ٤٦ ، والحضارة الاسلامية لآدم متز ، ج ٢ ص ٢٢٩
(٣) الرحالة المسلمون فى العصور الوسطى ، للمرحوم زكى محمد حسن ص ٥٩

الحاصلات والسلع من كل من الوجهين القبلى والبحرى . وفى ذلك يقول ابن بطوطة الرحالة المشهور : « وان بنيل مصر من المراكب ستة وثلاثين ألفا للسلطان والرعية ، تمر صاعدة الى الصعيد ، ومنحدرة الى الاسكندرية ودمياط ، بأنواع الخيرات والمرافق » (١) . كما ذكر ناصر خسرو أنه «كان للباعة «بالقطاعى» دكاكين بمدينة مصر «الفسطاط» على ساحل النيل ، وكانت البضائع تفرغ على أبوابهم ، وكان الازدحام من الشدة بحيث كان يستحيل نقل البضائع على ظهور الدواب » (٢)

كانت الفسطاط تغص بالأسواق المليئة بمختلف السلع والمتاجر ، فقد بنى عبد العزيز بن مروان قيسارية العسل ، وقيسارية الحبال ، وقيسارية الكباش ، وقيسارية البز (المنسوجات) . وقد أسهب ناصر خسرو فى الكلام عن الفسطاط وعظمتها ، وبيوتها الشاهقة ، وجوامعها الكبيرة ، وحدائقها الغناء ، وصناعاتها الزاهرة ، ووصف الثروة فى أسواقها ، والازدحام فيها . وقال ان الحوانيت مملوءة بالسلع المختلفة ، والأقمشة الثمينة ، والذهب ، وسائر الحلى ، حتى ان المشترى لايجد فيها محلا يجلس فيه (٣) . وكان شديد الاعجاب بسوق القناديل — بجوار جامع عمرو — فقال انه لم يعرف مثله فى أى بلد آخر ، وان التحف النادرة والثمينة كانت تحمل اليه من أصقاع العالم كله (٤) . وترجع هذه التسمية الى أن سكان هذا الحى كان لكل منهم قنديل على باب مسكنه .

كذلك كانت تفد على الفسطاط السلع والمتاجر من بحر الروم (البحر المتوسط) بواسطة النيل أيضا ، ومن بحر القلزم (البحر الأحمر) بواسطة الدواب أو خليج أمير المؤمنين ، ومما كانت تشتمل عليه سلع بحر الروم

---

(١) رحلة ابن بطوطة ، ج ١ ص ٦٧ و ٦٩
(٢) و (٣) سفرنامة لناصر خسرو علوى ، ترجمة الدكتور يحى الخشاب ، ص ٦٢
(٤) سفرنامة ، ص ٥٩

الجوارى والغلمان والديباج وجلود الخز والفراء والسمور والسيوف . ومما تشتمل عليه متاجر بحر القلزم المسك والعود والكافور والدارصينى، وغير ذلك مما يحمل من السند والهند والصين (١)

خليج أمير المؤمنين :

وخليـــج أمير المؤمنين ترعة كان قد أمر بحفرها نخاو فرعون مصر ، لتوصيل النيل بالبحر الأحمر ، ثم ردمت فى أواخر حكم الرومان لمصر. فلما كان الفتح العربى ، جدد عمرو بن العاص حفرها سنة ٢٣ هـ (٦٤٣ — ٤٤ م) (٢) ، بأمر أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ، لهذا أطلق عليها اسم خليج أمير المؤمنين. وكانت هذه الترعة تخرج من فم الخليج ، شمالى مصر القديمة ، متجهة الى الشمال حتى نهاية القاهرة . وتمر بعد ذلك فى الأراضى الزراعية ، حيث مجرى الترعة الاسماعيلية الى العباسية ، بمديرية الشرقية ثم الى مدينة الاسماعيلية ، ومنها الى القلزم (السويس) على البحر الأحمر (٣)

وقد أقيم على هذا الخليج فى العهود التالية كثير من القناطر ، ليتيسر للناس عبوره ، سنورد أسماء أشهرها فى مواضعها (٤)

وقد كان هذا الخليج عرضة للأهواء السياسية ، فيردم اذا أراد أحد الخلفاء الضغط السياسى على مصر ، وتجويع سكانها ، وتحويل تجارة الهند عنها الى بغداد ووادى الفرات ، كما فعل الخليفة المنصور العباسى

الحالة العلمية :

اتخذت الحركة العلمية فى أوائل عصر الفتح شكلا دينيا ، حيث كان النـــاس بحاجة الى من يفقههم فى أمور دينهم ، ويعلمهم أصـــول الدين

---

(١) ابن خرداذبة ، ص ١٥٣

(٢) النجوم الزاهرة ، ج ٤ ص ٤٤

(٣) وقد ردم هذا الخليج فى المسافة الواقعة بمدينة القاهرة سنة ١٨٩٦ م ، وحل محله شارع الخليج المصرى (شارع بورسعيد حاليا)

(٤) من هذه القناطر قنطرة عبد العزيز بن مروان ، التى بناها عبـــد العزيز بن مروان والى مصر فى سنة ٦٩ هـ ، ومكانها اليوم النقطة الواقعة بشارع الخليج المصرى ، تجاه مدخل حكر أقبغا بأرض جنينة لاظ . (النجوم الزاهرة ، ج ٧ ص ٣٨٨)

الاسلامى ، أكثر من حاجتهم الى العلوم الدنيوية والفلسفية ، تلك الأصول التى اجتمعت فى القرآن الكريم والحديث والسنة . وكان من حظ مصر أن حضر اليها مع جيش المسلمين عدد كبير من الصحابة ، الذين تشربوا الدين خالصا عن النبى صلى الله عليه وسلم ، فتلقى عنهم أهل مصر ، فصارت الفسطاط معقلا حصينا من معاقل الدين ، تنافس المدينة وبغداد والبصرة ودمشق وغيرها من أمهات المدن الاسلامية. ومن هؤلاء الصحابة عبد الله بن عمرو بن العاص ، وعبد الله بن سعد بن أبى سرح العامرى ، والزبير بن العوام ، والمقداد بن الأسود ، وعبادة بن الصامت ، وعبد الله ابن عمر بن الخطاب ، وخارجة بن حذافة العدوى ، ومسلمة بن مخلد ، وكثير غيرهم ممن وفدوا على مصر بعد الفتح ، لكثرة خيراتها ، وخصب أرضها ، وطيب هوائها

وكانت معظم دروس الفقه والكلام تعطى فى المسجد ، والمستمعون على هيئة حلقة بين يدى المدرس ، وكان يتخذ مكانه الى جانب عمود فى المسجد ، مستندا بظهره اليه ان أمكن . وقد أحصى المقدسى فى المسجد الجامع بالقاهرة وقت العشاء مائة مجلس وعشرة من مجالس العلم (١). وأشهر من علم بمصر من الصحابة بعد الفتح عبد الله بن عمرو بن العاص ، ويعتبر بحق مؤسس مدرسة مصر الدينية ، اذ أخذ عنه كثير من أهلها ، وكانوا يكتبون عنه ما يحدث ، وقد بلغ قرابة مائة حديث (٢)

وممن اشتهر من علماء مصر وفقهائها الأمير عبد العزيز بن مروان بن الحكم الأموى ، والى مصر المتوفى بحلوان والمدفون بالفسطاط سنة ست وثمانين هجرية (٧٠٥م) وقد اشتغل برواية الحديث ، وله مناقب كثيرة (٣) . ويزيد بن حبيب ، واسمه سويد الأزدى أبو رجاء المصرى ، وقد كان فقيه مصر وشيخها ومفتيها ، ولد سنة اثنتين وخمسين بمصر ، وتوفى بها سنة ثمان

(١) الحضارة الاسلامية فى القرن الرابع الهجرى ، ج ١ ص ٣٥١
(٢) مصر فى فجر الاسلام ، لسيدة اسماعيل كاشف ص ٣١٦
(٣) الكندى : الولاة والقضاة ص ٥٠ ، والمقريزى ج ١ ص ٣٠٢ طبعة بولاق

وعشرين ومائة (١) . وأبو عبد الرحمن عبد الله بن لهيعة الحضرمى الغافقى ، والليث بن سعد بن عبد الرحمن الفهمى ، وكان يحسن القرآن والنحو ويحفظ الحديث والشعر

وتأثرت مصر بالمذاهب الاسلامية التى ظهرت فى العصر العباسى . ففى ذلك العصر امتزجت العقلية العربية بالعقلية الفارسية واليونانية ، وارتفع مستوى الثقافة بين العلماء بفضل تشجيع بعض الخلفاء للعلماء والفقهاء والأدباء والشعراء ، واقبال نخبة من العلماء على تعريب الكتب الأجنبية ودراستها (٢) . وأهم المذاهب التى ذاعت فى العصر العباسى المذاهب الأربعة ، والتى ما زالت باقية بمصر حتى اليوم . وأقدم هذه المذاهب مذهب الامام أبى حنيفة النعمان ، المولود بالكوفة سنة ثمانين هجرية ، والمتوفى ببغداد سنة ١٥٠ هـ . وثانى هذه المذاهب مذهب الامام مالك ابن أنس المولود بالمدينة سنة ٩٣ هـ أو سنة ٩٥ هـ والمتوفى بها سنة ١٧٩ هـ . والثالث مذهب الشافعى وهو الامام محمد بن ادريس الشافعى ، المولود بغزة سنة ١٥٠ هـ ، وقد حضر الى مصر سنة ١٩٨ هـ ، وكون بها مذهبه الجديد ، وتوفى بها سنة ٢٠٤ هـ . والرابع مذهب الامام أحمد بن حنبل الشيبانى ، المولود ببغداد سنة ١٦٤ هـ ، والمتوفى بها سنة ٢٤١ هـ

وظل المصريون يتبعون المذهب المالكى حتى قدم مصر الامام الشافعى ، وأنشأ مذهبه الجديد بها ، فاتبعه كثير من المصريين ولم يمض قرن من الزمان حتى أصبح المذهب الشافعى منافسا للمذهب المالكى فى مصر

ومن أشهر فقهاء الشافعية فى ذلك العهد أبو يعقوب يوسف بن يحيى البويطى ، وقد جلس مكان الشافعى بعد وفاته ، وعبد العزيز بن عمران ابن أيوب الخزاعى المصرى ، والربيع بن سليمان بن داود الأزدى الجيزى ، نسبة الى الجيزة

---

(١) النجوم الزاهرة ج ١ ص ١٤٣

(٢) مصر فى فجر الاسلام ص ٣٢٠

وكان مركز الحركة العلمية الدينية فى مصر جامع عمرو ، مثله فى ذلك الجامع الأزهر اليوم . فكان جامع عمرو ملتقى العلماء والفقهاء والأئمة . اليه يلجأ الناس للاستفتاء ، واليه يفد الطلاب لتلقى العلوم التى كانت تدرس فى ذلك الحين . وفيه يتخرج خيرة العلماء والفقهاء . وأصبحت مصر مركزا علميا هاما ، خصوصا فى أواخر عصر الولاة . فكان يفد اليها الطلاب لتلقى العلم ، وخاصة من افريقية والمغرب والأندلس . وبذلك أثرت مصر على الأندلس والمغرب فى المذاهب وفى العلوم الدينية التى كانت تدرس حينذاك (١)

وفى سنة ٣٢٦ هـ (٩٣٨ م) كان للمالكيين فى المسجد الجامع خمس عشرة حلقة ، وللشافعيين مثلها ، ولأصحاب أبى حنيفة ثلاث حلقات فقط . وفى عهد المقدسى ، تولى امامة مسجد ابن طولون أحد الشافعية لأول مرة ، ولم يقدم فى محراب هذا المسجد امام قط قبله الا وهو يتفقه لمالك . وكان معظم الفقهاء بمصر من أصحاب مالك . ويقول السيوطى ان أبا بكر النعالى المتوفى عام ٣٨٠ هـ (٩٩٠ م) كان امام المالكية بمصر ، وكانت حلقته فى الجامع تدور على سبعة عشر عمودا ، لكثرة من يحضرها (٢)

القضاء :

ونشأ القضاء فى عهد الولاة بسيطا ، ثم ارتقى وتطور تدريجا . فمثلا لم تكن هناك محكمة خاصة للفصل فى القضايا ، وانما كانت مجالس القضاء تعقد فى جامع عمرو بن العاص بالفسطاط ، للفصل فى قضايا العرب الفاتحين ، أو بين من يسلمون من أهل البلاد ، أو بين الذميين الذين يحتكمون فى خصوماتهم الى القضاة المسلمين. ويذكر الكِندى أن القاضى خير بن نعيم الحضرمى (١٢٠ ــ ١٢٨ هـ) كان يقضى بين المسلمين فى المسجد ، ثم يجلس على باب المسجد بعد العصر ، فيقضى بين النصارى .

---

(١) مصر فى فجر الاسلام ، ص ٣٢٨
(٢) الحضارة الاسلامية فى القرن الرابع الهجرى ، ج ١ ص ٢٩٧

وكان القاضى محمد بن مسروق الكندى (١٧٧ — ١٨٤ هـ) يسمح للنصارى المتخاصمين بالدخول فى المسجد الجامع كالمسلمين ، ليقضى بينهم

وكان القاضى يستمد أحكامه القضائية من مصادر التشريع الاسلامى وهى القرآن والسنة والاجماع والاجتهاد أو القياس . ولم تكن أحكام القضاة تدون . كذلك لم يكن للقاضى شىء تصان فيه كتبه وأوراقه ، بل كان كاتب القاضى يحضر ومعه الكتب فى منديل ، ويحمل محبرته «دواته» فى حزامه ، ولهذا كانت المحابر تصنع من المعدن ، ولها يد بحيث يمكن أن ترشق بين طيات الحزام ، وبالتدريج سجلت الأحكام فى سجلات ، وصارت تحفظ فى دواليب خاصة (١)

ومن التقاليد التى نشأت فى هذه الفترة أيضا خروج القاضى فى نفر من أهل الصلاح ، لرؤية هلال رمضان ، واثبات الرؤية . وكانوا يخرجون لرؤيته فى الجيزة ، حتى لايختلف الناس فى شهاداتهم . وبعد ثبوت الرؤية تسير مواكب الناس ، حاملة المشاعل ، وهى تهتف : « صيام ! صيام ! حسبما أمر به قاضى الاسلام » . وما يزال هذا التقليد متبعا حتى اليوم ، حيث يترأس الاحتفال بالرؤية فى القاهرة رئيس المحكمة الشرعية العليا . ويهتف الصبية بما هتف به أسلافهم من قبل

الصناعات والفنون :

لما فتح العرب الأقطار العديدة ، وأخضعوا لحكمهم كثيرا من الأمم ، أثر العرب فى تلك الأمم ، فنشروا بينهم لغتهم وآدابها ومختلف فنونها ، كما نشروا بينهم دينهم . وأثرت تلك الأمم بدورها فى العرب ، فقد كانت لهم علوم وفنون توفر عليها العرب بالدرس والتمحيص ، بفضل ما أوتوه من حس مرهف ، وذوق سليم . واختاروا أصلحها وأكثرها اتفاقا مع تقاليدهم ودينهم ، وصاغوا من كل ذلك ثقافة عالية ، وفنا اسلاميا جميلا ، أفاد منهما العالم قرونا طويلة

---

(١) مصر فى فجر الاسلام ، ص ٩٩

ولقد كان للعرب فى حكم الشعوب أساليب ناجحة، وطرائق قويمة . ففضلا عن اطلاقهم للناس حرية العبادة وكثيرا من الحريات الأخرى ، فقد أبقوا دفة الحكم فى أيدى حكام منهم ، ما خلا الوظائف الخطيرة والمناصب الرئيسية . كذلك تركوا للناس صناعاتهم وحرفهم ، يزاولونها فى حرية واطمئنـــان . بل انهم أولوهم كثيرا من التشجيع والمؤازرة ، واكتفوا بالتوجيه السديد ، حسبما تقتضيه الأوضاع الجديدة ، والدين الجديد . فانصرف الناس الى أعمالهم ، يحدوهم الاطمئنان، وتملأهم الثقة ، ويحفزهم ذلك الى الجد والاتقان

ولقد دخل المصريون فى دين الله أفواجا ، واعتنق أكثرهم الاسلام ، وزاول الصناع صناعاتهم ، سواء منهم من أسلم ومن لم يسلم . فنرى منتجات الفنون الاسلامية فى عصورها الأولى وقد تأثرت بالمنتجات الفنية القبطية ، نظرا لاعتماد العرب على الصناع والفنيين القبط ، ولأن التطور فى أساليبها الصناعية كان بطيئا ، ولم يصل الفن الى الطراز الاسلامى البحت الا فى العصر الفاطمى ، بعد أن اجتاز مرحلة انتقال ، امتدت منذ الفتح العربى لمصر واشتملت على العصرين الطولونى والأخشيدى ، وان كان قد تأثر فى العصر الطولونى بالأساليب العراقية ، التى أتى بها أحمد ابن طولون من مدينة سامرا ، التى نشأ فيها وشب وترعرع

ولم تقتصر استعانة العرب بالصناع المصريين فى صنع كل ما يلزمهم من حاجيات ، ومن بناء ما كانوا يحتاجون اليه من أبنية على مصر وحدها ، بل اننا نجد فى الوثائق التاريخية ما يدل على ارسال العمال والصناع المصريين الى الشام وبلاد العرب للعمـــل فى بنـــاء المساجد أو زخرفتها بالفسيفساء والجص وغير ذلك

وقد زخرت الفسطاط بالمصانع من كل نوع ، تنسج المنسوجات وتصنع المصنوعات المعدنية والخشبية والعاجية ، والأوانى الزجاجية والخزفية ، والأدوات المنزلية . ووجدت فى حفائر الفسطاط بقايا من تلك المصنوعات. كما يوجد بالمتحف الاسلامى بالقاهرة نماذج قليلة منها

الباب الثانى

العسكر

— ١ —

مُنِى مروان الثانى ، آخر خلفاء بنى أمية ، بهزيمة ساحقة ، أمام جيوش بنى العباس ، فى موقعة الزاب بالقرب من الموصل ، فركن الى الفرار ، واتجه صوب دمشق ، ثم التجأ الى مصر ، ليتخذ منها قاعدة لمهاجمة العباسيين ، واستعادة ملكه المسلوب ، وعرشه المتداعى . ولكن أبا عون ، وزميله صالح بن على ، القائدين العباسيين ، لم يتركا له فرصة لتحقيق أمله ، وظلا يطاردانه حتى قبضا عليه فى قرية أبى صير ، من أعمال الجيزة ، حيث قتلاه ، وبذلك انقطع آخر خيط فى نسيج دولة الأمويين ، واندك ملكهم ، وقامت على أنقاضه دولة العباسيين ، الذين ورثوا حكم مصر ، ضمن ما ورثوه من أملاك الدولة البائدة

وكما نقل العباسيون قصبة الخلافة من دمشق ، التى ارتبطت بذكر الأمويين ، الى بلاد العراق ، حيث شيدوا لهم حاضرة جديدة ، هى بغداد ، كذلك شرع القائدان أبو عون وصالح سنة ١٣٣ هـ (٧٥٠ م) فى بناء عاصمة جديدة لمصر ، بدل الفسطاط ، سمياها العسكر ، فى الفضاء الذى عسكرت فيه جنودهما وتجمعت ، عند مطاردتهما لمروان الثانى ، وكانت تقع شمالى الفسطاط ، فيما يعرف بالحمراء القصوى ، ويشرف عليها جبل يشكر ، الذى شيد فوقه أحمد بن طولون فيما بعد جامعه المشهور

— ٢ —

موقع العسكر :

يؤخذ من وصف المقريزى لموقع العسكر فى خططه أنها كانت تمتد

بمحاذاة الشاطىء الشرقى للنيل ، الذى كان يحف بجدران جامع عمرو اذ ذاك ، ويحدها جنوبا قناطر المجرى (العيون) (١) وشمالا شارع مراسينا الى ميدان السيدة زينب ، حيث كانت قناطر السباع (٢) أمام المشهد الزينبى ، وغربا بين شارع السد والديورة ، وشرقا خط وهمى يمتد من مصطبة فرعون بجوار مسجد الجاولى بشارع مراسينا الى باب السيدة نفيسة ، المعروف قديما بباب المجدم (٣)

امتداد العسكر :

أمر أبو عون أصحابه بالبناء فيها ، وشيد صالح بن على دارا للامارة ، كما شيد الفضل بن صالح بن على مسجدا جامعا ، عرف بجامع العسكر . وما زالت العمارة تزداد فيها حتى اتصلت المبانى بالفسطاط ، وصارت العسكر مدينة « ذات محال وأسواق ودور عظيمة » (٤)

واستمرت العسكر حاضرة البلاد ، الى أن قدم مصر أحمد بن طولون ، فوجدها لا تتسع لجنده وحاشيته ، وما اعتزم تشييده من منشآت متعددة. فاستقر عزمه على تشييد عاصمة أخرى ، واختط لهذا الغرض مدينة القطائع التى شغلت حيزا كبيرا من العسكر ، بل وتدخلت فيها . ولم يبق من معالم العسكر فى أيام المقريزى شىء يذكر . وهنا يقول : « ولم يبق الآن من العسكر ما هو عامر سوى جبل يشكر ، الذى عليه جامع ابن طولون ، وما حوله من الكبش ، وحدرة ابن قميحة الى خط السبع سقايات ، وخط قناطر السباع الى جامع ابن طولون » (٥)

(١) المقريزى : الخطط ، ج ٢ ص ٨٩
(٢) هى قناطر بناها الظاهر بيبرس ، ووضع فوقها سباعا تمثل رنكه ، كما فعل فى قناطر ابى المنجا
(٣) الجامع الطولونى ، تأليف محمود عكوش ، ص ٨
(٤) المقريزى : الخطط ج ٢ ص ٨٩
(٥) المصدر السابق ص ٩٠

الباب الثالث

القطائع

— ١ —

قامت الدولة العباسية على أكتاف الفرس ، كما هو معروف . لذا كانت لهم الحظوة عند خلفائها الأولين . فقوى نفوذهم ، وعلا شأنهم ، وصار منهم الوزراء والقواد وكبار رجال الدولة ، الذين اليهم المرجع فى كل صغيرة وكبيرة من شئونها . ولما اشتدت وطأة النفوذ الفارسى ، حاول الخلفاء المتأخرون التخلص من ذلك النفوذ ، فاستبدلوا بالفرس قوادا وحراسا من الأتراك . وسرعان ما انتشر نفوذ هؤلاء ، وصاروا أصحاب الحول والطول فى مقر الخلافة ، بل وفى أقاليمها وممتلكاتها . فآلت مصر الى واحد من أولئك الأتراك ، هو الأمير بقبق أو بايكباك ، ثم الى الأمير برقوق . وأناب كل منهما عنه فى حكم مصر أحمد بن طولون ، وهو تركى الأصل مثلهما ، من اقليم بخارى ، فى بلاد ما وراء النهر . وكان الأول زوج أم أحمد ، والثانى حماه ، أى أبا زوجته

قدم أحمد بن طولون الى مصر سنة ٢٥٤ هـ (٨٦٨ م) وبين جنبيه آمال كبار ، فهو يريد أن ينشىء من مصر دولة تنافس الخلافة قوة وعظمة ، وأن يؤسس لها حاضرة تماثل «سـُـرّ من رأى» قصبة الخلافة فى عهده ، والتى ولد فيها وترعرع ، وأعجب بجمال قصورها ، ورحابة ميادينها وعظمة مساجدها ومنشآتها . لذلك عـوّل منذ أن وطئت قدماه أرض مصر على اقامة العاصمة المرجـوّة ، فكان له ما أراد ، وأسماها القطائع ، ذلك لأنه أقطعها قطعا بين خدمه وحاشيته ورجال دولته . وشـيد فيها القصـور

والمستشفيات والملاجىء ، وأقام مسجده الجامع ، الذى ما زال يطاول الزمن ببقائه ، درة فريدة بين مساجد مصر ، والذى يستحق بلا ريب أن يطلق عليه اليوم اسم شيخ جوامع القاهرة ، اذ لايزال تخطيطه ومبانيه على الحال الأولى التى وجد عليها فى عهد منشئه

— ٢ —

موقع القطائع :

فالقطائع ثالثة العواصم الاسلامية فى مصر ، كانت تقع شمالى الفسطاط « وكان موقعها من قبة الهواء التى صار مكانها الآن قلعة الجبل ، الى جامع ابن طولون . وهو طول القطائع . وأما عرضها ، فانه كان من أول الرميلة (١) من تحت القلعة ، الى الموضع الذى يعرف الآن بالأرض الصفراء ، عند مشهد الرأس الذى يقال له الآن زين العابدين . وكانت مساحة القطائع ميلا فى ميل » (٢)

وقد حدد العلامة الأثرى المرحوم محمد رمزى هذه المدينة كما يلى : « الحد البحرى ، ويبدأ من جامع سنجر الجاولى حتى باب العزب بالقلعة ، والحد الشرقى سور القلعة ، من باب العزب ، حتى جامع السلطان الأشرف قانصوه الغورى ، عند باب اليسار ، المعروف الآن بباب الجبل . والحد القبلى ويبدأ من جامع الغورى المذكور ، حتى جامع سيدى على زين العابدين . والحد الغربى من جامع سيدى على زين العابدين ، وينتهى بجامع سنجر الجاولى » (٣)

وقد تدخلت القطائع فى العسكر ، وشغلت الجزء المعروف الآن بقلعة الكبش وبتلول زينهم

(١) سوق للبغال والحمير والجمال بجوار القلعة
(٢) النجوم الزاهرة ، ج ٣ ص ١٤
(٣) الجغرافية التاريخية لمدينة القاهرة للمرحوم الاستاذ محمد رمزى

وقد بدأ ابن طولون فى بناء القطائع فى شعبان سنة ٢٥٦ (يوليو سنة ٨٧٠) بأنشيد قصره ، الذى كان بمثابة نواة للمدينة ، وكان يقع فى الفضاء المعروف الآن بميدان صلاح الدين ، والذى عرف بالرميلة وقرّه ميدان والمنشية ، والذى كان يمتد الى ما وراء جامع السلطان حسن الآن (١) تحت المرتفع الذى كانت تقع عليه قبة الهواء ، التى فى مكانها بنى صلاح الدين قلعته المعروفة بقلعة الجبل

وقد حوّل ابن طولون السهل الواقع بين القصر وجبل يشكر إلى ميدان كبير يُضرب فيه بالصوالجة (٢) فسمى القصر كله الميدان (٣). وكان للقصر عدة أبواب منها : باب الميدان الكبير ، وكان منه دخول الجيش وخروجه ، وباب الخاصة ، وباب الجبل الذى يلى جبل المقطم ، وباب الحرم ، وباب الدرمون وباب دغناج ، وسميا كذلك نسبة الى حاجبين بهذين الاسمين كانا يجلسان أمامهما ، وباب الساج لأنه كان مصنوعا من خشب الساج ، وباب الصلاة الذى يخرج منه ابن طولون للصلاة ، وكان على الشارع الأعظم ، وكان يعرف أيضا بباب السباع ، اذ كانت عليه صورتا سبعين من جبس . وكانت هذه الأبواب لا تفتح كلها الا فى يوم العيد ، أو يوم عرض الجيش ، أو يوم صدقة . وما كانت تفتح الا بترتيب فى أوقات معروفة . وكان للقصر شبابيك ، تفتح من سائر نواحى الأبواب ، تشرف كل جهة على باب (٤) . وكان للقصر مجلس يشرف منه ابن طولون يوم العرض، ويوم الصدقة ، لينظر مِن أعلاه مَن يخرج ويدخل. وكان الناس يدخلون من باب الصوالجة ، ويخرجون من باب السباع . وكان على باب السباع مجلس آخر ، يشرف منه ابن طولون ليلة العيد على القطائع ، ليرى حركات الغلمان وتأهبهم وتصرفهم فى حوائجهم (٥)

(١) تاريخ ووصف الجامع الطولونى للاستاذ محمود عكوش ، ص ١٠
(٢) هى الكرة يلعب بها بالمضرب من فوق ظهور الخيل ، تشبه لعبة البولو فى الوقت الحاضر
(٣) المقريزى : الخطط ، ج ٢ ص ١٠٦
(٤) النجوم الزاهرة ، ج ٣ ص ١٥
(٥) المقريزى : الخطط ، ج ٢ ص ١٠٦

تخطيط القطائع :

بعدئذ تقدم أحمد بن طولون الى أصحابه وغلمانه وأتباعه أن يختطوا لأنفسهم حول القصر والميدان ، فاختطوا ، وبنوا ، حتى اتصل البناء بعمارة الفسطاط . ثم قطّعت القطائع ، وسميت كل قطيعة باسم من سكنها : فكانت للنوبة قطيعة مفردة تعرف بهم ، وللروم قطيعة مفردة تعرف بهم ، وللفراشين قطيعة مفردة تعرف بهم ، ولكل صنف من الغلمان قطيعة مفردة تعرف بهم . وبنى القواد فى مواضع متفرقة ، فعمرت القطائع عمارة حسنة ، وتفرقت فيها السكك والأزقة ، وبنيت فيها المساجد الحسان ، والطواحين ، والحمامات ، والأفران ، وسميت أسواقها ، فقيل سوق العيارين ، وكان يجمع العطارين والبزازين ، وسوق الفاميين ويجمع الجزارين والبقالين والشوايين . فكان فى دكاكين الفاميين جميع ما فى دكاكين نظرائهم فى المدينة وأكثر وأحسن ، وسوق الطباخين ، ويجمع الصيارف والخبازين والحلوانيين . ولكل من الباعة سوق حسن عامر ، فصارت القطائع مدينة كبيرة أعمر وأحسن من الشام (١) . وامتدت هذه المبانى الى العسكر والفسطاط ، حتى أصبحت المدن الثلاث بلدا واحدا عامرا ، لاتصال مبانيها بعضها ببعض

الجامع :

طلب ابن طولون الى مهندس ، سنعرض بعد قليل الى جنسيته ، أن يشيد له مسجدا لا تأتى عليه النيران ، أو تهدمه مياه الفيضان « فان احترقت مصر بقى ، وان غرقت بقى » ، فحقق المهندس رغبته ، فبناه جميعه من الآجر الأحمر ، ورفعه على دعامات من الآجر أيضا . ولم يدخل فى بنائه أعمدة من الرخام ، سوى عمودى القبلة ، « لأن أساطين الرخام لا صبر لها على النار » . ويؤخذ من اللوحة التذكارية ، الموجودة بالجامع ، أن الفراغ من بنائه كان سنة ٢٦٥ هـ (٨٧٨ و ٨٧٩ م) . وقد استغرق بناؤة عامين

(١) المقريزى : الخطط ، ج ٢ ص ١٠٦

وجامع ابن طولون مربع الشكل تقريبا (١٦٢ر٥٠×٧٣ر١٦١ مترا) ، يتوسطه صحن مكشوف ، تحيط به من جوانبه الأربعة أروقة مسقوفة ، وقد اتبع هذا التخطيط كثيرا بعد ذلك فى بناء المساجد فى العهود المتوالية. ويتكون ايوان القبلة من خمسة أروقة . أما الأواوين الثلاثة الأخرى فيتكون كل منها من رواقين ، ويحيط بالجامع فيما بين جدرانه والسور الخارجى من جهاته الشمالية الشرقية، والشمالية الغربية ، والغربية الجنوبية ثلاثة أروقة خارجية ، عرفت بالزيادات . وتلك ميزة أخرى انفرد بها جامع ابن طولون بين مساجد القاهرة

والدعامات التى ترتكز عليها العقود مستطيلة الشكل ، محلاة فى أركانها الأربعة بأعمدة من نفس مادة الدعامات ، أى من الآجر. وتيجانها كورنثية ، يطلق على أوراقها شوك اليهود . أما العقود فمن الطراز الستينى ، ولم تستعمل فى مصر قبل ذلك . ويوجد بين كل عقدين ، فوق الدعامة ، طاقة صغيرة ، بقصد التخفيف عن الدعامات ، وعقدها ستينى أيضا ، كالعقود الكبيرة

وقد طليت جميع جدران المسجد ودعاماته وعقوده بطبقة من الجص ، وزخرفت واجهات العقود بزخارف نباتية متصلة ، كما حليت بواطن العقود حول الصحن بزخارف قوامها خطوط متداخلة ، وخطوط لولبية ، وأشرطة وخطوط منكسرة ، كلها معروفة فى الفن البيزنطى ، ومنه تسربت الى الفن القبطى وفنون العراق (١)

ويدور تحت السقف ازار من ألواح خشبية ، نقشت عليها بحروف كوفية بارزة ، من طراز الكتابة الطولونية التى سادت هذا العصر ، سورتا البقرة وآل عمران . وبالجزء العلوى من الجدران صف من الطاقات ، مركب عليها شبابيك من الجص مخرمة ، يتكون من تخريمها أشكال هندسية ، بسيطة جميلة ، تنوعت أشكالها ، تدور حول جدران المسجد الأربعة ،

(١) الفن الاسلامى فى مصر للمرحوم الدكتور زكى محمد حسن ، ص ٧٧

وأربعة فقط من هذه الشبابيك ، موجودة بجدار القبلة ، زخرفتها معاصرة لانشاء المسجد (١)

وللمسجد خمسة محاريب ، عدا المحراب الأصلي المجوف ، الموجود فى جدار القبلة . ولقد أنشئت المحاريب الخمسة فى العصور التالية لانشاء المسجد : اثنان فى منتصف حبل الطارات الثانى ، مما يلى الصحن ، الأيمن عمل فى عهد المستنصر الفاطمى ، والثانى فى عهـد حسـام الدين لاچين المملوكى . واثنان فى النصف الثالث من حبل الطارات بجانبى دكة المبلّغ . ومحراب خامس ، وهو فى جدار القبلة ، على يسار المحراب الكبير . وجميع هذه المحاريب من الجص ، ومزينة بالكتابة الكوفية أو النسخية ، والزخارف النباتية (٢)

وكانت توجد وسط الصحن نافورة ماء ، أنشأها ابن طولون كى يشرب منها المصلون ، وسط حوض من الرخام ، تعلوها قبة مذهبة ، مقامة على ستة عشر عمودا من الرخام . ولكنها تهدمت وأعيد بناؤها فى العصر الفاطمى ، ثم تهدمت ثانيا وأقيم مكانها البناء الحالى ، جدده السلطان حسام الدين لاچين سنة ٦٩٦ هـ (١٢٩٧ م) ، كما يدل على ذلك كتابة على لوح من خشب مثبت فى قاعدة القبة ، ضمن ما جدده من بناء المسجد وأثاثه ، مما سيأتى ذكره بعد . ولكن النافورة خرجت هذه المرة عن الغرض الذى أنشئت من أجله أولا ، فقد صارت الآن ميضأة ، يتوضأ فيها المصلون . وكان ابن طولون قد أبى أن تكون مكانا للوضوء ، خيفة أن تصبح مصدرا « للنجاسة » والقذارة . فلما أخذ على مسجده خلوه من مكان للوضوء ، أقام ميضأة بالزيادة الغربية ، بعيدا عن داخل المسجد . كما أنشأ بهذه الزيادة صيدلية ، بها الأدوية ، وعليها الخدم ، وفيها طبيب يجلس يوم الجمعة لإسعاف من يصاب من المصلين بحادث وقت الصلاة .

ولهذا المسجد مئذنة فريدة فى شكلها ، لا نظير لها بين مآذن مساجد

(١) تاريخ ووصف الجامع الطولونى ، للاستاذ محمود عكوش
(٢) الفن الاسلامى فى مصر ، ص ٧٢

القاهرة ، وهى ميزة أخرى ، امتاز بها جامع ابن طولون . فهى مربعة فى جزئها الأسفل ، اسطوانية فى جزئها الأوسط ، مثمنة فى جزئها العلوى . وهى بهذا تحمل بعض الشبه لمئذنة جامع المتوكل بسامرا ، المعروفة بالملوية

ويحيط بالمسجد ، بموازاة الأروقة الثلاثة الخارجية ، أسوار مبنية من الآجر ، الذى بنيت منه جدران المسجد ، تعلوها شرافات مُخرمة ، شبهها بعضهم بعُرف الديك . وبهذه الأسوار أبواب ، يقابل كل منها بابا من أبواب المسجد ، وعدة هذه الأبواب جميعا أربعون بابا

مهندس الجامع :

ولما كان اسم مهندس هذا الجامع مجهولا ، فقد أدى ذلك الى كثير من التكهنات حول جنسيته ، فذكر بعض المؤرخين أنه كان بيزنطيا ، وقال آخرون انه كان قبطيا ، وقال فريق انه كان عراقيا . غير أن الشبه الكبير بين هذا المسجد ومسجد المتوكل فى سر من رأى يحمل على الاعتقاد بأن مهندسه عراقى ، ولا عبرة بأن يكون مسلما أو نصرانيا ، قدم الى مصر يحمل معه أساليب العراق وفنونه فاستخدمه ابن طولون فى تنفيذ بناء مسجده (١)

التجديدات التى ادخلت على هذا المسجد :

وقد أدخلت على هذا المسجد اصلاحات كثيرة ، فى العهود التالية ، يضيق المقام عن حصرها . وأهم هذه الاصلاحات ما قام به حسام الدين لاجين ، السلطان المملوكى سنة ٦٩٦ هـ (١٢٩٧ م) ، منها : النافورة التى سبق ذكرها ، والمنبر الخشبى الجميل ، وما زال موجودا حتى اليوم ، والقبة التى فوق المحراب الكبير . ولكن أهم ما أدخل عليه من تجديد فى العصر الحديث هو ما قامت به لجنة حفظ الآثار العربية منذ سنة ١٨٨٢ م . من جهود فى سبيل اعادته الى حالته الأولى ، فهدمت المنازل والعشش التى

(١) انظر تاريخ ووصف الجامع الطولونى ، للاستاذ محمود عكوش ، ص ٢٦ — ٢٨

أطبقت عليه من كل جانب ، ورممت المتداعى من جدرانه ، وطلتها بالجص، معيدة زخارفه ونقوشه سيرتها الأولى .

قناطر المياه :

ولكي يمد ابن طولون قطائعه بالماء ، أمر بحفر بئر فى الجنوب الشرقى من القطائع ، فى الموضع الذى يعرف اليوم بالبساتين ، وشيد عليها قناطر يرفع اليها الماء بواسطة ساقية ، ومد تلك القناطر حتى القطائع ، فصار ينحدر عليها الماء فى سهولة ويسر الى القطائع . وقد بنيت هذه القناطر من نفس الآجر الذى بنى منه الجامع فيما بعد، كما أن عقودها ستينية كذلك ، لهذا يعتقد أن المهندس الذى شيدها هو نفس المهندس الذى شيد الجامع، ولا تزال بقية منها باقية حتى اليوم

— ٣ —

توفى أحمد بن طولون عام ٢٧٠ هـ (٨٨٤ م) ، وخلفه على مـلك مصر ابنه أبو الجيش خمارويه ، وقد كان مسرفا الى حد السفه ، ميالا الى الأبهة والعظمة . ولا أدل على ذلك من تجهيزه ابنته قطر الندى ، للخليفة العباسى المعتضد سنة ٢٨١ هـ (٨٩٤ م) جهازا لم تجهز به عروس من قبل ، حتى صار مضرب الأمثال فى البذخ والترف ، مما أفقر الدولة ، وجر عليها الخراب والدمار . فلما قتل سنة ٢٨٣ هـ (٨٩٦ م) ترك خزائنها خاوية مما أدى الى زوال دولة بنى طولون

ومما يدل على بذخه واسرافه ، انه أحال ميدان أبيه الفسيح الى بستان غرس فيه أنواع الرياحين وأصناف الشجر. «ونقل اليه النخل اللطيف الذى ينال ثمره القائم ، ومنه مايتناوله الجالس، من أصناف خيار النخل . وحمل اليه كل صنف من الشجر المطعم العجيب ، وأنواع الورود . وزرع فيه الزعفران ، وغرس فيه من الريحان المزروع على نقوش معمولة ، وكتابات مكتوبة يتعهدها البستانى بالمقراض ، حتى لا تزيد ورقة على ورقة .

وزرع فيه النيلوفر الأحمر والأزرق والأصفر ، والجنوى العجيب . وأهدى اليه من خراسان كل أصل عجيب . وطعّموا له شجر المشمش باللوز ، وأشباه ذلك مما يستظرف ويستحسن. وكسا أجسام النخل نحاسا مذهبا ، حسن الصنعة . وجعل بين النحاس وأجسام النخل مزاريب الرصاص ، وأجرى فيها الماء المدبّر ، فكان يخرج من تضاعيف قوائم النخل عيون الماء ، وتنحدر الى مساق معمولة ، ويفيض منها الماء الى مجار تسقى سائر البستان . وبنى فيه برجا من خشب الساج ، فكانت هذه الفوارات والبرك والعيون المائية الصناعية ــ على طريقة المصريين القدماء فى عمل البساتين ــ الى جانب أبراج الخشب ، مما يزيد البستان جمالا» (١) وسرح فى البستان من الطير العجيب كالطواويس ودجاج الحبش ، ونحوها شيئا كثيرا . وعمل فى داره مجلسا برواقه سماه بيت الذهب ، طلى حيطانه كلها بالذهب ، وجعل فيه مقدار قامة ونصف ، صورا فى حيطانه بارزة ، من خشب معمول على صورته ، وصور حظاياه ، والمغنيات اللائى تغنينه بأحسن تصوير ، وأبهج تزويق ، وجعل على رءوسهن الأكاليل من الذهب الخالص الابريز. فكان هذا البيت من أعجب مبانى الدنيا . وجعل بين يدى هـذا البيت بركة من زئبق يقـال انها خمسون ذراعا طولا فى خمسين ذراعا عرضا ، وملأها بالزئبق . وعمل فرشا من أدم (جلد) يحشى بالريح (بالهواء) حتى ينتفخ ، فيحكم حينئذ شده ، وينزل خمارويه ، فينام عليه ، فلا يزال الفراش يرتج ويتحرك بحركة الزئبق ، ما دام عليه ، حتى ينام ، متغلبا على الأرق الذى كان مصابا به (٢)

وقد ازدادت عمارة القطائع فى عهده ، وازينت ، ولم تصبح فقط مقر الأمير وبطانته ورجال حكومته ، بل اتسع نطاقها وأنشئت فيها المساجد الجميلة ، والحمامات ، والأفران ، والطواحين ، والحوانيت ، واختطت فيها الشوارع ، وصارت مدينة زاهرة عامرة ، جديرة بأن تكون عاصمة لدولة بنى طولون العظيمة

---

(١) المقريزى : الخطط ، ج ٢ ص ١٠٨ (٢) المقريزى : الخطط ، ج ٢ ص ١٠٩

وبعد مقتل هارون بن خمارويه ، سيّر المكتفي بالله ، الخليفة العباسي ، محمد بن سليمان الكاتب الى مصر ، فوصلها فى سنة ٢٩٢ هـ (٩٠٥ م) وانقض على آثار الطولونيين بالهدم والتخريب ، اذ بلغ حقده عليهم مبلغا دفعه الى محو آثارهم جملة ، ولولا حرمة مساجد الله ، وقداسة بيوته ، لهدم أيضا المسجد الجامع ، ولكنّنا فقدنا بذلك أثرا عظيما من أهم الآثار الاسلامية بمصر

أما القطائع فقدظلت عامرة الى نهاية عهد المستنصر الفاطمى ، حين وقعت الشدة العظمى (١) من ٤٥٧ الى ٤٦٤ هـ (١٠٦٥ — ١٠٧٢ م) ، فخربت هى والعسكر ، وتهدمت ، وتحولت الى تلال وكيمان فيما بين مصر والقاهرة

— ٤ —

الحياة الاقتصادية :

لما قبض أحمد بن طولون على ناصية الأمور فى مصر ، واستقل بحكمها عن الخلافة العباسية ، عنى بشئونها ، واهتم بتحسين مواردها ، حتى تضاعف دخلها وكثر ثراؤها ، وفاقت الخلافة نفسها عمرانا ورخاء ، ومنعة وقوة

ومما يدل على ثروة مصر ورخائها فى عهد ابن طولون أن خراجها قد بلغ فى أيامه أربعة آلاف ألف وثلاثمائة ألف دينار ، هذا مع كثرة صدقاته وانفاقه على مماليكه وعسكره . وأنفق على البيمارستان ستين ألف دينار ، وعلى حصن الجزيرة ثمانين ألف دينار ، وعلى الميدان خمسين ألف دينار ، وحمل الى الخليفة المعتمد فى مدة أربع سنين ألفى ألف دينار ومائتى ألف دينار (٢)

وقد وصفنا لك بستان خمارويه ، وألمعنا الى تجهيزه ابنته قطر الندى للخليفة المعتضد العباسى جهازا لم تجهز به عروس من قبل ، أو من بعد .

---

(١) المقريزى : الخطط ، ج ٢ ص ١٢٤

(٢) النجوم الزاهرة لابن تغرى بردى ، ج ٣ ص ١٢

ذلك الجهاز الذي تكلف مليون دينار أو ما يقرب من نصف مليون جنيه مصري. ومما اشتمل عليه ذلك الجهاز أربعة آلاف منطقة مرصعة بالجواهر، وعشرة صناديق مملوءة بالجواهر، وألف هاون من الذهب لسحق العطور، وألف تكة بلغت تكاليف الواحدة عشرة دنانير. كما بني لها على طول الطريق، بين القطائع وبغداد، وعلى رأس كل مرحلة من مراحل الطريق، منزلا تأوي اليه، أعد فيه من أسباب الراحة والترف ما يصلح لمثلها في حالة الاقامة، فلا تحس بوعثاء السفر، حتى لكأنها لم تتعد أسوار قصر خمارويه في القطائع

ولقد أولى ابن طولون البلاد كل عنايته، وتعهدها بالاصلاح والتعمير، وعني بصفة خاصة بأعمال الري، وأصلح مقياس النيل في جزيرة الروضة

الحياة الاجتماعية :

واتسعت رقعة البلاد، وترامت أطرافها، فعم الرخاء أرجاءها، ويسر العيش بها، وازينت القطائع بالقصور الفاخرة، والدور العامرة

ولقد تغلب على مشكلة المرض، فأنشأ أول مستشفى في مصر، جنوبي القطائع، فسبق بهذا عصره بأحد عشر قرنا. وقد أنفق على بنائه وتجهيزه ستين ألف دينار. وعني بالمرضى عناية فائقة، ولم يقتصر على مدهم بالدواء، بل أمدهم أيضا بالغذاء والكساء، وشرط ألا يعالج فيه جندي ولا مملوك، وقصره على أفراد الشعب والفقراء من الناس، وألحق به حمامين : أحدهما للرجال والآخر للنساء

وقد حبس على مسجده الجامع وقناطره ومارستانه دخل بعض الأبنية، ولعل ذلك كان بدء نظام الوقف، ذلك النظام الذي كان له أخطر أثر في الحياة الاجتماعية في الاسلام بعد ذلك (١)

الحالة العلمية :

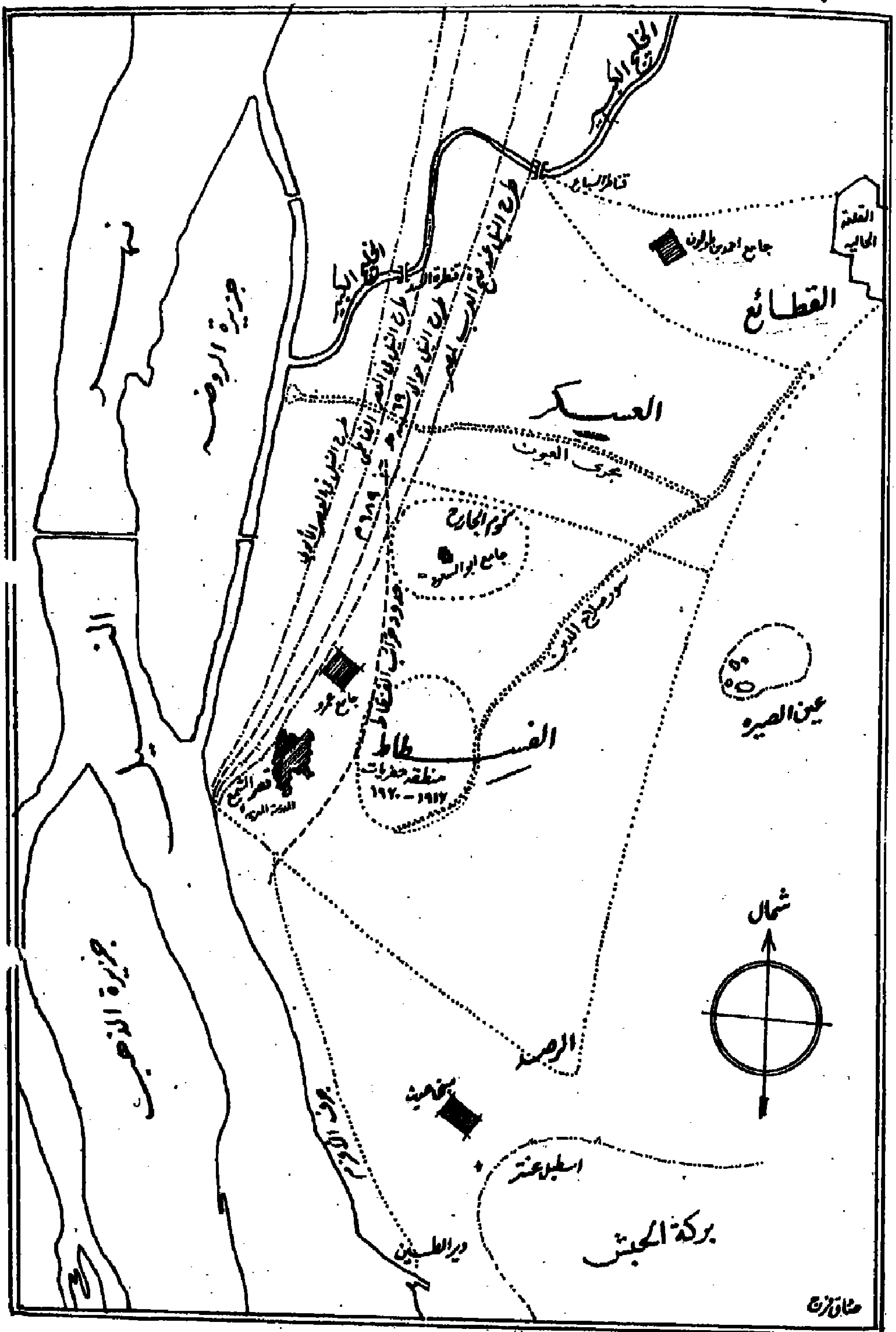
انحصرت الثقافة في علوم القرآن والدين، وما يتصل بها من فنون

---

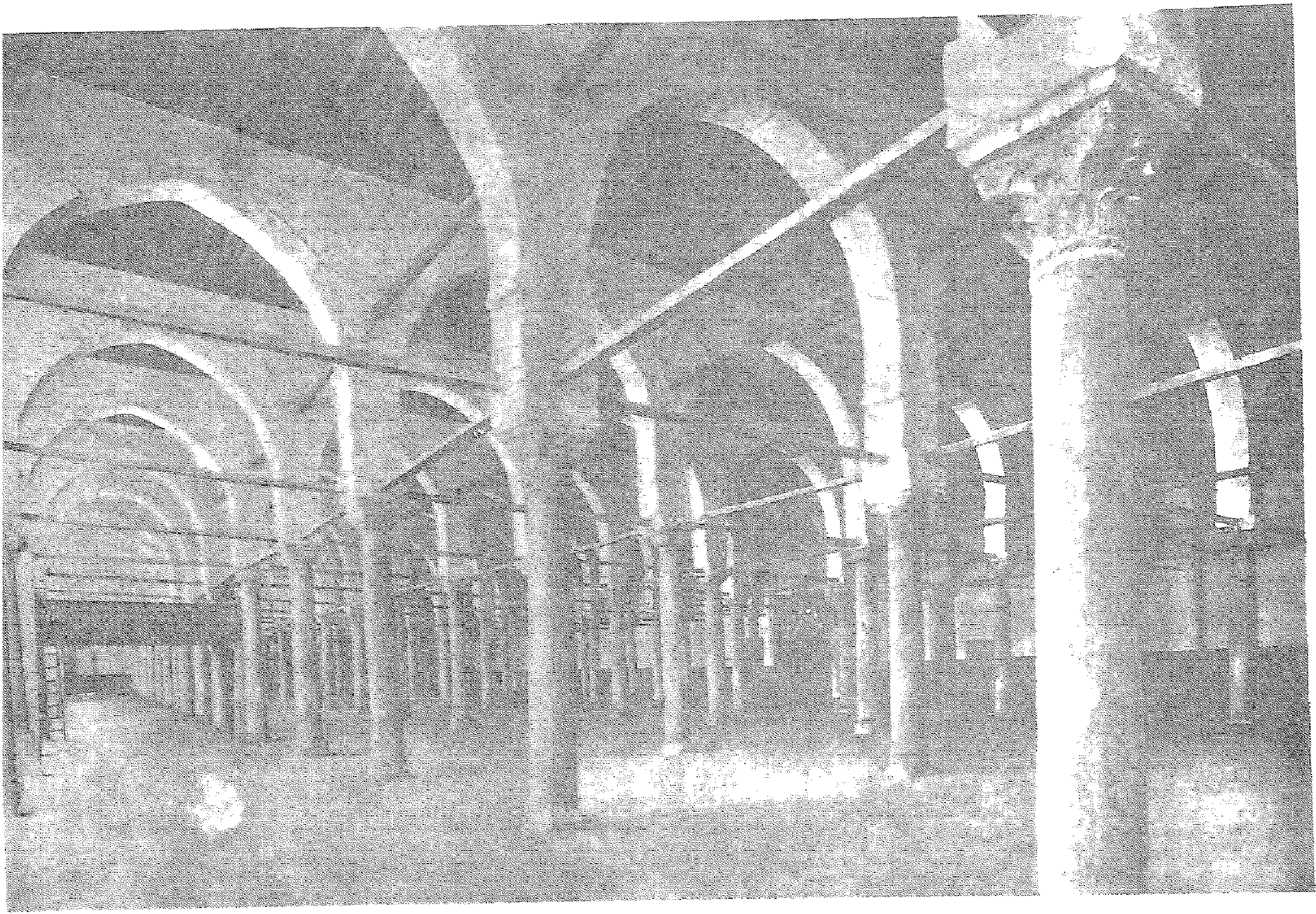
(١) الفن الاسلامي بمصر للمرحوم الدكتور زكي محمد حسن، ص ٦٧

اللغة ، كالنحو والصرف . وكان جامع ابن طولون منتدى العلماء والفقهاء والمحدثين . ومن أشهر المحدثين والفقهاء فى العهد الطولونى وقبله الربيع ابن سليمان المرادى بالولاء (١٧٤ ــ ٢٧٠ هـ/٧٩٠ ــ ٨٨٣ م) ، وقد امتاز بسعة الحفظ وجمع الرواية ، خصوصا رواية مذهب الشافعى . وقد كان يدرس فى جامع الفسطاط ، ثم استدعاه أحمد بن طولون الى التدريس فى مسجده لما بناه . ويروى أن ابن طولون أعطاه فى أول درس ألقاه فى جامعه كيسا به ألف دينار . وكان المحدثون يفدون على مصر من الأقطار المختلفة ليأخذوا عنه ، اذ كان يعتبر امام الشافعية فيها . كذلك كان أبو جعفر الطحاوى امام الحنفية فيها (٢٢٩ ــ ٣٢١ هـ/٨٤٣ ــ ٩٣٣م) . وكان من أسبق المؤلفين المصريين فى فنون مختلفة ، من بينها علوم القرآن والتاريخ. وأكبر من كان يمثل الثقافة الدينية فى مصر فى هذا العصر أبو بكر بن الحداد، فقد كان يلقب بفقيه مصر وفصيحها وعابدها ، توفى سنة ٣٤٤ هـ (٩٥٥م). ومن أشهر الفقهاء علما فى ذلك العصر « سيبويه المصرى » ، فقد كان يعلم كثيرا من معانى القرآن ، وقراءاته ، وغريبه ، واعرابه ، وأحكامه ، ويعرف من النحو والغريب ما لقب بسببه سيبويه

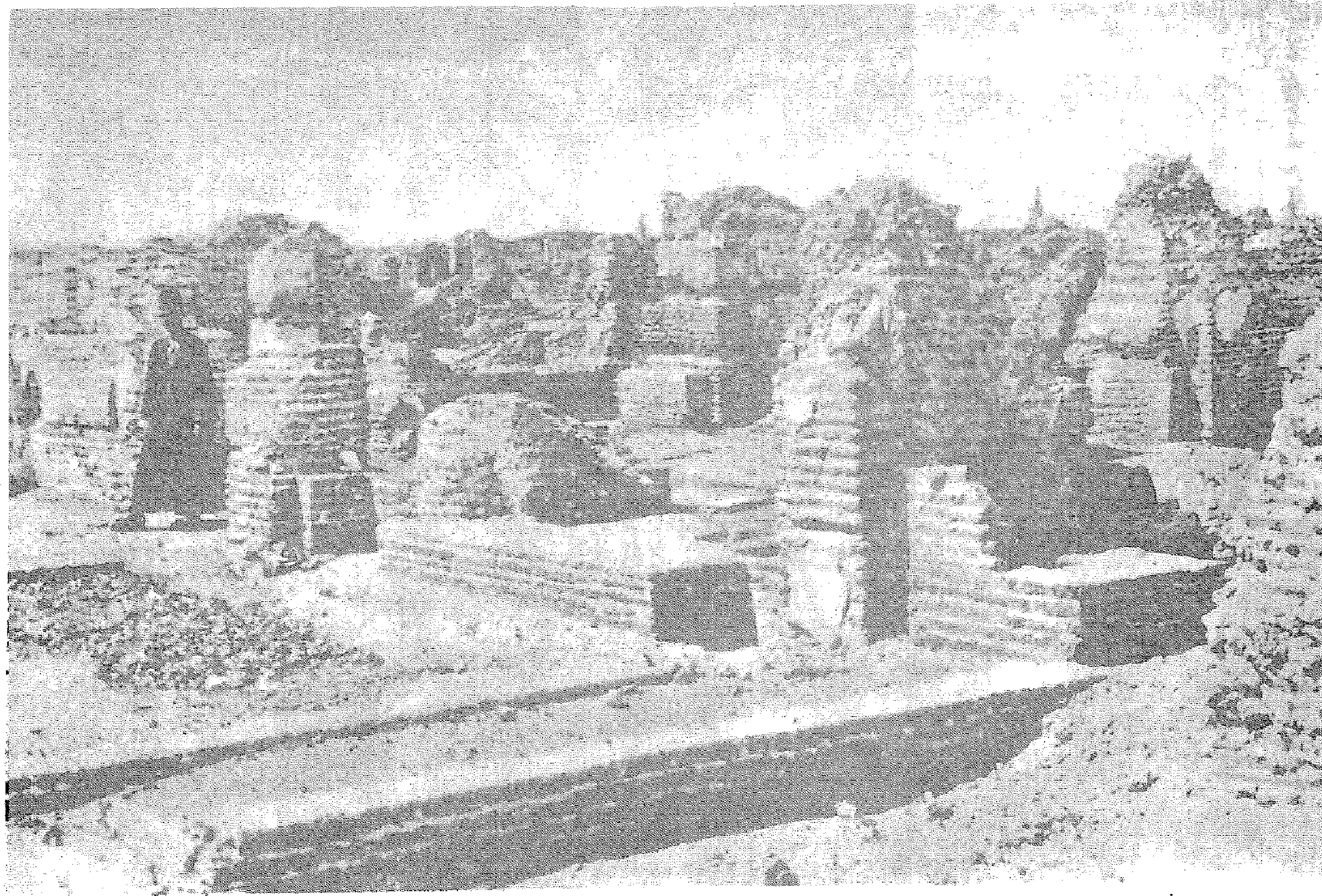
ومن أشهر المؤرخين ابن يونس (٢٨١ ــ ٣٤٧ هـ/٨٩٤ ــ ٩٥٨ م) ، فقد عنى بنشر مفاخر مصر ورجالها ، مع العناية بحوادثها . وقد جمع لها تاريخين : أحدهما وهو الأكبر ، ويختص بالمصريين منشأ ، والآخر صغير، فيمن ورد على مصر من الغرباء . وكان محمد بن يوسف الكندى (٢٨٣ ــ ٣٥٠ هـ/٨٩٦ ــ ٩٦١ م) من أعلم الناس بتاريخ مصر وأهلها ، وأعمالها وثغورها ، وهو مصرى ، نشأ بمصر ومات بها ، وهو صاحب كتاب « الولاة والقضاة» ، وهو من أهم مصادر تاريخ مصر، وكتاب «فتوح مصر والمغرب والأندلس» ، وهو أيضا من أهم المراجع فى تاريخ تلك البلاد . ومن أشهر مؤرخى هذا العصر أيضا ابن زولاق الحسن بن ابراهيم الليثى بالولاء . عنى كذلك بتاريخ مصر ، فأكمل أخبار قضــاة مصر للكندى ، وعنى



رسم تقريبى يوضح مواقع الفسطاط ، والعسكر ، والقطائع .. كما يوضح
تحول الشاطىء الشرقى للنيل نحو الغرب منذ الفتح العربى حتى الوقت الحالى

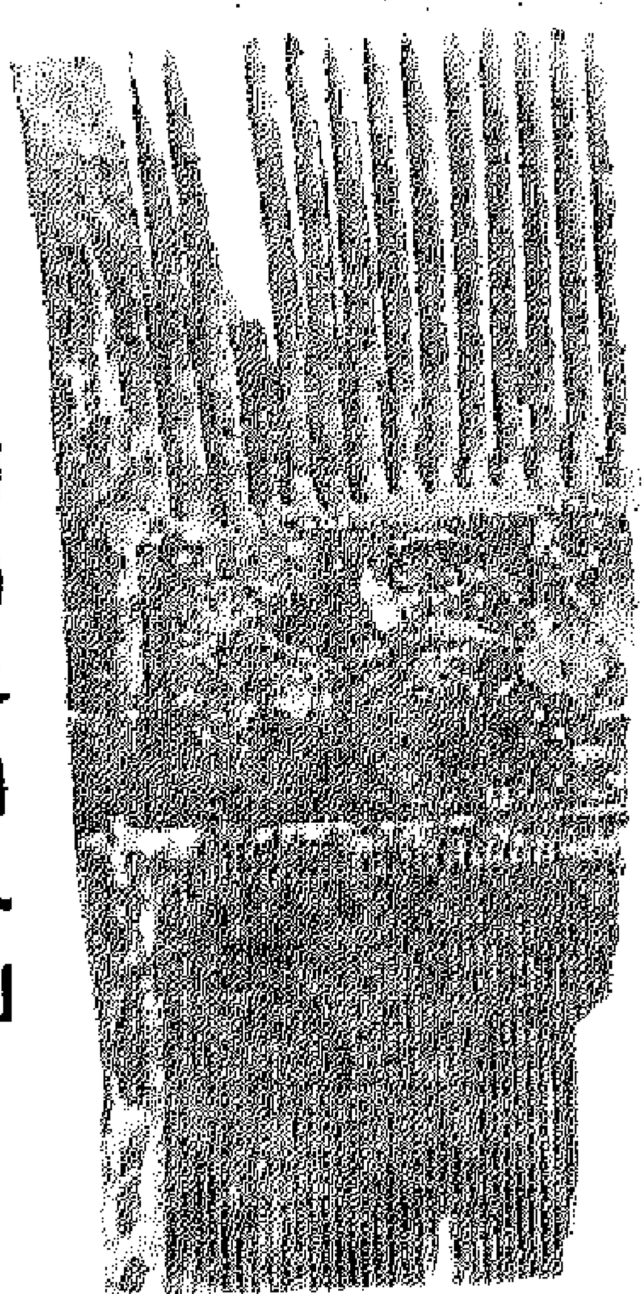


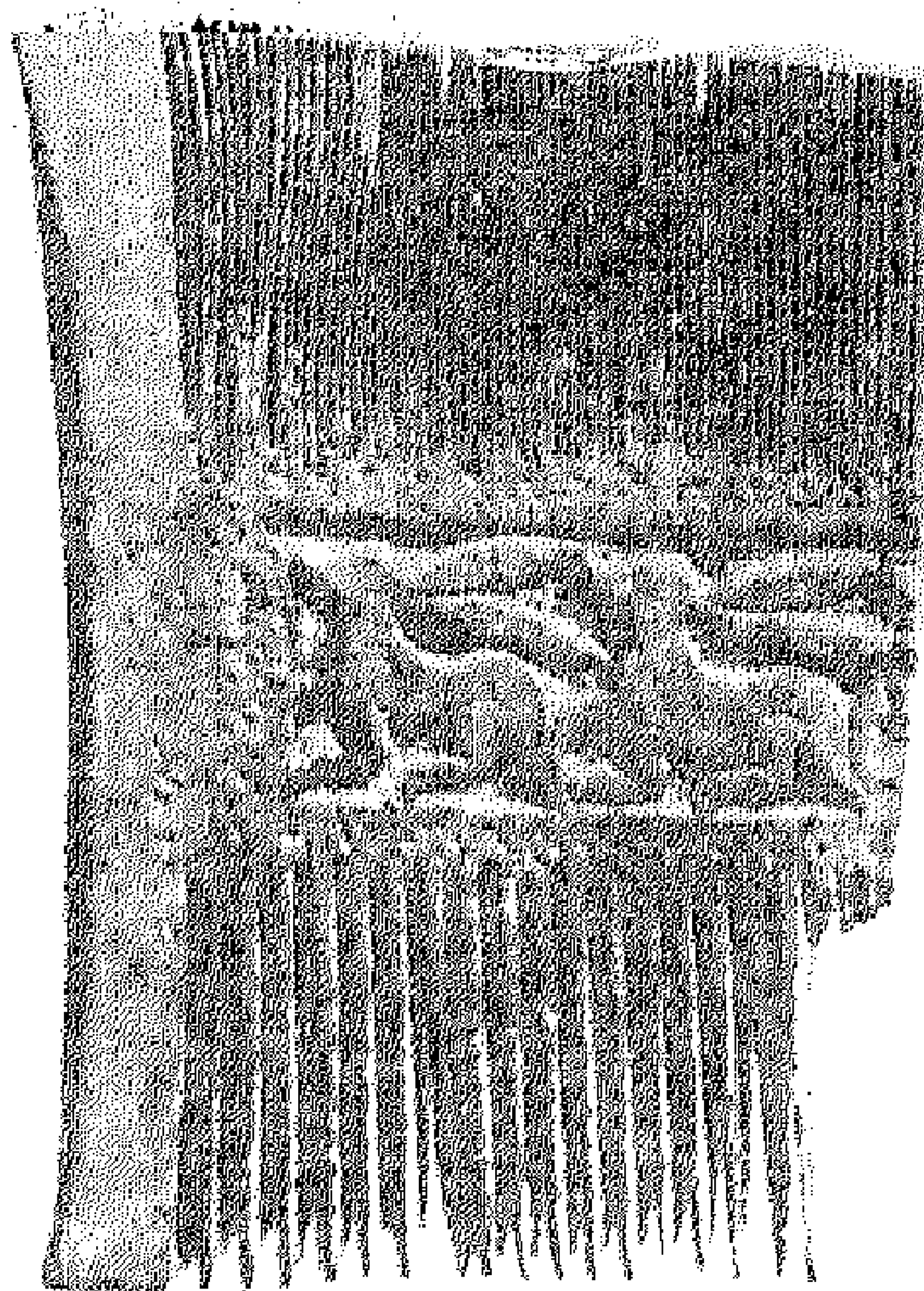
الايوان الشرقي (ايوان القبلة) بجامع عمرو بن العاص ويرى به عدد كبير
من الاعمدة القديمة ذات التيجـان المختلفة ، ترتـكز عليهـا عقود مدببة

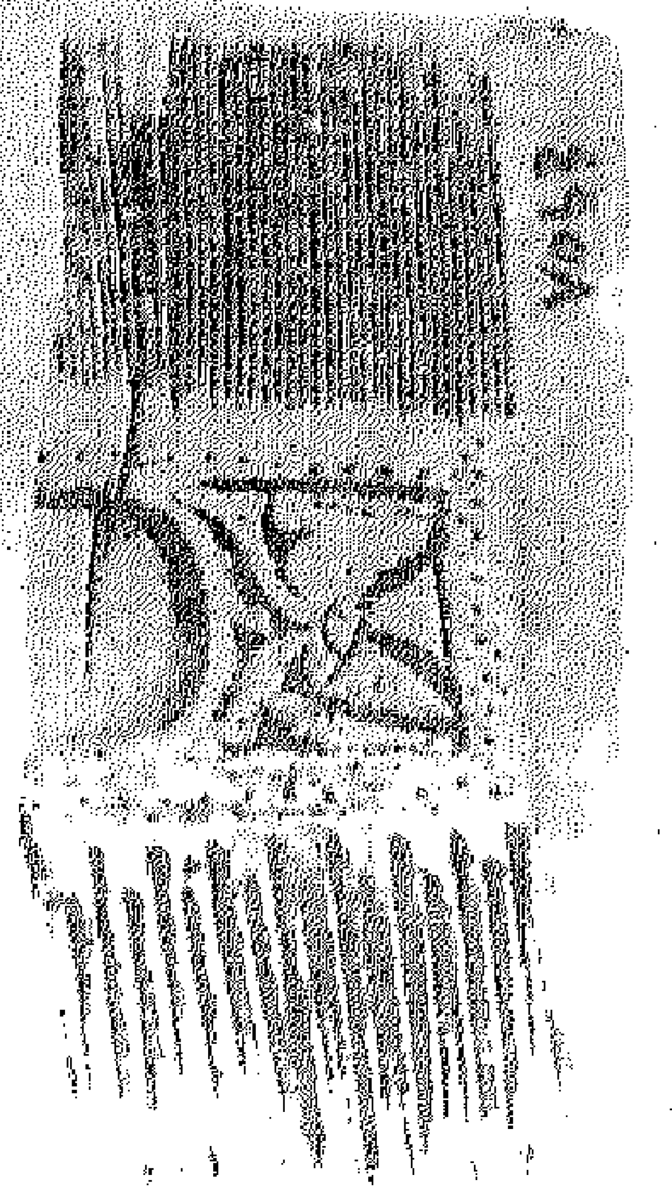


احدى الدور بمدينة الفسطاط ، وقد كشفت عنها حفريات المتحف
الاسلامي بالقاهرة (من كتاب حفريات الفسطاط للمرحوم علي بهجت)

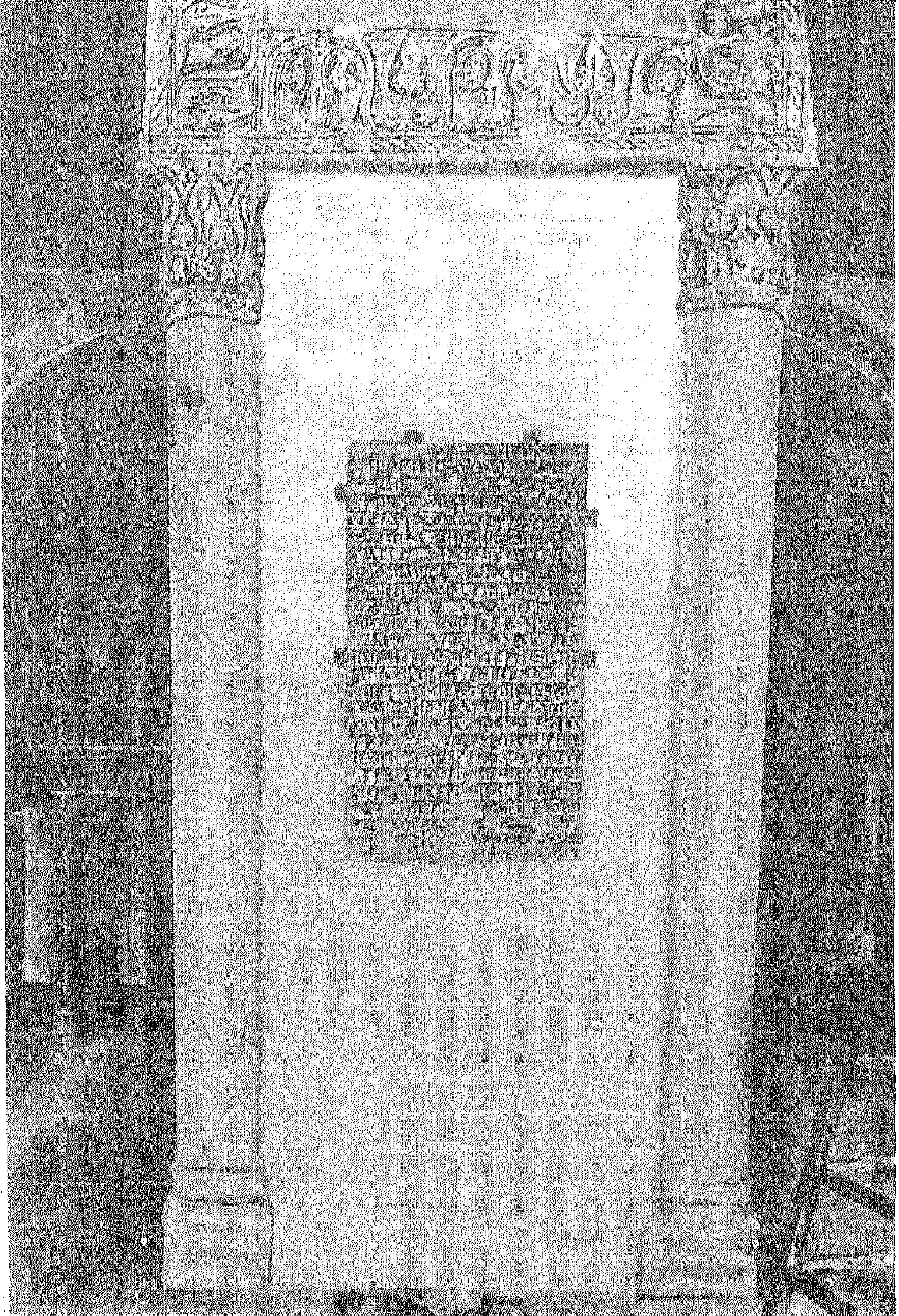
باب حصن بابليون (قصر الشمع) وقد كانت مياه النيل تحف به وقت الفتح



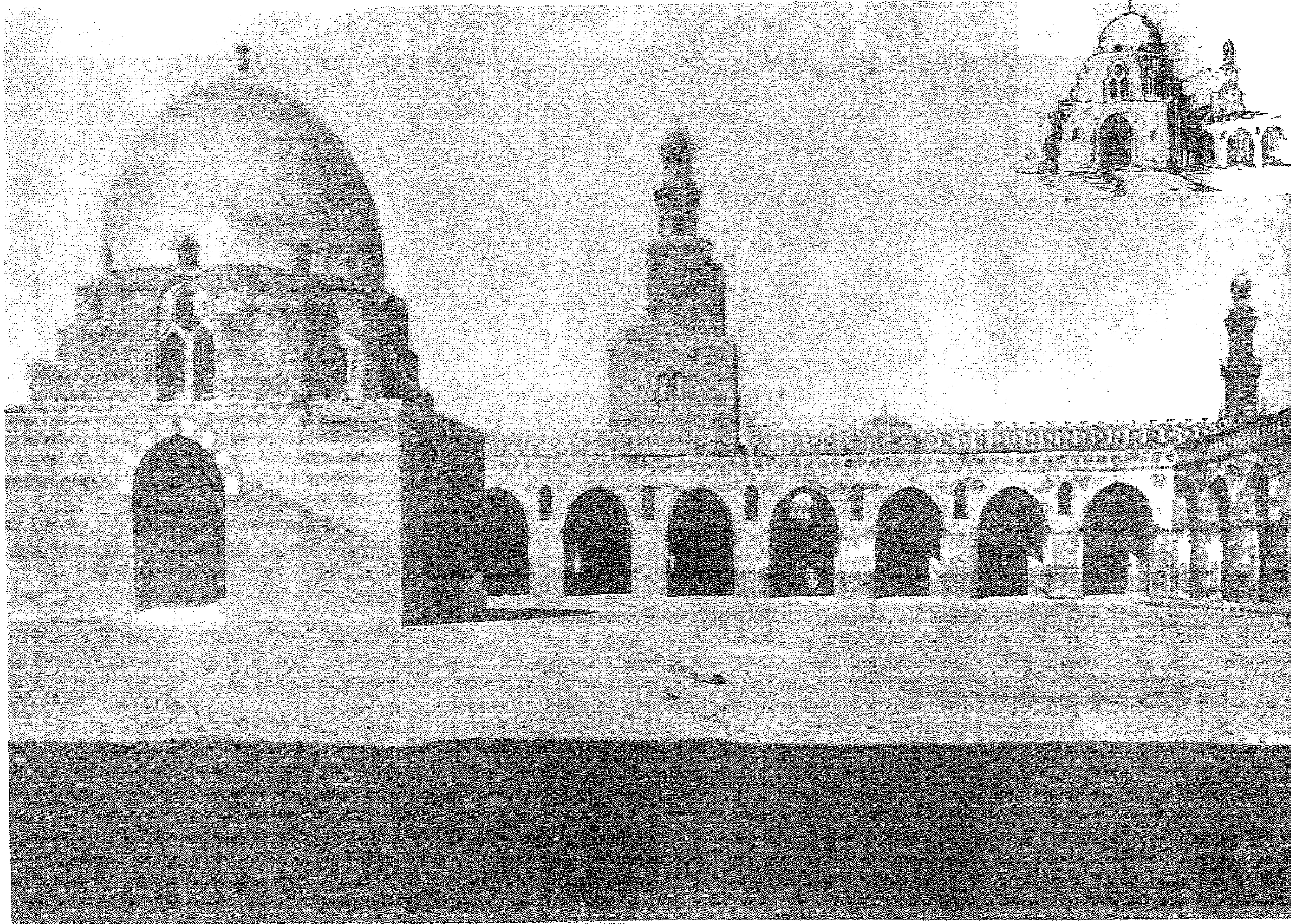




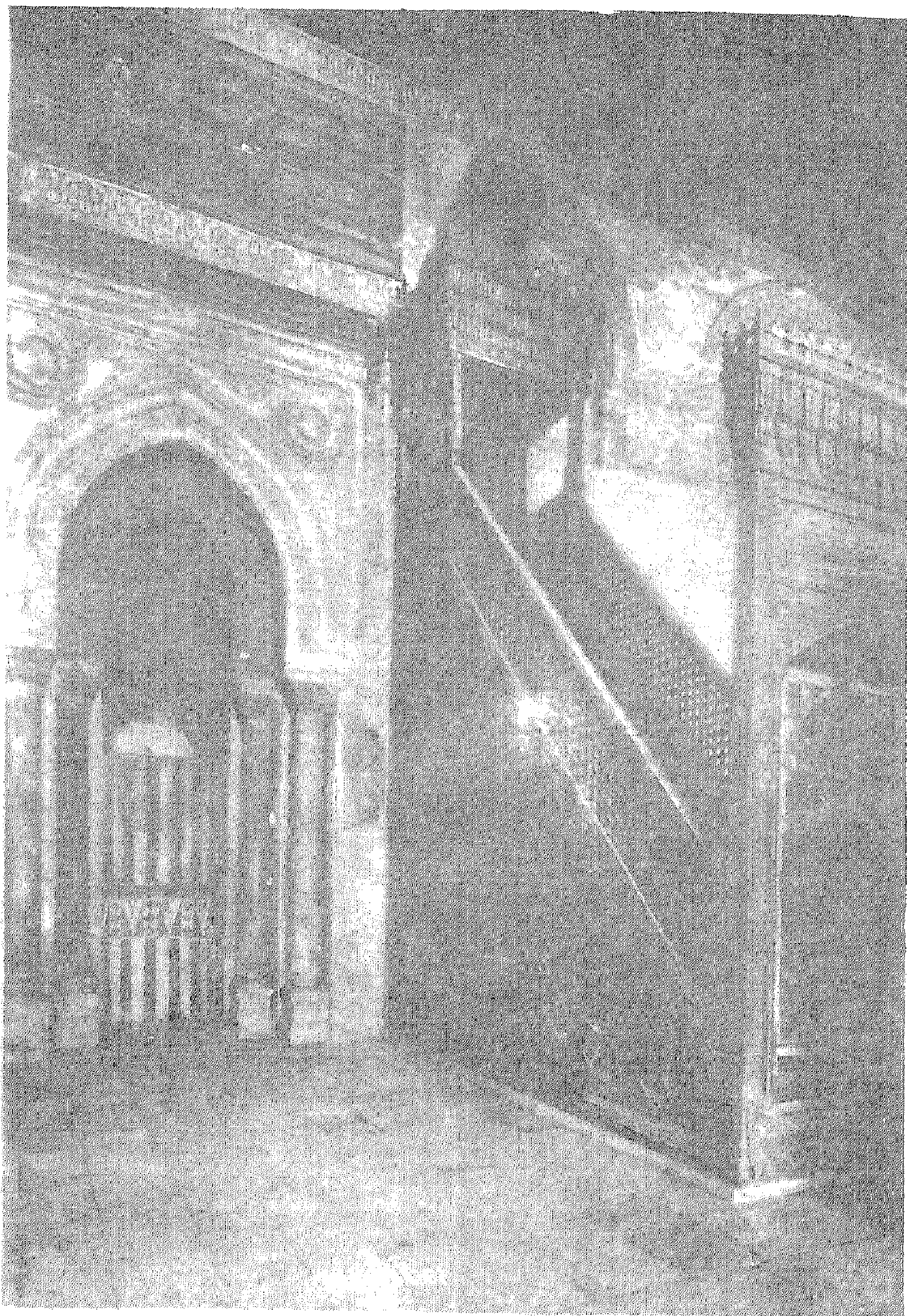
أمشاط مصنوعة من الخشب بها زخارف محفورة وجدت بحفريات الفسطاط (من كتاب حفريات الفسطاط للمرحوم على بهجت)



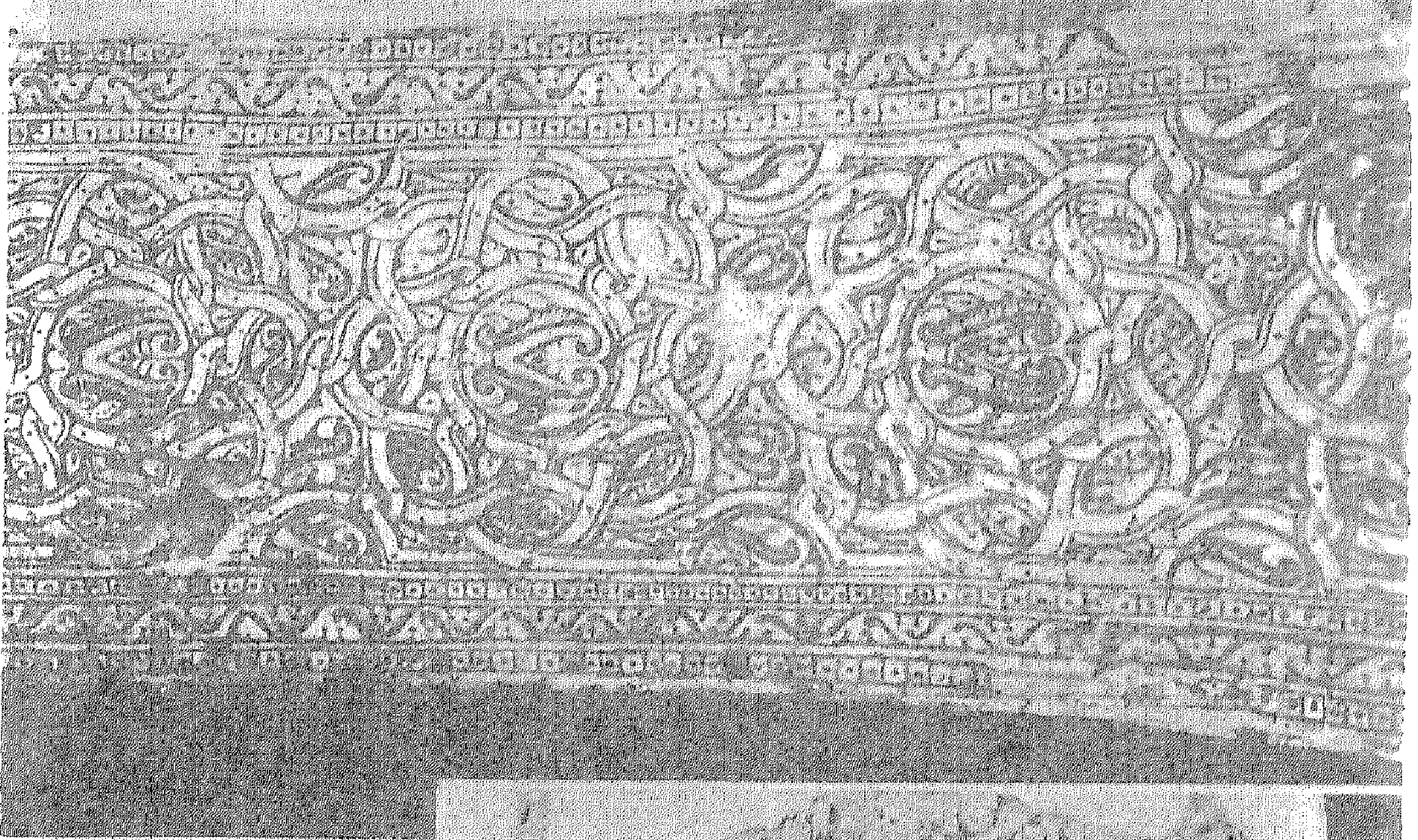
اللوح التذكارى بجامع احمد بن طولون ويتضمن تاريخ انشاء المسجد ، واسم منشئه ، ويوجد على احد الاكتاف بالمسجد . ويرى على جانبى الكتف عمودان ، تاجاهما والافريز الذى يعلوهما من الزخارف الجصية



المئذنة والميضاة بالمسجد الطولونى ، وكلاهما من العصر المملوكى . وتشاهد الدعائم (الاكتاف) والفتحات التى تعلوها ، والزخارف الجصية التى على شكل صرر وكذا الشرافات . . .



منبر الجامع الطولونى ، وقد صنع فى العصر المملوكى ، والمحراب القديم وهو معاصر لانشاء المسجد ، ويعلوه أفريز من الخط الكوفى البسيط تقرأ فيه : لا اله الا الله محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم

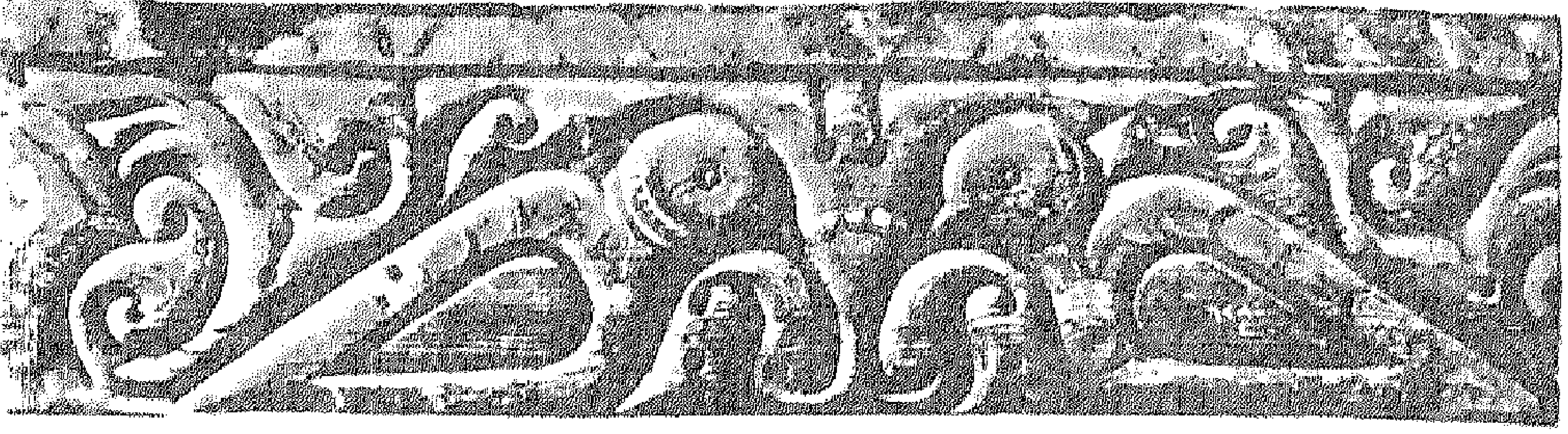




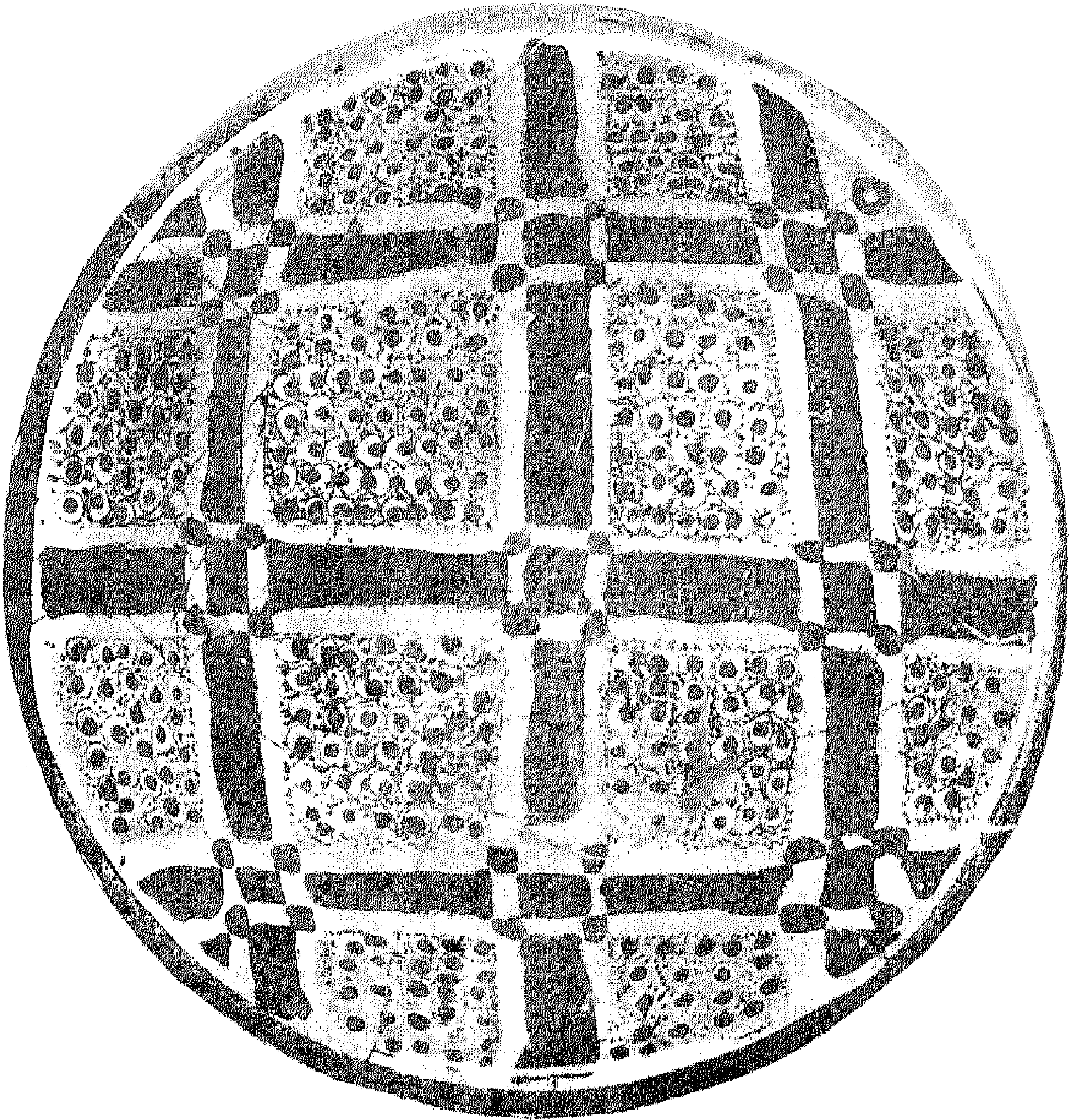
زخارف جصية على باطن أحد العقود فى الجامع الطولونى ، قوامها خطوط لولبية ، ولآلىء ، وأشرطة . .



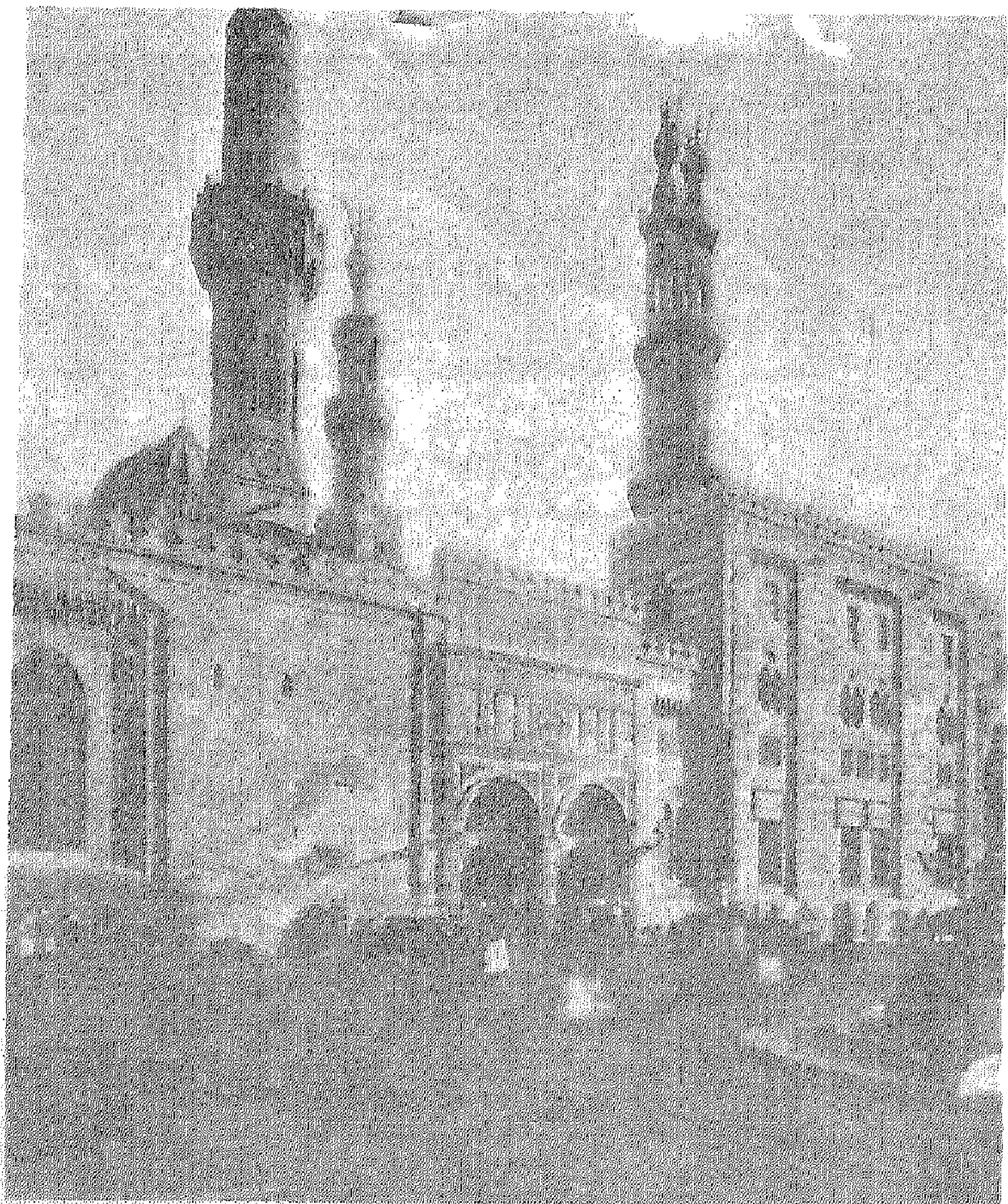
تاجا عمودين فى الجامع الطولونى ، والزخارف الجصية على باطن العقد الذى يحمله العمودان . والتاجان كما هو مشاهد بسيطان على شكل ناقوسين كالتيجان الكورنثية ذات الورق المسمى شوك اليهود



حشوة من الخشب المحفور من العصر الطولونى ، قوام الزخرفة فيها عصفوران متقـــابلان (محفوظة بالمتحف الاســلامى بالقـــاهرة)



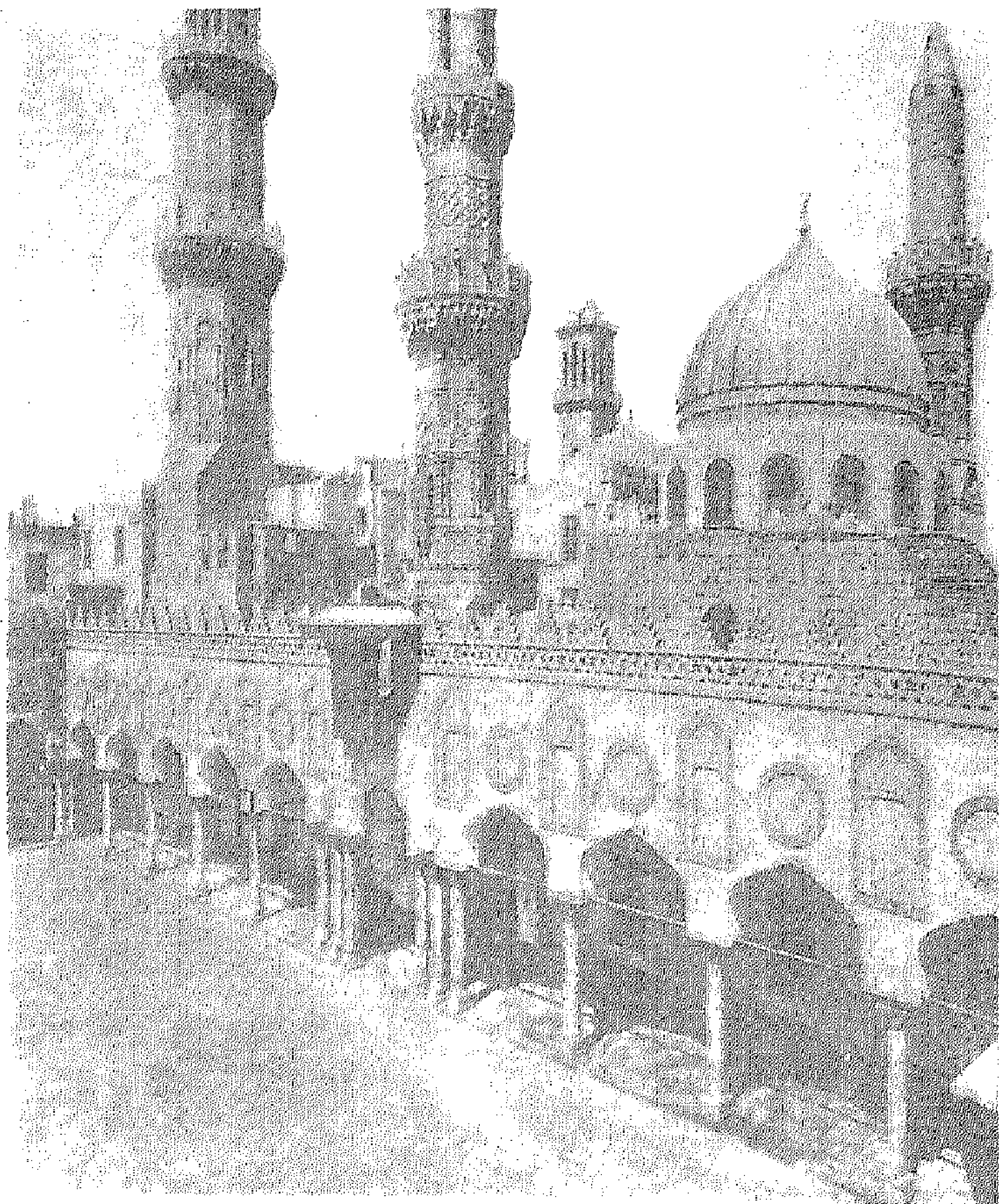
صحن من الخزف ذى البريق المعدنى من العصر الطولونى او العصر العباسى ، تتكون زخرفته من خطوط عريضةمتقاطعة، تحصر بينها مناطق مملوءة بالدوائر التى تتوسطها نقطحمراء (محفوظة بالمتحف الاسلامى بالقاهرة)



الواجهة الغربية للجامع الازهر ، ويرى الباب الغربي الكبير في هذه الواجهة ، وقد انشاه الامير عبد الرحمن كتخدا سنة ١١٦٧ هـ

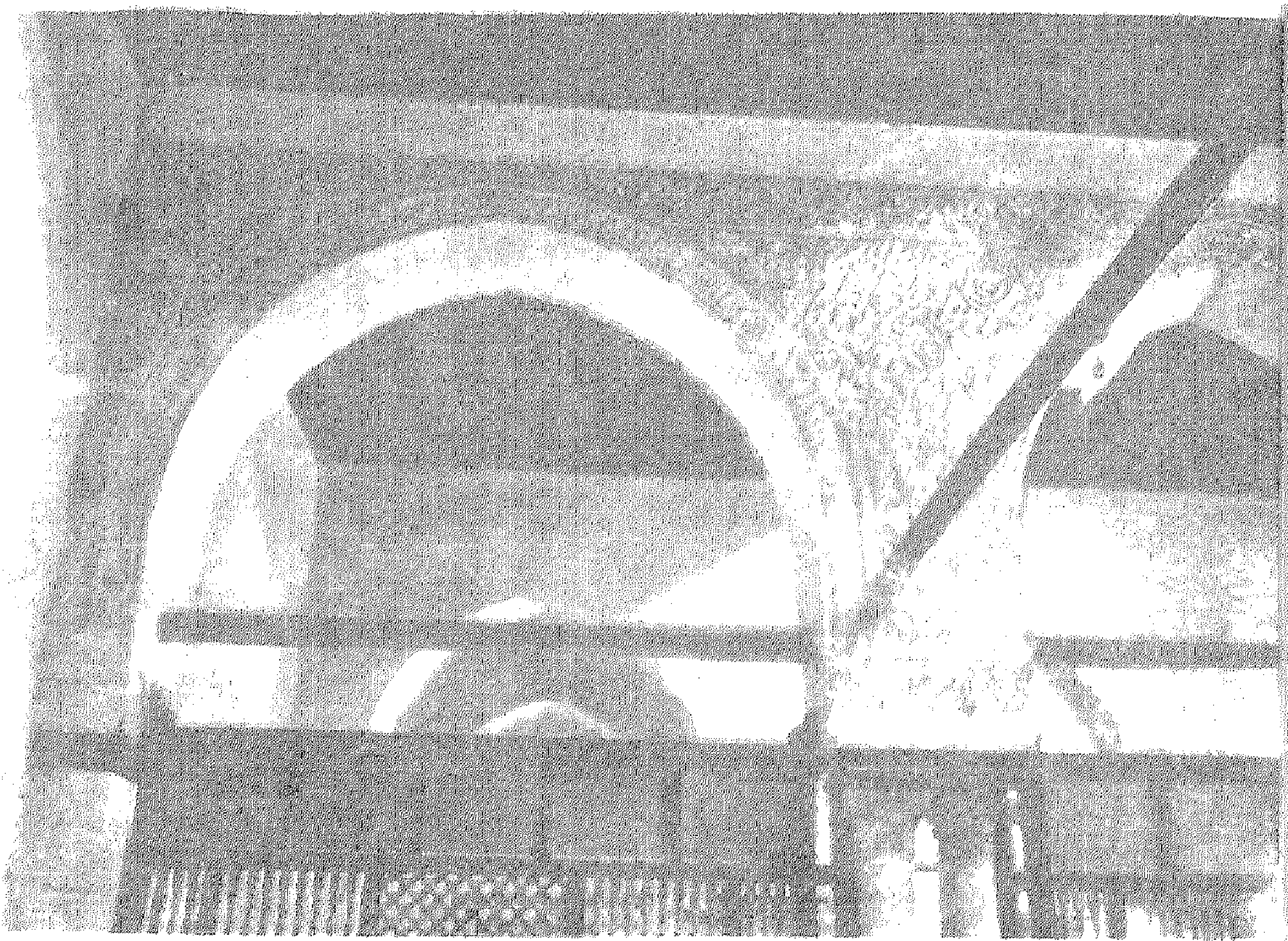
داخل الجامع الازهر ويظهر به المجاز والمحراب المعزى والعقود والاعمدة القديمة

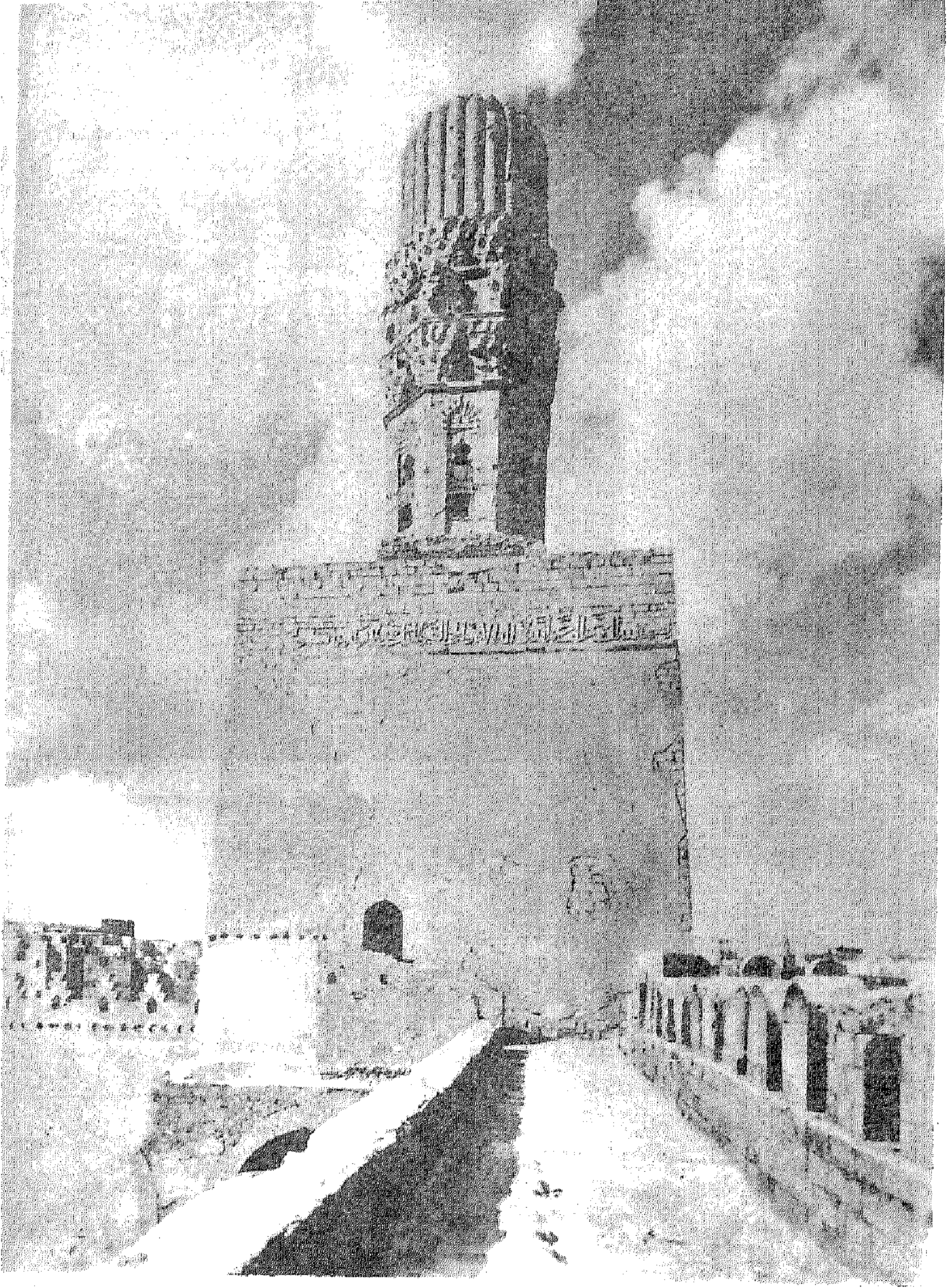




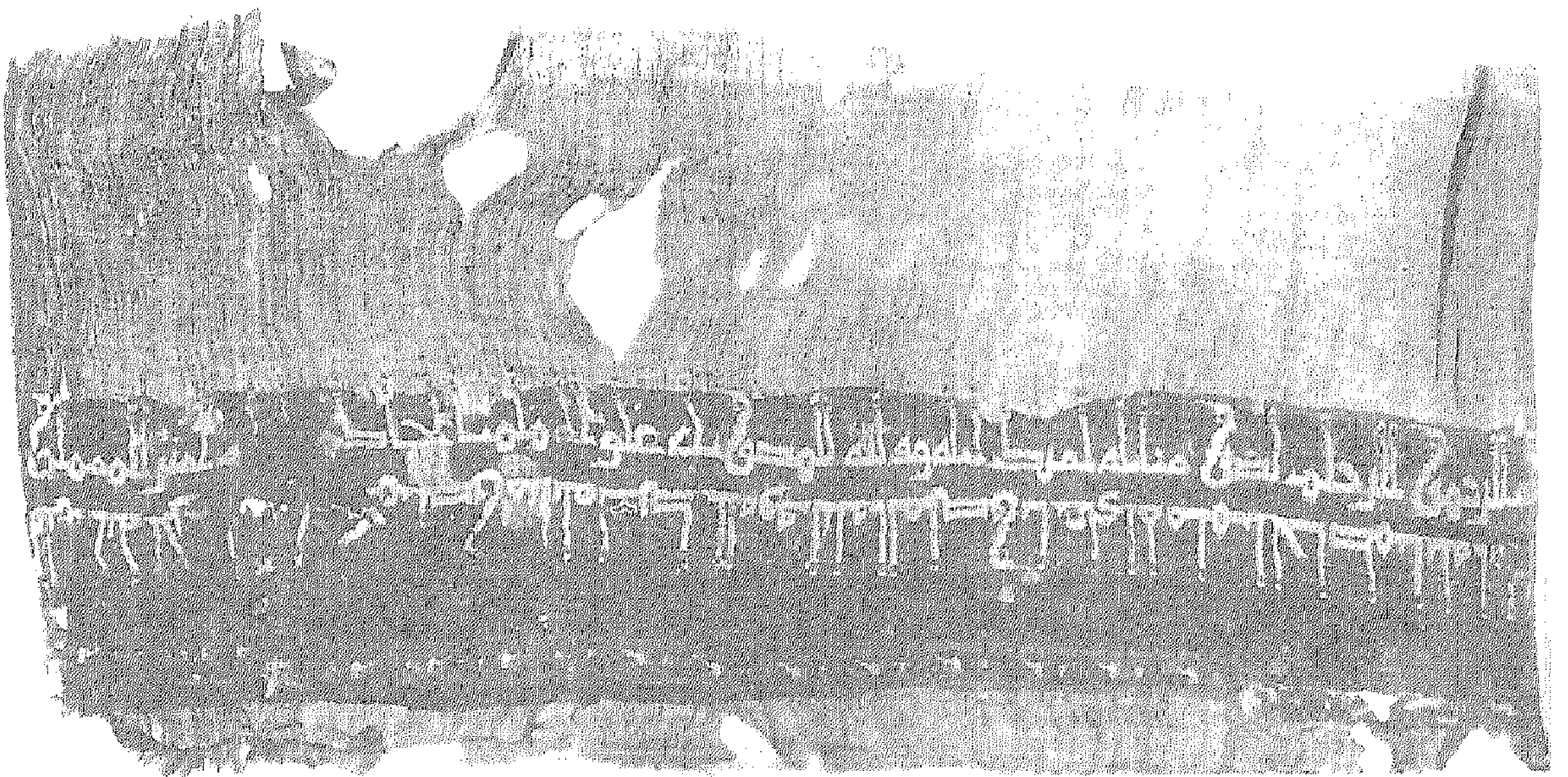
الجامع الأزهر : الصحن ، وترى على الجدران زخارف جصية . كذلك ترى مئذنة جامع قايتباى ومئذنة جامع الغورى ذات الرأسين . .

الزخارف الجصية النباتية ، والكتابات الكوفية المشجرة على عقود الجامع الازهر

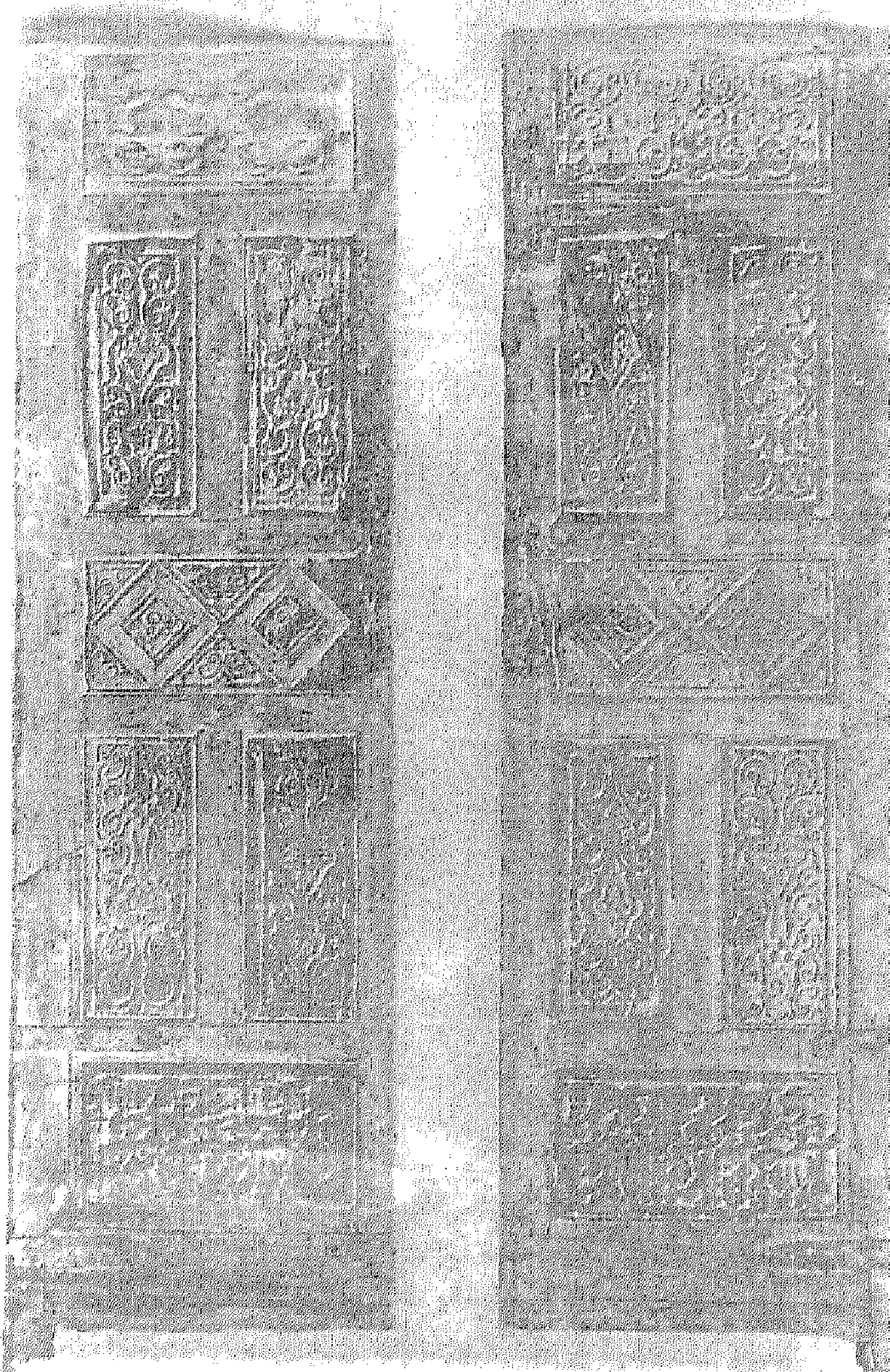




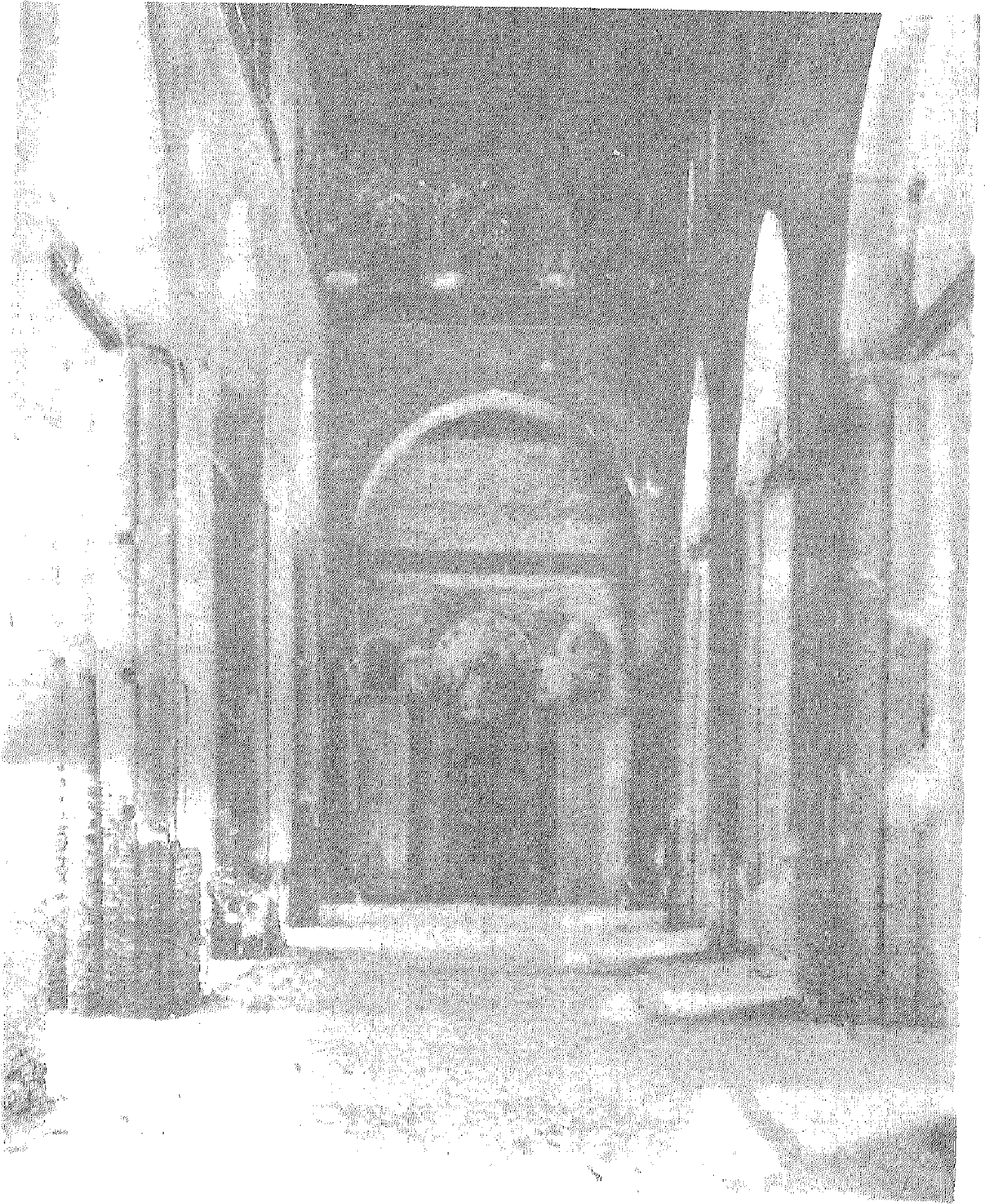
المنارة البحرية لمسجد الحاكم وجزؤها العلوى من الآجر . وترى الى اليسار بعض الشرافات المسننة التى تعلو الجدران الداخلية ، والى اليمين جزء من سور بدر الجمالى والطريق الموصل الى الابراج



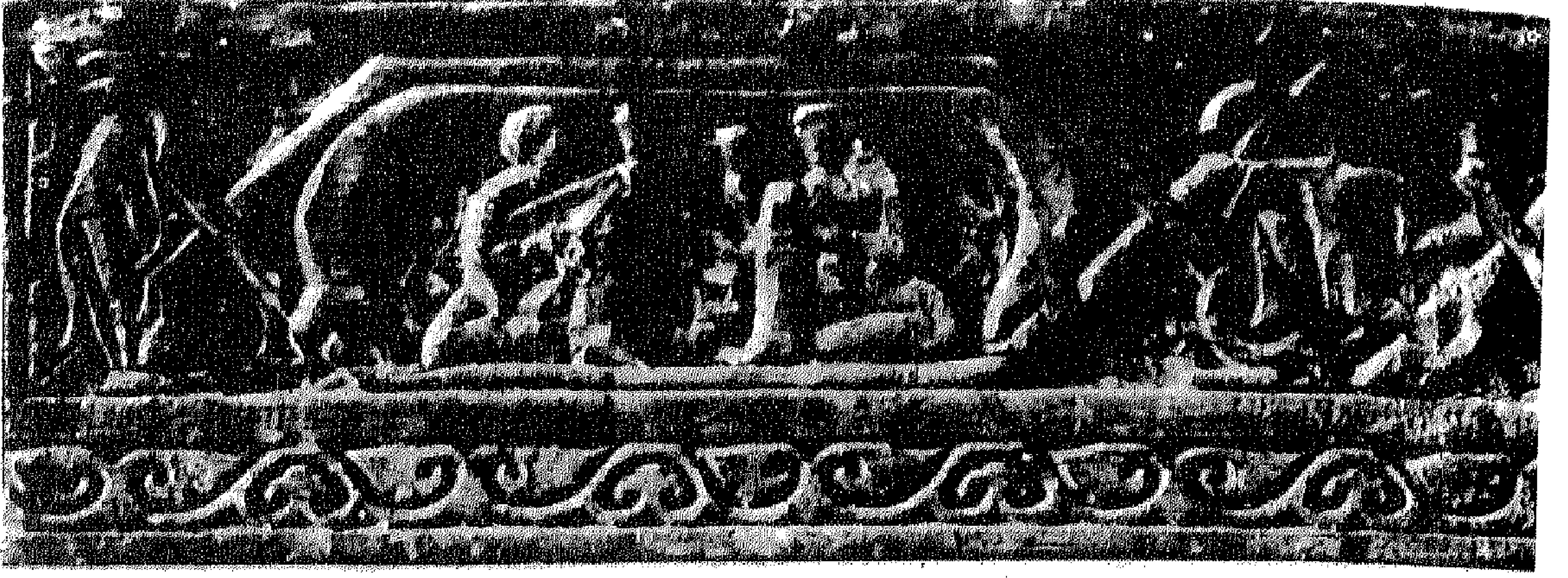
قطعة من نسيج من الكتان والحرير باسم الخليفة الحاكم بأمر الله (بداية القرن الحادى عشر الميلادى) محفوظة بالمتحف الاسلامى بالقاهرة



مصراعا باب من الخشب باسم الخليفة الحاكم بأمر الله (بداية القرن الحادى عشر الميلادى) محفوظان بالمتحف الاسلامى بالقاهرة ، أصلهما من الجامع الازهر وزخارفهما النباتية المحفورة بعمق، متأثرة بالطراز الطولونى أو العباسى



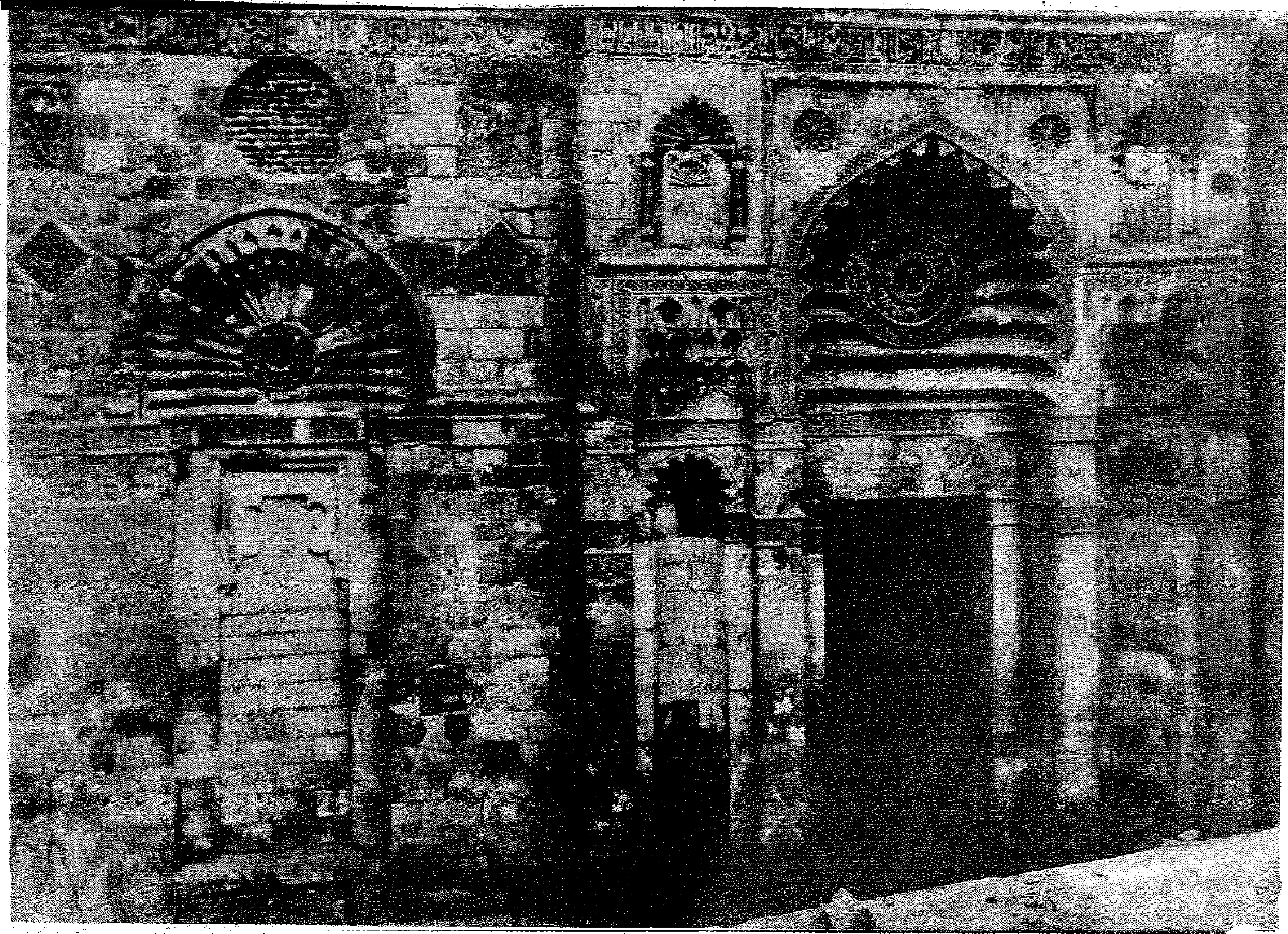
العقود المدببة بمسجد الحاكم ، والدعائم واشباه الاعمدة من الآجر ، وهى شـــبيهة بالدعائم (الاكتـــاف) فى جامع احمد بن طولون



قطعة من الواح خشبية ، أصلها من أحد قصور الفاطميين (من القرن العاشر الميلادى) محفوظة بالمتحف الاسلامي بالقاهرة، وتمثل الزخرفة المحفورة عليها مناظر طرب أو موسيقى أو صيد أو سفر أو قتال، فوق أرضية من فروع نباتية أقل بروزا



صحن من الخزف ذى البريق المعدنى (القرن الحادى عشر الميلادى) بالمتحف الاسلامى ويمكن نسبته الى مدرسة مسلم وعليه زخارف نباتية بالبريق المعدنى ذى اللون الذهبى المائل الى الخضرة فى وسطها ديك رافع ذيله ويتدلى من منقاره فرع نباتى



الواجهة الرئيسية لمسجد الاقمر ، وتشاهد فيها التجاويف والمحارات وصفوف المقرنصات الصغيرة ، وأفاريز الخط الكوفي التي تدل على اسم منشىء المسجد وتاريخ الانشاء

بخططها ، فألف فيها ، وكانت خططه أساسا لمن أتى من بعده ، ومن بينهم المقريزى . ومن أشهر المؤرخين ، وان لم ينتموا الى العصر الطولونى وانما ينتمون الى العصر الأخشيدى ، المؤرخ المشهور المسعودى . وقد كان مؤرخا وجغرافيا ، ممتازا على من سبقه بدقة نظره وسعة اطلاعه ، وكثرة رحلاته ومشاهداته ، فقد أضاف الى الثروة التاريخية كثيرا من الكتب والمراجع النفيسة (١) ، وتوفى سنة ٣٤٦ هـ (٩٥٧ م) ومن أشهر مؤلفاته « مروج الذهب ومعادن الجوهر » وقد ترجم الى الفرنسية

علم الطب :

وسبق أن ذكرنا أن أحمد بن طولون أنشأ بيمارستانا على أرض العسكر، للعناية بالمرضى ، ألحق به صيدلية وحمامين، أحدهما للرجال والآخر للنساء ، ورتب له الأطباء والصيادلة والخدم ، للعناية بالمرضى من مختلف الأديان والأجناس ، ويدلك انشاء هذا المستشفى، وما كان عليه من تنظيم وحسن ترتيب ، واهتمام أحمد بن طولون نفسه بالمرضى والعناية بهم على مدى تقدم فن الطب والتمريض فى عهده . وفى الواقع أن مصر اشتهرت فى هذا العصر بطائفة من الأطباء ، ومن هؤلاء سعد بن توفيل ، طبيب أحمد بن طولون ، وكان نصرانيا ، وابراهيم بن عيسى ، والحسن بن زيرك ، وكان من أطباء ابن طولون أيضا

الفنون :

كذلك كان للدولة الطولونية الفضل الأول ، منذ الفتح الاسلامى فى جعل مصر مركزا مشهورا للفنون ، ومقرا لبلاط فخم . ويعتبر الجامع الطولونى ذخيرة للفنون فى هذه الحقبة من تاريخ مصر ، بما حفل به من نقوش وزخارف ، كانت معينا لدارسى الفنون عند الطولونيين . ولو أن يد محمد بن سليمان الكاتب امتدت اليه أيضا بالتخريب والتدمير ، كما امتدت لقصور القطائع وحماماتها وبساتينها ومستشفاها وسائر أبنيتها ،

(١) كتاب تاريخ آداب اللغة العربية تأليف جرجى زيدان ، ج ٢ ص ٣١٤

لفقدنا حلقة هامة فى سلسلة الفنون الاسلامية فى مصر ، ولاضطرزنا أن نضرب فى بيداء الحدس والتخمين تجاه تلك الفنون (١)

الزخارف الجصية :

واتخذ الطولونيون الجص (الجبس) مادة لطلاء أبنيتهم ، وزخرفوها بزخارف تستمد كثيرا من عناصرها من الأشكال الهندسية ومن الرسوم النباتية ، تلك الرسوم التى قوامها الفروع النباتية ، تخرج منها أوراق العنب وعناقيده ، كما يرى فى واجهات عقود الجامع الطولونى ، أوالخطوط المتداخلة والخطوط اللولبية واللآلىء والأشرطة أو الخطوط المنكسرة كما فى بواطن العقود (٢)

الاخشاب المحفورة :

واستخدم الطولونيون الأخشاب فى مبانيهم وقصورهم ومساجدهم ، ولقد أفادوا من خبرة القبط فى صـناعة الأخشاب ، تلك الصناعة التى توارثوها عن المصريين القدماء ، فاسـتخدموا الخشب فى عمل السقوف والأبواب والمنابر والدكك وأشرطة الكتابة التاريخية أو الزخرفية

وقد وصلت الينا قطع من الخشب ذى الزخارف الطولونية ، مصدرها اما المسجد الجامع أو القصور والأبنية الطولونية البائدة ، ويشبه ماعليها من زخارف الزخارف الجصية ، وهى محفورة حفرا عميقا ، منحرف الجوانب، قوامها الفروع والخطوط الحلزونية التى تغطى الأرضية كلها . وقد يغطى التربيعة من الخشب الطولونى رسم تخطيطى ، أو آخر موضوعاته نباتية تحيط به أشرطة من أقراص صغيرة محفورة ، أو فروع مستديرة ، أو مربعات ، أو أشكال مستطيلة

وذكرنا فى وصف بستان خمارويه ما كان يحلى قصر الذهب من تماثيل خشبية له ولمحظياته ، على مقدار قامة ونصف ، وللأسف لم يصل الينا شىء منها

---

(١) انظر كتاب : Brigg's Moh. Architecture ص ٦١
(٢) انظر كتاب الفن الاسلامى فى مصر للدكتور زكى محمد حسن ص ٧٧

أما الزخارف الجصية والأخشاب المحفورة فبالمتحف الاسلامى بالقاهرة نماذج كثيرة منها . وذكرنا فى وصف الجامع الطولونى الازار الذى يدور تحت سقفه ، المصنوع من الألواح الخشبية ، والمنقوش فى وسطه آيات من القرآن الكريم بحروف كوفية ، من طراز الكتابة الكوفية التى سادت العصر الطولونى ، وهى المكونة من الحروف المربعة ذات الزوايا القائمة

الخزف :

وقد وجدت فى أطلال الفسطاط قطع من الخزف ذى البريق المعدنى، تحمل شبها كبيرا للخزف المصنوع فى سامرا ، مما يؤدى الى الظن بأن هـذا الخزف نقل الى مصر بواسطة أحمد بن طولون ، وقلّد فى المصانع التى أنشأها فى الفسطاط لهذا الغرض . ويذهب فريق من الباحثين فى دراسة الخزف الى أن الخزف ذا البريق المعدنى نشأ على ضفاف النيل ، ثم أخذ ينمو ويترعرع فى العصر الاسلامى . وقد ذكر المرحوم على بهجت فى كتابه عن الخزف الاسلامى فى مصر أن الخزف الطولونى أرق طينة من النوع الذى ينسبه الى ما قبل العصر الطولونى ، كما يمتاز بزخارفه ذات البريق المعدنى ذى اللون الأصفر أو الزيتونى على أرضية بيضاء مشربة بالصفرة أو « كريم »

وفى أكثر القطع الخزفية الطولونية خط يحيط بالزخارف الرئيسـية ، فيكون منطقة تزين ما يخرج عنها بقع ثلاثية الشكل ، أو دوائر صغيرة فى وسط كل منها نقطة . وفى المتحف الاسلامى بالقاهرة صحن فيه زخارف هندسية صفراء وسمراء ، وعلى أرضيته البيضاء النقط المعروفة فى زخرفة الخزف العراقى بسامرا (١)

المنسوجات :

وقد كان لمصر شهرة عظيمة فى صناعة المنسوجات قبل الفتح الاسلامى، وظل المصريون يزاولون تلك الصناعة كغيرها من الصناعات الأخرى طوال

(١) الفن الاسلامى فى مصر تأليف المرحوم الدكتور زكى محمد حسن ص ١٠٧

العصر الاسلامى ، ولكنها أخذت تتطور تطورا تدريجيا بما يلائم ذلك العصر والتقاليد الاسلامية

وتشتمل مجموعة المتحف الاسلامى بالقاهرة على عدد من قطع النسيج بأسماء الخلفاء العباسيين والأمراء الطولونيين . والمعروف أن الجزية التى كانت ترسلها مصر الى بلاط الخليفة العباسى ، ثم الهدايا التى أرسلها أحمد ابن طولون الى الخليفة المعتمد ، والتى أرسلها خمارويه من بعده الى الخليفة المعتضد — كان فيها شيء كثير من الأقمشة الثمينة ، والمنسوجات النفيسة

ولا بد أن نشير هنا الى أن مصانع النسيج كانت على نوعين : مصانع أهلية وهى التى تصنع المنسوجات الشعبية ، ويطلق عليها طراز العامة ، وتشرف عليها الحكومة . ومصانع حكومية ، تصنع بها المنسوجات للخليفة ورجال بلاطه وخاصته وهى التى يطلق عليها طراز الخاصة . وقد كانت أسماء الخلفاء والأمراء تكتب على تلك المنسوجات ، ويقرن باسم الخليفة ألقابه وبعض عبارات الأدعية وكثيرا ما كان يذكر فيها اسم المدينة التى فيها الطراز واسم الوزير وصاحب الخراج وناظر الطراز (١)

صناعات اخرى :

وتذكر المصادر التاريخية أن عدة جيش ابن طولون كانت مائة ألف جندى . فالمعقول انه كانت توجد فى الفسطاط مصانع تصنع ما يحتاج اليه هذا الجيش العظيم من أسلحة وعتاد ، وان لم يصل الى أيدينا شيء منها . كذلك تروى تلك المصادر أن دنانير ابن طولون كانت من الصفاء بحيث استعملت خاصة للتذهيب(٢) ، ومعنى ذلك انه كانت بمصر دار لسك النقود (٣) ، كما كان بها مصانع للزجاج تصنع الأوانى الزجاجية والخواتم والأختام التى كان يطبع بها على الأوانى لبيان أحجامها المختلفة

---

(١) الفن الاسلامى للدكتور زكى محمد حسن ، ص ٨٣ — ٩٠
(٢) المصدر السابق ص ١١٧
(٣) كانت النقود التى تضرب فى دار النقود التى اسسها احمد بن طولون تعرف بالاحمدية ، وامتازت بعيارها الجيد

الباب الرابع

القاهرة المعزية

– ١ –

استتب الأمر للفاطميين فى شمال افريقية ، وصار ملكهم يمتد من حدود مصر شرقا حتى ساحل المحيط الأطلنطى غربا . ورنا الخلفاء الفاطميون ببصرهم الى مصر ، وتمنوا أن تدخل فى حوزتهم ، وتنطوى تحت سلطانهم، لما لها من مكانة ممتازة فى العالم الاسلامى . فحاولوا غزوها فى عهد القائم بأمر الله سنة ٣٢٤ هـ (٩٣٥ م) ، ولكن حال دون تحقيق هذه الأمنية قوة محمد الأخشيد – حاكم مصر اذ ذاك – ووقوفه لهم بالمرصاد . وظلوا يتربصون بمصر الدوائر ، حتى واتتهم الفرصة ، عندما أخذ نجم بنى الأخشيد فى الأفول ، وتسرب الوهن الى ملكهم ، وتولى أمر مصر من ذراريهم حثالة من ضعاف الملوك ، لاحول لهم ولا قوة . عندئذ اقتنص الفرصة المعز لدين الله ، رابع الخلفاء الفاطميين ، فأنفذ اليها سنة ٣٥٨ هـ (٩٦٨ م) جيشا كبيرا ، على رأسه قائده الأول جوهر الصقلى ، مجهزا بأحسن العدد والأدوات . ووضع لذلك الخطط المحكمة ، والترتيبات الموفقة ، ليتحقق الأمل المنشود ، هذه المرة

وكان قد سبق الغزو الفاطمى دعاية للفاطميين واسعة النطاق ، واستمالة الفاطميين للمصريين بشتى الوسائل ، لذلك لم يجد جوهر فى فتحها كبير عناء ، وسرعان ما صارت مصر درة فى تاج الفاطميين ، وانتقل اليها كرسى الخلافة الفاطمية ، وعلا قدرها ، وذاع صيتها ، وطمست بشهرتها الخلافة العباسية فى الشرق والأموية فى الغرب ، وتعالت القاهرة المعزية على بغداد

العباسية ، وقرطبة الأندلسية ، وصارت قلب العالم الاسلامى النابض ؛ ومحور نشاطه الدافق

— ٢ —

بناء القاهرة :

وكان فى مقدمة ما عنى به الفاطميون ، شأنهم فى ذلك شأن من سبقهم من الأسرات الاسلامية ، اتخاذ قاعدة جديدة للحكم ، تحمل طابعهم ، وتتميز عما سبقها من قصبات الحكم . لذا حرص جوهر ليلة وصوله الفسطاط فى ١٧ شعبان سنة ٣٥٨ (٧ يوليو سنة ٩٦٨) على انشاء الحاضرة المرتقبة ، ويظهر أنه كان ينفذ رغبة من رغبات سيده المعز

تسمية القاهرة :

وهنا ينشط القصاص كعادتهم ، فى نسج قصة طريفة ، اقترن بها بناء العاصمة الجديدة : فيروون أن جوهرا نظر الى السهل الرملى الواقع شمالى الفسطاط ، وكان خلوا من المبانى الا القليل الملحق بالبستان الكافورى ، ودير فسيح يطلق عليه دير العظام ، وحصن صغير يسمى بقصر الشوك ، فاختط فيه مدينته ، وأحاطها بسياج من الأعمدة الخشبية ، وأوصلها جميعا بالحبال ، التى تتدلى منها أجراس قصد بها أن تدق جميعا فى لحظة واحدة ، عندما تعطى الاشارة بذلك ، لكى تكون ايذانا بوضع الأساس

وقد ترقبوا مرور كوكب ميمون الطالع ، فى سماء المدينة الجديدة ، ليوضع الأساس عند اشراقه ، تفاؤلا بمستقبل سعيد مرموق لها . ولكن حدث ما لم يكن فى الحسبان ، اذ حط فوق أحد الحبال غراب ، فدقت الأجراس لفورها ، فوضع العمال الأساس ، وفقا للتعليمات المعطاة ، واتفق أن ظهر فى تلك اللحظة كوكب المريخ ، قاهر الفلك كما يطلقون عليه ، فلما رفع الأمر للخليفة المعز ، عند قدومه الى مصر فى ٥ رمضان سنة ٣٦٢

(١٠ يونيو ٩٧٢) وكان عالما فى التنجيم ، وافق على نسبة المدينة الجديدة الى كوكب القاهر ، الذى كان يعهد فيه يمن الغدوات ، وبركة الروحات . وأضيف اليها اسم المعز ، فصارت تعرف باسم القاهرة المعزية أو قاهرة المعز (١)

ومهما يكن من أمر ، فليست هذه القصة وأضرابها بالشيء الجديد فى عالم العواصم القديمة ، فقليل منها من لم يقترن انشاؤه بقصة طريفة من هذا النوع ، لتكسبها روعة وجدة ، على مر العصور والأزمان

سور القاهرة :

وليس بعجيب أن يكون أول شيء يبدأ به جوهر فى بناء العاصمة الجديدة بناء السور ، اذ كان المقصود بالمدن فى العصور الوسطى أن تكون قلاعا حصينة ، يحتمى وراءها السكان ضد الغزاة الفاتحين ، ونواة الأبنية فى تلك المدن قصور الخلفاء والوزراء وملحقاتها من دور الحكومة والدواوين ، ثم المساجد وأماكن العبادة وغيرها . وهذا ما حدا بالمقريزى أن يذكر أن بناء القاهرة انما قصد به أن تكون « منزل سكنى للخليفة وحرمه وجنده وخواصه ، ومعقل قتال يتحصن به ، ويلجأ اليه » (٢)

وقد شغلت القاهرة أول الأمر قطعة من الأرض مساحتها ٣٤٠ فدانا على شكل مربع طول ضلعه ١٢٠٠ متر تقريبا (٣) ، وكانت تمتد من منارة جامع الحاكم شمالا حتى باب زويلة جنوبا . وأحاطها جوهر بسور من اللبن ، كما تقدم ، بقيت منه بقية الى عهد المقريزى (أى الى أوائل القرن التاسع الهجرى والخامس عشر الميلادى) فوصفها بقوله : « وقد أدركت من هذا السور اللبن قطعا ، وآخر ما رأيت منه قطعة كبيرة ، كانت فيما بين باب البرقية ودرب بطوط ، هدمها شخص من الناس فى سنة ٨٠٣ هـ.

---

(١) النجوم الزاهرة ، ج ٤ ص ٤١ (٢) الخطط المقريزية ، ج ٢ ص ١٨٤
(٣) الخطط التوفيقية لعلى (باشا) مبارك ، ج ٤ ص ٤

فشاهدت كبر لَبِنها ما يتعجب منه فى زمننا، حتى ان اللبنة تكون قدر ذراع فى ثلثى ذراع . وعرض جدار السور عدة أذرع ، يسع أن يمر به فارسان. وكان بعيدا عن السور الحجر الموجود الآن ، وبينهما نحو الخمسين ذراعا وما أحسب أنه بقى الآن من هذا السور اللبِن شىء » (١)

ابواب القاهرة :

ويَحُد المدينة من الشرق تلال المقطم ، ومن الغرب الخليج الكبير، ومن الجنوب مدينة القطائع . ويقع فى هذا السور ثمانية أبواب هى : باب زويلة وباب الفرج فى الجنوب ، وباب الفتوح وباب النصر فى الشمال ، وباب القراطين ــ الذى عرف فيما بعد بباب المحروق ــ وباب البرقية فى الشرق. وباب سعادة ويقع فى موضعه الآن محكمة الاستئناف العليا ، ثم باب القنطرة فى الغرب ، (وسمى كذلك لأن جوهرا بنى تجاهه على الخليج قنطرة)

وقد جدد هــذا السور بدر الجمالى ، وزير المستنصر ســنة ٤٨٠ هـ (١٠٨٧ م) ولا تزال ثلاثة من أبوابه باقية حتى اليوم وهى : باب النصر وباب الفتوح وباب زويلة . وقد بنيت فى مواضع قريبة من أبواب جوهر القديمة ، ولكنها لم تبن من اللبن ، وانما بناها بدر الجمالى من الأحجار الضخمة ، كما ترى اليوم فى أماكنها الحالية ، وكما ترى بقية ضئيلة من سور بدر الجمالى فى شارع الجيش ، فى منتصفه تقريبا

القصر الشرقى الكبير :

واختط جوهر أيضا ، قصرا كبيرا لاقامة المعز عند قدومه الى مصر ، وكان يقع بالقرب من السور الشرقى ، ولذا أطلق عليه اسم القصر الشرقى الكبير ، وكل ما نعلمه عن ذلك القصر مستمد من المصادر التاريخية ، اذ

---

(١) الخطط المقريزية ، ج ٢ ص ٢٠٥

لا أثر له اليوم ، وكان يمتد من الموضع الذى يوجد به المشهد الحسينى الآن الى الجامع الأقمر تقريبا ، وكانت له تسعة أبواب :

ففى الناحية الشرقية كانت توجد أبواب العيد ، والزمرد وقصر الشوك ، وفى الناحية الغربية كانت توجد أبواب البحر والذهب والزهومة ، وفى الناحية القبلية كانت توجد أبواب تربة الزعفران والديلم ، وفى الناحية البحرية كان يوجد باب واحد هو باب الريح

وكانت أسماء هذه الأبواب تدل على معان خاصة ، فسمى باب العيد كذلك ، لأن الخليفة كان يخرج منه فى يومى العيد الى المصلى التى كانت خارج باب النصر . وموضع هذا الباب اليوم بشارع قصر الشوك . وباب الزمرد : كان يتوصل منه الى قصر الزمرد ، وموضعه اليوم بشارع حبس الرحبة بالجمالية . وباب البحر: كان يخرج منه الخليفة عندما يقصد التوجه الى شاطىء النيل بالمقس ، وموضعه اليوم مدخل حارة القاضى تجاه جامع الملك الكامل بشارع بين القصرين . وباب الذهب : كانت تدخل منه المواكب وجميع رجال الدولة ، وكان تجاه البيمارستان المنصورى . وباب الزهومة : وسمى كذلك لأنه كان باب مطابخ القصر ، فتمر منه اللحوم وحوائج الطعام ، فتنبعث منه رائحة اللحوم (١) . وكان يتوصل من باب قصر الشوك الى القصر المسمى بهذا الاسم « قصر الشوك » ، وموضعه الآن مدخل عطفة القزازين بدرب القزازين . وباب التربة : وكان يتوصل منه الى مقابر الخلفاء التى كانت بداخل القصر ، وموضعه الآن وكالة القطن بسكة البادستان بخان الخليلى . وباب الريح : ويظهر أنه سمى كذلك لهبوب رياح الشمال الرطبة من خلاله ، لوقوعه فى الواجهة البحرية للقصر ، وموضعه الآن وكالة سالم وسعيد بازرعة بشارع التمبكشية بجوار جامع

---

(١) الزهمة : ريح لحم سمين منتن

جمال الدين . وباب الديلم : وكان يدخل منه الى المشـــهد الحسينى من شرقيه ، ويقع اليوم تجاه الباب الأخضر الشرقى للمشهد المذكور (١)

القصر الغربى الصغير :

وشيد العزيز بالله نزار بن المعز لدين الله قصرا آخر ، غربى القصر الكبير ، لذا سمى بالقصر الغربى الصغير . ويشغل مكانه اليوم مستشفى قلاوون للرمد ، وكل المساكن التى تجاوره الى شارع الخليج . لذا عرف ايضـــا بقصر البحر بالاضافة الى اسم القصر الغربى . « وكان يشرف على البستان الكافورى ، ويتحول اليه الخليفـــة من البركة التى كان يقال لها بطن البقرة ومن البســـتان المعروف بالبغـــدادية ، وغيره من البساتين التى كانت تتصل بأرض اللوق وجنان الزهرى » (٢)

وكان بين القصر الشرقى والقصر الغربى فضاء متسع ، يقف فيه عشرة آلاف من العساكر ، ما بين فارس وراجل ، يطلق عليه ما بين القصرين ، كما كان يصل القصرين سرداب تحت الأرض ، يســـلكه الخليفة ممتطيـــا بغلته ، عندما ينتقل من القصر الشرقى الى القصر الغربى ، متخفيا عن أعين الناس

تحف القصر الكبير وطرائفه :

وقد زاد الخلفاء المتعاقبون من قاعات القصر الشرقى وأبهائه ، وأفرطو فى تزيينه وزخرفته : فقد وصف هـــذا القصر فى أواخر عهـــد الدولة الفاطمية ، بعض السائحين الأجانب ، ممن قدر لهم زيارة القاهرة ، وصفا شائقا ، فذكروا أن أرضه كانت مرصوفة بالفسيفساء ، وأســـقفه تزينها الزخارف الذهبية الجميلة . وفى وسط أفنيته النافورات التى يجرى منها

(١) انظر تعليق المرحوم العلامة محمد (بك) رمزى على كتـــاب النجوم الزاهرة ج ٤ ص ٣٤ ــ ٣٦
(٢) خطط المقريزى ج ٢ ص ١٨٠ .

الماء الصافى فى أنابيب من الذهب والفضة ، إلى أحواض وقنوات مرصوفة بالرخام ، كما تكثر بحدائقه الطيور البديعة والحيوانات الغريبة . أما الستائر فكانت مصنوعة من الحرير الموشى بالذهب ، ومرصعة بالجواهر واليواقيت ، وعليها رسوم الحيوان والطيور ، وبعض صور آدمية (١)

وقد حشد الخلفاء الفاطميون فى هذا القصر من التحف والطرائف ما لايكاد يصدقه العقل . وقد جمعوا كل ذلك فى خزائن، كان بعضها فى داخل القصر ، والبعض الآخر فى مبان ملحقة به . وكان يقوم على حفظها ، والعناية بمحتوياتها خدم وموظفون ، اختصوا بهذا العمل وحده . وقد وصف المقريزى فى خططه تلك الخزائن ومحتوياتها وصفا مسهبا . ومن هذه الخزائن : خزائن السلاح ، وخزانة الكتب ، وخزانة الكسوات ، وخزائن الجوهر والطيب والطرائف ، وخزائن الفرش والأمتعة ، وخزائن السروج ، وخزائن الخيم ، وخزائن الشراب ، وخزائن التوابل (٢)

وقد نمت القاهرة، وعلا شأنها، وطار صيتها، وازداد عمرانها، وتعددت أبنيتها ، فأعجب بها الرحالة الفارسى ناصر خسرو ، الذى زار مصر ما بين سنتى ٤٣٩ و ٤٤١ هـ (١٠٤٧ ــ ١٠٤٩ م) فذكر أن حوانيتها لم تقل عن عشرين ألفا ، وخاناتها وحماماتها لايمكن حصرها . وكانت أبنيتها أعلى من الأسوار الحصينة ، وفى كل منها خمس أو ست طبقات . وكانت البيوت فى المدينة مبنية بناء نظيفا محكما ، وكانت مفصولة بعضها عن بعض بحدائق يرويها مياه الآبار (٣)

المناظر :

وكان للخلفاء الفاطميين مناظر كثيرة بالقاهرة ومصر والروضة والقرافة

---

(١) كنوز الفاطميين للمرحوم الدكتور زكى محمد حسن ص ٧٤ ــ ٧٦
(٢) الخطط للمقريزى ، ج ٢ ص ٢٥٣ ــ ٢٧٦ .
(٣) سفرنامة لناصر خسرو علوى ترجمة الدكتور يحى الخشاب ص ٥٠ ، ٥٨

وبركة الحبش وظواهر القــاهرة ، وهى عبارة عن بســاتين أشــبه شىء باستراحة الملوك فىعصرنا الحاضر، أثثت بأفخر الأثاث والرياش ، وأحيطت بأجمل المناظر وأبهاها ، خصوصا تلك التى كانت تقع على النيل أو الخليج الكبير . وكان يقصدها الخلفاء للنزهة والترويض ، أو حضور الاحتفالات أيام المواسم والأعياد ، أو المناسبات الخاصة ، كتوديع الجيش والأسطول أو استقبالهما . وكان فى تلك المناظر بناء عال، يرتقيه الخليفة ، ليرى مايدور حوله ، دون أن يراه أحد . فاذا كان الوقت ليلا أوقدت فيه النيران ليرى على ضوئها المنظر جميعه . ومن هنا جاءت تسمية البنــاء المفرد بالمنظرة ، وأهم تلك المناظر :

منظرة الجامع الأزهر : وكانت بجوار الجامع الأزهر من قبليه .. وكان يجلس فيها الخليفة لمشاهدة ليالى الوقود. ومنظرة اللؤلؤة : وكانت تقع على الخليــج بالقرب من باب القنطرة ، ويطلق على القصر المحيط بها قصر اللؤلؤة ، ويصفه المقريزى بأنه أحد متنزهات الدنيا ، لفخامة بنائه وفاخر أثاثه وجميل موقعه ، اذ كان يشرف من شرفته على البستان الكافورى ، ويطل من غربيه على الخليج وما يشرف عليه من بساتين وبرك ، وقد بناه العزيز بالله . ومنظرة الغزالة : وكانت تقع بجوار منظرة اللؤلؤة . ومنظر السكرة : وكانت توجد على الشاطىء الغربى للخليج ، وكان لها بستان عظيم ، وقد بناها العزيز بالله أيضا . « ويجلس فيها الخليفــة يوم فتح الخليج هو والوزير ، وقد فرشت بالفرش المعدة لها ، فتفتح احدى طاقات المنظرة ، ويطل منها الخليفة على الخليج . ومن طاقة تقاربها يتطلع أستاذ من الخواص ، ويشير بالفتح ، فيفتحه عمــال البساتين بالمعاول ، فتدق الطبول ، وينفخ فى الأبواق من البــرزين » (١) ومنظرة الدكة : وكان لها بستان عظيم بجوار المقس ، فيما بينه وبين أراضى اللوق ، وقــد عمر

(١) المقريزى : الخطط ، ج ٢ ص ٣٦٦

البستان بالمبانى فيما بعد ، وصار يعرف بخط قنطرة الدكة . ومنظرة المقس ، ومنظرة التاج ، ومنظرة باب الفتوح ، ومنظرة الصناعة ، ومنظرة بركة الحبش

— ٣ —

المساجد الفاطمية

الجامع الأزهر :

اختط جوهر فى المدينة الجديدة أيضا مسجدا جامعا ، أسوة بجامع عمرو فى الفسطاط ، وجامع أحمد بن طولون فى القطائع ، لكى تقام فيه الصلوات الجامعة ، ولكى يدرس فيه المذهب الشيعى وتعاليمه . وقد بدأ فى بنائه فى جمادى الأولى سنة ٣٥٩ (ابريل سنة ٩٧٠) . وكان الانتهاء منه فى رمضان سنة ٣٦١ (يونية سنة ٩٧٢) . وربما كانت تسميته بالأزهر نسبة الى فاطمة الزهراء ، ابنة النبى صلى الله عليه وسلم ، وزوج على بن أبى طالب كرم الله وجهه ، والتى تنسب اليها الدولة الفاطمية ، أو الى اللون الأبيض المزهر ، الذى طليت به جدران المسجد ، كما كانت عادة الفاطميين فى دهان مساجدهم بشمال افريقيا ، قبل رحيلهم الى مصر

والمسجد الحالى يختلف عن جامع جوهر كل الاختلاف ، كما حدث نفس الشىء لجامع عمرو الأصلى ، للاضافات والتعديلات التى أدخلت عليه فى العصور المتعاقبة ، والتى أحالته الى مسجد يخالف المسجد القديم تمام المخالفة . ولكن لاتزال ثمة بقية من جامع جوهر باقية ، فيصبح بذلك أقدم أثر من آثار الفاطميين فى مصر

تخطيط الجامع الأزهر :

كانت مساحة الأزهر عند بنائه نصف مساحته الحالية التى تبلغ الآن ١٢٠٠٠ متر مربع . فتضاعفت على مر العصور ، ل‍ما أضيف اليه من مبان

فى العهود المختلفة . وكان يتكون أول الأمر من أربعة أواوين يتوسطها الصحن . وكان الايوان الشرقى ــ ايوان القبلة ــ يتألف من خمسة أروقة أو بائكات. أما الايوانان القبلى والبحرى فيتألف كل منهما من ثلاثة أروقة. والايوان الغربى من رواق واحد يدور حول الصحن ، أنشأه الحافظ لدين الله وكان الباب يتوسط هذا الرواق

وترتكز عقود البائكات فى ايوان القبلة على أعمدة رخامية ، من طرز مختلفة . بينما ترتكز عقود البائكات خلف الرواق المشرف على الصحن على أكتاف مبنية . وجميع العقود مدببة ، وليست من النوع المعروف بالعقود الفارسية . وهذه لاتوجد الا فى الرواق المحيط بالصحن . ويخطىء بعض الكتاب اذ يظن أن العقد الفارسى ميزة من ميزات العمارة الفاطمية الأولى، نقلت الى مصر . ولكن الحقيقة هى أن العقد الفارسى ميزة من ميزات العمارة الفاطمية المتأخرة ، والعمارة الأيوبية الأولى فى مصر. فهو لايوجد فى جامع الحاكم ولا فى جامع الجيوشى (١)

ومن أهم ما امتازت به عمارة هذا المسجد المجاز الذى يخترق الصحن الى المحراب ، والذى تنتهى عنده العقود من كلا الجانبين . وهذا المجاز هو الأول من نوعه فى مساجد القاهرة

وقد كانت توجد قبتان فى ركنى ايوان القبلة ، احداهما فى الركن الأيمن عن يمين المحراب والمنبر ، وتقابلها قبة أخرى فى الركن الأيسر . وقد اتبع هذا النظام فى بناء جامع الحاكم (٢)

وفتحت بأعلى الجدران شبابيك جصية مفرغة بأشكال هندسية ، تتخللها مضاهيات مزخرفة ، أحيطت بافريز مكتوب فيه بالخط الكوفى المزخرف آيات من القرآن (٣) وما زالت بقايا من هذه الشبابيك موجودة فى جدران ايوان القبلة

---

(١) Creswel. Early Muslim Architecture (٢) المصدر السابق

(٣) تاريخ المساجد الاثرية للاستاذ حسن عبد الوهاب ص ٤٩

ولا يعرف شيء عن مئذنة الجامع الأصليـة ، بل ولا يعرف مكانها . والمحراب الحالي ليس هو المحراب الأصلى . وفى سنة ١٩٣٤ م كشفت ادارة حفظ الآثار العربية عن المحراب الأصلى للجامع ، وكان يحجبه محراب من خشب ، يظن أنه عمل فى عهد الظـاهر بيبرس ، فأصلحت الزخارف الجصية للمحراب القديم (١)

هذا هو الجامع الأزهر الذى بنـاه جوهر ، لأداء الصلوات الخمس ، والصلوات الجامعة ، ولكى تدرس فيه أصول المذهب الشيعى ، ومن ثم تنتشر فى طول البلاد وعرضها . ولكنه ما لبث فى عهد العزيز أن اتخذ طريقه فى أن يصبح جامعة كبرى ، فابتنى بجواره دارا لجماعة من الفقهاء ، عدتهم خمسة وثلاثون ، فكانوا يجتمعون فيه بعد صلاة الجمعة ، ويقرءون القرآن الى صلاة العصر . وقد أجرى عليهم هذا الخليفة الأرزاق ، وأغدق عليهم وزيره يعقوب بن كِلّس الأموال ، ونقل اليه الحاكم نصف ما كان بدار الحكمة من كتب ، كما زاد فى بنائه ، وزاد على ما وقفه عليه أبوه من قبل من أوقاف ، وما قدم له من هبات (٢)

وقد تعطلت صلاة الجمعة فى الأزهر فى عهد الأيوبيين مدة قرن من الزمان ، ثم عاد اليه بهاؤه ورونقه فى عهد المماليك ، واستأنف نشاطه وأقيمت صلاة الجمعة فى عهد الملك الظاهر بيبرس (٣) . ومنذ ذلك الوقت صار ولا يزال حتى اليوم أكبر جامعة اسلامية ، يهرع اليها المسلمون من جميع أركان المعمورة ، لينهلوا من معينه ، وليتفقهوا فى الدين ، وليسترشدوا بعلم أئمته وشيوخه الأعلام

جامع الحاكم :

ثم جاء العزيز بالله نزار فشرع فى سنة ٣٧٩ هـ (٩٨٩ م) فى بناء مسجد

---

(١) دليل موجز لاشهر الآثار العربية بالقاهرة للمرحوم الاستاذ محمود احمد ص ٥٩
(٢) الفاطميون فى مصر للدكتور حسن ابراهيم حسن ص ١٢٨
(٣) المقريزى : الخطط ، ج ٤ ص ٥٣

آخر ، خارج باب الفتوح ، ولكنه توفى قبل اتمامه ، فأتمه ابنه الحاكم سنة ٤٠٣ هـ (١٠١٢ — ١٠١٣ م) ، لذا نسب اليه ، وصار يعرف بجامع الحاكم

ويبلغ طوله من الداخل ٥ر١٢٠ مترا وعرضه ١١٣ مترا ، فمساحته أقل بقليل من مساحة جامع عمرو . وفى نهايتى واجهته البحرية (الشمالية الغربية) توجد المئذنتان ، ويحيط بهما قاعدتان عظيمتان هرميتا الشكل. وتتركب كل قاعدة من مكعبين يعلو أحدهما الآخر . والمكعب العلوى موضوع الى الخلف قليلا فوق السفلى . ويبلغ ارتفاع الأخير ارتفاع أسوار الجامع . وتبرز من كل من المكعبين العلويين مئذنة ، مثمنة الشكل . وفى منتصف هذه الواجهة البحرية ، وبين المئذنتين يوجد مدخل الجامع الأثرى، وهو أول مدخل بارز بنى فى جامع القاهرة ، يغطيه قبو اسطوانى عرضه ٤٨ر٣ مترا ، وطوله ٥٠ر٥ مترا . وفى نهايته باب عرضه ٢١ر٢ مترا ، ومعقود بعقد أفقى من الحجر . وهذا العقد والحائط الموجود فيه حديثا البناء . ويوجد فى المدخل عن اليمين وعن اليسار بقايا نقوش بديعة ارتفاعها ٦٠ر١ مترا تكون طبانا فى المدخل

ويؤدى المدخل الى صحن الجامع الذى تحيط به اواوين هى على الترتيب الآتى : الايوان الجنوبى الشرقى (ايوان القبلة) ، ويتكون من خمسة أروقة ، وبكل رواق ١٧ عقدا ، ويقابله الايوان الشمالى الغربى ، ويتكون من رواقين ، وبكل رواق ١٧ عقدا أيضا ، والايوانان الشمالى الشرقى والجنوبى الغربى ، ويتكون كل منهما من ثلاثة أروقة ، وبكل رواق ٩ عقود .

وكل تلك العقود محمولة على أكتاف ، تشبه أكتاف الجامع الطولونى ، اذ توجد فى الأركان الأربعة لكل كتف أعمدة ، مثل أعمدة الجامع الطولونى، غير أنها أثخن ولا تيجان لها . وقد كانت جميع العقود مغطاة بسقف مسطح

من الخشب ، ويحيط بالسقف من أسفله ، فيما بينه وبين العقود ، ازار جصى من الكتابة الكوفية البديعة

وجميع الأكتاف والأعمدة مبنية من طوب أحمر داكن ، يشبه الطوب المستخدم فى بناء جامع ابن طولون . ويربط الأكتاف ، بعضها ببعض ، ميدّ (أربطة خشبية) مكسوة بألواح مزخرفة بنقوش محفورة فى الخشب ، كما كانت تعلو الأعمدة فرشات من الخشب المسطح ، مكونة من قطعتين أو ثلاث قطع

وتوجد فى نهايتى حائط القبلة قبتان ، محمولتان على مثمن . كما توجد قبة ثالثة فوق المحراب . وقد هدمت القبة الشرقية بسبب اقامة السور الذى بناه بدر الجمالى ، ملاصقا للجدار الشرقى للجامع . كما سدت جميع النوافذ فى هذا الجدار أيضا لنفس السبب المتقدم

وقد كان يوجد عن يمين المدخل الحالى بابان ، وعن يساره بابان آخران ، وقد سدت جميعها . كما كان يوجد بابان فى الجانب الشرقى (باب فى الوسط ، وباب ملاصق للمئذنة) ، وباب فى منتصف الجانب الغربى ، وباب للخطيب بجوار المنبر ، فيصير مجموع الأبواب تسعة

أما الشبابيك فى هذا الجامع فموضوعة على محور كل عقد ، بخلاف شبابيك الجامع الطولونى ، فانها منحرفة عنه قليلا ، وينتج عن ذلك أنه كان يوجد فى جامع الحاكم ١٦ شباكا فى كل من الحوائط الجانبية ، و ١٧ شباكا فى كل من ايوان القبلة والحائط المقابل له . وقد سدت المئذنتان شباكا من كل جهة ، فيصبح بذلك عدد الشبابيك ١٦ فقط . ويوجد شباكان فى الحائط الخلفى لايوان القبلة ، على يسار المحراب . والزخرفة فى هذين الشباكين لا تشتمل على زخرفة هندسية ، بل تتكون من زخارف نباتية متداخلة بعضها فى بعض

وكما ذكرنا كان يوجد ازار جصى يحيط بالجامع ، من الخط الـ رف

البديع ، لاتزال آثاره باقية الى اليوم فى ايوان القبلة ، كذلك كانت القباب والشبابيك مزينة بزخارف جصية بديعة . وحتى المِيَد الخشبية كانت مزينة بزخارف محفورة فى الخشب ، ولايزال بعضها موجودا فى ايوان القبلة

وقد توالت صروف الزمان على هذا المسجد ، فاعتدى عليه بدر الجمالى ، فسد منافذ الجدار الشرقى ببنائه السور ملاصقا لهذا الجدار ، كما أصابه زلزال سنة ٧٠٢ هـ (١٣٠٣ م) بتلف شديد فتهدم كثير من العقود والأكتاف الحاملة لها ، وسقط السقف ، كما هوت قمتا المئذنتين ، وتوالت عليه المصائب حتى تهدمت جميع أواوينه ، ما عدا بعض عقود فى الايوانين القبلى والشرقى ، فاستخدمته وزارة الأوقاف مخزنا ، وحفظت فيه التحف والآثار الاسلامية قبل نقلها الى الدار الحالية . وتشغله الآن مدرسة السلحدار الابتدائية

وقد أصلحت ادارة حفظ الآثار العربية أكتاف النصف الغربى من الايوان القبلى وعقوده ، ولكن لاتزال حالة الجامع تبعث على الأسى والأسف ، مما لايتناسب مع مكانته كأثر من الآثار الاسلامية ، الجديرة بالعناية والاهتمام

وقد شيد الحاكم مسجدين آخرين ، هما جامع راشدة سنة ٣٩٣ هـ (١٠٠٣ م) الذى اشتق اسمه من الخطة التى بنى فيها وهى خطة راشدة ، وجامع المقس الذى شيده على شاطىء النيل بالمقس ، ميناء القاهرة النهرى فى ذلك الحين ، وليس لهما أثر اليوم

جامع الجيوشى :

يقوم هذا المسجد أو الزاوية ، كما يسميه النقش الموجود فى أعلى مدخله ، على حافة جبل المقطم ، خلف القلعة . والذى أمر ببنائه هو الوزير أمير الجيوش بدر الجمالى سنة ٤٧٨ هـ (١٠٨٥ م)

أما أهمية هذا الجامع الأثرية فترجع الى أنه :

أولا — أول بناء اشتمل على جامع ومقبرة فى نفس الوقت

ثانيا ـ انه أول جامع فى القاهرة بنى بالحجر (١) ، وليس ذلك غريبا اذا عرفنا أنه مبنى فوق تل المقطم ، يحيط به تلال جميعها من الحجر الجيرى الجيد .

وهو منحرف نحو الشمال الغربى والجنـوب الشرقى . ولكن بناءه منسجم كما يظهر من تخطيطه ، بالرغم من عدم انتظام خارجه . وبحذف الاضافة الخارجية ، نجد أن هـذا الجامع مبنى على مستطيـل مسـاحته ١٨ × ١٥ مترا . والمدخل فى منتصف الواجهة الشمالية الغربية ، أسفل المئذنة . وهو عبارة عن باب معقود بعقد مدبب ، يؤدى الى ردهة مسقوفة بقبو نصف اسطوانى . وعلى الجانب الأيسر من هذه الردهة ، حجرة مربعة مسقوفة بقبو نصف اسطوانى أيضا ، تحتوى على صهريج ماء . وعلى الجانب الأيمن ، حجرة أخرى مربعة مفتوحة الى السماء ، بها سلم يؤدى الى السقف المسطح

ويدخل الانسان من الردهة الى صحن الجامع بواسطة قبو آخر مدبب. ومساحة الصحن ٦٫٤٥ × ٥٫٦٠ مترا . وعلى كل من جانبيـه حجرة مسقوفة بقبو نصف اسطوانى . وعلى الضلع الجنوبى الشرقى للصحن توجد واجهة ايوان القبلة ، ذات الثلاثة العقود : عقد كبير يكتنفه عقدان صغيران . ويتكىء العقد الأوسط على زوجين من الأعمدة الرخامية ، لها تيجان على هيئة ورق اللوتس ، وقواعد من ورق اللوتس المقلوب . ويؤدى هذا العقد الى ردهة طويلة ، ذات عقد متقاطع ، تنتهى بعقد ثلاثى آخر ، يؤدى الى القبة التى توجد أمام المحراب ، والتى يكتنفها من كل من جانبيها ايوان معقود بعقد متقاطع

والمحراب الذى يبلغ ارتفاعه ٣٫١٥ مترا ، هو قطعة فخمة من الزخرفة الجصية ، كما يزين القبة من أسفلها شريط من الكتابة الكوفية المزخرفة ،

---

(1) Creswel : Early Muslim Architecture, Vol. I

يجرى حول رأس المربع المقامة عليه القبة . وترتكز القبة على مثمن فى كل ضلع من أضلاعه شباك . ومنطقة الانتقال بين المربع والمثمن تتخللها حنيات

أما المئذنة فقائمة فى منتصف الضلع الشمالى . ويبلغ طولها ٢٠ مترا تقريبا . وتتركب من قاعدة مربعة ، تنتهى بمقرنص يعلوه مربع آخر، فمثمن يحمل قبة

وجميع حوائط الجامع لغاية السقف المسطح مبنية من الحجر ، وجميع العقود ، وكذا القبة ، مبنية من الطوب الأحمر الداكن . وكذا الجزء من المئذنة الذى يعلو السقف المسطح . وتوجد فى المبانى أربطة من جذوع النخل

ويؤخذ من النقش الموجود على مدخل الجامع أن أمير الجيوش بدر الجمالى أمر ببنائه سنة ٤٧٨ هـ (١٠٨٥ م)

الجامع الأقمر :

يوجد هذا الجامع فى شارع النحاسين . وقد بناه الوزير المأمون بن البطايحى بأمر من الخليفة الآمر بأحكام الله أبى على منصور سنة ٥١٩ هـ (١١٢٥ م) وهو أول جامع فى القاهرة حوت واجهته تصميما هندسيا بديعا . وهو أول جامع أيضا فيه الواجهة موازية لخط تنظيم الشارع ، بدل أن تكون موازية للصحن ، ذلك لكى تصير القبلة متخذة وضعها الصحيح . ولهذا نجد أن داخل الجامع منحرف بالنسبة للواجهة

وهو مكون من صحن صغير مربع ، مساحته عشرة أمتار مربعة تقريبا ، يحيط به رواق واحد من ثلاثة جوانب ، وثلاثة أروقة فى الجانب الجنوبى الشرقى، أى فى إيوان القبلة. وعقود الأروقة محلاة بكتابات كوفية مزخرفة، ومحمولة على أعمدة رخامية قديمة ، ذات قواعد مصبوبة ، وتيجان مختلفة تربطها ميد" خشبية

وأجمل شيء فى هذا الجامع واجهته التى لايضارعها فى زخارفها البديعة واجهة أخرى فى جوامع القاهرة . ويرى فى مدخله لأول مرة فى عمارة المساجد العقد المعشق ، الذى انتشر فى العمارة المملوكية ، فى القرن الخامس عشر الميلادى . وفوق هذا العقد ، يوجد العقد الفارسي ، وهو منشأ على شكل مروحة ، تتوسطها دائرة فى مركزه.. وأهم ميزة فى تصميم الجامع استعمال المقرنصات ، ولم تستعمل قبل ذلك الا فى مئذنة جامع الجيوشى ، كما سبق تفصيله ، تلك الزخرفة التى عمّ انتشارها جميع العمارة الاسلامية تقريبا بعد هذا الجامع

جامع الصالح طلائع بن رزيك :

يوجد هذا الجامع على رأس تقاطع شارع الدرب الأحمر بقصبة رضوان، وتجاه زاوية فرج بن برقوق . أنشأه الملك الصالح طلائع بن رزيك ، وزير الخليفة الفائز بنصر الله الفاطمى ، ثم الخليفة العاضد ، آخر خلفاء الدولة الفاطمية ، والمتوفى سنة ٥٥٦ هـ (١١٦١ م) ، فكان جامعه هذا آخر أثر أنشىء فى عهد الدولة الفاطمية . وقيل فى سبب بنائه ، انه بنى لتلقى رأس الحسين ، وقد كانت قبلا مدفونة فى عسقلان ، التى أصبحت فى خطر من مهاجمة الصليبيين لها . ولكن هذا القول مردود ، لأن المشهد الحسينى أنشىء سنة ٥٤٩ هـ (١١٥٤ م) ، أى قبل بناء الجامع بنحو ست سنوات

وهو جامع صغير ، بالنسبة لجامعى ابن طولون والأزهر . ويحيط بالصحن أواوين مرتبة على نسق أواوين الجامع الأقمر : فيتكون إيوان القبلة من ثلاثة أروقة ، ويتكون كل من الاواوين الثلاثة الأخرى من رواق واحد فقط . وعقود هذه الأروقة محمولة على أعمدة من الرخام . وله أربع واجهات مبنية بالحجر ، أهمها الواجهة الغربية ، وبوسطها المدخل الرئيسى للمسجد ، وقد أقيم أمامه رواق محمول على أربعة أعمدة رخامية ، وحليت عقوده بزخارف بديعة ، كما حلى صدر هذا الرواق وجانباه بزخارف على

هيئة مروحة ، ونقشت بأفاريزه آيات قرآنية كتبت بالقلم الكوفى المزهر

ويمتاز هذا المسجد بأنه من المساجد المعلقة ، اذ أن أرضيته كانت أعلى من مستوى سطح الشارع بمقدار ٣٫٨٠ مترا ، ويرتكز على أقبية ، كانت ولا تزال تستعمل كحوانيت . ويوصل الى الأبواب سلالم عمودية على الواجهات . والى عهد قريب كانت هـذه الأقبية مختبئة ، لارتفاع سطح الشارع عما كان عليه من قبل بنحو ثلاثة أمتار تقريبا ، وقد عادت الى الظهور بعد أن أزيل الردم . وجدرانه الأربعة مبنية من الخارج بالحجر المحلى بزخارف وكتابات كوفية ، محفورة فى نفس الحجر . وواجهته الغربية الخارجية ، لا نظير لها فى مساجد القاهرة ، من حيث تصميمها . ويزيد فى جمالها تلك العقود المملوءة بزخارف على هيئة مروحة

والمنبر الموجود حاليا بالمسجد صنع بأمر الأمير بكتمر الجوكندار سنة ٦٩٩ هـ (١٢٩٩ م) . وكان قد جدد مئذنته أيضا ، عقب سقوط المئذنة الأصلية بسبب زلزال ٧٠٢ هـ (١٣٠٢ — ١٣٠٣ م)

وبناء الجامع فى هذا الموضع ، تجاه باب زويلة ، خطير من الوجهة الحربية على المدينة . فلو أن عدوا مهاجما استولى عليه ، لأمكنه أن يهددها من هذه الناحية ، ولاتخذ منه نقطة ارتكاز جيدة لاقتحام باب زويلة نفسه ، ثم المدينة بعد ذلك . وقد شعر الصالح طلائع بهذا الخطأ قرب وفاته . لذلك قال : « ما ندمت قط فى شىء عملته الا فى ثلاث : الأولى بنائى هـذا المسجد على باب القاهرة ، فانه صار عونا عليها ... الخ »

وظل هذا الجامع حافظا لكيانه حتى سنة ٨٨٢ هـ (١٤٧٧ م) . ثم أخذ يتهدم شيئا فشيئا حتى لم يبق منه سنة ١٩٢٠ م سوى ايوانه الشرقى . فأخذت لجنة حفظ الآثار العربية منذ سنة ١٩١٥ م فى تجديده ، واعادته الى سابق عهده ، وبذلت فى سبيل ذلك جهدا كبيرا ، وقد وفقت فى مهمتها الى حد كبير

— ٤ —

التحصينات الفاطمية لمدينة القاهرة

تكـوّن أبواب النصر والفتوح وزويلة قطعة من أعظم التحصينـات الحربية فى الاسلام . ولا يوجد لهذه الأبواب مثيل على الاطلاق ، ولا للسور أو القلاع التى تعلوه . وقد بلغت أعمال البناء فيها درجة من الكمال لم تصل اليها أعمال البناء ثانية فى مصر . ولقد أثارت هذه الأبواب اعجاب رحالة القرن الثامن عشر الأوربيين ، الذين سجلوا اعجابهم بها فى كتب رحلاتهم

وقد بنيت هذه الأبواب الثلاثة فى موضعها الحالى بأمر بدر الجمالى ، بدل الأبواب القديمة ، فى المدة ما بين ٤٨٠ و٤٨٥ هـ (١٠٨٧ — ١٠٩٢ م). وقد قام ببنائها ثلاثة اخوة ، وفدوا على مصر من مدينة «أذاسا» أو «أرفا» ، من أعمال أرمينيا . فقام كل واحد منهم ببناء باب من الأبواب الثلاثة

باب النصر :

بنى سنة ٤٨٠ هـ (١٠٨٧ م) ، ويتكون من برجين مربعين ، نقش عليهما فى الحجر أشكال تمثل بعض آلات الحرب من سيوف وتروس . ويتوسط البرجين باب شاهق ، وجدت به فتحة من أعلاه كى تصب منها المواد الكاوية على من يحاول اقتحام الباب ، يطلق عليها سقاطة . ويعلو هذه الفتحة افريز يحيط بالقلعتين . وبالباب كتابات كوفية تضمنت اسم المنشىء وتاريخ الانشاء ، وفوق ذلك افريز تعلوه المزاغل

والباب الموصل لداخله حديث العهد ، وربما كان فتحه فى عهد الاحتلال الفرنسى لمصر ، أما الباب الأصلى فانه فى الركن القبلى الشرقى ، وهو الآن مسدود بالبناء

والسلم الموصل الى أعلى مبنى بالحجر ، وقد عقد بشكل يعد الأول من

نوعه فى العمارة الاسلامية بمصر . وهو يوصل الى أبراج والى حجرات اشتملت على أهم وأحسن مجموعة من العقود المبنية بالحجر من مصلبة ومعقودة بصناعة فريدة فى بابها (١).

باب الفتوح :

بنى سنة ٤٨٠ هـ (١٠٨٧ م) ، وكان موضعه عندما أسسه جوهر قريبا من رأس حارة « بين السيارج » . فلما جدد بدر الجمالى سور القاهرة ، أنشأ بابى النصر والفتوح فى موضعيهما الحاليين ، وربطهما بسور يوصل بينهما بطرق وسراديب على ظهر السور ، وفى جوفه ، باحكام ، وعقود متنوعة

ويتكون هذا الباب من برجين مستديرين ، يتوسطهما المدخل . وفى جانبى البرجين طاقتان كبيرتان تدور حول فتحتيهما حلية مكونة من اسطوانات صغيرة . وهو نوع من الزخارف راج فيما بعد فى تحلية دوائر العقود . وفى أعلى المدخل كوابيل على هيئة كبش بقرنين . وهذا النموذج لا نظير له فى العمارة الاسلامية

ويتصل باب النصر بباب الفتوح بطريقين : أحدهما من فوق السور ، والآخر من تحته ، وهو ممر معقود ، على جانبيه المزاغل والحجرات المعقودة بحالة متقنة ، تعطى فكرة جيدة عن نظام الحصون المصرية فى ذلك العصر

باب زويلة :

كان موضع هذا الباب عندما أسس جوهر مدينة القاهرة عند باب سام ابن نوح وسبيل العقادين ، القائم على رأس حارة الروم . ثم بناه فى مكانه الحالى بدر الجمالى سنة ٤٨٤ هـ (١٠٩١ م)

وباب زويلة مثـــل باب الفتوح ، يتركب من بوابة عظيمة معقودة ، عرضها ٤٫٨٢ مترا ، وعلى جانبيها برجان عظيمان ، ذوا واجهتين مستديرتين

---

(١) الدليل الموجز للمرحوم محمود احمد ، ص ٦٥ – ٦٧

مصمتتين لنحو ثلثى ارتفاعهما ، ويشغل الثلث الأخير فى كل من البرجين حجرة ، تشرف على مدخل البوابة . ويدخل الانسان من البوابة الى ممر مغطى بقبة منخفضة ، مبنية على مثلثات كرية ، تحمل الممر العلوى الذى يصل القلعتين ، بعضهما ببعض ، من مؤخرتيهما . وفوق هذا الممر ممر آخر ، تتوجه شرافات

ويوجد فى أعلى واجهتى البرجين ثلاثة مزاغل ، وهى مسدودة ، ولكن لايزال يمكن رؤيتها رغم ذلك . وترى أيضا دوائر ، هى أطراف الأعمدة الرابطة ، كما هو الحال فى بابى النصر والفتوح .

ولما شرع الملك المؤيد أبوالنصرشيخ المحمودى فى بناء مسجده المجاور للباب من ٨١٨ الى ٨٢٣ هـ (١٤٠٥ ـــ ١٤١٠ م) انتهز مهندسه فرصة وجود برجى باب زويله ، فهدم أعلاهما ، وأقام مئذنتى المسجد عليهما

باب التوفيق :

أخذت بلدية القاهرة منذ سنة ١٩٥٤ م فى ازالة الآكام الموجودة شرقى العاصمة ، بمنطقة الدراسة ، لتوفير منطقة سكنية جديدة ، ولحماية القاهرة من الأتربة التى تنهال عليها فى الأيام العاصفة

وفى أثناء ازالة هذه الآكام ، وفق رجال مصلحة الآثار المصرية للكشف عن جزء من سور صلاح الدين ، كان مختبئا تحت هذه الآكام ، وعثر على بعد عشرة أمتار غربى سور صلاح الدين على بقية من سور بدر الجمالى ، وبه باب رابع كشف عن عقد كامل له . وظهر خلفه عقد آخر تعلوه لوحة تذكارية عليها كتابة بالخط الكوفى الرائع هذا نصها : «بعز الله العزيز الجبار يحاط الاسلام وتنشأ المعاقل والأسوار. رأى انشاء هذا ـــ باب التوفيق ـــ والسور المحيط بالمعزية ، القاهرة المحروسة حماها الله ، فتى مولانا وسيدنا معد أبى تميم الامام المستنصر بالله أميرالمؤمنين صلوات الله عليه وعلى آبائه الأئمة الطاهرين ، وأبنائه الأكرمين ، السيد الأجل أمير الجيوش سيف

الاسلام ، وناصر الأنام ، كافل قضاة المسلمين ، وهادى دعاة المؤمنين أبو النجم بدر المستنصرى بدر الجمال ... الخ » . وتاريخه ٤٨٠ هـ

ووجدت بين العقدين فجوة تصب منها المواد الحارقة على العدو كالزفت والقطران المغليين ، اذا هاجم أسوار القاهرة وأبوابها ، كما هو الحال في بقية الأبواب الثلاثة . ويرجح أن يكون هذا الباب قد أنشيء مكان باب البرقية القديم ، وسمى كذلك نسبة الى جماعة من أهل برقة نزلوا في هذه المنطقة

— ٥ —

الحالة الاقتصادية فى عهد الفاطميين

الاستقرار واثره فى انتعاش الحياة الاقتصادية :

لم تنفذ دولة الى صميم الشعب ، وتتغلغل بين طبقاته ، مثل ما فعلت الدولة الفاطمية فى مصر . ولم يكن ذلك غريبا ، فهى دولة شيعية قبل كل شيء ، ولم يكن للمصريين سابق عهد بالتشيع . وقد رأينا كيف تمكنت المذاهب الأربعة ، خصوصا المذهب الشافعى فى مصر قبل الدولة الفاطمية ، فكان حتما على الفاطميين أن يروجوا لمذهبهم بكل الأساليب ، ويزينوا للناس الأخذ به ، والانضواء تحت لوائه . فأضفوا على الحيــاة بهجة بما ابتدعوه من أعياد ومواسم ، ما يزال أغلبها باقيا حتى اليوم ، وقد انقضى على عهدهم نيف وعشرة قرون . فهم مبتدعو الاحتفاء بأول العام الهجرى ، ومولد النبى صلى الله عليه وسلم ، ويوم عاشــوراء ، ووفاء النيــل ، والعيدين : عيد الفطر والعيد الأضحى ، وخروج قافلة الحج الى الحجاز . بل انهم ذهبوا الى أبعد من هذا ، فقد احتفوا أيضا ببعض الأعياد القبطية ، مشاركة للقبط فى أفراحهم كليلة الغطاس ، والنيروز ، وخميس العهــد . وكانوا يولمون الولائم ، وينثرون الذهب على الناس ، وتلبس القاهرة حلة قشيبة من البهجة والزخرف ، وترفرف عليها أعلام الفرح والسرور ، حتى

خيل للفاطميين أنفسهم أن مصر غدت قلعة من قلاع الشيعة ، ومركزا من مراكز نشر دعوتهم . ولكنهم كانوا واهمين ، فما دالت دولتهم الا وطويت معهم تعاليمهم ومبادئهم ، وعادت مصر سيرتها الاولى ، ورجعت المذاهب الأربعة الى قواعدها سليمة من غير سوء

ومهما يكن من أمر ، فقد نعمت مصر فى عهد الفاطميين بما لم تنعم به من قبل ، نعمت لأول مرة منذ عهد الفراعنة بالاستقلال الكامل والحرية التامة . بل انه دعى للخلفاء الفاطميين فى صلاة الجمعة فى جميع المساجد من المحيط الأطلسى الى البحر الأحمر وفى اليمن ومكة ودمشق ، وفى ذات مرة فى بغداد وفى الموصل . ونعمت بالاستقرار الشامل ، والسلام المقيم ، اللذين حفلت البلاد فى ظلالهما بالرخاء والثراء ، وبحبوحة العيش . ولا يغيب عن البال ما كانت تحدثه احتفالات الفاطميين من انتعاش فى الحركة الاقتصادية فى البلاد عموما وفى القاهرة بصفة خاصة ، هذا فضلا عما تضفيه عليها من ألوان البهجة والسرور

وتقدم القول أنه بالرغم من انشاء القاهرة فقد ظلت الفسـطاط تشغل المركز الأول فى الصناعة والتجارة ، بها دور الصناعة العديدة ، والمتـاجر الغنية المتنوعة ، وقد حفلت بالمنتجات المحلية ، والسلع الشرقية والغربية ولحظ ناصر خسرو أن التجار فى مصر كانوا يبيعون بأثمان محدودة ، واذا ثبت على أحدهم الغش ، فانه يركب جملا ، ويوضع فى يده جرس يدقه ، ويطاف به فى البلد ، ويرغم على أن يصيح بأعلى صـوته : « قد كذبت وها أنذا أعاقب ، وكل من يقول الكذب فجزاؤه العقاب » (١)

اضطراب الحال فى عهد الحاكم :

غير أن الحياة لايمكن أن تسير رغدة ناعمة على طول الخط ، ولا بد أن يعتورها بين آن وآخر ما يعكر صفوها ، ويشوب هناءها . ولكن اذا

(١) سفرنامة لناصر خسرو ترجمة الدكتور يحيى الخشاب ص ٦١ .

ما انكشفت الغمة ، وزال الكرب ، عادت الحياة الى سابق صفوها . من ذلك ما اعترى البلاد من اضطراب فى أثناء ولاية الحاكم بأمر الله ، بسبب شذوذه وخبله ، واغتياله رؤساء دولته وكبار قواده وعلمائه ، وايقاعه ببعض أحياء القاهرة ، واعماله القتل فى سكانها ونهب أموالهم ومتاعهم ، وأخيرا ادعاؤه الألوهية . ولم يخلص البلاد من آثامه وشروره سوى اغتياله

القحط أو الشدة العظمى فى عهد المستنصر :

وفى عهد المستنصر أصيبت البلاد بقحط مروع ، أتى على الأخضر واليابس ، فعمت المسغبة البلاد ، وتضور الناس جوعا . وقد أطلق المؤرخون على هذا القحط اسم الشدة العظمى ، لفظاعته وهوله . وقد وصفه المقريزى بقوله : « ثم وقع فى أيام المستنصر الغلاء الذى فحش أمره ، وشنع ذكره ، وكان أمده سبع سنين ، وسببه ضعف السلطنة ، واختلال أحوال المملكة ، واستيلاء الأمراء على الدولة ، واتصال الفتن بين العربان ، وقصور النيل ، وعدم وجود من يزرع ما شمله الرى . وكان ابتداء ذلك فى سنة سبع وخمسين وأربعمائة[1] فنزع السعر ، وتزايد الغلاء ، وأعقبه الوباء ، حتى تعطلت الأراضى من الزراعة ، وشمل الخوف ، وخيفت السبل برا وبحرا ، وتعذر السير الى الأماكن الا بالخفارة الكثيرة ، وركوب الغَرَر — أى الخطر — واستولى الجوع لعدم القوت حتى أبيع رغيف خبز فى النداء بزقاق القناديل من الفسطاط كبيع الطرف بخمسة عشر دينارا ، وأبيع الأردب من القمح بثمانين دينارا ، وأكلت الكلاب والقطط حتى قلت الكلاب ، فبيع كلب ليؤكل بخمسة دنانير ، وتزايد الحال حتى أكل الناس بعضهم بعضا ، وتحرز الناس ، فكانت طوائف تجلس بأعلى بيوتها ومعهم سلب وحبال فيها كلاليب ، فاذا مر بهم أحد ألقوها عليه ونشلوه فى أسرع وقت ، وشرحوا لحمه ، وأكلوه »

(۱) وتقابل هذه السنة ١٠٦٤ — ٦٥ ميلادية

« ثم آل الأمر الى أن باع المستنصر كل ما فى قصره من ذخائر وثياب وأثاث وسلاح وغيره ، وصار يجلس على حصير ، وتعطلت دواوينه ، وذهب وقاره . وكانت نساء القصور تخرجن ناشرات شعورهن تصحن : «الجوع! الجوع ! » تردن المسير الى العراق ، فتسقطن عند المصلى ، وتمتن جوعا . واحتاج المستنصر حتى باع حلية قبور آبائه ، وجاءه الوزير يوما على بغلته ، فأكلها العامة ، فشنق طائفة منهم ، فاجتمع الناس فأكلوهم. وأفضى الأمر الى أن عدم المستنصر القوت ، وكانت الشريفة بنت صاحب السبيل تبعث اليه فى كل يوم بقعب من فتيت ، من جملة ما كان لها من البر والصدقات فى تلك الغلوة ، حتى أنفقت مالها كله ... وتدارك الله الخلق وأجرى النيل، وسكنت الفتن ، وزرع الناس ، وتلاحق الخير، وانكشفت الشدة وفرجت الكربة » (١)

الحالة الفنية

حياة الترف :

ولقد نافست الخلافة الفاطمية فى عهد العزيز خلافة بغداد ، وامتلأت خزانة الدولة ذهبا ونضارا ، ولا أدل على ذلك من حياة الترف والنعيم التى كان يحياها الخلفاء الفاطميون فى قصورهم ، التى وان عفت آثارها ، واندثرت معالمها ، الا أن كتب الرحالة والتاريخ سجلت لنا وصفا لها ولمحتوياتها ، مما تحار منه الألباب ، وتدهش له العقول

شاهد عيان يصف القصر الفاطمى :

ولقد أوفد الملك أمورى حاكم بيت المقدس الى الخليفة العاضد سنة ٥٦٢ هـ (١١٦٧ م) رسولين فى قصره ليعقدا معه باسم سيدهما محالفة يدفع بمقتضاها مائتى ألف دينار معجلة ، ومثلها مؤجلة، نظير دفاع الصليبيين عن مصر . ولقد أعجب الرسولان بعظمة ما شاهداه فى القصر أيما اعجاب ،

(١) اغاثة الامة بكشف الغمة للمقريزى ، نشر الاستاذين محمد مصطفى زيادة وجمال الدين الشيال ، ص ٢٦ — ٢٧

ووصف غليوم رئيس أساقفة صور زيارة هذين الرسولين ، وخص هذا الوصف الكاتب الفرنسي جوستاف شلمبرچيه والمؤرخ الانجليزى لين پول. ونقل المرحوم الأستاذ زكي محمد حسن في كتابه «كنوز الفاطميين» الى العربية تلخيص الكاتب الفرنسي (١) كما نقله أيضا الأستاذ محمد فريد أبو حديد في كتابه «صلاح الدين وعصره» تلخيص المؤرخ الانجليزى(٢). وننقل اليك ترجمة المرحوم الأستاذ الدكتور زكي محمد حسن بنصها فيما يلي : « وسار السفراء الفرنج ، يقودهم الوزير شاور بنفسه الى قصر له رونق وبهجة عظيمان ، وفيه زخارف أنيقة نضيرة . وكان هؤلاء المبعوثون متأثرين بما حولهم جد التأثير ، دون أن يتطرق الى نفوسهم أى خوف أو رهبة . ووجدوا في هذا القصر حراسا عديدين . وسار الحراس في طليعة الموكب ، وسيوفهم مسلولة ، وقادوا الفرنج في ممرات طويلة وضيقة ، وأقبية حالكة مظلمة ، لايستطيع الانسان أن يتبين فيها شيئا . وربما كان المقصود بذلك بعث الهيبة الى قلوبهم ، وزيادة التأثير فيهم . فلما خرجوا الى النور اعترضتهم أبواب كثيرة متعاقبة ، كان يسهر على كل منها عدد من الحراس المسلمين ، الذين كانوا ينهضون عند اقتراب شاور ، ويحيونه باحترام ، ثم وصل الموكب الى فناء مكشوف ، تحيط به أروقة ذات أعمدة ، وأرضيته مرصوفة بأنواع من الرخام متعددة الألوان ، وفيها تذهيب خارق العادة بنضارته وبهائه ، كما كانت ألواح السقف تزينها الزخارف الذهبية الجميلة

وكان كل ذلك مونقا رائعا ، وبهيا رائعا ، بحيث لا يملك أشغل الناس بالا ، وأكثرهم همًّا الا أن يقف للاعجاب به . وكان في وسط الفناء نافورة ، يجرى الماء الصافي منها في أنابيب من الذهب والفضة الى أحواض وقنوات مرصوفة بالرخام . وكانت ترفرف في الفناء أنواع لا حد لها من الطيور الجميلة ، ذات الألوان المفرطة في الندرة ، مجلوبة من شتى أنحاء الشرق . ولم يكن أحد يرى هذه الطيور دون أن تصيبه الحيرة والدهشة

---

(١) كنوز الفاطميين للدكتور زكي محمد حسن ص ٧١ — ٧٦
(٢) صلاح الدين وعصره للاستاذ محمد فريد أبى حديد ص ٥٣ — ٥٤

اعجابا بها ؛ ودون أن يقول ان الطبيعة كانت تمرح وتلعب ، حين كونت هذه المخلوقات الجميلة . ومن هذه الطيور ماكان يلزم النافورة ، ومنها ماكان يظل بعيدا عنها ، كل بحسب طبيعته . وكان لكل منها من الغذاء ما يوافقه

وهنا استأذن فى الرجوع الحراس الذين كانوا يسيرون فى معية الفرسان الفرنج حتى ذلك الوقت ، وحل محلهم بعض العظماء من الأمراء المقربين الى الخليفة نفسه

وسار هؤلاء الأمراء بالسفيرين الفرنجيين فى أفنية جديدة ؛ أشد جمالا وابداعا ، ثم الى حديقة لطيفة وغناء ، لم تكن الحديقة الأولى شيئا بجانبها . ورأوا فى هذه الحديقة أنواعا من الحيوانات ذوات الأربع ، غريبة بحيث يتهم المرء بالكذب اذا وصفها ؛ أو تحدث عنها ؛ وبحيث لايستطيع أى مصور أن يتخيل أو أن يحلم بمثل هذه الكائنات العجيبة. فان الغرب لم ير قط مثل هذه الحيوانات ، ولم يكن يعرفها الا بما كان يسمع من الأقوال

وبعد أن عبروا أبوابا عديدة أخرى ؛ وساروا فى تعاريج كثيرة ؛ كانوا يرون فيها أشياء جديدة تزيدهم دهشة واعجابا ، وصل الفرنج الى القصر الكبير ، حيث يقطن الخليفة . وفاق هذا القصر كل ما رأوه قبل ذلك . وكانت أفنيته تفيض بالمحاربين المسلمين، متقلدين أسلحتهم وعليها الزرد والدروع ، تلمع بالذهب والفضة ؛ وعليهم سيماء الافتخار ، بما كانوا يحرسون من الكنوز . وأدخل المبعوثون فى قاعة واسعة ، تقسمها ستارة كبيرة من خيوط الذهب والحرير المختلف الألوان . وعليها رسوم الحيوان والطيور ، وبعض صور آدمية . وكانت تلمع بما عليها من الياقوت والزمرد والأحجار النفيسة . ولم يكن فى هذه القاعة أحد . لكن شاور خر راكعا فور دخوله ، ثم نهض واقفا ، ثم قبّل الأرض ثانية ، وخلع السيف الذى كان يلبسه فى عنقه ، ثم خر ساجدا مرة ثالثة ، فى ذلة وخشوع كأنه يسجد لله . وارتفعت الحبال فجأة ، وانكشفت الستارة

الحريرية الذهبية بسرعة البرق ، كأنها ملاءة خفيفة ، وظهر الخليفة الطفل « السلطان العاضد » لأعين الفرنج المبعوثين ، وكان على وجه هذا الأمير نقاب يخفيه تماما ، وهو جالس على عرش من الذهب مرصـع بالجواهر والأحجار الثمينة » (١)

وصف لشاهد آخر :

وهناك وصف ثان ، لشاهد عيـان آخر ، زار مصر فيما بين سنتى ٤٣٩ و ٤٤١ هـ (١٠٤٧ ــ ١٠٤٩ م) ، ذلك هو الرحالة المشهور ناصر خسرو ، المتقدم ذكره ، فقد ذكر أن قصر السلطان كان يقع فى وسط القاهرة ، وبينه وبين الأبنيـة المحيطة به فضـاء ، يفصله عنها . وكان يحرسه فى الليل خمسمائة حارس من الفرسـان ، وخمسمائة حارس من الرجالة . وكانت أسواره عالية ، فلا يستطيع أحد رؤيته من داخل المدينة ، بينما يبدو من خارجها كالجبل . وكان فى القصر ألوف من الخدم والنساء والجوارى . وله عشر بوابات فوق الأرض ، وباب يقود الى ممر تحت الأرض ، يعبره الخليفة راكبا ، ليصل الى قصر آخر . وكان كل كبار الموظفين فى قصور الخليفة من الروم أو السود

خزائن القصر :

تقدم القول أنه كان بالقصر الكبير عدة خزائن ، منها : خزانة الكتب ، وخزانة البنود (الأعلام) ، وخزائن السلاح ، وخزائن الفرش ، وخزائن الكسوات ، وخزائن الخيم ، وخزائن الجوهر والطيب والطرائف وغيرها ، مما لا يتسع المقام لوصفها ، وشرح محتوياتها . وكان لكل خزانة عامل يدير شئونها ، وصناع يشتغلون فيها ، ان كانت محتوياتها مما يتطلب ذلك ، وفراش يقوم هو ومساعدوه بتنظيفها ، والسهر على محتوياتها . ولكل هؤلاء مرتب يتقاضونه من بيت المال (٢)

(١) كنوز الفاطميين ص ١١ ، ١٢

(٢) المقريزى : الخطط ج ٢ ص ٢٥٣

خزائن الجوهر والطيب :

ولقد حوت خزائن الجوهر والطيب والطرائف ما يحار له العقل من لآلىء وأحجار كريمة وتحف صنعت من الذهب والفضة والنحاس المكفت ، ونفائس غالية تجلى فيها الحذق والمهارة الفنية . ولقد روى المؤرخون فى ذلك أخبارا لايكاد يصـدقها العقل ، الا اذا أخذ فى اعتباره ما كانت تنعم به البلاد فى عهد الفاطميين من ثروة وغنى ، ورخاء ويسر ، وهدوء وأمن ، شهد به الرحالة ممن وفدوا على مصر ، وأقاموا فيهاردحا من الزمن ، ورأوا بأعينهم العز الذى ينشر ألويته على ربوعها ، ويعم جميـع أرجائها

التحف المعدنية :

فقد كان من بين تلك التحف حصيرة مصنوعة من الذهب ، تزن ثمانية عشر رطلا (أى ما يساوى سـبعة كيلوجرامات) ، يقال ان بوران بنت الحسن بن سهل جلست عليها يوم زواجها بالخليفة المأمون ، وكانت توجد ثمان وعشرون صينية من الميـنا المحلاة بالذهب ، وقد قدرت كل صينية منها بثلاثة آلاف دينار ، واستولى عليها ناصر الدولة ، الذى كان قائد الجند فى ذلك الحين

وكانت هناك أيضا صـناديق مملوءة مرايا من حديد ، محلاة بالذهب والفضة ، وبعضها مكلل بالجواهر النفيسة ، وله محفظات أو غلف من الكيمخت ، وهو نوع من الجلد المتين ، وأخرى من الأقمشـة الحريرية النفيسة . وكان للمرايا المذكورة مقابض من العقيق

وقد أخذ من خزائن القصر آلاف الآلات المصنوعة من الفضة ، المكفتة بالذهب ، ذات النقش العجيب ، والصنعة الدقيقة ، كما وجدت كميات كبيرة من قطع الشطرنج والنرد المصنوعة من الجوهر والذهب والفضة والعاج والأبنوس ، ولها رقاع من الحرير المنسوج بخيوط من الذهب

واستولى الجنود — فيما استولوا عليه من نفائس القصر وتحفه فى أثناء الشدة العظمى فى عصر المستنصر — استولوا على أربعمائة قفص مملوءة بالأوانى الفضية الثمينة المكفتة بالذهب ، وقد سبكت كلها ووزعت على الثوار ..

واستولوا كذلك على أربعة آلاف قنينة مذهبة للنرجس ، وعلى ألفى تنينة للبنفسج . ووجد من السكاكين الثمينة ما بيع بأبخس الأثمان. وبلغت قيمته على الرغم من ذلك ستة وثلاثين ألف دينار ، أى خمسة عشر ألف جنيه.

النفائس :

ومن أجمل النفائس التى كانت تزين القصر الكبير تحف على شكل حيوانات وطيور ، منها طاووس من ذهب مرصع بالجواهر النفيسة ، عيناه من ياقوت أحمر ، وريشه من الزجاج المموه بالمينا على ألوان ريش الطاووس . ومنها ديك من الذهب له عرف كبير من الياقوت الأحمر المرصع بالدر والجواهر . ومنها غزال مرصع أيضا بالجواهر النفيسة ، ومائدة كبيرة واسعة من اليصب أو حجر الدم الذى يشبه العقيق ، وأخرى من العقيق ، ونخلة من الذهب مكللة ببديع الدر والجوهر ، بمثل أجزاءها ، وما تحمله من بلح .

وقد بلغ من غرام الفاطميين بجمع التحف الفنية أن الأميرات كن ينافسن الأمراء فى هذا الميدان . وأن بعضهن تركن كنوزا ثمينة : فرشيدة ابنة المعز توفيت سنة ٤٤٣ هـ (١٠٥١ م) وتركت تحفا تقدر قيمتها بنحو مليون وسبعمائة ألف دينار : منها ثلاثون ثوبا من الخز الثمين (أى من قماش الصوف والحرير) ، كما وجد فى خزائنها بعض العمامات المرصعة بالجواهر ، مما يذكر بعمامات الأمراء الهنود . ويقال أيضا انها كانت تمتلك الخيمة التى توفى فيها هارون الرشيد بمدينة طوس ، وقد كانت من الخز الأسود . وقد ضمت كل كنوزها الى خزائن القصر بعد وفاتها فى عهد المستنصر . ومن التحف التى تركتها الأميرة عبدة بنت المعز

التى توفيت سنة ٤٤٢ هـ (١٠٥٠ م) نحو أربعمائة سيف محلى بالذهب ، ونحو أردب من الزمرد ! ! وغير ذلك من الجواهر والأقمشة النفيسة والأباريق والطسوت من البلور الصافى

التحف المصنوعة من البلور :

وقد كان بخزائن القصر شىء كثير من البلور والتحف الفنية الزجاجية المحكمة الصنع ، والمموهة بالذهب ، وغير المموهة . وقد قال أحد المستخدمين فى بيت المال أن صندوقا من الصناديق التى نهبت من القصر ذات يوم كان مملوءا بأباريق من البلور النفيس. بعضها منقوش بزخارف ورسوم جميلة ، وبعضها غير منقوش . والظاهر أنها كانت لشراب الفقاع « وهو نوع من البيرة كان منتشرا فى القاهرة فى العصور الوسطى » (١)

الخزف اللامع :

وقد سلم لنا القليل من هذه التحف ، معروض الآن بالمتحف الاسلامى بالقاهرة ، بين آنية من الخزف اللامع ، المعروف بالخزف ذى البريق المعدنى ، من أصص وأطباق وصحون وبرانى ، تزينها الزخارف النباتية ، ورسوم الطير والحيوان ، مرسومة بأيدى أشهر فنانى ذلك العصر ، مثل سعد ومسلم

واسترعت صناعة الخزف فى مصر انتباه الرحالة الفارسى ، ناصرخسرو بصفة خاصة ، فذكر أن المصريين كانوا يصنعون أنواع الخزف المختلفة ، وأن الخزف المصرى كان رقيقا وشفافا ، حتى لقد كان ميسورا أن ترى من باطن الاناء الخزفى اليد الموضوعة خلفه ، وكانت تصنع بمصر الفناجين والقدور والبراني والصحون والمواعين الأخرى ، وتزين بألوان تشبه لون القماش المسمى بوقلمون ، وهى ألوان تختلف باختلاف أوضاع الآنية وساعات النهار ، وذكر أيضا عن استخدام التجار والبقالين الأوانى

(١) راجع كنوز الفاطميين للمرحوم الدكتور زكى محمد حسن ص ٤٠ – ٦

الخزفية ، فيما يستخدم فيه التجار الورق فى العصر الحاضر ، أنهم كانوا يضعون فيها ما يبيعونه ، ويأخذه المشترون بالمجان (١) . ولعمرى أن هذا ليدل على مدنية ورقى لم تبلغهما الصناعة أو التجارة حتى فى يومنا هذا

التحف الخشبية :

كذلك معروض بهذا المتحف كثير من التحف الخشبية المحفورة ، من أبواب وألواح ومحاريب متنقلة ، وحشوات تخلفت من القصور الفاطمية . ومن أبدع تلك التحف ألواح خشبية ، كانت تزين القصر الفاطمى ، محفور عليها مناظر تمثل الحياة اليومية ، على أرضية من زخارف نباتية بديعة ، وتحف مصنوعة من العاج كقطع من الشطرنج والتماثيل الصغيرة

الأقمشة :

وتوجد بالمتحف السالف الذكر أيضا قطع من القماش ، كتانية وحريرية وصوفية ، عليها كتابات كوفية ، باسم الخليفة الحاكم ، وعليها رسوم نباتية وحيوانية ، وكلها مما لا يغنى فيه الوصف عن المشاهدة ، فهى قطع فنية رائعة ، تدل على مبلغ ما وصل اليه الذوق الفنى الرفيع عند الفاطميين ، من التقدم والسمو

التصوير :

وكان للفاطميين فى ميدان التصوير باع طويل . فقد استباحوا لأنفسهم ما أحجم عنه أهل السنة ، من مزاولة التصوير . وقد أحجم عنه أهل السنة خوفا مما جاءت به بعض الأحاديث النبوية من معاقبة المصورين يوم القيامة . ولكن الفاطميين ، الذين كانوا يعارضون أهل السنة فى كثير من الأمور ، لم يأبهوا لما أنذرت به تلك الأحاديث ، وزاولوا التصوير على مدى كبير ، فصوروا الانسان والحيوان والنبات على الخزف والأخشاب وعلى الجص والمنسوجات

---

(١) سفرنامة ص ٦٠ — ٦١

وخلا ما هو موجود على قطع الخزف اللامع والأخشاب والمنسوجات المحفوظة بالمتحف الاسلامى بالقاهرة ، لم تصل الينا لوحات من التصوير الفاطمى ، ما عدا بعض صور مرسومة على الجص وجدت على جدران حمام فاطمى ، بجهة أبى السعود جنوبى القاهرة ، نقلت الى المتحف الاسلامى ، أهمها صورة انسان تحيط برأسه هالة ، وهى ملونة بالأحمر والأسود ، وعليه عمامة جميلة ، وفى يده اليمنى كأس يحمله على النحو الذى نراه كثيرا على نقوش الخزف والأوانى الفارسية الساسانية ، من فضة ونحاس

وقد حدثنا المقريزى عن المباراة بين المصورين ابن عزيز وقصير وعن المنافسة التى كان يذكيها بينهما اليازورى ، الوزير الفاطمى المشهور . وحدث أن جمعهما اليازورى يوما فى مجلسه وقال ابن عزيز : « أنا أصور صورة اذا رآها الناظر ظن أنها خارجة من الحائط». فقال قصير: « لكن أنا أصورها فاذا نظرها الناظر ظن أنها داخلة فى الحائط ». فقال الحاضرون هذا عجب . وأمر اليازورى المصورين أن يصنعا ما وعدا به . فرسما الصورتين فى حنيتين متقابلتين . وكان رسم قصير راقصة ، بثياب بيض ، فوق أرضية الحنية التى دهنها باللون الأسود ، فظهرت الراقصة كأنها داخلة فى الحنية . بينما كان رسم ابن عزيز راقصة بثياب أحمر ، فوق أرضية الحنية التى دهنها باللون الأصفر ، فظهرت الراقصة كأنها بارزة من الحنية . فاستحسن اليازورى ذلك ، وخلع عليهما كثيرا من الذهب (١)

الحالة العلمية :

كان فى مقدمة ما عنى به الخلفاء الفاطميون جمع الكتب ، مما يستدل معه على ميلهم الى احياء العلوم . وشغفوا بصفة خاصة بجمع النادر من الكتب ، فى كل علم وفن . وكثيرا ما كانوا يحرصون على اقتناء نسخ

(١) كنوز الفاطميين ص ٩٢

من مختلف الكتب بخط مؤلفيها ، ويدفعون فى سبيل ذلك أغلى الأثمان ، مبالغة فى التحقيق والتدقيق، هذا فضلا عن تنسيق تلك الكتب وتبويبها ، والمحافظة عليها ، وفق نظام دقيق ، تيسيرا للرجوع اليها ، والاغتراف من مناهلها

خزانة الكتب :

وذكرنا فى معرض الكلام عن خزائن القصر أنه كان من بينهـا خزانة الكتب، وقد ذكر المقريزى فى خططه أنها كانت تشتمل على ألف ألف وستمائة ألف كتاب ـ أى مليون وستمائة ألف ، وكانت فى أحد مجالس المارستان العتيق ـ أى أنها كانت فى الموضع الذى أنشىء فيه مارستان قلاوون بعد ذلك ، وكانت تتـألف من أربعين قسما ، ويحتوى كل قسم على عدة رفوف ، فى دور ذلك المجلس العظيم . والرفوف مقطعة بحواجز ، وعلى كل حاجز باب مقفل بمفصلات وقفل ، ومن بين ما تحتوى عليه كتب فى الفقه على سائر المذاهب ، والنحو واللغة ، وكتب الحديث ، والتواريخ ، وسير الملوك ، والنجامة والروحانيات ، والكيمياء ، والمصاحف الكريمة بخط ابن مقلة ونظائره ، كابن البواب وغيره ، وثمانية عشر ألف كتاب من العلوم القديمة ، وألفان وأربعمائة ختمة قرآنيـة ، فى ربعات بخطوط منسوبة ، زائدة الحسن ، محلاة بذهب وفضة وغيرهما . وأن جميع ذلك ذهب فيما أخذه الأتراك فى واجباتهم ـ أى أجورهم ومرتباتهم ـ ببعض قيمته ، أيام الشدة الكبرى فى عهد الخليفة المستنصر (١)

ومن طريف ما ذكره المقريزى فى هذا الشأن : أن رجلا حمل الى العزيز بالله نسخة من كتاب الطبرى اشتراها بمائة دينـار ، فأمر العزيز أمنـاء المكتبة ، فأخرجوا من الخزائن ما ينيف عن عشرين نسـخة من تاريخ الطبرى ، منها نسخة بخط يده ، ولعله فعل ذلك لكيلا يركب الرجل متن الشطط فى تقدير ثمن الكتاب

---

(١) المقريزى : الخطط جـ ٢ ص ٢٥٤

ونقل المقريزى عن صاحب كتاب الذخائر : « قال وكنت بمصر فى العشر الأول من محرم سنة احدى وستين وأربعمائة ، فرأيت فيها خمسة وعشرين جملا موقرة كتبا ، محمولة الى دار الوزير أبى الفرج محمد بن جعفر المغربى ، فسألت عنها ، فعرفت أن الوزير أخذها من خزائن القصر هو والخطير بن الموفق فى الـدينـن ، بايجاب ، وجبت لهما عما يستحقانه وغلمانهما من ديوان الجبليين » (١)

شغف الخلفاء بالعلم :

ولم يكن اقتناء الكتب والمحافظة عليها حبا فى الزينة ، وجريا وراء المظاهر البراقة ، وانما كان الخلفاء الفاطميون يدمنون القراءة والمطالعة ، بل لقد عرف عن بعضهم أنهم كانوا من أعلم أهل زمانهم ، كالمعز لدين الله ، الذى كان عالما وفقيها ، وعلما من أعلام الدين والأدب ، بليغ الأسلوب ، ملما بكثير من اللغات . وما رئى فى مجلس أو عابرا طريقا الا وبيده كتاب (٢) . وكان هو وكثير من أسرته من بعده ، من بينهم الحاكم بأمر الله يشتغلون بعلوم النجوم ، ويميلون الى علوم الأوائل ، ويقربون اليهم أهلها ، ويفرضون العلم على أولادهم ومماليكهم

وكثيرا ما كان الخليفة يزور خزانة الكتب ، فيجىء راكبا ، ثم يترجل ويتخذ مجلسه فوق دكة منصوبة ، ويمثل بين يديه أمين المكتبة ، ويأتيه بمصاحف كثيرة ، مكتوبة بأقلام مشاهير الخطاطين ، وغير ذلك مما يقترحه من الكتب . فان عـن له أخذ شىء منها أخذه ثم أعاده (٣)

عناية الوزراء بالعلم :

ولم يكن الخلفاء وحدهم يشتغلون باقتناء الكتب ، وينقبون عنها ، ويدمنون القراءة ، ويطيلون البحث فيها ، بل ان وزراءهم كانوا يقتفون أثرهم ، وينهجون نهجهم . فقد روى عن يعقوب بن كلس ، وزير العزيز ،

(١ ، ٢ ، ٣) المقريزى : الخطط حـ ٢ ص ٢٥٤

انه كان يرتب فى داره الكتّاب والأطباء ، وجعل فيها العلماء والأدباء والشعراء والفقهاء والمتكلمين ، وأجرى عليهم الأرزاق، وألّف كتبا عدة فى الفقه والقراءات ، ونصب له مجلسا فى داره يحضره الفقهاء والمتكلمون وأهل الجدل ، يتناظرون بين يديه . وكان فى داره كذلك عدة كتّاب ، ينسخون القرآن الكريم والفقه والطب وكتب الأدباء وغيرها من العلوم ، فاذا فرغوا من نسخها قوبلت وضبطت (١)

الجوامع كمراكز لنشر العلم :

ولم تقف جهود الخلفاء الفاطميين فى احياء العلوم ونشر المعارف عند حد اقتناء الكتب والمحافظة عليها ، بل انهم نشروا العلم وشجعوا الناس على الاغتراف منه ، بكل الوسائل والطرق . فلقد ظل العلم يلقى فى جامع عمرو فى حلقاته العلمية والأدبية ، التى كانت تعقد باتنظام ، ويشهدها عدد كبير من الأساتذة والطلاب والأدباء والشعراء ، كما كان يحدث فى عهد الدولتين الطولونية والأخشيدية ، وأوقف عليه الخلفاء الفاطميون وعلى غيره من المساجد الأوقاف والهدايا ، وقد كان يصيب هذا الجامع لهذا السبب كثير من الترميمات والاصلاحات بين آن وآخر. كذلك كان الخلفاء الفاطميون يشملون الطلاب بالرعاية والعطف ، وترتب لهم نفقات مأكلهم ومشربهم ، فضلا عما يقدم لهم من الأطعمة والحلوى فى جميع المواسم والأعياد

ومن أشهر الفقهاء الذين جلسوا للتدريس فى جامع عمرو فى عهد الفاطميين على بن نصر بن سليمان الزنبقى اللغوى ، وقرىء عليه كثير من الكتب الأدبية واللغوية والنحوية ، وأبو أسامة جنادة بن محمد النحوى ، وأبو الحسن طاهر بن بابشاذ ، وكان كلاهما عالما فى اللغة والنحو

---

(١) الفاطميون فى مصر للدكتور حسن ابراهيم حسن ص ٢٣٦

الجوامع كمراكز لنشر المذهب الشيعى :

غير انه لايغيب عن البال أن الخلفاء الفاطميين كانوا يتخذون من الجوامع مراكز لنشر المذهب الشيعى ، واشاعة عقائدهم بين الناس ، فقد جلس بجامع عمرو كثير من الفقهاء ، درسوا فيه الرسالة الوزيرية ، التى ألّفها الوزير يعقوب بن كلس فى الفقه الشيعى ، فى عهد العزيز. كما قام فيه بتدريس العلوم الشيعية فى زمن الحاكم بأمر الله القاضيان الحسين بن على بن النعمان وعبد العزيز بن محمد بن النعمان

كذلك أدى جامع ابن طولون دوره كمعهد علمى . غير انه لم يتح له من النشاط والشهرة مثلما أتيح لجامعى عمرو والأزهر ، اذ لم يرو لنا التاريخ اسماء لامعة قامت بالتدريس فيه ، مثلما روى من أسماء العلماء والأدباء والفقهاء الذين حاضروا فى الجامعين المذكورين

الجامع الازهر :

أما الجامع الأزهر فقد عقدت له الزعامة الثقافية والعلمية والدينية على غيره من الجوامع ومعاهد العلم ، وذلك لما كان يختصه به الخلفاء الفاطميون من رعاية وعناية ، وما يخلعونه عليه من زخرف وزينة ، وما يضاء به فى المواسم والأعياد ، من أنوار ساطعة . فهو مسجدهم المفضل ، الذى يخطب فيه الخليفة ، وتعقد فيه مجالس الدروس ، وتنشر منه تعاليم المذهب الفاطمى ، وينعم فيه الأساتذة والطلاب بالأرزاق الوفيرة ، والهدايا الحسنة . ولقد اختصه الحاكم بوقفية ملكية ، هى أول وقفية صدرت للانفاق على هذا المسجد ، وقف فيها ريع كثير من ممتلكاته ، من دور وحوانيت ومخازن ، للانفاق على أثاثه وخدمه وأئمته ، وعلى انارته واصلاحه. لذلك لم يكن غريبا أن يصبح أكبر جامعة اسلامية فى الشرق ، يفد عليه الطلاب من كل حدب وصوب ، يتلقون فيه مختلف العلوم الدينية والفلسفية والمنطق ، وبعض الرياضيات والطب ، على يد علماء ذلك العصر ، مثل

أبى على محمد بن الحسن بن الهيثم ، الذى رحل الى مصر فى زمن الحاكم. وظل بها الى أن توفى سنة ٤٣٠ هـ (١٠٣٨ ــ ١٠٣٩ م) وهو أشهر علماء المسلمين فى الطبيعة والبصريات ، ويعرف عند الأوربيين باسم «الهازن». ومن أشهر كتبه كتابه فى البصريات ، المسمى «كتاب المناظر» ، الذى يعتبر أساس علم الضوء حتى وقتنا هذا . وقد ضاع أصله العربى ، ولكن بقيت ترجمته اللاتينية . والحوفى امام العربية والنحو ، وابن بابشاذ المتوفى سنة ٤٦٩ هـ (١٠٧٦ م) ، وغيرهم من علماء الفقه والدين واللغة العربية ونحوها وصرفها وآدابها

ولقد قصد الفاطميون من انشائهم الجامع الأزهر أن يكون جامعة شيعية ، ولم يدروا أنهم يضعون أساس أكبر جامعة اسلامية سنية ، بل وأعظم قلعة حصينة يذاع منها الاسلام خالصا صحيحا فى مشارق الأرض ومغاربها . فما دالت دولة الفواطم ، وعفت آثارها ، الا وحمل الأزهر الأمانة ، وظل طوال القرون التالية حتى اليوم حصن الاسلام الحصين ، وركنه الركين. وانعقدت لعلمائه فى تاريخ مصر الحديث الزعامة والرياسة ، فى توجيه الرأى العام

وقد وصف المقريزى حركة العلم فى الأزهر فقال : « ولم يزل فى هذا الجامع منذ بنى عدة من الفقراء ، يلازمون الاقامة فيه . وبلغت عدتهم فى هذه الأيام ــ أيام المقريزى ــ ٧٥٠ رجلا ، ما بين عجم وزبالقة ، ومن أهل ريف مصر ومغاربة ، ولكل طائفة رواق يعرف بهم ، فلا يزال الجامع عامرا بتلاوة القرآن ودراسته وتلقينه ، والاشتغال بأنواع العلوم والفقه والحديث والتفسير والنحو ، ومجالس الوعظ والارشاد وحلق الذكر . فيجد الانسان اذا دخل هذا الجامع من الأنس بالله ، والارتياح ، وترويح النفس ، ما لا يجده فى غيره . وصار أرباب الأموال يقصدون هذا الجامع بأنواع البر من الذهب والفضة والفلوس ، اعانة للمجاورين فيه على

عبادة الله تعالى . وكل قليل ، تحمل اليهم أنواع الأطعمة ، والخبز ، والحلويات لاسيما فى المواسم » (١)

دار الحكمة أو العلم :

لم تقف جهود الفاطميين فى نشر العلم على المساجد ، بل تعدت ذلك الى انشاء المعاهد التى انفردت بنشره ، فقد أنشأ الحاكم فى سنة ٤٠٠ هـ (١٠٠٩-١٠١٠م) دار العلم أو دار الحكمة ، وكانت تلاصق القصر الغربى ، وأمدها بالأثاث ، ورتب لها الخدم والفراشين ، وحمل اليها من خزانة القصر عددا كبيرا من الكتب فى مختلف العلوم والفنون ، وأوقف عليها الأوقاف الكثيرة للانفاق على الطلاب والأساتذة والأدوات . وذكر المقريزى أنه « حصل فى هذه الدار من خزائن أمير المؤمنين الحاكم بأمر الله من الكتب التى أمر بحملها من سائر العلوم والآداب والخطوط المنسوبة ، ما لم ير مثله مجتمعا لأحد قط من الملوك ، وأباح ذلك كله لسائر الناس على طبقاتهم ، ممن يؤثر قراءة الكتب والنظر فيها . وحضرها الناس على طبقاتهم ، فمنهم من يحضر لقراءة الكتب ، ومنهم من يحضر للنسخ ومنهم من يحضر للتعليم ، وجعل فيها ما يحتاج الناس اليه من الحبر والأقلام والورق والمحابر » (٢)

وظلت دار العلم تؤدى رسالتها طوال العهد الفاطمى ، ما عدا فترات قصيرة ، أغلقت فيها ، ثم يعاد فتحها ، الى أن دالت الدولة ، وقامت على انقاضها دولة بنى أيوب ، فأحالها صلاح الدين الأيوبى ، وكان قد أوقف جهوده على القضاء على المذهب الشيعى ، الى مدرسة لتعليم الدين ، وفق المذهب الشافعى .

مجالس المناظرة فى القصر :

وفى القصر كانت تعقد مجالس المناظرة تحت اشراف الخليفة ووزرائه ، وبحضور العلماء والأدباء ، وكبار رجال دولته . فيتناظر العلماء فى مختلف

(١) المقريزى : الخطط حـ ٤ ص ٥٤
(٢) المقريزى : الخطط حـ ٢ ص ٣٣٤

المسائل. وفى نهاية المناظرة ينهض الشعراء ، ينشدون القصائد ، ويتبارون فى مدح الخليفة ، والاشادة بمجد آبائه وأجداده . ولا غرو اذا وفد على مصر كثير من الشعراء ، من مختلف الأقطار ، يسعون الى مجلس الخليفة ، ينشدون عطاءه ، ويبتغون كرمه ، من هؤلاء أبو حامد الانطاكى ، ومحمد ابن القاسم بن عاصم ، وأبو الحسن على بن عبد الواحد البغدادى المعروف بصريع الدلاء ، وأبو الحسن على بن نوبخت ، وعبد الوهاب بن نصر المالكى . وقد مدح ابن هانىء الأندلسى المعز لدين الله الفاطمى فى قصائد رنانة ، غالى فيها فى مدح المعز حتى انحدر الى درجة الكفر ، وكان يزمع الرحيل الى مصر ، فى اثر المعز ، بعد رحيله من بلاد المغرب ، ولكنه توفى فى الطريق ، فحزن عليه المعز كثيرا

الحالة الاجتماعية

المجتمع المصرى :

كان المجتمع المصرى فى عهد الفاطميين ينقسم بصفة عامة الى سنيين ، وهم جمهرة المصريين قبل وفود الفاطميين الى مصر ، وشيعيين ، وهم الذين وفدوا اليها من بلاد المغرب ، وقد تحول كثير من السنيين ، بل ومن النصارى واليهود ، الى المذهب الشيعى ، طمعا فى الهبات والعطايا ، التى كان الفاطميون يغرون بها الناس للانضمام الى مذهبهم ، وتقلد كثير من اليهود بعد اسلامهم وتشيعهم أرقى المناصب فى الدولة ومن بينها منصب الوزارة

وبالاضافة الى السنيين ، وهم أهل مصر ، والشيعيين ، وهم المغاربة ، أو من اعتنق هذا المذهب من المصريين ، كانت توجد طبقة الأتراك الذين تكاثروا منذ عهد أحمد بن طولون ، التركى الجنس ، والسودانيون الذين استكثر منهم كافور الأخشيدى ، وقد ظهر أمرهم فى عهد الحاكم ، حيث استعان بهم على الجنود الأتراك ، فأحرقوا القاهرة ، عقابا للمصريين الذين

كانوا يحنقون عليه ، لسوء سياسته . وقد استمر العراك بين الأتراك والسودانيين طوال العصر الفاطمى (١)

الادارة :

وقد كانت الإدارة فى العهد الفاطمى تتبع النظام العباسى ، أو بعبارة أخرى النظام الفارسى القديم . وكان الجيش مكونا من ثلاث طبقات :

١ ــ الأمراء ومن بينهم كبار الضباط وحملة السيوف من حرس الخليفة

٢ ــ ضباط الحرس ، وهؤلاء يشملون الأساتذة والخصيان

٣ ــ الفرق المختلفة التى كانت تحمل أسماء منسوبة الى أحد الخلفاء أو الوزراء أو احدى الجنسيات مثل الحافظية والجيوشية والسودانية

كبار الموظفين :

وكان الوزراء من طبقات متعددة ، أرقاهم رجال السيف الذين يشرفون على الجيش والحرب ، ثم سادة الباب أو كبار الحجاب ، وكانت وظيفتهم تقديم السفراء الأجانب. أما رجال القلم ، فكان من بينهم القاضى والمحتسب الذى يشرف على الموازين والمكاييل والمقاييس والآداب العامة ، وخازن الدولة الذى يشرف على بيت المال . وكانت أقل مرتبة فى طبقة رجال القلم الموظفون المدنيون، ومن بينهم الكتّاب والسكرتارية فى مختلف الدواوين (٢)

الاعياد والمواسم :

وقد كان للخلفاء الفاطميين عناية خاصة بالأعياد والمواسم ، وقد ذكرنا فيما سبق أسماء المواسم التى ابتدعوها ، والتى ما زال كثير منها باقيا حتى اليوم ، نحتفى به ونحييه . وفى تلك الأعياد ، خصوصا عيدى الفطر والنحر ، كانت تمد الأسمطة « الموائد » ، وتعد ألوان الطعام الوفيرة ،

---

(١) تاريخ الاسلام السياسى للدكتور حسن ابراهيم حسن
(٢) تاريخ العرب تأليف فيليب حتى ، ترجمة المرحوم الاستاذ محمد مبروك نافع ، المجلد الثانى ص ٨١٣

ويدعى الناس اليها من جميع الطبقات ، لا فرق ولا تمييز ، ليأكلوا هنيئا ، ويشربوا مريئا ، مما لذ وطاب ، وهم انما يلتمسون من وراء ذلك رضا الشعب ومحبته ، واجتذاب النـــاس الى المذهب الشـــيعى ، الذى كانوا يحاولون بشتى الطرق تثبيت دعائمه ، ونشر لوائه

« ففى يوم عيد الفطر ، كان يقام السماط مرتين ، وفى عيد النحر مرة واحدة ، فى قاعة الذهب ، احدى قاعات القصر الفاطمى . ويعبى السماط فى الليل ، وطوله ثلثمائة ذراع فى عرض سبعة أذرع ، وعليه من أنواع المأكل أشياء كثيرة . فيحضر اليه الوزير، أول صلاة الفجر، والخليفة جالس فى الشباك، ومـكّنـت الناس منه ، فاحتملوا ونهبوا ما لا يأكلونه ، ويبيعونه ويدخرونه ، وهذا قبل صلاة العيد . فاذا فرغ من صلاة العيد ، مد السماط المقدم ذكره فيؤكل ، ثم يمد ســماط ثان من فضـــة ، يقال له المدورة ، عليها أوانى الفضة والذهب والصينى ، فيها من الأطعمة الخاص ما يستحى من ذكره ، والسماط بطول القاعة ، وهو خشب مدهون شبه الدكك اللاطية ، عرضه عشر أذرع . ويحط فى وســط الســماط واحد وعشرون طبقا ، فى كل طبق واحد وعشرون خروفا ! ! ومن الدجاج ثلثمائة وخمسون طائرا ، ومن الفراريج ــ الدجاج ــ مثلها ، ومن فراخ الحمام مثلها ، وتتنوع الحلوى أنواعا ، ثم يمد بخلل تلك الأطباق ــ أى فيما بينها ــ أصحن خزفيات فى جنبات السماط ، فى كل صحن تسع دجاجات ؛ فى ألوان فائقة من الحلوى ، والطباهجة ــ وهو ضرب من قلى اللحم المشرح ــ المفتقة بالمسك الكثير ــ أى المحشوة به ــ وعدة الصحون خمسمائة صحن، مرتب كل ذلك أحسن ترتيب . ثم يؤتى بقصرين من حلوى ــ أشبه شيء بالتورتة اليوم ــ قد عملا بدار الفطرة ، زنة كل واحد سبعة عشر قنطارا ! ! فيمضى بواحد من طريق قصر الشوق الى باب الذهب ، ويشق بالآخر من الجانب بين القصرين ، فينصبان أول السماط

وآخره ، ثم يخرج الخليفة راكبا ، فينزل على السرير الذى عليه المدورة الفضية ، وعلى رأسه أربعة من كبار الأساتذة المحنكين، وأربعة من خواص الفراشين ، ثم يستدعى الوزير فيجلس عن يمينه ، والأمراء ومن دونهم فيجلسون على السماط ، فيتداول الناس السماط ، ولا يُرد أحد عنه حتى يذهب عن آخره ، فلا يقوم الخليفة الا قريب الظهر ، ثم يخرج الوزير ويذهب الى داره ، ويعمل سماطا يقارب سماط الخليفة . وهكذا يقع فى عيد النحر ، فى أول يوم منه » (١)

وكان يُمد سماط عظيم فى سرادق رحب على شاطىء النيل ، على مقربة من المنظرة المعروفة بمنظرة السكرة ، كما كان يُصنع فى موسم مولد النبى صلى الله عليه وسلم عشرون قنطارا من الحلوى ، توضع على ثلثمائة خوان – صينية – وتوزع على الناس فى الأزهر . وما زالت الحلوى الى اليوم تصنع وتباع فى مولد النبى وأولياء الله الصالحين، فى طول البلاد وعرضها ، وربما لايعرف كثير من الناس أن هذا التقليد انحدر الينا عن الفاطميين ، ضمن ما انحدر الينا من ابتكاراتهم وبدعهم

ركوب الخلفاء الفاطميين :

وكان الخلفاء الفاطميون يخرجون فى مواكب غاية فى الفخامة والأبهة ، للاحتفال بالأعياد والمواسم ، أو للصلاة فى المساجد ، أو لتوديع فرقة من الجيش ، أو لاحياء مناسبات أخرى . وكان ركوب الخلفاء لا ينقطع من أول العام حتى شهر رمضان

الاحتفال باول العام الهجرى :

وأفخم مواكبهم يوم الاحتفال بأول العام الهجرى ، حيث توضع الترتيبات والتنظيمات ، وتفتح خزائن الفرش والكسوات والأسلحة

(١) النجوم الزاهرة حـ ٤ ص ٩٧ – ٩٨

والأعلام والبنود والسروج والتجميل ، وتمد كل فئة بحاجتها من العـدد والأدوات ، مما تستلزمه تلك المناسبات

« ويخرج الخليفة فى جمع زاخر من أفراد أسرته وغلمانه وبطانته ووزرائه وموظفى دولته وجنوده ، من مختلف الأسلحة والأجناس ، راجلين وراكبين ، يحملون السيوف والرماح ، وينشرون الأعلام والبنود ، ويلبسون الملابس الفاخرة ، ويركبون الجياد المطهمة ، ويسيرون وفق نظام دقيق ، وترتيب موضـوع . ويصطف الأمراء والوزراء على باب النصر حتى يهل عليهم الخليفة بطلعته ، وحوله الأستاذون المحنكون (١) ، ودابته تمشى على بسط مفروشة ، خيفة أن تتزلق على الرخام . فعندما يقترب من الباب ، يقترب رجل ببوق من ذهب لطيف معوج الرأس ، بصوت عجيب ، يخالف أصوات الأبواق ، فتضرب أبواق الموكب ، وتنشر المظلة ، ويخرج الخليفة من الباب ، فيقف مقدار ما يركب الأساتذة المحنكون ، وأرباب الرتب الذين كانوا بالقاعة. ويكون لباسه البياض ، يزين رأسه تاج مرصع بالجوهرة اليتيمة ، وهى جوهرة عظيمة ، لا تعرف لها قيمة ، حولها ما دونها من الجواهر ، وهى موضوعة فى هلال من ياقوت أحمر ، ليس له مثال فى الدنيا ، زنته أحد عشر مثقالا ، وقيل أكثر ، يقال له الحاضر ، فتنتظم فى خرقة من حرير ، أحسن ما يمكن من الوضع ، ويخاط على التاج بخياطة خفيفة ، فيكون ذلك بأعلى جبهة الخليفة ، وبدائرها قصب الزمرد الذبابى (٢) العظيم القدر»

« ثم يسيرون والمظلة على يسار الخليفة ، وصاحبها يبالغ ألا يزول عنه ظلها ، وصبيان الركاب ، منهم جماعة كبيرة من الشكيمتين ، وجماعة أخرى فى عنق الدابة ، وجمـاعة أخرى فى ركابيه ، فالأيمن مقدم المقدمين ، وهو

---

(١) خواص خدم الخليفة ، وهم الذين يدورون عمائمهم على احناكهم
(٢) أى ان لونه كلون الذباب المائل الى الخضرة

صاحب المقرعة ، التى يناولها للخليفة ، ويتناولها منه ، ويؤدى عن الخليفة الأوامر والنواهى مدة ركوبه » .

« والمظلة تشاكل (١) بدلة الخليفة ، وعمودها من الزان ، ملبس بأنابيب الذهب ، ورأسها كالرمانة ، ويعلوه أيضا رمانة صغيرة كلها ذهب مرصع بجوهر ، ولها رفرف دائر ، عرضه أكثر من متر ونصف »

« ويسير الموكب وبأوله أخلاط بعض العساكر ، ثم الأماثل ، ثم أرباب المناصب ، ثم أرباب الأطواق ، ثم الأستاذون المحنكون ، ثم حاملا لواءى الحمد من الجانبين ، ثم حامل الدواة ، ثم صاحب السيف ، وهما فى الجانب الأيسر ، وكل من تقدم ذكره بين العشرة والعشرين من أصحابه . وأهل الوزير من الجانب الأيمن ، بعد الأستاذين المحنكين ، ثم الخليفة وحوله صبيان الركاب المذكورة بقرقرة السلاح منهم ، وهم ما يزيد على ألف رجل، وعليهم المناديل الطبقيات ، يتقلدون بالسيوف ، وأوساطهم مشدودة بمناديل ، والسلاح مشهور بأيديهم ، من جانبى الخليفة كالجناحين ، وبينهم فرجة لوجه الدابة ، ليس فيها أحد . وبطول الموكب ، والى القاهرة رائح وعائد ، يفسح الطريق ، ويسيّر الفرسان ، فيلقى فى عوده الاسفهسالار — القائد العام — كذلك ، فى حث الأجناد فى الحركة ، وينكر على المزاحمين ، ويلقى أيضا فى عوده صاحب الباب عن فى زمرة الخليفة ، الى أن يصل الى الاسفهسالار ، فيعود لترتيب الموكب

« وخلف دابة الخليفة قوم من صبيان الركاب لحفظ أعقابه ، وخلفهم أيضا أخر ، يحمل كل واحد سيفا فى خريطة (٢) ديباج أحمر وأصفر بشراريب ، يقال لها « سيوف الدم » لضرب الأعناق ، ثم صبيان السلاح الصغير ، أرباب النرنجيات »

« ثم يأتى الوزير، وفى ركابه قوم من أصحابه ، وقوم يقال لهم صبيان

---

(١) تماثل (٢) فى جراب

الزرد ، من أقوياء الأجناد ، يختارهم لنفسه نحو خمسمائة رجل من جانبيه ، كأنه على قلق من حراسة الخليفة . ويجتهد ألا يغيب عن نظره ، وخلفه الطبول والصنوج والصفافير ، بحيث تدوى منهم الدنيا فى عدد كثير ، ثم يأتى حامل الدرقة والرمح ، ثم طوائف الراجل من الركابية والجيوشية وقبلهما المصامدة ثم الفرنجية ، ثم الوزيرية ، زمرة بعد زمرة ، فى عدد وافر ، يزيدعلىأربعة آلاف نفر ، ثم أصحاب الرايات ، ثم طوائف العساكر من الآمرية والحافظية والحجرية الكبار والحجرية الصغار والصقلية ، ثم الأتراك المصطنعون، ثم الديلم، ثم الأكراد والغز المصطنعة ، وهم البحرية ، ويقدم هذه الفرسان عدة وافرة من المرجلة ، أرباب قسى اليد وقسى الرجل، فى نيف وخمسمائة نفر، وهم المعدون للأساطيل، وجملتهم نحو ثلاثة آلاف وأكثر ، وهؤلاء الذين ذكرناهم بعض من كل ، لا جميع عسكر الخليفة ، ثم يدخلون من باب الفتوح ، ويقفون بين القصرين كما كانوا » (١)

« فاذا وصل الخليفة الى موضع جامع الأقمر الآن، وقف وقفة ، وانفرج الموكب ، واتجه الخليفة الى القصر ، يحف به الوزير والأمراء والأستاذون المحنكون ، وهم مشاة ، الى أن يصل الى باب القصر ، فينزل الخليفة ، وينصرف الوزير والباقون ، وينتظرون فى بيوتهم ، فتأتيهم دنانير ذهبية ، كانت قد ضربت فى العشر الأخير من ذى الحجة ، عليها تاريخ السنة التى ركب فيها ، فيحمل للوزير شىء كثير منها والى أولاده وأقاربه ، ثم الى أرباب الرتب من أرباب السيوف والأقلام ، من عشرة دنانير الى رباعى الى قيراط والى دينار واحد ، فيقبلون ذلك تبركا » (٢)

ركوب الخليفة الى مصر « الفسطاط »

« وكان أكثر ركوب الخليفة الى مصر «الفسطاط» ، فاذا ركب ، ركب الوزير وراء الخليفة ، فى أقل جمع مما تقدم ذكره فى ركوب أول العام ،

---

(١) النجوم الزاهرة لابى المحاسن بن تغرى بردى الجزء الرابع ص ٨٨ – ٩١.
(٢) النجوم الزاهرة جـ ٤ ص ٩١

فيشق الخليفة القاهرة الى جامع أحمد بن طولون الى المشاهد « كمشهد زين العابدين ، ومشهد السيدة نفيسة ، ومشهد السيدة أم كلثوم » ، الى درب الصفا ، ويقال له الشارع الأعظم ، الى دار الأنماط « وتعرف بدار الحصر» ، الى جامع مصر «جامع عمرو» ، ثم يسير الخليفة الى دار الملك(١) ، فينزلها والوزير معه ، وكلما مر من القصر الى دار الملك بمسجد أعطى قَيِّمَهُ دينارا ، ماعدا شيخ جامع عمرو ، فيعطيه ثلاثين دينارا له وللقامة والمؤذنين خاصة ، ثم تأتى المائدة من القصر وعليها كل ما لذ وطاب من الأطعمة الشهية ، فيحمل الخليفة الى الوزير منها جزءا وافرا ، ويعطى الأمراء ومن حضر ، ثم يوصل الى أهل مصر « الفسطاط » من ذلك كثيرا من الفضلات »

« ثم يصلى الخليفة العصر ، ويتحرك الى العـــود ، والناس فى الطريق جلوس لنظره ، وزيه فى هذه الأيام لبس البياض المذهبة والملونة ، وهى العمامة والمنديل مشدود ، وشدته مفردة عن شـــدات الرعية ، وذؤابته تقرب من الجانب الأيسر ، ويتقلد السيف العربى المجوهر ، بغير حنك ولا مظلة ولا يتيمة ، ولذلك أوقات مخصوصة ، فلا يمر بمسجد فى طريقه الا ويعطى قَيِّمَهُ دينارا كما جرى فى الرواح ، وينعطف من باب الخرق « المعروف اليوم بباب الخلق » فيدخل من باب زويلة ، ويشق القاهرة الى القصر (٢)

---

(١) كانت دار الملك من جملة مناظر الفاطميين ، واقعة على شاطىء النيل فى آخـر عمـارة مصر القديمة ، ويوجد فى مكانها اليوم ابنية منها بوليس مصر القديمة

(٢) النجوم الزاهرة حـ ٤ ص ٩١ – ٩٣

الباب الخامس

قاهرة صلاح الدين

— ١ —

أدرك الوهن دولة الفاطميين فى أواخر أيامها ، منذ عهد الشدة العظمى، فى عهد الخليفة المستنصر، أى منذسنة ٤٥٠ هـ (١٠٥٨ م) . ودب الضعف فى أوصالها ، فترنحت وهَوت سنة ٥٦٧ هـ (١١٧١ م) . وقامت على أنقاضها الدولة الأيوبية ، التى شيدها صلاح الدين يوسف بن أيوب

كان قدوم صلاح الدين الى مصر بصحبة عمه أسد الدين شيركوه ، سنة ٥٦٠ هـ (١١٦٤ م) . حضرا تلبية لاستغاثة الوزير شـــاور ، أحد وزراء العاضد ، آخر الخلفاء الفاطميين . وكان شاور فى نزاع مع ضرغام أبى الأشبال ، أحد أمراء البرقية ، الذى ظل يترقى حتى صار صاحب الباب . ولم يستطع أحدهما التغلب على عدوه الا بالاستعانة بقوة خارجية ، وفى هذا مايدلك على مبلغ انحطاط الوطنية والأخلاق عند وزراء ذلك العهد ، الذين بلغ عددهم أربعين وزيرا ، فى مدة تسع سنوات . فاستعان ضرغام بالصليبيين ، وهم جماعة من مسيحيى أوربا ، اســـتولوا على بيت المقدس سنة ٤٩٢ هـ (١٠٩٩ م) ، وأنشأوا لهم امارات على طول ساحل الشام ، وكانوا يتمنون لو استطال ملكهم فشمل مصر أيضا . لذلك رحبوا بدعوة ضرغام لهم ، لمناصرته على شاور، وسارعوا الى الزحف على مصر، ليحققوا الأمل الذى داعب خيالهم . أما شاور ، فقد استعان بنور الدين محمود بن زنكى صاحب حلب ، وقد أدرك هذا مبلغ ما يصيبه الصليبيون من قوة ، ان هم استولوا على مصر . لذلك سارع هو الآخر الى تلبية نداء شاور ،

عندما استغاث به ضد ضرغام ، الذى كان قد هزم شاور ، فهرب الأخير الى الشام يطلب العون من نور الدين

وقد استمرت مصر ، ردحا من الزمان ، ميدانا للتنافس بين نور الدين والصليبيين ، يرسل كل منهما جيشه اليها ، فيتحاربون ، ثم يغادرون البلاد بشروط يشترطها كل فريق مع حليفه من الوزيرين ، ثم يعودون اليها ، وهكذا

وانتهى الأمر بقتل كلٍ من ضرغام وشاور ، وخلصت مصر لأسد الدين شيركوه ، وحل فى الوزارة محل شاور . ولكن لم يلبث أن عاجله الموت ، بعد شهرين من توليه أمرها ، فخلفه صلاح الدين ، وحل محله فى الوزارة فى جمادى الآخرة سنة ٥٦٤ هـ (مارس سنة ١١٦٩ م) . ولم يكن صلاح الدين ليغبط على مركزه ، اذ كان فى الواقع مركزا شاذا ، تحفه كثير من الصعاب : فبينما كان وزيرا للعاضد الشيعى ، كان فى نفس الوقت نائبا عن نور الدين محمود السنى . هذا بالاضافة الى قيام الفتن والثورات ، التى كان يشعل نارها الحاقدون عليه ، من شيعة ومغاربة وسودانيين. ولكن صلاح الدين ، وقد حالفه الحظ ، ولازمه التوفيق ، وبما وهبه الله من سعة الحيلة ، وبعد النظر ، ذلل جميع ما اعترضه من عقبات ، فتوفى العاضد سنة ٥٦٧ هـ (١١٧١ — ١١٧٢ م) ، ثم أعقبه نور الدين محمود ، فتوفى سنة ٥٦٩ هـ (١١٧٣ — ١١٧٤ م) ، فخلا له الجو ، وخلص له ملك مصر ، وصار صاحب الحول والطول فيها بلا منازع ، وقضى على الشيعة ، وشتت شملهم ، وأخذ فى احلال المذهب السنى محل المذهب الشيعى ، مستعينا فى ذلك بأهله وأقاربه ورجال دولته

وبعد أن استتب له الأمر فى مصر ، وثبتت أقدامه ، أخذ يعد العدة للقضاء على الصليبيين ، وتوجيه ضربة قاصمة لهم ، تزلزل أقدامهم ، وتهد كيانهم . وقد أتيح له ذلك فى موقعة حطين الحاسمة (٢٥ ربيع الثانى سنة

٥٨٣/٥ يوليو سنة ١١٨٧) حيث أنزل بالصليبيين هزيمة ساحقة ، وانتزع منهم بعد ذلك بيت المقدس ، ثم أجلاهم عن بقية مدن الشام وفلسطين، ولم يبق فى أيديهم سوى بعض المدن الساحلية الصغيرة وأهمها صور، وبذلك صار جلاؤهم عن بلاد الشرق ، جلاء نهائيا ، أمرا محتوما

والواقع أنه لم يتفق لملك من ملوك الشرق ، أو زعيم من زعمائه ، ما اتفق لصلاح الدين من بطولة وشجاعة ، وشدة بأس ، وعلو همة ، وبعد نظر ، وثاقب رأى ، وصفاء نفس، واستمساك بالعدل والانصاف والرحمة بالناس ، غير مفرق بين عدو وصديق أو بين مسلم ومسيحى ، مما شهد به الأعداء قبل الأصدقاء ، وأجمع عليه المؤرخون بالرغم من تباين أجناسهم ، واختلاف نحلهم ونزعاتهم . هذا الى تفقه فى الدين ، ورسوخ كعب فى الأدب ، ومصاحبة للعلماء والأدباء

وبعد حياة حافلة بجلائل الأعمال ، توفى صلاح الدين الى رحمة الله ورضوانه فى ٢٧ من صفر سنة ٥٨٩ (٤ مارس سنة ١١٩٣) بعد أن أصيب بالحمى الصفراء ، التى لم ينقذه منها علاج ، ودفن فى دمشق . ومع انه كان صاحب الكلمة النافذة فى ادارة شئون البلاد ، وليس من ينازعه فى أى أمر من أمورها ، أو يراجعه فى أى شأن من شئونها ، فقد مات ولم يخلّف فى خزائنه من الذهب والفضة الا سبعة وأربعين درهما ناصرية ، ودينارا واحدا ذهبا صوريا ، كما ذكر ابن شداد . ولم يخلّف ملكا ولا دارا ولا عقارا ولا بستانا ولا مزرعة (١)

وقال ابن شداد أيضا يصف وقع موت صلاح الدين فى نفوس الناس : « وكان يوم موته يوما لم يصب الاسلام والمسلمون بمثله ، بعد فقد الخلفاء الراشدين — رضى الله عنهم — وغشى القلعة والملك والدنيا وحشة لا يعلمها الا الله تعالى ، وقد علمت من نفسى، ومن غيرى، انه لو قبل الفداء لفدى بالأنفس »

---

(١) النجوم الزاهرة حـ ٦ ص ٥٢

ألا رحم الله صلاح الدين رحمة واسعة ، وأنزله منازل المجاهدين المكافحين ، والأبرار الصديقين ، الذين رفعوا لواء الاسلام عاليا ، وذادوا عن حياضه ، واستماتوا فى الدفاع عنه حتى النفس الأخير

– ٢ –

القاهرة فى عهد صلاح الدين :

رأينا أن فى مقدمة ما كانت تعنى به أية دولة عند بدء قيامها ، انشاء عاصمة جديدة لها ، تتفق ومكانتها ، وتجتمع فيها مقومات عظمتها ، وتفتتح بها صفحة جديدة فى تاريخها . ولما كان صلاح الدين يدين بالمذهب السنى ، وينقم على المذهب الشيعى ، فقد آل على نفسه أن يطمس آثار الفاطميين ، وألا يترك سبيلا لاحياء ذكراهم ، واستعادة سلطانهم . لذلك فانه لم يبق على قصورهم وما احتوت عليه من تحف وطرائف ، فأسكنها أتباعه وحاشيته وضباط جيشه وأقاربه . وأهمل مدينتهم التى التصقت بها ذكراهم ، وارتبطت بنشأتها شهرتهم وعول منذ اللحظة الأولى على أن يندمج القاهرة والعواصم التى سبقتها ، بعضها فى بعض ، ويوحّد بينها ، فيحيطها جميعا بسور عظيم ، لتصبح حاضرة دولته ، وعاصمة امبراطوريته ، على أن يشيد له فوق رابية المقطم قلعة حصينة لاقامته ، ولتشرف على تلك العاصمة الموحدة ، تحمى ذمارها ، وتدفع عنها غارة العدو المهاجم . وأى عدو لمصر فى ذلك الحين غير الصليبيين ، الذين أجلاهم عن أرضها ، بعد أن كادت تقع لقمة سائغة فى حلوقهم

والواقع أن صلاح الدين هو الذى وضع أساس القاهرة الحالية ، بعد أن وحّد بين العواصم الأربع القديمة ، وهو الذى مهّد لها كى تصبح أكبر مدينة فى الشرق ، جديرة بما لمصر من مركز الصدارة بين دول العالم الاسلامى ، ودول الشرق الأوسط ، ورسم طريق تقدمها فى مستقبلها

العظيم ، الذى كان ينتظرها فى العهود التالية ، وفى العصر الحديث . وبعد ان كانت قاهرة الفاطميين مقصورة على سكنى الخلفاء وحاشيتهم ، فقد شجع صلاح الدين أفراد الشعب على سكنى القاهرة ، واقامة المنازل فيها ، فنقلوا الأنقاض من مدينة مصر « الفسطاط » التى تخلفت عن حريق شاور فى ٣٠ ربيع الأول سنة ٥٦٤ هـ (أول يناير سنة ١١٦٩ م) ، ذلك الحريق الذى استمر ٥٤ يوما ، واستعملوا الأنقاض فى تشييد مبانيهم . .

ولما كان صلاح الدين دائم التنقل بين القاهرة والشام ، للاشراف على أعماله الحربية ضد الصليبيين ، فقد وكل الى وزيره « أبو سعيد قراقوش ابن عبد الله الأسدى الملقب ببهاء الدين » انفاذ خططه ، والاشراف على أعمال البناء . فأنفذ تلك الخطط بكل نشاط واحكام . ومن هنا جاءت شهرته بالصرامة، وعلق باسمه الاستبداد ، فلقبه الناس بقراقوش ، ومعناها الطائر الأسود «العقاب» عنوانا على الصرامة والاستبداد، وشبهوا عهود الظلم بعصر قراقوش . ومن الطريف أن الأسعد بن مماتى ، كتب كتابا عن بهاء الدين عنوانه : « الفاشوش فى أحكام قراقوش » ضمنه كثيرا من الأمور التى يبعد وقوعها منه (١)

ولم يمتد أجل صلاح الدين ليتمم جميع أعماله الانشائية ، فأتمها خلفاؤه من بعده . وعلى الرغم من أنه لم يقم طويلا فى القاهرة ، الا أن أحدا ممن سبقوه من الحكام لم يترك فيها مثلما ترك من آثار

— ٣ —

منشآت صلاح الدين :

السور : كانت نفقات حروب صلاح الدين تستنفذ جانبا كبيرا من ميزانية الدولة ، لذلك رأى توفيرا للنفقات الكثيرة ، التى يستلزمها بناء

(١) ابن خلكان جـ ١ ص ٤٣٠

سور جديد ، أن يمد سور بدر الجمالى من شماليه ، ويتجه به غربا حتى شاطىء النيل الشرقى ، حيث أقيم حصن المقس المنيع . كذلك رأى أن يمده جنوبا حتى باب الوزير ، بالقرب من سور القلعة الجديد. ثم هو يتمم هذا السور ، بمده جنوبا ، ليحيط بمدينة مصر « الفسطاط » ، حتى يلتقى بالنيل ثانية ، جنوبى الفسطاط

ولم يكمل بناء السور فى أثناء حياة صلاح الدين ، وانما أتمه خلفاؤه من بعده . وكل ما تم منه فى عهده ما يأتى :

١ ـ السور الشمالى : ويبتدىء من غرب باب الفتوح ويسير غربا ثم الى الجنوب الغربى ، ثم يتجه الى الغرب ثانية . ويسير باطراد ماعدا قطع واحد بالقرب من شارع الخليج المصرى « شارع بورسعيد حاليا » . وبعد ذلك يمكن للانسان أن يتتبعه وهو يسير خلف سكة الفجالة ، وشارع الطبلة حتى ميدان محطة مصر « ميدان رمسيس الآن » ، حيث تجد بقايا منه ، على طول هذا الاتجاه الذى ينتهى بقلعة المقس . وقد زالت ولم يبق لها أثر اليوم ، وكان قد شيد بجوارها جامع المقس الذى يعرف اليوم بجامع أولاد عنان

٢ ـ الجزء من السور الشرقى : ويمتد من باب النصر فدرب المحروق حتى باب الوزير ، بالقرب من سور القلعة الجديد . ويوجد فى هذا الجزء برج الظفر

وعند وفاة صلاح الدين لم يكن قد بدىء فى بناء السورين الجنوبى والغربى ، كما لم يكن السور الشرقى قد اتصل بعد بباب الوزير . ومما تجدر الاشارة اليه أن هذا السور بنى من الأحجار ، بخلاف سور جوهر الذى بنى من اللبن . كذلك يمتاز سور صلاح الدين بوجود الأبراج الدائرية الخالية من الحجرات الداخلية والمنافذ والفتحات . ولا يزال ممكنا تتبع أجزاء من هذا السور بين المنازل القديمة أو خلال تلال المقطم

القلعة :

وقد شرع صلاح الدين ، فى نفس الوقت الذى كان يبنى فيه السور . فى تشييد القلعة ، فوق جبل المقطم ، فى موضع كان يعرف بقبة الهواء ، قيل ان حاتم بن هرثمة هو أول من بناها (١) ، ثم صار موضعها مقبرة ، فيها عدة مساجد . ولم يعرف أن صلاح الدين سكنها ، لأنه توفى قبل اتمام مبانيها . وانما تمت فى عهد الملك الكامل محمد بن العادل أبى بكر بن أيوب ، فكان أول من سكنها واتخذها دار الملك فى الديار المصرية ، واستمرت كذلك فى جميع العهود التالية ، حتى عهد محمد على ، وبعض خلفائه من بعده . وقد هدم صلاح الدين بعض الأهرام الصغيرة فى الجيزة ، واستعمل أحجارها فى بناء القلعة والسور ، واستخدم كثيرا من أسرى الفرنجة فى أعمال النحت والبناء

وقد قيل فى سبب بناء القلعة أن صلاح الدين أراد أن يحتمى بها من الفاطميين وأشياعهم ، ولكن المعقول أن يكون قد قصد من بنائها تحصين البلاد ضد عدو أشد خطرا ، ألا وهو الصليبيون . وقد شاهد فى أثناء تجواله فى سوريا أن لكثير من البلاد فيها قلاعا حصينة تحميها ، فلم ير بدا ، وهو بصدد تحصين القاهرة بسور عظيم ، أن يزيد فى مناعتها ، ويضاعف من قوتها باقامة قلعة حصينة ، فوق جبل المقطم ، أسوة بمدن سوريا ، التى شاهدها من قبل ، وأعجب بقلاعها وحصونها. وقد بلغ طول هذا السور حسب تقدير المقريزى ٢٩٣٠٢ ذراعا هاشميا .

وقد بدىء فى بناء القلعة سنة ٥٧٢ هـ (١١٧٦م) ، وتمت فى عهد الملك الكامل سنة ٦١٤ هـ (١٢٠٧ ــ ١٢٠٨م) . وفى الضلع الغربى للقلعة ، يوجد الباب المدرج ، وفوقه كتابة تاريخية ، كتبت بعد البدء فى انشاء القلعة بست سنوات ، ولا تزال موجودة حتى اليوم ، وهذا نصها : « بسم الله الرحمن الرحيم ، أمر بانشاء هذه القلعة الباهرة ، المجاورة لمحروسة القاهرة

(١) الخطط للمقريزى حـ ٣ ص ٣٢٩

التي جمعت نفعا وتحسينا وسعة على من التجأ الى ظل ملكه وتحصينا ، مولانا الملك الناصر صلاح الدنيا والدين ، أبو المظفر يوسف بن أيوب محيي دولة أمير المؤمنين فى نظر أخيه وولي عهده ، الملك العادل سيف الدين أبي بكر محمد خليل أمير المؤمنين ، على يد أمير مملكته ، ومعين دولته ، قراقوش ابن عبد الله الملكى الناصرى فى سنة تسع وسبعين وخمسمائة » ويقابل هذه السنة سنة ١١٨٣ — ١١٨٤ م

القلعة بعد صلاح الدين :

ولم يبق من منشآت صلاح الدين بالقلعة سوى بعض أجزاء السور والأبواب ، ذلك لأنه أدخلت عليهـا كثير من التغييرات والاضـافات فى العصور التالية : فقد أنشأ الكامل قصورا ، وزاد فى مساحتها ، وأحاط الزيادة بسور أقل حجما من سورها الأول . كما أنشأ الظاهر بيبرس برجا كبيرا وطباقا للمماليك، وقصرا فخما لوالده الملك السعيد. وأنشأ الأشرف خليل بن قلاوون مقعدا فخما شاهقا يطل على الجيزة والنيل . وأنشأ الناصر محمد بن قلاوون برجا مربعا كبيرا لايزال باقيا الى الآن بالقرب من الناحية البحرية الشرقية أسفل جامع محمد على ، كما بنى قصره المعروف بالقصر الأبلق، الذى لاتزال توجد بقية منه . وأنشأ أيضا مسجدا . وأنشأ الناصر حسن بن محمد قصره المسمى بالبيسرية سنة ٧٦١ هـ (١٣٥٩ — ١٣٦٠م) ، وقيل انه جعل به شبابيك من الذهب. وفى سنة ٧٩١ هـ (١٣٨٨ — ١٣٨٩م) جدد السلطان الظاهر برقوق سور القلعة . وقد شـيد السلطان الغورى ايوانا كبيرا جمع كثيرا من بدائع الفن . وحوالى سنة ١١٦٠ هـ (١٧٤٧ م) أنشأ الأمير رضوان كتخدا الجلفى باب العزب ، المشرف على ميدان صلاح الدين . وقد أصلح محمد على جانبا كبيرا ، من سورها وأبراجها وأبوابها. وأنشأ الجـامع وسراى الجوهرة والعدل ودار الضرب ودار المحفوظات المقابلة للباب الجديد الذى أنشأه سنة ١٢٤١ هـ (١٨٢٥ م) (١)

(١) انظر الدليل الموجز لاشهر الآثار العربية بالقاهرة تاليف الاستاذ محمود أحمد ص ٧٩–٨٢

بئر يوسف الحلزونى :

وحفر صلاح الدين فى القلعة بئرا يستقى منها الجيش وسكان القلعة ، اذا ما منع الماء عنها عند حصارها . وهى من أعجب ما تم من الأعمال فى عهد صلاح الدين ، اذ أنها محفورة فى الصخر على عمق ٩٠ مترا تقريبا من مستوى أرض القلعة . ولا يخفى ما يتطلبه هذا العمل من جهد

وتتركب هذه البئر من طابقين ، لكل منهما ساقية ، ترفع المياه منها بواسطة الدواب ، التى خصص لها منحدر ، لتسهيل النزول والصعود . وقد فتحت بجانبه فتحات لايصال النور الىهذا الممر(١) . ولا تزال توجد السواقى بعداتها أسفل البئر حتى الآن

— ٤ —

القاهرة فى عهد خلفاء صلاح الدين

خلف صلاح الدين سبعة عشر ولدا ، وفتاة واحدة . وقد اقتسم أولاده واخوته مملكته العظيمة . فوقعت مصر من نصيب ابنه عماد الدين عثمان ، الذى لقب بالملك العزيز . ولكنه لم يعمر طويلا ، اذ توفى فى ٢١ محرم سنة ٥٩٥ هـ (٢٤ نوفمبر سنة ١١٩٨ م) أى بعد ست سنوات من ولايته ، فخلفه ابنه ناصر الدين محمد وعمّر ثمانى سنوات ، ولقّب بالملك المنصور . فأقام الملك العادل بن أيوب نفسه وصيا عليه . وما لبث أن خلعه فى شوال سنة ٥٩٦ هـ (١٥ يوليو سنة ١٢٠٠ م) وانفرد بحكم مصر ، بل انه سرعان ما مد نفوذه على بلاد الشام أيضا ، وسائر دولة صلاح الدين ، فعادت البلاد الى حظيرة سلطان واحد ، وتحت قبضة يد واحدة . ويظهر أن هذا الحل الموفق كانت تقتضيه أحوال ذلك العهد ، وما لابسه من ظروف خطيرة ، فالصليبيون لم يلبثوا بعد وفاة صلاح الدين أن أخذوا

(١) المصدر السابق ص ٨٥

يستعيدون نشاطهم ، ويمنون أنفسهم باستعادة ممتلكاتهم ، بعد أن أجلاهم عنها صلاح الدين . فاشتبك العادل معهم فى عدة حروب بالشام ، ولكنهم جولوا وجوههم شطر مصر ، واستولوا على دمياط فى ٤ ربيع الأول سنة ٦١٥ هـ (أول يونيو سنة ١٢١٨ م) ، وتوغلوا فى أرض الوجه البحرى ، وكان العادل قد توفى حينذاك ، فتصدى لهم الكامل بن العادل، وهزمهم بعد قتال عنيف هزيمة ساحقة فى ٧ رجب سنة ٦١٨ هـ (٦سبتمبر سنة ١٢٣١ م) فى الموضع الذى أطلق عليه فيما بعد « المنصورة » ، ثم أجلاهم عن أرض مصر

ولكنهم عادوا اليها فى عهد ابنه الملك الصالح نجم الدين أيوب ، وكان قد تولى الملك فى ٢٥ ذى القعدة سنة٦٣٦ هـ (أول يوليو سنة ١٢٣٩ م) ولكنه توفى قبل أن يتم له النصر عليهم ، فقام بهذه المهمة ابنه الملك المعظم غياث الدين توران شاه ، وهزمهم هزيمةساحقة عند المنصورة أيضا ، وأسر ملكهم لويس التاسع سنة ٦٤٨ هـ (١٢٥٠ م) . وفى نفس العام توفى توران شاه ، وبموته انقرضت دولة الأيوبيين ، وانتهى عهدهم

القلعة والاسوار :

ذكرنا أن الملك الكامل أكمل بناء القلعة سنة ٦١٤ هـ (١٢٠٧م) وأنشأ بها قصورا ، وزاد فى مساحتها ، وأحاط الزيادة بسور أقل ارتفاعا من سورها الأول ، ثم اتخذها مقرا لملكه

قبة الامام الشافعى :

ولقد أنشأ صلاح الدين فيما أنشأه من مدارس ، مما سيأتى ذكره قريبا ، المدرسة الصلاحية سنة ٥٧٢ هـ (١١٧٦ م) ، وأنشأ بجوارها ضريحا للامام الشافعى . وفى سنة ٥٧٤ هـ (١١٧٨ م) أنشأ التابوت الخشبى الذى يعلو تربة الشافعى ، وهومصنوع منخشب الساج الهندى، ومقسم الى حشوات هندسية ، منقوشة نقشا غاية فى الاتقان ، ومكتوب

عليه آيات قرآنية ، وترجمة حياة الشافعى ، واسم الصانع الذى صنعه ، وذلك بالخط الكوفى والنسخى

وبجوار قبر الشافعى دفنت الأميرة « شمس » زوج صلاح الدين ، والملك العزيز عثمان ابنه ، ووالدة الملك الكامل . لذا شيد ولدها الكامل فى جمادى الأولى سنة ٦٠٨ هـ (أكتوبر سنة ١٢١١ م) قبة ضمت قبر الشافعى وبعض أفراد الأسرة الأيوبية . وتمتاز هذه القبة بما فيها من نقوش وزخارف ، ويوجد فوقها من الخارج ، فى مكان الهلال ، مركب صغير من النحاس ، يقال انها تسع من الحب قدر نصف أردب لاطعام الطيور ويغلب على الظن أن تكون هذه المركب رمزا لعلم الشافعى الذى شبّه بالبحر الزاخر . ثم انه أنشأ تابوتا من الخشب فوق تربة والده ، لايقل دقة عن تابوت الشافعى . وركّب على باب القبة مصاريع خشبية ، تماثل صناعتها صناعة التابوت . ولا تزال هذه القبة الجميلة المرتفعة قائمة الى اليوم ، تعلو قبر الامام الشافعى ، المجاور لمسجده ، بشارع الامام الشافعى بالقرافة

ولما تسرب الوهن الى المدرسة الصلاحية ، وتعطلت اقامة الشعائر الدينية بها ، هدمها الأمير عبد الرحمن كتخدا ، وأنشأ مكانها مسجدا عظيما سنة ١١٧٦ هـ (١٧٦٢ — ١٧٦٣ م) وضم اليه ضريح الامام الشافعى . وقد أصاب هذا المسجد بعد ذلك تصدع وخلل ، فرممه على الصورة التى هو عليها الآن الخديو محمد توفيق سنة ١٣٠٩ هـ (١٨٩٠ — ١٨٩١ م)

تربة الصالح نجم الدين ايوب :

وتوجد بشارع ما بين القصرين ، فى الجهة البحرية الغربية للمدرسة الصالحية . وقد أنشأتها الملكة شجرة الدر ، ليدفن بها زوجها الصالح نجم الدين أيوب ، وبها تابوت خشبى بلغت صناعته الدقيقة درجة عظيمة من الاتقان . كذلك تعد شبابيكها النحاسية المفرغة ، ورخام المحراب من أقدم النماذج التى من نوعها

الحالة الاجتماعية فى عهد الأيوبيين

نعمت البلاد فى عصر صلاح الدين بأمن مستتب ، وهدوء شامل ، وعدل مقيم ، ورخاء عميم . ولا يظن ظان أن انشغال صلاح الدين .. حياته بالحرب والنضال قد صرفه عن تعهد البلاد بكل ما تحتاجه من اصلاح . والواقع انه حفر الترع ، وطهر القديم منها ، فأينع الزرع ، وكثر الرزق ، وعمّت الخيرات

القضاء على البدع :

ولم يأل جهدا فى القضاء على البدع التى شابت عقائد الناس فى عهد الفاطميين ، وأعاد الناس الى النهج القويم والطريق السليم ، ونفث فيهم من روحه قوة وشجاعة ، وتقى وعدلا ورحمة . فضربوا مثلا رائعا فى رباطة الجأش وقوة الايمان، والجد والعمل، الزارع فى حقله ، والصانع فى مصنعه، والجندى فى ميدانه

انتشار العدل :

وكان محبا للعدل ، يجلس فى كل يوم اثنين وخميس فى مجلس عام يحضره القضاة والفقهاء ، ويصل اليه الكبير والصغير ، والشيخ العجوز ، وما استغاث به أحد الا أجابه وكشف ظلامته (١)

الحمامات :

ولقد زار مصر فى عهد صلاح الدين ، وبعد وفاته عبد اللطيف البغدادى ، الرحالة المشهور ، فأعجب بكل ما شاهد فى القاهرة من غرائب الأبنية ، ووسائل الراحة . وأطنب فى وصف حماماتها فقال : « وأما حماماتهم فلم أشاهد فى البلاد أتقن منها وصفا ، ولا أتم حكمة ، ولا أحسن منظرا

(١) النجوم الزاهرة جـ ٦ ص

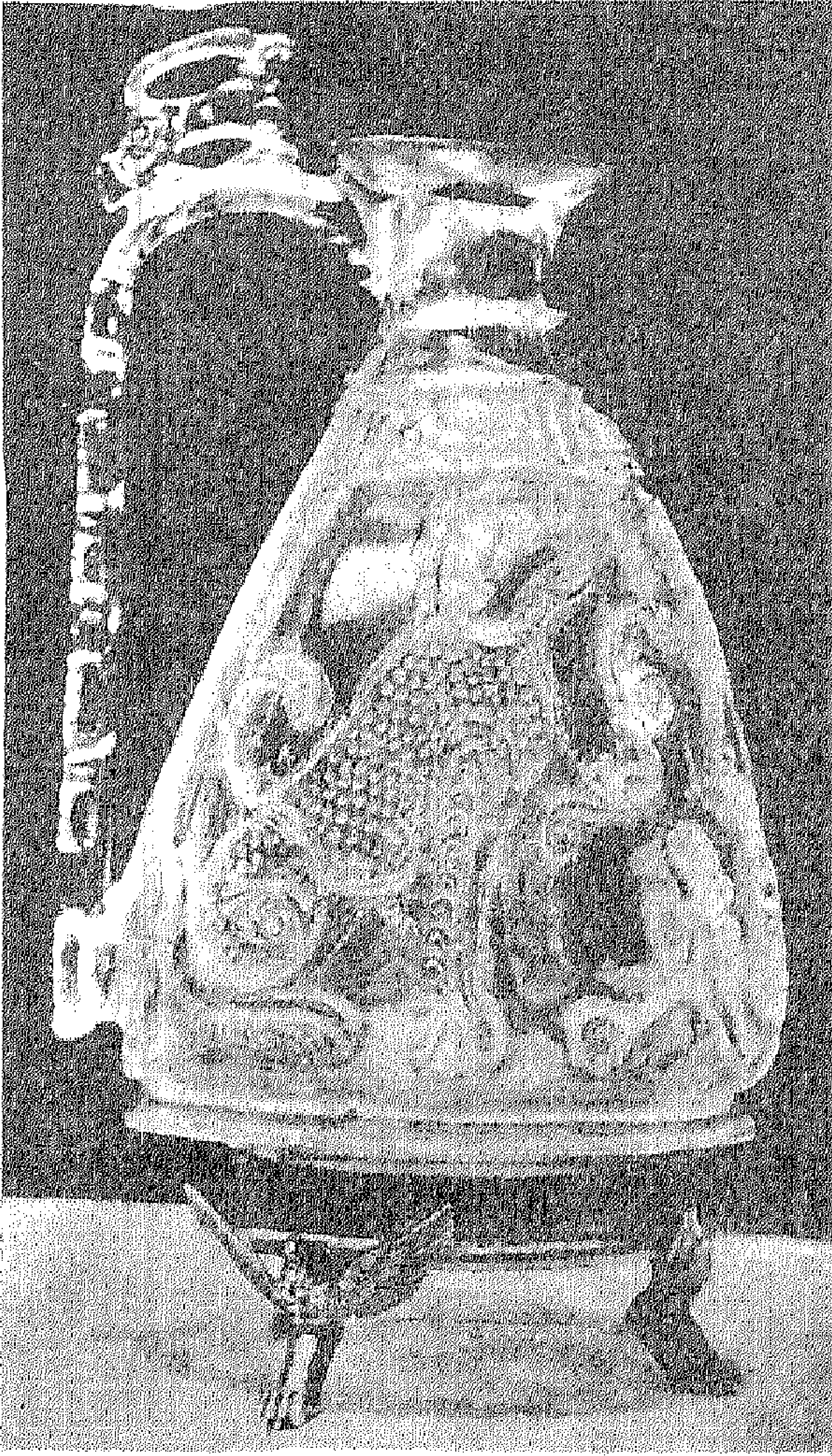
ومخبرا . أما أولا فان أحواضها يسع الواحد منها ما بين راويتين الى أربع روايا وأكثر من ذلك ، يصب فيها ميزابان ثجاجان ، حار وبارد . وقبل ذلك يصبان فى حوض صغير جدا مرتفع ، فاذا اختلطا فيه جرى منه الى الحوض الكبير، وهذا الحوض نحو ربعه فوق الأرض ، وسائره فى عمقها ، ينزل اليه المستحم ، فيستنقع فيه . وداخل الحمام مقاصير بأبواب . وفى المسلخ أيضا مقاصير لأرباب التخصص ، حتى لا يختلطوا بالعوام ، ولا يظهروا على عوراتهم . وهذا المسلخ بمقاصيره ، حسن القسمة ، مليح البنية . وفى وسطه بركة مرخمة ، وعليها أعمدة وقبة ، وجميع ذلك مزوق السقوف، مفوف الجدران ، مبيضها ، مرخم الأرض بأصناف الرخام ، مجزع باختلاف ألوانه ، وترخيم الداخل يكون أبدا أحسن من ترخيم الخارج ، وهو مع ذلك كثير الضياء ، مرتفع الآذاج ، جاماته مختلفة الألوان ، صافية الأصباغ ، بحيث اذا دخله الانسان لم يؤثر الخروج منه ، لأنه اذا بالغ بعض الرؤساء أن يتخذ دارا لجلوسه ، وتناهى فى ذلك ، لم تكن أحسن منه » (١)

واذا كثرت الحمامات فى بلد ، كان ذلك عنوانا على نظافة أبدان أهله، وصحة أجسامهم ، وسلامة عقولهم ، وبالتالى دليلا على رقيهم وتقدمهم. وقد كان هذا حال أهل القاهرة فى عهد صلاح الدين ، وفى عهد خلفائه من بعده

رعاية المرضى :

وقد شمل صلاح الدين المرضى ، وذوى العاهات برعايته وعنايته ، فأنشأ لهم دورا لعلاجهم، والعناية بهم، من ذلك: بيمارستان بالاسكندرية، وآخر بالقاهرة ، كان يطلق عليه البيمارستان العتيق ، الذى أنشأه سنة ٥٧٧ هـ (١١٨١ — ٨٢ م) محل قاعة بالقصر الكبير ، بناها العزيز بالله

(١) الافادة والاعتبار فى الامور المشاهدة والحوادث المعاينة ، بأرض مصر ، لعبد اللطيف البغدادى ، طبعة المجلة الجديدة بالقاهرة ص٥٣ ، ٥٤

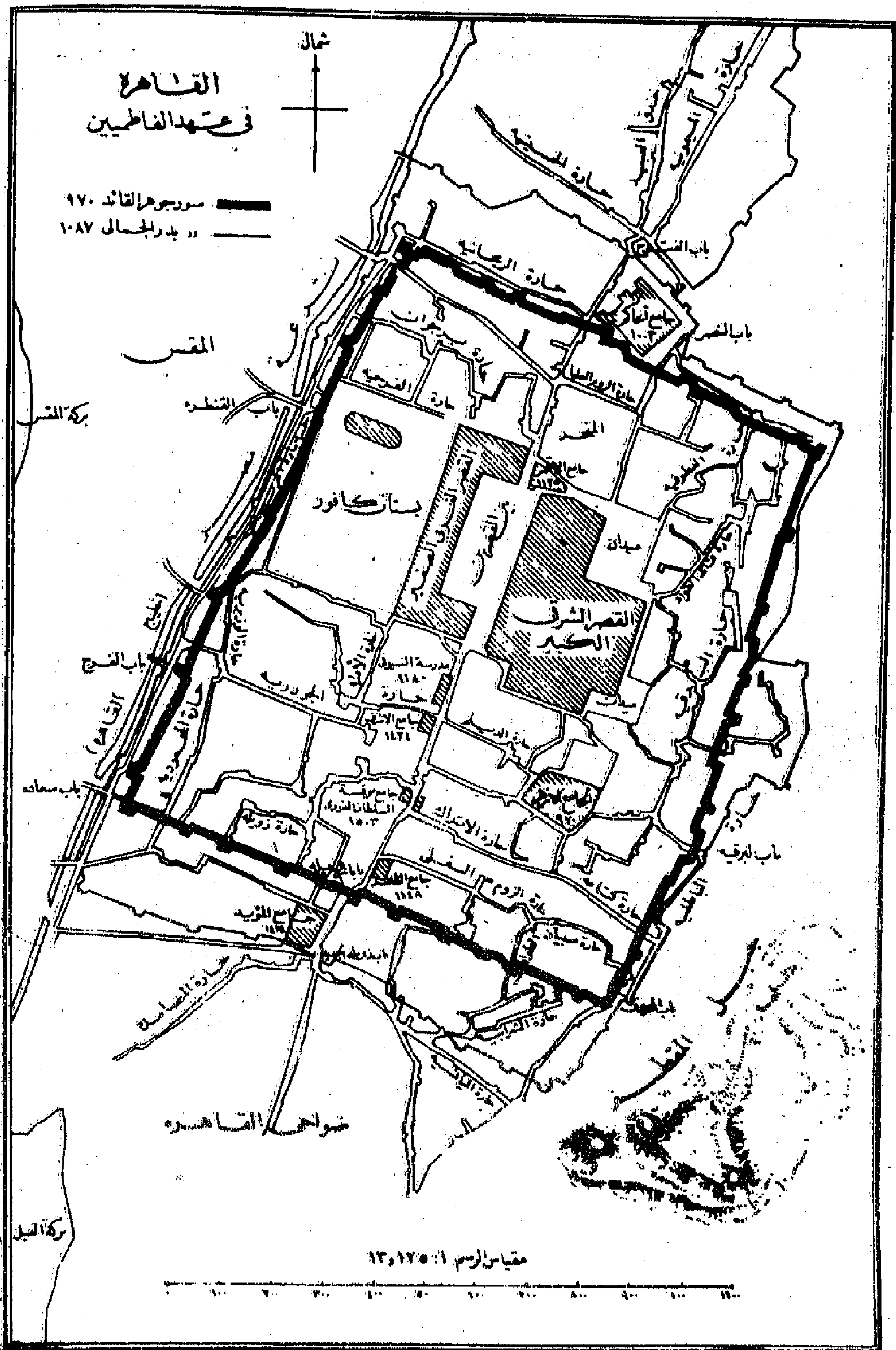


ابريق من البللور الصخرى ، من العصر الفاطمى (القرن العاشر الميلادى) محفوظ الآن بكتدرائية « سان مارك » بمدينة البندقية . وتمثل الزخارف المحفورة فيه اسدين بينهما شجرة الخلد ، وعلى المقبض خروف صغير . ونص الكتابة الموجودة فى أعلاه « بركة من الله للامام العزيز بالله »

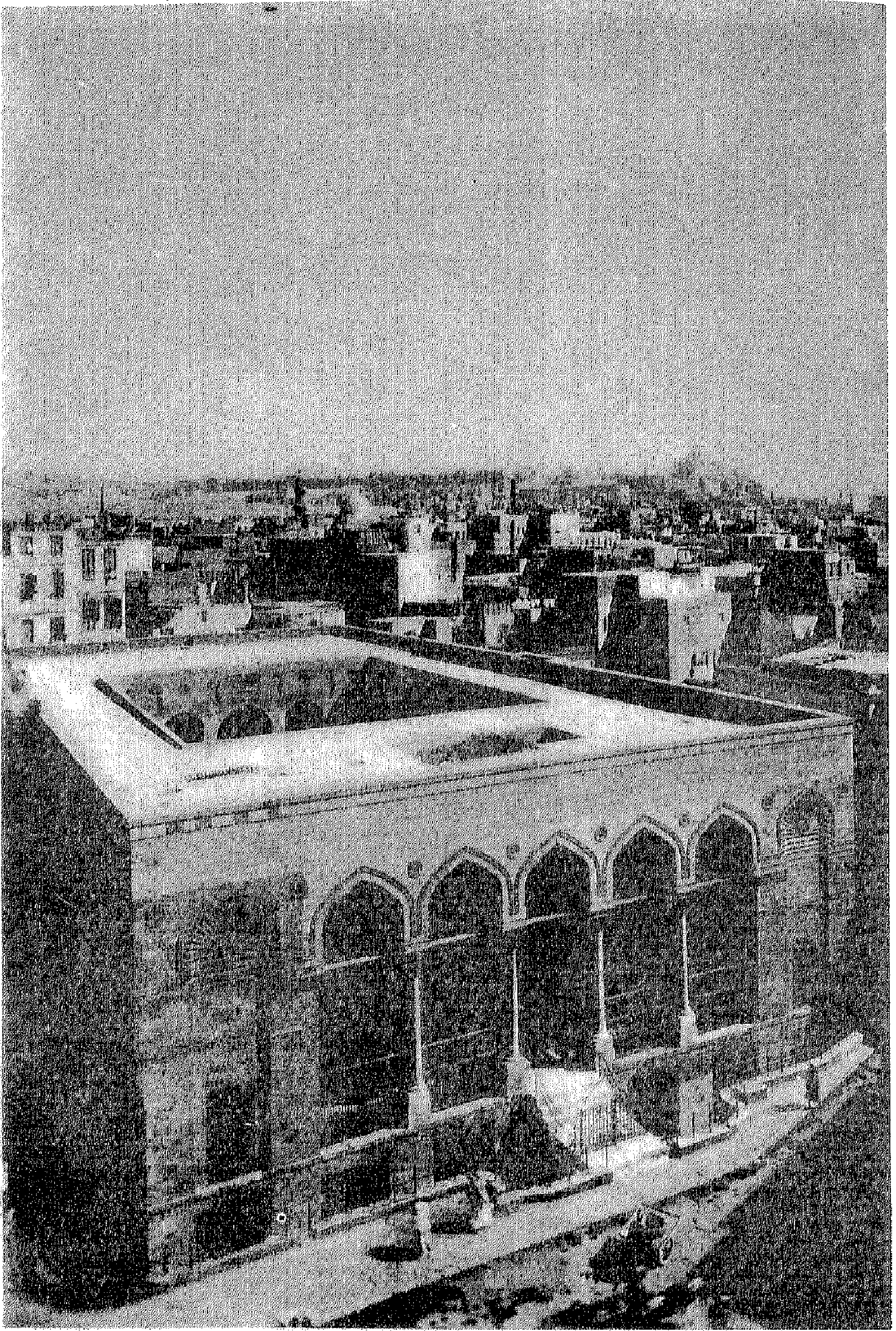




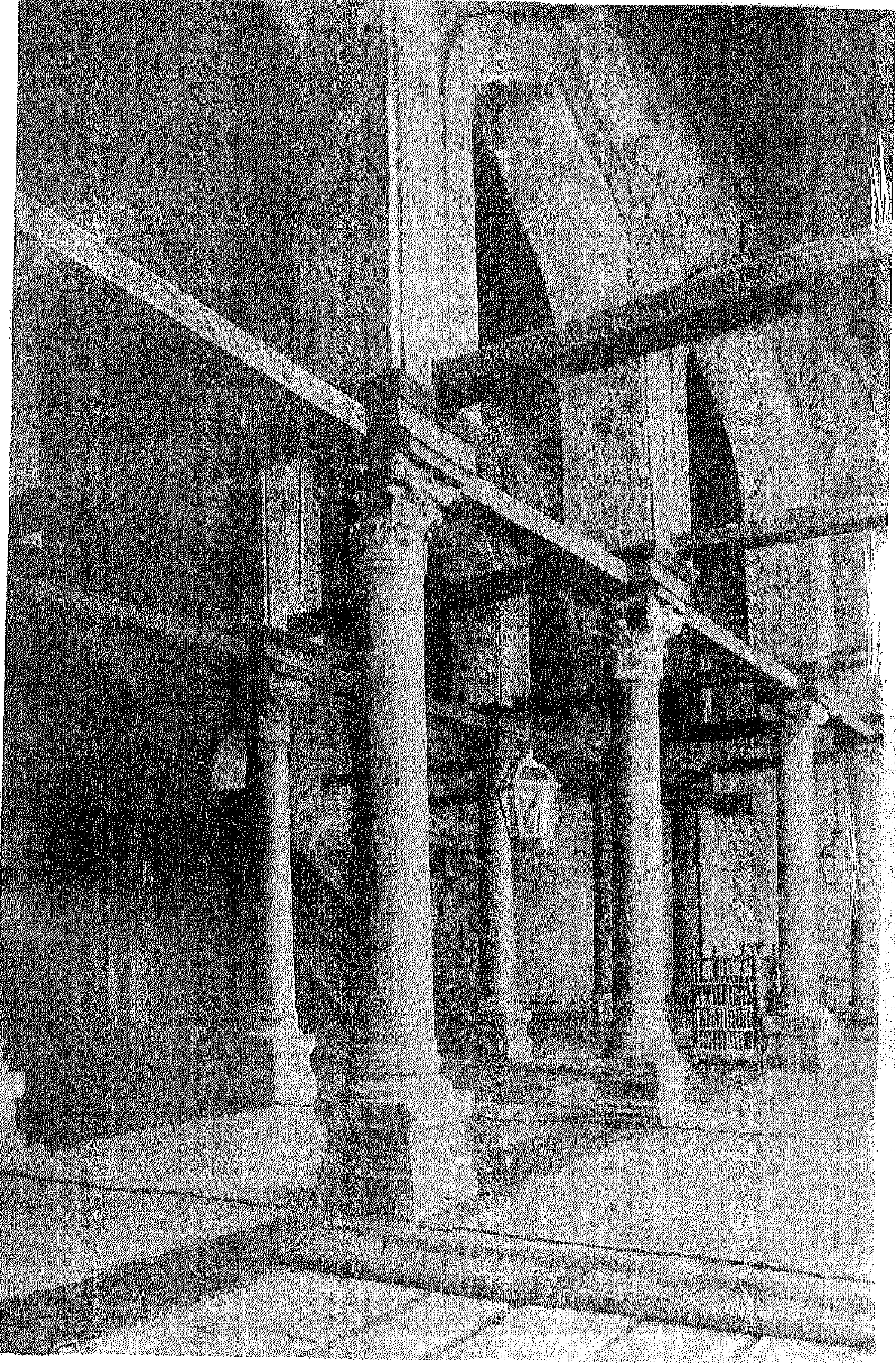
صورة على الجص ، وجدت على جدران حمام فاطمي بجهة أبى السعود ، محفوظة الآن بالمتحف الاسلامى بالقاهرة تمثل انسانا تحيط برأسه هالة — وهى ملونة بالاحمر والاسود — وعليه عمامة جميلة ، وفى يده اليمنى كأس ..



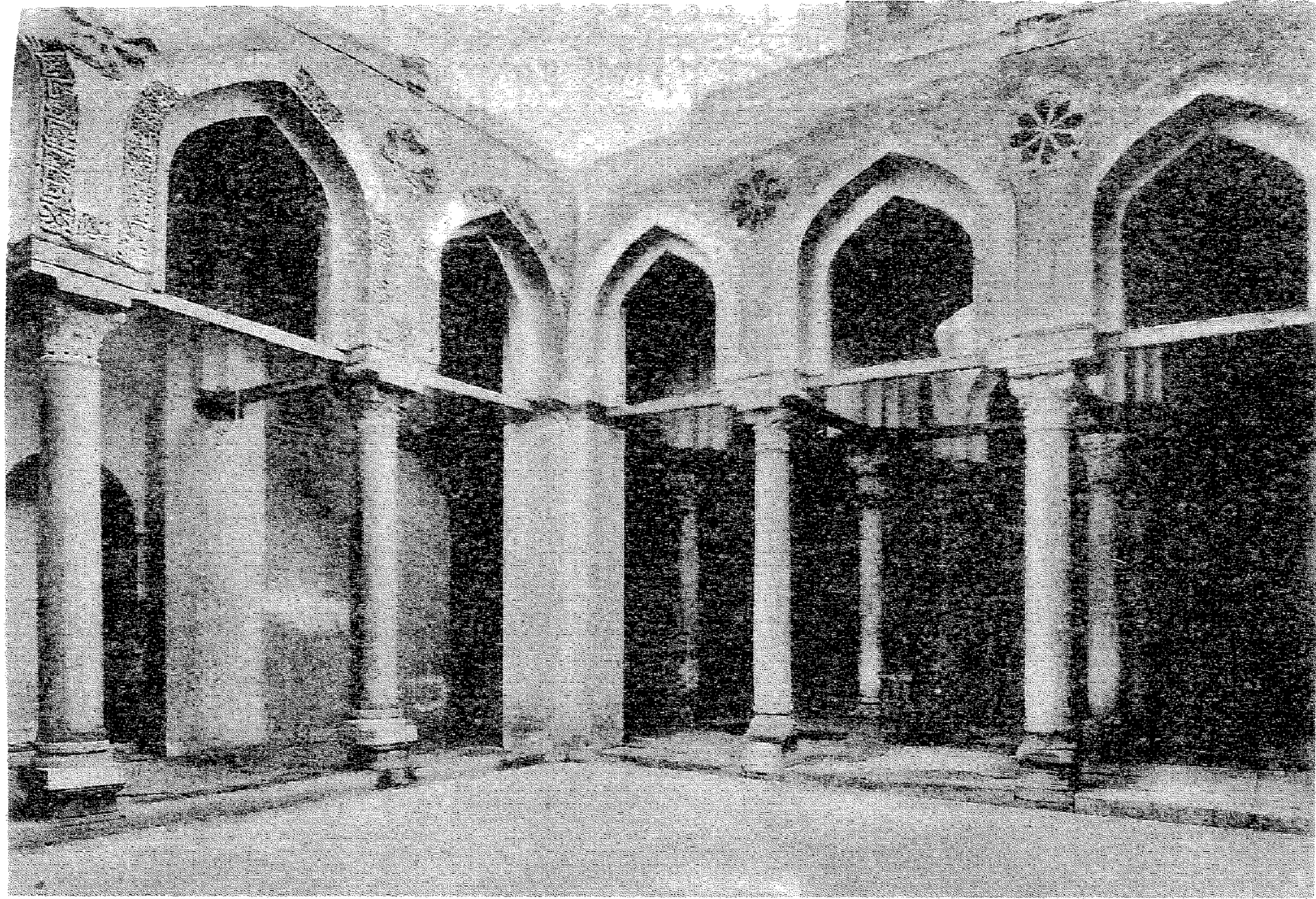
يوضح هذا الرسم مواقع ابواب القاهرة ، والجامع الازهر ، والقصرين الفاطميين ، وجامع الحاكم وقد أخرجه سور بدر الجمالي عن نطاق القاهرة الفاطمية . . . .



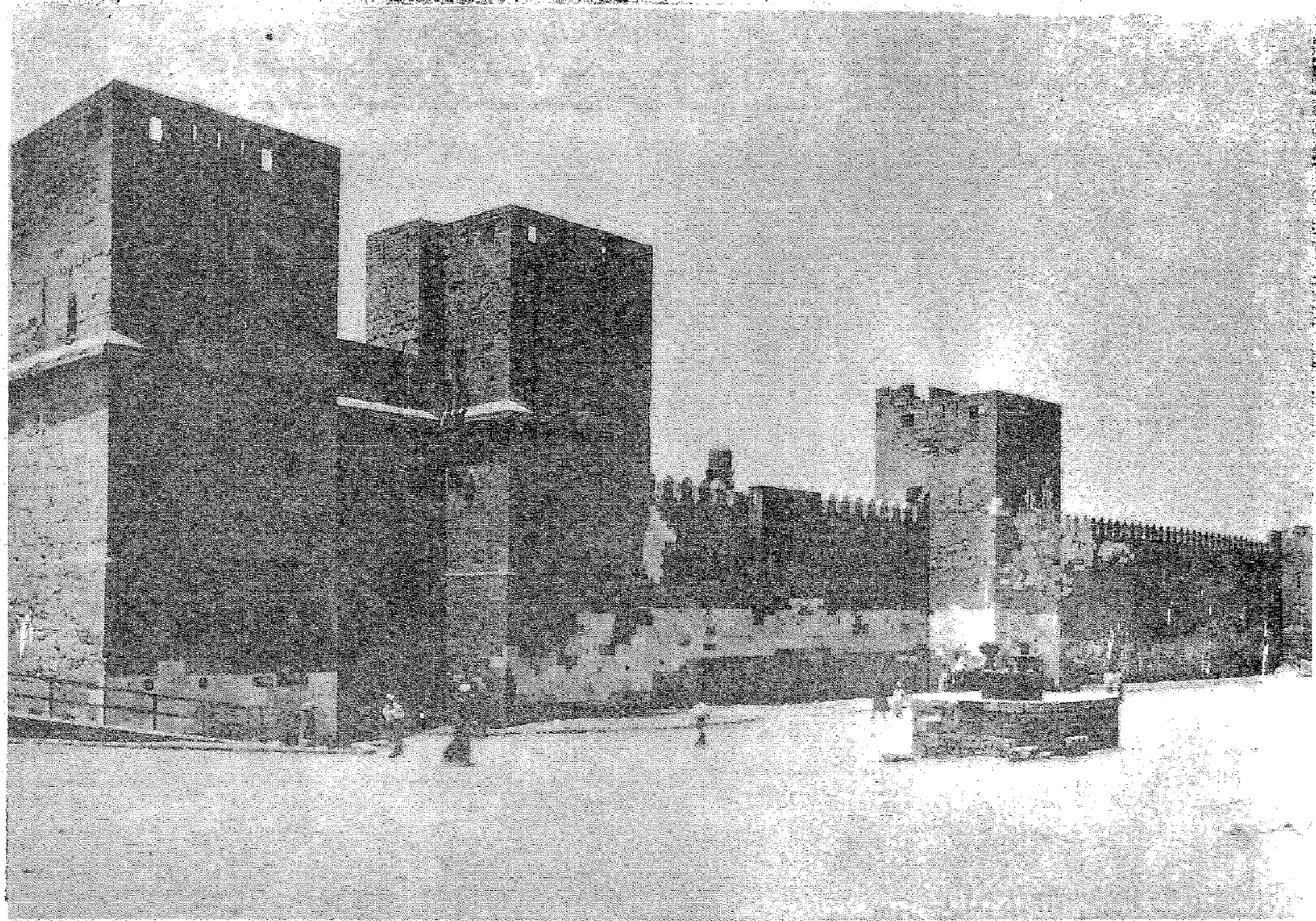
الواجهة الرئيسية لمسجد الصالح طلائع ، والرواق الخارجي ذو العقود الفارسية التي ترتكز على أعمدة قديمة . وتشاهد التجاويف والمحارات والمقرنصات الصغيرة ، والصنج المعشقة




العقود الفارسية والاعمدة القديمة والاوتار الخشبية وعليها زخارف نباتيـــة محفورة بمســـجد الصـــالح طلائع



العقود الفارسية بمسجد الأقمر التي تفصلها بعضها عن بعض زخارف
على هيئة صرر . وترى الأعمدة القديمة والدعائم المحيطة بالصحن

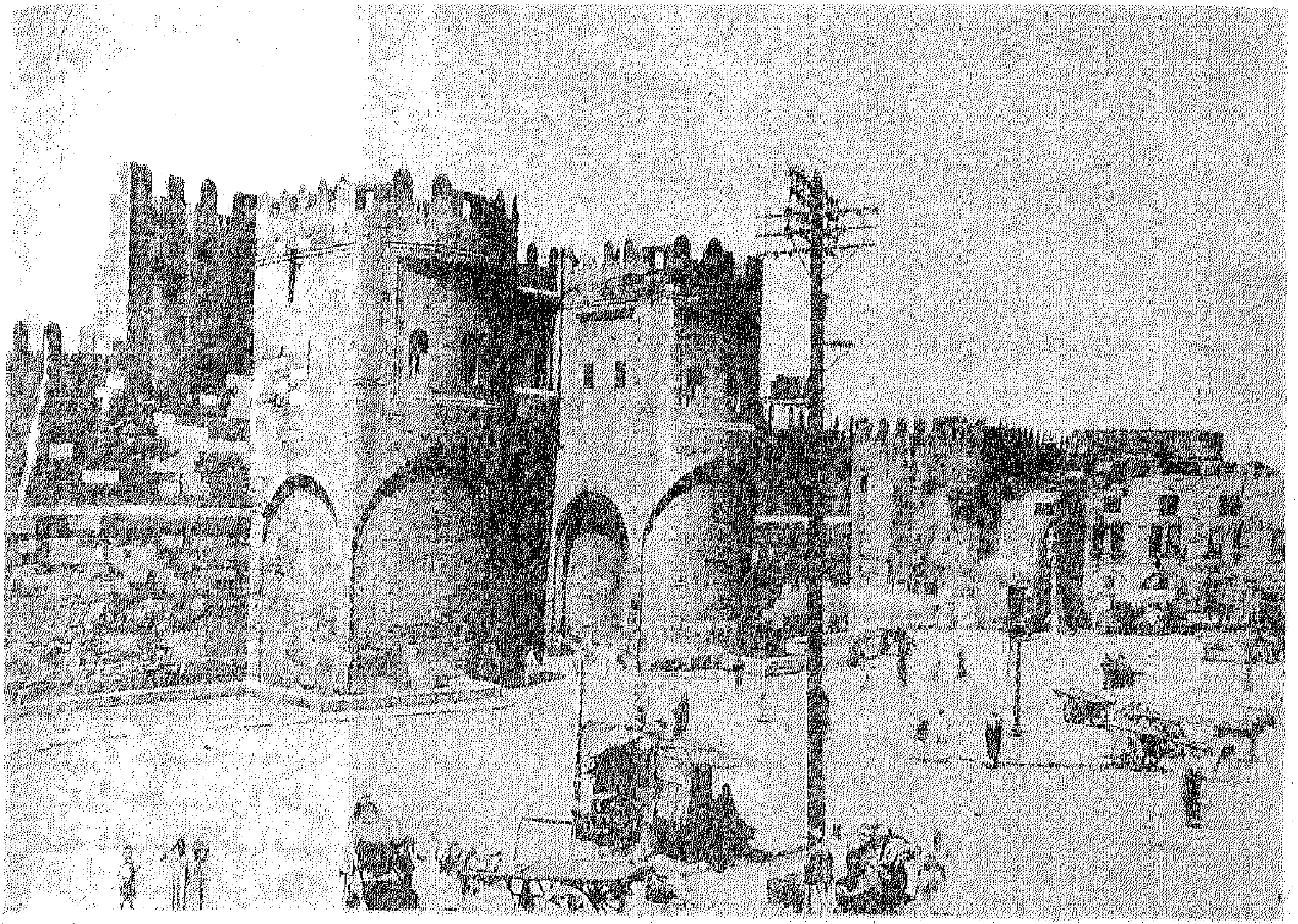


منظر جانبي عام لباب النصر مع جزء من سوربدر الجمالي . وتشاهد الابراج المربعة، والنقوش الحجرية ذات الطابع الحربي ، والغرف ذات الفتحات الراسية التي يصلها ممر

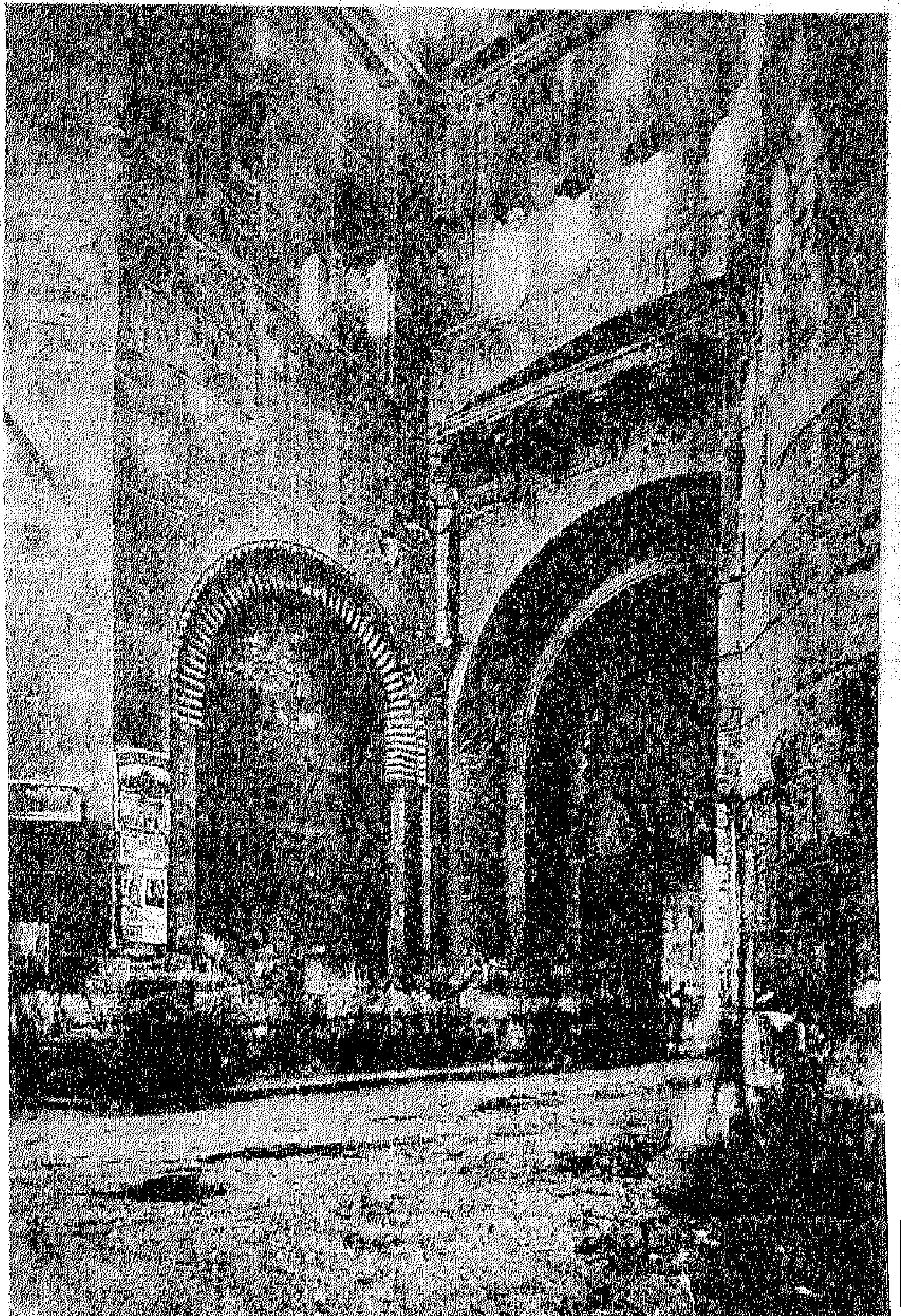


محراب السيدة رقية ، وهو احد محاريب ثلاثة متنقلة خشبية ، صنعت فى العصر الفاطمى ، ومحفوظة بالمتحف الاسلامى بالقاهرة . ويمتاز هـذا المحـراب بأنه مزين بالزخارف مـن الظهـر والجانبين . وحنيـة القبـلة مكونة من حشوات سداسية الشـكل ، مجمعة بحيث تحصر بينها حشـوة على شكل نجمة ذات ستة أطراف . وتزين كل حشوة من تلك الحشوات سـيقان نباتية دقيقة ، فيها وريقات ذات نصوص طويلة . وتحيـط بحنية القبلة كتـابة بالخط الكوفى المشجر تتضمن بعض الآيات القـرآنية . . .

اما واجهة المحراب فمن خشب قرو ، ومزخـرفة بحشوات من سـاج هندى وخشب زيتون على شـكل نجوم وأشـكال هندسية اخرى كثيرة الاضلاع ، وغنيـة بما فيها من سيقان ووريقات دقيقة . ويحيط بالزخارف اطار من كتابة كوفية مشجرة تتضمن اسم زوجة الخليفة الآمر وهى التى أمرت بصنعه

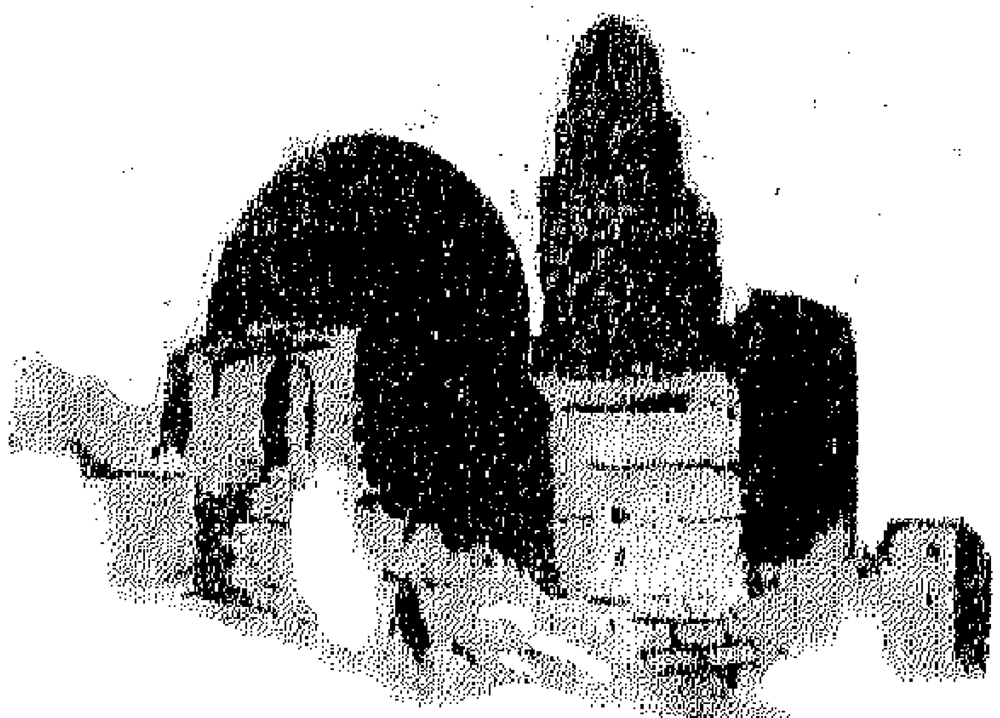


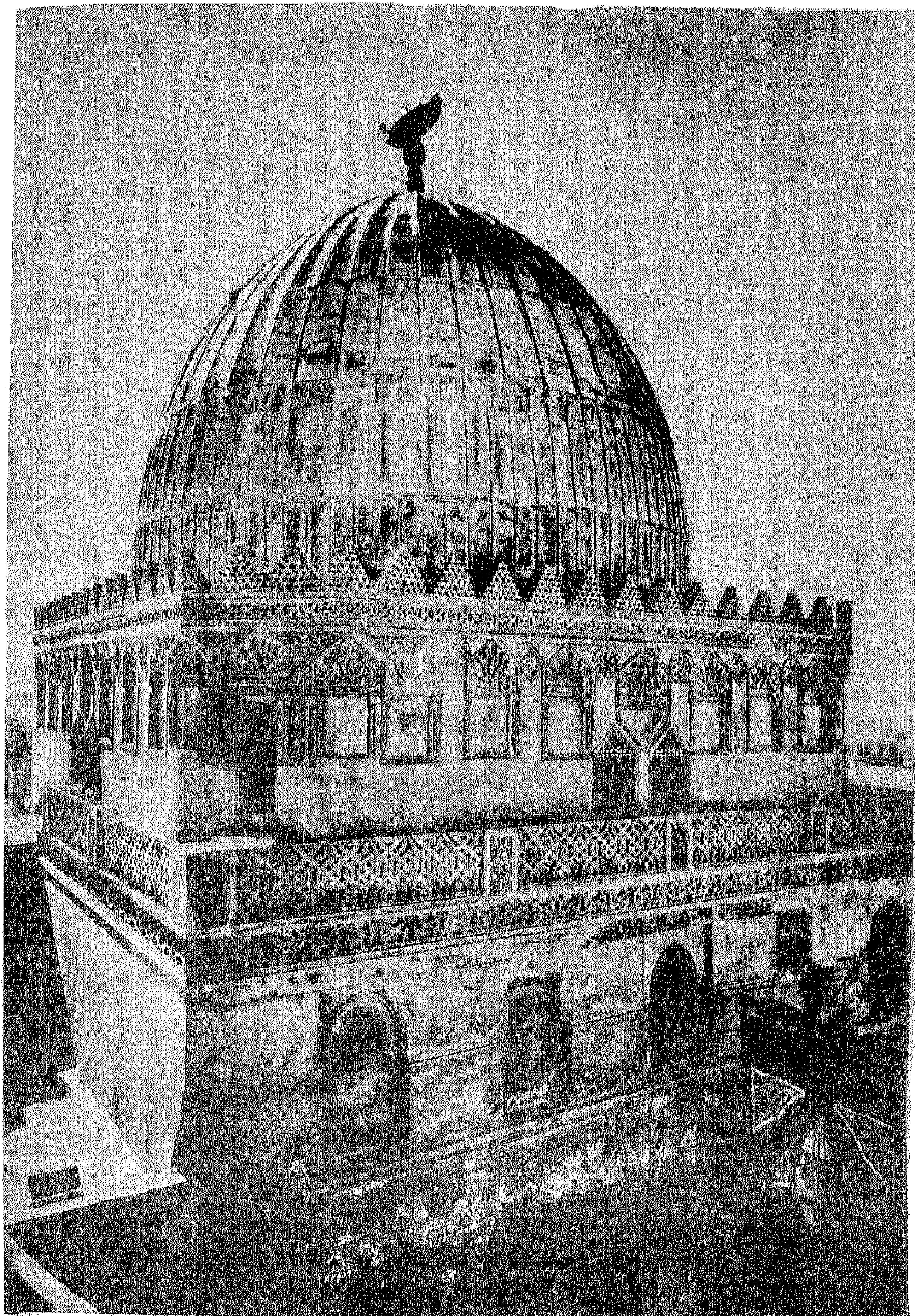
منظر عام لباب الفتوح ، وجزء من سور بدر الجمالى ، وبعض المنازل المجـــــاورة



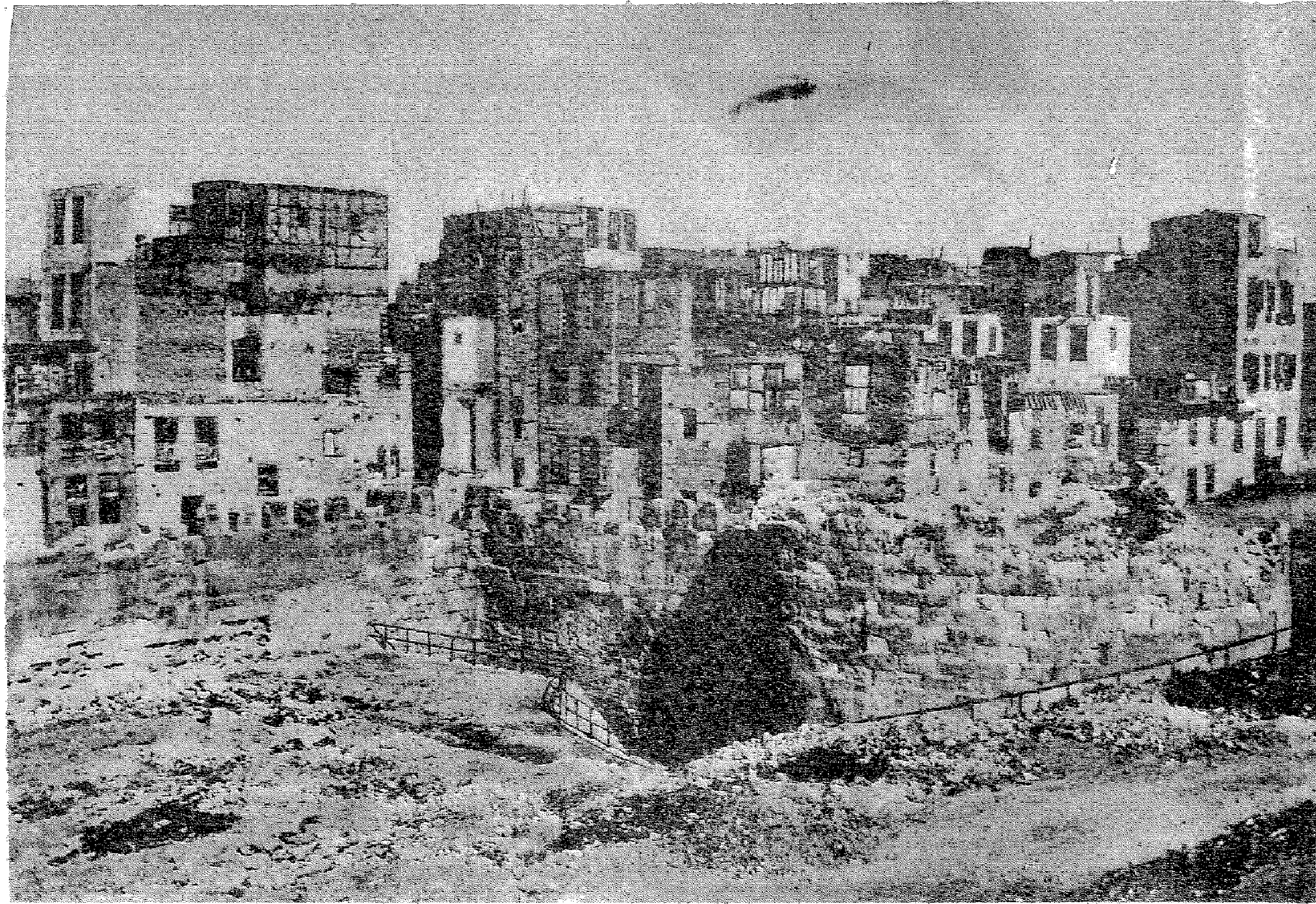
باب الفتوح من الداخل ، وترى الابراج المستديرة من الحجر المنحوت ، والعقود الدائرية المحلاة بواطنها بزخارف هندسية ، وعتب الباب المكون من صنج على هيئة السنارة

مسجد او زاوية الجيوشى ، فوق هضبة المقطم . وترى القبة الملساء فوق المحراب ، والمئذنة المنتهية فى اعلاها بقبة أيضا

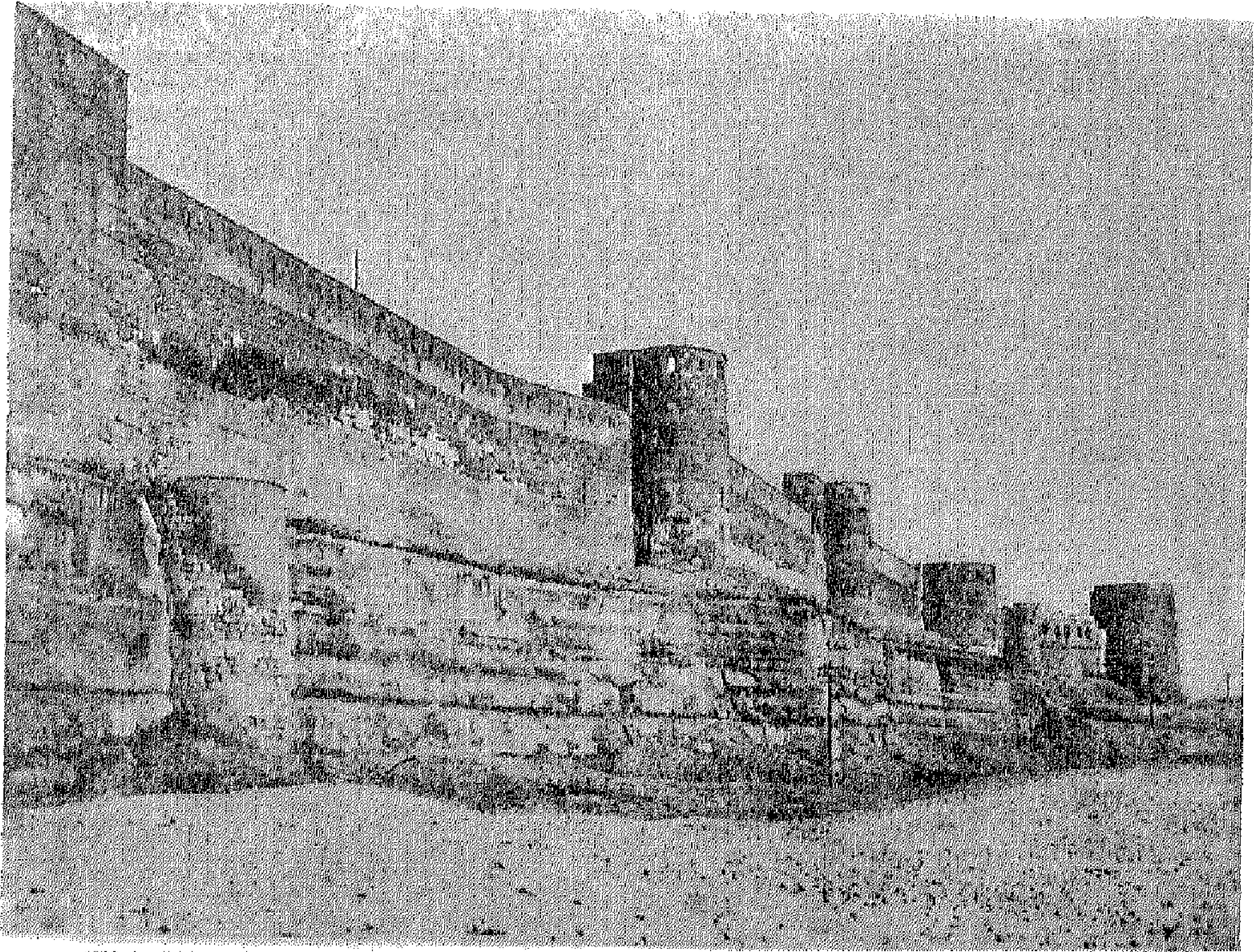




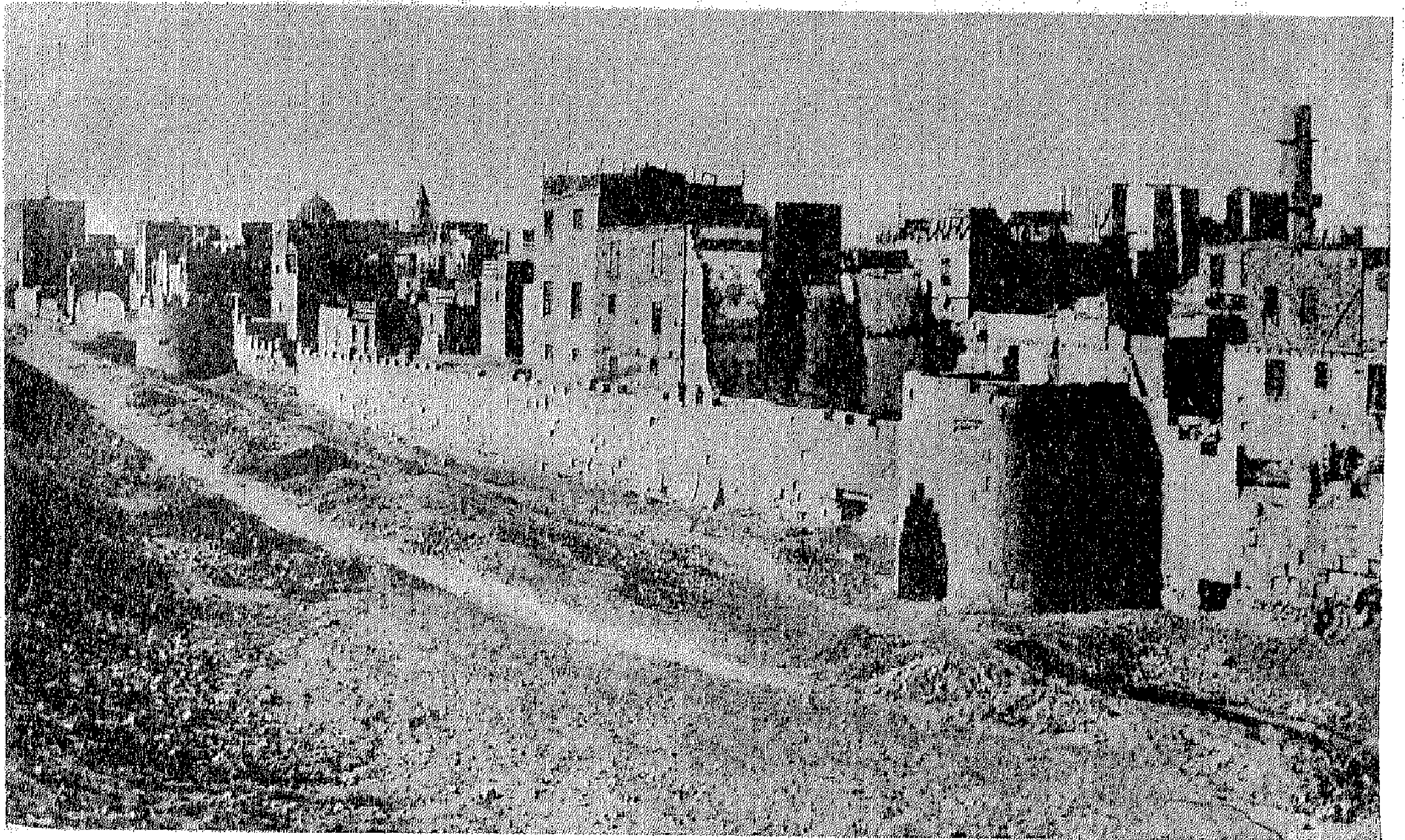
قبة الامام الشافعى وهى من العصر الايوبى . ومصنوعة من الخشب . وتشاهد الشرافات المسننة المفرغة بزخارف هندسية



جزء من سور صلاح الدين .. ويرى به البرج المعروف «ببرج الظفر»

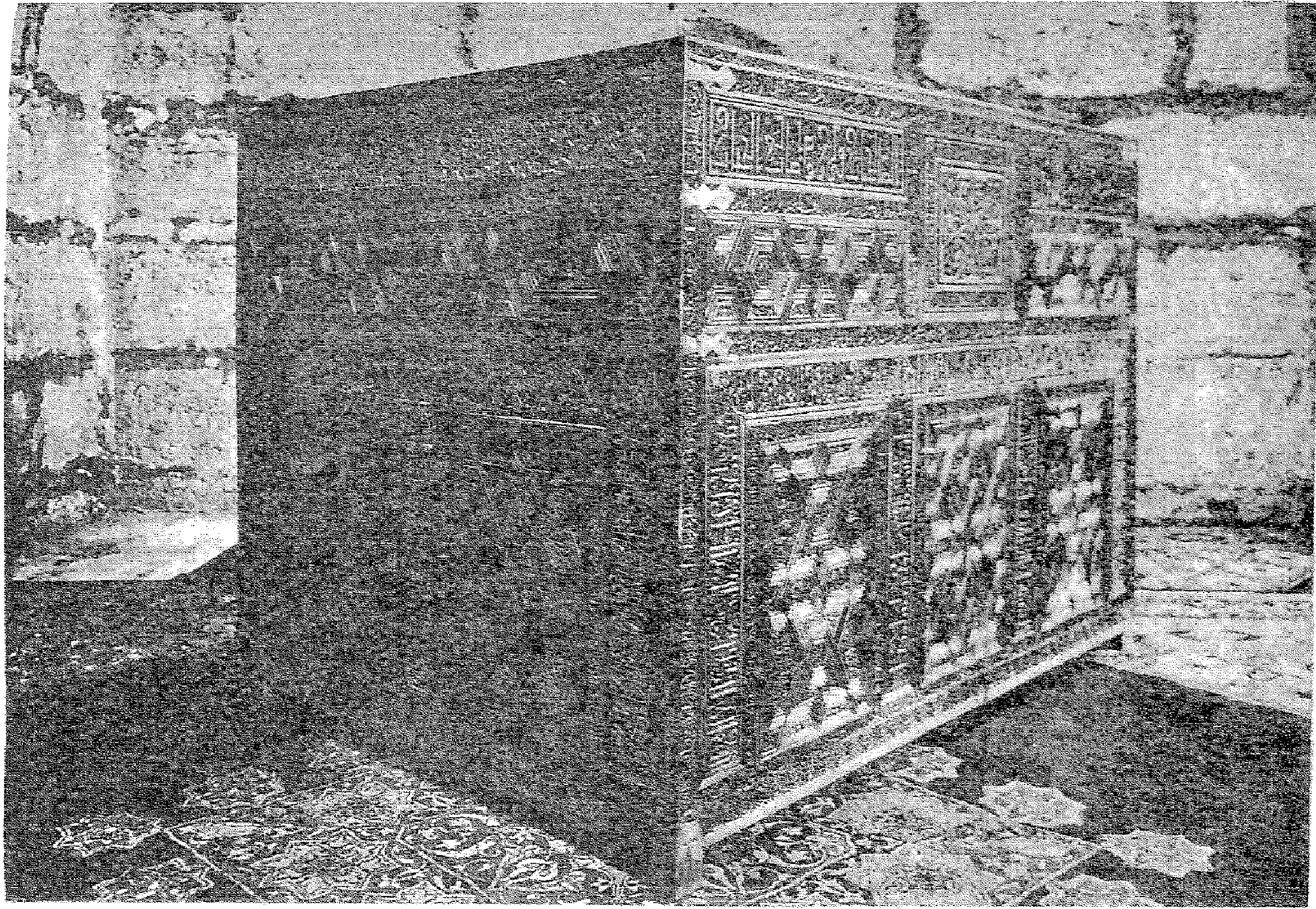


قلعة صلاح الدين الايوبى (من مجموعة الاستاذ حسن عبد الوهاب)



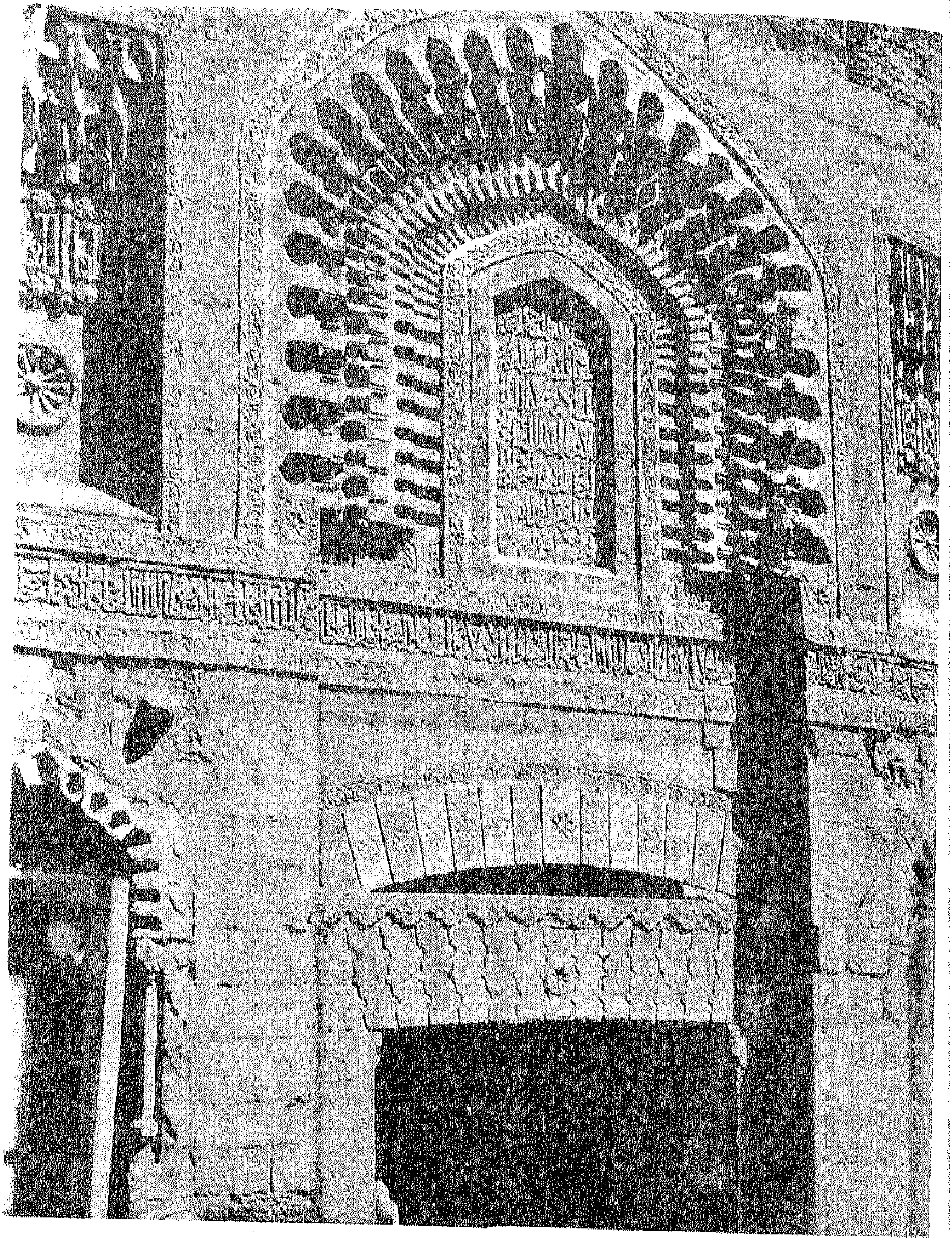
جزء من سور صلاح الدين الايوبى
ويرى فيه احد الابراج المستديرة





تابوت الامام الحسين ، وهو مصنوع من الخشب المحفور ، ذو ثلاثة اوجه ، محفوظ بالمتحف الاسلامى بالقاهرة ويرى فى هذين الجانبين ، كما فى الجانب الثالث ، مناطق تحبسها اطارات عليها كتابات بخط النسخ الايوبى وبالخط الكوفى ، على ارضية من الزخارف النباتية الدقيقة . . .

توضح هذه الخريطة مدينة القاهرة الموحدة في العصر الايوبى
(عن كازانوفا)



واجهــة مدرســة الصالح نجم الدين ايوب ، وتلاحظ فيهـا التجاويف والمقرنصات الزخرفية والكتابات النسخية ، والصنج المعشقة والعقد المخفف



قطعة من تابوت خشبى ، أصلها من ضريح الامام الشافعي ، تتكون من حشوات صغيرة مزينة بزخارف نباتية محفورة بعمق عظيم ودقة فائقة . .

الفاطمى سنة ٢٨٤ هـ (٨٩٧ م) ، وكانت آيات من القرآن مكتوبة على جدرانها . وموضع هذا البيمارستان اليوم مجموعة المباني الواقعة خلف دورة مياه المشهد الحسينى ، من الجهة البحرية الى عطفة القزازين . وقد أوقف على كلا البيمارستانين الأوقاف الجيدة ، شأنه فى ذلك شأن جميع المدارس التى أنشأها بمصر والشام ، والتى سيأتى الكلام عنها عاجلا

وقد أصاب مصر فى عهد هذه الدولة قحط ، مما كان يتهدد البلاد دواما فى العصور الوسطى من جراء انخفاض النيل ، وافتقار الأرض الى مياه الرى ، فيجف الزرع ، ويقل القوت ، وتنتشر المجاعة ، ويعقبها حدوث الأوبئة التى تفتك بالناس ، وتحصدهم حصدا . فاذا ما ارتفع النيل بعد ذلك لم يجد الأيدى التى تفلح الأرض ، وتستنبت النبات ، فيمتد القحط بالبلاد عدة سنوات ، ربما بلغت سبعا ، كما حدث فى عهد المستنصر الفاطمى مما سبق وصفه قبل الآن

القحط فى حكم العادل :

وقد حدث فى السنوات الأولى من حكم الملك العادل (٥٩٦ ـ ٦١٥هـ / ١٢٠٠ ـ ١٢١٨ م) قحط لايقل هولا عما حدث فى عهد المستنصر الفاطمى . وقد وصف عبد اللطيف البغدادى الذى عاصر الدولة الأيوبية هذا القحط بقوله : « يئس الناس من زيادة النيل ، وارتفعت الأسعار ، وأقحطت البلاد ، وأشعر أهلها البلاء ، وهربوا من خوف الجوع ، وانضوى أهل السواد والريف الى أمهات البلاد ، وانجلى كثير منهم الى الشام والمغرب والحجاز واليمن ، وتفرقوا فى البلاد أيدى سبا ، ومزقوا كل ممزق . ودخل الى القاهرة ومصر « الفسطاط » منهم خلق كثير ، واشتد بهم الجوع ، ووقع فيهم الموت ، واشتد بالفقراء الجوع ، حتى أكلوا الميتات والجيفة والكلاب والبعر والأرواث . ثم تعدوا ذلك الى أن أكلوا صغار

بنى آدم . فكثيرا ما يعثر عليهم ومعهم صغار مشويون أو مطبوخون . فيأمر صاحب الشرطة باحراق الفاعل لذلك والآكل . ورأيت صغيرا مشويا فى قفة ، وقد أحضر الى دار الوالى ، ومعه رجل وامرأة ، زعم الناس أنهما أبواه ، فأمر باحراقهما » (١)

وقد اجتاح الوباء أهل مصر « حتى ان القرية التى كان فيها خمسمائة نفس لم يتأخر بها سوى اثنين أو ثلاثة . وكانت الأزقة كلها بالقاهرة ومصر لايرى فيها من الدور المسكونة الا القليل . وعدمت الحيوانات جملة ، فبيع فروج بدينارين ونصف دينار ، وبيع الرأس الواحد من البقر بسبعين دينارا .. فلما أغاث الله الخلق بالنيل ، لم يوجد أحد يحرث أو يزرع . فخرج الأجناد بغلماتهم ، وتولوا ذلك بأنفسهم » (٢)

الحالة العلمية والثقافية

احلال المذهب السنى محل المذهب الشيعى :

تقدم القول أن صلاح الدين أخذ على عاتقه محو المذهب الشيعى من مصر . وبذلك يقضى على كل أثر للدولة الفاطمية فيها ، ويقضى على كل أمل لهم فى العودة الى حكم مصر ، اذ أن بقاء تلك الدولة كان مرهونا ببقاء مذهبها ، وازدهاره فى البلاد

حقيقة ان صلاح الدين استعمل الشدة مع الفاطميين وأتباعهم ، فطرد حرس الخليفة العاضد ، وكانوا من السودانيين ، الى الخليج ، وأعمل فيهم القتل والذبح مدة يومين ، وحرق ثكناتهم ، وكانت خارج باب زويلة ، فى الحى الذى يعرف بالمنصورية ، والذى تحول بعد ذلك الى حدائق كان

(١) كتاب عبد اللطيف البغدادى فى مصر ، طبع المجلة الجديدة ص ٦٢ وما بعدها
(٢) اغاثة الامة بكشف الغمة لتقى الدين المقريزى ، نشر الاستاذين زيادة والشيال ص ٣٠ – ٣١

يجتازها السلطان عند مسيره من القصر الى القلعة الجديدة (1) ، كما أخمد ثورة أخرى بالاسكندرية ، الا أنه عندما استتب له الأمر ، وقبض على ناصية البلاد بيد قوية ، شرع فى القضاء على المذهب الشيعى ، متبعا طريقة دلت على حكيم سياسته ، وسعة حيلته ، واتساع أفق تفكيره ، مبتعدا عن العنف والشدة فى اقتفاء أثر معتنقى هذا المذهب ، والتنكيل بهم . وانما اتبع سياسة يمكن أن نطلق عليها سياسة الازاحة ، أى ازاحة مذهب لاحلال مذهب آخر مكانه ، فأزاح المذهب الشيعي ، وعمل على احلال المذهب السنى مكانه . وأنشأ لذلك مدارس يدرس فيها الدين وفق المذاهب الأربعة ، ولم يجد فى ذلك كبير صعوبة . فالمذهب الشيعى وان ساد مصر طوال حكم الفاطميين لها ، الا انه لم يكن قد تأصلت جذوره فى نفوس المصريين . اذ الواقع أن الفاطميين قد روجوا لمذهبهم هذا ، تارة بطريق الشدة والاكراه، وطورا بطريق الدعاية والاغراء ، واقامة الأفراح والولائم والأعياد . فلما أفل نجمهم لم يكن عسيرا حينئذ اعادة البلاد الى حظيرة المذهب السنى ، الذى اعتنقه المصريون منذ الفتح الاسلامى سنة ٢٠ هـ (٦٤١ م) الى وقت قيام الدولة الفاطمية سنة ٣٥٨ هـ (٩٦٩ م) أى مدة نيف وثلاثة قرون

المدارس :

لهذا السبب أنشأ صلاح الدين المدرسة الناصرية (2) سنة ٥٦٦ هـ (١١٧٠م) بجوار الجامع العتيق «جامع عمرو» لتعليم الدين ، وفق المذهب الشافعى ، وكان حينئذ يتولى وزارة مصر للخليفة العاضد ، وهى أول مدرسة أقيمت بمصر . وأنشأ فى نفس السنة مدرسة أخرى بجوار الجامع نفسه ، عرفت بالمدرسة القمحية (3) ، لتعليم الدين وفق المذهب المالكى .

---

(1) سيرة القاهرة لستانلى لين بول ترجمة الدكتور حسن ابراهيم حسن ص ١٦٠ – ١٦١
(2) المقريزى : الخطط ج ٤ ص ١٩١ (3) المصدر السابق ج ٤ ص ١٩٢

وانما عرفت بهذا الاسم لأنه أوقف عليها ضيعة بالفيوم ، يوزع قمحهـا على الطلاب وشيوخهم .. وفى سنة ٥٧١ هـ (١١٧٦ م) أنشأ المدرسـة الصلاحية ، بجوار قبرالامام الشافعى، برسم فقهاء الشافعية. وبنىمدرسة ثالثة ، مجاورة للمشهد الحسينى (١) . وفى سنة ٥٧٢ هـ (١١٧٧ م) أمر بانشاء مدرسة لتعليم الدين وفقالمذهب الحنفى، هىمدرسة السيوفية (٢) وهى أول مدرسة وقفت على الحنفية بديار مصر، وهى منجملة قصرالوزير المـأمون البطائحى ، ووقف على مستحقيها اثنين وثلاثين حانوتا ، بخط سويقة أمير الجيوش وباب الفتوح وحارة برجوان

كما أنشأ بالاسكندرية سنة ٥٧٧ هـ (١١٨١ م) مدرسة أخرى

ولكى يضمن ازدهار هذه المدارس ، واستمرارها فى أداء رسـالتها ، أوقف عليها كما رأيت الخيرات والأرزاق ، وعنى بالطلاب والشيوخ على حد سواء

وكما ابتدع صلاح الدين انشاء المدارس فى مصر ، تلك المدارس التى أخذ خلفاؤه من بعده يتبارون فى انشائها ، فانه كان أول من أدخلتصميم بناء المدرسة الى مصر ، نقلا عن مدارس سوريا . وقد أخذ هذا التصميم فىالانتشار أيضا من بعده حتىغلب تصميم المدرسة على المسجد ، فأنشىء على مثالها الكثير من المساجد ، حتى لو لم تخصص لتـدريس المذاهب الأربعة (٣)

وقد اندثرت هذه المدارسجميعا ، ولم يبق لها اليوم أدنى أثر: فالمدرسة الصلاحية دخلت فى بناء جامع الامام الشافعى، والمدرسة التىكانت بجوار المشهد الحسينى أدخلت أيضا فى هذا المشهد ، وأصبح فى محلهـا الايوان

(١) النجوم الزاهرة جـ ٦ ص ٥٥ (٢) الخطط للمقريزى جـ ٤ ص ١٩١
(٣) تاريخ المساجد الاثرية للاستاذ حسن عبد الوهاب ج ١ ص ١٤

الشرقى عند المحراب الحالى للجامع (١) . ومدرستا الشافعية والمالكية ، بجوار جامع عمرو قد زالتا ، وأصبح مكانهما أرض فضـــاء ، فى الجهة الشرقية ، والجنوبية الشرقية ، من الجامع المذكور ، ومشغولة بقمائن الجير والفواخير (٢)

المدارس فى عهد خلفاء صلاح الدين :

ولم يبق من مدارس خلفاء صلاح الدين سوى الايوان الشمالى الغربى من المدرسة الكاملية ، الموجودة على الجانب الغربى من سوق النحاسين اليوم ، بجوار جامع السلطان برقوق من بحريه . وكان قد أنشأها الملك الكامل بن العادل بن أيوب لتدريس الحديث سنة ٦٢٢ هـ (١٢٢٥م) ، لذا عرفت بدار الحديث الكاملية . وهى أول دار أنشئت بمصر لهذا الغرض ، وثانى دار فى الشرق بعد دار الحديث التى أنشأها الملك العادل نورالدين محمود بن زنكى بدمشق . وقد بنى الكامل هـــذه الدار وأوقفهـــا على المشتغلين بالحديث النبوى ، ثم من بعدهم على الفقهاء الشافعية . وتعرف اليوم باسم جامع الكاملية ، أو جامع الكامل (٣)

وكان الملك الصالح نجم الدين أيوب بن الملك الكامل قد أنشأ سنة ٦٤١ هـ (١٢٤٣ ــ ٤٤ م) مدرسة خصصت لدراسة المذاهب الأربعة . وهى أول مدرسة يجتمع فيها تدريس المذاهب الأربعة . وكان انشاؤها على قطعة أرض من جملة القصر الشرقى الفاطمى ، مساحتها ٦٠٠٠ مترا مربعا تقريبا ، ودخل فيها باب الزهومة ، أحد أبواب القصر ، وكانت تتكون من قسمين : أحدهما على يمين الداخل من الباب العمومى ، والثانى على يساره . وكان بكل قسم ايوانان ، ويتوسط القسمين صحن كبير ، ويدرس الطلاب بكل ايوان مذهبا من المذاهب الأربعة

(١) النجوم الزاهرة ج ٦ ص ٥٤ حاشية رقم ٢٥
(٢) نفس المصدر ج ٥ ص ٣٨٥ الحاشيتان ١٠ ، ٢٥
(٣) النجوم الزاهرة ج ٦ ص ٢٢٩ ،حاشية رقم ٥

ولم يبق من مبانى هذه المدرسة سوى واجهتها التى بها الباب العمومى ، المشرف على شارع ما بين القصرين ، وتعلوه مئذنتها . ولكن يحجب هذه الواجهة الأثرية الجميلة ، الحافلة بالزخارف والكتابات ، سبيل خسرو باشا وما يجاوره من دكاكين حقيرة بشارع بين القصرين (١). وقد نقل الباب الخشبى لهذه المدرسة الى المتحف الاسلامى بميدان أحمد ماهر بالقاهرة

وقد تخلف من الجزء البحرى الايوان الغربى ، الملاصق لتربة منشىء المدرسة ، وبقايا بسيطة من الايوان الشرقى . أما النصف القبلى فقد اغتصبت أواوينه ، ولم يبق منه سوى الواجهة ، وتحتله وكالة الجواهرجية (٢)

الادب والثقافة :

وقد كان للأدب والثقافة فى دولة بنى أيوب شأن أى شأن ، ذلك لأن صلاح الدين كان لايجالس سوى الأدباء والفقهاء والعلماء . ويجزل لهم العطاء ، ويصلهم بالمنح والمكافآت . بل ان وزارته كانت تضم اثنين من كبار الأدباء : أحدهما القاضى الفاضل ، والآخر عماد الدين الكاتب الأصفهانى ، اللذان اشتهرا بحسن الأسلوب ، ورشاقة الرسائل . وكان آخر سكرتير خاص له بهاء الدين بن شداد الذى كتب تاريخ حياته

«وقدكانت تحيط بهجمهرة من الأذكياء ، الذينلم يقتصروا على وزرائه الباهرين ، بل كانت تضم أيضا أشخاصا متميزين ، كطبيبه اليهودى ابن ميمون ، والعالم المبدع العراقى عبد اللطيف البغدادى (١١٦٢–١٢٣١م) الذى يعتبر وصفه القصير لمصر من أهم المؤلفات الطبوغرافية التى كتبت فى العصور الوسطى » (٣)

---

(١) الدليل الموجز لاشهر الآثار العربية للمرحوم الاستاذ محمود احمد ص ٩٧
(٢) النجوم الزاهرة ج ٦ ص ٣٤١ حاشية رقم ١
(٣) تاريخ العرب تاليف فيليب حتى ترجمة المرحوم الاستاذ محمد مبروك نافع ص ٨٥٦

عماد الدين الكاتب :

وقد كان العماد كاتبا مجيدا ، وشاعرا مفلقا ، ومؤرخا عالما ، وله مؤلفات كثيرة منها « كتاب خريدة القصر، وجريدة العصر » جمع فيه تراجم شعراء الشام والعراق ومصر والجزيرة والمغرب وفارس ، وهو يدخل فى عشرة مجلدات . وكتاب « البرق الشامى ، والفتح القسى فى الفتح القدسى » وكتاب « السيل على الذيل ونصرة الفطرة وعصرة القطرة فى أخبار الدولة السلجوقية » . وقد رثا صلاح الدين بقصيدة عامرة جاء فيها :

شمل الهدى والملكِ عم شتاته   والدهر ساء وأقلعت حسناته
بالله أين الناصر الملك الذى   لله خالصة صفت نياته
أين الذى مذْ لم يزل مخشيةً   مرجوةً رهباته وهِباتُه
أين الذى كانت له طاعاتنا   مبذولة ولِربّه طاعاته
أين الذى ما زال سلطانا لنا   يرجى نداهُ وتتقى سطواته
أين الذى شرف الزمان بفضله   وسَمَتْ على الفضلاء تشريفاته
لا تحسبوه مات شخصا واحدا   قد عمّ كل العالمين مماته
مَلِكٌ عن الاسلام كان محاميا   أبدا لماذا أسلمته حُمَاته

القاضى الفاضل :

أما القاضى الفاضل عبد الرحيم بن على البيسانى ، فقد كان شاعرا فحلا ، استشهد علماء البديع بكثير من شعره فى أنواع كثيرة . ومن شعره الذى جرى مجرى الأمثال قوله :

واذا السعادة لاحظتك عيونها   نَمْ فالمخاوف كلهن أمانْ
واصطد بها العنقاء فهى حبائل   واقتد بها الجوزاء فهى عِنانْ

وقال فيه ابن خلكان : « وبرز فى صناعة الانشاء ، وفاق المتقدمين ، وله فيه الغرائب مع الاكثار . أخبرنى أحد الفضلاء الثقاة المطلعين على حقيقة

أمره أن مسودات رسائله فى المجلدات ، والتعليقات فى الأوراق ، اذا جمعت ما تقصر عن مائة مجلد ، وهو مجيد فى أكثرها »

وكفاه فخرا ما كان يقوله فيه صلاح الدين : « لا تظنوا أنى ملكت البلاد بسيوفكم ، بل بقلم الفاضل » (١) .

ومن شعراء هذا العصر الشيخ شرف الدين أبو حفص وأبو القاسم عمر ابن أبى الحسن على بن المرشد بن على المعروف بابن الفارض الحموى الأصل ، المصرى المولد والدار والوفاة ، الصالح الشاعر المشهور ، أحد البلغاء الفصحاء الأدباء . يروى أن الملك محمد الكامل أراد أن يصله بالعطاء فأبى . كما أنه رفض مقابلته وقد قصد الملك الكامل الى داره ، وذلك لزهده وبعده عن زخرف الدنيا . وله ديوان شعر ، جمع أشهر قصائده . ومن عيون تلك القصائد قصيدته البائية التى منها :

سائق الاظعان يطوى البيد طى . منعماً عرج على كثبان طى
وبذات الشيح عنى ان مررت بحى من عريب الجزع حى
وتلطف وأجر ذكرى عندهم علهم أن ينظروا عطفا الىّ
قل تركت الصب فيكم شبحا ما له مما براه الشوق فى

ومن مقطعات شعره قوله :

وحياة أشواقى اليـ ـك وحرمة الصبر الجميل
لا أبصرت عينى سواك ولا صبوت الى خليل

وقد توفى بالقاهرة فى جمادى الأولى سنة ٦٣٢ هـ (يناير سنة ١٢٣٥) ودفن بجهة الأبجية بسفح المقطم ، بمسجده المعروف بمسجد عمر بن الفارض (٢)

---

(١) النجوم الزاهرة ج ٦ ص ١٥٧
(٢) جلاء الغامض فى شرح ديوان الفارض ص ٥ – ٧ وشذرات الذهب ، ج ٥ ص ١٤٩

عبد اللطيف البغدادى :

أما عبد اللطيف البغدادى فقد ولد فى بغداد سنة ٥٥٧ هـ (١١٦٢ م) ودرس الطب والفلسفة وعلوم اللغة ، وتنقل بين مصر والشام والعراق ، واتصل بصلاح الدين وغيره من الأمراء الأيوبيين ، واجتمع بأعلام الأساتذة ولم يكن « يأخذ بقلبه ويملأ عينه » الا النفر القليل منهم . وقد لقى القاضى الفاضل فى معسكر صلاح الدين بظاهر مدينة عكا ، فأرسله الى مصر بتوصية منه الى وكيله ، ولكن عبد اللطيف لم يلبث أن غادر مصر ، ورحل الى القدس للقاء صلاح الدين ، ثم يمم شطر دمشق . وقدم مصر ثانية بعد وفاة صلاح الدين ، واشتغل بالتدريس فى الأزهر

ومن مؤلفاته كتاب « الافادة والاعتبار فى الأمور المشاهدة والحوادث المعاينة بأرض مصر » وهو يشتمل على وصف رحلته الى وادى النيل فى نهاية القرن السادس الهجرى « الثانى عشر الميلادى » وهو على اختصاره يمتاز بدقة الوصف والاتجاه العلمى . وليس هذا بعجيب من عالم طبيب كالبغدادى . وقد وصف فيه خواص مصر العامة ، وما تختص به من النبات والحيوان ، وما فيها من الآثار القديمة مثل الأهرام وأبى الهول والمسلات والمعابد فى مصر العليا ومنارة الاسكندرية وعمود السوارى (١)

موسى بن ميمون :

وموسى بن ميمون ، ويعرفه العرب بأبى عمران عبيد الله ، فهو يهودى الأصل ، ولد فى مدينة قرطبة بالأندلس سنة ٥٣٠ هـ (١١٣٥ م) ، ولما شب تلقى العلم على علماء قرطبة وفلاسفتها من مسلمين ويهود ، ثم نزح الى بلاد المغرب سنة ٥٥٥ هـ (١١٦٠ م) وأقام بمدينة فاس ، ثم رحل الى عكا بفلسطين سنة ٥٦١ هـ (١١٦٥ م) ، وبعد أن أقام بها نصف سنة رحل

(١) طبع هذا الكتاب مؤخرا فى القاهرة تحت عنوان « عبد اللطيف البغدادى فى مصر » بمطبعة المجلة الجديدة

الى مصر فى أواخر عهد الدولة الفاطمية ، وقد ظل بها الى حين وفاته سنة ٦٠١ هـ (١٢٠٤ م) وقد أقام بمدينة الفسطاط يلقى المحاضرات فى علوم الرياضة والفلك والفلسفة

وقد شهد سقوط الدولة الفاطمية وقيام الدولة الأيوبية ، وعاصر أكثر ملوكها ، وقام بتطبيبهم وتطبيب أفراد أسراتهم ، ومداواة النـــاس على اختلاف مللهم ونحلهم . ولم يمنعه كل ذلك عن التــدوين والتصنيف فى الفلســفة والطب والمنطق والدين اليهودى . وقد انتهى به الأمر الى أن أصبح رئيس الطائفة اليهودية بمصر (١)

الحالة الفنية

انطبع العصر الأيوبى كما رأيت بالطابع الحربى ، الذى استلزمته مقاومة الصليبيين ، والقضاء على أطماعهم . كما انطبع أيضا بالطابع السنى ، وقد استلزم ذلك أيضا حماية البلاد من عودة الفاطميــين الى امتلاكهم مصر ، ونشر تعاليمهم فيهــا ، وكان لذلك كله أثره الواضح فى ســير الفنون واتجاهاتها :

المبانى :

ففى المبانى انتشر بناء الأسوار والقلاع والحصون . وقد أتينا قبل الآن على وصف قلعة صــلاح الدين وأســوار القاهرة وما تخللها من أبراج وحصون . وكل ذلك لتحصين البلاد ضــد الخطر الصليبى ، الذى كان يهدد البلاد فى ذلك العهد

المدارس :

كذلك انتشر بناء المدارس ، لتعليم الدين وفق المذاهب الأربعة ، دفعا للمذهب الشيعى ، وقضاء عليه . وقد استتبعت هذه السياســة الدينيــة

(١) موسى بن ميمون تأليف الدكتور اسرائيل ولفنسون ص ٢٣

الجديدة اجراء تعديل فى تخطيط المسجد . فقد كان المألوف فى تصميم المسجد ، قبل انشاء هذه المدارس ، أن يتكون من أربعة أواوين، مسقوفة فى الغالب ، ومحمولة عقودها على عمد أو أكتاف ، أكبرها ايوان القبلة . ويتوسط الأواوين صحن مكشوف تتوسطه أحيانا قبة تحتها فسقية . أما تصميم المدرسة فيشتمل على ايوانين أو أربعة أواوين معقودة متقابلة ، تكون شكلا متعامدا Cruciform ، أكبرها ايوان القبلة ، وأصغرها الايوانان الجانبيان . ويتوسطها غالبا صحن مكشوف به قبة الفسقية ، ويلحق به عادة مدفن للمنشىء ، وسبيل يعلوه كتاب ، ومساكن للطلاب. ولما صغر حجمها غطى الصحن ، واستغنى عن الفسقية وعن قبتها . وقد ساد هذا التصميم فى عصر المماليك (١)

ركود الفنون :

وقدكانلتمسك الأيوبيين بالسنة وتعاليمها، وعدم استباحتهم لأنفسهم ما استباحه الفاطميون فى تعاطى الفنون أثر كبير فى ركود الفنون بوجه عام . وان كانت قد ازدهرت فى بعض نواح مثل الحفر على الأخشاب ، والخزف المطلى بالمينا

الأخشاب المحفورة :

أما الحفر على الأخشاب فقد بلغ الذروة فى عهد الأيوبيين ، يرى ذلك فى ثلاثة توابيت : أحدها على قبر الامام الشافعى والثانى على قبر الملكة شمس ، زوج صلاح الدين ، الموجود بجانب قبر الشافعى ، والثالث كان موضوعا فوق قبر الامام الحسين رضى الله عنه ، وهو الآن موجودبالمتحف الاسلامى بالقاهرة

وهذه التوابيت الثلاثة ، المتخلفة عن العصر الأيوبى ، تتكون من ترابيع خشبية ، قوامها حشوات صغيرة ، يربط بعضها البعض « سقاسات » من

---

(١) تاريخ المساجد الاثرية للاستاذ حسن عبد الوهاب ص ١٤

الخشب . ويحيط بهذه التراييع فى مجموعهـا شريط من كتابات كوفية ، يلنيه شريط آخر من كتابات نسخية . وقوام الزخرفة فى هـذه الحشوات فروع نباتية ، وأوراق ذات فصوص ، وبعض عناقيد العنب ، وهى تذكرنا الىحد كبير بالزخارف الموجودة علىجوانب محراب السيدة رقية وفىظهره

الابواب :

وبقبة ضريح الامام الشافعى، وكذلك بمسجد الامام الليث بابان يرجعان الى العصر الأيوبى ، مؤرخان سنة ٦٠٨ هـ (١٢١١ ــ ١٢ م) ، وقوام الزخرفة فى هذين البابين أطباق نجمية تتكون من الحشوات الصـغيرة المدقوقة « أيـمه » تحيط بها السقاسات مما مهد لانتشار هذا النوع من التصميم فى الأبواب أيام المماليك . ويوجد بالمتحف الاسلامى باب مخلف من قبة الامام الشافعى مصفح بالنحاس ، مثبت به حشوات نحاسية فى أطباق نجمية ، وقوام الزخرفة فى هذه الحشوات أوراق وفروع نباتية . والحشوات هنا مسطحة ليس بها بروز وهذا الباب هو النموذج الثانى من نوعه ، اذ أن النموذج الأول هو باب مسجد الصالح طلائع المنشأ سنة ٥٥٥ هـ (١١٦٠ م) والموجود الآن بالمتحف الاسلامى بالقاهرة

الابواب النحاسية :

ولقد كان ظهور مثل هذه الأبواب النحاسية تمهيدا لانتشار مثل هذه الأبواب ذات الحشوات البارزة فى أيام المماليك . وخير مثـل لهذا النوع من الأبواب الباب النحاسي لمسجد السلطان حسن سنة ٧٦٤هـ (١٣٦٢ ــ ٦٣ م) ، والذى نقله المؤيد سنة ٨١٨ هـ (١٤١٥ م) الى مسجده الذى فرغ من بنائه فى نفس السنة ، والقائم خلف باب زويله

الخزف :

ويظهر فى العصر الأيوبى نوع جديد من الخزف ، والزخرفة فى هـذا النوع الجديد ، منقوشـة تحت الطلاء ، والكتابة عليه بالخط النسخى ، وهو يخالف الخزف الفاطمى أو الطولونى ، المعروف بالخزف ذى البريق المعدنى Lustre pottery ، والذى كانت الـكتابة عليه بالقلم الـكوفى . ويوجد بالمتحف الاسلامى بالقاهرة قطع من الخزف الأيوبى منها : قطعة قوام زخرفتها رسم باللونين الأزرق والأسـود ، يمثل شخصين فى قارب مزين بمربعات سوداء وزرقاء ، وأخرى قوام زخرفتها رسم حيوان باللون الأسود ، وتمتاز بتصرف وحرية ، يجعلانه يشبه بعض الرسوم الزخرفية فى العصر الحديث ، وثالثة عليها رسم أرنبين باللون الأزرق الفاتح ، وكل منهما يولى الآخر ظهره ، وبينهما رسوم زهور باللون الأحمر . ومما يلفت النظر فى هذه التحفة التماثل والتقابل فى رسم الأرنبين ، ثم الحركة التى تبدو فيهما ، ورقة الرسوم النباتية

الباب السادس

القاهرة في عهد المماليك

– ١ –

لما تولى الملك الصالح نجم الدين أيوب بن الملك الكامل ، سابع ملوك الدولة الأيوبية سلطنة مصر فى ٢٥ ذى القعدة سنة ٦٣٦ (أول يوليو سنة ١٢٣٩) استكثر من شراء المماليك ، وجعل منهم أمراء دولته ، وخاصة بطانته ، والمحيطين بدهليزه ، ودعاهم بالحلقة ، اشارة الى أنه لايبرح محاطا بهم كيفما توجه ، كما فعل الخليفة المعتصم العباسى ، من الاستكثار من المماليك الأتراك . وأنشأ لهم فى جزيرة الروضة سنة ٦٣٨ هـ (١٢٤٠ — ٤١ م) ، قلعة قرب المقياس ، عرفت بقلعة الروضة . وقد أنفق فى عمارتها أموالا كثيرة ، حيث بنى فيها الدور والقصور ، وعمل لها ستين برجا ، وبنى بها جامعا ، ثم اتخذها دار ملك ، وسكن فيها بأهله وحرمه ، وأسكن فيها مماليكه . وكانت عدتهم نحو ألف مملوك . وقد عرفوا بالمماليك البحرية ، لسكناهم هذه الجزيرة الواقعة فى (بحر) النيل . وقد درست هذه القلعة بما كان فيها ، ولم يبق لها أثر اليوم (١)

وتوفى الصالح فى ١٤ شعبان سنة ٦٤٧ (نوفمبر سنة ١٢٤٩) بالمنصورة ، فى أثناء قتاله ضد حملة لويس التاسع ، فأخفت جاريته شجرة الدر ، أو

---

(١) المقريزى: الخطط ج ٢ ص ١٨٣

شجر الدر ، خبر وفاته ، وكانت أمَة تركية أو أرمنية من بين نساء الخليفة المستعصم العباسى ، ثم دخلت فى خدمة الملك الصالح ، الذى أعتقها بعد أن أنجبت له ولدا يسمى خليل . وكانت امرأة أريبة ، راجحة العقل ، بعيدة النظر ، كثيرا ما عهد اليها الصالح بادارة الأحكام ، فى أثناء غيابه فى حملاته الحربية . فلما رأت دقة موقف الجيش المصرى ، وهو يحارب الأعداء ، وخشيت وقوع الفرقة والاضطراب بين قواده اذا هم علموا بوفاة الملك الصالح ، كتمت هذا الأمر ، وأخذت البيعة لابنه الملك المعظم غياث الدين توران شاه ، واستقدمته على جناح السرعة ، وكان متغيبا بالشام . فحضر وقاد الجيش ضد الفرنسيين حتى هزم لويس التاسع ، واندحر جيشه

ولما أراد توران شاه أن يكافىء مماليكه الذين أحضرهم معه من الشام ، وقدم بعضهم على مماليك أبيه ، وكان هؤلاء ذوى انفة وغطرسة ، لايطأطئون الرأس لأحد ، ويرون أنفسهم أحق بملك مصر ، لما أحرزوه من نصر على الفرنسيين ، ولما اشتدت اهاناته وتحقيره لهم ، وثب به أربعة منهم وفتكوا به . ويمكن القول أنه منذ هذه اللحظة بدأت تبزغ الى الوجود دولة المماليك البحرية

فلما رأت شجرة الدر ما حل بتوران شاه ، ورأت كفة المماليك هى الراجحة ، تواطأت مع عز الدين ايبك التركمانى ، أتابك العسكر «القائد العام للجيش » ، وكان أقوى المماليك نفوذا ، وأعظمهم شأنا ، وكان يربطها به ود قديم منذ أيام الملك الصالح ، فأخذت لنفسها البيعة من الأعيان والأمراء ، وقبضت على ناصية الأمور فى ١٠ صفر سنة ٦٤٨ (مايو سنة ١٢٥٠) وتكنّت بعصمة الدين أم خليل ، ونقش اسمها على النقود ، ودُعِى

لها على المنابر بعد الدعاء للخليفة بما نصه : « احفظ اللهم الجهة الصالحية ، ملكة المسلمين ، عصمة الدنيا والدين ، ذات الحجاب الجميـــل ، والستر الجليل ، والدة المرحوم خليل المستعصمية ، زوجة الملك الصالح نجم الدين أيوب » (١) وعينت عز الدين اتابكا عندها ، لتدبير المملكة

ولكن الأمر لم يستقم لها طويلا ، اذ لم يحدث قبل ذلك أن حكمت المسلمين امرأة ، وعاب الخليفة المستنصر العباسى ذلك على أهل مصر ، وقد كانت شجرة الدر كما تقدم ، احدى جواريه ، قبل أن يشتريها الصالح ، فبعث برسالة لاذعة الى أمراء مصر ، يقول لهم فيها : « ان كان الرجال قد عدموا عندكم ، فأعلمونا حتى نسير اليكم رجلا » ، فخلع المماليك طاعتها ، ووثب الى العرش عز الدين أيبك التركمانى ، وبويع بالسلطنة فى آخر ربيع الثانى سنة ٦٤٨ (يولية سـنة ١٢٥٠) ولقب بالملك المعز الجاشنكير التركمانى الصالحى . وتزوج من شجرة الدر ، وينسب اليها أنها أول من أرسلت المحمل من مصر الى مكة

عــز على شجرة الدر أن ينفرد أيبك بالملك من دونها ، وأن يشرع فى الزواج من سيدة أخرى ، فيقضى على مركزها كسيدة مصر الأولى ، ويلقى بها فى زوايا النسيان ، فأكل الحسد أحشاءها ، وسرعان ما دبرت له مؤامرة ، فانقض عليه نفر من عبيدها ، وقتلوه وهو فى الحمام

فلما تولى الملك ابنه نور الدين على ، قبض على شجرة الدر ، وعهد بها الى نساء بيته ، فانهلن عليها ضربا بالقباقيب ، حتى لفظت أنفاسها ، وألقى بجثتها فى خندق بالقلعة ، وأخيرا دفنت قرب مدفن السيدة نفيسة

---

(١) النجوم الزاهرة ج ٦ ص ٣٧٤

- ٢ -

القاهرة فى عهد المماليك البحرية

امتدت القاهرة فى عهد المماليك البحرية صوب الشمال ، فى الطريق التى رسمها لها صلاح الدين الأيوبى من قبل، فهدموا ما تبقى من القصرين الفاطميين الكبيرين ، كذلك لم يتركوا قطعة أرض فضاء ، داخل حدود القاهرة ، من جنوبيها الى شماليها ، الا وأقاموا فيها الجوامع والمدارس والأضرحة والحمامات والوكالات والأسبلة ، ولم تقف فى وجوههم الأسوار الشمالية ، بل تخطوها وبنوا المساجد الفخمة . واقتفى أثرهم المماليك الشراكسة أوالبرجية ، فعمروا الصحراء وشيدوا فيها المساجد والأضرحة، كما سيجىء شرح ذلك قريبا .

والواقع أن القاهرة ازينت ، ولبست أبهج حللها فى عهد المماليك ، الذى يعتبر العصر الذهبى فى تاريخ العمارة بمصر . فقد كان الاقبال عظيما على الانشاء والتعمير ، ولا غرو فى ذلك ، فقد عم الرخاء فى عهدهم ، وامتلأت خزائنهم بالأموال ، لما كانت تدره عليهم التجارة الشرقية من ثروات ، وما كانوا يجبونه عليها من مكوس عند دخولها مصر أو خروجها منها . فعاشوا عيشة البذخ والترف ، وتسابقوا ، سلاطين ، وأمراء ، ووزراء ، فى اقامة المساجد الفخمة ، والقصور الشاهقة ، واقتنوا أجمل التحف وأغلاها ، وما تزال القاهرة تحتفظ بكثير من تحفهم ، التى تشهد ببراعة الصناع ، وتفوق الصناعة وتقدمها فى عهدهم ، وحياة الترف والبذخ التى كانوا يحيونها .

كذلك امتدت القاهرة صوب الغرب والشمال الغربى ، بما طرحه النيل من أرض كونها الطمى الذى يأتى به النيل مع مياه الفيضان كل عام ، فنشأت أرض اللوق وجزيرة الفيل ، التى قامت عليهما فيما بعد أحياء

بولاق وشبرا وروض الفرج والاسماعيلية وباب إللوق

اراضى اللوق :

كان يطلق هذا الاسم على الأراضى الممتدة غربى القاهرة ، والتى يحدها اليوم شارع قنطرة الدكة من الشمال ، ومستشفى قصر العينى وشارع البستان الفاضل من الجنوب ، وشارع رمسيس « الملكة سابقا » من الغرب . وينحرف هذا الحد الى قصر النيل عند مبنى مصلحة المجارى ، ويسير بمحاذاة النيل ، حتى كوبرى محمد على . وتحد شرقا بشارع الخليج المصرى « شارع بورسعيد حاليا » ، فشارع نوبار (باشا) « الدواوين سابقا » ، وينثنى هذا الحد الى الشرق عند التقائه بشارع الشيخ ريحان ، حتى يتصل بشارع محمد (بك) فريد « شارع عماد الدين سابقا » ، ثم يستقيم شمالا حتى شارع قنطرة الدكة ، وهو الحد الشمالى السابق ذكره . وهذا الحد الشرقى لأرض اللوق ، كان الشاطىء الشرقى للنيل ، تجاه القاهرة حتى سنة ٦٩ هـ (٦٨٨ م)

وقد كان النيل يغمر هذه الأراضى وقت الفيضان. فاذا ما انتهى الفيضان تنكشف هذه الأراضى بعد صرف المياه عنها ، ويأخذ الناس فى زرعها دون حرث ، لليونتها ، وانما تلاق لوقا ، كما يفعل بأراضى الملق بالوجه القبلى، وهذا هو سبب تسميتها بأرض اللوق

وقد انحسر النيل عن هذه الأراضى فيما بين سنتى ٣٣٠ هـ ، ٥٦٠ هـ (٩٤١ — ١١٦٤ م) وأصبحت أرضا زراعية ، أنشىء بها كثير من البساتين والمنشآت مثل منشأة القاضى الفاضل ، وبستان ومنشأة ابن ثعلب ، وبستان ومنشأة الكتبة وغيرها . ولم يحدث بها بناء الا منذ عهد الظاهر بيبرس البندقدارى فى سنة ٦٦٠ هـ (١٢٦١ م) . ومع أن ما شيد من الأبنية كان قليلا فقد تهدم فى نهاية القرن العاشر الهجرى (السادس عشر الميلادى) . وانما أخذت فى العمار فى عهد الخديو اسماعيل (القرن الثالث

عشر الهجرى = التاسع عشر الميلادى) حيث شيدت بها كثير من المبانى والعمائر الفخمة ، ونشأت أحياء الاسماعيلية والتوفيقية (١)

بولاق :

وظهر فى النيل سنة ٦٨٠ هـ (١٢٨١م) أمام أرض اللوق جزيرة كبيرة (٢) أنشئت على جزء منها قرية بولاق سنة ٧١٣ هـ (١٣١٣ — ١٣١٤ م) . وما لبثت أن اتصلت الجزيرة بشاطىء النيل ، وصارت الطريق من اللوق الى بولاق « سالكة » ، وصرح الملك الناصر محمد بن قلاوون بالعمارة والبناء فى تلك الأراضى ، فتسابق الأمراء والجند والكتاب والتجار والعامة فى البناء ، وأنشأوا على النيل الدور والقصور والبساتين . وتكون من مجموع ذلك بلدة جديدة هى بولاق . ولم تتصل بولاق بمدينة القاهرة الا فى زمن الخديو اسماعيل ، حينما أخذت تتسع فيها العمائر وتمتد المبانى صوب الشرق .

كذلك اتصل ما بين المقس (٣) « ثغر القاهرة اذ ذاك ، ويوجد مكانه اليوم مسجد أولاد عنان بميدان رمسيس » وجزيرة الفيل ، بعد أن كان النيل يجرى بينهما ، آتيا من الجنوب بمحاذاة شارع رمسيس « شارع الملكة سابقا » وذاهبا الى الشمال من ميدان باب الحديد «ميدان رمسيس حاليا » الى منية السيرج . لذلك حلت بولاق محل المقس ، وصارت بولاق ميناء القاهرة النهرى ، ترسو عندها البضائع ، وتبنى فيها السفن منذ ذلك الوقت الى وقتنا الحاضر

جزيرة الفيل :

وهى التى قام عليها فيما بعد حى شبرا وروض الفرج كما سبق بيانه ،

---

(١) النجوم الزاهرة ج ٧ ص ٣٠٨ حاشية رقم ١ من تعليق المرحوم العلامة محمد (بك) رمزى

(٢) المصدر السابق ج ٧ ص ٣٠٧ حاشية رقم ١

(٣) النجوم الزاهرة ج ٧ ص ٣٠٨ حاشية رقم ٢

وقد ظهرت هذه الجزيرة فى النيل فى أواخر الدولة الفاطمية ، وعرفت بجزيرة الفيل . وانما سميت كذلك لأن مركبا يشبه بالفيل غرق فى النيل ، وترك مكانه ، فتراكمت عليه الرمال والأعشاب ، وظلت تتكاثر الى أن أصبحت جزيرة ، يحيط بها الماء من جميع الجهات ، فزرعت أيام صلاح الدين الأيوبى وطرح البحر بجوارها سنة ٦٨٠ هـ (١٢٨١ ــ ١٢٨٢م) ، فاتصلت بأرض بولاق وأرض الطبالة وأرض البعل وأرض منية السيرج . وفى أيام المنصور قلاوون أنشأ الأمراء والأعيان بجزيرة الفيل الدور والقصور والبساتين ، حتى صارت بلدا كبيرا ، به جامع وسوق كبيرة ، وعدة بساتين جليلة ، بلغ عددها مائة وخمسين بستانا ، من أحسن البساتين ، لجمال منظرها ، وكثرة ثمارها

وقد حقق المرحوم العلامة الأستاذ محمد رمزى موقع جزيرة الفيل فقال : « ان جزيرة الفيل ، مكانها الآن المنطقة التى يمر فيها شارع شبرا من الجنوب الى الشمال ، وكان يحدها وقت أن كانت فى وسط الماء ، من الغرب النيل ، حيث يمتد الآن جسر طراد النيل القديم ، وشارع أبى الفرج . ومن الجنوب النيل ، حيث يشير الآن شارع جزيرة بدران وشارع بركات . ومن الشرق والشمال سيالة مياه ، كانت فاصلة فى ذلك الوقت بين هذه الجزيرة وبين أرض الطبالة ، التى تشمل اليوم منطقة محطة كوبرى الليمون والفجالة ، وبركة الرطلى ، وبين أرض البعل ، التى تعرف اليوم بالشرابية ومهمشة ، وبين منية السيرج ، ومنها الى فم ترعة الاسماعيلية »

« وبالاطلاع على خريطة القاهرة ، رسم الحملة الفرنسية سنة ١٨٠٠م ، تبين لى أن المنطقة التى بها الآن قسما شبرا وروض الفرج كانت كلها أرضا زراعية ، ولم يكن فيها من المبانى فى ذلك الوقت الا قرية صغيرة باسم جزيرة بدران ، قائمة فى مكان البلدة التى أنشئت فى جزيرة الفيل فى أيام الملك المنصور قلاوون » (١)

---

(١) النجوم الزاهرة ج ٧ ص ٣٠٩ حاشية رقم ٣

- ٣ -

السلاطين البناءون

حكم مصر من المماليك البحرية أربعة وعشرون سلطانا ، تميز أربعة منهم بعظيم ما شيدوه من مبان ، حتى استحقوا أن يلقبوا بالسلاطين البنائين وهم :

السلطان الظاهر :

هو السلطان الظاهر ، ركن الدنيا والدين ، بيبرس البندقدارى الصالحى ، واليه ينسب حى الظاهر ، أحد أحياء القاهرة

كان مملوكا للصالح نجم الدين أيوب ، وما زال يترقى حتى وثب الى عرش مصر سنة ٦٥٨ هـ (١٢٦٠ م) ، وظل يحكمها الى حين وفاته سنة ٦٧٦ هـ (١٢٧٧ م)

ويعتبر الظاهر المنشىء الحقيقى لدولة المماليك البحرية ، ومثبت أركانها . لم يكتف بأن تكون القاهرة عاصمة سلطنته ، بل جعل منها مقر الخلافة الاسلامية ، وذلك بأن استدعى أحد أولاد الخلفاء العباسيين الذين هجروا بغداد ، بعد أن هدمها المغول سنة ٦٥٦ هـ (١٢٥٨ م) ، ونادى به خليفة للمسلمين ، وأسكنه القلعة ، ثم استمد منه حكم مصر . وبذلك أضفى على نفسه صفة الشرعية والقانون فى حكم البلاد ، فأمن مكايد المماليك ، وتحامى غدرهم . ولم يكتف بهذا بل وطد علاقاته بكثير من ملوك الشرق والغرب ، ووثق صلاته السياسية والاقتصادية بكثير من الدول

منشآت الظاهر :

وشيد كثيرا من المباني . من ذلك : مدرسة أنشأها سنة ٦٦٠ هـ (١٢٦١ م) بجوار تربة سيده الصالح نجم الدين أيوب ، بشارع بين القصرين ، وقد تهدمت بسبب فتح شارع بيت القاضى . كذلك بنى فى

شمال القاهرة قناطر أبى المنَجّا ، ومثلها بالقرب من محطة اللد على خط القنطرة فلسطين. ولاتزال بقية من عقود قناطر أبى المَنَجّا باقية حتى اليوم. وشيد مساجد كثيرة بالقاهرة وحلب وبصرى ودمشق والرملة . ولكن أهمها جميعا جامعه العظيم الموجود بميدان الظاهر

وشيد أيضا قنطرة السباع (١) ، ونصب عليها سباعا من الحجارة لأن رنكه « شعاره » كان على شكل سبع . ومن هنا جاءت تسميتها بهذا الاسم . وكانت موجودة على الخليج المصرى ، وكانت تعرف أيضا باسم قنطرة السيدة زينب . ولقد اختفت هذه القناطر بعد ردم الجزء الأوسط من الخليج ، تحت ميدان السيدة زينب . وقد كانت هذه القناطر تتكون من قنطرتين : احداهما توصل بين شارعى الكومى والسد ، والثانية بين شارع الكومى ومراسينا

جامع الظاهر

بدىء فى بناء هذا المسجد سنة ٦٦٥ هـ (١٢٦٦ م) . وكان الفراغ منه سنة ٦٦٧ هـ (١٢٦٨ — ١٢٦٩م) . وطوله ١٠٨ مترا ، وعرضه ١٠٥ مترا. ويتكون من صحن يحيط به أربعة أواوين : القبلى ويتكون من ستة أروقة . وكل من الايوانين الشرقى والغربى ويتكون من ثلاثة أروقة . أما الايوان البحرى فيتكون من رواقين . وجميع عقود الجامع محمولة على أعمدة من رخام ، ما عدا عقوده المشرفة على الصحن ، وعقود الرواق الثالث فمحمولة على أكتاف

وواجهات الجامع الأربع مبنية بالحجر . أما من الداخل فالبناء جميعه بالآجر . والقبة الموجودة أعلى المحراب مربعة ، طول ضلعها عشرون مترا ، بنيت على مثال قبة الامام الشافعى ، وهى أكبر قبة أقيمت فوق محراب .

(١) النجوم الزاهرة ج ٤ ص ٣٩ حاشية رقم ٣

وتمتاز عن غيرها من القباب بأنها محمولة على حجرة وليست على دعائم أو أعمدة .

وتمتاز عمارة هذا الجامع بميزات لم يسبقه اليها جامع آخر . من ذلك الأبراج الأربعة القائمة فوق نواصى الجامع . ثم الدعائم القائمة خارج واجهتيه الشرقية والغربية ، والأبواب الثلاثة البارزة ، ولم توجد قبل ذلك الا فى باب جامع الحاكم ، واستعمال مداميك الحجر الأبيض والأحمر على التوالى

وقد كان هذا الجامع حافلاً من الداخل بالزخارف الجصية والرخام الملون بالوزرات . والبقايا المخلفة من الشبابيك الداخلية والكتابات الكوفية المحيطة بها وبالقبلة تدل على ما كان عليه من فخامة وبهاء

وقد هدم الفرنسيون ، فى أثناء احتلالهم مصر ، المنارة التى كانت تعلو الباب البحرى ، كما هدموا مآذن ومساجد وبنايات أخرى بالقاهرة ، وسكنه بعض جنودهم ، فتخرب كثير من أجزائه . وحوله محمد على الى مصنع للصابون . ثم انتهك الانجليز حرمته فى الحرب الأوربية الأولى ، فأحالوه الى مذبح ، ثم استعادته لجنة حفظ الآثار العربية سنة ١٩١٨ م . فرممت بعض أجزائه

السلطان قلاوون :

هو الملك المنصور سيف الدين أبو المعالى قلاوون . تولى عرش مصر سنة ٦٧٨ هـ (١٢٧٦ م) ، بعد أن عزل سلامس بن الظاهر بيبرس ، الذى كان قلاوون يقوم بالوصاية عليه. وهو أيضا من مماليك الصالح نجم الدين أيوب ، اشتراه بألف دينار ، لذا كان يلقب بالألفى. وأخذ يتقلب فى المناصب العليا حتى ظفر بحكم مصر . ويعتبر المنشىء الثانى لدولة المماليك البحرية ، فقد ظل الحكم فى بيته نحوا من مائة عام

وقد كان قلاوون أعظم شخصية بين المماليك بعد بيبرس ، وقد ترسم خطى الأخير فى ربط مصر بما جاورها من الدول ، بصلات الود والصداقة ، كما يعزى اليه فضل صد المغول عن العالم الاسلامى ، فى الزحف الثانى الذى قام به أبغا وأخوه منكوتمر على الشام . فهزمهم قلاوون هزيمة ساحقة فى حمص فى سنة ٦٨١ هـ (١٢٨٢ م)

وهو من أربعة السلاطين العظام ، الذين زينوا القاهرة بمنشآتهم الضخمة ، ومبانيهم العظيمة ، التى ما تزال قائمة حتى اليوم ، تشهد بعظيم همتهم ، وقوى شكيمتهم ، ورفيع ذوقهم

منشآت قلاوون :

فقد أنشأ فى شارع بين القصرين ، تجاه تربة سيده الصالح نجم الدين أيوب مجموعة عظيمة من المبانى ، تتألف من مارستان « مستشفى » ومدرسة وتربة ، غلب عليها اسم مارستان قلاوون

المارستان :

مرض قلاوون ذات مرة ، فى احدى غزواته بالشام ، فعولج بأدوية استحضرت له من مارستان نور الدين بدمشق . فنذر أن ينشىء مارستانا فى مصر كمارستان نور الدين ، لعلاج المرضى من جميع الأديان والأجناس. فلما آل اليه عرش مصر وفّى بنذره ، وأنشأ هذا المارستان ، وزاد عليه مدرسة وقبة يدفن فيها ، وحرص على أن يقيم هذه المنشأة تجاه قبر سيده الصالح نجم الدين أيوب ، ومدرسة سلفه الظاهر بيبرس ، الملاصقة لقبر الصالح

وتنفيذا لخطته ، استولى على قصر الأميرة مؤنسة القطبية الأيوبية ، وكان يقع فى المكان الذى تخيره لانشاء المارستان عليه ، وعوضها عنه بقصر الزمرد ، برحبة العيد ، مع مبلغ كبير من المال . وعهد الى الأمير علم

الدين سنجر الشجاعى أن يشرف على بنائه ، فحشد خلقا كثيرا من الأسرى والصناع والمماليك ، وأنجز بناء هذه المجموعة الضخمة من المبانى فيما لايزيد على عامين ، وهى مدة لا يعقل أن يتم فيها مثل هذا العمل الضخم ، الا اذا سخر فيه الناس ليل نهار ، وسامهم البطش وسوء العذاب . يؤيد ذلك ما حكى عنه أنه أوقف مماليكه بشارع بين القصرين ، فكانوا اذا مر أحد ، مهما عظم قدره ، ألزموه أن ينقل حجرا الى محل العمل ، حتى اضطر الناس الى تجنب المرور من هـذا الشارع . ولم يكتف قلاوون بذلك ، بل انه أمر بهدم قلعة الصالح نجم الدين بالروضة ، ونقل أعمدتها الضخمة ، ورخامها البديع ليـدخلها فى عمارة المارسـتان . وبهذا تنكر لسيده . ومن الغريب أنه مع ذلك يحرص على بناء مارستانه وتربته تجاه تربة الصالح ، ثم يصادر الناس فى ممتلكاتهم

فهذا المارستان يقع فى شـارع ما بين القصرين ، ولم يبق منه الآن غير جزءين من القاعتين الشرقية والغربيـة ، وجانب كبير من القاعة القبلية . ويشغل مساحة كبيرة منه فى الوقت الحالى مستشفى قلاوون للرمد ، ويذكر المؤرخون انه كان مكونا من جملة أجنحة ، يختص كل جناح منها بعلاج مرض من الأمراض ، وانه كانت تشرف عليه هيئة طبية منظمة ، كما كانت توجد به غرفة للمطالعة ، ومعامل كيميائية ، وصيدلية ، وحمامات ، ومطبخ. وبوجه عام توفرت فيه جميع معدات المستشفيات المعروفة وقتذاك . بل وكانت توجد جوقة موسيقية تخفف من آلام المرضى . بما تعزفه لهم من ألحان . وبجانب ذلك كان خمسون من القراء يرتلون القرآن الكريم. وكان هناك أمين للمكتبة يساعده أتباعه فى مناولة الكتب الطبية والمدنية وغيرها لمن يرغبون فى المطالعة. وفوق هذا كان هناك مكتب لتعليم القراءة والكتابة لعدد من أطفال المسلمين اليتامى

وينقسم البناء الى قسمين : قبلى وهو واجهة المدرسة ، وبحرى وهو

واجهة التربة التى تعلوها القبة، وتوجد المئذنة فى نهاية القسم البحرى، وهى مكونة من ثلاثة أدوار: الأسفل والأوسط منها مربعان، والثالث مستدير، وقد جدده الناصر محمد بن قلاوون سنة ٧٠٣ هـ (١٣٠٣ — ١٣٠٤ م)، عقب زلزال هدم هذا الجزء

وبين هذين القسمين يوجد الباب الرئيسى المحلى بالرخام، وضلفتاه مكسوتان بالنحاس، المقسم تقسيما هندسيا بديعا، ويؤدى الى دهليز طويل. وللقبة بابان مفتوحان على الدهليز، يدخل من أولهما اليها مباشرة، ومن الثانى الى البهو الذى أمامها

وتكون الواجهة فى مجموعها منظرا من أروع مناظر العمارة الاسلامية بالقاهرة، فحناياها المحمولة على عمد رخامية تحتضن شبابيك ذات أشكال هندسية بديعة. ويحلى الواجهة جميعا طراز مشحون بآيات قرآنية، وغيرها من الكتابات المثبتة لتاريخ البناء (١)

القبة :

ويعلو تربة السلطان قلاوون قبة محمولة على أربعة أكتاف، وهى مربعة الشكل، ذات أسفال مكسوة بالفسيفساء البديعة، ويتوسط هذه الأكتاف أربعة أزواج من الأعمدة الجرانيتية، تيجانها مذهبة، وتحمل ثمانية عقود. وهذه تحمل رقبة القبة، المنشأة حديثا، والسقف الخشبى المذهب حولها

والجدران مكسوة بفسيفساء الرخام الدقيقة، وكذلك المحراب تزينه ثلاث حطات من الفسيفساء البديعة، والشبابيك ملونة بألوان براقة جميلة. ويتوسط القبة التربة، وقد دفن بها المنصور قلاوون، وابنه الناصر محمد، وعليها تابوب من الخشب البديع. وحول المدخل الغربى للقبة زخارف جصية هندسية مورقة، مصنوعة باليد، تسترعى كثيرا من الاعجاب

---

(١) الدليل الموجز ص ١٠٢ — ١٠٧

المدرسة :

وامام القبة وقاعتها توجد المدرسة بمحرابها البـــديع ، وبقايا زخارفها الجصية المتقنة. وقد أعيد اصلاح ايوانها الشرقى، ولم تصلح بعدالأواوين الأخرى (١)

ويوجد بقسم من واجهة المدرسة سبيل صغير ، أنشأه الناصر محمد بن قلاوون على روح والده ، يرجح المرحوم الأستاذ محمود أحمد انشاءه سنة ٧٠٣ هـ (١٣٠٣ م) (٢)

السلطان الناصر محمد بن قلاوون :

توفى السلطان قلاوون فى ٥ ذى القعدة سنة ٦٨٩ (١٠ نوفمبر سنة ١٢٩٠) وهو فى السبعين من عمره ، وخلفه على العرش ابنه الأشرف خليل، وأهم أعماله هدمه حصن عكا ، آخر معقل للصليبيين فى الشام ، فطويت بذلك صفحتهم ، بعد أن ظلت منشورة قرنين من الزمان ، ارتكبوا خلالهما كثيرا من الشرور والآثام ، وكانوا شوكة فى جنب مصر . غير أنه لم يعمر طويلا ، اذ توفى فى المحرم سنة ٦٩٣ هـ (ديسمبر سنة ١٢٩٣) ، فخلفه أخوه الناصر محمد

حكم السلطان الناصر محمد أربعة وأربعين عاما وبضعة شهور . ولكن لم تكن مدة حكمه متصلة ، اذ عزل عن العرش مرتين :

الأولى : فى المحرم سنة ٦٩٤ (نوفمبر سنة ١٢٩٤) فتولى الملك السلطان الملك العادل زين الدين كتبغا . فعزل هذا أيضا وتولى مكانه حسام الدين لاجين ــ المحرم سنة ٦٩٦ (اكتوبر سنة ١٢٩٦) ــ ثم قتل لاجين فى ٦ جمادى الأولى سنة ٦٩٨ هـ (فبراير سنة ١٢٩٩) ، فأعيد الناصر محمد الى العرش

---

(١) دليل موجز لاشهر الآثار العربية بالقــــاهرة لمحمود احمد ص ١٠٥ ــ ١٠٦
(٢) المصدر السابق ص ١٠٧

الثانية : وبقى الناصر محمد فى دست الملك عشر سنين وخمسة أشهر وستة عشر يوما ، ثم اعتزله وسافر الى الكرك ، فانتخب ركن الدين بيبرس الجاشنكير سلطانا . غير أن مدة حكمه لم تطل عن عام واحد . ثم أعيد الناصر محمد الى العرش للمرة الثالثة ، وبقى به الى أن توفى فى ذى الحجة سنة ٧٤١ (مارس سنة ١٣١٠)

ومع ذلك فيعتبر عصر الناصر محمد بن قلاوون من أزهى عصور العمارة الاسلامية ، لكثرة ما شيد فيه من مساجد ومدارس وقصور ، وانتشار طراز ثابت للواجهات ، تكثر بها الحنايا ، وتنتظم صفا واحدا ، وتحليها المقرنصات

اهم المنشآت فى عصر الناصر :

وأهم ما أنشىء فى عصر الناصر : مدرسة بالنحاسين ، والمدرسة الجاولية بشارع مراسينا ، وخانقاه بيبرس الجاشنكير بالجمالية ، وتربة حسن صدقه ، ومسجد الناصر محمد بالقلعة ، وسراى بشتاك بشارع بين القصرين ، وجامع الماردانى بالدرب الأحمر

ويضيق المقام عن وصف هذه المساجد جميعا . لذلك نقصر الكلام على أهمها :

مدرسة الناصر محمد بشارع بين القصرين :

وهى ملاصقة لقبة السلطان قلاوون ، بشارع المعز لدين الله ، وبدأ فى انشائها السلطان الملك العادل زين الدين كتبغا المنصورى ، فوضع أساسها ، وارتفع بنائها الى الطراز المكتوب بواجهتها ، وذلك فى سنة ٦٩٥ هـ (١٢٩٥ م) ، ثم خلع من الملك قبل اتمامها . فلما عاد السلطان الملك الناصر محمد الى ملك مصر للمرة الثانية ، اشترى هذه المدرسة ، وبنى بها قبة ، فكملت فى سنة ٧٠٣ هـ (١٣٠٣ م) ، وعين بها المدرسين للمذاهب الأربعة ، وألحق بها مكتبة حافلة ، ثم نقل الى القبة رفات

والدته ، كما دفن بها ابنه أنوك المتوفى فى ١٧ ربيع الأول سنة ٧٤١ هـ (١٣٤١ م) ولم يبق منها سوى الايوان الشرقى ، وبه محراب جصى نادر المثال ، والايوان الغربى ، وبه شباك من الجص غاية فى الدقة

ولهذه المدرسة واجهة جميلة ، حافلة بالزخارف ، والكتابات الكثيرة . وتوجد المنارة فوق الباب ، وهى موشـاة بالزخارف الجصيـة الدقيقة . ويوجد بداخل القبة طراز من الخشب المنقوش يحيط بجدرانها ، وبين القبة والمسجد طرقة بها سقف من الخشب مزين بالزخارف والألوان المذهبة

مسجد الناصر بالقلعة :

أنشأه الناصر سنة ٧١٨ هـ (١٣١٨ م) ، وأعاد بنـاءه سنة ٧٣٥ هـ (١٣٣٤ م) . وهو من الجوامع الكبيرة . وقد خالف فى تخطيطه نظام الأواوين المتعامدة ، الذى كان سائدا فى عصر المماليك . وأقيم على النظام القديم من أربعة أواوين تحيط بالصحن المكشوف . وأكبر تلك الأواوين ايوان القبلة . ويوجد أمام محراب هذا المسجد قبة كبيرة حملت على أعمدة ضخمة من الجرانيت الأحمر

ويحيط بالجامع من أعلاه نوافذ كانت مغطـاة من الداخل والخـارج بشبابيك من الجص . وكانت الجدران مغطاة بوزرة من الرخام الى ارتفاع خمسة أمتار ونصف ، كما كانت أرضه مفروشـة بالرخام أيضـا . وله مئذنتان وبابان : أحدهما غربى ، تجاوره المئذنة الأولى ، وهى اسطوانية الشكل. والباب الآخر بالواجهة البحرية ، وفى نهايتها المئذنة الثانية ، وهى مربعة القاعدة . ويغطى القاشانى قمة المئذنة الأولى ، كما يغطى الدورة الثالثة للمئذنة الثانية

قنطرة سنقر على الخليج الكبير :

وأنشأ الأمير«آق سنقر شاد العمائر السلطانية» فى أيام الملك الناصر محمد ابن قلاوون قنطرة سنقر، وكانت موجودة على الخليج الكبير ، تجاه مدخل شارع قنطرة سنقر ، الموصل الى شارع درب الحجر ، بالقاهرة

وتولى السلطان حسن بن الناصر محمد بن المنصور قلاوون حكم مصر فى ١٤ رمضان سنة ٧٤٨ (١٨ ديسمبر سنة ١٣٤٧) بعد أخيه المظفر حاجى ، وكان عمره وقتئذ ثلاث عشرة سنة . فقام بالوصاية عليه الأمير شيخون العمرى ، ولم يمنعه ذلك من أن يزاول الحكم بنفسه ، فاستبد ، وبالغ فى أسباب الطمع ، واستولى على أملاك بيت المال ، فاعتقل سنة ٧٥٢ هـ (١٣٥١ م) ، فخلفه أخوه الصالح صلاح الدين صالح ، ثم أعيد الى الملك ثانية سنة ٧٥٥ هـ (١٣٥٤ م) ، وظل متربعا فى دست السلطنة ست سنين وسبعة أشهر الى أن قتل

مسجد او مدرسة السلطان حسن :

يقع هذا المسجد بميدان صلاح الدين ، تجاه القلعة ، فى الجهة الغربية البحرية منها ، أنشأه السلطان الناصر حسن بن الناصر محمد بن المنصور قلاوون . وقد بدأ فى انشائه سنة ٧٥٧ هـ (١٣٥٦ م) ، واستمر العمل به لحين وفاته فى جمادى الأولى سنة ٧٦٢ هـ (١٣٦١ م)

حدوده وابعاده :

وتبلغ مساحة هذا المسجد ٧٩٠٦ مترا ، وطوله ١٥٠ مترا وعرضه ٦٨ مترا ، وارتفاعه عند بابه ٣٧٫٧٠ مترا ، وواجهته البحرية ، وهى الواجهة الأصلية ، مشرفة على شارع القلعة « شارع محمد على سابقا » ، وواجهتاه الجنوبية والشرقية مشرفتان على ميدان صلاح الدين. ومن الصعب تحديد شكله ، لأن فى وضعه بعض الازورار . ويمكن أن يوصف بأنه كثير الأضلاع ، ممتد من الشمال الغربى الى الجنوب الشرقى (١)

والقادم نحو هذا المسجد يأخذه العجب من جدرانه العالية الضخمة ، والافريز الذى يتوجها ، وما تمتاز به من زخارف معمارية تشبه خلايا النحل ، وتخدع النظر ، فتبدو الجدران أعلى مما هى فى الحقيقة . ويرى

(١) دليل موجز لمحمود احمد ص ١٣٧

المشاهد فى واجهات الجامع ، ما عدا تلك التى تطل على القلعة ، تجاويف فى الحيطان عمودية طويلة ضيقة ، وقد هيئت النوافذ فيها على ثمان طبقات

تخطيط المسجد :

وتخطيط هذا المسجد متفق مع الطراز المملوكى ، ذى أربعة الأواوين المتعامدة ، التى يتوسطها الصحن ، فتكون معه مايشبه الصليب Cruciform فهو مكون من صحن مكشوف مساحته ٣٢ × ٢٤٫٦٠ مترا مربعا ، تتوسطه ميضأة ، تعلوها قبة ، محمولة على ثمانية أعمدة من الرخام . ويقطع الصحن محوران متعامدان ، فى نهاية كل منهما ايوان ، وفى كل زاوية من زوايا الأواوين الأربعة ، باب يوصل الى احدى المدارس الأربع ، المخصصة لدراسة المذاهب الاسلامية الأربعة وهى : الشافعى والمالكى والحنفى والحنبلى . وأكبر هذه المدارس مدرسة الحنفية ، اذ تبلغ مساحتها ٨٩٨ مترا مربعا

وأكبر الأواوين الايوان الشرقى ، وجدرانه مكسوة بالرخام والأحجار الفاخرة الملونة ، يحيط به اطار جصى ، مكتوب به آيات من سورة الفتح ، بالخط الكوفى المزهر ، وسقفه معقود عقدا ستينيا ، ومبنى بالآجر ، ماعدا مبدأه من جهة الصحن ، فانه بالحجر ، وهو أكبر عقد مبنى على ايوان بمصر ، ويقال انه أكبر من ايوان كسرى الذى هو بالمدائن فى العراق (١)

وفى هذا الايوان دكة من الرخام ، وفى وسط واجهته الشرقية المحراب المجوف ، وتزينه قطع من النقوش الذهبيـة والرخام المطعم ، وعلى يمينه محراب من الرخام الأبيض . وبابه من الخشب المصفح بالنحاس فى زخارف من أشكال متعدده الأضلاع ، مرتبة فى أوضاع نجمية . وعلى جانبى القبلة بابان يوصلان الى تربة السلطان ، وتعلوها قبة عظيمة ، وجميـع جدرانها مكسوة بالرخام الفاخر الملون بارتفاع ثمانية أمتار ، وفوق ذلك شريط من خشب عرضه ثلاثة أمتار ، محلى بكتابة بالخط النسخ مؤرخة

---

(١) المصدر السابق ص ١٣٨

بسنة ٧٦٤ هـ (وتقابل سنة ١٣٦٢ ـ ٦٣ ميلادية) ، والمقرنصات التى فى زوايا القبة الأربع تعتبر من أجمل وأغرب ما صنع من نوعها . ومعلوم ان السلطان لم يدفن فيها ، لأنه قتل ولم يعثر لجثته على أثر

والمدخل مكون من ثلاثة أواوين ، ويوجد على يسارها الى الجهة الشرقية طريق مستطيل ، يصعد اليه بسلم ذى سبع درجات ، ثم ينثنى فيه الداخل الى الجهة الشرقية القبلية ، فيصل الى صحن المسجد

وبالواجهة القبلية الشرقية توجد المئذنتان العظيمتان ويبلغ ارتفاع الكبرى منهما ٨١٫٦٠ مترا (١)

وظاهر أن هذا المسجد أضخم مساجد مصر عمارة ، وأعلاها بنيانا ، وأكثرها فخامة ، وأحسنها شكلا ، وأجمعها لمحاسن العمارة ، وأدلها على عظيم الهمة . وان المرء ليحار من كثرة ما أنفق على بنائه ، ولا عجب اذا قيل أن بناءه كان يكلف منشئه فى اليوم الواحد ألف دينار

وقد كانت تتدلى من أسقف أواوين هذا الجامع مصابيح زجاجية « مشكاوات » مموهة بالمينا ، وتنانير نحاسية ، مصنوعة من النحاس المفرغ ، والمكفت بالذهب والفضة ، ومحفوظة جميعها اليوم بالمتحف الاسلامى بالقاهرة

وقال الأستاذ جاستون فييت ، المدير السابق للمتحف الاسلامى بالقاهرة فى مقال له عن هذا الجامع : « انه لأبدع آثار القاهرة ، وأكثرها تجانسا وتماسكا وكمال وحدة ، وأجدرها بأن يقوم بجانب تلك الآثار المدهشة ، التى خلفتها مدنية الفراعنة » (٢) وقد كشف الأستاذ حسن عبد الوهاب فى نوفمبر سنة ١٩٤٤ عن مهندس هذا المسجد ـ واسمه « محمد بن بيليك » (٣) ـ مكتوبا فى الطراز الجصى بالمدرسة الحنفية

---

(١) انظر دليل موجز لاشهر الآثار العربية بالقاهرة لمحمود احمد

(٢) الاستاذ جاستون فييت : من مقال له فى وصف جامع السلطان حسن نشر فى مجلة La Revue du Caire ونقله الى العربية الاستاذ محمد وهبى ، ونشر فى مجلة المقتطف عدد ديسمبر سنة ١٩٣٨

(٣) تاريخ المساجد الاثرية ص ١٧٦ ـ ١٨١

— ٤ —

القاهرة فى عهد المماليك البرجية

قامت بعد دولة المماليك البحرية ، دولة المماليك البرجية ، ويسمون أيضا بالشراكسة ، لأن معظمهم كانوا من الشراكسة ، الذين اشتراهم قلاوون ، أحد المماليك البحرية ، وأسكنهم أبراج القلعة ، لذا سمّوا بالبرجية . وقد حكموا مصر من سنة ٧٨٤ هـ الى سنة ٩٢٣ هـ (من سنة ١٣٨٢ الى سنة ١٥١٧م) وكان عددهم ٢٣ سلطانا ، وجميعهم من الشراكسة كما قدمنا ، ما عدا اثنين هما خوشقدم وتمورينا ، فقد كانا روميين . أما المماليك البحرية فقد كانوا من التركستان ، وقد أجلاهم التتار عن بلادهم عند غزوهم لغرب آسيا

حذا المماليك الشراكسة حذو المماليك البحرية فى مد حدود القاهرة من ناحية الشمال ، وساروا بها شوطا بعيدا صوب الشمال الشرقى ، وعمروا صحراء الريدانية (العباسية) . وامتدت أبنيتهم مسافات بعيدة فى تلك الصحراء حتى وصلت الى ما يعرف الآن بكوبرى القبة ، حيث شيد الأمير يشبك الداوادار ، أحد أمراء الأشرف قايتباى قبة جميلة بكوبرى القبة ، والى جهة الخانقاه ، حيث شيد الأشرف برسباى جامعا

وقد استمر تقدم فن العمارة فى عهدهم ، وشيد كثير من سلاطينهم الأبنية الفخمة ، وأدخلوا كثيرا من التعديلات على هندسة العمارة ، فتميزت بميزات صارت علما على فن العمارة فى عهدهم . من ذلك : تغطية بعض صحون المدارس بعد أن كانت عارية ، وزخرفة بعض المآذن والقباب بالفسيفساء والقاشانى والرخام . وانتهاء بعض المآذن برأسين والبعض الآخر بأربعة رءوس

ونتنقى من آثار هذه الدولة ، على سبيل المثال ، وليس على سـبيل الحصر ، ما يأتى :

مسجد السلطان برقوق بالنحاسين :

الملك الظاهر أبوسعيد برقوق ، أول ملوك الجراكسة . كان مملوكا للأتابك يلبغا ، فأعتقه ، وظل يتقلب فى الوظائف الكبرى حتى ولى أمر مصر سنة ٧٨٤ هـ (١٣٨٢ م) ، وبقى على عرش مصر الى أن توفى سنة ٨٠١ هـ (١٣٩٩ م)

وقد أنشأ فى الجهة البحرية لمدرسة الناصر محمد بن قلاوون هذا المسجد سنة ٧٨٦ هـ (١٣٨٤ م) ، فصارت الواجهتان تكونان مجموعة من أجمل المبانى الأثرية منظرا . ولهذا المسجد مئـذنة ضخمة ، متناسبة الأبعاد ، طعمت دورتها الوسطى بقطع متماثلة من الرخام ، وتعد الأولى من نوعها من المآذن ، وتوجد فى الطرف البحرى للواجهة الشرقية ، المشرفة على شارع بين القصرين

وللباب العمومى لهذا المسجد ضلفتان من الخشب ، مصفحتان بالنحاس المكفت بالفضة ، ويؤدى الى طرقة ، توصل الى الصحن ، الذى تحيط به أربعة أواوين متعامدة ، أكبرها ايوان القبلة . وينقسم هذا الايوان الى ثلاثة أروقة ، أكبرها الرواق الأوسط ، وجميعها مسقوفة بأسقف خشبية مموهـة بالذهب . والمحراب مكسـو بالرخام المختلف الألوان والمحلى بفصوص من الصدف . أما الاواوين الثلاثة الأخرى فمسقوفة بقبوات حجرية . وفى وسط الصحن فسقية ، تعلوها قبة محمولة على ثمانية أعمدة رفيعة من الرخام . أما أرضية الصحن نفسه فمفروشة بترابيع من الرخام الأبيض

وبالركن البحرى الشرقى للصحن باب يؤدى الى التربة ، وتعلوها قبة ذات أركان مقرنصة . ومما يستوقف النظر فى هذه التربة الوزرة الرخامية

المنتهية بطراز مكتوب بالذهب ، يتضمن تاريخ انشاء المدرسة . وقد بنى برقوق لنفسه تربة أخرى بجبانة المماليك دفن فيها

ومهندس هذا المسجد معروف ، بخلاف كثير من المساجد والمبانى الأخرى ، واسمه شهاب الدين أحمد بن الطولونى

تربة برقوق بمقابر المماليك :

أنشأها السلطان برقوق سنة ٨٠١–٨١٣هـ (١٣٩٨–١٤١١م) بالقرافة الشرقية، وهى فى الواقع عبارة عن مدرسة تدرس فيها العلوم الشرعية، ومسجد للصلاة ، وخانقاه فخمة للصوفية ، جمعها السلطان برقوق فى صعيد واحد ، لذلك جاءت أضخم تربة وجدت فى جميع جبانات مصر والقاهرة . هذا بالاضافة الى اشتمالها على ميزات معمارية لا نظير لها فى سواها . فلا عجب أن يستغرق بناؤها حوالى اثنى عشر عاما. وقد أراد برقوق أن تكون هذه التربة نواة لمدينة عامرة ، تحيط بها الأسواق والخانات والحمامات

والواجهة الغربية متماثلة الأجزاء ، ففى طرفيها البحرى والقبلى سبيلان، يعلوهما مكتبان ، وتقوم على يمين المكتب البحرى وعلى يسار المكتب القبلى مئذنتان رشيقتان ، تزيدان هذه الواجهة جمالا

ويحيط بالصحن أربعة أواوين : الايوان البحرى والقبلى ، وهما متساويان ، وكلاهما مكون من رواق واحد ، وفوقهما خلوات وحجرات ومرافق ، يتوصل اليها من سلالم بالصحن والطرقات. أما الايوان الشرقى فأكبر من الغربى ، ومكون من ثلاثة أروقة ، يكتنفه من طرفيه قبتان كبيرتان مركب على بابهما حجابان من قطع الخشب تكون أشكالا هندسية منتظمة ، وسقوف الاواوين الأربعة مغطاة بقبوات نصف كرية مبنية بالآجر، ومحمولة على عقود مرفوعة مدببة ، وأطرافها متكئة على أكتاف من الحجر، قواعدها وتيجانها مربعة ، أما أبدانها فثمانية

والمنبر من الحجر المحلى بالزخارف الهندسية ، وقد أنشأه والدكة

الخشبية السلطان قايتباى سنة ٨٨٨ هـ (١٤٨٣ م) (١)

جامع المؤيد :

كان أبو النصر شيخ المحمودى مملوكا اشتراه برقوق من نخاس شركسى بثلاثة آلاف دينار ، فارتقى سريعا من مملوك فى القصر الى أمير الحج ، فأمير على ألف ، ثم حاكم على طرابلس. ثم اشترك فى قتل فرج بن برقوق، وشق طريقه الى عرش مصر، وتلقب بالملك المؤيد أبو النصر شيخ المحمودى، وكان ذلك سنة ٨٠٥ هـ (١٤١٢ م) ، وظل يحكم مصر الى حين وفاته فى المحرم سنة ٨٢٤ هـ (يناير سنة ١٤٢١)

والمحمودى نسبة الى النخاس محمود اليزدى ، الذى باعه الى برقوق. ومما يتصف به المؤيد انه كان شاعرا وموسيقيا ، وانه كان ورعا محبا للعلم ، يعاون طلابه ، ويشجعهم بالمال

وهذا الجامع من الجوامع الكبيرة ، أنشأه سنة ٨١٨ — ٨٢٣ هـ (١٤٠٥ — ١٤١٠ م) بجوار باب زويله . ومدخله موجود فى الطرف البحرى للواجهة الشرقية . والباب المركب عليه مكسو بالنحاس المحلى بزخارف هندسية بديعة . وكان قبل ذلك مركبا على باب مسجد السلطان حسن ، واسمه منقوش عليه ، وما يزال يرى حتى الآن فى هذا الوضع

وقد تهدمت ثلاثة من أواوين هذا المسجد . ولم يبق سوى الايوان الشرقى ، وجزء من جدرانه مكسو بوزرة من الرخام ، المختلف الألوان . وبجوار المحراب منبر ، حشواته المجمعة على هيئة أشكال هندسية مطعمة بالسن . والسقف محمول على أعمدة من رخام ، وكله محلى بنقوش زخرفية بديعة

ومنارتا هذا الجامع قائمتان على بدنتى باب زويله . وبأعلى الواجهة الشرقية يوجد افريز من الآيات القرآنية

---

(١) دليل موجز لاشهر الآثار العربية لمحمود احمد ص ١٥٠ — ١٥٣

ينتمي قايتباى الى الأصل الشركسى . اشتراه چقمق بخمسين دينارا . ولما كان فارسا ممتازا تقرب الى البلاط ، وظل يتقلب فى الوظائف الكبرى حتى وصل الى وظيفة « اتابك العسكر » ومنها ارتقى الى عرش السلطنة فى ٣ رجب سنة ٨٧٣ (ديسمبر سنة ١٤٦٧) ، وبقى على العرش حتى وفاته فى ١٧ ذى القعدة سنة ٩٠١ (٢٩ يوليو سنة ١٤٩٦) . ويؤثر عنه أنه كان كثير التنقل بين أنحاء مملكته ، فشيد كثيرا من المساجد والمدارس والمبانى والقلاع ، من ذلك قلعتـه بالاسكندرية التى تحمل اسمه حتى اليوم ، وتربته التى نحن بصددها

وهذه التربة هى فى الواقع مجموعة نادرة من المبانى بديعة التصميم ، متناسقة المبنى ، لذلك يؤمها السائحون لاستجلاء بهجتها ، والاستمتاع بجمال زخارفها ، وتوجد بمقابر المماليك التى سميت خطأ بمقابر الخلفاء . وهى تتكون من مدرسة وملحقاتها ، وتربة ، وسبيل ، وكتّاب ، بدىء فى انشائها سنة ٨٧٧ هـ (١٤٧٢ م) . وتم بناؤها فى رجب سنة ٨٧٩ (نوفمبر سنة ١٤٧٤)

ومدخل هذه المجموعة موجود بالواجهة البحرية ، وقد حُلّى عتبه ومَزره بالرخام الملون والكتابات ، تغطيه مقرنصات منقوشة ، وطاقية ملبسة بالحجرين الأبيض والأحمر (١) . ومركب على المدخل باب مغشى بالنحاس فى الأركان والوسط . وعلى يسار المدخل سبيل يعلوه كتّاب . وعلى يمينه تقوم مئذنة رشيقة ، تعتبر من أجمل المآذن بالقاهرة . كما تعتبر القبة الموجودة فى نهاية الواجهة الشرقية من الجهة القبلية من أجمل القباب أيضا ، اذ أنها مغطاة بزخارف هندسية مزهرة بديعة

والصحن مغطى بسقف ذى (شخشيخة) جميلة ، ويحيط به أربعة أواوين ، البحرى والقبلى صغيران ، وهما متقابلان ، والشرقى أكبر منهما ،

(١) تاريخ المساجد الاثرية للاستاذ حسن عبدالوهاب ج ١ ص ٢٥١

ويتوسط جدران الشرقى محراب يجاوره منبر من الخشب المطعم بالسن المدقوق أية

وبهذا الايوان وباقى المسجد مجموعة كبيرة من الأسقف والشبابيك الجصية ، غاية فى الجمال ودقة الصناعة. وأرضية كل من الأواوين والصحن والقبة ووزرة القبة مغطاة بفسيفساء الرخام الدقيقة (١)

وتقع التربة قبلى الايوان الشرقى مباشرة ، ويتوصل اليها من باب شرقى الباب القبلى . ويجرى داخل القبة وخارجها زخارف بديعة . ويوجد بها كرسى للمصحف الشريف بلغ منتهى الدقة فى زخارفه . وقد دفن بهذه القبة قايتباى وابنه

مسجد (مدرسة الغورى) :

تولى الملك الأشرف قانصوه الغورى فى شوال سنة ٩٠٦ هـ (ابريل سنة ١٥٠١). وهو مملوك چركسى ، خدم قايتباى كغلام وتابع له . وقبل أن يصير « رئيسا لعشرة » كانت سنه تزيد على الأربعين ، وبعد ذلك رقى بسرعة الى قيادة « طرسوس » و « حلب » و « ملطية » . ثم صار « أميرا لألف » ، ثم كبير الأمناء ، ثم رئيس الوزراء . وقد رفض العرش فى أول الأمر ، ولكن الأمراء ألحّوا عليه بقبوله ، بعد أن أقسموا له على الاخلاص فى خدمته ، فقبله أخيرا ، وكانت سنه اذ ذاك ستين عاما

ولما استتب له الأمر ، أولى أعمال الاصلاح كل عنايته ، ولكنه اشتط فى جمع الضرائب ، فلم يفلت منها انسان أقلته أرض مصر ، بل انها تعدت الأحياء الى الأموات ، مما أثار ثائرة الناس ضده . وقد كان بلاطه مضرب الأمثال فى عيشة البذخ والترف التى كان يحياها على حساب الفقراء والمساكين ودافعى الضرائب البؤساء (٢)

---

(١) دليل موجز لاشهر الآثار العربية بالقاهرة لمحمود احمد ص ١٦٤
(٢) تاريخ دولة المماليك فى مصر تأليف وليم موير وترجمة محمود عابدين وسليم حسن ص ١٦٦ - ١٦٧

وقد ابتليت مصر فى أواخر عهده بحادثين عظيمين : أولهما كشف طريق رأس الرجاء الصالح ، وتحول التجارة الشرقية عن مصر والشام اليه [1] ، فكان ذلك ضربة قاصمة أصابت الاقتصاد المصرى ، وأثرت أبلغ الأثر فى رخاء مصر وثرائها ، اللذين كانت تستمدهما من الضرائب التى كانت تجبى على تلك التجارة عند دخولها مصر وخروجها منها . أما الحادث الثانى فهو غزو العثمانيين لمصر ، واستيلاؤهم عليها ، فقضوا بذلك قضاء مبرما على دولة المماليك

ويوجد مسجد الغورى بشارع الغورية ، فى مواجهة منشآت الغورى الأخرى ، وهى « المدفن والخانقــاه والمكتب والمقعد » ، ويفصل بينهما شارع الغورية . وكان انشاؤه عام ٩٠٩ ــ ٩١٠ هـ (١٥٠٣ ــ ١٥٠٤ م) ويتألف من صحن ، يحيط به أربعة أواوين ، أكبرها الايوان الشرقى ، يغطيها جميعا سقف ذو نقوش مموهة بالذهب . وللصحن منور مستطيل ، محاط بدرابزين من الخشب المخروط الجميل ، على قاعدة مقرنصة بديعة . وليس لهذا المنور مثيل . وأرضية الصحن والأواوين مغطاة بالرخام ، المختلف الألوان، البديع الصنع ، كما يكسو الجدران وزرات من الرخام ، الملون البديع

ومدخل هذه المدرســة فى الواجهة الشرقية ، ويقــابل مدخل التربة والخانقاه ، الموجود على الضفة المقابلة من شــارع الغورية . والمدخلان متماثلان فى الارتفاع ، فى كثير من التفاصيل والزخارف ، ويمتازان عن غيرهما بارتقاء شكل الشرافات، وبأن الكسوة الرخامية ، التى تعلو فتحات الشبابيك مكونة من حطتين مزررتين تزريرا دقيقا ، بدلا من حطة واحدة فى غيرها [2]

(١) الواقع ان كشف طريق رأس الرجاء الصالح حدث فى عهد قايتباى سنة ١٤٩٨ م ، وانمـا ظهر اثر هذا الكشف فى عصر الغورى (١٥٠١ ــ ١٥١٦ م) اذ حطم البرتغاليون السفن المصرية فى البحر الاحمر والمحيط الهندى واستولوا على ما بها من بضائع

(٢) دليـل موجز لمحمـود احمـد ص ١٨٢ - ١٨٥

ومما هو جدير بالذكر أن السلطان الغورى قتل تحت سنابك الخيل فى الموقعة التى حدثت بينه وبين السلطان سليم الأول العثمانى، فى مرج دابق بالشام سنة ٩٢٢ هـ (١٥١٦ م) ، ولم يعثر لجثته على أثر . لذلك لم يدفن بتربته المقابلة لهذا المسجد

— ٥ —

الحياة الاجتماعية بالقاهرة فى عصر المماليك

عرفنا أن المماليك كانوا من عناصر تركية وشركشية ورومية ومغولية ، بيعوا فى أسواق الرقيق ، وجلبوا الى مصر حيث استخدمهم الأيوبيون ، فكانوا مادة جيوشهم . وكان منهم كبار موظفيهم ، ورؤساء دولتهم . ولم يكن عسيرا عليهم بعد ذلك أن يقفزوا الى عرش مصر ، ويستولوا على مقاليد الحكم

وكان هؤلاء المماليك يدربون منذ حداثة سنهم على فنون الحرب والقتال ، وأساليب الصيد والفروسية ، وركوب الخيل ، وسائر أنواع الرياضة . وكانوا يتعلمون بالاضافة الى ذلك اللغة العربية والقرآن والدين . وقد نبغ كثير منهم فى الفقه والأدب ، ونظم الشعر والعزف على الآلات الموسيقية . ومع ذلك فقد وجد من بين هؤلاء المماليك من كان أميًّا ، لايعرف القراءة أو الكتابة ، بل يجهل العربية تمام الجهل

ومع أن هؤلاء المماليك كانوا فى الأصل أرقاء ، بيعوا فى أسواق النخاسة ، فيتشرفون بالانتساب الى أسيادهم الذين اشتروهم ، أوالتجار الذين باعوهم، فيلقب الواحد منهم بالصالحى نسبة الى الصالح نجم الدين أيوب ، والمؤيدى نسبة الى المؤيد شيخ المحمودى ، والناصرى نسبة الى الناصر محمد بن قلاوون ، والأشرفى والعلائى وهكذا ، ويلقب بعضهم بالألفى لأنه اشترى بألف دينار ، مع كل ذلك فقد كانوا يتعالون على

المصريين، ويشمخون بأنوفهم ، فلا يخالطونهم، أو يتزوجون منهم . ويرجع ذلك دون شك الى مركب النقص الذى كان يتملكهم ، والى سعيهم لاستكمال هذا النقص عن طريق الكبرياء والغلظة

وكان المجتمع المصرى بناء على ذلك منقسما الى طبقتين رئيسيتين : طبقة الحكام والأسياد ، أصحاب الحول والطول ، الذين كانوا بالأمس أرقاء بيعوا فى أسواق الرقيق والنخاسة ، وطبقة الشعب بفلاحيها وزراعها فى الريف وطوائف عمالها وتجارها فى كبريات المدن وخصوصا فى مصر والقاهرة ، الذين انقلبوا عبيدا ، يستغلهم المماليك لمصلحتهم ورفاهيتهم ، ويسومونهم الخسف وسوء العذاب . ويبتزون أموالهم ، ويمتصون دماءهم، ليعيشوا عيشة البذخ والنعيم

وكان أغلب هؤلاء المماليك غلاظ الأكباد ، شديدى المراس ، أهل مكر وخداع ، يشوب أخلاقهم كثير من الصلف والكبرياء ، لايقيمون للمبادىء والمثل العليا أى وزن . ديدنهم الدس والوقيعة ، وقانونهم الذى يؤمنون به « الحق للقوة » . لذلك لم يكن غريبا أن ينقلب أحدهم على سيّده ، ويقلب له ظهر المجن ، ويكيد له ، ويدس له السم فى الدسم ، أو يقتله شر قتلة ، ويسبى نساءه ، ويغتصب أمواله وكنوزه ، ويجلس على العرش مكانه

وقد كان من المناظر المألوفة لسكان القاهرة أن تنقلب شوارعها وأحياؤها بين عشية وضحاها الى ميدان حرب ، بين أميرين وأنصارهما ، فتقفر من المارة ، ويغلق التجار حوانيتهم ، خشية سلب ما بها من أموال وتجارة ، ويتملك الناس الخوف والفزع ، فيحتمون بأبواب الحارات والمساجد ، أو يقبعون فى بيوتهم الى أن تنجلى الغمة ، وتمر العاصفة ، وخيول الفريقين تروح وتغدو ، وتكر وتفر ، يطارد أحدهما الآخر ، والجثث والأشلاء تتناثر هنا وهناك ، والرماة يتحصنون بأسوار القلعة ، ويتحصن أعداؤهم بأسطح مسجد السلطان حسن المقابل لها ، يتراشقون

بالسهام والنبال . وما يزال سكان القاهرة نهبا للفزع والرعب عدة أيام ، حتى يزول الكرب بهزيمة أحد الفريقين ، وفراره الى الشام ، يجر أذيال الخيبة والفشل . فيعود الى المدينة عازب هدوئها، وسابق سكونها ، ويرجع الناس الى مزاولة أعمالهم ونشاطهم

ويعجب الناس اليوم ، كيف تتفق هذه الشرور ، التى كان يقترفها هؤلاء المماليك وما يقومون به من أعمال الخير والبر وفى مقدمتها بناء المساجد والتكايا والأضرحة والمدارس والكتاتيب وغيرها . اذ الواقع ان ما أنشأه المماليك من المساجد ودور العبادة قد فاق من حيث الكثرة والفخامة ما أنشىء فى جميع العهود الاسلامية. ولكن الأمر لايحتمل شيئا من العجب، اذا عرفنا ان هذه المساجد ودور العبادة انما كان ينشئها المماليك فى كثير من الأحيان تكفيرا عن ذنوبهم ، وتقربا الى الله ، كيما يتجاوز عن سيئاتهم والأمثلة على ذلك كثيرة . ونكتفى بذكر المثل الآتى : فمعلوم أن الأمير حسام الدين لاجين اشترك فى المؤامرة التى انتهت باغتيال الأشرف خليل. فلما خشى انتقام الأشرفية « مماليك الأشرف » ، اتخذ من جامع ابن طولون مخبأ له ، يتوارى فيه عن الأنظار ، وكان حينئذ خرابا لاساكن فيه. ونذر لله ان هو سلم من هذه المحنة ، ومكن له ، ليجددن عمارة هذا الجامع ، ويقفن عليه الأوقاف التى تفى بنفقاته ، وقد خرج من هذه المحنة سالما . ويرجع الفضل فى ذلك الى الأمير زين الدين كتبغا المنصورى ، نائب السلطنة فى ذلك الوقت ، والذى انتهى اليه الملك أخيرا ، وتلقب بالملك العادل . ولكن لاجين ، حائك المؤامرات ، ومدبر الفتن ، لم يحفظ هذه اليد لكتبغا ، ولم يذكر له هذا الفضل ، وتحركت عوامل الحسد والحقد فى صدره ، فانقلب عليه ، وكاد يفتك به ، لولا أن فر كتبغا الى الشام ، فاغتصب لاجين الملك ، وصار سلطانا على مصر . فلما تم له ذلك ، وفى بنذره ، وجدد الجامع ، وما تزال آثار التجديد باقية الى اليوم

وقليل من المماليك من لم تتلطخ يداه بدماء الأبرياء ، ومع ذلك فقد

كانوا يتبارون فى بناء المساجد والتكايا والأضرحة ، ويقومون بكثير من الخيرات والمبرات . غير أن هذه المبرات نفسها كانت تستخدم فى انشائها كثير من أساليب الظلم والعسف ، فالأراضى تغتصب من أصحابها ، والضرائب يثقل بها كواهل الناس من أجلها ، والسخرة والتعذيب والجلد لا معدى عنها ولا مفر للشعب منها . فكيف يتفق ذلك مع أعمال البر والخير !!!

أما الشعب وكان أغلبه من الفلاحين ، الذين يكدون ويكدحون ، فلم يكن هناك من يهتم بأمره الاهتمام اللازم ، أو يعني بشأنه . فقد كانت الأمراض تحصد أفراده حصدا ، لاسيما عندما ينخفض النيل ، وينتشر القحط ، ويعقب ذلك الوباء . هنالك تكون الطامة الكبرى ، التى يرزح تحتها الشعب عدة سنوات ، فتقفر الأرض من الزرع والنبات ، ويقل القوت، ويفتك الجوع بالناس، وتنهكهم الأمراض، فينهد كيانهم ، وتخور قواهم ، ولا يعودون الى سابق نشاطهم وقوتهم الا بعد فوات سنوات عدة

ومن أعجب مايذكر فى هذه المناسبة أن البلاد رزئت فى عهد برسباى ، أحد المماليك الشراكسة بوباء من تلك الأوبئة التى كانت تنتابها بين آن وآخر ، فلم يجد الناس السكر ، وكان الدواء الوحيد الذى يتداوى به المرضى اذ ذاك . ذلك لأن برسباى كان قد احتكر صناعة السكر ، وحرم زراعة القصب ، كى يستنزف من الأرباح أقصى ما يستطيع استنزافه . كما كان قد أصدر أمرا بمنع استيراد التوابل من الهند ، بما فى ذلك الفلفل . وقبل أن ترتفع أثمانها خزن لنفسه كميات كبيرة منها ، ثم باعها لرعاياه بأثمان فاحشة ، فجنى من وراء ذلك أرباحا باهظة . وقد نقص عدد القرى فى عهد برسباى بسبب هذا الوباء من عشرة آلاف قرية الى ألفين ومائة وسبعين قرية ، وذهب ضحية هذا الوباء مائتا ألف نفس ، فى مدى ثلاثة شهور ، فى القاهرة وحدها

والمماليك كغيرهم من العناصر الأجنبيـــة التى حكمت مصر ، لم يكن يهمهم من أمرها ، أو من أمر أهلها شيء بقدر اهتمامهم بانتجاع خيرها ، والاستيلاء على ثروتها . حقيقة أنه وجد من بين المماليك سلاطين أولوا البلاد عناية طيبة ، ونصبوا ميزان العدل ، وعملوا على اسعـــاد العباد ، ولكنهم كانوا قلة اذا قيسوا بمجموع المماليك الذين حكموا مصر قرنين وثلاثة أرباع القرن ، وقد بلغ عددهم ثمانية وأربعين سلطانا ، والذين كانوا يرتعون فى بحبوحة العز ، بينمـــا كان الشعب يرسف فى أغـــلال الجوع والمرض والفقر

كان المماليك يعنون بأشخاصهم وأسرهم وأتباعهم وغلمانهم: يلبسون من الملابس أفخرها ، ويأكلون من الأطعمة أطيبها ، ويسكنون القصـــور الفخمة ، ذات القـــاعات البـــديعة النقوش ، الوثيرة الفراش ، الفسيحة الرحبات ، العالية الأشجار ، الغاليـــة الرياش . وتزين أفنيتها نافورات صنعت من الفسيفساء الرخامية ، الدقيقة الصنع . ويقتنون التحف الغالية ، ويركبون الجياد المطهمة ، ويعيشون عيشة البـــذخ والنعيم ، ويحتفظون فى دورهم بالعدد الوفير من المماليك. فكان لكل أمير رجاله وغلمانه ، يعتد بهم ، ويعتمد عليهم فى ادراك مآربه ، ويرهب بهم عدوه ، ويستعين بهم على الوثوب الى العرش اذا مالاحت بادرة أمل فيه

ومن أمثلة حياة البذخ التى كان يحياها المماليك ما روى عن الناصر محمد بن قلاوون من أنه فى أثناء عودته الى مقر ملكه فى القلعة بالقاهرة ، بعد رحلة قصيرة ، كانت تفرش الأرض تحت قدميه بالبسط والمنسوجات الغالية لمساحة تبلغ أربعة آلاف ذراع . وفى طريقه الى الحج كانت مائدته تزود فى جوف الصحراء بالخضر الطازجة من حديقة متنقلة ، يحملها أربعون جملا . وفى عرس ابنه استنفد ثمانية آلاف قمع من السكر . وذبحت عشرون ألف رأس من الماشية . وأشعلت فى القصر الملكى ثلاث آلاف شمعة. وكان له اسطبل خيل عظيم . وما كان يتردد فى أن يدفع ثلاثة آلاف دينار ثمنـــا

لحصان واحد اذا أعجبه . وبلغ من بذخ برقوق أنه أنشأ بين دمشق والقاهرة محطات لتسهيل نقل الثلج من الشام الى مصر على ظهور الجمال

وكانت القلعة محل اقامة السلطان ، وبها دراوينه وقصره وما يتبعه من أبنية وادارات . ومن أهم الدواوين ديوان الأحباس ويشبه وزارة الأوقاف، وديوان النظر ويشبه وزارة المالية ، وديوان الخاص ، وديوان الانشاء ، وديوان الاهراء « شون الغلال السلطانية » وديوان الطواحين « طواحين الغلال » وديوان المرتجعات « ديوان التركات » . ومن أهم ملحقات قصر السلطان بالقلعة الحوائج خاناه « أو خزانة الفراش » والطبلخانة « أو خزانة الأبواق والطبول » والركاب خاناه « أو الاسطبلات السلطانية »

وقد كان البلاط السلطانى فى عهـد المماليك مليئا بكبار الموظفين : كالحاجب ، ووظيفته ادخال الناس على السلطان، والأستادار، وكان يتولى ادارة البيوت السلطانية ، والداوادار ، وكان يبلغ السلطان الرسـائل ، ويقدم اليه المنشورات للتوقيع عليها ، ورأس نوبة الأمراء ، وكان يتولى الرياسة على أمراء الدولة ومحاكمة المماليك السلطانية . وأمير المجلس ، وكانت مهمته حراسة السلطان داخل قصره ، وأمير السلاح ، وكان يتولى الاشراف على مخازن الأسلحة ، وأميراخور ، وكان يشرف على الخيـل ، وساقى خاص ، وهو حامل كأس السلطان ، وكان كل هؤلاء الموظفين من الأمراء والمماليك ، وليس من بينهم مصرى واحد ، كما كان لأغلب هؤلاء الأمراء أشعرة أو رنوك « مفردها رنك » ، ما زال كثير منها يرى على التحف الخزفية والزجاجية بالمتحف الاسلامى بالقاهرة

وكان المماليك يرتدون المنسوجات الهندية الرفيعة ، وفوقها القفاطين الحريرية المطرزة ، ثم الجبب ذات الفراء الغالية ، والسراويل الواسعة من الجوخ ، والأخفاف «الأحذية» المصنوعة من أجود أنواع الجلد البلغارى، ويتمنطقون بالأحزمة الحريرية ، يثبتون فيها الأسلحة المرصـعة بالياقوت

والزمرد ، ويضعون على رءوسهم عمامات من النسيج الرفيع «الشاش» ، أو طواقى مزركشة مختلفة الألوان . وكانوا يمتطون الخيول العربية الكريمة المطهمة ، وسروجها من القطيفة أو الجوخ ، المزركشة بالفضة والذهب والأحجار الكريمة

وكانوا يمارسون أنواعا كثيرة من الألعاب الرياضية : كرمى النشاب ، وقذف الرمح ، ولعب الأكرة « لعب الكرة بالمضارب من على ظهور الخيل وهى اللعبة المعروفة اليوم باسم البولو » ، والقنص ، والصيد ، خصوصا صيد الطيور الجارحة . وأنشأوا لهذا الغرض الساحات الواسعة والميادين الكبيرة . فيخرج اليها السلطان فى جموع الأمراء ، وكبار رجال الدولة ، فينصب وسط الساحة القبق « الهدف » ، وهو قطعة عالية من الخشب ، تنصب فى برج من الأرض ، مرسوم فى أعلاها دائرة (١) ، فيصطف المتبارون بقسيّهم ، ويصوبون سهامهم الى مركز الدائرة . فمن أصاب منهم الهدف ، خلع السلطان عليه خلعة نفيسة

ومن الميادين التى أنشأها السلاطين للعب الكرة « الميدان الصالحى » بأراضى اللوق . أنشأه الصالح نجم الدين أيوب ، وصار يركب اليه ، ويلعب فيه بالكرة ، وما برح هذا الميدان تلعب فيه الملوك بالكرة من بعد الملك الصالح الى أن انحسر ماء النيل من تجاهه ، وبعد عنه . وكان انشاء هذا الميدان سببا فى بناء قنطرة الخرق على الخليج الكبير ليجتازها السلطان عند ذهابه الى الميدان ، وكان موضعها موردة سقائى القاهرة. وقد حرّف العامة هذا الاسم فصار يطلق على ذلك الموضع باب الخلق « وهو الذى يعرف اليوم بميدان أحمد ماهر » (٢) . وأنشأ الملك الظاهر بيبرس «الميدان الظاهرى» بطرف أراضى اللوق ، وما زال يلعب فيه بالكرة هو ومن أتى

---

(١) المقريزى الخطط ج ٢ ص ١١١

(٢) وقد شيد الصالح نجم الدين ايوب قنطرةاخرى على الخليج الكبير كانت تعرف بقنطرة السد ، وكان المرور عليها من شارع مصر القديمة الىشارع قصر العينى ، وموضعها اليوم نقطة تقابل شارع مدرسة الطب بشارع الخليج

بعده من ملوك مصر حتى سنة أربع عشرة وسبعمائة . وأنشأ الملك الناصر محمد بن قلاوون « ميدان سرياقوس » شرقى ناحية سرياقوس ، بالقرب من الخانقاه .. واستمر يتوجه اليه فى كل سنة ، ويقيم به الأيام ، ويلعب فيه بالكرة الى أن توفى، فعمل ذلك أولاده الذين ملكوا من بعده ، كذلك أنشأ الناصر أيضا « الميدان الناصرى » من جملة أراضى بستان الخشاب ، فيما بين مدينة مصر والقاهرة . أنشأه للعب الأكرة ، وكان ركوبه الى هذا الميدان دائما يوم السبت (١)

وكان سلاطين المماليك يميلون الى اللهو والمرح ، ويعقدون مجالس الشراب ، ويقيمون الحفلات الكبيرة ، حيث تمد أسمطة الطعام ، ويكثرون من المواكب الرسمية فى شتى المناسبات ، كالخروج لصلاة الجمعة ، أو صلاة العيدين ، والاحتفال بجبر الخليج ، أو الخروج للعب الأكرة أو الصيد . كما كان الأغنياء والأمراء يخرجون الى خارج القاهرة ، ليقضوا عطلة آخر الأسبوع ، للاستمتاع بالصيد أو السمر أو الطعام أو الشراب أو مشاهدة «خيال الظل» أو « طيف الخيال » ، الذى كان معروفا لديهم ، اذ يرجح انه نقل الى مصر من الشرق الأقصى ، وكانوا واسطة فى نقله الى الغرب ، حيث يرجح الكثيرون أنه الأصل الذى اشتقت منه السينما الحديثة (٢)

ومهما يكن من أمر ، فقد عاشت مصر طوال حكم المماليك عزيزة الجانب ، موفورة الحرية ، بفضل شجاعتهم وقوة بأسهم . واليهم يرجع الفضل فى صد المغول عن مصر وعن العالم الاسلامى ، والقضاء على فلول الصليبيين ، فلم تقم لهم من بعد ذلك قائمة . وهم الذين أبقوا على الخلافة الاسلامية ، بعد أن خرب التتار بغداد سنة ٥٦٦ هـ (١٢٥٨ م) ، فنقلوها الى القاهرة ، فصارت مصر قلب العالم الاسلامى النابض ، وقبلة المسلمين

(١) المقريزى : الخطط ج ٣ ص ٣٢٠ — ٣٢٦
(٢) تاريخ العرب لفيليب حتى ترجمة المرحوم مبروك نافع ص ٨٩٤

من مشارق الأرض ومغاربها . وصارت القاهرة محط رحال التجار والعلماء والرحالة من كل حدب وصوب . وظلت مركز الخلافة الاسلامية الى أن انتزعها منها سليم الأول العثمانى عند غزوه مصر سنة ١٥١٧ م

الحالة الاقتصادية

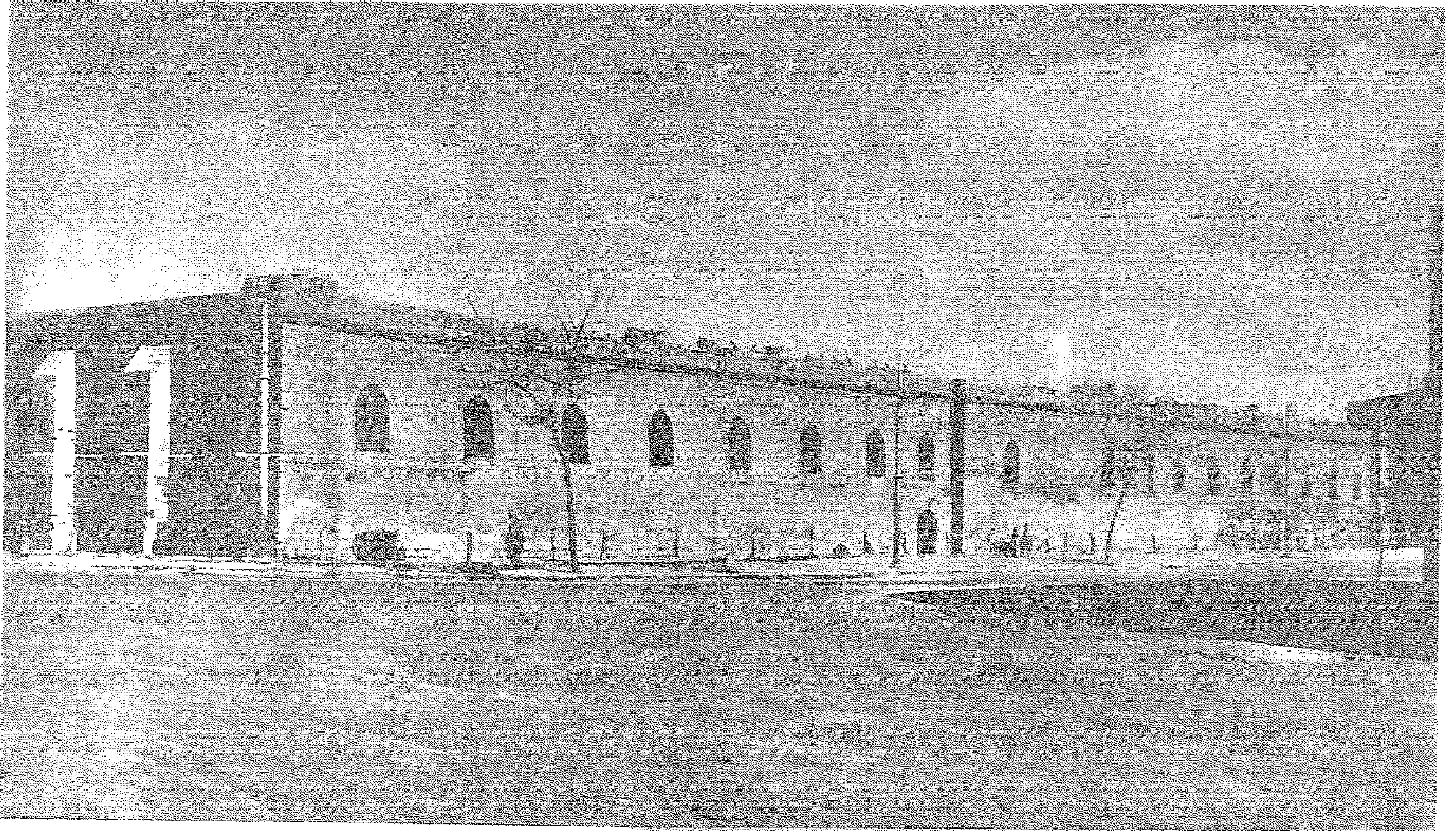
الزراعة :

كانت الزراعة مصدر الثروة الرئيسى فى عهد المماليك ، وكانت الأرض تنبت جميع المحاصيل المعروفة اليوم ، من حبوب وبذور وخضر وفاكهة وأزهار . ومما كان يعوق تقدم الزراعة وازدهارها كثرة الضرائب التى كان المماليك يثقلون بها كاهل الفلاحين والتجار ، واستعمال القسوة والتعذيب فى جبايتها ، لذلك كان الفلاحون يمتنعون أحيانا عن عرض محاصيلهم فى الأسواق ، ويخفى التجار متاجرهم فى الحواصل والمخازن ، فرارا من قسوة الجباة وظلمهم ، والحاح السلاطين فى جمع أكثر ما يمكن جمعه من الأموال ، لكى يحصلوا على المال اللازم لحملاتهم الحربية ونفقات بلاطهم ، وحفلاتهم ومواكبهم ومبانيهم العظيمة . ومن هذه الضرائب : ضريبة الأرض أو الخراج ، وزكاة الدولة ، والجوالى ، ومقرر جباية الدينار ، والمكوس ، والرسوم الجمركية ، وموارد الديوان الخاص ، وضريبة التركات ، وما يتحصل من دار ضرب النقود بالقاهرة ، وما كان يجبى عند وفاء النيل (١)

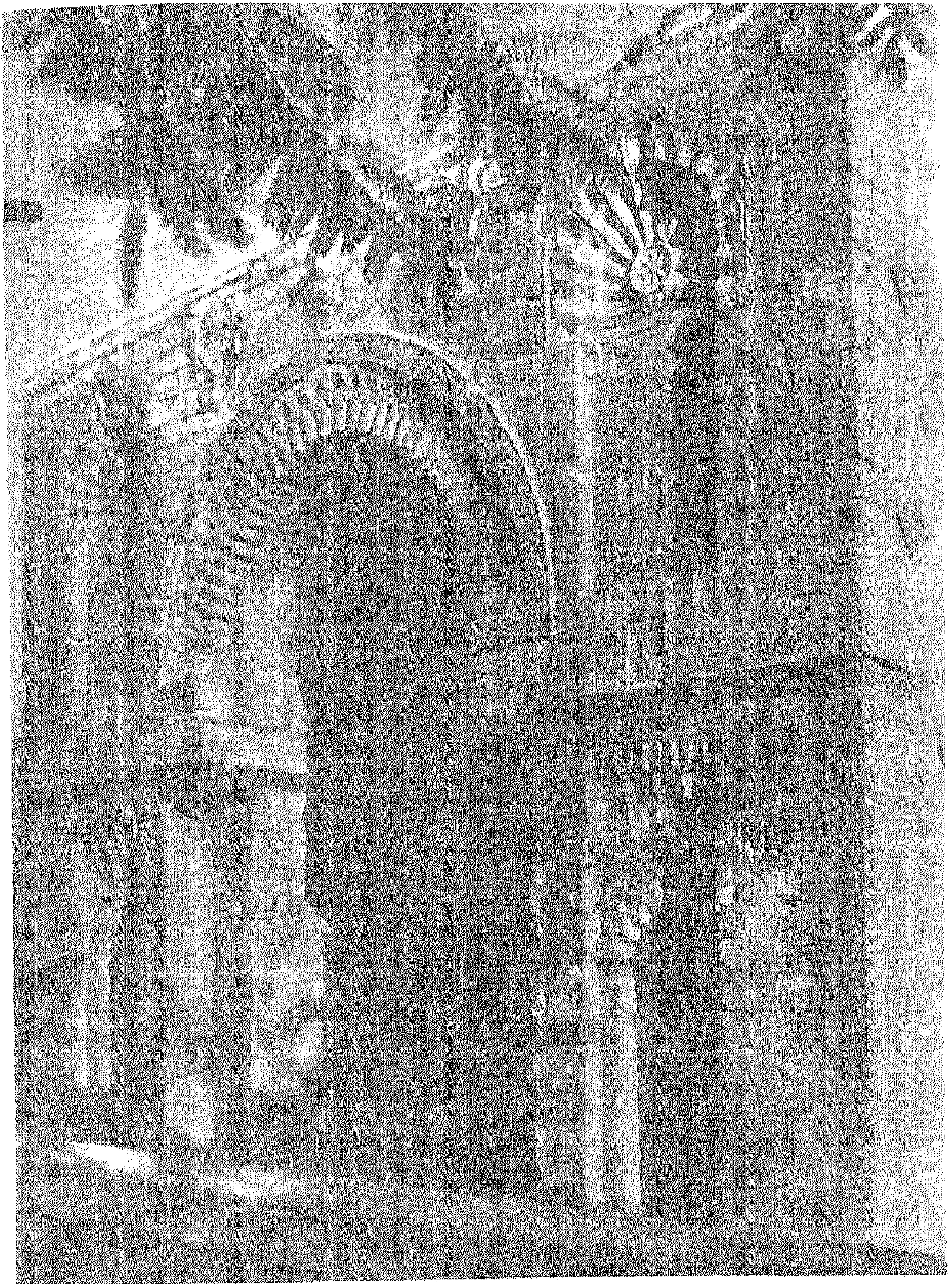
الصناعة :

وازدهرت فى عهد المماليك كثير من الصناعات أيما ازدهار ، وبلغت درجة عظيمة من التقدم والرقى . ولقد تركزت معظم هذه الصناعات فى مدينتى مصر والقاهرة . وأحرز الصناع مهارة تستحق الاعجاب . وانما

(١) مصر فى العصور الوسطى للدكتور على ابراهيم حسن ص ٤٩٥ — ٤٩٧



الواجهة الشرقية بمسجد الظاهر بيبرس وهى مشيدة من الحجر المنحوت ، وتشاهد الشبابيك ذات العقود المدببة ، وبقايا الشرافات المسننة على الجدران ، ويظهر جزء من الواجهة القبلية والاكتاف المشطوفة التى بنيت لتقوية الجدران ...

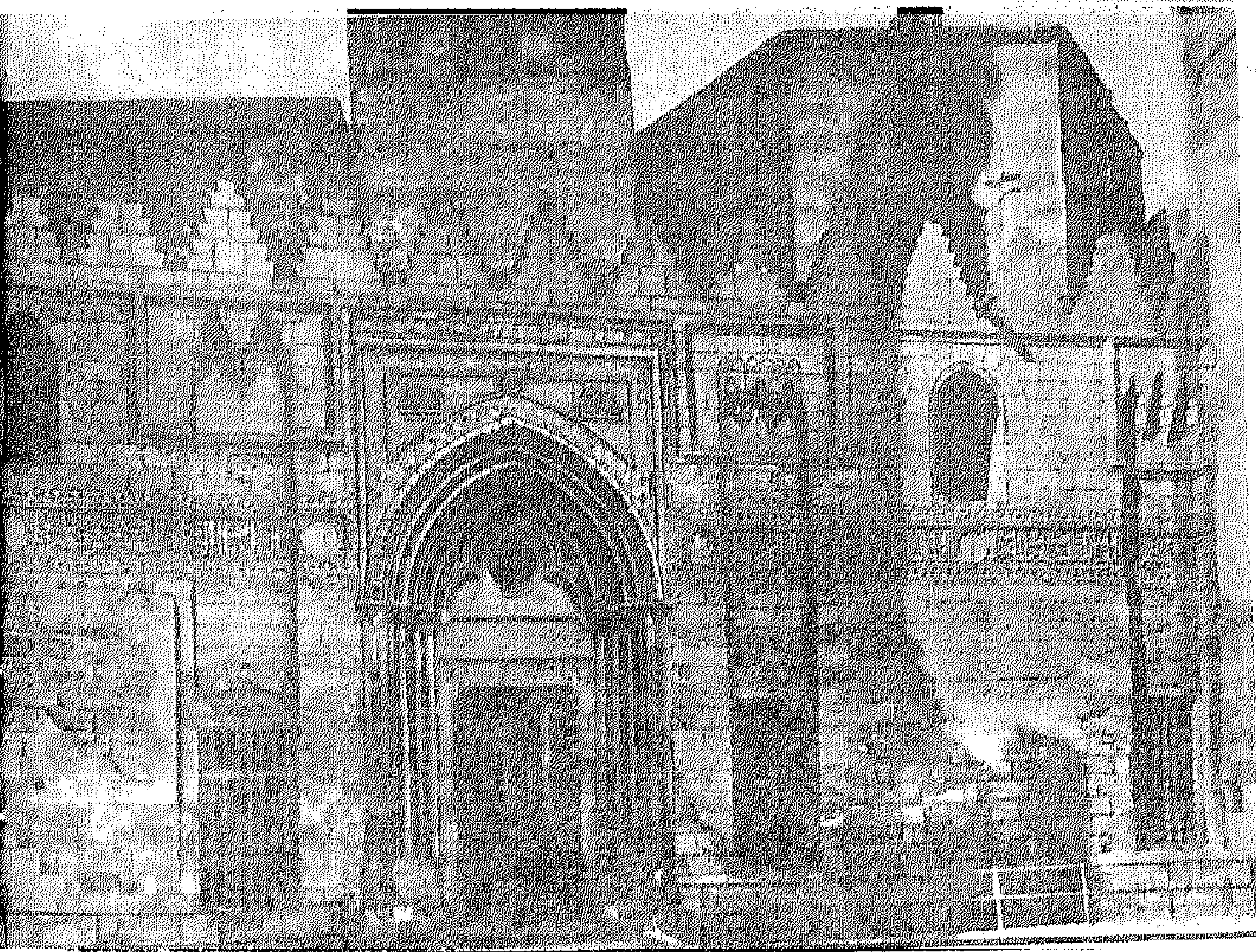


مدخل من المداخل الثلاثة البارزة بمسجد الظاهر بيبرس
نلاحظ فيه التجاويف ذات المقرنصات الزخرفية

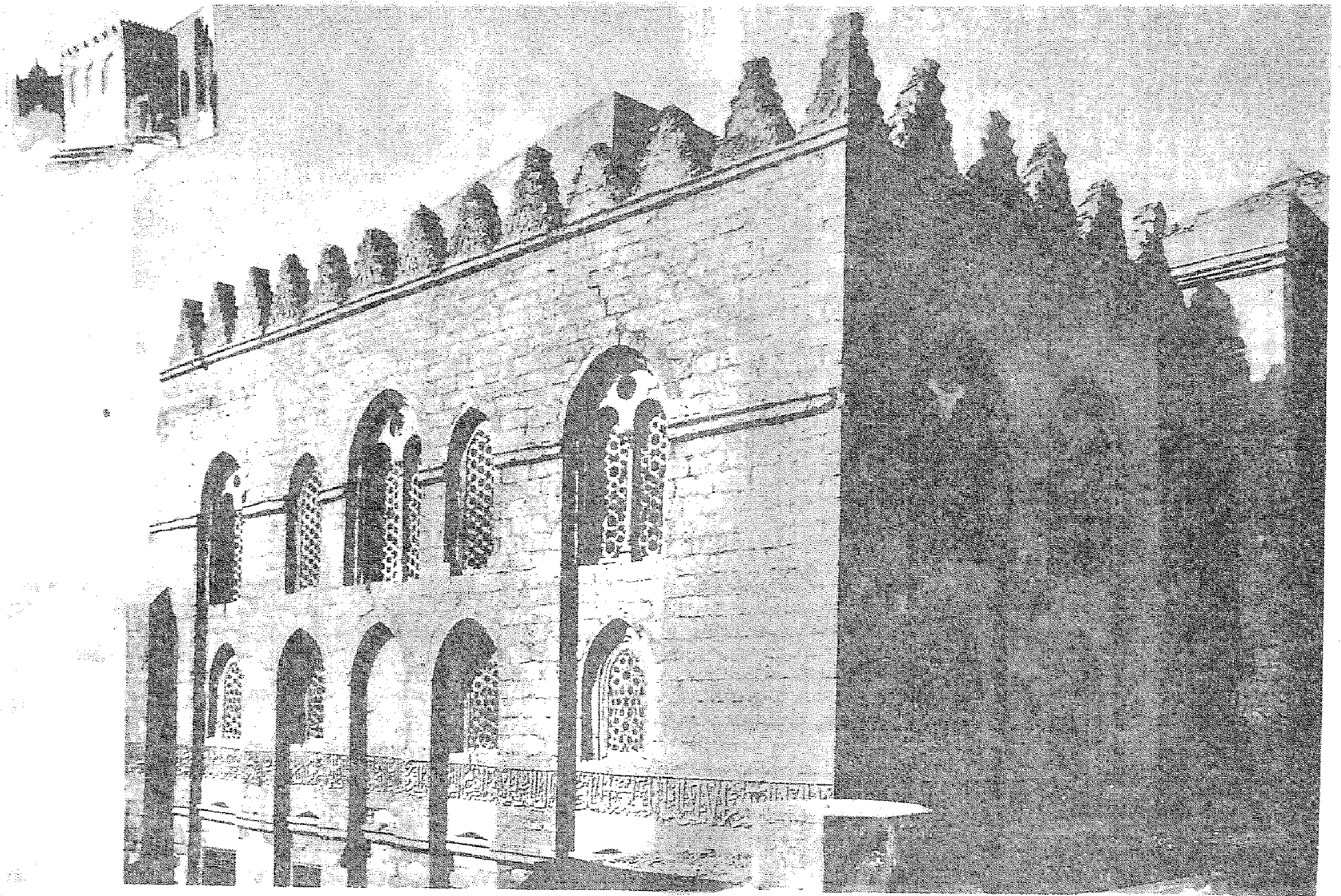


مدرسة وقبة وبيمارستان قلاوون بالنحاسين

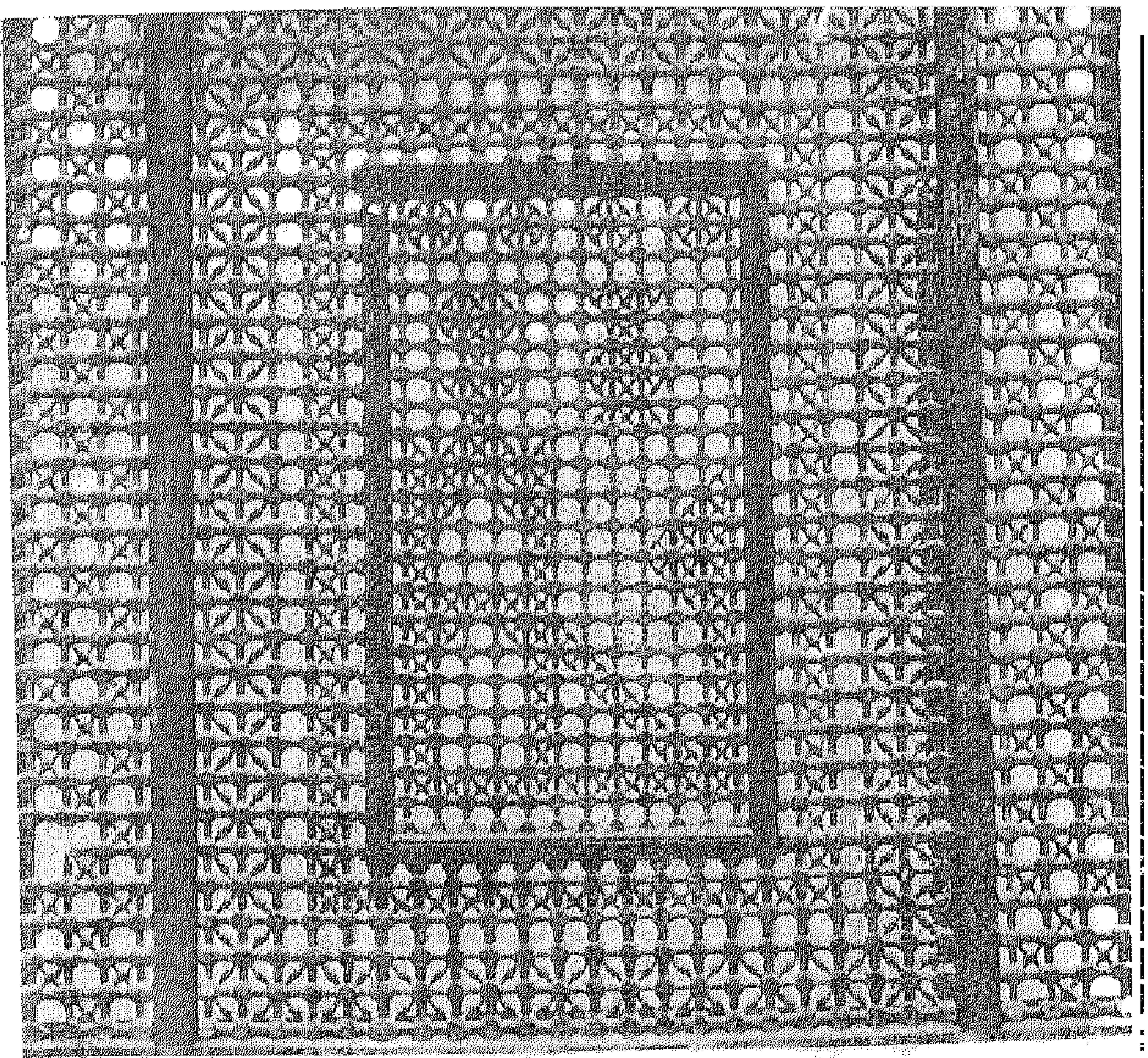
داخل قبة قلاوون: حيث ترى النوافذ ذات الزخارف الجصية الهندسية المغطاة بقطع من الزجاج الملون ، ونماذج من الزخارف النباتية الجميلة



مدرسة الناصر محمد بن قلاوون، وترى الواجهة ، وهي مزينة بالزخارف والكتابات الكثيرة ، والمئذنة القائمة على الباب الرخامي ..



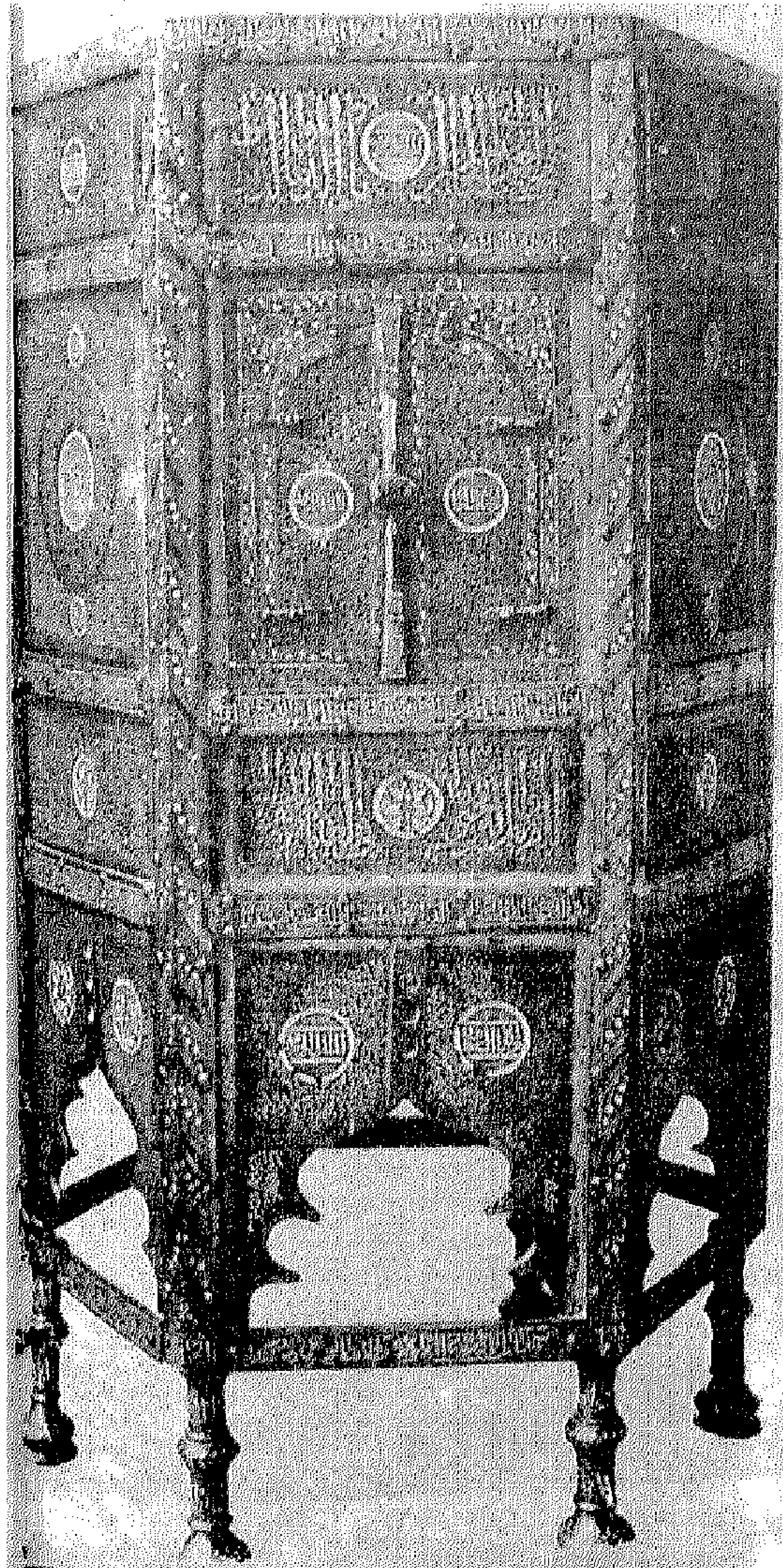
منظر آخر للواجهة الشرقية للقبة ، حيث ترى التجاويف والنوافذ ذات الزخارف الجصية والشرافات المسننة



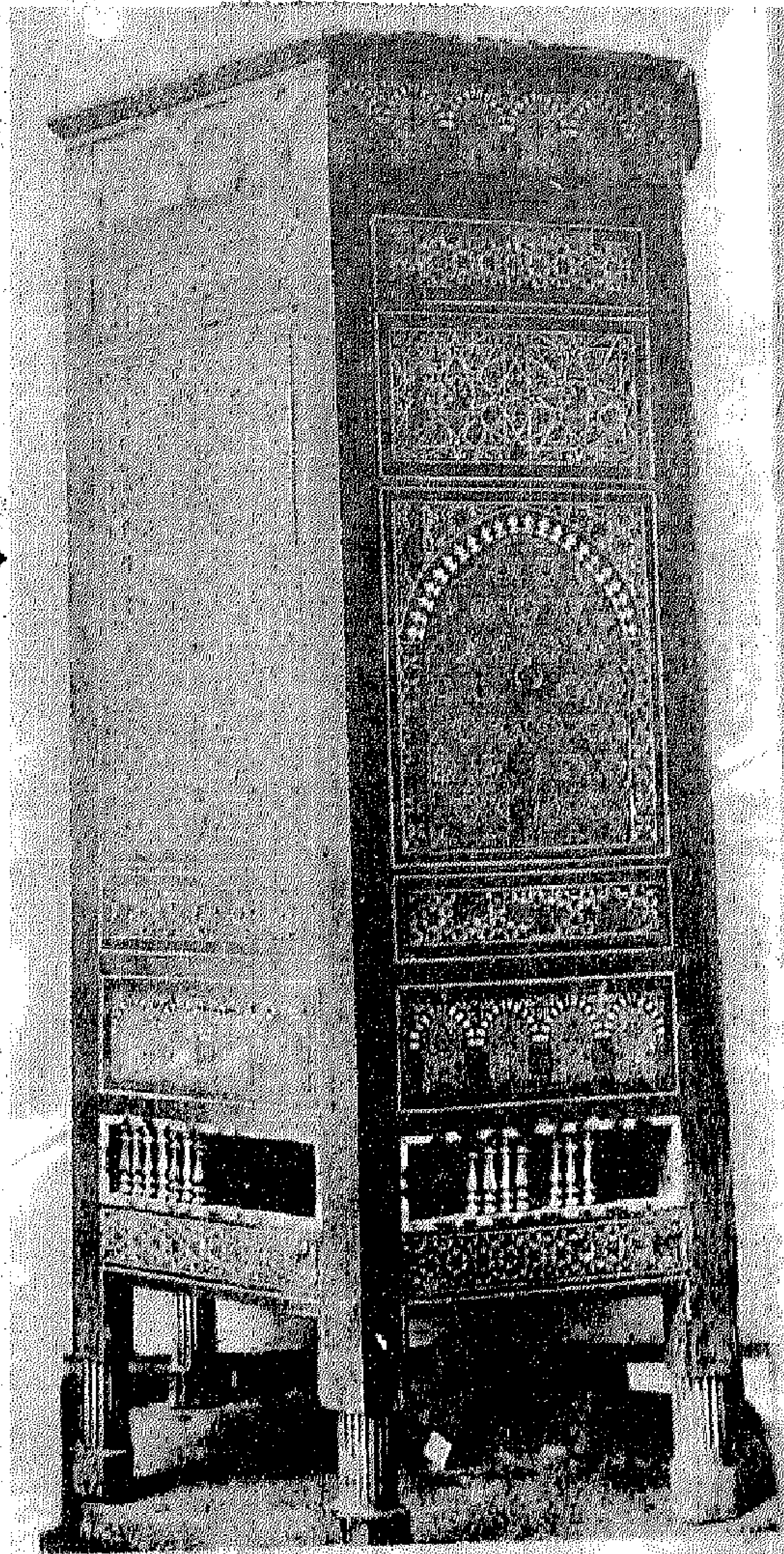
حاجز من خشب مخروط (مشربية) يرى فيه رسم منبر ومشكاة . محفوظ بالمتحف الاسلامى بالقاهرة

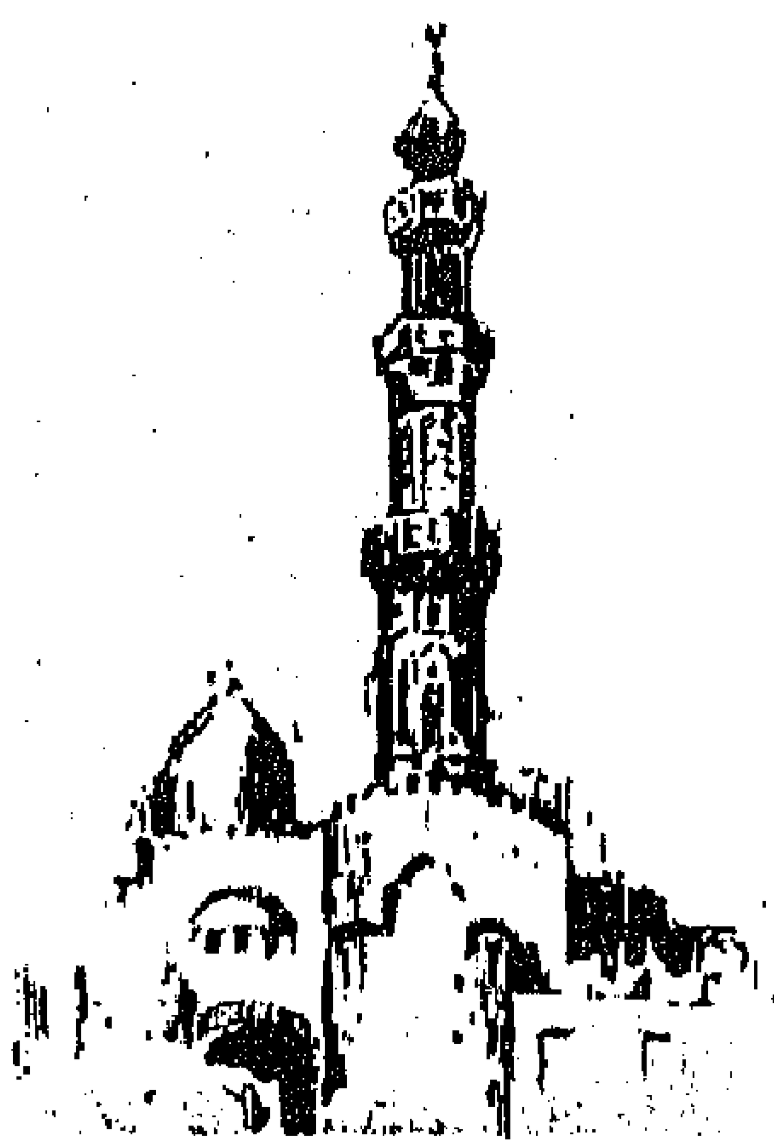
كرسى من نحاس مخرم مكفت بالذهب والفضة عليه كتابة برسم السلطان محمد بن قلاوون محفوظ بالمتحف الاسلامى بالقاهرة



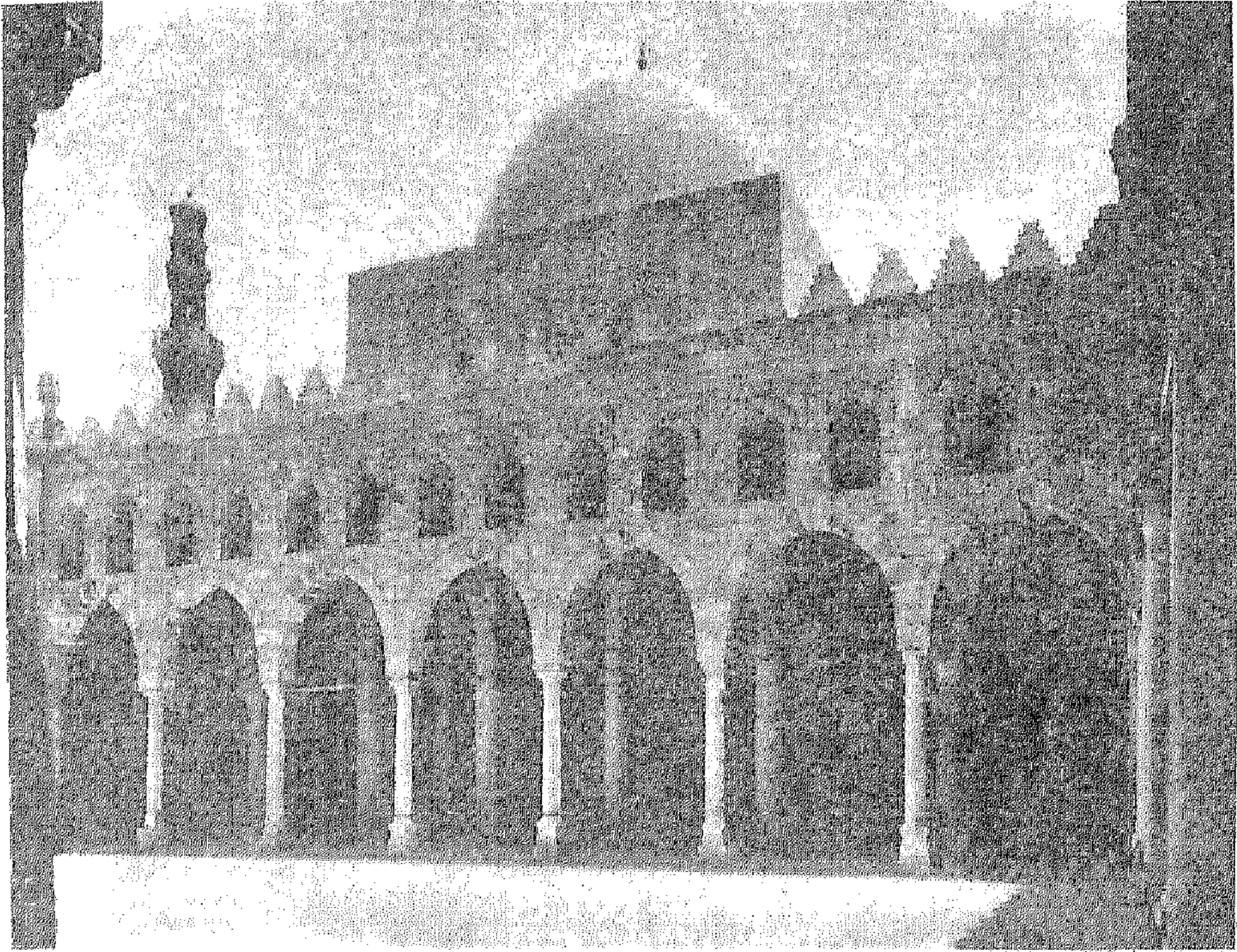


كرسى من خشب (منضدة) مكسوة بطبقة من الفسيفساء من جامع السلطان شعبان الثانى ٧٧٠هـ (١٣٦٩ م) محفوظ بالمتحف الاسلامى بالقاهرة

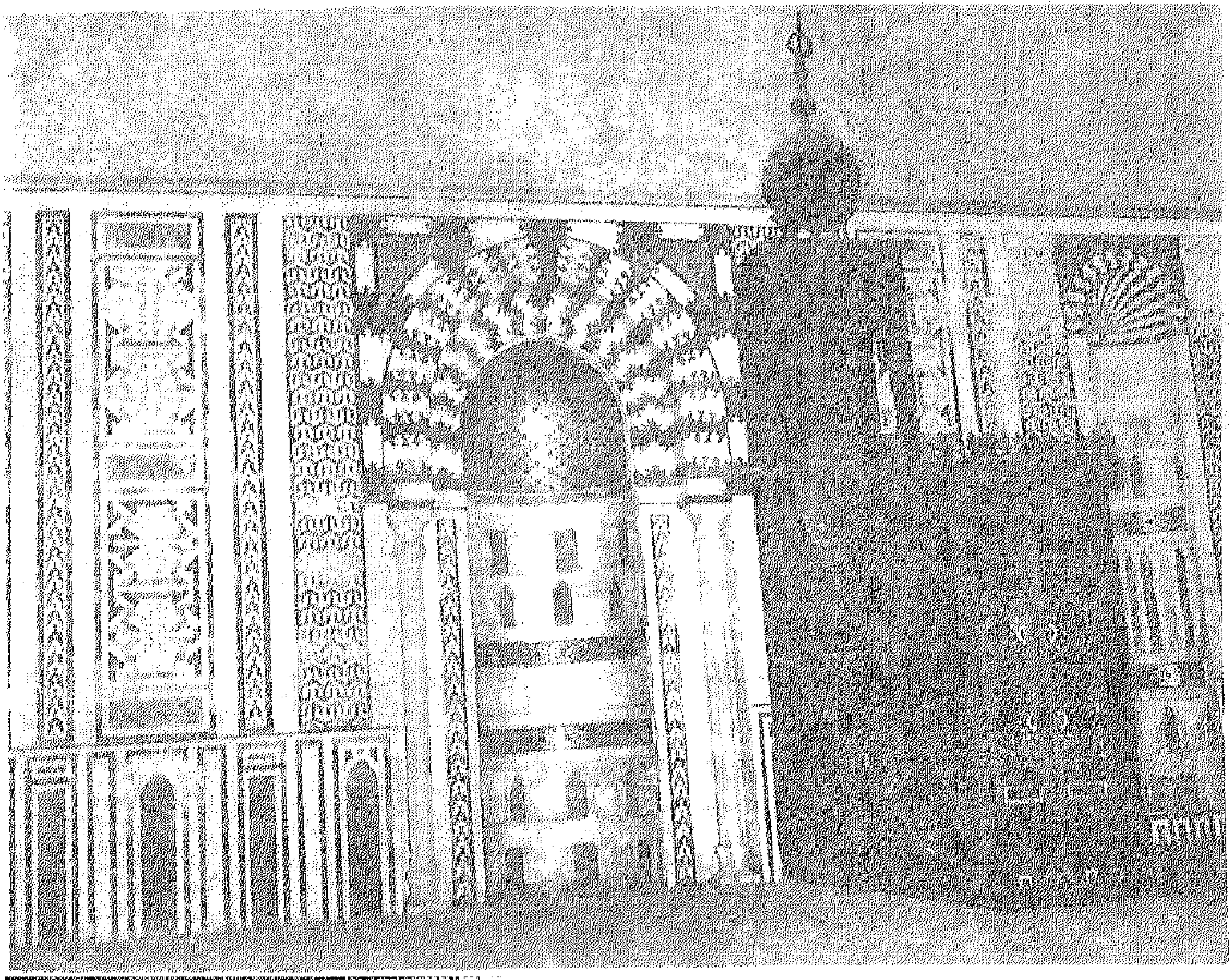




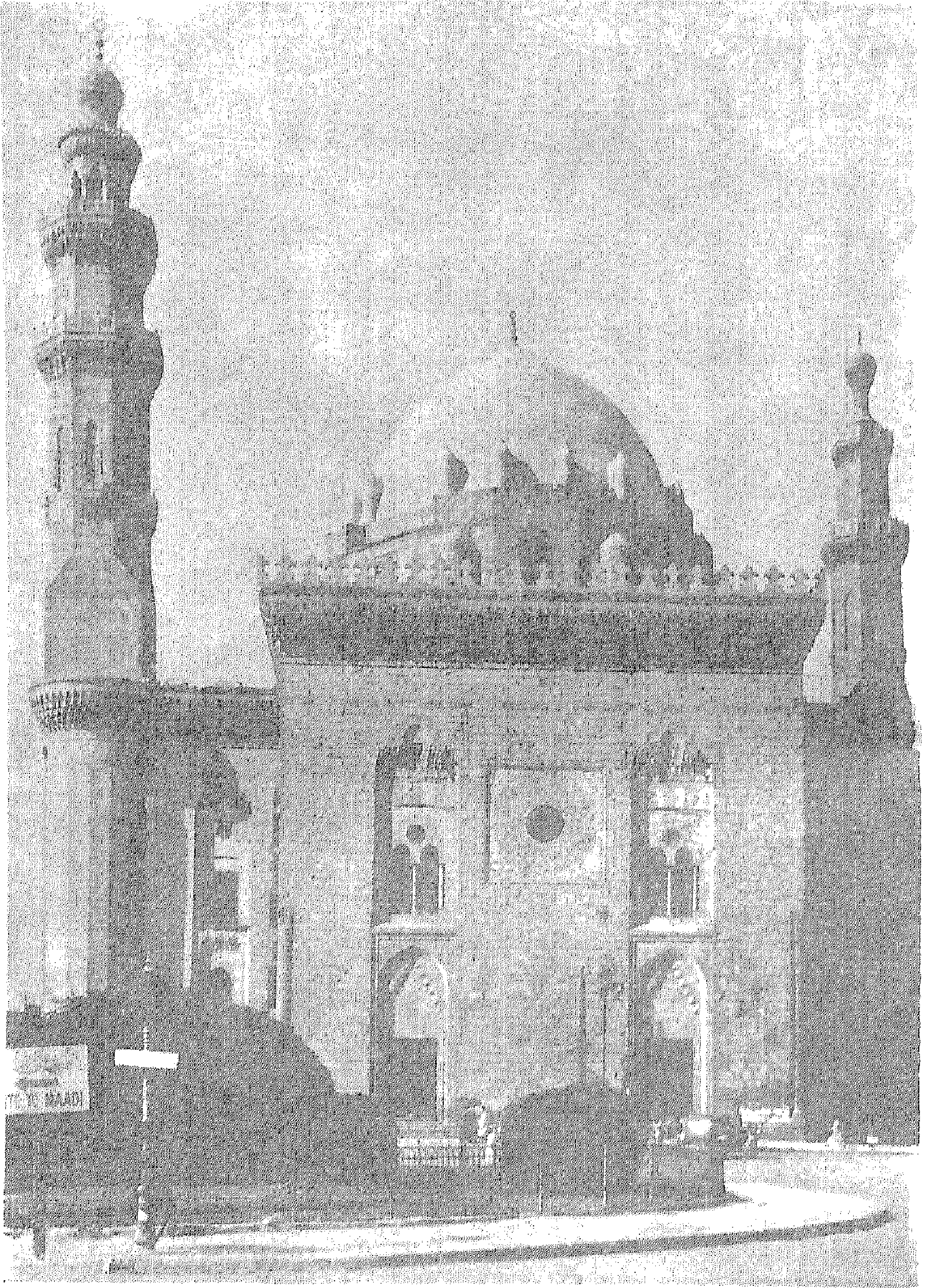
قبتا سلار وسنجر الجاولى ، بشارع مراسينا ، والمنارة ذات القاعدة المربعة والتى تسه المتحره وهى طرفة فنية قليلة النظير جاءت مسممة لجمال الواجهة البحرية للمسجد . والقبتان متماثلتان شكلا وزخرفة ، تعلو كبراهما مدفن الامير سلار وصغراهما مدفن الامير سنجر الجاولى ...



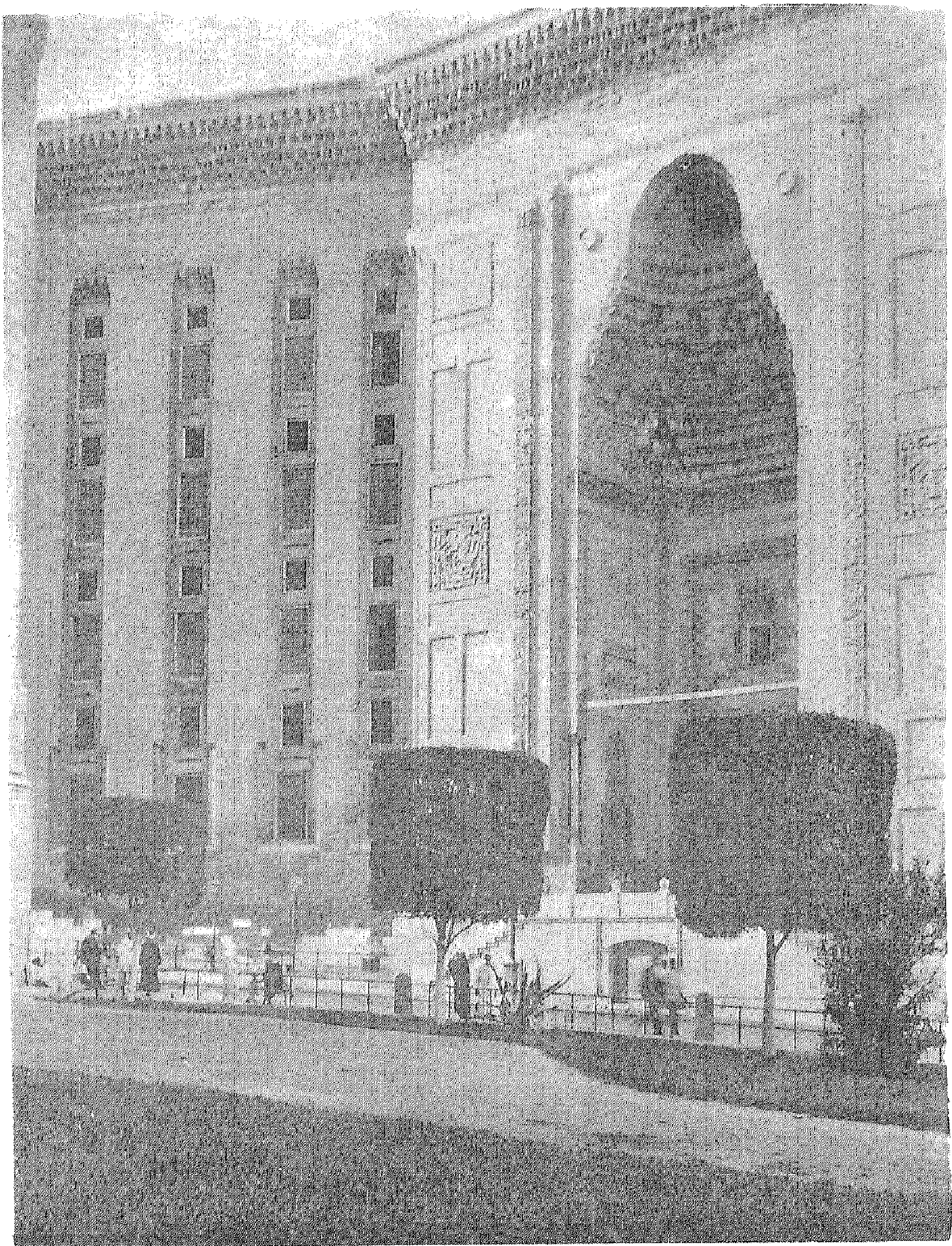
مسجد الناصر محمد بن قلاوون بالقلعة



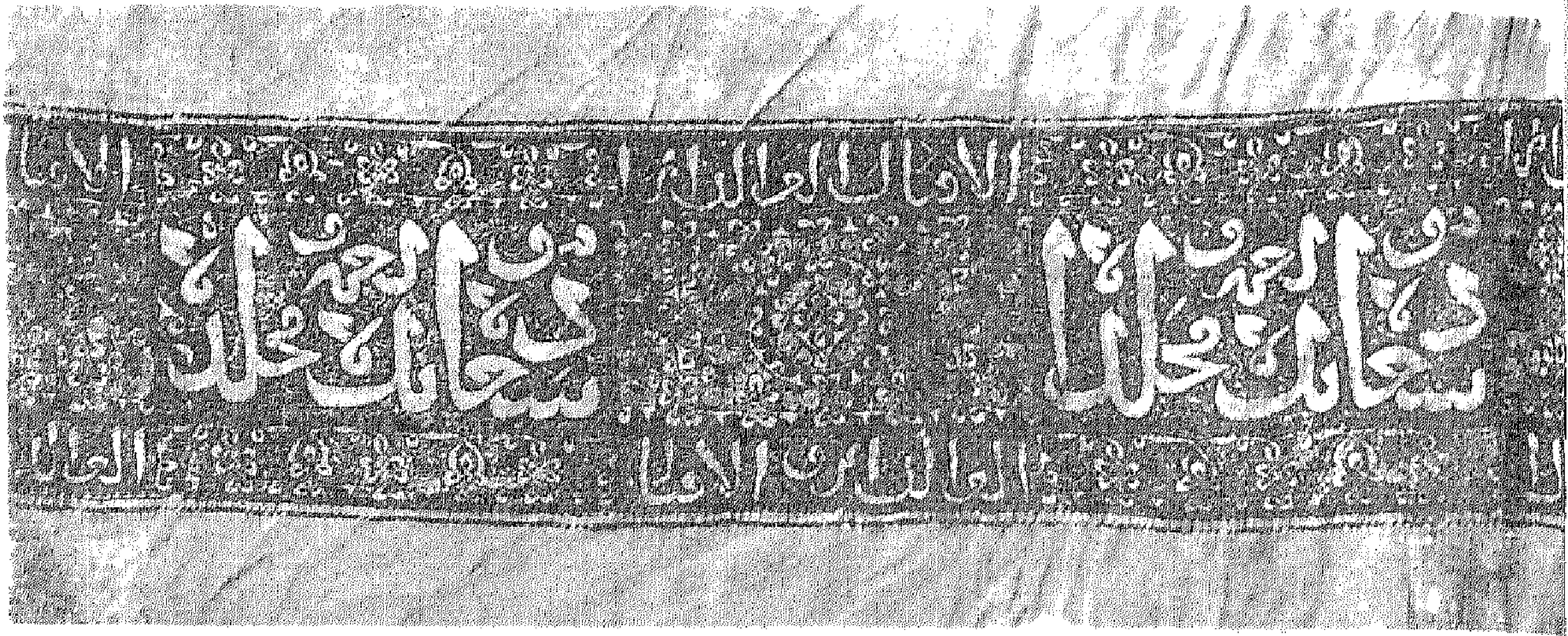
المحراب والمنبر بمسجد الناصر محمد بن قلاوون بالقلعة



الواجهة الشرقية لمدرسة السلطان حسن، وتظهر فيها القبة والمنارتان وجانب من الافريز الكبير المكون من عدة صفوف من المقرنصات والشرافات ذات الاشكال النباتية

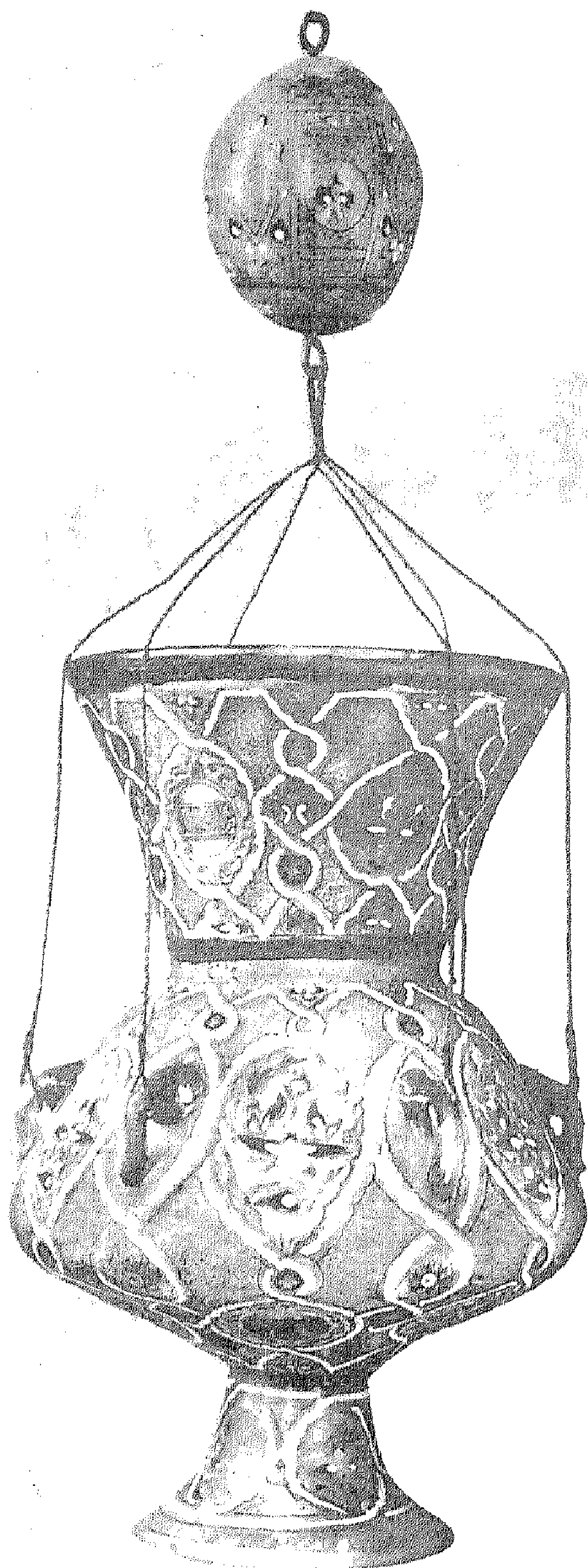


الواجهة الرئيسية لمدرسة السلطان حسن، وتشاهد فيها المقرنصات المدلاة التى تزين عقد المدخل المرتفع، والتجاويف العديدة والنوافذ، ويعلوها افريز المقرنصات

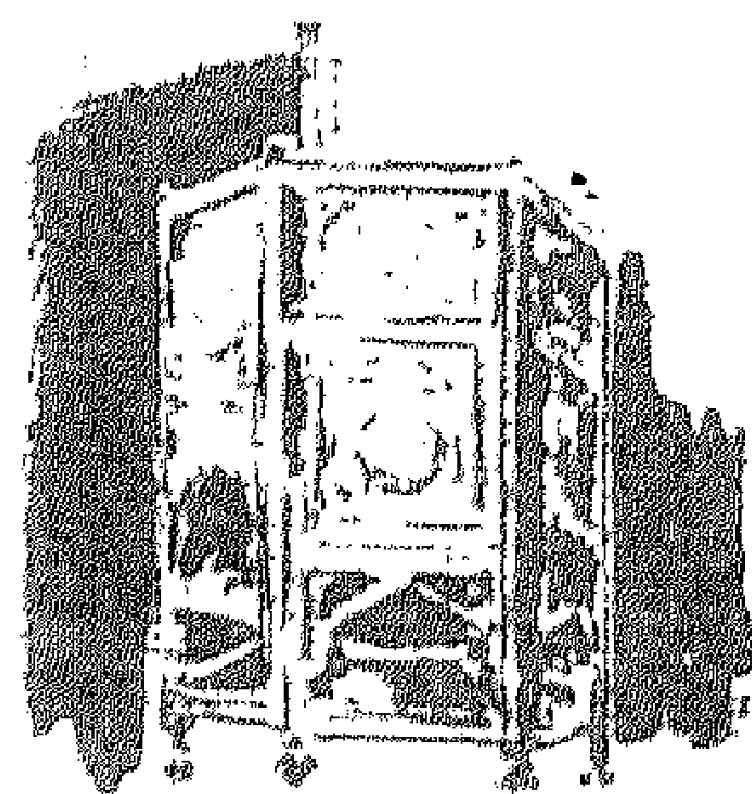


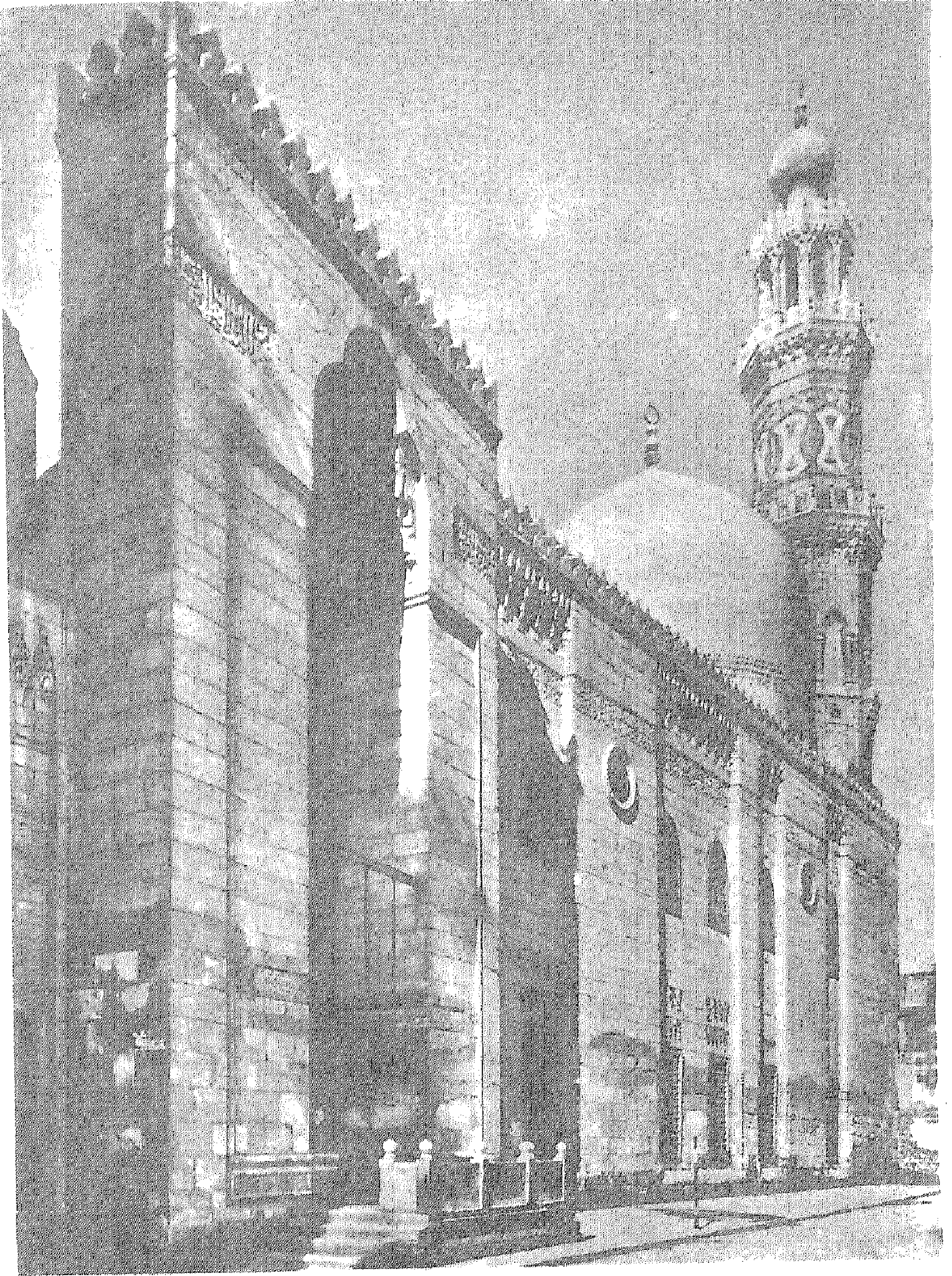
قطعة نسيج من كتان مزينة بشريط من زخارف وكتابات عبارة عن ادعية (من القرن الرابع عشر الميلادي) محفوظة بالمتحف الاسلامي بالقاهرة ،

●

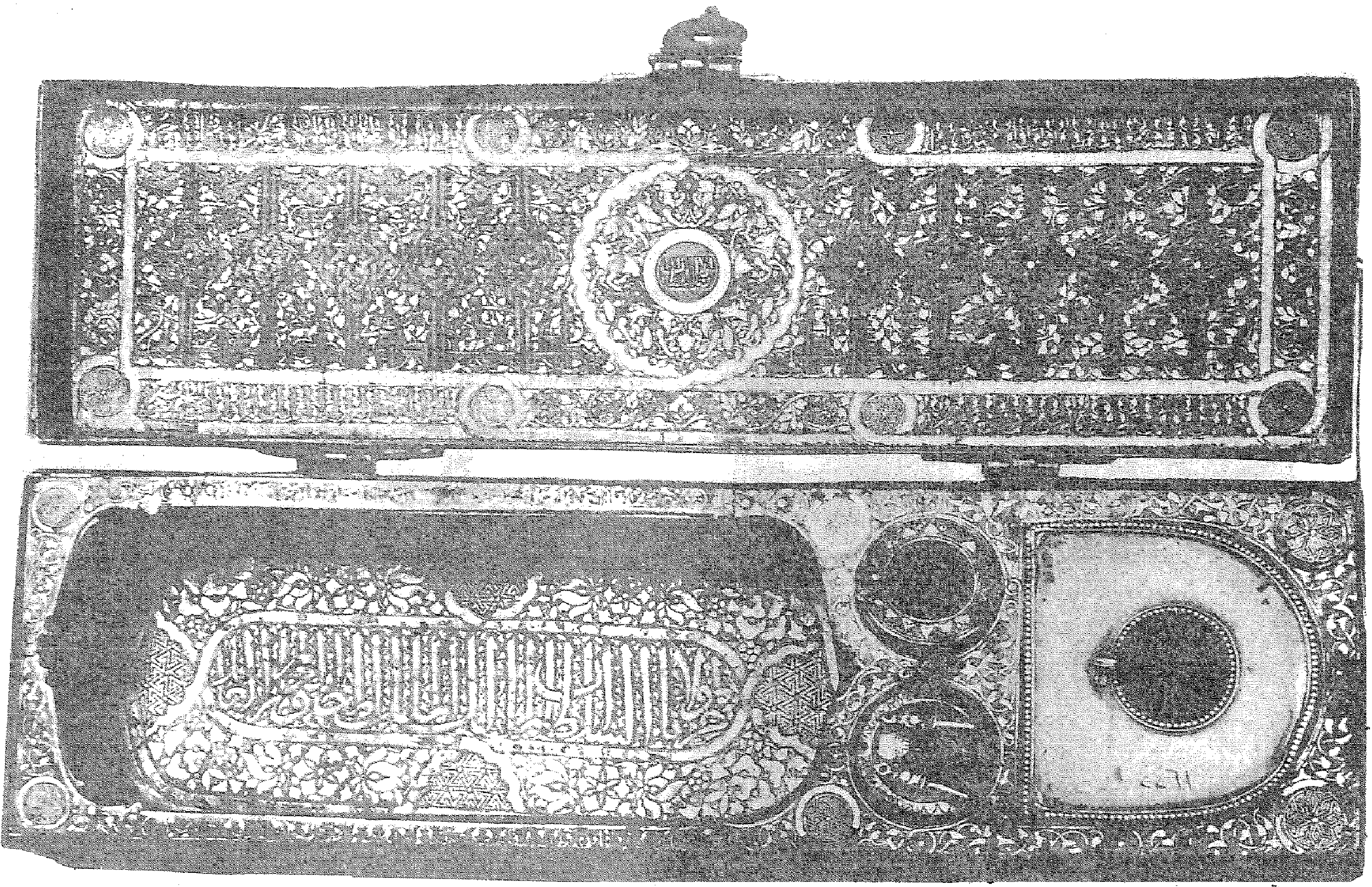


مشكاة وكرتها من زجاج بالمينا تظهر كانها محاطة بشبكة من حبال مجدولة معقدة بالتماثل ، نشأمنها جامات غير منتظمة ، تحتوى على زهور اوراقها مختلفة الالوان من ازرق واخضر واحمر . والكرة والمشكاة باسم السلطان حسن ٧٦٤ هـ (١٣٦٣م) ومحفوظة بالمتحف الاسلامي بالقاهرة

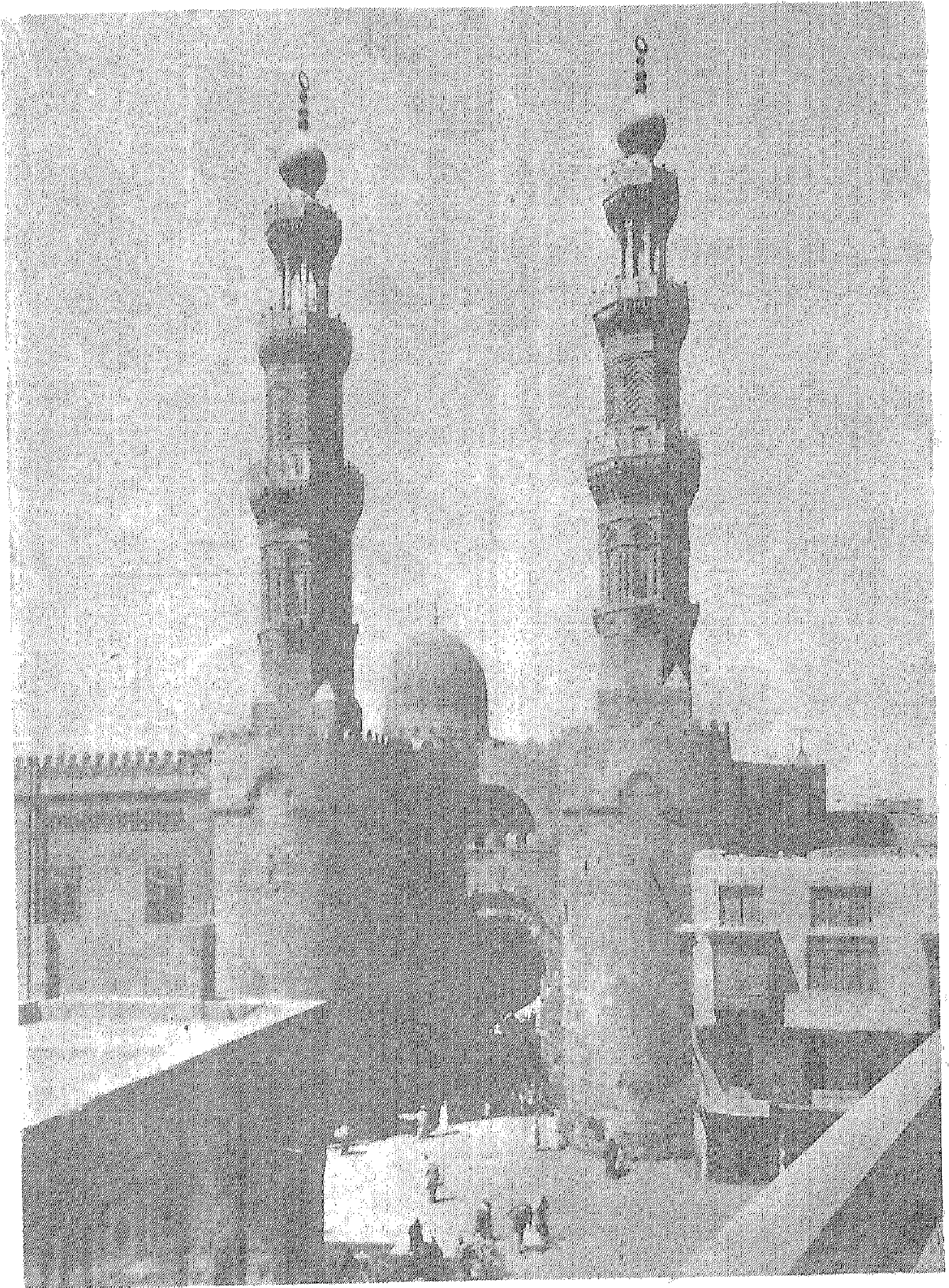




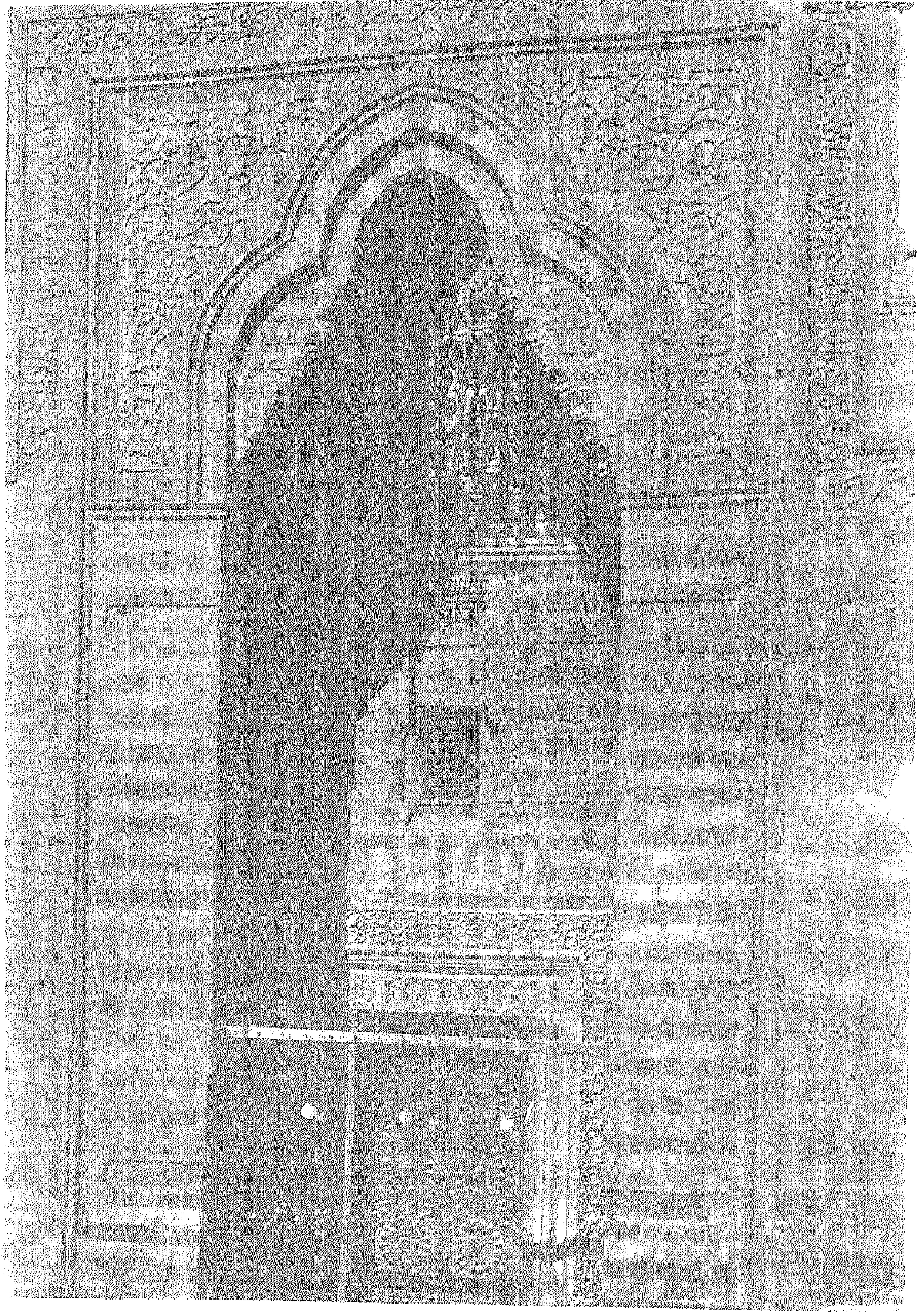
الواجهة الشرقية لمسجد (مدرسة) السلطان الظاهر برقوق بالنحاسين وفى طرفها البحرى المئذنة وفى القبلى المدخل الرئيسى



مقلمة من نحاس مُطبق بالذهب والفضة ، مزينة بزخارف نباتية وهندسية وكتابات دقيقة نسخية وكوفية يتخللها فروع نباتية ، وهي أجمل مقلمة معروفة ، وتحمل اسم الملك المنصور محمد (١٣٦٣م) بالمتحف الاسلامي بالقاهرة



منارتا مسجد المؤيد الرشيقتان المشيدتان فوق برجى باب زويلة المستديرين ، وهما من أجمل منارات المساجد بالقاهرة ، ويصلهما ممر ذو عقد دائرى على عقد الباب



الواجهة الرئيسية فى مسجد المؤيد . وتبين المدخل الذى يعلوه
عقد مكون من ثلاثة فصوص ذات صـــنج مختلفـــة الالوان

المئذنة والقبة بمدرســـــة قايتباى وكلاهما من
روائع الفن الاسلامى . ويشاهد السبيل الذى
يعلوه مكتب والشرافات التى على هيئة أوراق النبات



ساعدهم فى بلوغ ذلك شيوع نظام الطوائف ، فقد كان لكل حرفة طائفة ، ولكل طائفة شيخ يهيمن على شئون أفرادها ، ويوجههم التوجيه الفنى الصحيح ، ويرعى مصالحهم . ولا بد للصبى قبل أن يصبح صانعا ماهرا أن يسلك عدة خطوات ، ثم يحصل بعد ذلك من شيخ الطائفة على شهادة بأنه حذق الصنعة ، فينادى به الشيخ معلما ، ويصبح عضوا فى طائفة حرفته . وكان لكل حرفة مشايخها وأعلامها وطبولها ، وتمثل فى الاحتفالات العامة ، كمولد النبى ووفاء النيل ورؤية هلال رمضان . وتمثل هذه الطوائف اليوم نقابات العمال الى حدٍّ ما

ومن أهم الصناعات التى ازدهرت بالقاهرة فى عصر المماليك صناعة المنسوجات والفرش والستور والخيم والسروج ، وصناعة الأوانى النحاسية المكفتة كالأباريق والصحون والطسوت والموائد والثريات والمقالم ... الخ ، وصناعة الزجاج ، خصوصا المطلى بالمينا ، فصنعت منه المشكاوات والدوارق ، وصناعة الخزف والبلور الصخرى والتحف الخشبية المطعمة بالسن والأبنوس مما سيأتى ذكره عند الكلام على الفنون فى عهد المماليك .

هذا بالاضافة الى الصناعات الحيوية ، التى تتصل بمعاش الناس وحياتهم كصناعة السكر والحلوى وعصر الزيوت وصناعة القلل والأزيار والبرانى وصناعة الحصر والبناء وصبغ المنسوجات وغير ذلك من الصناعات التى لا تزال موجودة حتى اليوم

كذلك قامت بالقاهرة صناعة الأسلحة وأدوات الحرب كالسيوف والرماح والسهام والأقواس والدروع ، وأدوات الرياضة والصيد وصناعة السفن

التجارة :

ولقد نعمت مصر فى عهد المماليك بمصدر آخر من مصادر الغنى والثروة ، ملأ خزائنهم بالأموال الطائلة ، وهيأ لهم حياة العز والنعيم ، ومكنهم من بناء القصور الفخمة ، والمساجد العظيمة ، ذلك هو التجارة

الشرقية ، التى كانت تخترق مصر أو الشام ، فى طريقها الى أوربا ، وكان كلا الطريقين فى حوزة المماليك ، فيجبون على تلك التجارة ما شاءوا أن يجبوه من المكوس والضرائب الباهظة

ولم تكن فائدة مصر من مرور التجارة الشرقية بأراضيها قاصرة على الضرائب الفادحة ، التى كان المماليك يجبونها عليها ، بل انها كانت تعمر الأسواق فى القاهرة ، فتنشط حركة البيع والشراء ، ويثرى التجار بدورهم . وقد نعم هؤلاء بالغنى والثروة أيضا ، حتى أصبح لهم مركز ممتاز بين طبقات الشعب ، ومكانة ملحوظة فى سياسة البلاد وسير الأمور فيها

وقد استلزم تفاقم حركة النشاط التجارى بناء الخانات والفنادق والأسواق . ففى الخانات والفنادق ينزل التجار ببضائعهم وسلعهم ودوابهم ، ويختزنون بضائعهم فى المخازن والحواصل ، وتؤدى لهم الأعمال المصرفية . وتفد عليهم تجار التجزئة لشراء حاجياتهم من البضائع التى يعرضونها للبيع فى حوانيتهم بالأسواق

الخانات :

ومن أشهر الخانات (1) « خان مسرور » ، وقد كان فى الحقيقة خانين : أحدهما كبير والثانى صغير ، وكان موضعه خزانة الدرق ، احدى خزائن القصر الفاطمى الكبير ، وكان قبل تشييده ساحة لبيع الرقيق . وقد أدرك المقريزى هذا السوق « فى غاية العمارة ، تنزله أعيان التجار الشاميين بتجاراتهم » . ومسرور كان خادما لصلاح الدين ، وهو الذى بنى هذا الخان . و«فندق بلال المغيثى» ، فيما بين خط حمام خشيبة وحارة العدوية ، أنشأه الأمير الطواشى الحبشى حسام الدين بلال المغيثى : خادم الصالح نجم الدين أيوب ، وكثير من سلاطين المماليك بعده وآخرهم الناصر محمد

(1) انظر خطط المقريزى ج ٣ ص ١٤٩ - ١٥٣

ابن قلاوون « وما برح هذا الفندق يودع فيه التجار وأرباب الأموال صناديق المال ، المملوءة بالذهب والفضة » . و « خان منكورش » بخط سوق الخيميين بالقرب من الجامع الأزهر ، أنشأه منكورش أحد مماليك السلطان صلاح الدين الأيوبى ، وعرف بعد ذلك بخان النشارين. و« وكالة قوصون» ، وهذه الوكالة تدخل فى عداد الفنادق والخانات ، ينزلها التجار ببضائع بلاد الشام من الزيت والشيرج والصابون والدبس (١) والفستق والجوز واللوز والخرنوب والرب(٢) ونحو ذلك ، وموضعها فيما بين الجامع الحاكمى ودار سعيد السعداء . وقد شهدها المقريزى ، ودهش لكثرة ما هنالك من أصناف البضائع وازدحام الناس وشدة أصوات العتالين عند حمل البضائع ونقلها لمن يبتاعها. ويعلو هذه الوكالة رباع تشتمل على ثلاثمائة وستين بيتا عامرة كلها بالسكان ، ويقدر سكانها بنحو أربعة آلاف نفس ، ما بين رجل وامرأة وصغير وكبير . و « فندق دار التفاح » ومكانه تجاه باب زويلة ، وكان يرد اليه الفواكه على اختلاف أصنافها ، مما ينبت فى بساتين ضواحى القاهرة ، ومن التفاح والكمثرى والسفرجل الواصل من البلاد الشامية ، ومنها ينقل الى سائر أسواق القاهرة ومصر ونواحيهما. وأنشأ هذه الدار طقوزدمر ، بعد سنة أربعين وسبعمائة ، وبظاهر هذه الدار عدة حوانيت تباع فيها الفاكهة « تذكر رؤيتها وشم عرفها بالجنة ، لطيبها ، وحسن منظرها وتأنق الباعة فى تنضيدها واحتفافها بالرياحين والأزهار ، وما بين الحوانيت مسقوف حتى لا يصل الى الفواكه حر الشمس » . و « وكالة باب الجوانية » ومكانها تجاه باب الجوانية من القاهرة ، فيما بين درب الرشيدى ووكالة قوصون . كان موضعها عدة مساكن ، فابتدأ الأمير جمال الدين محمود بن على الاستادار بهدمها سنة ثلاث وتسعين وسبعمائة ، وبناها فندقا ، وربعا بأعلاه ، فلما كملت ، رسم (٣) الملك الظاهر برقوق أن تكون دار وكالة ، يرد اليها ما يصل الى

(١) عصارة الرطب (٢) دبس الرطب اذا طبخ (٣) أمر

القاهرة ، وما يرد من صنف متجر الشام فى البحر كالزيت والرب والدبس، وما يرد فى البر يدخل به على عادته الى وكالة قوصون . و«خان الخليلى» وقد أنشأه الأمير جهاركس الخليلى ، أميراخور السلطان الظاهر برقوق ، المتوفى فى سنة ٧٩١ هـ (١٣٨٩ م) فى مكان تربة الخلفاء الفاطميين ، التى كانت تجاور القصر الشرقى الكبير ، والتى كانت تعرف باسم تربة الزعفران . فلما رغب جهاركس فى بناء هذا الخان ، نبش تربة الزعفران ، وألقى بما كان بها من عظام على التلال ، الموجودة خارج القاهرة ، معتذرا عن ذلك بأن الفاطميين كانوا كفارا رفضة ، وهذه الدعوى من غير شك لا تنهض عذرا لهذا العمل الشنيع ، ولا لما يقتضيه جلال الموت من احترام للموتى ورفاتهم . ومع ذلك فقد أوقف هذا الخان وغيره من المبانى على فقراء مكة ، وجعل ريعها خبزا يوزع عليهم ، ثم استبدل بالخبز نقودا ، وهذا مثل آخر من أعمال السوء التى كان يرتكبها بعض المماليك ، ثم يكفرون عنها بانشاء المبرات وأعمال الخير

وفى ربيع الثانى سنة ٩١٧ (يوليو سنة ١٥١١) هدم السلطان الغورى خان الخليلى ، وأنشأ مكانه حواصل وحوانيت وربوعا ووكالات يتوصل اليها من ثلاث بوابات (١) . وقد هدمت هذه الحواصل وتلك الحوانيت، وأعيد بناء الخان بعد ذلك . ويغص اليوم بحوانيت التحف والطرف ، حيث يقوم الصناع بتقليد بعض الصناعات المملوكية ، خصوصا المصنوعات المعدنية المحلاة بالزخارف الهندسية والنباتية

ويحتل خان الخليلى مركزا عالميا اليوم ، فالسائحون الذين يفدون على مصر كل عام من شتى أنحاء العالم لايغادرونها قبل زيارة هذا الخان لشراء بعض التحف ، تذكارا لزيارتهم القاهرة ، من البضائع الشرقية كالأقمشة

(١) دليل موجز لاشهر الآثار العربية بالقاهرة لمحمود احمد ص ١٨٥ — ١٨٦

الحريرية المطرزة بالقصب ، والخيم ، والأوانى النحاسية المكفتة ، والتحف العاجية ، والأخفاف « المراكيب » والحقائب الجلدية ، والسجاجيد

الاسواق :

وقد عقد المقريزى فى خططه فصلا لأسواق القاهرة ، ذكر فيه أسواقها التى كانت موجودة فى عصره ، وقد تتبعها منذ أيام الفاطميين ، ووصف أماكنها ، وذكر ما كانت تعج به من سلع ومتاجر . وقال فى مفتتح هـذا الفصل : « وقد كان بمدينة مصر « الفسطاط » والقاهرة وظواهرها من الأسواق شيء كثير جدا ، قد باد أكثرها ، وكفاك دليلا على كثرة عددها أن الذى خرب من الأسواق فيما بين أراضي اللوق الى باب البحر بالمقس اثنان وخمسون سوقا ، أدركناها عامرة ، فيها ما يبلغ حوانيته نحو الستين حانوتا . وهذه الخطة من جملة ظاهر القاهرة الغربى ، فكيف ببقية الجهات الثلاث مع القاهرة ومصر !! »

وسمع المقريزى ممن أدركهم من المعمرين أن بشارع القصبة ، وهو أعظم أسواق مصر ، والذى كان يمتد ما بين أول الحسـينية والمشـهد النفيسى ، كان يوجد اثنا عشر ألف حانوت . وقد أدرك هذه المسافة عامرة بالحوانيت . وسوق القصبة هذا هو عبارة عن الشارع الأعظم الذى كان يعرف بقصبة القاهرة ، أو شارع القاهرة ، ويمتد من باب الفتوح الى باب زويلة ، وكان أكبر شوارع القاهرة ، وأكثرها عمرانا بالحوانيت والخانات ، وأشدها زحاما بالناس . وهذا الشارع هو المعروف اليوم باسم شارع المعز لدين الله ، ويدخل ضمنه من بحريه جزء من الفضاء العظيم الذى كان واقعا بين القصرين الفاطميين . وقد تضاءل هذا الفضاء بما أقيم على جوانبه من مساجد ومدارس وأضرحة ومبان أخرى فى عهد الأيوبيين والمماليك ، وانتهى به الحال الى الطريق الضيق المعروف بخط بين القصرين . وقد كان يتفرع من شارع القصبة يمينا ويسارا عدة أسواق ، فهو يشبه فى ذلك النهر الأعظم وما يتفرع منه من نهيرات وجداول

وقد تخرب بعض تلك الأسواق ، وقدر البقاء للبعض الآخر . ونجتزىء هنا بذكر أشهر تلك الأسواق ، معتمدين فى ذلك على ما ورد فى فصل أسواق القاهرة ، سابق الذكر :

« سوق باب الفتوح » فى داخل باب الفتوح ، وبه حوانيت اللحامين ، والخضريين ، والفاميين ، والشرايحية وغيرهم . « سوق المرحلين » عند رأس حارة بهاء الدين ، وهو مملوء برحالات الجمال وأقتابها وسائر ما تحتاج اليه . ولو أراد الانسان تجهيز مائة جمل وأكثر فى يوم لما شق عليه وجود ما يطلبه من ذلك . و « سوق خان الرواسين » على رأس سويقة أميرالجيوش، وكان يشتمل على نحو العشرين حانوتا ، مملوءة بأصناف المآكل . و « سوق حارة برجوان » وهى من حارة برجوان الى قريب الجامع الحاكمى . وكانت من أعظم أسواق القاهرة ، لوفرة الأطعمة بها ، نيئة ومطبوخة ، وأنواع المتاع المختلفة . وبها الحمامات والأفران . وكان فيه قبانى برسم وزن الأمتعة والمال والبضائع ..

و « سوق الشماعين » ، بالقرب من الجامع الأقمر ، وحوانيته عامرة بالشموع الموكبية والفانوسية . وكان به فى شهر رمضان موسم عظيم ، لكثرة ما يشترى ويكترى من الشموع الموكبية ، التى تزن الواحدة منها عشرة أرطال فما دونها . ومن الشمع الذى يحمل على العجل ، ويبلغ وزن الواحدة منها القنطار وما فوقه ..

و « سوق الدجاجين » ، ويلى سوق الشماعين ، وكان يباع فيه الدجاج والأوز شيء كثير جليل للغاية . وفى كل يوم جمعة يباع فيه بكرة أصناف القمارى والهزازات والشحارير والببغاء والسمان . ومن السمان ما يبلغ ثمنه المئات من الدراهم ، وكذلك بقية طيور المسموع ، يبلغ الواحد منها نحو الألف درهم ، لتنافس الناس فيها ، وتوفر عدد المعتنين بها ، وكان

يقال لهم غواة طيور المسموع ، سيما الطواشية ، فانه كان يبلغ بهم الترف أن يقتنوا السمان ، ويتأنقوا فى أقفاصه ، ويغلوا فى أثمانه ، حتى بيع طائر من السمان مرة بألف درهم فضة ، وآخر بنحو الخمسين دينارا من الذهب ، كل ذلك لاعجابهم بصوته . وكان صوته على وزن قول القائل طقطلق وعوع . وكلما كثر صياحه كانت المغالاة فى ثمنه ..

و « سوق بين القصرين » ، وكان فى الدولة الفاطمية براحا واسعا ، يقف فيه عشرة آلاف ، ما بين فارس وراجل ، ثم لما زالت الدولة ، ابتذل وصار سوقا يعجز الواصف عن حكاية ما كان فيه . وقد تضاءل بعد ذلك ، وقلّت حوانيته فى عهد المقريزى ..

و « سوق السلاح » ، ويقع فيما بين مدرسة الظاهر بيبرس ، وبين قصر بشتاك . وقد استجد فيما بعد الدولة الفاطمية ، فى خط ما بين القصرين ، وجعل لبيع القسى والنشاب والزرديات وغير ذلك من آلات السلاح ..

و « سوق القفيصات » تجاه شبابيك القبة المنصورية ، حيث كان يجلس اناس على تخوت ، فوقها أقفاص صغار من حديد مشبك ، فيها الطرائف من الخواتم والفصوص « وأساور النساء وخلاخيلهن » وغير ذلك . وهذه الأقفاص يأخذ أجرة الأرض التى عليها مباشرة المارستان المنصورى ..

و « سوق باب الزهومة » ، وسمى كذلك تبعا لباب الزهومة ، أحد أبواب القصر الفاطمى . وكان من أجمل أسواق القاهرة وأفخرها ، موصوفا بحسن المآكل وطيبها ..

و « سوق المهامزيين » ، وهو مما استجد من الأسواق بعد الدولة الفاطمية ، وكان بأوله سوق العنبر، الذى أنشأه المنصور قلاوون ، ويقابله المارستان والوكالة ودار الضرب . وهذا السوق معد لبيع المهامز. وقد

أدرك المقريزى الناس وهم يتخذون المهماز كله ــ قالبه وسقطه ــ من الذهب الخالص ، ومن الفضة الخالصة ، وهؤلاء هم المترفون ، والا فيتخذ القالب من الحــديد ، ثم يطلى بالذهب أو الفضــة ، ويتخذ السقط من الفضة . وكانت تباع بهذه السوق البذلات الفضة التى كانت برسم لجم الخيل ، وسلاسل الفضة ، والطرف التى فيها الفضة والذهب كسكاكين الأقلام ونحوها ..

و « سوق اللجميين » ، ويباع فيه آلات اللجم ونحوها ، مما يتخذ من الجلد والسروج ، وتعمل ملونة ، ما بين أصفر وأزرق ، وفيها ما يعمل سيورا من الجلد البلغارى الأسود، ويركب بهذه السروج السوداء القضاة ومشايخ العلم اقتداء بعادة بنى العباس فى استعمال السواد . ولما تسلطن الملك الظاهر برقوق اتخذ سائر الجند السروج المفرقة ، وهى التى جميع قرابيسها ــ جمع قربوس وهو حلقة تركب فى السرج ــ من ذهب أوفضة ، اما مطلية أو ساذجة . وكثر عمل ذلك حتى لم يبق من العسكر فارس الا وسرجه هكذا ..

و « سوق الجوخيين » ويلى سوق اللجميين ، وهو معد لبيع الجوخ المجلوب من بلاد الفرنج ، لعمل المقاعد والستائر وثيــاب السروج وغواشيها . وقلما كان الناس يلبسون الجوخ ، وانما يلبســه الرؤســاء والأكابر وقت المطر فقط ، فاذا ارتفع المطر ، نزع الجوخ

و«سوق الشرابشيين» ، نسبة الى الشرابيش ــ مفردها شربوش وهو شىء يشبه التاج ، مثلث الشكل ، يجعل على الرأس بغير عمامة ــ وكان السلطان برقوق اذا أمّر أحدا من الأتراك ، ألبسه الشربوش . وقد كان لباس الرأس يتغير شكله بتغير السلطان : ففى عهد المنصور قلاوون كان يلبس خاصكيته ــ خواصه ــ ومماليكه الكلوتات ــ الطواقى ــ الجوخ والصفر. وفى عهد الأشرف خليل استبدل بها الكلوتات المزركشة ، وفى عهد الناصر محمد بن قلاوون استجد العمائم الناصرية ، وهى صغار ، وفى عهد

الأمير يلبغا العمرى الخاصكى عمل الكلوتات اليلبغاوية ، وكانت كبارا ، واستجد الأميرسلار، فىأيام الملك الناصرمحمد القباء الذىيعرفبالسلارى. فلما تملك الظاهر برقوق عمل الكلوتات الچركسية ، وهى أكبر من اليلبغاوية ، وفيها عوج . أما الشربوش فكان برقوق اذا أمَّر أحدا من الأتراك ، وخلع عليه ، ألبسه الشربوش ، كما تقدم ذكره ، وقد بطل الشربوش فى الدول الجركسية . وكان يباع فى هذه السوق الخلع التى يُلبِسُها السلطان للأمراء والوزراء والقضاة وغيرهم ..

و « سوق الحلاويين » وكان يصنع فيه من السكر أمثال خيول وسباع وقطط وغيرها ، تسمى العلاليق ــ واحدتها علاقة ــ ترفع بخيوط على الحوانيت . فمنها ما يزن عشرة أرطال الى ربع رطل ، تشترى للأطفال ، فلا يبقى جليل ولا حقير حتى يبتاع منها لأهله وأولاده ..

و « سوق الشوايين » ، أى بائعى الشواء أو اللحم المشوى . و «سوق الشرايحيين» ، أى بائعى الشرائح ، وهى أحزمة الخيول وأدواتالسروج.

و « سوق الغرابليين » ، وفيه حوانيت لعمل مناخل الدقيق والغرابيل.

و«سويقة أمير الجيوش» ، وبها حوانيتالرفائين والحياكين والرسامين ــ المطرزين ــ والفرايين ــ بائعى الفراء ــ والثياب المخيطة والأمتعة من الفرش ونحوها ، و « سوق الجمالون الصغير » ، وتباع فيه الثياب القطنية والكتانية ، وبه حوانيت لغسل الثياب وكيها . و « سوق المحايريين » وفيه حوانيت لعمل المحاير ــ مفردها محارة ــ التى يسافر فيها الى الحجاز وغيره . و « الصاغة » ، وما تزال الى اليوم فى مكانها القديم . و « سوق الكتبيين » . و « سوق الصنادقيين » . و « سوق الحريريين » . و « سوق الخراطين » ، لبيع المهد ــ مفردها مهد ــ الذى يربى فيه الطفل . و « سوق الفرايين» ، وتباع فيه أنواع الفراء كالسمور والوشق والعمائم والسنجاب . و « سوق الخلعيين » ، بالقرب من باب

زويله الكبير. والخلعيون جمع خلعى وهو الذى يتعاطى بيع الثياب الخليع ، وهى التى قد لبست . وقد كانت من أعمر أسواق القاهرة ، لكثرة مايباع فيها من ملابس أهل الدولة وغيرهم . و « سوق الاخفافيين » ، ويباع فيه أخفاف «النسوان» ونعالهن . و « سوق الكفتيين » ، ويشتمل على عدة حوانيت لعمل الكفت ، وهو ما تطعم به أوانى النحاس من الذهب والفضة ، ولا تكاد تخلو دار بالقاهرة ومصر من عدة قطع نحاس مكفت. ولا بد أن يكون فى شورة العروس ــ أى جهازها ــ دكة نحاس مكفت . والدكة عبارة عن شىء يشبه السرير ، يعمل من خشب مطعم بالعاج والأبنوس أو من خشب مدهون ، وفوق الدكة دست طاسات من نحاس أصفر مكفت بالفضة ، وعدة الدست سبع قطع بعضها أصغر من بعض ، يبلغ كبراها ما يسع نحو الأردب من القمح ، وطول الأكفات التى نقشت بظاهرها من الفضة نحو الثلث ذراع فى عرض اصبعين ، ومثل ذلك دست أطباق ، عدتها سبعة ، بعضها فى جوف بعض ، ويفتح أكبرها نحو الذراعين وأكثر ، وغير ذلك من المنابر والسرج واحقاق الاشنان والطشت والابريق والمبخرة . فتبلغ قيمة الدكة من النحاس المكفت زيادة على مائتى دينار ذهبا ..

وكانت العروس من بنات الأمراء أو الوزراء أو أعيان الكتاب أو أماثل التجار تجهز فى شورتها عند بناء الزواج عليها سبع دكك : دكة من فضة ، ودكة من كفت ، ودكة من نحاس أبيض ، ودكة من خشب مدهون، ودكة من صينى ، ودكة من بلور ، ودكة كداهي وهى من ورق مدهون ، تحمل من الصين (١)

الحالة العلمية

قامت فى مصر ، فى عصر المماليك ، حركة علمية لابأس بها ، وقد يبدو ذلك لأول وهلة غريبا بعض الشيء ، للأسباب التى بيناها فيما مضى ،

(١) ملخص من باب الاسواق ، الجزء الثالث ، من ص ١٥٣ الى ص ١٧٤ من الخطط للمقريزى

ومنها أن المماليك كانوا عناصر أجنبية عن سكان البلاد ، وانتشار الفتن والثورات طوال مدة حكمهم ، وتعرض البلاد للأوبئة والمجاعات بين آن وآخر . ولكن مع ذلك قامت حركة ثقافيـة وعلميـة فى مصر ، اذ كانت الظروف تحتم قيامها : فمعلوم أن المغول قضوا على بغداد سـنة ٦٥٦ هـ (١٢٥٨ م) ، فأصيبت الحضارة العباسية الزاهرة بضربة قاصمة ، قضت على جهود قرون عديدة ، وقذف هولاكو بالكتب التى كانت تملأ مكتبات بغداد فى نهر دجلة ليعبر عليها جنوده النهر

وسبق القول أن الظاهر بيبرس نقل الخلافة الى مصر سـنة ٦٥٨ هـ (١٢٦٠ م) ، فصارت مصر بذلك قبلة المسلمين . وكان طبيعيا أيضا أن ينتقل مركز الثقافة الاسلامية من بغداد الى القاهرة ، التى لم تمتد اليها جحافل المغول وأسرابهم ، وان كانت قد غرقت فى نهر دجلة كنوز من العلم والمعرفة لايمكن أن تعوض

غير أن الحركة العلمية فى عهـد المماليك لم تتميز بالابتكار والكشف والاختراع ، كما كان الحال فى العصر العباسى ، وانما سارت الحركة سيرا هينا لينا . فنهج الكتاب والعلماء فى العلم أيسر سبله ، وأقلها عناء وجهدا ، وان كان قد ظهر قليل من كتب الطب مثل كتاب «شرح تشريح القانون» لأبى الحسن على بن النفيسى المتوفى سنة ٦٨٧ هـ (١٢٨٨ م) ، والذى كشف نبض الدورة الدموية ، قبل أن يكتشفها العالم البرتغالى سرفيتوس بثلاثة قرون . وكان أبو الحسن هذا عميدا لمستشفى قلاوون . و « كتاب كامل الصناعتين ، البيطرة والزرطقة » لمؤلفه أبى بكر بن المنذر البيطار المتوفى سنة ٧٤١ هـ (١٣٤٠ م) ، وكان مشرفا على اصطبلات الناصر محمد بن قلاوون (١) وكتاب « فضل الخيل » تأليف عبد المؤمن الدمياطى المتوفى سنة ٧٠٦ هـ (١٣٠٦ م) ، والذى كان يحاضر فى المدرسة المنصورية التى أسسها قلاوون

---

(١) تاريخ العرب : تأليف فيليب حتى وترجمة المرحوم مبروك نافع ص ٨٨٦ — ٨٨٧

ولكن اشتهر عصر المماليك بكتب الموسوعات ، وقد بقى لنا منها ثلاث موسوعات عظيمة هى كتاب « نهاية الأرب » للنويرى ، الذى ألفه فى ثلاثين مجلدا ، فى زمن الناصر محمـــد بن قلاوون ، وكتاب «صبح الأعشى» للقلقشندى فى أربعة عشر جزءا . والقلقشندى نسبة الى قلقشندة ، احدى قرى مديرية القليوبية . وقد توفى ســـنة ٨٢١ هـ (١٤٧١ م) وكتاب « مسالك الأبصار » لابن فضل الله العمرى المتوفى سنة ٧٤٩ هـ (١٣٤٨م) ويقع فى أكثر من عشرين جزءا ، وتعتبر هذه الموسوعات معينا خصبا ينهل منه الكتاب والأدباء والمؤرخون فى عصرنا الحاضر

كذلك نشطت كتابة التاريخ ، وازدهر العصر المملوكى بمؤرخين محققين ، تعتبر مؤلفاتهم مصادر أصلية فى دراسة هذه الحقبة من تاريخ مصر . فى مقدمة هؤلاء ابن خلدون ، المتوفى سنة ٨٠٨ هـ (١٤٠٦ م) ، صاحب كتاب « العبر وديوان المبتدأ والخبر فى أيام العرب والعجم والبربر » وأبو الفدا ، المتوفى سنة ٧٣٢ هـ (١٣٣١ م) ، مؤلف كتاب « المختصر فى أخبـــار البشر » ، وابن تغرى بردى المتوفى سنة ٨٧٤ هـ (١٤٦٩ م) ، صاحب كتاب « النجوم الزاهرة ، فى ذكر ملوك مصر والقاهرة » ، وهو يتضمن تاريخ مصر من الفتح العربى الى فتح القسطنطينية سنة ٨٥٧ هـ (١٤٥٣ م) ، وجلال الدين السيوطى المتوفى سنة ٩١١ هـ (١٥٠٥ م) ، مؤلف كتاب «حسن المحاضرة فى أخبار مصر والقاهرة» ، وشيخ المؤرخين تقى الدين أحمد المقريزى ٧٦٦ هـ ـــ ٨٤٥ هـ (١٣٦٤ ـــ ١٤٤٢ م) ، حجة زمانه ، ونابغة عصره . ومن أهم مؤلفاته كتاب « المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار» وكتاب «السلوك لمعرفة دول الملوك» ، وابن اياس المتوفى سنة ٩٣٠ هـ (١٥٢٣ م) مؤلف كتاب « بدائع الزهور فى وقائع الدهور»

ومن كتب التراجم كتاب « وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان » لمؤلفه ابن خلكان المتوفى سنة ٦٨١ هـ (١٢٨٢ م) . وكتاب « الاصابة فى تمييز الصحابة » لابن حجر العسقلانى المتوفى سنة ٨٥٣ هـ (١٤٤٩ م)

وقد راج الأدب القصصى ، فى هذا العهد ، ومن أشهر القصص كتاب ألف ليلة وليلة ، الذى تصور قصصه عصر المماليك ، بطريقة جذابة ، وان انتحلت شخصية هارون الرشيد وشخصيات العصر العباسى الأول لأبطال تلك القصص . كما ذكرت بغداد عوضا عن القاهرة . ومن القصص المشهورة أيضا قصتا عنترة ، والظاهر بيبرس ، وتعتبران من القصص الشعبية التى أعجب بها الشعب كثيرا

الفنون فى عصر المماليك

أوضحنا فيما مضى كيف أن فن العمارة فى عهد المماليك بلغ شأوا عظيما لم يبلغه فى الزمن السابق أو الزمن اللاحق لعصر المماليك . وذكرنا أمثلة لذلك بعض المساجد الشهيرة التى خلدت ذكرهم ، وازدانت بها القاهرة وما تزال . ووصفناها وصفا موجزا بقدر ما سمحت به صحائف هذا الكتاب . ووصفنا ما حفلت به من نقوش وزخارف . وما اشتملت عليه من تحف فنية وطرف غالية

والواقع ان ما أدركه فن البناء من تقدم ، امتد أيضا الى بقية الفنون الاسلامية فى هذا العهد . فازدهرت وارتقت أيما ارتقاء . وغصت قصور المماليك وبيوتهم بالتحف الثمينة من خشبية وخزفية وزجاجية وبلورية وعاجية ونحاسية . وفرشت بالطنافس والأبسطة والرياش الثمينة . ولقد سلمت لنا نماذج كثيرة من كل ذلك ، محفوظة الآن بالمتحف الاسلامى بميدان أحمد ماهر بالقاهرة ، ننصح القارىء ألا يفوته زيارتها ، واستجلاء محاسنها ، والاستمتاع بجمالها الفنى . والآن نأتى على وصف نماذج من تلك التحف ، معتقدين ان ذلك سيستهوى القارىء لرؤيتها فى المتحف الاسلامى المذكور رأى العين

التحف الخشبية :

اشتملت التحف الخشبية فى العصر المملوكى على المنابر والكراسى والدكك والمشربيات والسقوف والأبواب والصناديق . وتمتاز كل هذه

التحف بالأشكال الهندسية البديعة المحفورة عليها ، من مربعات ومعينات ومنحرفات ونجوم تتداخل بعضها فى بعض ، وهى وان كانت لا يتكون منها موضوع كامل متماسك ، الا انه يتكون منها تراكيب غاية فى الرشاقة والابداع .

وقد نشأت فى العصر المملوكى بعض أساليب جديدة فى صناعة التحف الخشبية كتطعيم الحشوات بخيوط أو أشرطة رفيعة « مستريكات » من نوع آخر من الخشب ، أغلى ثمنا ، وأندر وجودا ، أو بالعاج والعظم ، كما كانوا فى بعض الأحيان يكسون الخشب بطبقة دقيقة من الفسيفساء أو الزردشان مكونة من قطع صغيرة من الأبنوس والسن والقصدير

ويوجد فى المتحف الاسلامى بالقاهرة نماذج كثيرة لكل من الأنواع السابقة من أجملها الكرسى المستحضر من مسجد السلطان شعبان (٧٧٠ هـ ـ ١٣٦٩ م) وهو على شكل منشور سداسى من خشب شوح تركى ، مكسو بالفسيفساء الدقيقة من السن والأبنوس ، وزخرفته على شكل عقود فى الحشوات العليا والسفلى من الجوانب . والقاعدة فيها برامق مخروطة من أبنوس وسن ، تشاهد على أرجله كذلك

وكانت هذه الكراسى تستعمل فى قصور المماليك لوضع موائد الطعام عليها . وفى المساجد لحمل الشموع التى توجد بجانب المحراب عند الصلاة نبلا

وشهد عصر المماليك ازدهار صناعة المشربيات (١) ، المصنوعة من الخشب المخروط الدقيق الصنع . وقد كانت المشربيات تمتد من جدران البيوت الى الطريق ، فيختفى النساء وراءها عن أعين المارة فى الطريق ، كما ساعدت على تجميل بعض شوارع القاهرة وطرقاتها ، وعلى اكسابها طابعا فنيا جميلا

---

(١) دليل موجز لمعروضات دار الآثار العربية تأليف فييت وتعريب زكى محمد حسن ص ٥٧

ويفسر بعض المشتغلين بالفنون الاسلامية كلمة مشربية بأنها مشتقة من الشرب ، ويذكر أن القلل كانت توضع خارجها فيبرد ماؤها (١) . ولكن لأستاذنا الجليل ، الأستاذ محمد فؤاد مرابط ، أستاذ تاريخ الفنون بجامعة القاهرة ، تفسيرا مقبولا ، فهو يذكر أن كلمة مشربية قد حرفت عن كلمة مشرفية ، التى تشتق من الشرافات التى تعلو البناء وتشرف عليه ، كالشرافات التى تعلو أسوار الجامع الطولونى . وكلمة مشربية أيسر فى النطق عند العامة من كلمة مشرفية . ومن هذا القبيل تحريفهم اسم « باب الخرق » الى « باب الخلق » وقد أشرنا الى ذلك عند الكلام على الميادين التى أنشأها المماليك للعب الاكرة ، اذ ان الاسم الاخير أكثر سهولة فى نطقه ، وأكثر تداولا ، وان كان أبعد عن المعنى المقصود من التسمية

التحف النحاسية :

وقد امتد تطور الزخرفة فى التحف النحاسية الى الزخارف النباتية والهندسية ، التى رأيناها فى الحفر على الأخشاب ، ولكن فضلا عن ذلك يشهد عصر المماليك تطورا آخر فى التحف النحاسية ، وذلك بتطبيقها أو تكفيتها بالذهب والفضة . وسبق أن ذكرنا فى أسواق القاهرة انه كانت بها سوق خاصة لهذه الصناعة هى « سوق الكفتيين » ، وذكرنا طرفا من المصنوعات النحاسية المكفتة . ولاشك أن القرن الثالث عشر الميلادى هو العصر الذهبى للتحف (٢) النحاسية الفاخرة المكفتة . وزخارف هذه التحف ذات نضرة وبهاء ، يكسبان التحفة بريقا ولمعانا ، تظهر فيها الأساليب الفنية الايرانية . ولقد انتقلت هذه الصناعة الى القاهرة من الموصل ، بعد سقوطها فى يد المغول ، ولقيت فى مصر رواجا عظيما ، حتى ان كل شخص كان يحرص على اقتناء بعض الأوانى النحاسية . ويقول

(١) انظر فهرس مقتنيات دار الآثار العربية تأليف مكس هرتس وتعريب المرحوم على (بك) بهجت ص ١١٢ — ١١٣

(٢) الدليل الموجز لمعروضات دار الآثار ص ٦٤ — ٦٥

المقريزى : « انه كان لايخلو بيت بالقاهرة ومصر من عدة قطع نحاس مكفت »

وبالمتحف الاسلامى بالقاهرة مجموعة كبيرة من تلك الأوانى ، بمختلف أنواعها ، من صوان وكراسى وشماعد ومقالم وتنانير وشبابيك وأبواب. ومن أجمل هذه التحف كرسيان من عهد الناصر محمد بن قلاوون مصنوعان من النحاس المخرم والمنقوش ، ويحمل أحدهما اسم صانعه محمد بن سنقر البغدادى السنانى ، وتاريخ صنعه وهو سنة ٧٢٨ هـ (١٣٢٧م) فى عهد الناصر محمد بن قلاوون

ولما كانت وسائل الاضاءة قديما تعتمد على استعمال الزيوت والشموع فقد قامت صناعة المشكاوات والشماعد والتنانير « الثريات » وكلها قد تناولها الصناع بالنقش والزخرفة ، فصارت كل قطعة منها تحفة فنية رائعة. ومن أجمل الشماعد المحفوظة بالمتحف الاسلامى بالقاهرة شمعدان صنع بأمر السلطان قايتباى سنة ٨٨٧ هـ (١٤٨٢ م) ليهدى الى الحرم النبوى الشريف بالمدينة . وقوام زخارفه كتابات تظهر بوضوح على أرضية من سيقان وفروع نباتية وزهور . وتنتهى حروف الكتابة بأشكال تشبه المقص

ومن أجمل المقالم مقلمة من النحاس مكفتة بالذهب والفضة باسم السلطان الملك المنصور محمد المتوفى سنة ٧٦٤ هـ (١٣٦٣ م) . ومن أجمل التنانير تنور باسم السلطان حسن مؤرخ سنة ٧٦٣ هـ (١٣٦١م) مصنوع من النحاس على شكل منشور مثمن . وفوق التنور قبة صغيرة وهلال

ولا تزال كثير من مساجد المماليك تحتفظ بشبابيكها وأبوابها المكفتة بالذهب والفضة ، كأبواب مدرسة السلطان حسن ومصراعى باب جامع السطان برقوق

الخزف والقاشانى :

ولقد تأثرت صناعة الخزف فى عصر المماليك بصناعة الخزف الايرانى . فبعد أن كانت الطريقة السائدة هى صناعة الخزف ذى البريق المعدنى انتشرت صناعة الخزف ذى الزخارف تحت الطلاء ، واللونان المفضلان هما الأخضر أو الأسمر . والزخارف متنوعة جدا والصور الآدمية نادرة جدا أما الحيوانات فمرسومة فى أوضاع جامدة

ومن أشهر صناع الخزف فى هذا العصر غزيل وغزال ودهين وغيبى والأستاذ المصرى ، ولكل من هؤلاء بالمتحف الاسلامى قطع من آنية تنسب اليه ، وجدت فى حفائر الفسطاط ، حيث كانت توجد مصانع الخزف ، وعلى أكثرها زخارف نباتية من أوراق شجر وغصون مختلفة الأشكال ، محفورة تحت الطلاء ، مما امتازت به زخرفة الخزف فى هذا العصر

وفى نهاية القرن الخامس عشر تظهر فى مصر صناعة القاشانى الذى تكسى به الجدران . ومن أمثلة هذا القاشانى قرص مصنوع فى مصر ، وهو باسم السلطان قايتباى سنة ١٤٩٦ م ، وحروف كتابته بيضاء على أرضية زرقاء . والاطارات المستديرة ، والمقسمة الى ثلاث مناطق بوساطة خطين أفقيين فيها ، توجد كثيرا على العمارات والتحف الفنية فى عصر المماليك ، ومثلها قرص السلطان قايتباى السابق ذكره ، ونص الكتابة عليه « عز لمولانا السلطان ، الملك الأشرف أبو النصر قايتباى ، عز نصره »

التحف الزجاجية :

ولقد صنع الفنانون فى عصر المماليك من الزجاج القوارير والأباريق والكؤوس والمصابيح والزجاجات . وكانت صناعته منتشرة فى مصر وبلاد الشام ، خصوصا فى حلب ودمشق . ولكن أجمل ما صنع منه فى ذلك العصر المشكاوات ، وتعد بحق فخر عصر المماليك فى صناعة الزجاج .

ومن حسن الحظ أن أبقى الزمان على مجموعة كبيرة منها ، محفوظة بالمتحف الاسلامى بالقاهرة ، تعد أكبر وأنفس مجموعة من المشكاوات فى العالم

وهذه المشكاوات مطلية بالمينا ، وعليها زخارف قوامها أشرطة تملؤها كتابات أو جامات وفروع نباتية تقليدية ، ولكن بعضها تغطى سطحه بأكمله رسوم زهور ونباتات شبيهة بما يرى فى زخارف الديباج ، فتبدو كأنها ملفوفة فى زخارف فاخرة من الزهور والأوراق النباتية . ويرى منقوشا على بدن المشكاة وغيرها من التحف الخزفية والمعدنية رسوم أشعرة أو « رنوك » تحمل شارات السلاطين والأمراء ورؤساء الجند فى دولتى المماليك الذين صنعت لهم هذه التحف ، كالكأس والدواة والسيف والصولجان . وقد وردت على كثير من المشكاوات الآية القرآنية الكريمة : « الله نور السماوات والأرض . مثل نوره كمشكاة فيها مصباح . المصباح فى زجاجة . الزجاجة كأنها كوكب درى »

وأكثر أسماء السلاطين ورودا على هذه المشكاوات اسم السلطان حسن ، الذى جلب من مسجده أكبر عدد منها ، ثم الناصر محمد بن قلاوون ، ثم السلطان برقوق ، والأشرف أبو النصر قايتباى . ومن الأمراء الأمير سلار ، والأمير ألماس ، وآق سنقر ، وطغيتمر ، وشيخو

ومن بين هذه المشكاوات مشكاة وكرتها من زجاج بالمينا ، تظهر كأنها محاطة بشبكة من حبال مجدولة ، معقدة ، بالتماثل ، تنشأ منها جامات غير منتظمة ، تحتوى على زهور ، أوراقها مختلفة الألوان من أزرق وأخضر وأحمر . والكرة والمشكاة هما باسم السلطان حسن سنة ٧٦٤ هـ (١٣٦٣ م) (١)

النسوجات (٢) :

اضمحل نسج الكتان بمصر فى عصرى الأيوبيين والمماليك ، وزادت

(١) البوم دار الآثار العربية ، تأليف جستون فييت ، ترجمة الاستاذ حسن الهوارى ص ٩٦
(٢) فنون الاسلام ، الدكتور زكى محمد حسن ص ٣٦٥

العناية بنسج الحرير وتطريزه ، وبتزيين المنسوجات بالزخارف المطبوعة المتنوعة التى تشبه الزخارف التى نراها على التحف الخزفية والمعدنية فى العصر نفسه . ومما تجب ملاحظته أن نسج الحرير فى عصر المماليك قد تأثر الى حد كبير بمنتجات الشرق الأقصى التى أدخلها المغول فى العصر الاسلامى الى الأقطار الاسلامية اما عن طريق التجارة أو عن طريق الهدايا ، فقد ذكرت المصادر التاريخية أخبار بعثات تبودلت بين المماليك والمغول تحمل الهدايا القيمة من المنسوجات النفيسة . لذلك توجد قطع عليها أسماء سلاطين المماليك ، ولكن يصعب الجزم بأنها من صناعة مصر أو عمال مصريين

ومع انحطاط المنسوجات الكتانية فى عصر المماليك ، وجد قليل منها ، مثال ذلك قطعة محفوظة بالمتحف الاسلامى من القرن السابع الهجرى (الثالث عشر الميلادى) يبدو فى زخرفتها ما امتاز به هذا العصر من استعمال خط النسخ فى كتابة العبارات الدعائية مثل «العز الدائم والاقبال» و « سيادة مؤبدة ، ونعمة مخلدة » فضلا عن الاقبال على الزخارف النباتية ، والأشكال الهندسية من مثلثات ودوائر ومعينات ، ورسوم القطعة المذكورة مطرزة بالحرير الأسود والأزرق

الباب السابع

القاهرة

في عهد العثمانيين

من ٩٢٢ — ١٢١٣ هـ (من ١٥١٧ — ١٧٩٨ م)

— ١ —

لم يفت العثمانيين ، بالرغم من توغلهم فى شرق أوربا ، واستيلائهم على كثير من أقطارها ، ما عليه دول الشرق الاسلامية من رغد وغنى ، وما تجنيه الدولة العثمانية من قوة ، وشدة بأس وثبوت قدم ، من وراء الاستيلاء عليها ، بالاضافة الى الغنى والثروة ، التى كانت تزخر بهما تلك الدول . ولم يغب عن العثمانيين ما كان للشرق من حضارة عظيمة ، استضاء العالم بنورها ردحا من الزمان ، وأن مصر كانت مركز تلك الحضارة

فما أن تولى السلطان سليم الأول عرش آل عثمان سنة ٩١٨ هـ (١٥١٢م) ، الا وأخذ يعد العدة ، وينتحل الأسباب لغزو الدولتين العظيمتين فى الشرق الاسلامى ، ألا وهما مصر وايران . فبدأ بالثانية باعتبارها زعيمة الشيعة ، ومحرضة رعاياه الشيعيين على التمرد والعصيان . وجهز فى سنة ٩٢٠ هـ (١٥١٤ م) جيشا قاده بنفسه ، واستولى على ديار بكر وكردستان ، وتوغل فى ايران ، حيث تقابل مع الشاه اسماعيل الصفوى فى جمادى الثانية سنة ٩١٨ هـ (أغسطس سنة ١٥١٢) بالقرب من تبريز ، وأنزل بالشاه اسماعيل هزيمة ساحقة ، ثم رجع الى بلاده غالبا منصورا

لم يكن هناك بعد ذلك ريب فى أن سليما سيكر الكرة على مصر ، ولم

يصعب عليه أن يتصيد بعض المعاذير للاعتداء عليها ، والفتك بها ، والاستيلاء على وادى النيل وبلاد الشام . فهو ينعى على السلطان الغورى ارتباطه مع الشاه اسماعيل الصفوى بمحالفة سرية ، كما يتهمه بايواء الأمراء العثمانيين ، الفارين من بطشه وجبروته . ولكى يظهر استهانته بحكومة مصر ، استولى على احدى الأمارات الواقعة على حدود الشام ، التى كانت تستظل بحماية المماليك ، وهى امارة ذى الغادر « دلغادر » سنة ٩٢١ هـ (١٥١٥ م)

ولما أحس الغورى بشرر العدوان يتطاير من القسطنطينية ، خرج وكانت سنه قد أوفت على السبعين ، فى جيش كبير لملاقاة سليم على حدود الشام ، قبل أن يتوغل فى أرض مصر ، فتتعذر مقاومته . وكان سليم قد جهز جيشا كبيرا ، كامل العدد والعدة ، واصطحب معه ، فضلا عن ذلك ، شرذمة من الجواسيس والخونة المارقين من المماليك ، ليدلوه على مواطن الضعف فى الجبهة المصرية ، وليستميلوا قواد الجيش الى جانب العثمانيين ، فتتحقق هزيمة الجيش المصرى بقوة السلاح ، وبفعل الختل والخديعة . ولقد استطاع سليم فعلا أن يشترى ذمم بعض المماليك أمثال خايربك الچركسى نائب حلب ، وچان بردى الغزالى ويونس العادلى ، والسمرقندى بأن مناهم بأجل المناصب وأرفعها

وتقابل الطرفان فى مرج دابق ، على مسيرة يوم شمالى حلب ، فى ٣٠ رجب سنة ٩٢٢ (٢٩ أغسطس سنة ١٥١٦) والتحم الجيشان فى وقعة حامية ، وكادت الدائرة تدور على العثمانيين ، لولا أن سعى الجواسيس بالفتنة بين صفوف الجيش المصرى ، ولولا أن تقهقر خاير بك بميسرة الجيش ، وانهزام ميمنته . فبقى الغورى فى المعركة بمفرده ، وانفض الجميع من حوله ، وقتل تحت سنابك الخيل ، وانجلت الوقعة عن انتصار العثمانيين انتصارا حاسما . فتقدم سليم الى حلب واستولى عليها ، ثم الى دمشق التى فتحت له أبوابها ، وأصبح الطريق الى مصر ممهدا ميسورا

وصلت أخبار الهزيمة الى القاهرة ، فأخذ طومان باى نائب السلطنة يستحث المماليك على الخروج لملاقاة العثمانيين قبل أن يطبقوا عليهم فى القاهرة ، ويستنفرهم للقتال ، ولكنه لم يلق منهم الا تقاعسا وصدودا . وأخيرا وصلت مقدمة الجيش العثمانى الى الصالحية ، وأصبح الخطر ماثلا لعيونهم ، فهبوا لملاقاة الغزاة الفاتحين ، ودارت بين طوماى باى وسليم وقعة أعظم من وقعة مرج دابق ، بميدان الريدانية ، فى ٢٨ ذى الحجة سنة ٩٢٢ (٢٢ يناير سنة ١٥١٧) ، قتل فيها من العثمانيين خلق كثير، ولكنهم استماتوا فى القتال ، وانقسموا الى فريقين : أحدهما جاء من تحت الجبل الأحمر ، وهاجم القسم الآخر معسكر الريدانية ، ولم تمض سوى ساعات معدودات حتى حاقت الهزيمة بالمماليك ، فولوا الادبار . وظل طوماى باى يحارب فى نفر قليل من العبيد والمماليك السلحدارية ، ولما لم تجد المقاومة ، ولى هو الآخر هاربا . وقد عمل الخونة عملهم فى هذه الوقعة أيضا ، ونقلوا الى العثمانيين أسرار الجيش وأخباره

وفى ٢٥ يناير نقل سليم معسكره من شمال الريدانية الى بولاق ، ثم دخل القاهرة فى اليوم التالى من باب النصر ، ودهم طومانباى المعسكر العثمانى مرتين ، ولكن دون جدوى ، فاضطر أخيرا للتسليم بالهزيمة ، واختبأ لدى أحد مشايخ العربان فى البحيرة وكان لطوماى باى عليه أياد كثيرة ، وفضل سابق ، الا انه لم يرع شيئا من كل ذلك ، وسلم طومان باى للعثمانيين . فشنقه سليم على باب زويله فى ٢٣ ربيع الأول سنة ٩٢٣ (١٥ ابريل سنة ١٥١٧) ، وترك جثته معلقة ثلاثة أيام، تشفيا منه وانتقاما. ثم دفنت بعد ذلك . ولقد بكاه الناس كثيرا ، لشجاعته وابائه ونبله ، وكان عمره اذ ذاك أربعين عاما

استتب الأمر اذن لسليم الأول ، وخلص له ملك مصر ، وقضى على دولة المماليك ، وكافأ خاير بك ، جزاء خيانته ونذالته ، بالولاية على مصر، كما تولى النذل الآخر، جان بردى الغزالى ، أمر بلاد الشام . وشرع سليم

بعد ذلك يضع لها نظاما لادارتها ، بحيث تظل أبد الدهر مستعمرة عثمانية ، وكبلها بالقيود التى لا فكاك لها منها ، والتى تقضى على حضارتها الغابرة ، وتزج بها فى دياجير البؤس والشقاء . ولا عجب أن يصف المؤرخون عهد الاحتلال العثمانى لمصر ، الذى استمر قرابة ثلاثة قرون ، بالعهد المظلم فى تاريخ مصر

وكان من نتائج سقوط مصر فى أيدى الأتراك العثمانيين ، أن قبض السلطان سليم على الخليفة العباسى ، وأجبره على الرحيل معه الى القسطنطينية . وبذلك لم تفقد مصر استقلالها وحريتها فحسب ، بل قضى أيضا على الخلافة التى انتقلت الى مصر منذ عهد الظاهر بيبرس ، وأصبح السلطان العثمانى يلقب منذ ذلك الحين « بمالك البرين والبحرين ، وكاسر الجيشين ، وسلطان العراقين ، وامام الحرمين الشريفين »

ظلت مصر خاضعة للعثمانيين منذ سنة ١٥١٧ م حتى سنة ١٧٩٨ م ، حين غزاها الفرنسيون بقيادة نابليون بونابارت ، ولم تدخر وسعا طوال هذه القرون الثلاثة فى نفض السيطرة العثمانية عن كاهلها ، واستعادة حريتها واستقلالها . ولكن تعذر ذلك عندما كانت الدولة العثمانية ماتزال فى عنفوانها وكامل قوتها ، فلما دب الضعف فى أوصالها ، سنحت لها الفرصة لادراك بغيتها ، وكان البطل الذى نادى باستقلالها هو على بك ، الذى لقب فيما بعد بعلى بك الكبير

على بك الكبير :

كان على بك مملوكا بيع فى سوق الرقيق بالقسطنطينية ، ثم اشتراه ابراهيم كتخدا أحد أمراء المماليك فى مصر سنة ١١٥٧ هـ (١٧٤٤ — ١٧٤٥ م). وامتاز بقوة الشخصية ، والطموح ، لذلك ظل يتغلب على منافسيه من المماليك حتى وصل الى وظيفة شيخ البلد ، سنة ١٧٦٣ م ، وتلى وظيفة الوالى العثمانى فى الأهمية . وانتهز فرصة اشتباك الدولة العثمانية فى حرب مع الروسيا سنة ١١٨٢ هـ (١٧٦٩ م) فأعلن استقلاله بمصر

وأخذ على بك بعد ذلك فى تحقيق الأمنية التى كانت تكمن فى نفسه ، وهى تحقيق السلطنة المملوكية ، واستعادة مجد المماليك الغابر ، فأرسل سنة ١١٨٤ هـ (١٧٧٠ م) حملة كبيرة بقيادة محمد أبى الذهب استولت على الحجاز . وأرسل فى سنة ١١٨٥ هـ (١٧٧١ م) حملة أخرى ، بقيادة محمد أبى الذهب أيضا للاستيلاء على الشام ، فدخل أبو الذهب دمشق ، وعادت الشام بذلك الى حكم مصر ، كما كان الحال فى عهد المماليك

ولكن العثمانيين الذين لم يكن لديهم من القوة ما يقهرون به على بك ، كانت لديهم أسلحة أخرى لا تقل مضاء عن السيف والمدفع ، تلك هى أسلحة الدس والوقيعة ، التى انتصروا بها على الغورى فى مرج دابق ، وعلى طومان باى فى الريدانية. فأخذوا يستميلون اليهم أبا الذهب، ويمنونه بحكم مصر ، وشق عصا الطاعة على سيده على بك . فعاد أدراجه بجيشه الى مصر ، وهزم على بك ، واستولى على مصر . ففر على بك الى الشام ، حيث أعد جيشا يستعيد به مصر ، ويحارب به أبا الذهب ، ولكنه هزم عند الصالحية وأخذ أسيرا الى القاهرة ، حيث مات متأثرا بجراحه فى صفر سنة ١١٨٧ هـ (مايو سنة ١٧٧٣) وبذلك رجعت مصر ثانية الى جبروت العثمانيين

حكم مصر محمد أبو الذهب نائبا عن السلطان العثمانى ، جزاء له على نذالته وخيانته لسيده على بك ، ولكنه لم ينعم بحكمها أكثر من عامين ، توفى بعدهما ملوما مدحورا . وخلفه على عرش مصر ثلاثة من المماليك هم البكوات : اسماعيل ، وابراهيم ، ومراد ، ولكن الأخيرين اتحدا ضد الأول ، واستأثرا بالسلطة ، وصارا يتناوبان مشيخة البلد وامارة الحج ، وهما السلطتان الادارية والحربية ، فكان ابراهيم عادة شيخ البلد، ومراد بك أمير الحج وقائد الجيش . وظل الحال كذلك الى أن دهمت الحملة الفرنسية مصر فى يوليو سنة ١٧٩٨، فانتهى حكم البكوات المماليك نهائيا من مصر ، وتقلص ظل الدولة العثمانية منها أيضا .

- ٢ -

لم يطرأ على القاهرة فى العهد العثمانى أى تغيير أو تبديل فى تخطيطها ، ولم تتسع مساحتها أو تزدد رقعتها عما كانت عليه فى عهد المماليك . ولم تساير الزمن فى تقدمه . بل ظلت طوال الاحتلال العثماني جامدة صامدة. ولا نغالى اذا قلنا انها رجعت القهقرى كما أراد لها سليم الأول . وظلت تتلاشى تدريجيا (١) بسبب الفقر الذى خيّم على البلاد ، وسوء حكم الباشوات ، وعبث البكوات المماليك ، وكثرة ما كان يشتعل فى أنحاء القاهرة من فتن وثورات ، يتخذ الثوار خلالها من المساجد حصونا ومعاقل ، خصوصا مساجد أحمد بن طولون ، والسلطان حسن ، والمحمودية ، والماس ، ويطلقون قذائف المدافع من الأسطح والمآذن ، فتصدعت جدرانها ، وأصابها كثير من التلف والدمار . فتسبب عن ذلك أن أقفر حى القلعة من سكانه ، وتحولت قصور الأغنياء فيها الى أحواش سكنها الرعاع . اذ هجرها أصحابها الى حيىّ بركة الفيل والأزبكية ، اللذين أصبحا المقرين المفضلين لدى الأمراء والخاصة

وظلت القاهرة بحدودها القديمة المعروفة ، وكان باب الحديد نهاية حدود مبانيها جهة الشمال الغربى ، والأزبكية وما حولها من مبان نهاية العمران غربا . والطريق بينها وبين بولاق مقفرة ، خالية من العمران . لذلك كانت بولاق تعد من ضواحى القاهرة فى ذلك العهد . كذلك كانت مصر القديمة أيضا . وكانت الطريق بين الناصرية ومصر القديمة مقفرة من المساكن ، ليس بها الا مزارع وحدائق . ولم يكن على شاطىء النيل سوى بعض مبان قليلة ، كقصر ابراهيم بك « قصر العينى » ، تجاه الروضة ، وبجواره بيت لمحمد كاشف الأرناءوطى ، وعن شماله بيت لمصطفى بك .

وكانت بولاق مرفأ القاهرة فى الشمال ، ومقرا للجمارك ، ومصر القديمة

(١) سيرة القاهرة لستانلى لين بولس ٢٢٢

مرفأها فى الجنوب . والأولى فرضة تجارة الوجه البحرى ، والثانية فرضة تجارة الوجه القبلى

وأطول شوارع القاهرة هو الموصل بين باب الحسينية وباب السيدة نفيسة . ولم يكن بها سوى أربعة ميادين هى : قره ميدان ، تحت القلعة ، وميدان الرميلة ، المجاور لقره ميدان ، ويفصلهما باب اسمه قره ميدان ، وميدان بركة الفيل ، وميدان الأزبكية أو ميدان بركة الأزبكية ، لامتلائه بمياه النيل وقت الفيضان ، فيصبح بركة يتنزه فيها الناس بالزوارق ليلا ونهارا ، وتوقد المصابيح فى البيوت المطلة عليها ، فيكون المنظر بهيجا ، ولا سيما فى الليالى المقمرة

وقد وصف الشيخ حسن العطار أحد أدباء ذلك العصر بركة الأزبكية(١) فقال : « وأما بركة الأزبكية فهى مساكن الأمراء ، وموطن الرؤساء ، قد أحدقت بها البساتين الوافرة الظلال ، العديمة المثال ، فترى الخضرة فى خلال تلك القصور المبيضة ، كثياب سندس خضر على أثواب من فضة ، يوقد بها كثير من السرج والشموع ، فالأنس بها غير مقطوع ولا ممنوع ، وجمالها يدخل على القلب ، ويذهل العقل ، حتى كأنه من النشوة مخمور »

ومن بين قصور الأمراء المشرفة على بركة الأزبكية قصر « رضوان بك الجلفى» وقصر «أحمد الشرايبى» وكان من أغنى تجار القاهرة اذ ذاك ، وقصر محمد بك الألفى ، الذى أصبح فى عهد الحملة الفرنسية دارا للقيادة العامة للجيش الفرنسى ، ومسكنا للقائد العام . وفى حديقته قتل كليبر ، خليفة نابليون ، اذ قتله سليمان الحلبى بتحريض من العثمانيين

وكثرت بأحياء القاهرة الأخرى الأبنية المتخربة ، اذ عفت الميادين والرحاب والمتنزهات ودرست قصور الخلفاء والسلاطين ، وما شيدوه من

---

(١) الازبكية نسبة الى الامير ازبك من ططخ ، مشيد جامع ازبك ، الذى كان قريبا من البركة وقد هدم عام ١٨٦٩ م

العمائر والمناظر والدواوين والمــدارس ودور الكتب وغيرها من معالم الحضارة والعمران ، ولم يقف الهدم والتخريب عند هذا الحد ، بل لقــد ازدادا تفاقما فى عهد الاحتلال الفرنسى ، كما سيأتى شرح ذلك فى موضعه

وفى الجهــة البحرية لبركة الأزبكية قام الحى القبطى ، وكان جزءا من خط المقس ، وفى سنة ١٧٩٩ م نقلت اليه البطرياركية القبطية منحارة الروم بالدرب الأحمر ، وشيدت الكنيسة المرقسية الكبرى

وفى شرقى البركة كان يوجد حى الافرنج ، حيث أنشأوا مساكنهم ، وأقاموا متاجرهم ، وبنوا الفنادق لينزل فيها السائحون الأوربيون ، الذين يزورون القاهرة . وفيه كانت توجد دور قناصل الدول الأوربية . وشرقى هذا الحى كان يوجد حى اليهود ويعرف بحارة اليهود ، وما يزال يوجد الى اليوم فى موضعه . ويمتد جنوبى هذين الحيين شارع الموسكى ، وكان يصل بين بركة الأزبكية والخليج المصرى الكبير . وقد سمى كذلك ، لأنه كانت توجد فوق الخليج ، تجاه هذا الشارع ، قنطرة شيدها عز الدين موسك ، أحد قواد صلاح الدين

وكانت القاهرة مقسمة الى أثمان وأخطاط . وكان كل خط يحتوى على شــوارع . وتنقسم الشــوارع الى دروب وحارات وعطفات . وأغلب الحارات والعطفات غير نافذة ، الا الى الدروب . فكانت المدينة أشبه شىء بعدة قرى مجتمعة . والدروب والعطفات والحارات عليها « بوابات » ، وتغلق كل بوابة بعد العشاء ، وينام خلفها بواب ، يستأجره أهل الحارة . ولا يتأخر أحد بعد العشاء عن الحضور الى بيته الا للضرورة (١)

وبالرغم مما أصاب القاهرة من ركود ، وما قصد بها من شر ، وما حل بمبانيها ودورها من خراب ودمار ، فقد ظلت محتفظة بمكانتها التاريخية . اذ ما زالت تعتبر بالرغم من كل ذلك أعظم مدن الشرق قاطبة ، وما زالت

---

(٢) تاريخ الحركة القومية الجزء الاول ص ٥٩

بها المساجد والمدارس ، وتزخر بالحمامات والخانات والتكايا والحوانيت والوكالات التى تجلب اليها البضائع من مختلف الأقطار

- ٣ -

العمارة فى عهد العثمانيين :

وصفنا فيما سبق كثيرا من المنشآت فى عصر المماليك ، وشرحنا مبلغ ما وصل اليه فن البناء من تقدم وازدهار . ولا نغالى اذا قلنا انه وصل الى قمة التقدم وذروة الرقى

فلما وقعت مصر تحت سيطرة العثمانيين ، دخل فن البناء فى فترة ركود عميق ، وانحطاط ظاهر . وليس فى ذلك شىء من الغرابة ، فالمشاهد أن تقدم فن البناء وغيره من الفنون رهن بتشجيع القادة والأمراء وذوى اليسار . فاذا ما انقطع هـذا التشجيع ، أدرك الركود والانحطاط تلك الفنون

والسلطان سليم ، فيما وضعه من آنظمة للبلاد ، بعد أن تمت له السيطرة عليها ، لم يكن ليعنى برفاهيتها وتقدمها ، بقدر اهتمامه بربطها بعجلة الأمبراطورية العثمانية ، واستنزاف مواردها ، وابتزاز أموالها ، واذلال أهلها . ولم يكن ليهمه مطلقا أن تتابع القاهرة تقدمها ، وأن تزدهر العمارة فيها ، وتسير فى الطريق التى رسمها لها صلاح الدين ، والمماليك من بعده. بل أكثر من هذا كان يهمه أن يأفل نجم القـاهرة ، وأن ينحط شـأنها ، وألا يتحدث الناس بأخبارها فى مشارق الأرض ومغاربها ، وأن ينزع من بديها مشعل الحضارة الذى ظلت تحمله عدة قرون ، وأن يتحول اهتمام النـاس عنها الى القسطنطينية ، مركز السلطنة الجديد ، ومستقر خلافة المسلمين الحـديث . يؤيد ذلك ما ذكره ابن اياس [1] ، المؤرخ المصرى

(١) ولد محمد بن اياس بالقاهرة سنة ٨٥٢ هـ ، وتوفى بها سنة ٩٣٠ (١٤٤٨ – ١٥٢٣ م) وقد ألف كتابا فى تاريخ مصر هو (بدائع الزهور فى وقائع الدهور) وهو ثلاثة أجزاء

الذي عاصر حوادث الغزو العثماني لمصر ، من أن سليما عندما عزم على العودة الى القسطنطينية ، وسافر الى الاسكندرية ، أمر بحبس ألفين من المصريين ، من رجال الحرف والصناعات ، وكبار المباشرين والتجار ، الى جانب من القضاة والأعيان والأمراء والمقدمين ، حبسهم فى أبراج الاسكندرية وخاناتها ، انتظارا لقيام المراكب بهم الى القسطنطينية . وكان قد نزع من بيوت مصر والقاهرة أثمن ما فيها من منقول وثابت ، حتى الأخشاب والبلاط والرخام والأسقف المزيكة والأعمدة السماقية بألوان القلعة ، ومجموعة المصاحف والمخطوطات والمشاكى والكراسى النحاسية والمشربيات والشمعدانات والمنابر

فعل سليم السفاح بالقاهرة ما فعله هولاكو الجبار ببغداد فى منتصف القرن الثالث عشر ، وتيمورلنك العاتى بالشام فى أواخر القرن الرابع عشر ، من سلب ونهب ، وازهاق للأرواح وسفك للدماء . وعمل على طمس معالم الحضارة فى القاهرة كما طمسها التتار البرابرة فى بغداد من قبل . وكان الولاة الذين تبعث بهم القسطنطينية الى القاهرة فى الغالب طغمة من الأتراك القساة ، الذين يجهلون ألوان الحضارة الاسلامية ، ولا يقيمون لها وزنا ، ولا ينتظر منهم تشجيع لها ، أو الاسهام فى تقدمها . هذا فضلا عن قصر مدة بقائهم فى ولاية مصر ، حتى لا يُحدّث الواحُد منهم نفسه بالاستقلال بها عن الأمبراطورية . لذلك لم يكن للوالى التركى همٌّ سوى جمع المال وابتزاز التحف والهدايا من الناس . فلم يكن يعنى بتخليد ذكره ، بانشاء أية مبرة فى القاهرة ، تذكّر المصريين بعهده السعيد !! ، لأنه راحل عما قريب الى وطنه ، مشيعا باللعنات ، لما اقترف من جرائم وآثام

ومهما يكن من أمر فقد ظل قبس من نور الماضي يلمع فى أفق القاهرة ، وتشبّه قليل من الولاة وبعض السراة والتجار والأعيان برجالات مصر فى العهد السابق . وشيدوا بعض المساجد والقصور والوكالات والخنقاوات والأسبلة والكتاتيب ، ولكنها كانت دون مثيلاتها المملوكية روعة وجمالا ، ولا تدانيها فى فخامتها وأبهتها

مميزات العمارة فى هذا العهد :

ويغلب الطابع البيزنطى على مساجد هذا العهد ، هذا الطابع الذى جلبه الولاة الأتراك معهم من القسطنطينية ، والذى كان يتمثل فى كنيسة أيا صوفيا ، التى حولها الأتراك الى مسجد ، بعد فتحهم القسطنطينية فى عهد محمد الفاتح سنة ٨٥٧ هـ (١٤٥٣ م) . ويتجلى بصفة خاصة فى جامع سليمان باشا بالقلعة ، وجامع سنان باشا ببولاق ، وجامع الملكة صفية ، وجامع محمد أبى الذهب ، وجامع محمد على بالقلعة

ففيها نرى المآذن المشوقة الرفيعة ، الاسـطوانية الشكل ، والتى تنتهى دائما بمسلة مخروطية ، مكسو ظاهرها بألواح من رصاص ، وكثرة القباب . والمسجد غالبا عبارة عن قبة كبيرة ، أمامها حوش مكشوف ، تحيط به أروقة ذات قباب صغيرة ، ولكن مع ذلك وجدت عدة تصميمات جديدة للمسجد ، فمن مربع تتوسطه أربعة أعمدة تحمل السقف ، الى مستطيل مكون من ايوانين ، تتوسطه درقاعة ، الى مساجد مثل المساجد الجامعة ، يتوسطها صحن مكشوف (١) ووجدت عناصر جديدة للزخرفة ، لم تكن شائعة قبل ذلك ، من هذا كسوة القباب والجدران بالقاشانى ، وتغطية الأرضيـة والوزرات بالرخام الملون ، ونقش الأسقف بالألوان البراقة . وانتشر انشـاء السـبيل يعلوه الكتّاب منفردا ، وغير ملتحق بالمسجد . كما انتشر انشاء الدور ذات المقاعد والمشربيات الجميلة

أهم المنشآت

ومن أهم المساجد التى شيدت فى هذا العهد :

مسجد المحمودية : ويوجد بميدان صلاح الدين ، أمام باب العزب ، أحد أبواب القلعة ، وشرقى مسجد السلطان حسن ، وقبلى مدرسة قانى باى الرماح

---

(١) العمارة فى عصر محمد على (باشا)، من مقال للاستاذ حسن عبد الوهاب بمجلة العمـارة ، العدد ٣ ــ ٤ سنة ١٩٤١

أنشأه محمود باشا ، أحد الولاة الأتراك سنة ٩٧٥ هـ (١٥٦٧ — ١٥٦٨ م) . وهو مرتفع عن مستوى الشارع ، ويصعد اليه بسلم . وداخل هذا المسجد عبارة عن مربع ، يتوسطه أربعة أعمدة كبيرة من الجرانيت ، تحمل منورا كبيرا مرتفعا عن السقف . وحول الأعمدة أسقف المسجد ، وهى مموهة بالذهب والألوان

وفى جدار المحراب باب يوصل الى قبة ملحقة بالمسجد ، وبارزة عنه . وهذا التصميم مقتبس من مسجد السلطان حسن ، كما اقتبس منه أيضا قاعدة المئذنة من حيث الوضع والشكل ، وان كان جزؤها العلوى تركى الطراز (١)

مسجد الملكة صفية : بشارع القلعة « شارع محمد على سابقا » . وقد أمرت بانشائه الملكة صفية ، والدة السلطان محمد خان الثالث سنة ١٠١٩هـ (١٦١٠م) . وهو مرتفع عن مستوى الشارع ، كالمسجد السابق ، ويصعد اليه بسلالم دائرية . ويتكون من جزءين : أحدهما الصحن ، والثانى القبة ، التى توجد شرقى الصحن . وهى محمولة على ستة عقود تحملها ستة أعمدة من الجرانيت . وبوسط الجانب الشرقى فجوة بها محراب ومنبر من الرخام المزخرف

والجامع كبقية المبانى التركية فى مصر مبنى بالحجر الأحمر (٢)

مسجد البردينى : وهو بشارع الداودية . أنشأه كريم الدين أحمد البردينى سنة ١٠٢٥ — ١٠٣٨ هـ (١٦١٦ — ١٦٢٩ م) . وقد بلغ بناء هذا المسجد درجة من الاتقان لا تشاهد فى العصر التركى ، وانما ترجع الى العصر المملوكى الزاهر : فالجدران مكسوة بوزرة من الرخام الدقيق المختلف الألوان بها كتابات بالخط الكوفى المربع ، ومنتهية بطراز من الرخام الدقيق ، والمحراب من الرخام البالغ حد الاتقان والشبابيك من

(١) دليل موجز لاشهر الآثار العربية بالقاهرة ص ١٨٨
(٢) المصدر السابق ص ١٩٢

الجص المحلى بزجاج ملون . وبجوار المحراب منبر صغير مطعم بالصدف والسن . وبالجهة الغربية دكة المبلّغ ، ودرابزينها من الخرط اللطيف ، وسقف الجامع محلى بنقوش مذهبة

وتختلف المئـذنة عن مآذن المســاجد التركية بأنها مكونة من ثلاث دورات ، مملوءة بالكتابات والنقوش (١) فهى والحالة هذه مصرية الطراز

مسجد سنان باشا : وهو موجود بشارع السنانية ، ببولاق ، أنشأه سنان باشا بن على بن عبد الرحمن ، أحد ولاة مصر الأتراك سنة ٩٧٩ هـ (١٥٧١ م) . وهو يتكون من قاعة واسعة ، تعلوها قبة شاهقة ، يحيط بها من ثلاثة جوانب ، أواوين ، صنعت أسقفها من قبوات صغيرة محمولة على عقود متكئة على أعمدة رخامية . ويحلى القبة من داخلها ومن خارجها شبابيك جصية ، بها زجاج ملون ، وزواياها الأربع مكونة من طاقة كبيرة بداخلها مقرنص يتوسطه لفظ الجلالة

والمحراب من الرخام الدقيق ، يجاوره منبر من الخشب ، ومئذنة هذا المسجد بسيطة الشكل ، مقامة فى الطرف الشرقى القبلى للواجهة (٢)

جامع محمد أبو الذهب : وشيده محمد بك أبو الذهب سنة ١١٨٧ هـ (١٧٧٣ م) وله واجهتان : احداهما شرقية ، وتواجه الجامع الأزهر ، والثانية بحرية تطل على ميدان الأزهر . وبكل من الواجهتين باب يصعد اليه بسلم حجرى

والمسجد عبارة عن قبة يحيط بها ثلاثة أروقة مسقوفة بقبوات محمولة على عقود متكئة بأطرافها على أعمدة من رخام . ويحيط بالأروقة الثلاثة طرقة مكشوفة، وبالقبة محراب مكسو بالرخام يجاوره منبر مطعم بالصدف. وبرقبة القبة مجموعة من النوافذ المغطـاة بشبابيك من الجص والزجاج الملون ، وباطن القبة محلى بنقوش مذهبة

---

(١) دليل موجز لاشهر الآثار العربية ص ١٩٣
(٢) المصدر السابق ص ١٩١

وتختلف مئذنة هذا المسجد الموجودة بنهاية الطرقة القبلية عن المآذن التركية كل الاختلاف ، اذ أنها مربعة ومنتهية بخمسة رءوس . وغربي دورة المياه سبيل وتكية ملحقان بالجامع . وقد عمل هذا المسجد على مثال جامع سنان باشا (١)

تجديد المساجد واصلاحها : بالاضافة الى ماذكرآنفا من المساجد التى تم انشاؤها فى العهد التركى ، فقد حظيت بعض المساجد القديمة برعاية الأمراء والولاة الأتراك، فتعهدوها بالتجديد والاصلاح. ولم يكن اصلاح المبانى مما ينجح دائما ، فكثيرا ما كانت التعـديلات التى أدخلها الأتراك على التحف والروائع القديمة سببا فى تشويهها

ومن المساجد التى جددت مسجد المؤيد الذى كان متهدما فقد أصلحه أحمد باشا أحد الولاة الأتراك سنة ١١٠٢ هـ (١٦٩٠م) . كما جـدد مسجد الظافر الفاطمى المعروف باسم الفكهانى سنة ١١٤٨ هـ (١٧٣٥ م)

تجديد الجامع الأزهر : ولكن أضخم تجديد حظى به مسجد فى القاهرة هو ما قام به الأمير عبد الرحمن كتخدا من اصلاحات بالجامع الأزهر ، وما رتبه من خيرات ومبرات ، مما استحق معه أن يطلق عليه اسم « المصلح الكبير والمحسن العظيم » . وقد جاراه فى هذا المضمار الأمير عثمان كتخدا القزدوغلى(٢) . فقد بنى هذا أيضا سنة ١١٤٨ هـ (١٧٣٥م) زاوية بالأزهر ، يصلى فيها العميان سميت بزاوية العميان ، وجدد رواق الأتراك ورحبته ورواق السليمانية « الأفغانيين » وأنشأ مسجده بميدان الأوبرا

أما عبد الرحمن كتخدا فقد أجرى فى الأزهر عمارات وخيرات عظيمة ، فزاد فى سعة الجامع بمقدار النصف تقريبا ، خلف المحراب القديم ، وأنشأ

---

(١) دليل موجز لاشهر الآثار العربية ص ٢٠٨
(٢) جاء فى سيرة القاهرة لستانلي لينبول ترجمة الدكتور حسن ابراهيم وآخرين ص ٢٤٣ أن الامير عبد الرحمن كتخدا ابن الامير عثمان كتخدا القزدوغلى وهذا غير صحيح

قبلة للصلاة ومنبرا للخطابة ، وشيد مدرسة لتعليم اليتامى وعمل صهريجا للمياه ، وشيد له قبرا دفن فيه ، وتصدق على فقراء المجاورين بالطعام والكساء . ويقول الجبرتى انه « أنشأ مقصورة فى الجامع مقدار النصف طولا وعرضا ، وتشتمل على خمسين عمودا من الرخام ، تحمل مثلها من البوائك المقصورة المرتفعة المتسعة من الحجر المنحوت ، وسقف أعلاها بالخشب النقى ، وبنى محرابا جديدا ومنبرا . وأنشأ له بابا عظيما جهة كتامة « المعروفة بالدواداري » وهو المشهور بباب الصعايدة ، وبنى بأعلاه مكتبا ، له قناطر معقودة على أعمدة له من الرخام ، لتعليم الأيتام من أطفال المسلمين القرآن الشريف ، وجعل بداخله رحبة متسعة وصهريجا عظيما وسقاية لشرب العطاش ، وعمل لنفسه مدفنا بتلك الرحبة ، وجعل عليه قبة معقودة ، وتركيبة من الرخام البديع الصنع ، منقوش عليها أسماء العشرة المبشرين بالجنة ، ووصف للنبى عليه الصلاة والسلام وبعض الأشعار »

« وبنى أمام المدفن المذكور رواقا مخصوصا بمجاورى الصعايدة المنقطعين لطلب العلم ، وبه مرافق ومنافع ومطبخ ومخادع وخزائن كتب ... وبنى بجانب ذلك الباب منارة ، وأنشأ بابا آخر جهة مطبخ الجامع « وهو المشهور بباب الشورية » وجعل أيضا عليه منارة ، وجدد المدرسة الطيبرسية ، وجعلها مع المدرسة الأقبغاوية المقابلة لها من باب المزينين الكبير الذى أنشأه خارجها جهة القبو الموصل الى شارع السكة الجديدة بجوار المشهد الحسينى . وهذا الباب مؤلف من بابين عظيمين ، كل باب بمصراعين . وجعل على يمينه منارة « وقد تهدمت سنة ١٣١٥ هـ » وفوقه مكتب . وبداخله ميضأة . ووراء ذلك درج المنارة ، ورواق البغداديين والهنود . وقد جاء هذا الباب الكبير وما بداخله من المدرسة الطيبرسية والأقبغاوية والأروقة من أحسن المبانى فى العظمة والفخامة . وزاد فى رواق الشوام ، ووقف عليه ، وجدد رواق المكيين والتكروريين ، وأجرى

زيتا للمصابيح ، وزاد فى مرتبات الجامع وأخبـازه ، ولاسيما فى يومى الاثنين والخميس، فضلا عما رتّبه لرمضان من وسائل الرفاهة والتوسيع ، فكان مجموع ما عمله فى الأزهر مما تقصر عنه همم الملوك »

ولقد بلغ ما بناه عبد الرحمن كتخدا أو أعاد بناءه ثمانية عشر مسجدا ، الى جانب الأضرحة والسبل والمدارس والجسور وغير ذلك من الأبنية ، ومع هذا فقد نفاه على بك الى بلاد العرب ، غيرة منه وحسدا لتعلق الناس به وحبهم اياه ، وبقى فى منفاه اثنتى عشرة سنة ، وأخيرا أعيد الى مصر، حيث لم يعش سوى أيام قلائل ، وتوفى فى سن السبعين ، سنة ١١٩١ هـ (١٧٧٦ م) ودفن بمدفنه السابق الذكر

ومن أهم القصور التى شيدت فى هذا العهد :

منزل جمال الدين الذهبى : بحارة خوشقدم بالغورية ، أنشأه جمال الدين الذهبى كبير التجار بمصر سنة ١٠٤٧ هـ (١٦٣٧ م) . ويدل تخطيطه وتناسق أجزائه على براعة مهندسه ، فقد راعى أن تحيط جميع غرفه بالحوش الذى توجد بوسطه الآن فسقية من الرخام ليستمتع سكانه فى كل فصل من فصول السنة بمزاياه الخاصة . فيوجد فى الجهة القبلية مقعد ذو عقدين متكئين على عمود من الرخام ، وفى الجهة الشرقية قاعة كبرى ذات ايوانين وبالجهة البحرية ايوان ذو مشربيات

وأسفال جدران القاعة الكبرى مكسوة بوزرة جميلة من الرخام الدقيق الصنع المختلف الألوان وبها جزء على هيئة محراب . وبصدرها مشربية لطيفة مطلة على الشارع تعلوها شبابيك صغيرة من الجص المحلى بقطع من الزجاج الملون . وسقفا القاعة والمقعد محليان بالدهان المملوء بالذهب

منزل الشيخ عبد الوهاب الطبلاوى : بالدرب الأصفر ، وهو المشهور ببيت السحيمى ، وهو مكون من قسمين : القبلى وقد أنشـأه الشيخ عبد الوهاب الطبلاوى سنة ١٠٥٨ هـ (١٦٤٨ م) ، وأهم مشتملاته القاعة

الكائنة على يمين الداخل ، ثم القاعة الكائنة على اليسار ، وأرضيتها مغطاة بالرخام الدقيق . وواجهة المنزل المشرفة على الدرب الأصفر مكونة من مجموعة قيمة من المشربيات والشبابيك الخرط ، الدقيقة الصنع

أما القسم البحرى فقد أنشأه الحاج اسماعيل بن الحاج اسماعيل شلبى سنة ١٢١١ هـ (١٧٩٦ ــ ١٧٩٧ م) ، وأدمجه فى القسم الأول ، وجعل منهما منزلا واحدا . وأفخم حجرات هذا القسم الحجرة البحرية الكبرى الراكبة على « تختبوش » محمول على عمود من الرخام ، وهى مكونة من ايوانين ، تتوسطهما « درقاعة » ، والأجزاء السفلية من جدرانها مكسوة بالقاشانى المنوع . وبصدرى الايوانين دواليب دقيقة تعلوها أرفف ، وضعت عليها مجموعة لطيفة من الأوانى الخزفية

منازل أخرى : ومن منازل هذا العهد أيضا منزل محمد بن الحاج سالم الجزار المعروف بمنزل الجريدلية ، وقد أنشىء سنة ١٠٤١ هـ (١٦٣٢ م). ويتصل به منزل آخر بواسطة ساباط « ممر » ذو سقف محمول على عقد ستينى ، يعرف بمنزل آمنة بنت سالم. ويقعان شرقى جامع أحمد بن طولون. وقد استأجره سنة ١٩٣٥ م « جاير أندرسون » ، أحد الضباط الانجليز الذين كانوا يعجبون بالفن الاسلامى . وقد جمع فيه مجموعة نفيسة من التحف والطرف الاسلامية ، ويعرف الآن بمختلف جاير أندرسون . وسراى المسافرخانة بدرب الطبلاوى ، وقد أنشأها محمود محرم ، أحد أعيان التجار سنة ١١٩٣ هـ (١٧٧٩ م) . ومنزل ابراهيم كتخدا السنارى ، بحارة منج بالسيدة زينب . وقد أنشأه ابراهيم كتخدا السنارى سنة ١٢٠٩ هـ (١٧٩٤ م) . وسميت الحارة بهذا الاسم ، نسبة الى منج أحد علماء الحملة الفرنسية ، الذين أقاموا بهذا المنزل عند احتلالها مصر

ومن منازل ذلك العهد ، التى اندثرت ، منزل رضوان بك الجلفى ، وكان يشرف على بركة الأزبكية ، وكانت تعلو ردهاته قباب بديعة الزينة ، فيها نقوش عربية من الذهب . وكانت له حديقة غناء تناثرت فيها الأكشاك

الجميلة . وبجانب منزل رضوان بك كان هناك على بحيرة الأزبكية منزل آخر علكه أحمد الشرايبى ، أحد مشهورى التجار فى ذلك العهد ، وقصر محمد بك الألفى الذى اتخذته قيادة الجيش الفرنسى مقرا لها فى أثناء احتلالها مصر ، وقتل فيه كليبر خليفة نابليون كما تقدم

— ٤ —

الحالة الاقتصادية

ذكرنا أن تحول التجارة الشرقية عن مصر الى جنوبى افريقيا كان له أثر بارز فى تدهور الحالة الاقتصادية فى مصر . فقد كانت هذه التجارة ينبوع ثروة لاينضب معينه فى عهد المماليك ، سواء مما كان يجبى عليها من ضرائب أو مما كان يجنيه المصريون من وراء الاتجار فيها من أرباح . وقد تبع هذا الحادث غزو الأتراك العثمانيين مصر ، وما كان يبتزه السلطان والولاة الأتراك والبيكوات المماليك من أموال ، ناء بها كاهل الشعب ، وعم بسببها البؤس ، وانتشر الفقر

وقد كانت امارات الفقر أكثر ما تكون ظهورا فى القاهرة ، حيث يقيم الوالى وأعضاء الديوان وجنود جيش الاحتلال التركى والبيكوات المماليك ، والجميع فى تطاحن مستمر ، خصوصا البيكوات المماليك الذين كان القتال بينهم وبين بعض لايخمد أواره ، فلا تلبث الشوارع والحارات والدروب أن تنقلب الى ميدان قتال ، فيتخلل ذلك نهب المنازل وسلب الحوانيت والمتاجر ، ووقوف حركة البيع والشراء ، وكساد التجارة

ولم عسك المصريون عن الثورة طوال الحكم التركى من فساد هذا الحكم واستبداد الحكام الأتراك والبيكوات المماليك ، وانتشار الرشوة ، وكثرة ما أثقلوا به كاهل المصريين من ضرائب واتاوات . وكان أهل القاهرة ينزعمون الثورة ضد العثمانيين ، ويرفعون راية العصيان فى وجوههم كلما اشتد بهم الضيق وازداد بهم الضنك . ومن أمثلة ذلك ما حدث فى

أوائل ذى الحجة من سنة ١٢٠٩ (يونيه ١٧٩٥ م) . عندما اشتدت مظالم مراد بك وابراهيم بك فى فرض الاتاوات وجمع الجبايات ، فاجتمع علماء الأزهر وأغلقوه ، وأبطلوا الدروس وأمروا الناس فأغلقوا الحوانيت والأسواق ، وتجمعوا فى بيت الشيخ السادات ، وحضر اليهم مندوب ابراهيم بك فطالبوه برفع المظالم ، وابطال المكوس والضرائب ، والحكم بمقتضى الشرع والعدل ، فأبى وقال : « لايمكن الاجابة الى هذا كله ، فاننا ان فعلنا ذلك ضاقت علينا المعايش » . فقال له المشايخ : « ان هذا ليس بعذر عند الله ، ولا عند الناس . وما الباعث على الاكثار من النفقات وشراء المماليك ، والأمير يكون أميرا بالعطاء لا بالأخذ » وتجمهر الناس ، وركب المشايخ الى الأزهر ، وبات الجميع بالمسجد ، وانتشرت الثورة فى كل مكان ، فخشى مراد بك ، وابراهيم بك عاقبة الأمر ، ولاطفا المشايخ والتمسا منهم الصلح ، واجتمع الوالى والأمراء بالمشايخ وأعلن الأمراء أنهم تابوا ورجعوا ، والتزموا بما شرطه العلماء عليهم ، وتعهدوا برفع المظالم والضرائب والمكوس والكشوفيات والتفاريد ، وأن يكفوا اتباعهم عن امتداد أيديهم الى أموال الناس ، ويسيروا فى الناس سيرة حسنة . ولم يقتصر الأمر عند حد الوعد ، بل ان القاضى — وكان حاضرا — كتب وثيقة بهذه المبادىء الدستورية ، وقعها مراد بك ، وابراهيم بك ، وفرمن عليها الباشا — أى وقع الوالى عليها » (١)

الحالة الاجتماعية

استمرت الحياة الاجتماعية فى العصر العثمانى كما كانت فى عهد المماليك . وكان نظام الطبقات هو نفس النظام السابق . غير أنه دخل على المجتمع المصرى عنصر جديد ، هو العنصر التركى العثمانى ، ويتمثل فى جنود جيش الاحتلال العثمانى والولاة الأتراك وأعضاء الديوان . وقد استمر

---

(١) الجبرتى : عجائب الآثار فى التراجم والاخبار . الجزء الاول ص ١٤٧

البيكوات المماليك كأسلافهم من المماليك الشراكسة ، يترفعون عن المصريين ، ويتباعدون عنهم ، اذ لا تربطهم بالبلاد أية روابط وطنية أو أسرية ، فكانوا يعتمدون على ما كانوا يبتاعونه من الرقيق ، ولم يصاهروا الأهالى . وقد شاركهم الأتراك العثمانيون فى ذلك . ولم يكونوا أقل ترفعا وتكبرا على المصريين من المماليك ، بل زادهم كبرياء وتعاليا انهم استولوا على البلاد عنوة ، وبقوة المدفع والسيف . ونظروا الى مصر وما فوق أرضها من حيوان وانسان كأنه ملك حلال لهم ، وكان المصرى مهما علا شأنه فى نظر التركى العثمانى ليس الا « فلاحا !! »

وذكرنا أن العثمانيين فيما وضعوه للبلاد من أنظمة لم يعتوا الا بأن تدوم تبعيتها لهم ، ولا تنفك عنها الأغلال التى تربطها بذيلهم ، لذلك لم يهتموا برفع المستوى العلمى أو الاجتماعى للشعب . كذلك البيكوات المماليك لم يرعوا غير مصالحهم الشخصية ، ولم يعملوا لاستغلال ثروة البلاد ومواردها الا لمنفعتهم الخاصة ، وارضاء ملاذهم وشهواتهم

لذلك انحط المستوى الاجتماعى للشعب ، الى أقصى دركات الانحطاط ، وانتشرت الخرافات والبدع ، وراجت سوق السحرة والمشعوذين . فقد حدث فى عام ١١٤٧ هـ (١٧٣٥م) أن راجت اشاعة أن يوم البعث سيكون يوم جمعة فى السادس والعشرين من ذى الحجة ، وأخذ الناس يودع بعضهم البعض الوداع الأخير ، ويهيمون على وجوههم فى الحقول والطرقات ، وانقضى اليوم الموعود والناس أحياء يرزقون ، وكانوا يرددون فيما بينهم أن سيدى أحمد البدوى والدسوقى والشافعى تشفعوا للناس عند الله أن يؤجل قيام القيامة فقبل شفاعتهم !!

وفى سنة ١٢٠٥ هـ (١٧٩٢ م) أشيع بين الناس أنه فى ليلة السابع والعشرين من شهر جمادى الأولى ، فى نصف الليل ، ستحدث زلزلة قوية تستمر سبع ساعات . فلما كانت الليلة المذكورة ، خرج الناس الى الصحراء ، والى الأماكن المتسعة ، مثل بركة الأزبكية ، وبركة الفيل ، وغيرها . ونزلوا فى السفن ، وباتوا ينتظرون الى الصباح ، فلم تحدث

زلزلة ، وأصبحوا وهم يتضاحكون بعضهم على بعض

ومن الأعياد والاحتفالات الشعبية فى ذلك العهد الاحتفال بمقدم شهر رمضان . ففى آخر ليالى شعبان يوفد الى الصحراء عدد من الرجال ليحاولوا رؤية الهلال الوليد ، ويسير موكب المحتسب ، من القلعة الى بيت القاضى ، يتبعه مشايخ الحرف والجنود والمنشدون والموسيقيون ، ويمكثون عند بيت القاضى ، حتى يعود واحد ممن أوفدوا لمشاهدة الهلال، أو يتقدم من يؤكد رؤيته . واذ ذاك ينطلق الموكب ، فيتفرق الى جماعات ، تجوس خلال المدينة ، وهى تنادى : « يا أمة خير الأنام ... غدا صيام ! صيام ! » أما اذا لم تكن الرؤية قد تأكدت ، فانهم يصيحون قائلين : « غدا من شهر شعبان ... افطار ! افطار ! » (١)

ومنها أيضا الاحتفال بعودة الحاج والمحمل من بلاد الحجاز ، فيخف الشعب بجميع طبقاته فى القاهرة لاستقباله ، ويخرج الناس بالطبول والزمور للقاء أقاربهم وذويهم ، العائدين من الحج ، حاملين اليهم الطعام الوافر ، والملابس الجديدة . ويحضرون لهم الحمير عوضا عن الجمال المنهكة . وتدخل قافلة الحج الى القاهرة من ثلاثة أبواب ، قسم يدخل من باب النصر ، والثانى من باب الفتوح ، والثالث من باب العدوى (٢)

ومنها الاحتفال بيوم عاشوراء (٣) «العاشر من شهر المحرم» ، فتزدحم الطرقات المؤدية الى مسجد الحسين بالناس ، ويزخر المسجد نفسه بالدراويش حيث يقيمون حلقات الذكر . وأهم الاحتفالات جميعا الاحتفال بمولد النبى صلى الله عليه وسلم ، حيث تقام السرادقات الواسعة ، فى منطقة بركة الأزبكية . وتمتلىء هذه السرادقات بحلقات الذكر ، بينما يلتف الناس فى الطرقات المحيطة حول الشعراء والقصاصين الذين يقصون

---

(١) ادوارد وليم لين Manners and Customs of the Modern Egyptians ترجمة عدلى طاهر نور ص ٣٥٣

(٢) المصدر السابق ص ٣١٩

(٣) المصدر السابق ص ٣١٤ — ٣١٩

عليهم مغامرات أبى زيد الهلالى ، والظاهر بيبرس ، وعنترة بن شداد ، وسيف بن ذى يزن مصحوبة بأنغام الرباب . هذا فى النهار ، أما فى الليل فتتوافد على المكان مواكب الدراويش « وتسمى مواكب الاشارة » حاملة المصابيح مرفوعة على عصى طويلة بدلا عن الأعلام التى يحملونها نهارا ، ومن غريب ما كان يحدث فى المولد النبوى انبطاح بعض الدراويش على الأرض ، فى طريق امام مسجد الحسين ، فيسير بجواده على أجسامهم ، راجين البركة من هذا العمل ، وهو ما كان يعرف عند العامة « بالدوسة » (١) ، وقضم بعض المشعوذين رءوس الثعابين بأسنانهم ، وابتلاع الجمر الملتهب ، وغير ذلك من العادات الغريبة الضارة

ومن الاحتفالات الهامة استقبال الولاة الأتراك عند قدومهم الى القاهرة ، حيث يسير الوالى فى موكب تتقدمه فصائل الجنود المشاة بموسيقاهم وأعلامهم ، يليهم الفرسان ويبلغ عددهم خمسة آلاف فارس أو ستة آلاف ، يحملون الرماح الطويلة ويلبسون الملابس الفضفاضة اللامعة ، يلى هؤلاء البكوات المماليك مرتدين الملابس البديعة ، وحولهم حاشيتهم من المماليك يمتطون صهوات الجنود العربية الأصيلة وعليها سروج موشاة بالذهب والفضة ، وأعنتها مرصعة باللؤلؤ والأحجار الكريمة ، يليهم الباشا ، يسير الهوينا تتقدمه كوكبة من مائتى فارس وفرقة موسيقيين ، وأمامه أربعة جياد ، يقودها أربعة من السواس . ويمتطى الباشا جوادا كريما ، ويضع على عمامته ريشة من قطع الماس الكبيرة ، يتوهج سناها فى أشعة الشمس. ويبدأ الموكب من بولاق فى الساعة الثامنة صباحا ، حيث تكون قد رست السفينة المقلة للوالى ، ويسير فى شوارع القاهرة الى أن يصل القلعة عند الظهر . وفى اليوم التالى يعقد الديوان بالقلعة ، ويدعى البكوات المماليك الى حضوره ، ويجلس الباشا على منصة ، ويتلو كخياه « وكيله » كتاب الباب العالى ، فيطأطىء السناجق « البيكوات » رءوسهم احتراما لولى

(١) ادوارد وليم لين : احوال المصريين المحدثين وعاداتهم ترجمة عدلى طاهر نور ص ٣٣٢

الأمر ، ويتعهدون بالطاعة . هذا الباشا بعد هذه الحفلة العظيمة لا يستطيع الخروج من القلعة الا باذن من شيخ البلد (١)

ويتم عزل الوالى فى احتفال أيضا ، ولكنه احتفال متواضع ، يتفق ومقتضى الحال . ذلك انه اذا لم يحز رضا شيخ البلد ، فلا يلبث أن يجتمع الأخير برجاله اجتماعا عموميا ، فيقرروا عزل الباشا ويكتبوا بذلك أمرا يسلمونه الى « الأوطه باشى » ليوصله الى الباشا فيحمله ، ويسير على حمار ــ لأن القانون لايسمح له بركوب الخيل أو البغال ! ! ــ وبين يديه فرمان العزل .. فاذا مر فى الأسواق على هذه الصورة ، علم النـاس انه ساع فى أمر هام ، فيه عزل ، فيهرولون وراءه . ولايزال سائرا فى عرض الطرق ، قائدا لتلك الجماهير حتى القلعة . ومن واجبات أى جنـدى يلقاه فى تلك الحال أن يرافقه ، اتقاء ما يخشى حدوثه عند وصوله الى القلعة

فاذا وصـل القلعة ، فانه يدخل على الباشـا ، ثم يجثو أمامه باحترام ووقار . وعندما ينهض ، يطوى السجادة التى كان جاثيا عليها وينـادى بأعلى صوته :« انزل ياباشا » . وعند طى السجادة ، والتلفظ بهذه العبارة تسقط كل حقوق ذلك الباشا ، ولا تعود له أقل سلطة على الجنود التى كانت قبل بضع دقائق رهن اشـارته ، وتصير تحت أوامر الأوطه باشى . وكان العامة يسـمون الأوطه باشى بأبى طبق لأنه كان يلبس قبعة ذات حافة عريضة تشبه الطبق . والى أن يصل الى القاهرة وال جديد ، يتسلم شيخ البلد زمام الأمور ، ويصبح هو صاحب الأمر والنهى فى البلاد (٢)

وأخيرا فقد أدى سوء الادارة التركية الى انحطاط المستوى الخلقى ، فانصرف الناس الى الرذائل ، والتخلق بالعادات الذميمة ، فشاع شرب الخمر ، وتعاطى المسكرات ، والاستهتار بالفضائل ، وانغمس سكان القاهرة فى عهد « رضوان الجلفى » فى أواخر العهد العثمانى فى حمأة الرذائل ،

---

(١) عن سافارى : رسائل عن مصر . ملخص من كتاب تاريخ الحركة القومية للاستاذ عبد الرحمن الرافعى ص ٢٤ ــ ٢٧ وكان سافارى قد زار مصر عام ١٧٧٧ م

(٢) تاريخ مصر الحديث جـ ٢ ص ٧٠ لجرجى زيدان

وكانوا يحتسون كؤوس الشراب واللذة حتى الثمالة (١) ، ولم يكن فى ذلك شيء من الغرابة « فالناس على دين ملوكهم » . ولولا انتشار الطرق الصوفية فى القاهرة وسائر البلاد المصرية ، وما كانت تذيعه بين الناس من المعارف الدينية والأخلاقية ، وما يحفظون من قصائد المديح والأدعيـة والأوراد ، لما وصل الى عامة الشعب أى بصيص من النور (٢)

الحالة العلمية

عظم شأن العلم والثقافة فى العصر المملوكى ، لأن القاهرة ، كما ذكرنا قبلا ، خلفت بغداد فى مضمار العلوم والمعرفة والفنون ، فصارت مهبـط العلماء ، ومقصد الأدباء ، ومحط رحال الرحالة والرواد ، يفدون عليها من مختلف بقاع العالم . فلما غزا الأتراك العثمانيون مصر ، وجّه السلطان سليم كل جهوده للقضاء على الحضارة المصرية ، وتحويل القاهرة الى مدينة ثانوية ، قليلة الخطر ، وأراد لها أن تكون فقط عاصمة ولاية ، بعد أن كانت مقر الخلافة وقصبة السلطنة ، واحلال استانبول « القسطنطينية » محلها ، وجذب انتباه العالم اليها

لذلك أخذ شأن العلم فى الانحطاط ، حتى وصل فى نهاية العهد العثمانى الى أبعد دركات الانحطاط ، وأفل نجم الثقافة ، ودخلت مصر فى ليل من الظلام لايتخلله شعاع من نور

ولا يغيبن عن البال أن الأتراك العثمانيين لم يكن لهم ماض فى العلم أو الثقافة ، وليس لهم علم يذيعونه فى البلاد التى وقعت تحت سيطرتهم . وكان صلفهم وكبرياؤهم يأبيان عليهم التعاون مع المصريين فى ميدان العلم ، لأن هؤلاء قد ضرب عليهم الاستعمار الذلة والمسكنة . والمستعمرون يعتصمون دواما بأهداب القوة والجبروت ، ويتخذون منهما درعا واقيا

(١) سيرة القاهرة ص ٢٣٨

(٢) التاريخ القومى تأليف الدكاترة عزت عبد الكريم وابى الفتوح رضوان وامين عبد اللاه ص ١٠١

أمام الجهل والضلال ، ويترفعون عن النزول الى مستوى المصريين مهما كان نصيبهم من العلم والمعرفة ، اذ هم جميعا فى نظر الأتراك العثمانيين فلاحون ! ! ، ولم يكن الأغا « التركى » ينادى المصرى الا بالعبارة المعروفة : « جنس فلاخ ! ! » تحقيرا له ، وازدراء به

ولقد كان أغلب المماليك يعرفون العربية ، ويجيدون كتابتها والتحدث بها ، ويحررون رسائلهم وكتبهم بهذه اللغة ، ويشجعون العلم والثقافة ، ويجتذبون العلماء والباحثين والمحدثين من شتى أنحاء العالم الاسلامى للاقامة بالقاهرة ، ويغدقون عليهم الجوائز والهبات . أما الأتراك العثمانيون فكانوا يجهلون العربية ، بالرغم من تدينهم بالدين الاسلامى ، وكانت اللغة التركية هى لغة المكاتبات الرسمية والمراسلات ، ولغة الدواوين . لذلك لم يكن غريبا أن ينحط شأن اللغة العربية فى مصر ، فى العهد العثمانى ، ويعتورها الضعف والركود ، وتنتابها الركاكة ، وينحط الأدب، ويفتر الشعر ، ويصبح مجرد كلام منظوم مقفى ، خاليا من المعانى الرصينة مقفرا من الخيال الخصيب . ولولا أن اللغة العربية هى لغة القرآن والحديث والدين التى لايستغنى عنها مسلم لتعرف أمور دينه ودنياه ، ولولا قيام الأزهر ، وحمايته تلك اللغة ، بالرغم مما كان يدرس فيه من مواد ضئيلة ، لولا ذلك لأصابها الانهيار والزوال . لذلك أصبح لشيوخ الأزهر مركز مرموق ، يتزعمون الشعب فى الثورات ، ويتكلمون باسمه عند الولاة والحكام ، وينوبون عنه فى الاحتجاج على فداحة الضرائب واستبداد الموظفين الأتراك . كذلك كانوا يتكلمون باسمه وينوبون عنه عند نابليون وخلفائه فى عهد الحملة الفرنسية . وأخيرا هم الذين انتخبوا محمد على واليا على مصر باسم الشعب مشترطين عليه أن يحكم بالعدل والقسطاس المستقيم

كذلك ندر نبوغ العلماء والمفكرين ، وأكثر ماكتب فى هذا العصر انما هو من قبيل الشروح ونحوها ، ويصح أن يسمى هذا العصر بعصر

الشروح والحواشي . وانحط أسلوب الانشاء حتى أوشك أن يكون عاميا ، كما فى قصص بنى هلال ونحوها ، مما وصل الينا من القصص الموضوعة ، فى عصور الانحطاط ، بعضها وضع فى أواخر العصر المغولى ، والبعض الآخر فى العصر العثمانى (١) . وكان للانحطاط الذى أصاب المستوى الخلقى آثاره على الكتابة والتأليف ، فزاد الكتّاب جرأة على التعابير البذيئة ، حتى فى كتب التاريخ ، كما فعل الاسحاقى فى كتابه أخبار الأول ، وظهرت كتب خاصة بالخلاعة والفحشاء « كرجوع الشيخ الى صباه » ، و « عشرة النساء » وغيرها

ويروى الجبرتى قصة حدثت بين أحمد باشا أحد الولاة الأتراك عام ١٧٥٠ م وبين الشيخ عبد الله الشبراوى شيخ الجامع الأزهر اذ ذاك ، تصور لنا حالة التعليم فى الأزهر . فقد لاحظ الباشا ــ وكان عالما فى الرياضيات ــ أنه طالما سمع عن مزايا مصر العجيبة ، ومحاسنها كمنبع للعلم والمعرفة ، ولكنه كان يود كثيرا أن يرى النتائج ، بنفسه . ومن ثم قال له الشيخ : « حقيقة ياسيدى أن مصر كما سمعت ، منبع العلوم والمعرفة » . وهنا سأله الباشا : « ولكن أين هى ؟ انك ــ على قدر ما أستطيع أن أرى ــ لا تعرف شيئا سوى الشريعة والعلوم الالهية وغير ذلك من الدراسات القليلة الأهمية ، وتحتقر العلوم العملية كلية » . وكان على الشيخ أن يعترف بأن الجامع الأزهر لم يكن يعلّم الرياضيات ، اللهم الا الحساب الذى كان ينفع فى ضبط أحكام المواريث . وبعد ذلك عاد الباشا الى أسئلته فقال : « وماذا عن علم الفلك ؟ انه يلزم لساعات الصلاة والصوم ، وأشياء أخرى كثيرة » وهنا صرح الشيخ بأن قليلين كانوا يدرسون علم الفلك ، الذى يتطلب كفاية خاصة ، وأجهزة دقيقة ، وشروطا جسمانية معينة ، وميلا الى الهدوء والدعة ، وذلك لمواصلة أبحاثه . ثم قال للباشا ان فى مقدوره أن يرشد الى عالم من النوع الذى يريد ، ولكن

(١) تاريخ آداب اللغة العربية للمرحوم جرجى زيدان حـ ٣ ص ٢٧٢ ، ٢٧٣

ليس من شيوخ الأزهر ، وكان والد الشيخ عبد الرحمن الجبرتى ، المؤرخ المشهور . وقد أعجب به الباشا كثيرا ، ولازمه طوال مدة ولايته ، وخلع عليه خلعة من الفرو ، باعها الشيخ فيما بعد بثمانمأة دينار (١)

وفيما عدا الكتاتيب التى كان الصبية يتعلمون فيها القرآن ومبادىء القراءة والكتابة والحساب ، لم يكن هناك مدارس يتلقى الطلاب فيها العلم ، غير الأزهر . أما المدارس التى أنشئت فى عهد المماليك ، لتعليم المذاهب الأربعة فقد اندثرت جميعا . وقلّ من المساجد فى العهد العثمانى ما كان يدرس فيه الدين ، نخص بالذكر من تلك المساجد مسجد محمدبك أبى الذهب ، الذى قرر منشئه أن يدرس فيه مذاهب الحنفى والمالكى والشافعى

أما دور الكتب ، التى كانت تزخر بها القاهرة فى عهد المماليك ، فى المساجد والتكايا والأضرحة والمدارس والمستشفيات والقصور ، فقد اندثرت هى الأخرى ، وعفت آثارها ، اللهم الا مكتبة الجامع الأزهر ، التى كانت تحتفظ بعدد غير قليل من الكتب . ومع ذلك فقليل من الأسرات كانت تشتغل بالعلم ، وتسعفها امكانياتها لجمع الكتب ، من ذلك تاجر غنى يدعى الشيخ أحمد الشرايبى ، كان له على بركة الأزبكية قصر منيف بين قصور الأمراء ، التى كانت تطل على تلك البركة . وقد شغف الشيخ الشرايبى وأفراد أسرته بجمع الكتب ، خصوصا النادر منها ، ولم تكن لتدع كتابا يظهر دون أن تقتنى نسخة منه — مهما غلا ثمنه — حتى ان العلماء كانوا يجدون بغيتهم فى مكتبة الشرايبى دون شك ، وكان لأحدهم أن يستعير الكتاب أو يحتفظ به لنفسه (٢) ، فيسعى الشرايبى لشراء نسخة أخرى منه ، وهذا أمر يندر حدوثه فى أية مكتبة ، وفى أى زمان

قلنا انه ندر نبوغ العلماء والمفكرين ، وقل ظهور الشعراء والأدباء

---

(١) سيرة القاهرة لستانلى لين بول ص ٢٤٠
(٢) المصدر السابق ص ٢٣٩

المجيدين . واذا أجهد الباحث نفسه ، فلن يجد الا قلة قليلة من هؤلاء وهؤلاء . فمن المؤرخين نجد ابن اياس : أبا البركات محمد بن اياس زين الدين الناصرى المولود بالقاهرة سنة ٨٥٢ هـ (١٤٤٨ م) والمتوفى سنة ٩٣٠ هـ (١٥٢٣ م) مؤلف كتاب بدائع الزهور فى وقائع الدهور ، ويعتبر مصدرا أصليا فى حوادث الفتح العثمانى التى عاصرها المؤلف ، فوصفه لها يعتبر والحالة هذه وصف شاهد عيان ، وشمس الدين بن أبى السرور البكرى المتوفى بالقاهرة سنة ١٠٦٠ هـ (١٦٥٠ م) مؤلف كتاب الكواكب السائرة فى أخبار مصر والقاهرة ، ويعتبر كتابه من المصادر الأصلية أيضا فى تاريخ الدولة العثمانية بمصر . والجبرتى : الشيخ عبد الرحمن بن حسن بن برهان الدين الجبرتى ، المولود بالقاهرة سنة ١١٦٨ هـ (١٧٥٦ م) مؤلف كتاب عجائب الآثار فى التراجم والأخبار ، وهو حجة فى الحوادث التى وقعت فى مصر بين عامى (١٧٥٧ م و ١٨٢١ م) أى من نهاية العصر العثمانى بمصر الى أوائل حكم محمد على ، ويدخل ضمن ذلك غزو الحملة الفرنسية لمصر

أما الشعراء أو الأدباء فليس من بينهم من يستحق الذكر أو التنويه

الفنون والصناعات

كذلك أصاب الفنون والصناعات ما أصاب العلم والثقافة من تأخر وانحطاط ، وحسبنا ما ذكرناه من ترحيل ألفين من مهرة الصناع والفنانين الى القسطنطينية ، واغتصاب التحف الثمينة والطرف النادرة من القصور والمساجد لنصور الضربة القاصمة التى كالها سليم الأول للصناعات والفنون التى ازدهرت فى عصر المماليك . أضف الى ذلك الفقر والفاقة ، اللذين أذلا أعناق المصريين على أيدى العثمانيين . فكيف تقوم للفن قائمة بعد ذلك ، والمعروف أن الفن متعة ورفاهية وذوق ، لايستقيم مع الفقر والفاقة . ولا ينتعش الا بالتعضيد والتشجيع . وهيهات أن يتفق له شىء من ذلك فى العصر العثمانى المظلم الكريه

وقد رأينا أن الفنون تسير جنبا الى جنب مع النهضة فى فن البناء ، فلما أدرك الضعف والتأخر فن البناء فى عصر الاحتلال التركى ، أصيبت الفنون بالركود والتأخر ، تبعا لهذا . من ذلك تجد انعدام التماثل مثلا فى الزخارف المحفورة التى كانت تحلى التحف الخشبية . وصارت الحشوات الدقيقة ، التى كان يتكون منها الموضوعات الزخرفية البديعة فى عهد المماليك ، كالمربعات والمعينات وشبه المنحرف والأطباق النجمية ، وصارت عبارة عن حشوات مربعة أو مثلثة الشكل ، مفصلة فى خشب التحفة نفسها (١) ، بل وانتهى الأمر بأن حلت الألوان محل الحشوات ، فصارت أسقف المساجد والقصور تدهن بالألوان البراقة . كذلك استبدل بالسن العظم فى حشوات بعض الأبواب والمنابر

ومن أساليب الزخرفة التى ذاعت فى مصر فى العهد العثمانى كسوة الجدران بألواح القاشانى . على أن القاشانى كان مستعملا بنسبة ضئيلة فى نهاية عصر المماليك ، يؤيد ذلك ما ذكره Prisse d'Avennes فى كتابه الفن العربى من أن قبة السلطان الغورى كانت مبنية بالحجر ، المكسو من الظاهر بالقاشانى الأزرق كالمنارة . ولكن لم يذع استعماله الا فى أوائل القرن السادس عشر ، وكان ذيوعه مقرونا باستيلاء الأتراك العثمانيين على مصر ، فصارت تزين به جدران المساجد والقصور ، وأسبلة الكتاتيب بوجه خاص . ولم يقتصر استعمال القاشانى فى مصر على المبانى الجديدة ، بل امتد الى المبانى القديمة . فمثلا جامع آق سنقر المشيد فى القرن الرابع عشر الميلادى ، عندما تداعى وأصلحه ابراهيم أغا مستحفظان سنة ١٠٦٤هـ (سنة ١٦٥٣ م) ، كسا صدر الايوان الشرقى بالقاشانى الأزرق الجميل ، ومن ثم أطلق عليه اسم الجامع الأزرق(٢). وأغلب القاشانى الذى كانت تكسى به الجدران فى هذا العهد مستورد من تركيا غالبا . أما القاشانى المصنوع

(١) فهرس دليل الآثار العربية تأليف مكس هرتس (باشا) وتعريب المرحوم على (بك) بهجت ص ١٦٢
(٢) دليل موجز لاشهر الآثار العربية بالقاهرة ص ١٢٩

فى مصر فقد كان أقل جودة فى صناعته وأقل لمعانا من القاشانى التركى

كذلك أصاب صناعة التجليد ركود ظاهر ، واختفت بعد الفتح العثمانى الجلود المصرية الحقيقية ، وصارت الزخرفة على جلود المصاحف تزاول بواسطة القوالب ، لينتج عنها زخرفة نباتية بارزة ، بعد أن كان يستعمل فى ذلك المكاوى الحديدية المحماة بالنار ، والتى كان يستعملها الفنان بحرية فى اخراج زخارف هندسية بديعة يملأها بالذهب الخالص . ومن أجمل نماذج المصاحف التركية المصحف الذى أوقفته الملكة صفية أم السلطان محمدخان سنة ١٠٣٢ هـ (١٦٢٢ م) على جامعها الذى شيدته بالقاهرة ، وهومحفوظ فى الوقت الحاضر بدار الكتب المصرية (١)

وقد اندثرت صناعة المنسوجات التى ازدهرت فى العصرين الفاطمى والمملوكى ، وكذلك صناعة السجاد ، وانتقلت هاتان الصناعتان الى تركيا بعد أن قبض سليم على مهرة الصناع ورحلهم الى بلاده . لذلك صار لتركيا شهرة فائقة فى السجاد والمنسوجات فى القرنين السابع عشر والثامن عشر الميلاديين

أما الصناعات التى لم يكن منها بد كى تستقيم حياة الناس ، ولا غنى لهم عنها فى معاشهم، فقد ظلت باقية فى عصر الاحتلال العثمانى أيضا ، منها: صناعة النسيج ، وطحن الغلال ، وضرب الأرز وتبييضه ، واستفراخ البيض ، وصناعة السكر ، وعصر الزيوت ، ودباغة الجلود ، وصناعة الأحذية ، والصناعات الخاصة بالبناء ، وصناعة البسط والقلوع والحصر وبناء السفن وصناعة النحاس وتبييضه والصياغة وسك النقود ، وكانت القاهرة أهم مركز صناعى فى القطر ، غير أن معظم هذه الصناعات كانت رديئة النوع ، وكان معظمها يستهلك فى الأسواق المحلية . أما المصنوعات الجيدة النوع فكانت تستورد من الخارج (٢)

(١) فهرس دليل الآثار العربية تأليف مكس هرتس تعريب على بهجت ص ١٦٢
(٢) التاريخ القومى ص ٤٥

الباب الثامن

القاهرة
في القرن التاسع عشر

١ ــ عصر الحملة الفرنسية

من ١٢١٣ ــ ١٢١٦ هـ (١٧٩٨ ــ ١٨٠١ م)

كثرت المظالم فى أواخر العهد العثمانى كثرة لم تبلغها فى أى وقت مضى. واشتد استبداد مراد وابراهيم بالناس ، واثقال كاهلهم بالضرائب ، غير مفرقين بين المصريين والأجانب . وكان الملتزمون يستخرجون جميع ما فى جيوب الناس من نقود ، متوسلين الى ذلك بمختلف الحيل والوسائل ، فأخفى التجار بضائعهم ، وهجر الفلاحون أراضيهم ، فأقفرت الأرض من الزرع والنبات ، وعم الفقر ، واشتد البؤس ، وتمنى الناس لو أن هذا العهد انقضى الى غير رجعة

ولم يقتصر ابتزاز الأموال واثقال كاهل الناس بالضرائب على الأهالى ، بل تعداهم الى الأجانب ، الذين كانوا يقيمون بمصر . فعلت شكوى هؤلاء من البيكوات المماليك ، وتوجهوا بشكواهم الى دولهم ، ومنها فرنسا . وأخذوا يصفون لها ضعف المماليك وعجزهم عن الدفاع عن البلاد ضد أى غزو خارجى . فأخذت فرنسا تفكر فى احتلال مصر والاستيلاء عليها ، وتوفرت على دراسة تقارير الرحالة والمبعوثين الفرنسيين الذين كانت ترسلهم الى مصر لدراسة أحوالها ، وتعرف قوتها ، أمثال البارون ده توت Baron de Tott الذى زار مصر سنة ١٧٧٧ م وڤلنى Volney الذى نشر رحلته سنة ١٧٨٧ م ومجالون Magallon قنصل فرنسا فى الاسكندرية الذى ألح على حكومة فرنسا فى غزو مصر ، موضحا الفوائد العظيمة التى

تعود عليها من الاستيلاء على مصر (١)

وقدسنحت الفرصة لذلك بقيام الخلاف بين انجلترا وفرنسا عقب ثورتها فى سنة ١٧٨٩ م ، وانشاء الأولى الأحلاف ضد الثانية . ولما لم تستطع فرنسا أن تضرب انجلترا فى عقر دارها ، لموقعها الحصين ، أخذت تفكر فى ضربها فى الهند ، أعظم مستعمراتها اذ ذاك . وتمهيدا لذلك قررت الاستيلاء على مصر ، التى تقع على الطريق الموصل بين انجلترا والهند ، ومَنْع وصولها الى مستعمرتها العظيمة ، التى كانت تعتبر درة فى تاج بريطانيا

وقد عهدت الحكومة الفرنسية بتنفيذ خطة غزو مصر الى نابليون بونابرت ، الذى كان نجمه آخذا فى التألق حينئذ ، وصار بعد قليل امبراطور فرنسا العظيم . فأخذ يدبر أمور الحملة ، وجمع جيشا بلغت عدته نحو ثلاثين ألف جندى ، مزودين بالعدد وأدوات الحرب الحديثة ، يعاونه فى قيادته كثير من خيرة قواد فرنسا أمثال كليبر ومينو وديزيه وكفاريللى ، واصطحب معه مائة من أشهر علماء فرنسا ، ليكشفوا عن ثروات مصر ، ويستغلوا خيراتها أحكم استغلال ، من بينهم منج وبرتليه وليبير . وأقلعت الحملة من موانى طولون ومرسيليا وجنوة فى ١٩مايوسنة ١٧٩٨ ووصلت الى الاسكندرية فى أول يوليو سنة ١٧٩٨

كان المماليك يعيشون فى عزلة عن بقية الأمم الأخرى ، منغمسين فى لهوهم وملذاتهم ، يعتمدون فى حروبهم على أساليب الفروسية القديمة ، وقوامها الكر والفر السريع ، وعلى النزال الفردى ، ويجهلون مدى تقدم فنون الحرب والقتال فى أوربا ، والأسلحة الحديثة الفتاكة ، التى لا تبقى ولا تذر . فلما علم المماليك بنزول الحملة فى الاسكندرية فى ٥ يوليو ، قابلوا الخبر بغير اهتمام أو اكتراث ، مزدرين شأن الافرنج عامة ، ومحتقرين كفايتهم الحربية ، وأقسموا أنهم سيحصدون رءوسهم حصدا اذا قاتلوهم(٢) ولكن لم تلبث مدافع الفرنسيين وبنادقهم أن حصدت جموع المماليك فى

(١) تاريخ مصر السياسى تأليف الاستاذ محمد رفعت حـ ١ ص ٣٣ — ٣٥
(٢) المصدر السابق حـ ١ ص ٥٤

شبراخيت ، وكان قد حضر اليها مراد بك على رأس قوة تبلغ ستة آلاف من فرسان المماليك والجنود التركية . لذا تقهقر الى امبابة وأخذ يقيم الحصون والاستحكامات ، فى انتظار الفرنسيين ، بينما بقى ابراهيم بك على الضفة المقابلة للنيـــل ، فى بولاق ، ومعه ما أمكن حمله من الثروة والتحف والكنوز التى جمعها المماليك وحمّلوها ظهور الدواب أو السفن فى انتظار نتيجة المعركة . ولكن كان الاندحار والهزيمة نصيب المماليك فى امبابة أيضا ، ففر مراد الى الوجه القبلى بينما هرب ابراهيم الى سوريا . وقد تقرر فى موقعة امبابة « أو موقعة الأهرام كما يسميها الفرنسيون » مصير المماليك ، فكانت ولاشك القاضية الفاصـــلة ، التى أذنت بزوال دولتهم ، وتقلص ظلهم ، الى الأبد

فلما نفض الأتراك والمماليك عن أكتافهم واجب الدفاع عن البـــلاد ، واجلاء الفرنسيين عنها ، وهذا ما كان ينتظر منهم من غير شك ، أخــذ المصريون على عاتقهم النهوض بهذا الواجب، فناهضوا الفرنسيين ، وشنوا عليهم الغارات ، وأشعلوا نار الثورة ، وحمل أهل القاهرة هذا العبء نيابة عن المصريين جميعا . وكانت أول ثورة قاموا بها ضد الفرنسيين ثورة ٢١ أكتوبر سنة ١٧٩٨ ، تلك الثورة التى قصدوا من ورائها القضـــاء على الفرنسيين بعد أن حطم الانجليز الأســـطول الفرنسى فى واقعة أبى قير البحرية ، فانقطعت أسباب الاتصال بينهم وبين فرنسا . وقد أخذ أهل القاهرة الفرنسيين فى هذه الثورة على غرة ، وحملوا عليهم حملة صادقة ، وأحرز فيها أهل الحسينية قصب السبق ، وقتلوا حاكم القاهرة الفرنسى ورئيس أركان حرب نابليون . ولكن نابليون أخذ يلاينهم ريثما يعد للأمر عدته ، وينصب مدافعه على جبل المقطم ، وشرع بعد ذلك يمطر هذا الحى بنيران مدافعه ، ويصوب قذائفه على الأزهر ، بدعوى أن شيوخه كانوا يتزعمون الثورة . فوقع الرعب فى صدور الناس ، [illegible] الى وقف

القتال ، خصوصا بعد أن انتهت الذخيرة من أيدى أهل الحسينية . وبعد أن قبض نابليون على ناصية الموقف ، أذاق أهل القاهرة كثيرا من ألوان العذاب ، ودخل الجنود الفرنسيون بخيولهم الجامع الأزهر ، فزادت هذه الاهانة من حفيظة المصريين وغضبهم على الفرنسيين ، وحفزتهم الى ترقب فرصة أخرى يقضون فيها على الفرنسيين

شرع نابليون بعد ذلك فى تأمين حدود مصر من ناحية الشام ، وذلك بايقاف زحف الحملة التى أعدتها تركيا لغزو مصر من هذه الناحية ، فخرج على رأس جيش استولى به على العريش ثم غزة ويافا ثم تقدم بعد ذلك الى عكا ، وظل يحاصرها أكثر من شهرين (من مارس الى ١٤ مايو سنة ١٧٩٩) ولكن دون أن يستطيع الاستيلاء عليها ، لشدة مقاومتها ، ومساعدة الانجليز لها من طريق البحر . وانتهى به الأمر الى الانسحاب ، بعد أن فقد من رجاله ما يقرب من ثلاثة آلاف رجل ، ورجع الى مصر ، ليجد جيشا تركيا بانتظاره فى أبى قير ، فوقعت هنا واقعة فى أغسطس سنة ١٧٩٩ ، انتهت باندحار الجيش العثمانى . وفى أواخر هذا الشهر نفسه ، رحل نابليون الى فرنسا ، بعد أن تألبت ضدها بعض الدول الأوربية ، وصار مركزها محفوفا بالمخاطر

خلف كليبر نابليون فى قيادة الحملة فى مصر ، ولكنه أدرك خطورة الموقف ، فدخل فى مفاوضات مع انجلترا ، بقصد الرحيل عن مصر، انتهت بعقد اتفاق العريش فى ٢٤ يناير سنة ١٨٠٠، الذى تعهد الفرنسيون بمقتضاه أن يغادروا مصر بأسلحتهم الى فرنسا على ظهر مراكب تركية. وبذلك أخذ الأتراك يحتلون المراكز التى كان يخليها الفرنسيون واحدا بعد الآخر . ولكن ما لبث الانجليز أن نقضوا الاتفاق ، لمّا تبينوا سوء حال الحملة فى مصر ، وأصروا على أن يسلموا أسلحتهم وعتادهم ، ويغادروا مصر كأسرى حرب . فرفض كليبر ذلك ، وطارد الأتراك خارج مصر وهزمهم

هزيمة ساحقة فى واقعة المطرية أو عين شمس فى ٢٠ مارس سنة ١٨٠٠

انتهز أهل القاهرة اشتباك كليبر مع الأتراك فى عين شمس ، وخروج الجزء الأعظم من الجيش الفرنسى لمقاتلة العثمانيين ، فقاموا فى ٢١ مارس سنة ١٨٠٠ بثورة أشد وأعظم من ثورة القاهرة الأولى وكان من قواد هذه الثورة السيدان عمر مكرم نقيب الأشراف ، وأحمد المحروقى كبير التجار ، وقد حلت بولاق فيها محل الحسينية فى ثورة القاهرة الأولى ، وحمل أهلها كل ما وصلت اليه أيديهم من السيوف والبنادق والرماح والعصى ، وسرعان ما امتدت الثورة الى بقية الأحياء ، حتى عمت المدينة جميعها ، وامتلأت بهم الشوارع والميادين وأسطح المنازل ، وانضم اليهم النساء والأطفال فكان لهم نداءات وصيحات تصم الآذان ، وأقاموا المتاريس على أبواب المدينة ، وفى معظم أحيائها كباب اللوق ، وناحية المدابغ ، والمحجر ، والشيخ ريحان ، والناصرية ، وقصر العينى ، وقناطر السباع ، وسوق السلاح ، وباب النصر ، وباب الحديد ، وباب القرافة ، وباب البرقية ، والسويقة ، والرويعى ، وكانت المتاريس على جانب كبير من المناعة فقد بناها الثوار فى الشوارع ، وبلغ علو بعضها اثنى عشر قدما ، وتحصن الناس حولها وتحمسوا للقتال . ومما يثير الدهشة والاعجاب انشاؤهم فى أربع وعشرين ساعة معملا للبارود فى بيت قائد أغا بالخرنفش ، ومعملا لاصلاح الأسلحة والمدافع ، وآخر لصنع القنابل وصب المدافع ، جمعوا له الحديد من المساجد والحوانيت ، وتطوع الصناع للعمل فيه ، وقدموا ما لديهم من الحديد والآلات والموازين ، هذا فضلا عما استخرجوه من المدافع التى كانت مطمورة فى بيوت الأمراء والمماليك ، بلغ عدتها عشرين مدفعا (١) ، مما أذهل الفرنسيين ، وألقى فى قلوبهم الرعب والفزع ، وأكد لهم أن بقاءهم بمصر صار أمرا مستحيلا ، حتى ولو أخمدوا هذه الثورة ، وأخضعوا المصريين لحكمهم بقوة الحديد والنار

---

(١) تاريخ الحركة القومية ص ١٥١ ــ ١٨٢

هاجم الثوار قلاع الفرنسيين ومراكزهم الحصينة ، بل وهاجموا معسكر القيادة العامة للجيش الفرنسى بسراى الألفى بك بالأزبكية ، فقتلوا من الفرنسيين عددا كبيرا ، ولكن مدافع الفرنسيين كانت تحصدهم حصدا . وأخذت القلاع تضرب المدينة بالمدافع ، وتسلط قنابلها على الأحياء الثائرة ، واشتد أذى الفرنسيين عندما حضر كليبر الى القاهرة فى ٢٧ مارس سنة ١٨٠٠ ، بعد الانتهاء من واقعة عين شمس ، وأخذ فى وضع الخطط لتطويق القاهرة من جميع جهاتها ، وضرب الثوار ضربة قاصمة. ومهد لذلك بايقاع الفرقة فى صفوف الثوار واجتذاب العناصر التركية والمماليك الى صفه ، تلك العناصر التى لم تكن تبغى شيئا من وراء الانضمام للثوار سوى استعادة نفوذها القديم ، وسلطانها البائد ، وعزها الزائل . وقد نجح كليبر فى سياسته ، ولم يبق فى الميدان سوى المصريين ، وعندئذ أخذ يصلى المدينة نارا حامية ، ويضرم النيران فى الأحياء الآهلة بالسكان . فأحدثت الحرائق تخريبا مروعا فى القاهرة ، واحترقت أحياء برمتها ، وتهدمت بيوت عامرة ، ودفنت تحت أنقاضها عائلات بأكملها ، ومن الأحياء التى التهمتها النار خط الأزبكية وخط الساكت والفوالة والرويعى وبولاق وبركة الرطلى وما جاورها ، وباب البحر والخروبى والعدوى الى باب الشعرية .

ويصف الجبرتى ما نزل بأهل القاهرة من مصائب وأهوال فيقول : « واستمر الحال على ما هو عليه من اشتعال نيران الحرب ، وشدة البلاء والكرب ، ووقوع القنابل على الدور والمساكن من القلاع ، والهدم والحرق ، وصراخ النساء من البيوت ، والصغار من الخوف ، والجزع والهلع ، مع القحط وفقد المآكل والمشارب ، وغلق الحوانيت والطوابين والمخابز ، ووقوف حال الناس من البيع والشراء ، وتفليس الناس وعدم وجدان ما ينفقونه ان وجدوا شيئا ، واستمر درب المدافع والقنابر والبنادق والنيران ، ليلا

ونهارا ، حتى كان الناس لايهنــأ لهم نوم ولا راحة ، ولا جلوس لحظة واحدة من الزمن، ومقامهم دائما أبدا بالأزقة والأسواق ، وكأن على رءوس الجميع الطير. وأما النساء والصبيان فمقامهم بأسفل الحواصل، والعقودات، تحت طباق الأبنية الى غير ذلك »

ولم يُصب حيًّا من أحياء القاهرة مثلما أصاب حى بولاق ، فقد جلّت نكبته عن كل وصف ، وارتكب فيه الفرنسيون من الفظائع والمنكرات ما يشيب من هوله الولدان ، ولا يرتكبه سوى البرابرة المتوحشين الأنذال وهنا نترك الكلام لشاهد عيان ، هو المؤرخ عبد الرحمن الجبرتى اذ يقول : « هجموا على بولاق من ناحية البحر (النيل) ، ومن ناحيــة بوابة أبى العلاء ، وقاتل أهل بولاق جهدهم ، ورموا بأنفسهم فى النيران ، حتى غلب الفرنسيس عليهم ، وحصروهم من كل جهة ، وقتلوا منهم بالحرق والقتل، وبلوا بالنهب والسلب ، وملكوا بولاق ، وفعلوا بأهلها ما تشيب من هوله النواصى ، وصــارت القتــلى مطروحــة فى الطرقات والأزقة ، واحترقت الأبنية والدور والقصور ، وخصوصا البيوت والرباع المطلة على البحر ، وكذلك الأطارف ، وهرب كثير من الناس عندما أيقنوا بالغلبة ، فنجوا بأنفسهم الى الجهة القبليــة ، ثم أحاط الفرنسيس بالبلد ، ومنعوا من يخرج منها ، واســتولوا على الخانات والوكائل والحواصــل والودائع والبضــائع ، وملكوا الدور وما بها من الأمتعــة والأموال والنســاء والخوندات والصبيان والبنات ، ومخازن الغلال والسكر والكتان والقطن والأبازير ، والأرز والأدهان والأصناف العطرية ، وما لا تسعه السطور، ولا يحيط به كتاب ولا منشور »

أمام هذه الكوارث التى حلت بجميع أحياء القاهرة لم يسع النــاس الا التسليم ، فشرع العلماء يفاوضون كليبر فى الصلح حقنا للدماء ، فتم ابرام الاتفاق يوم ٢١ ابريل ســنة ١٨٠٠ ، وهكذا انتهت ثورة القــاهرة

الثانية بعد قتال دام شهرا كاملا ، وفرض كليبر على سكان القاهرة غرامة حربيـــة قدرها اثنا عشر مليون فرنك ، يئوفّى نصفها نقدا ، ونصفها عروضا ، وألزم سكان المدينة بتسليم عشرين ألف بندقية ، وعشرة آلاف سيف ، وعشرين ألف طبنجة ، وخص بعض كبار الأعيان والعلماء بنصيب فادح من هـــذه الغرامة . ولا تسل عن ألوان العسف والجبروت التى أذاقها الفرنسيون أهـــل القـــاهرة عند تحصيـــل الغرامة (١) . مما أملاه عليهم الحقد والانتقام ، وكان مبعثه الحفيظة وسوء الطوية ، مما حدا بزعماء الثورة أمثال السيد عمر مكرم ، والسيد أحمد المحروقى ، وعدة آلاف من السكان الى الرحيل أو التفرق فى البلاد

لم ينعم كليبر بلذة النصر الذى أحرزه فى موقعة عين شمس ، واخماد ثورة القاهرة ، وتثبيت قدم الحملة فى مصر ، وتقوية الروح المعنوية بين جنوده ، اذ عاجله الموت بضربة من خنجر سليمان الحلبى ، أحد طلبـــة الأزهر ، بتحريض من العثمانيين . فتولى قيادة الحملة من بعده الجنرال مينو ، وفى عهده غزا الأتراك مصر بمساعدة الانجليز . ونشبت بينهم وبين الفرنسيين عدة معارك فى قانوب « جنوبى أبى قير » ، وفى الرحمانية ، وفى القاهرة ، انهزم فيها الفرنسيون ، وطلب بعدها « بليار » القائد الفرنسى فى القاهرة الدخول مع الانجليز والأتراك فى مفاوضات ، انتهت بقبول الانجليز أن يرحل الفرنسيون عن مصر طبقا لشروط معاهـــدة العريش السابقة ، التى نقضها الانجليز ، فكبدوا البلاد بسبب هذا النقض ، أعظم الكوارث والخسائر . وقد وقع الاتفاق الجديد فى ٢١ يونيو سنة ١٨٠١ ، وتعهد الانجليز والأتراك بنقل جنود الحملة على ظهر سفن انجليزية وتركية الى فرنسا

أما مينو ، وكان يعسكر فى الاسكندرية ، فقد أبى التسليم ، واستمر

---

(١) تاريخ الحركة القومية للاستاذ عبد الرحمن الرافعى حـ ٢ ص ١٨٤

فى المقاومة ، بينما الانجليز يضيقون عليه الحصار ، حتى اضطر أخيرا الى الاذعان فى أول سبتمبر سنة ١٨٠١ ، ومن ثم أخذ الفرنسيون فى مغادرة البلاد (١) ، بعد ثلاث سنوات وثلاثة أشهر من احتلالهم مصر ، حاملين معهم أسلحتهم وعتادهم ، وأبحاثهم التى أجراها علماؤهم فى أثناء اقامتهم بمصر . وقد ضمّنوا معظم هذه الأبحاث كتابهم الذى نشروه بعد ذلك بعنوان وصف مصر Description de l'Egypte ، تلك الأبحاث التى كانت أساسا لنهضة مصر المقبلة

لقد آذى الفرنسيون المصريين كثيرا ، وارتكبوا فى مصر أبشع الجرائم والآثام ، ونبهوا العالم ، وخصوصا انجلترا ، الى أهمية موقع مصر الجغرافى ، فما فتئت هذه تعمل جاهدة لاحتلالها ، حتى سنحت لها الفرصة لادراك هذا المأرب فى يوليو سنة ١٨٨٢ . ولكنهم مع هذا استنهضوا همة المصريين ، بطريق غير مباشر ، للذود عن بلادهم ، والدفاع عن كرامتهم ضد أى معتد أجنبى ، فرنسيا كان أم انجليزيا ، وأشركوهم معهم فى الحكم بشكل صورى ، ومنذ ذلك الوقت لايرضى المصريون بالحكم الدستورى بديلا . كما وضعوا أساس النهضة الصناعية بما أنشأوه من مصانع ، خصوصا بعد أن انقطع اتصالهم بفرنسا وأوربا ، أهمها صناعة المنسوجات والورق والبارود وعمل آلات لسك النقود ولرفع المياه ودبغ الجلود وللجراحة . وللحملة يرجع الفضل فى انشاء المستشفيات الحديثة والمكاتب وطبع الجرائد وادخال المطبعة العربية ، التى قامت على أنقاضها مطبعة بولاق التى أوجدها محمد على (٢)

— ٢ —

لم تصب مبانى القاهرة ومساجدها فى أى عهد بما أصيبت به على يد الفرنسيين من هدم وتخريب . هؤلاء القوم الذين لم يراعوا لدور العبادة

(١) وقع جلاء الفرنسيين بين ١٤ ، ٣٠ سبتمبر سنة ١٨٠١
(٢) تاريخ مصر السياسى جـ ١ ص ٨٥

والمســاجد حرمة أو كرامة ، رغم تظاهرهم باحترام الدين ، وشــعائر الاسلام ، وقت غزوهم مصر. ولم يكن لهم هم سوى اخضاع المصريين لحكمهم بكل ما أوتوا من قوة وبطش ، خصوصــا عندما تشــتد بهم الأزمات ، وتتحرج الأمور ، كما يفعلون اليوم نفس الشيء مع أهــل الجزائر . لذلك حــوّلوا المساجد ودور العبادة والقصــور الى حصون وقلاع ، يقذفون منها المصريين بالحمم والقذائف عند ثوراتهم ضد الطغيان الفرنسى . كذلك هدموا كثيرا من تلك المساجد عندما اعترضت طريقهم ، فى أثناء هجومهم على الأحياء الثائرة . بل انهم حولوا المساجد الجامعــة كالأزهر وجامع الظاهر الى ثكنات تأوى اليها جنودهم وخيولهم ، غير آبهين لشعور المسلمين عامة ، وشعور المصريين بصفة خاصة . ولقــد وصف الجبرتى جامع الظاهر بعد أن حوله الفرنسيون الى قلعة فقال : « وجعلوا جامع الظاهر بيبرس خارج الحسينية ، قلعة ، ومنارته برجا ، ووضعوا على أسواره مدافع ، وأسكنوا به جماعة من العسكر ، وبنوا فى داخله عدة مساكن تسكنها العسكر المقيمة به »

كذلك حصنوا قلعة الجبل ، وبنوا عليها الاستحكامات ، ونصبوا فيها المدافع ، كما حصنوا جزيرة الروضة ، ووضعوا بطاريات من المدافع فى كل طرف من أطرافها ، وجعلوا من المقياس شبه قلعة . وحصنوا الشاطىء المقابل للجزيرة . وجعلوا فم المجراة طابية حصينة ، سميت طابية المجراة ، أو طابية السبع السواقى . وجعلوا قصر ابراهيم بك « قصر العينى » الواقع تجاه جزيرة الروضة مستشفى عسكريا حصينا ، يسع ألف مريض وجريح ، وألحق به بيت محمد كاشف الأرناءوطى ، وجعلوه مخزنا ومصنعا لفرقة المهندسين ، وحصنوا السور المحيط بهما ، وركبوا عليه المدافع ، فصار حصنا منيعا . كذلك أنشأوا قلعتين فوق باب النصر وباب الفتوح ، وما تزال توجد آثار الفرنسيين فى الأسوار المتصلة بهما حتى اليوم

ومن المساجد التى هدموها المساجد المجاورة لقنطرة امبابة ومسجد المقس ، المعروف الآن بجامع أولاد عنان ، وجامع الكازرونى بالروضة والجامع المجاور لقنطرة الدكة غربى الأزبكية

وهكذا كان المصريون كلما قاموا بالثورة فى وجوه الفرنسيين أمعن هؤلاء فى هدم المساجد والدور ، ونهبوا الحوانيت ، واستولوا على كل ما تحتويه من بضائع ونفائس ، ثم هدموا مساطبها ، وقطعوا الأشجار من البساتين، واستولوا على أخشابها ، ليستعملوها فى بناء الاستحكامات والقلاع . وقد ذكر الجبرتى ضمن حوادث سنة ١٢١٥ هـ (١٨٠٠ م) ، أى فى عهد قيادة مينو للحملة الفرنسية ، أن خططا بأكملها قد تهدمت : كخط الحسينية ، والخروبى « بمصر القديمة » وبركة جناق « وكانت تعرف ببركة درب عجور بباب الشعرية » ، وبركة الفيل . وقد كشفوا سور القاهرة القديم ، من باب النصر الى باب الحديد ، وحصنوا أبوابه ، وأقاموا حولها الأسلاك الشائكة ، وسدوا باب الفتوح بالبناء ، وكذلك باب البرقية ، وباب المحروق

ومن العمارات التى هدموها جامع جانبلاط بباب النصر ، ومبانى رأس الصوة « بالميدان الموجود بين جامع السلطان حسن والقلعة ، حيث باب العزب » . وهدموا أعالى المدرسة النظامية ، ومدرسة القانيبية ، أو مسجد قانيباى « الموجود على رأس درب السماكين » ، وجامع الچركسى وجامع خوند بركة ، خارج باب البرقية ، « وهو بقرافة المجاورين ، بقرب شارع السلطان أحمد » ، وكذلك أبنية القرافة ومدارسها ومساجدها ، والقباب والمدافن الكائنة تحت القلعة ، وجامع الرويعى ، وقد جعلوه خمارة ، وجزءا من جامع عثمان كتخدا القزدوغلى ، بالقرب من رصيف الخشاب ، وجامع خير بك حديد ، بدرب الحمام ، بالقرب من بركة الفيل،

وجامع البنهـاوى والدخطوطى والعدوى ، وجامع عبد الرحمن كتخدا المقابل لباب الفتوح . ولم يبق منه الا بعض الجدران

وهدموا المساطب فى أحياء بأكملها كالصليبة ، وقناطر السباع ، ودرب الجماميز ، ودرب سعادة ، وباب الخرق فما يليه الى باب الشعرية . وتعللوا فى ذلك برغبتهم فى توسيع الشـوارع والأزقة ، وغرضهم الحقيقى منع الناس من اتخاذها متاريس ، فى حالة قيام الثورة ، كما حدث فى ثورتى القاهرة الأولى والثانية

وقطعوا الأشجار والنخيل من جميع الحدائق والبساتين الكائنة بالقاهرة ، وبولاق ، وقصر العينى ، والروضة ، ومصر القديمة وخارج الحسـينية ، وبركة الرطلى ، وأرض الطبالة ، وبساتين الخليج . وصادروا أخشابها ، وأخذوا أيضا أخشاب المراكب والسفن ، مع شـدة الحاجة اليها للنقل ، وعدم انشاء مراكب جديدة ، فتعطلت المواصلات ، مما أدى الى صعوبة النقل (١)

---

(١) تاريخ الحركة القومية حـ ١ ص ٣١٠ ، والجبرتى ص ١٥٩ حـ ٣

ب ـ عصر محمد على

١٢٢٠ ـ ١٢٦٤ هـ (١٨٠٥ ـ ١٨٤٨ م)

ـ ٣ ـ

كان من بين أفراد الحملة التى وجهتها الدولة العثمانية سنة ١٨٠١ م ، لاخراج الفرنسيين من مصر ، ضابط ألبانى برتبة اليوزباشى ، ولد فى مدينة قوله ، واحترف فى مستهل حياته تجارة الدخان ، الذى تنتجه بلده بوفرة . ثم انخرط فى سلك الجندية ، ولم يدر أن مستقبلا عظيما كان ينتظره فى مصر ، وأنه يسير بخطى سريعة نحو عرشها . ذلكم هو محمد على منشىء الأسرة العلوية

كان محمد على يتحلى بكثير من الصفات التى تؤهله للعظمة والنجاح : فقد كان شجاعا ، مقداما ، بعيد النظر ، واسع الحيلة ، عريض الآمال . اشترك فى محاربة الفرنسيين فى مصر ، وأتيحت له فى أثناء ذلك دراسة الحالة السياسية فيها ، فرآها بعد خروج الحملة وقد تنازعتها قوى متباينة : العثمانيون يريدونها لأنفسهم بحق الفتح ، والمماليك يتشبثون بها ، استمرارا لماضيهم القديم فى حكم البلاد ، والسيادة عليها . والانجليز ، وقد أسهموا بنصيب وافر فى اخراج الفرنسيين ، واحباط خططهم ، يودون لو حلوا محل الفرنسيين فى البقاء فى مصر

أما الشعب المصرى ، صاحب البلاد الحقيقى ، وقد أقض مضاجع الفرنسيين ، وحمل على أكتافه عبء الدفاع عن البلاد ، عندما تقاعس الأتراك فى الدفاع عنها ، ومالأ المماليك الفرنسيين ، وعقدوا معهم الصلح ، رعاية لمصالحهم الخاصة ، عقد هذا الشعب العزم على التخلص من الاستبداد والاستعمار ، بعد أن ذاق طعم الحرية ، ولذة الكفاح

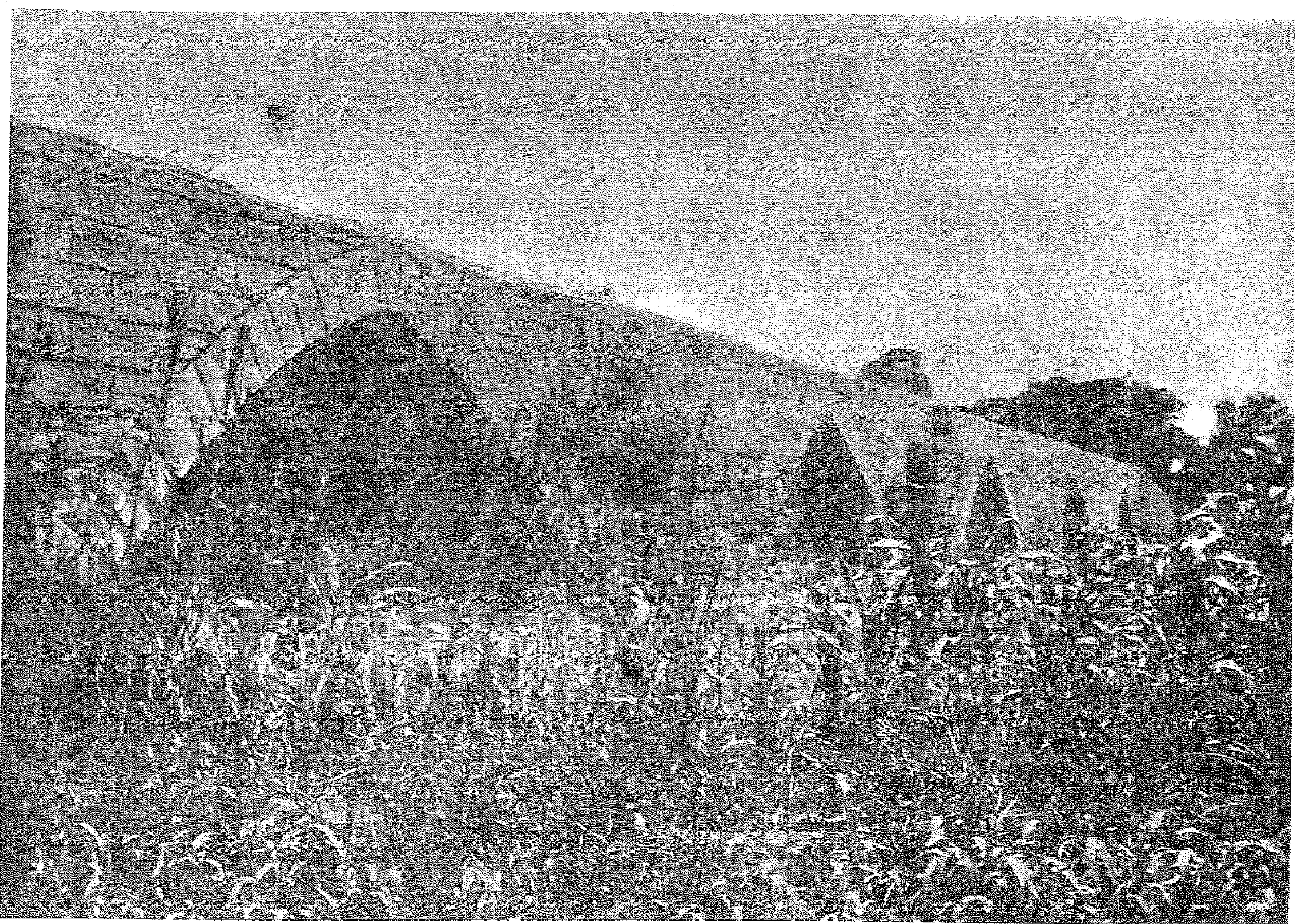
رأى محمد على كل هذا ، وكان يعرف بالاضافة اليه الكثير عن ضعف الدولة العثمانيـة ، وعدم قدرتها على الصمود فى وجه المستعمرين الأوربيين ، وحماية ممتلكاتها من عدوانهم . فعول منذ اللحظة الأولى على استخلاص مصر لنفسه ، مستعينا فى ادراك هذه الغاية بالمصريين ، أصحاب البلاد الشرعيين . وما زال يستعمل الحيل والمكايد ، ضد الولاة العثمانيين، ويبذر بذور الفرقة بين زعماء المماليك ، وبينهم وبين الشعب ، حتى قضى على جميع معارضيه ، الواحد تلو الآخر . وهو فى كل هذه الأثناء ، يتودد الى زعماء المصريين ، ويظهر لهم استعداده لمناصرتهم ، والأخذ بيدهم ، ضد الفساد والطغيان ، حتى أجمعوا فى النهاية على انتخابه واليا . فتمثلت طوائف مصر المختلفة من علماء ومشايخ وصناع وتجار ، وساروا فى شوارع القاهرة الى منزل محمد على بهيئة مظاهرة وطنية ، منادين بسقوط « العثمانلى » ، ومعلنين رغبتهم فى تولى محمد على ، ثم تقدم اليه العلماء ، وعلى رأسهم السيد عمر مكرم ، والشيخ الشرقاوى فى ٥ صفر سنة ١٢٢٠ (١٣ مايو سنة ١٨٠٥) ، وانتخبوه واليا على البلاد ، بشروط اشترطوها : أن يحكم بينهم بالعدل ، وأن يلتزم جادة الحق ، وألا يبرم أمرا الا بمشورتهم

فلما أعلن نبأ انتخاب محمد على ، قصدت الجماهير الى القلعة ، ونادت بسقوط خورشيد باشا ، الوالى التركى ، لما اقترفه الدلاة — حرسه الخاص — فى القاهرة من جرائم وآثام . وطلبوا اليه النزول من القلعة ، ومغادرة البلاد . ولكنه أبى واستكبر ، وذكر للزعماء أنه « متعين واليا على مصر بالخط الشريف — أى بأمر السلطان — ولا يأتمر بأمر الفلاحين!!» . عندئذ هب أهل القاهرة جميعا ، وأشعل السيد عمر مكرم فيهم نار الحماسة ، وأثار حميتهم ، وتزعم الثورة ، فتجمعت جموعهم ، وحاصروا القلعة ، مدة شهرين تقريبا ، منعوا خلالها عن الوالى وجنوده الميرة والذخيرة ، وتبادل الفريقان الضرب بالمدافع ، ولم ينقذ الوالى من الهلاك سوى وصول موافقة

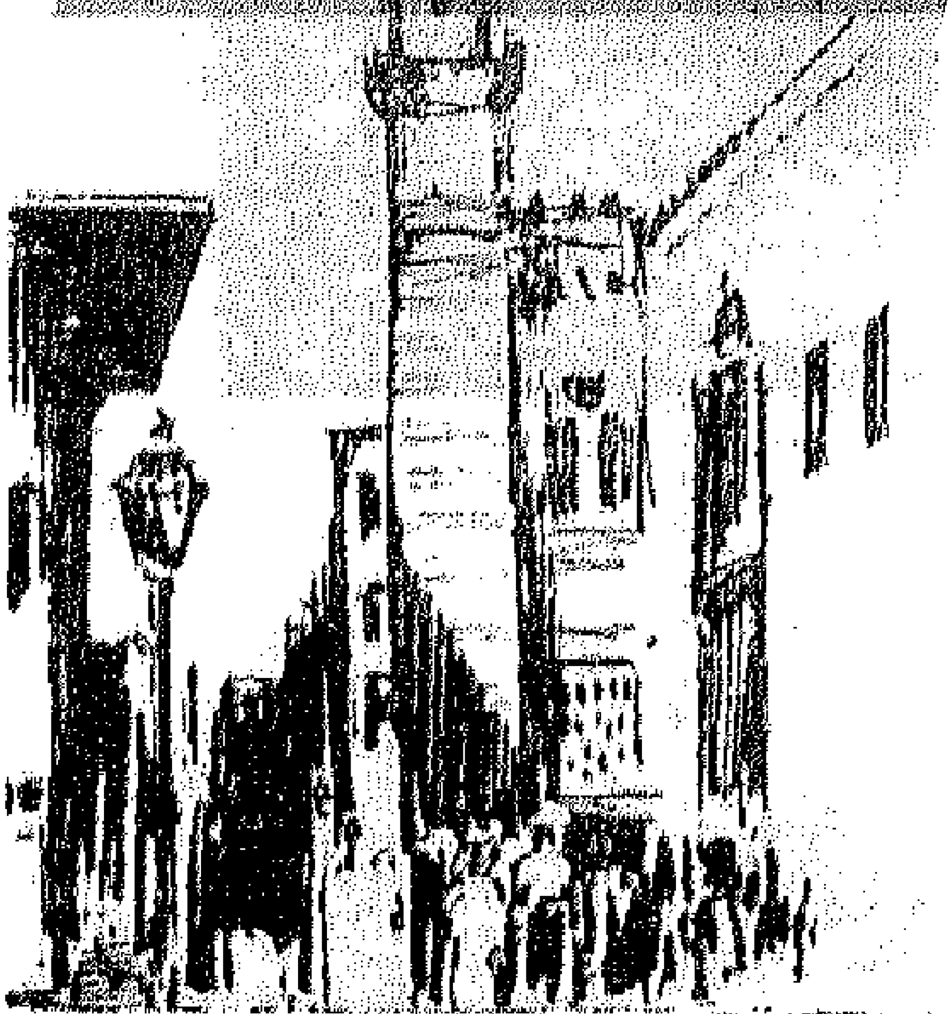
السلطان على انتخاب محمد على فى ١١ ربيع الثانى سنة ١٢٢٠ (٩ يوليو سنة ١٨٠٥) فصدع خورشيد بالأمر ، وغادر البلاد ، مذموما مدحورا ، وهكذا سجل الشعب انتصارا رائعا ، ووضع الحجر الأساسى لحريته واستقلاله .

وما أن استتب الأمر لمحمدعلى الا وشرع يحكم البلاد حكما أوتوقراطيا «استبداديا» ، فجمع السلطة بأسرها فى يديه ، وأخذ يقلب لزعماء الشعب ظهر المجن ، وينكل بمن يعارضه منهم ، متناسيا فضلهم عليه ، وأنهم هم الذين أجلسوه على عرش البلاد . فنفى السيد عمر مكرم الى دمياط ، ونزع الأوقاف من أيدى العلماء . وقد استتب له الأمر نهائيا ، بعد أن قضى على المماليك غيلة فى مذبحة القلعة المشهورة ، فى١٠صفر سنة ١٢٢٦ (أول مارس سنة ١٨١١) ، فصار سيد البلاد بلا منازع

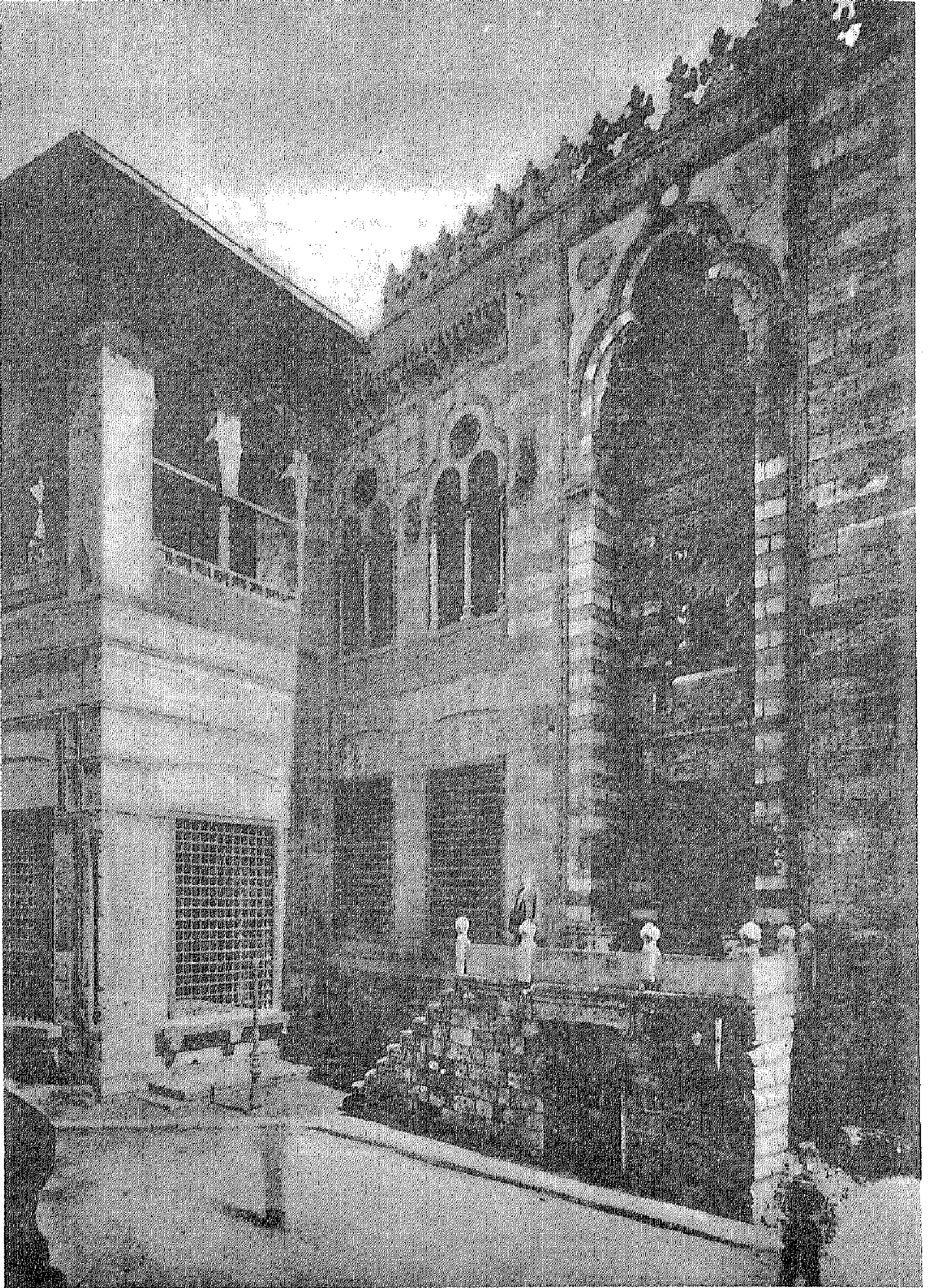
وأخذ ينشىء له جيشا قويا مدربا ، وفق أحدث الجيوش الأوربية ، مستعينا بخبرة الكولونيل سيف « سليمان باشا الفرنساوى » ، أحد الضباط الفرنسيين المدربين ، اذ كان ينوى مد حدود مصر ، وتوسيع رقعتها الى ماكانت عليه أيام عزها ومجدها . فضم اليها بلاد العرب والسودان ، واختلف مع السلطان ، فانتهى الخلاف بينهما الى أن غزا بلاد الشام وآسيا الصغرى ، وأحرزت الجيوش المصرية على جيوش السلطان نصرا مؤزرا . ولولا وقوف الدول الأوربية فى وجهه ، لخوفها من تفاقم قوته ، وتهديده مصالحها فى الشرق ، لقضى على الدولة العثمانية ، وربما جلس أيضا على كرسى السلطنة . ومع انتصاره على السلطان فى ميادين القتال ، الا أن الدول الأوربية ، وعلى رأسها انجلترا ، أضاعت عليه ثمرة انتصاراته فتجمعت أساطيلها وجيوشها ضده ، وأجلت قواته عن بلاد الشام ، التى كان يحكمها ابنه ابراهيم ، وقررت فى معاهدة لندن سنة ١٨٤٠ م ألا يتعدى سلطانه حدود مصر ، وفى سنة ١٨٤١ م استصدرت من السلطان فرمانا بأن يكون حكم مصر له ولأبنائه من بعده



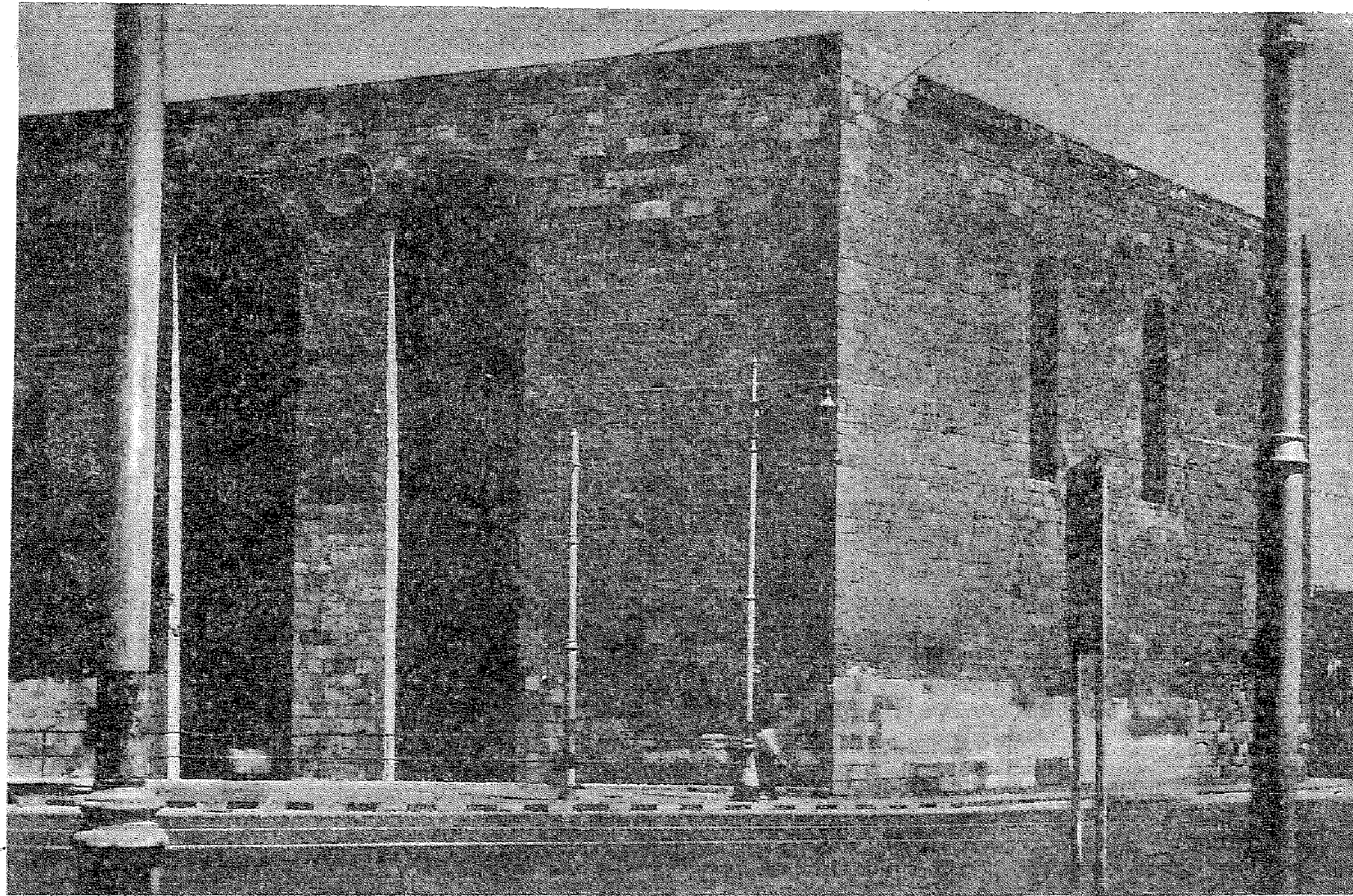
بقيّة من قناطر ابى المنجا شمالى القاهرة وهى من منشآت الظاهر بيبرس



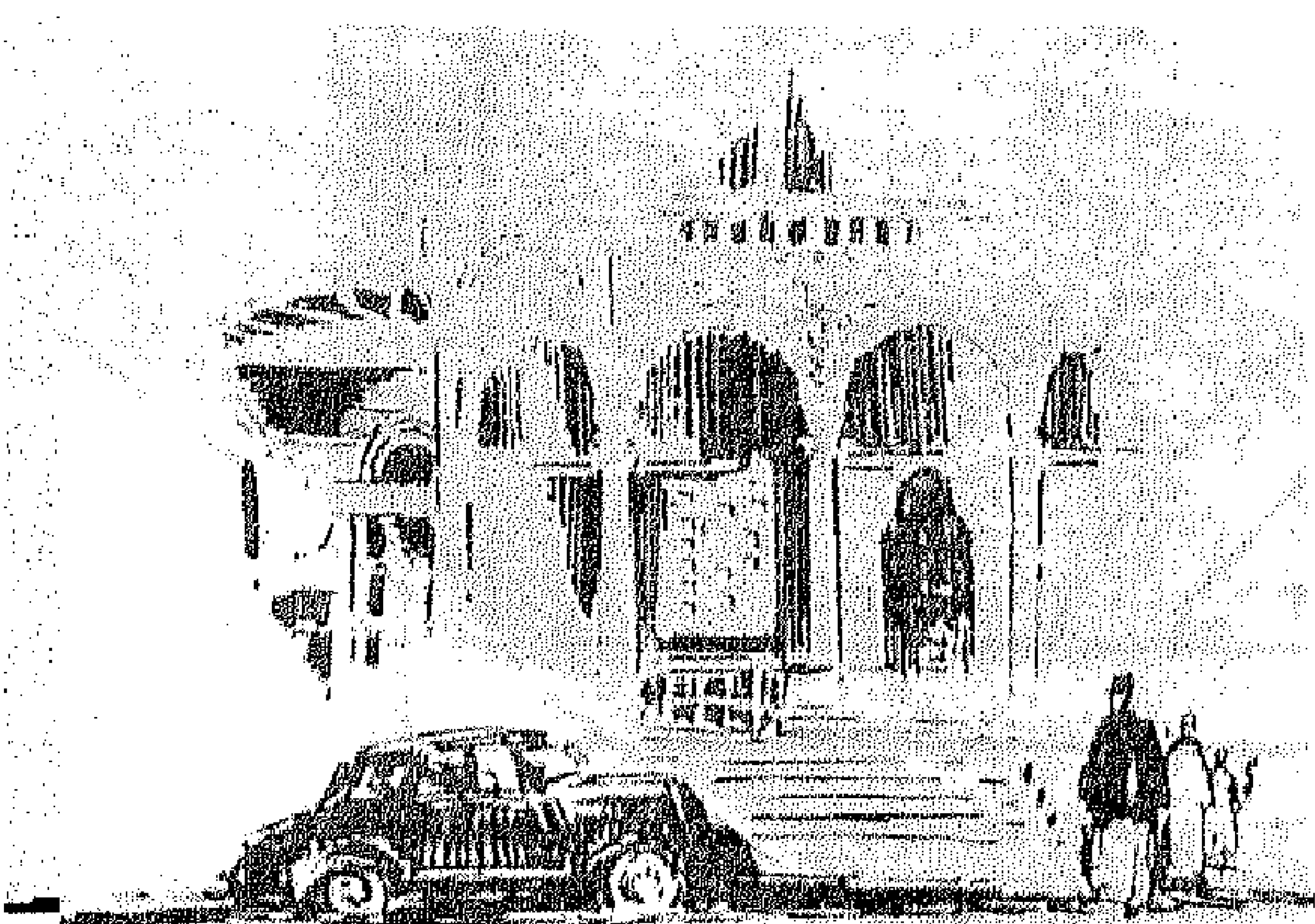
الواجهة والبـاب الرئيسي والمئذنة المربعة ذات الاربعة
الرءوس بمسجد (مدرسة) الغوري بالغورية والصورة
من (مجمـوعة الاسـتاذ حسن عبد الوهاب)



قبة وسبيل الغورى بالغورية ، ويرى المدخل الرئيسى المرتفع
عن مستوى الشارع .. ويتوصل اليه بدرج من السـلالم

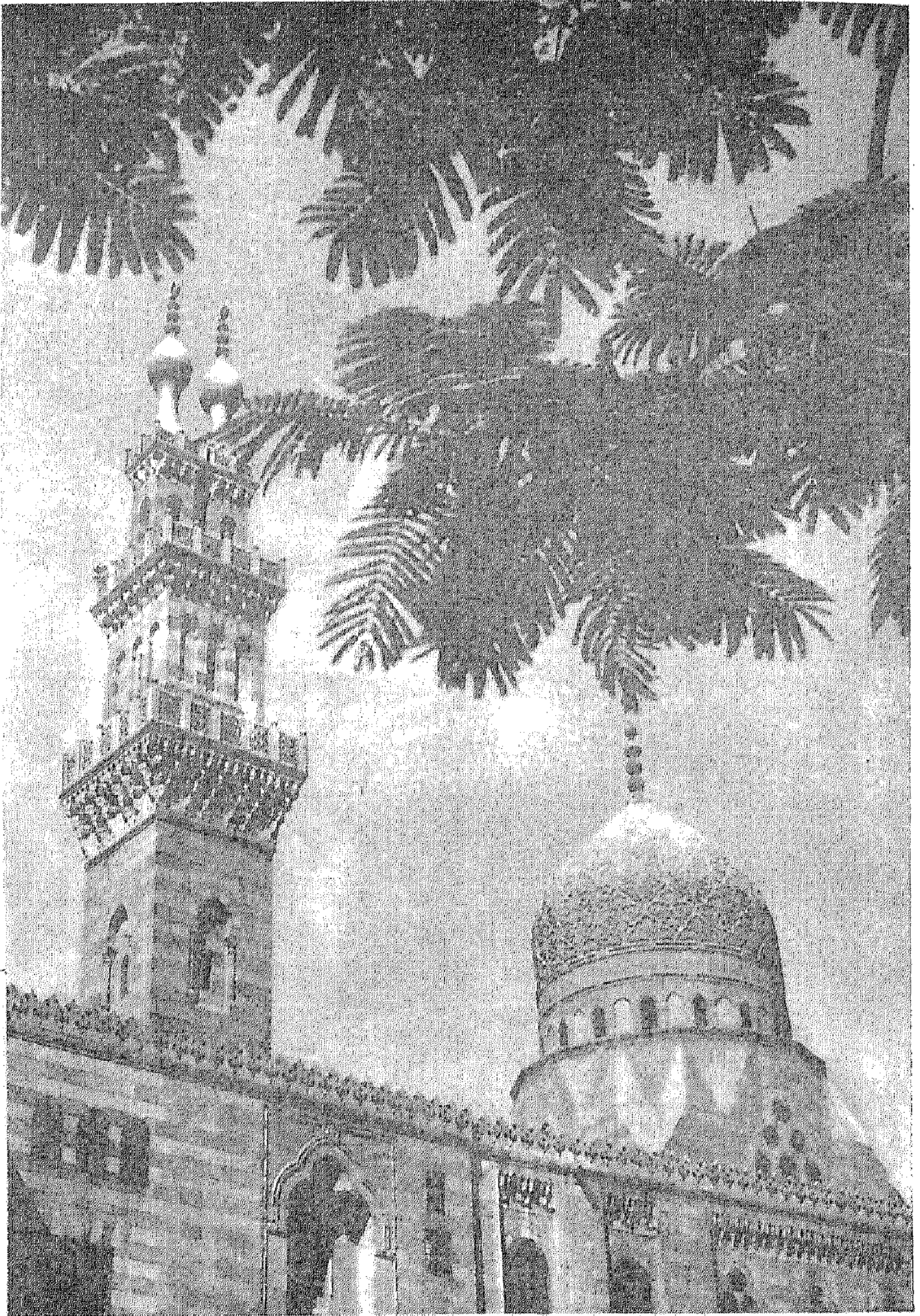


مجرى المياه أو (العيون) بفم الخليج ، الذى شيد فى عهد الغورى لتوصيل المياه الى القلعة وفى عهد بعض السلاطين المماليك الآخرين

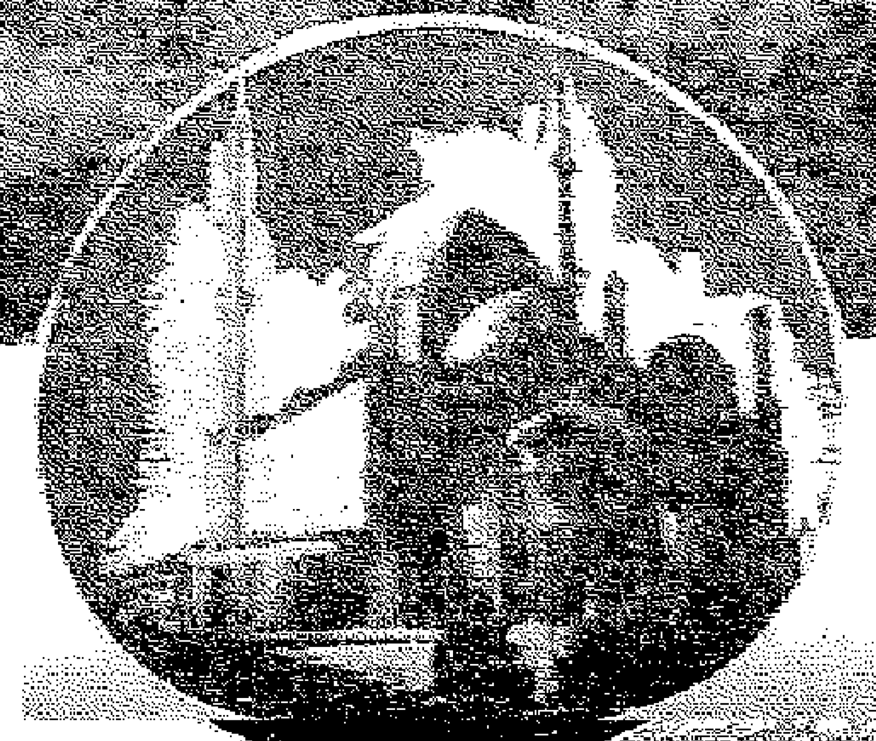


وكالة الغورى بشارع محمد عبده (شارع التبليطة سابقا) بالغورية . انشاها السلطان الغورى سنة ٩٠٩ – ١٠ هـ (١٥٠٣ – ٤ م) . وترى الحواصل المعدة لتخزين البضائع وايواء دواب الحمل فى اسفل الوكالة . وفى اعلاها توجد المساكن التى ينزل فيها التجار . وتمثل الصورة الوكالة فى أثناء ترميمها واعادتها الى سابق عهدها . . .

يوضح هذا الرسم كيف تحول النيل الى الغرب، فأصبحت بولاق ثغر القاهرة النهرى بدل المقس . وتوضح أيضا جزيرة الفيل التى تخلفت عن هذا التحول ، والتى نشا عليها حيا شبرا وروض الفرج فيما بعد



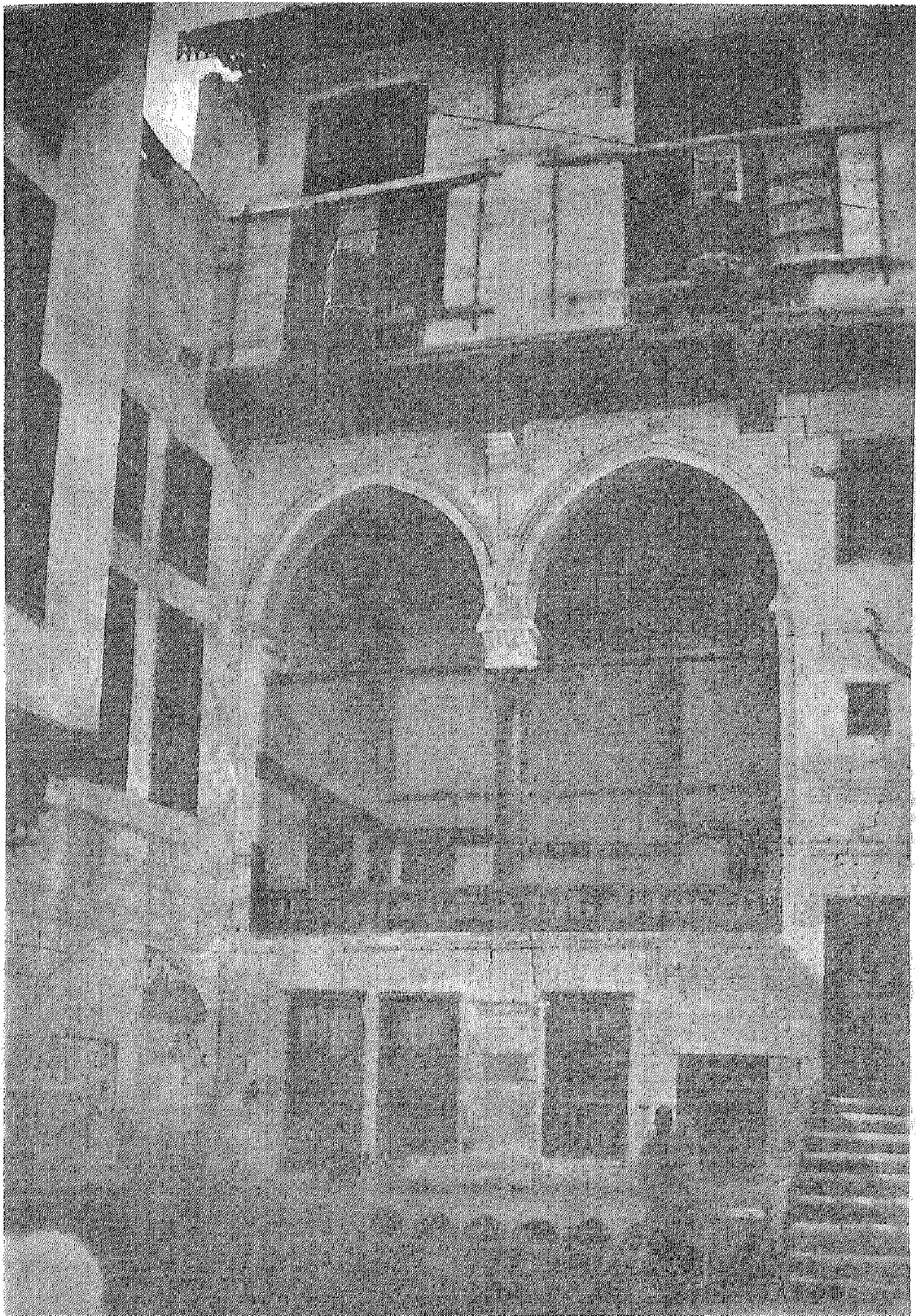
قبة ومئذنة مسجد قانى باى الرماح بميدان صلاح الدين بحى القلعة .. وهو من أجمل المساجد المملوكية



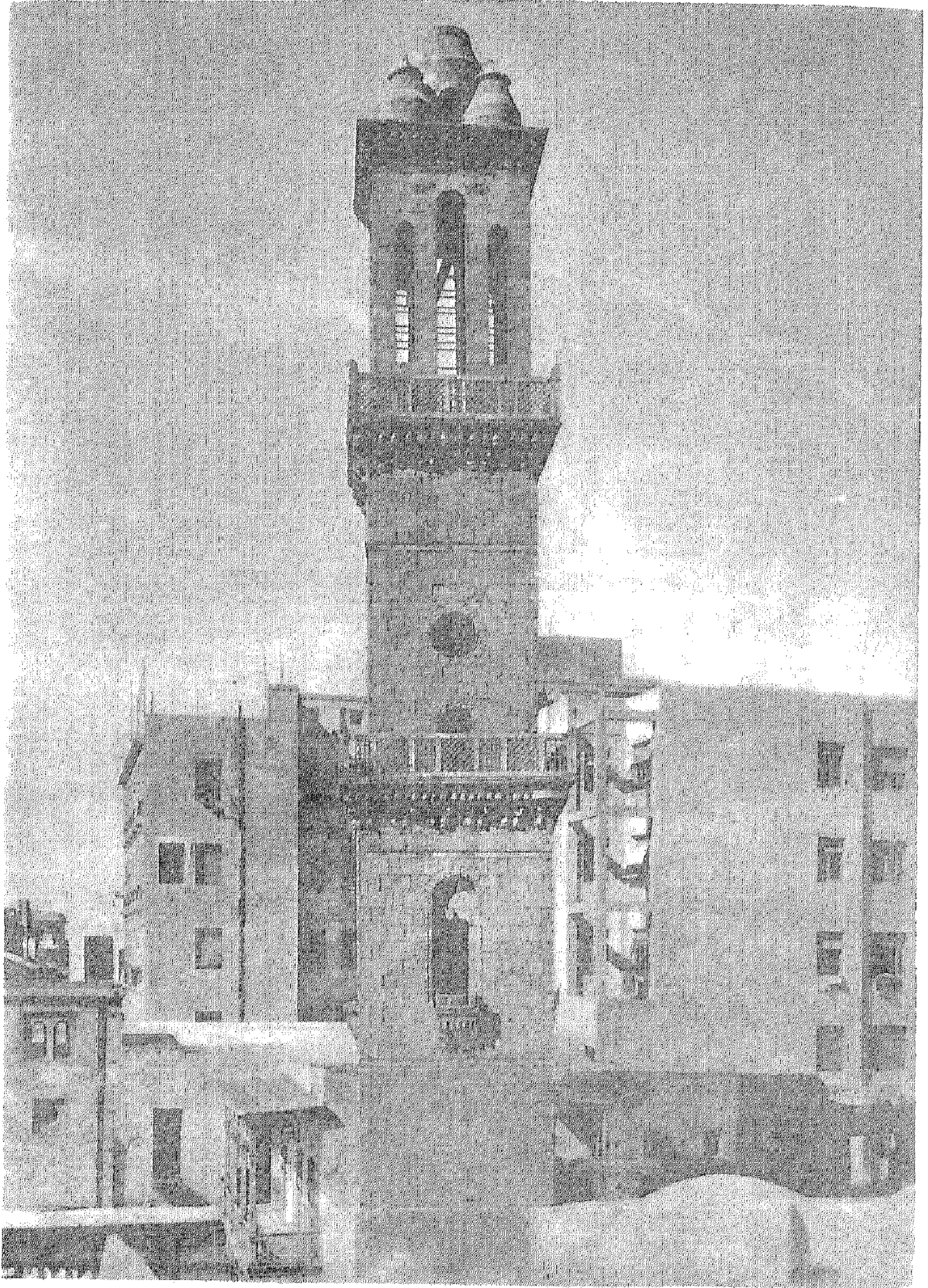
منظر مأخوذ من الطائرة للقلعة وأسوارها ومايجاورها من منشآت وما يحيط بهـا من مساجد ، من بينها مدرسة السلطان حسن وجامع الرفاعي وغيرهما . وترى القلعـة وهي تشرف على القاهرة جميعهـا

مسجد سنان باشا ببولاق : وترى القبة الضخمة وشبابيكها الجصية ذات الزجاج الملون . وهو ثانى مسجد أنشىء بالقاهرة على الطراز العثمانى

نافورة من العصر المملوكى وهى مصنوعة من الفسيفساء الرخامية البديعة . محفوظة بالمتحف الاسلامى بالقاهرة



منزل جمال الدين الذهبي بحارة خوشقدم : ويرى المعقد ذو العقدين المتكئين على عمود من الرخام ، ويطل على الحوش من الجهة القبلية



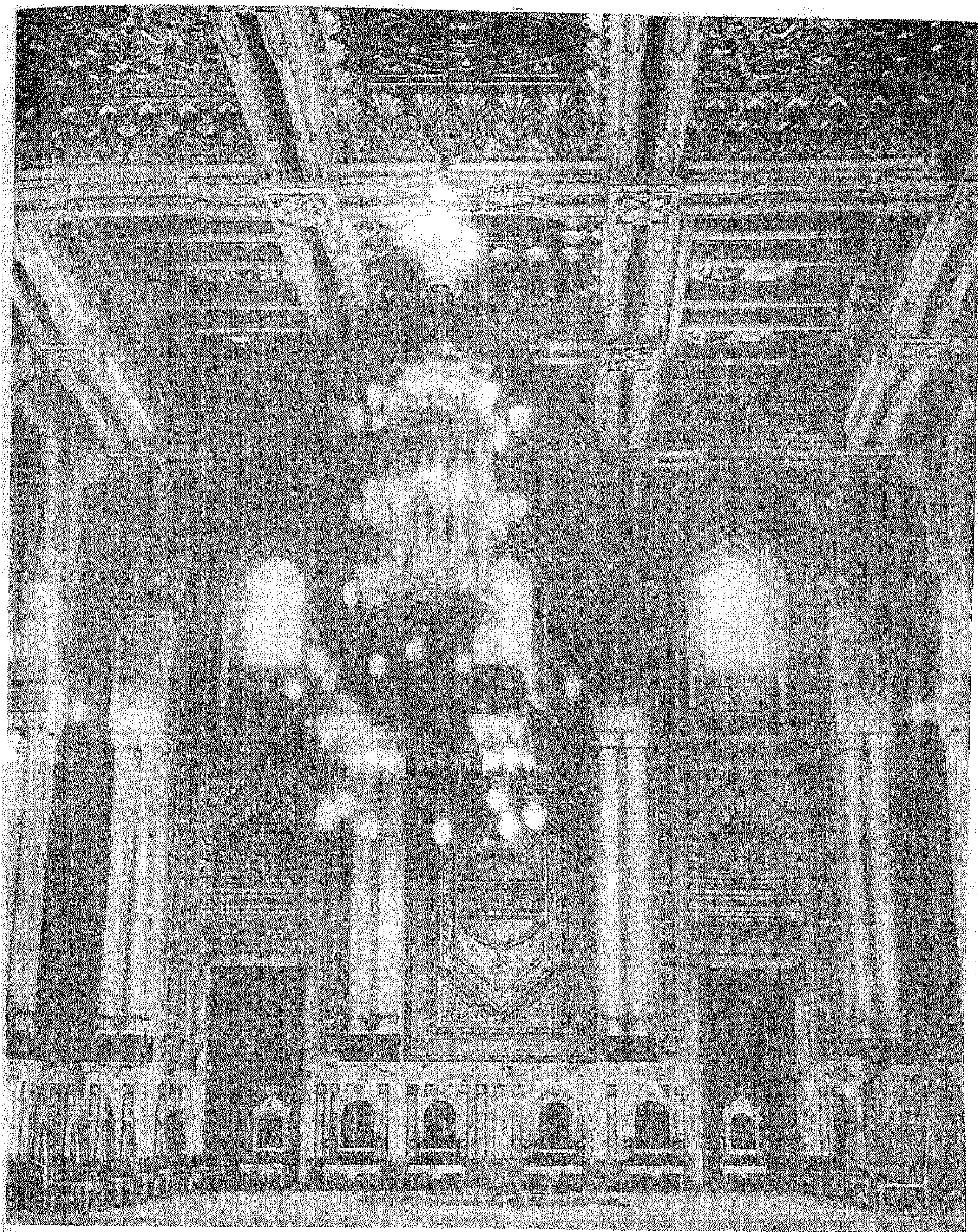
مئذنة جامع محمد ابى الذهب . وهى كما ترى فى الصورة
مربعة الشكل منتهية بقمة ذات خمسة رءوس



ميدان الرميلة بالقلعة. وترى القلعة وباب العزب ومسجدا قانى باى الرماح والمحمودية. والناس مجتمعين وسط الميدان يبيعون ويشترون ، فقد كان أحد أسواق القاهرة فى القرن الثامن عشر

قاعة الفرمانات بقصر الجوهرة بالقلعة

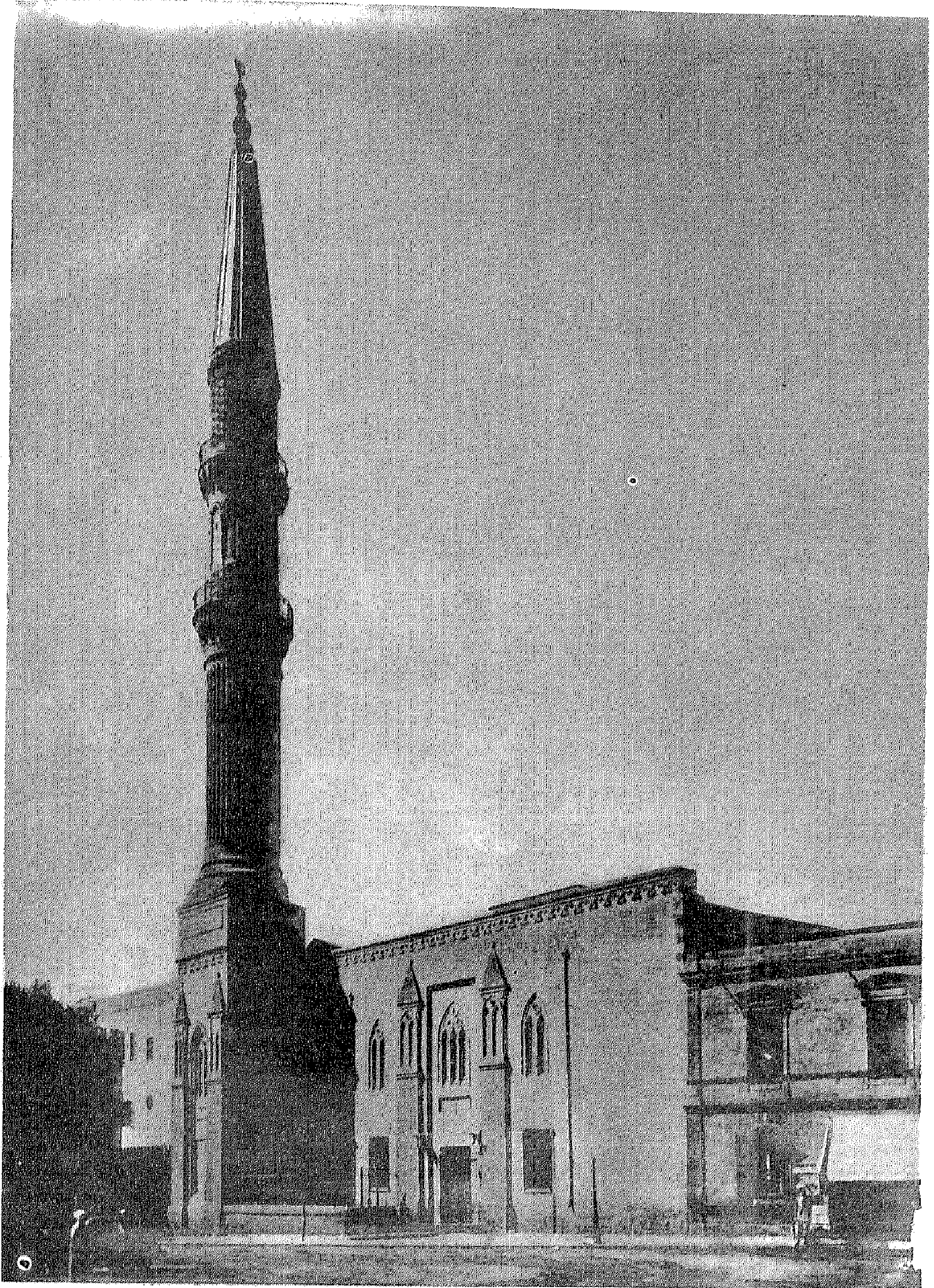
قاعة العرش بقصر الجوهرة بالقلعة



قاعة العرش بمتحف عابدين

سبيل أولاد عنان بميدان رمسيس بالقاهرة





المشهد الحسينى

وقد تعهد محمد على البلاد باصلاحات عظيمة ، فى همة لا تعرف الملل ، مستعينا بنخبة من المستشارين والعلماء الفرنسيين . فتمتعت البلاد لأول مرة منذ ثلاثة قرون بالأمن والاستقرار ، وأينعت الزراعة ، واهتم بالرى : فحفر الترع ، وأنشأ القناطر الخيرية ، ونشطت التجارة ، واهتم بالتعليم ، وأرسل البعوث الى مختلف بلاد أوربا ، كما عنى بأمور الصحة ، وأنشأ المصانع العديدة لتزويد الجيش والأسطول بجميع احتياجاته ، كما أنشأ بالاسكندرية ترسانة لصنع السفن ، وارتفع اسم مصر عاليا بين الأمم . وفى أقل من نصف قرن تغير حال مصر ، من دولة خاملة الذكر ، تضرب فى بيداء الجهل والذلة والفقر ، الى دولة بعيدة الصيت ، عزيزة الجانب ، غنية الموارد ، تحتل مكانا مرموقا فى المحيط الدولى

غير انه كان يشوب عهد محمد على نزعة الاستبداد والقسوة ، وانعدام الروح الديمقراطى . وكان للجيش المحل الأول فى اعتباره وتقديره ، وكان كل ما ازدهر فى البــلاد من نهضة وحضارة مرده الجيش ، الذى كان وسيلته فى اشباع عظمته ، وادراك أطماعه الواسعة . فالمدارس المختلفة التى أنشأها ، قصد بها أن تخرج ضباطا للجيش ، وكذا الشأن فى معظم المصانع فقد شيدها لسد حاجة الجيش من ملابس للجنود ومؤن وذخيرة ، فلما أنقص عدد الجيش بمقتضى معاهدة لندن ، وقبيل وفاة محمد على أغلقت معظم هذه المصانع ، وقضى على نهضته الصناعية . كذلك كان يسيطر على الاقتصاد المصرى سيطرة احتكارية كاملة ، حتى قيل انه كان « الزارع الوحيد ، والصانع الوحيد ، والتاجر الوحيد » . فقد كانت الحكومة تستأثر بالربح والفائدة ، دون أفراد الشعب ، وفى هذا ما فيه من تثبيط همم العاملين ، والقضاء على روح المنافسة . هــذا بالاضافة الى كثرة الضرائب ، وتعددها ، وتسخير الشعب فى أعمال الحكومة

وما زال محمد على يدير دفة الأمور حتى أدركته الشيخوخة ، وانتابه

الضعف والوهن ، فاعتزل الحكم لابنه ابراهيم ، الذى كانت قد اعتلّت صحته هو الآخر ، فسافر الى أوربا للاستشفاء فى سنة ١٨٤٦ م ، ثم فى سنة ١٨٤٨ م ، وزار ايطاليا وفرنسا وانجلترا ، وكان القوم يستقبلونه هناك كجندى باسل ، وقائد شجاع ، من أعظم قواد القرن التاسع عشر. ولكنه لم يمكث فى الحكم سوى سبعة أشهر ، وتوفى قبل والده فى نوفمبر سنة ١٨٤٨ ، فخلفه عباس الأول بن طوسون بن محمد على فى حكم مصر

ولقد حزن محمد على لوفاة ابنه ابراهيم ، فعجل الحزن بوفاته . فتوفى فى ١٣ رمضان سنة ١٢٦٥ (٢ أغسطس سنة ١٨٤٩) ودفن بمسجده الذى شيده بالقلعة

— ٤ —

القاهرة فى عصر محمد على

كانت أهم ظاهرة طرأت على مدينة القاهرة ، فى القرن التاسع عشر ، امتدادها ناحية الشمال الغربى والغرب ، ونشوء أحياء جديدة ، لم تكن موجودة من قبل ، وذلك بسبب طرح النيل ، أى ظهور أرض جديدة ، تتكون من عملية ارساب الطمى ، الذى يأتى به النيل ، عاما بعد عام

ومعلوم أن نهر النيل ، عند فتح العرب لمصر سنة ٢٠هـ (سنة ٦٤١ م) كان يمر تحت قصر الشمع « ومتبق من هذا القصر فى الوقت الحالى كنيسة المعلقة بمصر القديمة » ، وشارع مارجرجس وجامع عمرو ، ثم يسير محاذيا بشارع سيدى حسن الأنور الى نهايته . ثم يسير شمالا الى النقطة التى يتقابل فيها شارع الند البرانى بسكة المدبح ، ثم يسير بعد ذلك متجها فى طريقه الى الشمال ، فيمر فى حارة المغربى ، بجنينة قاميش ، فشارع بنى الأزرق بجنينة لاظ ، فشارع جنان الزهرى ، فشارع مصطفى (باشا) كامل « الشيخ عبد الله سابقا » ، فحارة البير قدار ، فشارع البلاقسة ،

فشارع عماد الدين الى نهايته البحرية ، ثم ينعطف الى ميدان رمسيس (باب الحديد سابقا) ومن هناك ينعطف الى الشمال الشرقي، مارا بميدان رمسيس ، ثم يمر بجوار محطة كوبرى الليمون من الجهة البحرية الغربية ، ثم يسير في شارع غمرة بطول مائتي متر، ثم يسير الى الشمال محاذيا لمخازن بضائع محطة مصر من الجهة الشرقية ، ثم يسير محاذيا لشارع مهمشة من الجهة الغربية ، ثم يسير بعد ذلك محاذيا لجسر السكة الحديد الذاهبة الى الاسكندرية من الجهة الشرقية . وعند وصول النيل الى نقطة واقعة على هذه السكة ، تجاه عزبة الخمايسة ، يميل الى الغرب ، حتى يصل الى سكن ناحية منية السيرج . وهناك يسير غربي سكن هذه الناحية ، ثم يسير الى الشمال بدوران خفيف الى الغرب ، حتى يتقابل مع مجراه الحالي عند فم ترعة الاسماعيلية

وبعد هذا التاريخ طرأ على الشاطىء المذكور تحولات بسبب طرح البحر تتبعها المرحوم العلامة الأستاذ محمد (بك) رمزى ، مفتش المالية الأسبق ، فوجد أن النيل طرح أرضا جديدة ثماني دفعات ، بجوار الشاطىء القديم (1) ، حتى استقر في وضعه الحالي ، بسبب بناء جسر النيل والعناية بصيانته دائما

يستنتج من ذلك أن جميع الأراضي الواقعة غربي مجرى النيل القديم ، الذي سبق تحديده ، قد استحدثت من بعد فتح العرب لمصر ، أي في مدى الثلاثة عشر قرنا الأخيرة . وتأخذ هذه الأراضي المستجدة في الاتساع كلما اتجهنا شمالا ، من مصر القديمة حتى ميدان محطة مصر . وتبلغ هذه الأراضي أقصى اتساعها في الشمال . فاذا سرت في شارع ٢٦ يوليو « شارع فؤاد الأول سابقا » الى ناحية الغرب ، ابتداء من تقاطعه بشارع عماد الدين ،

---

(1) انظر المقال القيم للمرحوم الاستاذ محمد (بك) رمزى ، عن الجغرافية التاريخية لمدينة القاهرة ، المنشور بمجلة العلوم ، السنة التاسعة عددى سبتمبر واكتوبر سنة ١٩٤٢

وانتهيت عند حي الزمالك ، في مواجهة امبابة ، فانك بذلك تسير في أرض مستجدة ، طرحها النيل من بعد فتح العرب لمصر ، حتى قرب نهاية القرن التاسع عشر

وكان شاطيء النيل الغربي ينتهي عند قرية الدقي بالجيزة . وحتى أوائل عصر محمد علي ، لم يكن قد ظهر في عالم الوجود أحياء شبرا وروض الفرج وبولاق

حي شبرا وروض الفرج :

وأخذت مدينة شبرا في الازدهار ، منذ تولى محمد علي ملك مصر ، وكانت أول خطوة في سبيل ذلك تمهيده شارع شبرا الحالي سنة ١٨٠٨م ، ليكون طريقا بين القاهرة وقصره الذي بناه بقرية شبرا الخيمة ، الواقعة في شمال فم ترعة الاسماعيلية ، وغرس على جانبي هذا الطريق أشجار اللبخ والجميز ، وكان يعرف وقت انشائه بجسر شبرا

وأنشأ محمد علي مصنعا لتبييض المنسوجات ، التي كانت تصنع في معامل النسيج المصرية ، وكان هذا المصنع ملاصقا لسراي الأمير السابق طوسون (باشا) ، التي تشغلها الآن مدرسة شبرا الثانوية الأميرية ، ولا يزال مكانه يعرف الى اليوم باسم المبيضة ، بقسم روض الفرج

وفي سنة ١٨٥٨م بنى محمد سعيد (باشا) والي مصر ، قصر النزهة على شارع شبرا ، وهو الذي تشغله اليوم المدرسة التوفيقية الثانوية بشبرا

وفي سنة ١٨٦٩ م أنشأ الأمير طوسون (باشا) بن محمد سعيد (باشا) والي مصر ، ووالد الأمير السابق عمر طوسون سرايه بشبرا ، التي تشغلها اليوم مدرسة شبرا الثانوية ، سالفة الذكر

وقد ازداد العمران بعد ذلك بما أقامه سراة القوم وأغنياؤهم وكبار الموظفين والأعيان والتجار من قصور فخمة ، وبساتين زاهرة ، على جانبي

شارع شبرا . وأقيمت بينها المقاهى والنوادى التى كان يقصدها أهل القاهرة للتنزه فى تلك الجهات الخلوية . ومما ساعد على انتشار العمران فيها بسرعة لا مثيل لها مد خط الترام فى شارع شبرا سنة ١٩٠٢ م ، وفى شارع روض الفرج ، وساحل روض الفرج فى سنة ١٩٠٣ م ، مما سهّل اتصالها بقلب القاهرة ، وجعلها على قيد دقائق منها ، واكتظاظ مدينة القاهرة بالسكان ، وقلة المساكن بها مع اطراد زيادة عدد السكان ، مما اضطر الناس أن يولوا وجوههم نحو هذه الأراضى الخلاء ، والحى الجديد، فتحولت جميع البساتين والأراضى الزراعية الواقعة على جانبى هذين الشارعين ، وعلى غيرهما من الشوارع المتفرعة منهما ، الى أرض للبناء . أقيمت عليها العمارات الشاهقة ، حتى صارت شبرا فى مدى خمسين السنة الأخيرة ، مدينة عظيمة العمران ، شاهقة البنيان ، عامرة بالسكان

وقد استتبع وجود هذا الحى انشاء معاهد العلم والمساجد والكنائس والمستشفيات ومراكز رعاية الطفل . وانتشرت فى شوارعها المحال التجارية والحوانيت العامرة ، بكل مايحتاج اليه السكان من مأكل ومشرب وملبس، كما كثرت بها الأندية والمقاهى وأماكن الرياضة واللهو ودور السينما

وقد ألحت أزمة المساكن على سكان القاهرة فى عشر السنوات الأخيرة ، التى تلت الحرب الأوربية الثانية ، فلم يتركوا أرضا فضاء الا استغلوها فى اقامة المبانى . لذلك ازداد انتشار العمران فى شبرا حتى اتصلت العمائر بشبرا الخيمة ، التى كثر فيها انشاء المصانع والمعامل والمخازن تمشيا مع تقدم الصناعة بمصر فى العصر الحالى

— ٥ —

المنشآت المعمارية فى عهد محمد على

قصر شبرا :

تقدم القول أن محمد على أنشأ فى قرية شبرا الخيمة قصرا ، كان عبارة

عن بستان ، غرس فيه شتى أنواع الأزهار والأشجار . وأقام غربى هـذا البستان قصرا كبيرا خاصا بالحرم . ولكنه تلاشى بعد وفاته . وانما بقى الى الآن الجوسق «الكوشك» الذى شيده وسط هذا البستان سنة ١٢٢٣ هـ (١٨٠٨ م) ، وهو بناء مستطيل ، مسطحه ١٣٥٣٠ مترا مربعا ، يتوصل الى داخله من أربعة أبواب متقابلة فى وجهاته ، ويتوسط هذا «الكوشك» بركة ماء كبيرة من الرخام بوسط جزيرة مستديرة من الرخام أيضا، تحملها تماثيل من التماسيح ، ومحاطة بسياج من الرخام . وفى الأركان الأربعة للبركة أسود رابضة تخرج المياه من أفواهها . وفى أرضية المثلثات التى ربضت عليها هذه الأسود ، حفرت أنواع من الأسماك بحركاتها المختلفة ، وهى تسبح فى الماء

ويحيط بالبركة من جهاتها الأربع عمد رشيقة من الرخام ، تحمل سقفا حافلا بالنقوش . وفى النواصى الأربع حجرات كبيرة : الشرقية القبليـة وتعرف بصالة الجوز ، لأن أرضياتها مفروشة بخشب الجوز ، والثانية الشرقية البحرية ، والثالثة الغربية البحرية ، وتعرف بصالة البليـاردو ، والرابعة ، القبلية الغربية ، وهى حجرة المائدة . وقد زخرفت جميعها بالنقوش البديعة ، والمناظر الطبيعية ، وصور بعض أنجال محمد على . وقد استخدم مصورين أتراكا وأوربيين لتصويرها (١)

قصور اخرى :

وبنى لكريمته زينب هانم قصرا بالأزبكية ، وآخر لكريمته نازلى هانم على ساحل النيل ، هدمه سعيد (باشا) ، وبنى محله قشلاق قصر النيـل « وقد هدم وأدخل مكانه فى ميدان التحرير »

وقد حذا حذوه كثير من الأمراء ، وكبار رجال الدولة ، فى تشـييد

---

(١) انظر مقال الاستاذ حسن عبد الوهاب عن العمارة فى عهد محمد على بمجلة العمارة عدد ٣ — ٥ سنة ١٩٤١

القصور الفخمة : فبنى ابراهيم (باشا) قصر القبة ، كما بنى قصرا آخر فى جزيرة الروضة والمقياس ، عرف بقصر المغارة ، والقصر العالى . وبنى عباس (باشا) قصرا بالخرنفش آل فيما بعد الى أسرة البكرى ، ولم يبق منه الآن سوى مدخله ، وقد أقيمت على أرضه مدرستان . وبنى أحمد (باشا) يكن دارا عظيمة فى عطفة عبد الله (بك) ، المتفرعة من شارع القلعة « محمد على سابقا » . وتعرف اليوم الأرض التى كان مقاما عليها هذه الدار بأرض اليكنية . وبنى أخوه ابراهيم يكن (باشا) دار بسويقة اللالا ، وبنى أحمد طاهر (باشا) قصرا فى الأزبكية ، وبنى خورشيد (باشا) السنارى دارا فى عابدين ، كما أنشأ شريف (باشا) قصره بجهة الهدارة بعابدين (١) ، ولا تزال الأرض التى كان مقاما عليها تعرف بأرض شريف الى اليوم ، وقد أقيم عليها كثير من المنازل والعمارات الفخمة

وفى زمن عباس الأول بنيت عدة قصور أخرى بالحلمية الجديدة والعباسية. وعرفت المبانى التى من هذا النوع وقت انشائها بالمبانى الرومية ، لاختلاف طرازها عما كان معروفا فى عهد المماليك

قصر الجوهرة :

يوجد هذا القصر قبلى مسجد محمد على بالقلعة . وقد ذكر الجبرتى أن محمد على هدم ديوان الغورى الكبير وما اشتمل عليه من مجالس ، وكذا ديوان قايتباى ، وأقام مكانهما هذا القصر على الطراز الرومى ، مستعملا الأخشاب بدل الأحجار ، والصخور والعقود على طريق بناء «اسلامبول والافرنج» ، وطليت جدرانها بالبياض الرقيق والأدهان والنقوش (٢)

وأكبر حجرات هذا القصر صالة العرش ، أو حجرة الفرمانات . وسقفها بيضاوى الشكل ، به نقوش مذهبة ، تمثل آلات حربية ، وآلات موسيقية ،

---

(١) المصدر السابق
(٢) الجبرتى حوادث ١٢٢٧ هـ (١٨١٢ م)

تتوسطها سرة خشبية مذهبة ، بها مجموعة من الفواكه ، وهى تشرف على ميدان صلاح الدين

وقد حليت جميع الحجرات بالمناظر الطبيعية المختلفة ، كما صورت على أعتاب احدى الحجرات سفن حربية ، لعلها قطع من الأسطول المصرى . وقد كان محمد على يستقبل فى هذا القصر كبار الزائرين الأجانب ، كما استقبل فيه الخديو اسماعيل السلطان عبد العزيز فى ٤ شوال سنة ١٢٧٩هـ (١٨٦٢ م) ، الذى أقام به سبعة أيام

قصر الحرم :

هذا القصر داخل القلعة ، ويشرف على جبل المقطم ، وعلى الحطابة وعلى مدخل القلعة . أمر محمد على بانشائه سنة ١٢٤٣ هـ (١٨٢٧ م) . ويتكون من ثلاثة أجنحة متصلة بعضها ببعض ، ولكل جناح حوش وحديقة . وجميع الأسقف والجدران بهذا القصر مزخرفة بمناظر طبيعية ، تمثل الفروع النباتية ، والأزهار والأشجار . وبالدور الأرضى للجناح الشرقى حجرة الفسقية ، وهى عبارة عن قاعة بها أربعة أواوين ، يتصدرها سلسبيل رخامى ، نقشت به طيور وزخارف بارزة ، وتتدفق المياه من أفواه هذه الطيور الى أحواض متدرجة تحت بعضها البعض ، تصب فى قناة تحتها ، نقشت بها الأسماك السابحة ، وتصب فى الفسقية ، وسط القاعة (١)

دار المحفوظات :

وتوجد بجوار القلعة ، وقد أمر محمد على بانشائها سنة ١٢٤٤ هـ (١٨٢٨ م) . وتسود واجهاتها روح المبانى الحربية . وتتحد فى تفاصيل واجهتها وأسوارها وبابها مع مبانى القلعة . وتتألف من دورين ، وبكل دور حجرات أعدت للمحفوظات

دار الضرب :

توجد هذه الدار شرقى بحرى ديوان الكتخدا الملحق بالكوشك « سراى الجوهرة » بالقلعة . وهى بناء مستطيل له حوش مكشوف ،

يحدق به حجرات متجاورة ، يعلوها قباب ، مبنية بالطوب ، فتحت بأعلاها مناور ، ويتوسط الحوش حجرة بيضاوية مبنية بالحجر . وما تزال بعض هذه الحجرات باقية الى الآن . وقد كان للنقود والمسكوكات التى كانت تضرب فى هذه الدار شهرة عالمية ، لدقة سكها ، وجودة صنعها ، وضبط عيارها

الاسبلة :

ولو أن الأسبلة عثمانية الطراز ، الا أنها لم تكثر فى مصر الا فى عهد محمد على . واليه ينسب سبيله بالعقادين، على رأس حارة الروم بالغورية ، أمر بانشائه سنة ١٢٣٦ هـ (١٨٢٠ م) صدقة على روح ابنه طوسون ، المتوفى سنة ١٢٣١ هـ (١٨١٦م) ، وسبيله بالنحاسين ، أمام مسجد الناصر محمد بن قلاوون ، ومدرسة الظاهر برقوق ، أنشأه سنة ١٢٤٤ هـ (١٨٢٨ ـ ١٨٢٩ م) صدقة على روح ولده اسماعيل الذى توفى بالسودان سنة ١٢٣٨ هـ (١٨٢٢ م) . وواجهتا السبيلين نصف دائرية تقريبـا . بهما شبابيك من النحاس المصبوب ، بأشكال زخرفية . ويعلو كل شباك لوحة رخامية ، بها كتابات تركية ، تعلوها زخارف وطرر . ويغطى الجميع رفرف خشبى ، حلى بزخارف مذهبة . وألحق بكل سبيل مدرسة لتعليم الأطفال القرآن الكريم

ومن أشهر الأسبلة التى أنشئت فى مصر فى هذا العصر :

١ ـ سبيل السلحدار ، على رأس حارة برجوان . أنشأه سليمان أغا السلحدار سنة ١٢٥٥ هـ (١٨٣٩ م)

٢ ـ سبيل والدة مصطفى فاضل (باشا) . أمام مسجد بشتاك بدرب الجماميز ، أنشأته ألفت هانم ، والدة الأمير السابق مصطفى فاضل (باشا) سنة ١٢٨٠ هـ (١٨٦٣ م)

٣ ــ سبيل أم عباس ، بشارع الصليبة ، أنشأته والدة عباس بن عم اسماعيل (باشا) سنة ١٢٨٤ هـ (١٨٦٧ م)

٤ ــ سبيل أم محمد على الصغير ، المعروف بسبيل أولاد عنان ، بميدان المحطة ، أنشىء سنة ١٢٨٦ هـ (١٨٦٩ م) [١]

مسجد محمد على بالقلعة :

كان الشروع فى انشاء هذا المسجد سنة ١٢٤٦ هـ (١٨٣٠ م) والمسجد فى مجموعه مستطيل البناء . وينقسم الى قسمين : القسم الشرقى ، وهو المعد للصلاة ، والغربى وهو الصحن ، تتوسطه فسقية للوضوء . ولكلٍّ من القسمين بابان ، أحدهما قبلى ، والآخر بحرى

والقسم الشرقى مربع الشكل ، طول ضلعه من الداخل ٤١ مترا ، تتوسطه قبة مرتفعة ، قطرها ٢١ مترا ، وارتفاعها ٥٢ مترا ، محمولة على أربعة عقود كبيرة ، متكئة أطرافها على أربعة أكتاف مربعة ، يحيط بها أربعة أنصاف قباب ، ثم نصف قبة خامس يغطى المحراب ، وذلك خلاف أربع قباب أخرى صغيرة بأركان المسجد

وقد كسيت جدران المسجد من الداخل والخارج ، وكذلك الأكتاف الأربعة الداخلية الحاملة للقبة ، الى ارتفاع ١١ مترا ، بالرخام الألبستر الوارد من محاجر بنى سويف

ويعلو مدخل الباب الغربى المؤدى الى الصحن دكة المبلّغين ، بعرض المسجد ، مقامة على ثمانية أعمدة من الرخام ، فوقها عقود . والمحراب من الرخام الألبستر ، يجاوره المنبر الرخامى الجديد ، وبالقرب منه المنبر الخشبى القديم .

ومساحة الصحن ٥٣ × ٥٤ مترا ، يحيط به أربعة أروقة ، ذات عقود

(١) العمارة فى عهد محمد على من مقال للاستاذ حسن عبد الوهاب بمجلة العمارة عدد ٣ ــ ٥ سنة ١٩٤١

محمولة على أعمدة رخامية ، تحمل قبابا صغيرة منقوشة من الداخل ، ومغطاة من الخارج بألواح من الرصاص ، مثل القبة الكبيرة . وبوسط الصحن قبة مقامة على ثمانية أعمدة من الرخام ، تحمل عقودا تكون منشورا ثمانى الأضلاع . فوقه رفرف به زخارف بارزة . وبداخل هذه القبة قبة أخرى رخامية ، ذات ثمانية أضلاع ، وبها طراز مكتوب به بالخط الفارسى آية الوضوء

وقد أصاب هذا المسجد خلل اقتضى هدم قبته الكبيرة وما حولها من انصاف قباب ، وقباب صغيرة ، واعادة بنائها سنة ١٩٣٨ م

ويبلغ ارتفاع مئذنته ٨٥ مترا من مستوى أرض المسجد . وهو مبنى على طراز مسجد السلطان أحمد بالقسطنطينية

الفنادق :

ومن أشهر الفنادق التى أنشئت فى هذا العهد فندق شبرد . أنشأه فى عام ١٨٤١ شخص انجليزى يدعى « شبرد » ، لينزل فيه المسافرون فى طريقهم الى الهند وبلاد الشرق . وكان يطلق عليه أول الأمر اسم «الفندق البريطانى الجديد » ، ثم أضاف اليه اسمه ، فصار يعرف باسم « فندق شبرد البريطانى » . فلما صادف هذا الفندق اقبالا ، نقله فى نفس العام الى مكانه الذى ظل فيه بشارع الجمهورية شمال غربى حديقة الأزبكية عند احتراقه ضمن الحريق المروع الذى نكبت به القاهرة فى يناير عام ١٩٥٢ . وقد كان ذلك المبنى فى الأصل قصرا للأميرة زينب ابنة محمد على ، ثم استخدم فى وقت من الأوقات مدرسة لتعليم اللغات . وكان قبل ذلك قصرا لمحمد (بك) الألفى ، الذى احتلته هيئة أركان حرب الجيش الفرنسى ، عند احتلال الحملة الفرنسية مصر ، وفيه قتل كليبر ، كما بينا ذلك آنفا

وقد ظل الفندق ملكا لشبرد حتى سنة ١٨٦١ م ، حين آل الى مستر «ف . زك » فما لبث ورثة هذا الأخير أن أعادوا بناء المكان بأسره فى

سنة ١٨٩١ م . ثم وسع الفندق عدة مرات بعد ذلك لازدياد عدد السائحين الذين كانوا يفدون على مصر منذ افتتاح قناة السويس . وما من عظيم أو سياسى أو رحالة أو أديب مشهور الا ونزل فى فندق شبرد عند مروره بمصر ، وأعجب « بمطابخه الفخمة ، ومخازن مؤنه ، ومشروباته ، وبكل معداته الحديثة ، وحماماته الخاصة الملحقة بكل غرف النوم تقريبا ، والأجنحة البديعة التأثيث ، مما لا يوجد له مثيـل الا فى لندن وباريس ونيويورك فحسب » (١)

وقد أعيد بناء هـذا الفندق بعد حريق القاهرة فى يناير سنة ١٩٥٢ ، على شاطىء النيل الشرقى بجوار فندق سميراميس فى حى قصر النيل

(١) مجلة كتابى . من مقال للمحرر عن الفندق الذى شهد احداث قرن عدد ٦٥ ص ١٣ الى ص ٢٢

جـ ـ عصر اسماعيل

من ١٢٧٩ ـ ١٢٩٦ هـ (١٨٦٣ ـ ١٨٧٩ م)

ـ ٦ ـ

خلف سعيد عباس الأول فى حكم مصر ، وكان رجلا ضعيف الخلق ، سهل الانقياد ، تعوزه العزيمة والارادة القوية . فأدى تساهله الى تدخل الأجانب فى شئون مصر ، وجرهم على البلاد شرا مستطيرا ، وويلات كانت سببا مبدئيا فى خراب مصر المالى الذى تفاقم فى عهد اسماعيل . وفى مقدمة هؤلاء الأجانب ، فردناند دى لسبس ، الذى استطاع بما كان له من حظوة عند سعيد ، أن يستخلص منه امتياز حفر قناة السويس ، ويقيد مصر بعقد مهين ، كلفها أموالا طائلة ، وأرواح مائة وعشرين ألفا من المصريين . سخّروا فى حفرها ، فذهبوا ضحية السخرة والجوع والمرض والتعذيب ، هذا فضلا عما جرته هذه القناة بعد اتمام حفرها على مصر من مصائب وكوارث فى مقدمتها احتلال الانجليز مصر سنة ١٨٨٢ م

وفى يناير سنة ١٨٦٣ توفى سعيد ، فخلفه ابن أخيه اسماعيل بن ابراهيم ابن محمد على ، وكانت له أطماع واسعة ، لم تدر فى خلد أحد غير جده الأكبر محمد على . فكان اسماعيل مثله ، يرمى الى تكبير مصر واسعادها عن طريق اسعاد نفسه وأسرته . ولم تكن مصر فى نظره سوى ضيعة عظيمة يجب عليه انماؤها ، والانتفاع بثمرها (١) لذلك عنى بالزراعة ، وادخال المحصولات الجديدة ، وتوسيع زراعة القطن التى جنى من ورائها أرباحا عظيمة ، منتهزا فرصة وقف انتاج أمريكا لهذه السلعة ، بسبب الحروب

---

(١) دليل موجز لاشهر الآثار العربية بمصر ص ٢١٦

الأهلية فيها ، التى استمرت من سنة ١٨٦١ حتى سنة ١٨٦٥ م . ثم نشره زراعة قصب السكر ، وما تبع ذلك من انشاء مصانع السكر فى طول الوجه القبلى ، وقد بلغت ١٨ مصنعا . ثم انشاء مصانع لعمل الورق والمنسوجات والطرابيش والبارود والأسلحة على اختلاف أنواعها

ولكى يستطيع تنفيذ مشروعاته العديدة ، التى كان تنفيذها يتسم بالعجلة والسرعة ، عمل على اجتذاب رءوس الأموال الأجنبية الى مصر ، فأغرق فى الاستدانة حتى عجز فى النهاية عن سداد ديونه ، فكان ذلك سببا فى تدخل الحكومات الأوربية ، وخصوصا حكومتى فرنسا وانجلترا ، فى شئون مصر . ولقد تفاقم تدخلهما الى حد أن أوعزتا الى السلطان بعزله ، فتم لهما ما أرادتا

ولكى يتمتع اسماعيل بحرية تامة فى ادارة شئون البلاد ، ويحصر وراثة عرش مصر فى أولاده من بعده ، استخلص من السلطان فرمانا بذلك ، كلفه أكثر من عشرين مليونا من الجنيهات ، أنفقها فى الاستانة ، لتقديم الهدايا للسلطان ، والرشوة لحاشيته ، كى يدرك أهدافه . كذلك كلفه تعديل شروط امتياز قناة السويس ، وازالة الاجحاف الذى أصاب مصر من جرائها ، ثلاثة ملايين ونصف مليون من الجنيهات ، قضى بها نابليون الثالث ، الذى ارتضاه اسماعيل حكما بينه وبين فردناند دى لسبس ! ! كما كلفه الاحتفال بافتتاح القناة للملاحة مليونا آخر من الجنيهات ، اذ دعا ملوك أوربا وملكاتها الى هذا الاحتفال ، وشيد القصور الفاخرة لاقامتهم مدة شهرين فى مصر، تمتعوا بحسن ضيافة اسماعيل وكرمه الشرقى ، وأقام لهم ملهى الأوبرا فى القاهرة ، وكلف الموسيقار فردى بوضع أوبرا عايدة لتمثل أمامهم فيها ، كما عبّد الطريق بين القاهرة ومنطقة الأهرام ، وغرس على جانبيه الأشجار ، لتضفى عليه الظل الظليل فى أثناء ذهابهم لمشاهدة الأهرام وأبى الهول

وهكذا ترى أن اسماعيل كان حريصا على أن يظهر أمام ضيوفه بصفة خاصة ، وأمام العالم بصفة عامة ، بمظهر الأبهة والفخامة ، لكى يدفع عن نفسه تهمة العجز عن تسديد ديونه ، التى قاربت على مائة مليون من الجنيهات ، وأوقعته فى ارتباك مالى خطير ، ودفعته الى الاكثار من الضرائب التى أثقل بها كاهل الفلاحين ، والحيل البارعة التى ابتدعها لاستخلاص آخر قرش فى جيوبهم ، والقسوة التى كان جباة الضرائب يتخذونها فى ارغام الناس على دفعها ، حتى لم ينج أحد ، سوى الأموات ، من وطأة الضرائب ، والتعذيب فى سبيل دفعها . غير أن كل هذا لم يكن ليحول بين اسماعيل وبين الهاوية التى تردى فيها أخيرا ، وانتهت بعرشه الى الانهيار

ومع ذلك فقد نعمت البلاد فى عهد اسماعيل بنهضة عظيمة ، شملت الحياة من مختلف نواحيها ، وكانت أساسا لنهضتها فى العصور التالية ، نخص بالذكر النهضة التعليمية والثقافية ، فقد أولى اسماعيل التعليم عناية فائقة فى جميع درجات التعليم ، وكان أول من اهتم بتعليم البنات ، فأنشأ لذلك المدرسة السنية ، وأول من حاول التوفيق بين القديم والحديث ، فأنشأ لذلك مدرسة دار العلوم ، وكان ساعده الأيمن فى تنظيم المدارس ونشر التعليم المرحوم على (باشا) مبارك ، وزير المعارف فى عهده . كما كان للسيد جمال الدين الأفغانى تأثير كبير فى بث التعاليم الحرة ، وحض الناس على الاغتراف من مناهل العلم والاستمساك بالحرية والاستقلال ، ونبذ الذلة والضعف ، وقد تتلمذ عليه كثير من الأدباء والعلماء وفى مقدمتهم الشيخ محمد عبده

وقد برز فى هذا العصر كثير من العلماء والأدباء نخص بالذكر منهم : رفاعه رافع الطهطاوى ، وعلى (باشا) مبارك ، والشيخ محمد عبده ، وابراهيم المويلحى ، ومحمود (باشا) الفلكى ، واسماعيل (باشا) الفلكى ،

ومحمد على (باشا) البقلى ، وعيسى (باشا) حمدى ، ومحمد (باشا) قدرى

ومن مظاهر الحضارة والتقدم انتشار الصحف . فقد كان للحكومة صحيفة رسمية هى « الوقائع المصرية » . ومن الصحف الأخرى صحف الاهرام ، ومرآة الشرق ، وأبو نضارة ، وروضة الأخبار ، وقد أدت هذه الصحف واجبها من حيث تنوير الرأى العام ، ونقد أعمال الحكومة ، وأعمال مندوبى انجلترا وفرنسا ، وتدخلهما فى شئون الحكومة المصرية

— ٧ —

القاهرة فى عهد اسماعيل

وضع اسماعيل نصب عينيه ، بمجرد أن آل اليه حكم مصر ، أن يجعل القاهرة والاسكندرية ، وأن يجعلهما مماثلتين لأعظم مدن أوربا ، غير مدخر فى سبيل ذلك مالا أو جهدا . والواقع أن اسماعيل أدخل على القاهرة كثيرا من التحسينات والتعديلات : فردم البرك ، وأنشأ فيها القصور والبساتين ، ومهد الطرق ورصفها ، وأنشأ الميادين ، وأقام بوسطها التماثيل ، فغدت القاهرة وكأنها باريس الشرق ، كل ذلك ليظهر أمام الملوك والأمراء العظام الذين دعاهم لحضور فتح قناة السويس بمظهر الملك العظيم ، ولتضارع القاهرة باريس فى جمالها وتنسيقها ، فتكون عاصمته مقرا مناسبا لعظمة مليكها . وفى سنين قليلة تغيرت معالم القاهرة فعلا

شوارع القاهرة :

بدأ اسماعيل بمد الطرق الطويلة المستقيمة . والواقع أن القاهرة كانت تفتقر الى مثل هذه الشوازع ، ولم يكن يوجد بها سوى شارع واحد طويل ، هو شارع الحسينية . ومن الشوارع التى أنشأها شارع الفجالة الجديد ، وشارع كلوت بك ، وشارع محمد على (القلعة حاليا) وشارع

عبد العزيز (١) ، وشارع عابدين ، وبها سهل الانتقال من أقصى المدينة الى أقصاها ، وفى وقت قليل ، وجهد ضئيل

حيا المحطة والازبكية :

وفى مكان المروج الخضراء التى كانت تكتنف ميـدان محطة مصر ، أقيمت المبانى الضخمة ، والقصور ذات الحدائق ، تفصلها طرق غرست على جانبيها الأشجار . أما الأزبكية ، المعروفة فى عهـد محمد على بقهواتها الوطنية ، ونوافذ بيوتها ذوات الشرفات الدقيقة الصنع ، المطلة على البركة ، والتى كانت متنزها عاما لسكان القاهرة ، فقد أنشىء على أثرها مبـان وخانات ، على النسـق الفرنسى ، ولم يبق منهـا الا نافورتان وحديقـة أنشئت على نظام حدائق أوربا ، وحديقة فرسايل خاصة . وخلف الفوارتين أنشئت دار الأوبرا ، وأمامها أقام اسماعيل تمثالا لوالده ابراهيم (باشـا) وهو على صهوة جواده . واذا سار الانسان جنوبا رأى قصر عابدين ، الذى أبدع اسماعيل فى تنسيقه ، واتخذه مقرا رسميا (٢)

احياء جديدة :

وأنشأ أحياء بأكملها : كحى الاسماعيلية ، والتوفيقيـة ، وعابدين . وميدان الأوبرا . ونظم جهات الجزيرة والجيزة ، بعد أن أنشأ بهما قصوره العظيمة . وأنشأ حديقة بالجيزة . وردم بركة الرطلى وأنشأ بها الشوارع المستقيمة . وأصلح ميدان الرميلة ، الواقع بجانب القلعة ، ووسـعه ، وغرس به الأشجار ، وأوصله بشارع محمد على ، فصار من أفسح ميادين القاهرة . وأنشأ الطريق المعبد ، بين القاهرة والأهرام ، ورصفه بالأحجار. وكان انشاؤه سنة ١٨٦٩ م ، لمناسبة زيارة الامبراطورة يوجينى مصر ، لحضور حفلات افتتاح قناة السويس

(١) سمى كذلك تخليدا لزيارة السلطان عبد العزيز لمصر فى عهد الخديو اسماعيل

(٢) تاريخ مصر السياسى جـ ٢ ص ٣٣

وأهم الأحياء التى أنشأها حى الاسماعيلية ، وقد سمى باسمه ، وكانت جهاته من قبل أراضى خربة ، تحتوى على كثبان من الأتربة ، وبركة للمياه ، وكيمان من السبخ . فخططها ، وأنشأ فيها الشوارع والحارات ، على خطوط مستقيمة ، وأغلبها متقاطع على زوايا قائمة . ودقت شــوارعها وحاراتها بالحجر « الدقشوم » . ونظمت على جوانبها الأرصفة . ومدت فى أرضها أنابيب المياه ، وأقيمت فيها أعمدة المصابيح ، لأنارتها بغاز الاستصباح ، فأصبحت كما يقول على (باشا) مبارك فى خططه ، من أبهج اخطاط القاهرة وأعمرها ، وسكنها الأمراء والأغنياء (1)

القصور :

ومن أهم القصور التى أنشأها قصر عابدين ، وقد جعله مقره الرسمى، بدلا من سراى القلعة ، التى بناها محمد على ، وقصر الجيزة ، وقصر بولاق التكرور ، وقصر الجزيرة ، الذى أنشأه ليكون محل اقامة ضيوفه من ملوك أوربا وملكاتها فى أثناء زيارتهم لمصر ، وقصر القبة ، وقصرحلوان ، وقصر الاسماعيلية ؛ وقصر الزعفران بالعباسية ، وسراى الرمل بالاسكندرية . وكما كان قصر شبرا الخيمة ، الذى أنشأه محمد على سببا فى تعمير حى شبرا ، كذلك كان قصر القبة ، وقصرالاسماعيلية سببا فى تعمير حى القبة ، وحى الاسماعيلية ، فأخذ الأغنياء وكبار رجال الدولة والتجار فى بنــاء القصور الفخمة ، والدور الفاخرة . وانتهى الأمر بهذين الحيّين أن أصبحا من أهم أحياء القاهرة وأكثرها سكانا ، وأفخمها دورا ، وأرقاها شأنا

الكبارى :

ولكى يربط الجزيرة بالقاهرة ، أنشأ قنطرة «كوبرى» قصر النيل . وقد تم انشاؤه على يد شركة فيف ليل الفرنسية سنة ١٨٧٢ م ، وتكلف مائة وثمانية آلاف من الجنيهــات وكوبرى البحر الأعمى الذى سمى بالكوبرى

(1) عصر اسماعيل للاستاذ عبد الرحمن الرافعى حـ ٢ ص ٢٤ ، ٢٥

الانجليزى فى أثناء احتلال الانجليز لمصر ، ويطلق عليه اليوم اسم كوبرى الجلاء ، وقد قامت بانشائه شركة انجليزية ، وتكلف أربعين ألفا من الجنيهات ، وتم انشاؤه أيضا سنة ١٨٧٢ م [١]

الانارة :

وهو أول من أدخل الانارة بغاز الاستصباح ، وكان قد أنشأ «ليبون» وشركاه شركة فى الاسكندرية سنة ١٨٦٤ م ، وأسس فرعا بالقاهرة سنة ١٨٦٨ م ، فأضيئت شوارع القاهرة بهذا الضوء الساطع . وأما توزيع المياه بالأنابيب ، فقد عم أيضا فى سنة ١٨٦٥ م ، حين أنشئت شركة مياه القاهرة [٢]

ضاحية حلوان :

واهتم بضاحية حلوان الحمامات ، لما تبينه من جفاف هوائها ، ومزايا مياهها الكبريتية ، فشيد بها قصرا فخما على النيل لوالدته فى تلك الضاحية سنة ١٨٣٧ م ، وربطها بالقاهرة بخط حديدى يبدأ من محطة الميدان الحالية ، الواقعة فى ميدان صلاح الدين بجوار القلعة ، ونشر الاعلانات عن حمامات حلوان الجديدة ، فتسابق الناس من وطنيين وأجانب على حلوان للاستحمام ، وأنشأوا بها المساكن والقصور . وعلى طول الطريق من القاهرة الى حلوان الحمامات

الشاطىء الغربى للنيل تجاه القاهرة :

كان النيل بعد أن يمر تحت مبانى السكن بالجيزة ، يسير الى الشمال ، مائلا الى الغرب قليلا ، فيمر شرقى مبنى كلية الزراعة ، ثم يسير مخترقا أرض حديقة الحيوان ، ثم يمر شرقى مبنى كلية الهندسة الى أن يصل الى شارع الدقى ، فيسير محاذيا له من الجهة الشرقية . ثم يسير مارا شرقى مبنى وزارة الزراعة ، فمتحف فؤاد الزراعى ، فعزبة الحوتية ، ثم يسير

---

(١) تاريخ مصر السياسى حـ ٢ ص ٣٥
(٢) عصر اسماعيل للاستاذ عبد الرحمن الرافعى حـ ٢ ص ٢٥

مائلا الى الشرق ، حتى يتلاقى بمجراه الحالى جنوب سكن مدينة امبابة

ولما تولى الخديو اسماعيل حكم مصر فى أول سنة ١٨٦٣ م ، أمر بتحويل مجرى النيل الأصلى من الغرب ، حيث كان يمر تحت سكن ناحية الدقى الى الشرق ، حيث يوجد الآن شارع الجيزة ، وشارع النيل «فاروق الأول سابقا » وفى سنة ١٨٦٣ بدأ ديوان الهندسة باجراء عملية التحويل باقامة جسر فى النيل بين مدينتى الجيزة وامبابة . وفى سنة ١٨٦٥ م تمت هذه العملية ، وأخذ النيل يسير فى مجراه تحت الشارعين السابق ذكرهما

وكانت نتيجة اقامة هذا الجسر أن تخلف عن النيل المنطقة الغربية منه ، التى كانت بين قرية الدقى وبين الشارعين المذكورين . ثم قامت شركة فرنسية بردم القسم الجنوبى من تلك المنطقة ، بمعاونة رجال العونة ، فى المسافة الواقعة بين مدينة الجيزة وشارع ثروت . وأما القسم الشمالى من تلك المنطقة ، أى فى المسافة الواقعة بين شارع ثروت وامبابة ، فقد طمرت أرضها بتحويل مياه الفيضان اليها بطريقة هندسية . وبذلك أصبحت هذه المنطقة أرضا زراعية ، تتوسطها قرية العجوزة وعزبة الحوتية ، وقد تحولتا اليوم الى مناطق سكنية عظيمة ، وقامت فيهما العمارات الشاهقة والقصور المنيفة ، تتخللها الميادين الفسيحة ، والشوارع المستقيمة والمتنزهات البديعة

الزمالك :

وقد ترتب على هذا التحويل أن تسلط النيل على الجزء الجنوبى من الجزيرة الكبيرة وساحلها الشرقى تجاه بولاق ، وأكل منها جزءا نقله الى الجهة البحرية منها ، فتكونت أرض المنطقة الواقعة فى شمال شارع ٢٦ يوليو « شارع فؤاد سابقا » المعروفة الآن بالزمالك . والزمالك كلمة ألبانية معناها الاخصاص أو العشش المصنوعة من البوص والقش . وذلك لأن محمدعلى بنىحوالى سنة ١٨٣٠م قصرا بين المزارع فى الجهة الشمالية من أرض الجزيره الكبيرة ، حيث يوجد الآن نادى ضباط الجيش والحديقة الملحقة به ، واتخذه مكانا للنزهة . وكان بالقرب من هذا القصر أخصاص وعشش ، يصطاف فيها رجال حاشيته

الحدائق :

وقد أنشأ اسماعيل فى الجزء الجنوبى من الأرض التى تخلفت بالردم من مجرى النيل القديم ، شمالى مدينة الجيزة ، سراى الجيزة ، بمبانيها الفخمة ، وحديقتها التى لم يكن لها مثيل . ثم أنشأ شماليها حديقة الأورمان ، أى الغابة . وجلب اليها أنواع الأشجار من آسيا وأوربا وأمريكا . وفى سنة ١٩٠٣ م تسلطت يد الزمان على السراى المذكورة ، والقصور التى كانت فى حديقتها الغناء ، فأصبحت أثرا بعد عين ، ولم يتبق سوى جزء منها ، كانت تشغله الى سنتين مضتا مدرسة الأورمان النموذجية ، وقد تهدم هو الآخر ، بسبب توسيع شارع وزارة الزراعة . ولا يزال يوجد من تلك الآثار حديقة السراى الداخلية ، وهى التى تعرف اليوم باسم حديقة الحيوان ، وفى شماليها حديقة الأورمان ، وكذلك المبانى التى تشغلها اليوم ديوان مديرية الجيزة ، ومصلحة المساحة ، فهى وما يقع فى شماليها من مبانٍ حتى بلدة امبابة كانت تقع فى مجرى النيل القديم

وقد احتفظ النيل بعد ذلك بشاطئه الغربى الحالى ، كما احتفظ بشاطئه الشرقى تجاه القاهرة منذ سنة ١٨٧٠ م حتى اليوم ، بحالتيهما الحاضرة ، بسبب دوام صيانتهما ، وتنظيم سير مجرى النيل بينهما

دور التحف والآثار والمكتبات :

وفى ميدان أحمد ماهر « وكان يعرف خطأ باسم باب الخلق وصحة التسمية باب الخرق » أقيم مبنى عظيم . يعرف نصفه الشرقى ، المواجه لسراى المحافظة(١) بالمتحف الاسلامى «وكان يعرف باسم دارالآثارالعربية» ونصفه الغربى بدار الكتب العامة « وكانت تعرف باسم دار الكتب الخديوية ثم السلطانية »

---

(١) أصاب هذه السراى تصدع بسبب زلزال عنيف حدث فى اكتوبر ١٩٥٧ م ، وبسبب تقادم العهد على مبانيها فازيلت وهدمت

المتحف الاسلامى :

وكان يطلق عليه الى عهد قريب دار الآثار العربية ، ويشغل الدور فوق الأرضى من المبنى سالف الذكر ، ويحتوى على تحف اسلامية نادرة من الخشب والمعادن والجص والخزف والزجاج والبلور والمنسوجات والسجاد ، تنتمى الى جميع العهود الاسلامية ، منذ الفتح الاسلامى لمصر الى العصر العثمانى ، خصوصا مجموعة المشكاوات الزجاجية المملوكية ، التى لا نظير لها فى متاحف العالم

وقد كان بدء التفكير فى انشاء دار تجمع التحف الاسلامية سنة ١٨٦٩م فجمعت فى الايوان الشرقى من جامع الحاكم . ولما صدر مرسوم سنة ١٨٨١ م بتشكيل لجنة حفظ الآثار العربية ، اتخذ الأمر طريقا جديا ، وتضاعفت الجهود فى جمع التحف ، حتى ضاق بها الايوان الشرقى ، فبنى لها مكان خاص فى صحن الجامع المذكور ، ثم بنى المبنى الحالى ، ونقلت اليه التحف من جامع الحاكم ، ونسقت تنسيقا بديعا ، وافتتح فى ٢٨ ديسمبر سنة ١٩٠٣ ، وهو يعتبر من أعظم متاحف العالم ، لكثرة مايحتويه من التحف الاسلامية النادرة ، التى يتتبع بها الانسان تطور الحضارة الاسلامية ، فى مختلف العصور

دار الكتب :

كذلك اقتضى التقدم العلمى فى هذا العصر جمع الكتب ، لتكون مرجعا لطلبة العلم والباحثين . فجمعت الكتب من المساجد والتكايا والقصور ، وأمر الخديو اسماعيل سنة ١٨٧١ م بوضعها فى احدى غرف قصرمصطفى فاضل (باشا) ، بدرب الجماميز « حيث كانت توجد مدرسة الخديوية القديمة » ، وأضاف اليها مجموعة أوربية . ثم نقلت الى المبنى الحالى ، بعد أن أضاف اليها كثيرا من الكتب التى طبعت فى المطبعة الأميرية ببولاق ، مما صنّفه أو ترجمه كثير من علماء العصر ، وأدبائه ومؤرخيه

المتحف المصرى :

ويوجد فى ميدان التحرير « ميدان الاسماعيلية سابقا » . وقد تم بناؤه عام ١٩٠٢ م ، وكان ماربيت (باشا) أول من كون نواته الأولى ، فجمع بعض التحف المصرية القديمة وأودعها فى مكان ببولاق سنة ١٨٥٨ م ، وظل يجد فى جمع التحف والآثار ، حتى ضاق بها متحف بولاق ، فضلا عن تعرضها للتلف . فنقلت الى قصر اسماعيل بالجزيرة ، ثم اقتضى الأمر تشييد مبنى فسيح مستقل ، يتسع لما جمع منها وما سيجمع فى المستقبل ، وتعرض فيه عرضا فنيا جذابا ، فبنى المبنى الحالى ، الذى يعتبر أعظم متحف للآثار المصرية فى جميع أنحاء العالم ، ويؤمه السائحون من جميع أركان المعمورة ، ودارسو تاريخ مصر القديم ، والمعجبون بالآثار المصرية (١)

دار الاوبرا المصرية :

اهتم اسماعيل بالحياة الفنية اهتماما بالغا ، وعنى بالتمثيل والموسيقى والغناء ، بصفة خاصة . فأنشأ دار الأوبرا سنة ١٨٦٩ ، لمناسبة افتتاح قناة السويس ، كما قدمنا ، مبالغة فى جلب السرور والإنشراح لضيوفه ، من ملوك أوربا وملكاتها . ولقد كلفه انشاء هذه الدار مائة وستين ألف جنيه ، ومثلت فيها فى مساء ٢٩ نوفمبر سنة ١٨٦٩ أول أوبرا واسمها «ريجوليتو» وكانت الامبراطورة أوجينى زوج نابليون الثالث على رأس من شهدوا تمثيلها . وكلف « فردى » الموسيقار الايطالى بتلحين أوبرا عايدة ، التى ألفها ماربيت (باشا) . وقد مثلت بالقاهرة لأول مرة فى ٢٤ ديسمبر سنة ١٨٧١

ومن الغريب أن أغلب الجوقات التى استحضرها اسماعيل للتمثيل فى هذه الدار كانت أوربية ، وكانت تمثل بلغات لايفهمها الشعب ، فلمن كانت تمثل اذن؟ كانت تمثل لاسماعيل وحده ، ولقليل من أفراد حاشيته ، وكفى!!

---

(١) دور التحف فى مصر للقائمقام عبد الرحمن زكى

وكان يغدق عليها الأموال الطائلة ، وقد بلغ ما صرف على أفراد احدى الجوقات ، فى شتاء سنة من سنى اسماعيل ١٢٠ ألف جنيه !! أما التمثيل باللغة العربية ، فلم يكن له شأن يذكر

غير أن فن الموسيقى والغناء ، أصاب فى عهد اسماعيل تقدما لابأس به ، وقد وضع فيه أساس النهضة الموسيقية الحالية . وأشهر المغنين فى ذلك العهد ، عبده الحمولى (١٨٤٥ — ١٩٠١ م) ، الذى ظل يدخل الطرب والسرور على نفوس الناس ثلاثين عاما . ومن المغنيات السيدة « الماس » وقد تزوج منها عبده الحمولى . ومن الموسيقيين : محمد العقاد ، عازف القانون ، الذى اكتملت شهرته فى الأيام التالية (١) . ومن الأغانى التى كانت شائعة فى هذا العصر الموال الآتى وقد غناه عبده الحمولى :

ليه حاجب الظرف يمنعنى وأنا مدعى
لرى روض المحاسن من دما دمعى
كم أفتكر فى احتجابك واشتكى وانعى
سلمت بالروح ورضيت بالملام والنوح
قول لى بحق المحبة ما سبب منعى (٢)

ومن الأدوار والموشحات « جمالك يا فريد عصرك » و « كادنى الهوى » و « أنت فريد فى الحسن » و « الله يصون دولة حسنك » و « رايح فين يامسلينى » و « يا طالع السعد افرح لى » و « يا قمر دارى العيون »

ومن الأغانى الشعبية « سالمة يا سلامة » و « يا ليلة بيضا » و « وحوى يا وحوى » و « يابتاع النعناع » و « الحنة يا الحنة يا قطر الندى » و « اتمخطرى ياحلوة يازينة ياوردة من جوة جنينة » و « يا نخلتين فى العلالى يا بلحهم دوا — يا نخلتين على نخلتين والأربعة طرحوا سوا » ... الخ

---

(١) عصر اسماعيل للاستاذ عبد الرحمن الرافعى حـ ١ ص ٣٠١ — ٣٠٢
(٢) الموسيقى الشرقية والغناء العربى فى عهد اسماعيل تأليف قسطندى رزق حـ ١ ص ٥٩

د ــ عهد الاحتلال الانجليزى

ــ ٨ ــ

اعتلى توفيق عرش مصر ، بعد أن أقصى عنه والده اسماعيل فى ٢٦ يونية سنة ١٨٧٩ م ، ولقد ورث توفيق تركة ثقيلة ، فى مقدمتها الديون التى أبهظ بها اسماعيل كاهل مصر ، وكانت وسيلة لتغلغل التدخل الأوربى فى شئونها . ولقد بلغ هذا التغلغل ذروته ، عندما نجحت انجلترا وفرنسا فى اقصاء اسماعيل عن العرش ، بعد ما بدا منه أخيرا من تشجيع المصريين على مناهضة النفوذ الأوربى ، والوقوف فى وجهه

ولم ينجح توفيق فى ازالة سخط الرأى العام ، بل انه ازداد وتفاقم ، وانتهى الأمر بقيام الثورة العرابية ، التى تزعمها الزعيم أحمد عرابى ورفاقه من قواد الجيش ، والتى كانت تهدف الى الحد من النفوذ الأجنبى ، وافتئاته على حقوق البلاد ، وتثبيت الحكم الدستورى فيها ، وضمان مبادىء الحرية والعدل والمساواة للجميع (١) . ولكن هذه الثورة لم تصادف نجاحا ، لأسباب يضيق المقام عن سردها ، وكان مآلها الفشل . بل ان انجلترا ، التى ديدنها الصيد فى الماء العكر ، استغلت الخلاف الذى نشب بين زعماء الثورة وبين الخديو توفيق ، وتظاهرت بحمايته ، وحشدت جيوشها وأساطيلها ، واحتلت البلاد فى سبتمبر سنة ١٨٨٢ ، وحققت أملا ظلت تتحين الفرص لتحقيقه ثمانين عاما ، منذ أن انجلت عنها الحملة الفرنسية فى سنة ١٨٠١ م . ولم تسنح لها الفرصة الا فى عهد توفيق . وكان لها من ضعف شخصيته ، وفتور همته ، وهوان الوطن فى نظره ، وارتمائه فى أحضان أعداء البلاد ، خير حافز لاعتدائها على مصر ، واستباحة مقدساتها

---

(١) تاريخ مصر السياسى للاستاذ محمد رفعت حـ ٢ ص ١٥٢

ولقد عمل الانجليز طوال مدة احتلالهم لمصر ، فى عهد توفيق ، وفى عهد ابنه عباس حلمى الثانى من بعده ، على تثبيت قدمهم فيها ، فسيطروا على الاداة الحكومية والجيش والبوليس، وتغلغلوا فى جميع الوظائف الحكومية، وحبسوا العلم والتعليم عن الشعب ، وضربوا عليه سياجا من الجهل والعوز ، لكيلا يطالب بحقه فى الحرية والاستقلال . مما دفع الزعيم مصطفى كامل وخليفته محمد فريد الى المجاهرة بنقد أعمال الاحتلال واظهار العالم على مساوئه ومظالمه التى يرتكبها فى سبيل تدعيم مركزه فى مصر

وعندما احتل الانجليز مصر ، ادعوا أنهم انما جاءوا لتثبيت عرش الخديو، وأنهم لايلبثون أن ينجلوا عنها بمجرد أن تتثبت أركان هذا العرش . ولكن الواقع ونفس الأمر أن الانجليز كانوا يهدفون فيما يتخذونه فى مصر من خطوات الى ضمها الى دائرة امبراطوريتهم المرنة ! ! وحسبوا أنهم قد نجحوا فى ادراك غايتهم ، عندما قامت الحرب الأوربية الأولى ، فى ديسمبر سنة ١٩١٤ م ، فسارعوا الى اعلان حمايتهم عليها ، ونقلوا الى أيديهم جميع ما كان للسلطان عليها من حقوق ، وعزلوا عباسا عن عرشها ، وولوا مكانه عمه الأمير حسين كامل سلطانا على مصر ، ثم خلفه بعد وفاته فى ٩ أكتوبر سنة ١٩١٧ م أخوه الأمير أحمد فؤاد

ولقد قدم المصريون الى الانجليز كثيرا من العون خلال هذه الحرب ، حتى خرجوا منها ظافرين ، وتحملوا كثيرا من الغرم والعنت ، ولذلك فانهم كانوا يتوقعون بمجرد انتهاء الحرب أن يوفى الانجليز بعهودهم فى الجلاء ، وأن يعيدوا اليهم حريتهم واستقلالهم . ولكنهم أخذوا كعادتهم يماطلون ويسوفون ، فلم يسع المصريين الا أن يقوموا بالثورة فى مارس سنة ١٩١٩. وقد استخدم الانجليز الحديد والنار فى قمعها ، ونفوا سعد زغلول زعيم الثورة وبقية زملائه من أعضاء الوفد المصرى الى جزيرة مالطة . ولكن لم

تكن تلك الأساليب الوحشية لتثنى المصريين عن أهدافهم ، فما زالوا يناوئون الانجليز ، ويقاطعونهم . ويرفضون التعاون معهم ، حتى اضطروا الى التراجع عن سياستهم الاستعمارية فى النهاية ، والاقرار بأن « الحماية علاقة غير مرضية بينهم وبين مصر » واعترفوا فى تصريح من جانبهم ، أصدروه فى ٢٨ فبراير سنة ١٩٢٢ ، بالغاء الحماية واستقلال مصر. واحتفل باستقلالها فى ١٥ مارس سنة ١٩٢٢ ونودى بفؤاد الأول ملكا على مصر، وألفت لجنة لوضع دستور للبلاد ، وافتتح أول برلمان مصرى فى ١٥ مارس سنة ١٩٢٤.

ولكن ، كان هذا الاستقلال مقيدا بتحفظات تتيح للانجليز أن يستمروا فى تدخلهم فى شئون البلاد ، والتحكم فى أمورها ، ويظل الجيش الانجليزى رابضا على أرض الوطن ، يهدد بالتدخل كلما أراد الانجليز . لذلك حاول المصريون استكمال هذا الاستقلال فى مفاوضات متواصلة ، بينهم وبين الانجليز ، ولكنها كانت تنتهى دائما بالفشل . ولما لاح فى الأفق شبح الحرب العالمية الثانية ، وكان الانجليز يتوقون الى صبغ مركزهم فى مصر بصبغة شرعية ، عقدوا معها فى ٢٦ أغسطس من عام ١٩٣٦ معاهدة تحالف وصداقة ، وضعوا بمقتضاها أيديهم على جميع موارد البلاد فى أثناء هذه الحرب (١٩٣٩ — ١٩٤٤ م) وأفادوا من امكانياتها ، حتى فازوا فى نهايتها بالنصر

ومنذ أن انتهت الحرب العالمية الثانية ، والمصريون يجاهدون فى طرد الانجليز من بلادهم ، ولم يتم ذلك الا فى ١٣ يونية سنة ١٩٥٦ ، فى عهد الثورة المباركة ، كما سيأتى بعد

— ٩ —

القاهرة فى عهد الاحتلال الانجليزى

توقفت حركة الانشاء والتعمير فى عهد الاحتلال الانجليزى ، خصوصا

فى فترتى الحربين الأوربيتين الكبيرتين وما بينهما ، ولم يطرأ تعديل كبير على خريطة القاهرة . وظلت شوارعها وميادينها كما كانت فى القرن التاسع عشر . ولم يبن من المساجد الا القليل ، وروعى فى بناء القصور الطراز الأوربى

ولكن من الناحية الأخرى رصفت الشوارع « بالمكدام » ، فصارت مستوية لا تشوبها حفر أو فجوات ، تسير عليها العربات والسيارات فى سهولة ويسر، ومدت فيها قضبان الترام ، تسيرعليها المركبات الكهربائية ، التى حلت هى والعربات والسيارات والأتوبيسات محل الدواب التى كانت الوسيلة الوحيدة للانتقال ، فى القرن السابق . وكان تعدد وسائل النقل ، وسرعتها ، سببا فى ربط أطراف القاهرة بعضها ببعض ، وزيادة التعمير، وانشاء ضواح جديدة ، كضاحيتى عين شمس وهليوبوليس

وغرست أشجار اللبخ والصفصاف والجميز على جوانب الشـــوارع والميادين ، لتحمى المارة من وهج الشمس فى فصل الصيف ، ويتعهدها عمال مصلحة التنظيم بالصيانة والكنس والرش وحمل القمامة الى ظاهر القاهرة وخارجها ، فلبست حلة قشيبة من النظافة ، هذا فضلا عن تحسن الأحوال الصحية فى أحيائها

الشوارع :

من أهم الشوارع التى أنشئت شارع الخليج المصرى « شارع بور سعيد حاليا » ، مكان الخليج الكبير ، أو خليج أمير المؤمنين ، الذى كان يبتدىء من فم الخليج عند مصر القديمة ، ويسير نحو الشمال الشرقى ، وقبل أن يبلغ نظارة المالية « وزارة الاقتصـــاد » ينعطف نحو الشرق الجنوبى حتى جامع السيدة زينب ، فيعود الى سيره نحو الشمال الشرقى ، فيمر بجانب بركة الفيل ، ثم سراى درب الجماميز ، فتكية الحبانية ، ثم يقطع شارع محمد على «شارع القلعة حاليا» فيمر بجانب سراى منصور باشا « وتشغلها الآن محكمة

الاستئناف الوطنية » الى أن يقطع شارع السكة الجديدة قرب اتصاله بشارع الموسكى ، فيمر تاركا كنيسة اللاتين ، وكنيسة السريان الى يساره ، وكنيسة الأرمن ، وكنيسة الأقباط الى يمينه الى أن يصل الى بداية سكة مرجوش ، فيتركها الى يمينه ، ثم يقطع سور القاهرة عند باب الشعرية ، ويسير خارج القاهرة الى شارع الظاهر ، فيمر تاركا جامع الظاهر الى يمينه ، حتى يلتقى بترعة الاسماعيلية

وكانت فائدة هذا الخليج فى الأيام الأخيرة قاصرة على رى المدينة وبعض ضواحيها . وكانوا يحتفلون بفتحه سنويا عند وفاء النيل . فلما توزعت المياه فى القاهرة بالأنابيب الى المنازل ، لم تبق له فائدة . فأذنت الحكومة لشركة ترامواى القاهرة بردمه سنة ١٨٩٦ م ، ومد خط الترامواى فوقه ، وهو الفرع المعروف بترامواى الخليج الآن (١)

ومن الشوارع الهامة الأخرى التى أنشئت فى هذه الحقبة من الزمن ، شارع فاروق « حاليا شارع الجيش » . أنشىء سنة ١٩٢٦ م ، ويوصل بين ميدان العتبة ، وميدان الحسينية ، وبذلك سهل الاتصال بين القاهرة والعباسية ، وضواحى القاهرة الشمالية . وشارع الأزهر ، ويوصل بين ميدان العتبة الخضراء وحى الأزهر ، ومدت فيهما خطوط الترام أيضا . وقد وسع ميدان العتبة بعد هدم المحكمة المختلطة ، وانتقالها الى مبنى جديد بشارع فؤاد الأول « شارع ٢٣ يوليو حاليا » عند تقاطعه بشارع الملكة « شارع ٢٦ يوليو حاليا » ويشغل الآن هذا المبنى القضاء العالى ، بعد أن ألغيت الامتيازات الأجنبية ، وزالت المحاكم المختلطة من مصر . كذلك وسع ميدان الحسينية وميدان الأزهر

المساجد :

ولقد اقتصر انشاء المساجد فى هذه الفترة غالبا على صيانة المساجد

---

(١) تاريخ مصر الحديث لجورجى زيدان حـ ٢ ص ٢١١ — ٢١٢

والقصور القديمة ، وترميمها ، والمحافظة عليها ، والحيلولة دون سقوطها أو انهيارها . لذلك أصدر الخديو توفيق فى ١٨ ديسمبر سنة ١٨٨١ م مرسوما بتشكيل لجنة حفظ الآثار العربية وكانت واجباتها تسجيل الآثار الاسلامية بمصر والعمل على حفظ هذه الآثار وصيانتها وترميمها . ولقد أدت هذه اللجنة خدمات جليلة للآثار الاسلامية ، واليها يرجع الفضل فى الابقاء على كثير من تلك الآثار والمحافظة عليها ، واعادة الكثير منها الى سابق عهدها بحذق ومهارة ، حسب أصول الفن الاسلامى

ومن المساجد التى تم اصلاحها وتجديدها :

المشهد الحسينى :

وقد أمر بتجديده الخديو اسماعيل سنة ١٢٧٩ هـ (سنة ١٨٦٢ م) والزيادة من مساحته . وفتح شارع السكة الجديدة . وروعى فى التصميم الجديد ترك القبة على حالتها ، فلم يتناولها التجديد . ونقل اليه منبرا جميلا كان فى جامع « ازبك من ططح » بالأزبكية . وكذلك أمر اسماعيل بشراء العمد الرخامية من استامبول على حسابه الخاص . وقد تم بناء المسجد سنة ١٢٩٠ هـ ومنارته سنة ١٢٩٥ هـ (١٨٧٣ — ١٨٧٨ م)

مسجد الامام الشافعى :

وأمر الخديو توفيق بتجديد مسجد الامام الشافعى ، فتم ذلك فى سنة ١٣٠٩ هـ (١٨٩١ م) على ما هو عليه الآن . وهو مسجد جميل ، وجهاته مبنية بالحجر ، وحليت أعتاب الشبابيك بكتابات كوفية ، وله منارة رشيقة ، عملت على مثال المنارات المملوكية ، ومنبره مطعم بالسن والأبنوس

مسجد ابى العلاء :

قامت وزارة الأوقاف بتجديد مسجد أبى العلاء بحى بولاق وتوسيعه فى سنة ١٣٥٤ هـ (١٩٣٥ م) على اثر سقوط سقف ايوانه الشرقى أثناء الاحتفال بمولده فى ١٣ يوليو سنة ١٩٢٢ . وقد أصبحت مساحته ١٢٦٤

مترا ، بعد أن كانت ٨٤٣ مترا . وقد وضعت لجنة حفظ الآثار العربيـة تصميم المسجد مراعيـة فيه المحافظة على طراز القرن التاسـع الهجرى « الخامس عشر الميلادى » ، اذ أن المسجد الأصلى كان قد أنشىء سنة ٨٩٠ هـ (١٤٨٥ م) ، وهو مكون من أربعة أواوين ، سقوفها مرفوعة ، على عقود من الحجر الأحمر والأبيض ، وترتكز على عمد رخامية ، تحدق بصحن غطى بسقف مذهب ، تحيط به شبابيك بمربع الصحن

وينسب هذا المسجد الى الشيخ الصالح حسين أبى على المكنى بأبى العلاء

مسجد الرفاعى :

هو أعظم ما أنشىء من المساجد فى القرن العشرين ، يقع أمام مدرسة السلطان حسن . ومنشئته السيدة خوشيار هانم ، والدة الخديو اسماعيل . فقد عهدت الى المرحوم حسين (باشا) فهمى ، وكيل ديوان الأوقاف سنة ١٢٨٦ هـ (١٨٦٩ م) لوضع تصميمه . ولكن توقف العمل فيه عدة مرات بسبب وفاة منشئته ، وبسبب اجراء تعديلات على تصميمه . وظل العمل موقوفا ربع قرن الى أن عهد الى هرتس (باشا) باشمهندس الآثار العربية باصلاح المسجد واكماله ، فى ١٣ يوليو سنة ١٩٠٦ . فتم بناؤه فى ختـام سنة ١٣٢٩ هـ (١٩١١ م) فى عهد الخديو عباس حلمى الثانى ، وافتتح لصلاة الجمعة فى غرة المحرم سنة ١٣٣٠ هـ (١٩١٢ م)

وكانت فى المكان الذى أنشىء به هـذا المسجد زاوية عرفت بزاوية الرفاعى، نسبة الى ولى الله السيد أحمد بن السيد على أبى الحسن الرفاعى، لذلك عرف المسجد بهذا الاسم أيضا

ولقد أراد مصمم هذا المسجد أن يحاكى مدرسـة السلطان حسن فى ضخامتها وارتفاعهـا ، فبنيت مداخله عالية ، تكتنفها العمـد الحجرية والرخامية ، بتيجانها العربية ، وحليت أعتابها بمزررات الرخام ، وغطيت

مداخلها بقبـاب وسـقوف أحسن اختيارها ، وحسن زخرفها وتلوينها وتذهيبها

ويتوسط الواجهة الغربية المدخل العام ، تكتنفه العمد الرخامية ، وقد نقشت قواعدها الرخامية بزخارف متنوعة . وقد حفـل بأنواع الرخام والمقرنصات . ويتوسـط الجدار الشرقى المحراب ، وهو محراب كبير ، يكتنف كلا من جانبيه عمودان : أحدهما أبيض ، والآخر أخضر داكن

وعلى جوانب المسجد ، وفى وسطه ، أقيمت أكتاف بنواصيها عمـد رخامية ، وكسيت الأكتاف بينها بالرخام الدقيق. ويقوم على جانب المحراب منبر كبير ، طعمت حشـواته بالسن والأبنوس وخشب الجوز . ويحيط بجدران المسجد بخاريات مذهبة منقوشة . وكرسى المصحف ، من نوع صناعة المنبر . ودكة المبلّغ من الرخام ، مقامة على عمد رخامية . وقد حفلت بالنقوش المذهبة . وتتدلى من سقف المنبر ثريات نحاسية عربية ، ومشـكاوات زجاجية مدهونة بالمينا

أما الجانب البحرى من المسجد ، فقد شرعت فيه ستة أبواب ، منها أربعة توصل الى المدافن ، واثنان يوصلان الى رحبتين بين تلك المدافن ، وقد دفن بتلك المدافن أفراد أسرة محمد على (١)

مسجد الفتح :

يقع هذا المسجد بشارع جامع عابدين ، ويلاصق قصر عابدين « قصر الجمهورية حاليا » . وكان يعرف بجامع عابدين ، نسبة الى أمير اللواء عابدين (بك) ، الذى جدد هذا المسجد سنة ١٠٤١ هـ (١٦٣١ م) . ولما أنشأ الخديو اسماعيل قصر عابدين ، ترك الجامع متداخلا فى حدود القصر

وفى أوائل سنة ١٩١٨ م ، عهدت وزارة الأوقاف الى لجنة حفظ الآثار العربية بتجديد هذا المسجد ، فاحتفظ بالمدخل القديم ، بشـارع جامع

(١) تاريخ المساجد الاثرية للاستاذ حسن عبد الوهاب

عابدين ، وبالمنارة بالواجهة الشرقية . وروعى فى تصميمه أن يكون على مثال المساجد العثمانية . وأضيف الى مساحته ضعفها من أرض السراى

وللمسجد ثلاث واجهات : الغربية وتشرف على حديقة قصر الجمهورية وبها مدخل . والبحرية ، وبها باب يؤدى الى فضاء بسيط . والشرقية ، وبها القبة ، والباب ، والمنارة

ويحيط بالقبة أربعة اواوين ، ذات سقوف معقودة ، حافلة بالزخارف الملونة ، تنتهى أطرافها بقباب صغيرة ، تشغل أركان الجامع الأربعة

وفى الجدار الشرقى المحراب ، يجاوره منبر من الرخام المحلى بنقوش ذهبية ، مقتبسة من منبر مسجد سليمان (باشا) بالقلعة . وجميع الأرضيات مفروشة بالرخام الدقيق المكون من دوائر ومثمنات ومستطيلات على شكل دالات . ويحيط بالمسجد من أعلاه شبابيك جصية تنوعت أشكالها . وقد كان الفراغ من عمارته سنة ١٣٣٨ هـ (١٩٢٠ م) (١)

---

(١) تاريخ المساجد الاثرية للاستاذ حسن عبد الوهاب

الباب التاسع

قاهرة الثورة

من ١٣٧١ ــ ١٣٧٧ هـ (من ١٩٥٢ ــ ١٩٥٨ م)

ــ ١ ــ

لما توفى الملك فؤاد فى ٢٨ ابريل سنة ١٩٣٦ نودى بابنه فاروق الأول ملكا على مصر . وكان فاروق وقتئذ ما يزال فى السابعة عشرة من عمره ولم يتول سلطته الدستورية الا عندما أتم ثمانية عشر عاما من عمره ، وكان ذلك فى ٢٩ يولية سنة ١٩٣٧ . من ذلك يرى أنه كان شابا غرا ، تعوزه التجربة ، وينقصه العقل الراجح ، ويحتاج الى التوجيه السديد ، وخلطاء من أهل العلم والمعرفة ، والخلق القويم . ولكن لسوء حظ البلاد أحاطت به بطانة من أحط الناس علما وخلقا ، زينوا له الفساد واقتراف الآثام ، وعملوا على ارضاء شهواته والانحدار به الى دركات الرذيلة ، استغلالا منهم للنفوذ والسلطان ، وانتجاعا لمنافعهم الشخصية ، معرضين البلاد لخطر داهم ، وشر مستطير . ورضخت الحكومة لارادته ، بل وعاونته أحيانا على ادراك مآربه ، كى تبقى فى دست الوزارة أطول مدة ممكنة ، جنيا للمنافع الخاصة ، والسيطرة والنفوذ . فعم الفساد أرجاء البلاد ، وانتشرت الرشوة ، وتفاقمت المحسوبية ، ووقف دولاب الاصلاح ، وازداد تدخل الانجليز فى شئون البلاد ، واشتدت وطأة الفقر والجهل والمرض

عندئذ جأر الشعب بالشكوى ، من مليكه وحكامه والانجليز ، الذين تآمروا عليه ، وتضافروا جميعا على سلب أرزاقه وأقواته ، ومصادرة حرياته ، والحط من كرامته ، والزراية بمقدراته ، وكان لابد والحالة هذه من علاج حاسم سريع ، يحمى البلاد من الهاوية التى كانت تنتظرها ، ولم يكن يستطيع القيام بالحل الناجع السريع سوى الجيش ، ذى القوة والبأس ،

الذى كان قد بلغ تذمر ضباطه الأحرار ذروته من الفساد ، خصوصا بعد الهزيمة التى منى بها الجيش المصرى فى فلسطين ، بسبب الأسلحة الفاسدة التى قدمت اليه ، والتى كان يتجر فيها فاروق وحاشيته

لهذا قام الجيش بثورته المباركة فى ٢٣ يوليو سنة ١٩٥٢ ، وأطاح بعرش فاروق فى ٢٦ منه ، وضرب على أيدى الفساد والمفسدين ، وخلص البلاد من المستغلين والأفاقين ، وتجار السياسة والمنافقين . وتسلم زمام أمورها أبناؤها البررة المخلصون ، الذين قادوها من نصر الى نصر ، فاستعادت عزها الغابر ، ومجدها التليد

ولقد كان انتقال الحكم الى أيدى أبناء البلاد ضربة قاصمة لسياسة الانجليز فى مصر ؛ اذ فقدوا كل نصير لهم فى البقاء فيها ، هذا بالاضافة الى تصميم الشعب على التخلص من عار الاحتلال ، وذل الاستعمار. فلقد خيَّر رجالُ الثورة الانجليزَ بين الرحيل عن البلاد فورا ، أو الدفاع عن أنفسهم ضد شعب صمم على التخلص من الاستعمار ، ولو سالت دماء أبنائه أنهارا . فلم يسع الانجليز أمام هذا التصميم ، الا أن يذعنوا لارادة الشعب ، وانجلوا فعلا فى ١٣ يونيو سنة ١٩٥٦ ، فكان نصرا مبينا أحرزه رجال الثورة الأبطال ، وتخلصت البلاد من وصمة عار ظلت عالقة بجبينها أربعة وسبعين عاما

ولقد كان اليوم الذى انجلى فيه آخر جندى بريطانى عن أرض الوطن يوما مشهودا ، وعيدا قوميا شاملا ، عم فيه الفرح البلاد من أقصاها الى أقصاها ، وأقيمت معالم الأفراح فى جميع مدن الجمهورية وقراها ، ولبست القاهرة حلة قشيبة من الزينة ، فخفقت فوق مبانيها الأعلام والبنود نهارا ، وسطعت فيها الأنوار ليلا ، مدة أربعة أيام . ووفدت عليها آلاف مؤلفة من سكان الأقاليم ، والبلاد الصديقة ، ليشاركوا أهلها الفرح والغبطة فى عيدها الأكبر ، عيد الجلاء وزوال كابوس الاستعمار

وكان استكمال الاستقلال يقتضى أن تضع مصر يدها على قناة السويس ،

التى تجرى فى أرضها ، والتى حفرها أبناؤها ، ولكنها حرمت من جنى ثمارها ، واستغلتها انجلترا لاحتلال مصر . وكانت دائما أداة للتدخل الأجنبى فى شئونها . وكانت شركة القناة فى الواقع حكومة داخل حكومة . لذلك لم يكن هناك بد من أن تستعيد مصر قنـاتها المغتصبة فأعلن الرئيس جمال عبد الناصر ، رئيس الجمهورية المصرية ، فى مساء ٢٦ يولية سـنة ١٩٥٦ تأميم القناة . فأفقد هذا العمل وعى انجلترا وفرنسا والولايات المتحدة ، وأطار صوابهم، ولم يستحوا غداة اعلان تأميم القناة أن يتصايحوا قائلين : ان جمال عبد الناصر قد سرق القناة ! ! القناة المصرية ، التى تجرى فى أرض مصر ، والتى حفرها المصريون بأرواحهم التى أزهقت ، ودمائهم التى أهرقت وعرقهم الذى تصبب من جبـاههم ، وأجسـامهم التى دكتها السخرة والجوع . ولكن هذا هو منطق الاستعمار ودأبه فى قلب الحقائق، لتبرير عدوانه ، وادراك مآربه الخسيسة . ولذلك بيتت انجلترا وفرنسا العدوان على مصر ، واستخدمتا لهذا الغرض ربيبتهما اسرائيل . فجمعوا جموعهم ، وحشدوا جيوشهم ، ودفعتا أسرائيل لغزو غزة وسيناء فى ٢٩ أكتوبر سنة ١٩٥٦ . وما لبثتا أن تدخلتا فى القناة ، وفق الخطة الموضوعة ، فهاجمتا بورسعيد فى ٥ نوفمبر سنة ١٩٥٦ من الجو والبحر ، وظنتا أنهما تستطيعان اغتصاب القناة فى يوم وليلة ، ويتقابل المعتدون الآثمون على ضفاف القناة . ولكن بورسـعيد الباسلة حطمت خططهم ، وصمدت للمعتدين الغادرين، وقاوم أهلها مقاومة رفعتهم الى مصاف أبطال التاريخ ، وأذهلت المعتدين الأنذال ، بالرغم مما صبوه عليها من نيران حامية ، من بوارجهم ومدرعاتهم وطائراتهم المقاتلة والنفاثة ، فقد كانت الحرب تدور من شارع الى شارع ومن بيت الى بيت ، بل ومن حجرة الى حجرة ، كما اعترف بذلك «كيتلى» قائد الحملة الانجليزى ، مما كبد العدو خسـائر جسيمة ، وأكد له أن مهمته محفوفة بأشد المخاطر ، وأنه سيلقى مقاومة أشد عنفا فى بقية مدن القناة

وشنت طائرات العدو ، فى نفس الوقت ، غارات متواصلة ، على المدن المصرية الأخرى ، وخصوصا مدينة القاهرة ، التى أخذوا يمطرونها بوابل من جحيم نيرانهم ، ليل نهار ، فهدموا منشآت ومنازل ومصانع ومبانى لا حصر لها . وركزوا الضرب على ضاحية مصر الجديدة وأبى زعبل والعباسية ، حيث توجد ثكنات الجيش والمطارات ومحطة الاذاعة المصرية . وكانت أكبر أمانى العدو القاء الفزع والرعب فى نفوس الشعب ، دفعا له على الخضوع والاستسلام . ولكن خاب فأله ، وطاش حدسه ، فلم يهن الشعب أو يستسلم ، بل هب عن بكرة أبيه ، يدا واحدة ، ورجلا واحدا ، يستعد لملاقاة العدو ومنازلته ، كما فعل أهل بورسعيد الأبطال

ولقد هال شعوب العالم هذا العدوان المبيّت ، وهبت جميعا لمناصرة الشعب المصرى ومساندته ضد البغاة الظالمين، وانعقدت هيئة الأمم المتحدة لتحول دون وقوع الكارثة التى تهدد العالم بحرب عالمية ثالثة ، فدمغت سبع وستون دولة ، فى تلك الهيئة ، انجلترا وفرنسا واسرائيل بالعدوان المنكر ، والبغى الأثيم ، ومخالفة ميثاق الهيئة ، واتخذت فى ٧ نوفمبر سنة ١٩٥٦ قرارا بوقف العدوان فورا

لكل هذه الأسباب ، لم يسع انجلترا وفرنسا الا الاذعان والتسليم ، بل انهما رضيتا بقرار الأمم المتحدة بوقف القتال ، لأنه يتيح لهما الخروج من المأزق الذى انزلقتا اليه ، بغطرستهما وحمقهما ، ولحقهما بسببه سخط الشعوب وازدراء الأمم المحبة للسلام، وكاد يدفع بهما الى انهيار اقتصادى رهيب . واضطرتا أخيرا الى سحب قواتهما من الأراضى المصرية فى ٢٢ ديسمبر سنة ١٩٥٦ ، تتعثران فى أذيال الخيبة والفشل ، ويجلل رءوسهم عار الهزيمة ، وذل الشنار . ولا يحيق المكر السىء الا بأهله . وليس الله بغافل عما يعمل الظالمون

وقد احتفلت القاهرة فى ٢٣ ديسمبر سنة ١٩٥٧ بما أسبغه الله على مصر من نصر مؤزر ، على أهل البغى والعدوان ، ومرور عام على هزيمة

المستعمرين الآثمين ، وسـلامة الوطن من كيد الكائدين . وزار الرئيس المفدى جمال عبد الناصر ، رئيس الجمهورية المصرية ، مدينة بورسعيد فى هذا اليوم ، ليكرم أبناءها الشجعان ، ويترحم على شـهدائها الأبرار ، وأذاع منها خطبة جامعة ، شرح فيها العدوان الآثم شرحا مؤثرا ، وأزاح الستار عن مكائد المستعمرين ، ونواياهم الخبيثة ، مما زاد الشعوب لهم ازدراء واحتقارا . ومع كل ذلك فقد أرسل من بورسعيد صيحة مدوية ، يطلب فيها الى تجارالحروب والمستعمرين أن يخلصوا للسلام ، وأن يكفوا عن مؤامراتهم وألاعيبهم ، رحمة بالبشرية ، ويحذرهم من حرب لا تبقى ولا تذر ، تهلك الحرث والنسل ، ولن تخلف سوى البؤس والشقاء ، للعالم أجمع بلا استثناء

ومن أبرز الحـوادث الأخرى التى حدثت فى عام ١٩٥٧ ــ ١٩٥٨ ، انعقاد مؤتمر تضامن الشعوب الآسيوية الافريقية بالقاهرة من ٢٦ ديسمبر سنة ١٩٥٧ الى أول يناير سنة ١٩٥٨ ، حضره مندوبون عن ٤٦ شعبا من افريقية وآسيا يمثلون ارادة ١٥٠٠ مليون من البشر ، يعلنون ارادة هـذه الشعوب فى الحرية والاستقلال ، والقضاء على الاستعمار ، ونبذ الحروب والأحلاف ، والدعوة الى السلام والصفاء ، ورسم طريق الجهاد أمام تلك الشعوب لتحيا حياة كريمة سعيدة ، وتسهم فى تقدم البشرية ورقيها . ولقد كان اختيار الشعوب الآسيوية والافريقية للقاهرة ، لكى يعقد فيه هذا المؤتمر جلساته التاريخية ، دليلا على ما صارت تحتله القاهرة من مكان مرموق ، ليس فى الشرق الأوسط فحسب ، بل فى قارتى آسيا وافريقيا ، وان شئت فقل فى العالم أجمع ، بفضل السياسة الرشيدة ، سياسة الحياد الايجابى ، التى تلتزمها مصر بكل دقة ، وتدعو اليها ، والتى نالت بسببها اعجاب دول العالم وتقديرها ، بل انها انتزعت احترام الدول المعادية لها فى نفس الوقت .

والآن نكمل الصورة التى تصور الثورة ـ أسبابها والظروف التى أحاطت بها ، والنتائج التى تمخضت عنها ـ فنذكر أن الثورة أخذت على عاتقها منذ قيامها فى ٢٣ يوليو سنة ١٩٥٢ أن تغير دستور سنة ١٩٢٣ الذى أصبح لايتمشى مع أهداف الثورة وأمانيها . فصدر بيـان باسم الشعب فى ١٠ ديسمبر سنة ١٩٥٢ يعلن سقوط هذا الدستور ، ويعهد الى الحكومة بتولى السلطات ، الى أن يتم اعداد دستور جديد ، يحقق تلك الأهداف. وفى ١٦ يناير سنة ١٩٥٣ صدر اعلان دستورى من القائد العام للقوات المسلحة الى الشعب المصرى يعلن فيه قيام فترة انتقال لمدة ثلاث سنوات ، حتى يمكن اقامة حكم ديمقراطى دستورى سليم

وما أن أخذت الأمور فى الاستقرار حتى اتخذت خطوة أخرى لتحقيق أهداف الثورة ، فصـدر فى ١٨ يونيو سنة ١٩٥٣ قرار من مجلس قيـادة الثورة ، يعلن باسم الشعب ، الغاء النظام الملكى وحكم أسرة محمد على ، مع الغاء الألقاب من أفراد هذه الأسرة ، كما يعلن الجمهورية ، على أن يكون للشعب الكلمة الأخيرة فى تحديد نوع الجمهورية ، واختيار شخص الرئيس ، عند اقرار الدستور الجديد

وفى نهاية السنوات الثلاث التى حددت من قبل لفترة الانتقال ، أى فى ١٦ يناير سنة ١٩٥٦ أعلن الدستور الجديد ، وقد جرى استفتاء الشعب فيه ، وفى اختيار رئيس الجمهورية فى ٢٣ يونيو سنة ١٩٥٦ ، فوافق عليه بالاجماع ، كما وافق على اختيار جمال عبد الناصر رئيسا لجمهورية مصر بالاجماع أيضا . وقد كان المأمول أن تسير الأمور هينة لينة ، فيعقب ذلك اجراء الانتخاب العام لأعضاء مجلس الأمة ، لولا حدوث الاعتداء الغاشم فى ٥ نوفمبر سنة ١٩٥٦ ، وبقاء الجنود المعتدية على أرض الوطن حتى ٢١ ديسمبر سنة ١٩٥٦ ، وانجلاؤها عنها فى ٢٢ منه . فكان لابد أن تمضى فترة من الوقت ، تستعيد فيها البلاد هدوءها ونشاطها ، ثم تواصل جهودها

نحو استكمال الحياة الدستورية . وفى ١٦ مايو سنة ١٩٥٧ أجريت الانتخابات وفى ٢٣ يونيو سنة ١٩٥٧ افتتح مجلس الأمة ، وبدأ نواب الشعب يباشرون مهام أعمالهم، وبذلك استكملت البلاد حياتها الدستورية ، وأرسيت الحياة الديمقراطية فيها على أساس سليم

وفى ١٦ يناير سنة ١٩٥٨ احتفلت مصر بمرور عامين على اعلان الدستور، وأقيمت معالم الزينة فى القاهرة ، وعقد مجلس الأمة فى مساء ذلك اليوم جلسة خاصة ، قدم فيها للرئيس جمال عبد الناصر ميدالية تذكارية ، اقرارا بفضله وجهوده فى استكمال البلاد حريتها ، واعلان دستورها ، واقامة حياة ديمقراطية سليمة فيها

ولقد كان المستعمرون الطغاة ، عندما شنوا عدوانهم على مصر فى نوفمبر سنة ١٩٥٦ ، ينتوون أن يثنوا بالاعتداء على سوريا الشقيقة ، بعد أن تستسلم لهم مصر ، اذ تنهج سوريا نفس السياسة التى تدين بها مصر ، وهى سياسة الحياد الايجابى وعدم الانحياز . لذلك كان طبيعيا أن توحد مصر وسوريا جهودهما ، لمناهضة قوى الشر والطغيان . فنادى رجالات القطرين بتوحيد الصفوف ، وتكوين جبهة واحدة ضد المستعمرين . ولا جديد فى هذا ، فقد عاش القطران دولة واحدة فى كثير من العصور ، واستطاعا بذلك أن ينزلا بالمستعمرين والمغيرين هزيمة ساحقة ، كما فعلا ذلك ضد المغول والصليبيين. لذلك عمل زعماء القطرين جهدهم لتوحيدهما، ولم يصادفا فى سبيل تحقيق هذه الغاية أية عقبات ، بعد أن توحدت آمال الشعبين وآلامهما ، وخلصت النيات ، وتساندا فى كثير من المناسبات . فأثمرت الجهود ، وتحققت الأهداف

وفى أول فبراير سنة ١٩٥٨ وقّع الرئيسان شكرى القوتلى ، وجمال عبد الناصر فى القاهرة ، بين مظاهر الفرح والابتهاج ، وثيقة الاتحاد بين مصر وسوريا ، وتأليفهما دولة عربية موحدة ، أطلق عليها الجمهورية العربية

المتحدة . فكان لاعلان هـذا النبأ رنة فرح سرت بين القاهرة ودمشق ، غمرت القلوب ، وطربت لها الأفئدة

وفى ٢١ فبراير من نفس السنة ، استفتى الشعب فى جزئى الجمهورية الشمالى والجنوبى ، فى سوريا ومصر ، على الوحدة ورئاسة الجمهورية . فأسفر الاستفتاء عن أغلبية ترتقى الى حد الاجماع عن الرضى التام بالوحدة وعن انتخاب جمال عبد الناصر رئيسا للجمهورية العربية المتحدة . فاجتاحت الشعبين المصرى والسورى موجة من الغبطة والانشراح ، لم يسبق لهما مثيل ، وازدانت دمشق والقاهرة أسبوعا كاملا بالبنود والأعلام فى النهار ، وتلألأت سماؤهما بالأنوار الساطعة فى الليل ، وامتلأت الساحات بالجماهير ، تبارك الجمهورية الجديدة ، وتدعو لها باليمن والخلود ، وللشعبين السورى والمصرى بالسعادة والهناءة ، فى ظل هذه الوحدة المقدسة ، والسلامة من كيد الكائدين ، ومؤامرات المستعمرين والحاقدين

وفى ٥ مارس صدر دستور مؤقت للجمهورية العربية المتحدة ، مكون من ثلاث وسبعين مادة ، نص فى أول مواده على أن الدولة العربية المتحدة جمهورية دموقراطية مستقلة ذات سيادة ، وشعبها جزء من الأمة العربية . وفى المادة الرابعة والستين على أن مدينة القاهرة عاصمة الجمهورية العربية المتحدة ، وفى المادة السادسة عشرة على أن مقر مجلس الأمة مدينة القاهرة أيضا

— ٢ —

القاهرة فى عهد الثورة

لو أنه أتيح لجوهر الصقلى أن يبعث من مرقده يوما واحدا ليشهد ما حل بمدينته ، ولو أن الحياة تردّ أيضا لصلاح الدين الأيوبى يوما أو بعض يوم ، ليرى ما آلت اليه قاهرته القديمة ، اذن لأخذ العجب من كلّ

منهما كل مأخذ ، كيف اتسعت رقعتها فى كل اتجاه ، وكيف استقامت شوارعها وطرقاتها ، وكيف تخللتها الميادين الفسيحة الأنيقة ، وكيف يظللها النظام الدقيق المتين . وفى عبارة مختصرة كيف استحالت بين عشية وضحاها الى مدينة عالمية ، فاقت كل ما كانا يتمنيان لمدينتيهما من نمو وازدهار ، وبهجة وجمال

والواقع أن ما أدخل على القاهرة من تعديل وتحسين ، فى مدى خمس السنوات الأخيرة ، ليدخل فى باب المعجزات ، وأعمال السحر . وان الذين تغيبوا عن القاهرة ، من أوربيين أو شرقيين ، فى غضون تلك السنوات ، ثم عادوا اليها بعد ذلك ، ليعجبون كل العجب ، كيف تغيرت معالمها ، وارتقت الى مستوى أرقى مدن العالم وحواضره ، فى مدى هذه الفترة القصيرة من الزمن . ولا جدال فى أن هذه التحسينات ، وتلك التعديلات ، قد فاقت فى أهميتها وقيمتها ، بل وفى كمّها كل ما أدخل على القاهرة من تحسينات خلال مائة العام الأخيرة التى تنتهى بقيام الثورة فى ٢٣ يولية سنة ١٩٥٢

عيوب القاهرة فى العهود السابقة :

ضاقت القاهرة بسكانها ، والتوت شوارعها ، وطرقاتها ، وتعقدت مواصلاتها ، وكثرت كيمانها وخرائبها ، واختنق جوها ، ولم يعد هناك متنفّس لقاطنيها . وكانت الحاجة الى الاصلاح ماسة وحيوية ، وسبله ظاهرة جلية ، ولكن الروتين الحكومى وما عرف عنه من تعقيد وبطء ، كان واقفا لكل اصلاح بالمرصاد ، والحكام تنقصهم الشجاعة والاقدام ، وتعوزهم الغيرة على الصالح العام . فكان لابد من ثورة اصلاحية شاملة ، وكان لابد من ثائر مصلح ، يثور على الأوضاع الجامدة ، ويقدم مصلحة الوطن على كل اعتبار . وقد توافر كل ذلك فى شخص عبد اللطيف البغدادى ، وزير الشئون البلدية والقروية السابق ، ونائب رئيس الجمهورية

الحالى ، وأحد رجال الثورة الأبرار ، الذى ما مست « عصاه السحرية » مشروعا من المشروعات الا وكان النجاح مآله ، والذى خلق القاهرة خلقا جديدا ، فاستحق أن يخلد ذكره ، وأن يقرن اسمه بالقاهرة بجوار اسم جوهر وصلاح الدين

كان غريبا حقا أن تكون القاهرة واقعة على نهر النيل العظيم ، وسكانها مبعدون عنه ، لا يتمتعون بنسماته الرطبة ، ولا يجلون عيونهم بمناظره الخلابة البديعة

وكان مؤلما حقا ألا يكون للقاهرة سوى مدخل واحد ، تكتنفه العشش والأكواخ والأقذار التى تسىء الى سمعة القاهرة ، اذ كانت أول ما يقع عليه نظر السائحين ، عند اقترابهم منها

وكان عجيبا أيضا أن تكون ميادين القاهرة على قلتها ضيقة ، تسودها الفوضى وسوء النظام ، تغص بالباعة الجائلين ، الذين يحتلون افاريز الميادين ، ويفترشون طوارها ، بسلعهم ومواقدهم ، ويحشدون حولهم جموعا من السابلة والمتسكعين

وكانت الشوارع ضيقة ، ملتوية ، تزدحم بالرائحين والغادين. ويزيدها ضيقا وجلبة وسائل المواصلات العتيقة ، وفى مقدمتها عربات الترام ، الكريهة المنظر، الشديدة الضوضاء ، التى لايسلم منأذاها راكب أو راجل

وكانت التلال والكيمان تحيط بالقاهرة ، احاطة السوار بالمعصم ، تقذف عليها من أتربتها وأقذارها ما تختنق معه الأنفاس ، وتعمى به الأبصار ، فى يوم عاصف ، تشتد ريحه . وكان غريبا أن تقوم هذه الكيمان حول القاهرة فى وقت ضاقت فيه رقعتها ، واكتظت بالسكان ، ولم يعد بها شبر أرض يتسع لبناء مسكن جديد

وكان غريبا أن تختلط المعامل والمصانع والورش بالمساكن والبيوت ، وتقذف فىسماء القاهرة دخانها ورمادها ، فتظلم السماء ، ويفسد الهواء ، وتتراكم الأقذار على المنازل وجدران المبانى

ولا تسل عن الحفر التى تملأ الطرقات ، والمبانى المتداعية ، التى تهدد حياة الناس وأرواحهم ، والخربات العتيقة التى ترى منبثة فى كل مكان ، والتى تعتبر مستودعا خصبا للقاذورات ، ومأوى جيـدا للضالين وقطاع الطرق ، مما يؤذى الصحة ، ويهدد الأمن العام . والمبانى القـائمة فى عرض الشوارع والدروب ، كأنها السدود المنيعة ، والحواجز المتينة ، التى تسد منافذ الهواء ، وتقف حائلا فى طريق ضوء الشمس وحرارتها ، وتطيـل الطريق على سكان القاهرة

كل ذلك كان يظهر القاهرة فى ثوب خلق رث ، يضفى عليها ظلا حزينا كئيبا ، لا يتفق وما لها من مكانة رفيعة بين دول العالم المتمدين ، ومركز ممتاز بين الدول الشرقية بصفة خاصة

لذلك شمر الوزير الخطير عبد اللطيف البغدادى عن ساعد الجد ، وعالج الموقف بروحه الوثابة ، روح الثورة العتيـدة ، وأعلن الحرب على الروتين الحكومى ، وجمع حوله حشدا من المهندسين الأكفاء ، ذوى الهمة القعساء ، والوعى الفنى . وفى مدى خمس سنوات خلق من القاهرة مدينة جديدة ، وألبسها تاجا من النضارة والبهاء ، فصارت بحق عروس مدن الشرق ، وندا لكبريات مدن أوربا وأمريكا

— ٣ —

الانشاء والتعمير فى عهد الثورة

كورنيش النيل :

وفى مقدمة الأعمال الخالدة التى تشهد لعبد اللطيف البغدادى ومعاونيه بالتفانى وعلو الهمة ، والجلد والمثابرة ، والتى ستذكرها له الأجيال القادمة بالثناء والتقدير ، كورنيش النيل العظيم ، الذى كان حلما يراود خيـال سكان القاهرة منذ أجيال ، فأصبح اليوم حقيقة واقعة ، أضفى على القاهرة روعة وجمالا ، وعلى سكانها قوة وصحة ، وخلق وسيلة سريعة للمواصلات

من أقصى شمالها الى أقصى جنوبها ، من القناطر حتى حلوان ، وما يقع بينهما من قرى ومدن

ويمتد هذا الكورنيش مسافة ٤٠ كيلومترا بحذاء النيل ، من القناطر حتى حلوان ، وقد تم تنفيذه على مرحلتين : الأولى من روض الفرج الى أثر النبى بمصر القديمة ، والثانية من أثر النبى حتى حلوان . ويبلغ طول القسم الأول ١٥ كيلومترا والثانى ٢٥ كيلومترا وعرضه ٤٠ مترا . وقد خصص جانب منه للذهاب وجانب للاياب ، وقد تكلف ما يقرب من مليونى جنيه

وقد اقتضى انشاؤه هدم كثير من المبانى التى كانت تطل على النيل ، مثل المطبعة الأميرية ، والورش الأميرية فى بولاق ، وغيرها من المصانع الأهلية ، وحديقة السفارة الانجليزية فى حى قصر الدوبارة ومستشفى القصر العينى ، وكلية الطب ، وصوامع الغلال بساحل أثر النبى ، واقامة ميناء جديد للغلال والفاكهة والمحصولات الزراعية بعرض ١٤٥ مترا ، وعلى أحدث النظم التخطيطية ، حتى يكون نواة للميناء الكبير الذى سيمتد الى نهاية منطقة دار السلام

وعند مدخل الكورنيش بالمعادى أقيمت بوابة جميلة على شكل شراعين متداخلين ، يضاءان بأنوار الفلورسنت ويلتقيان فى قارب . وقد أزيلت الأبنية التى كانت تعترض شق الطريق فى منطقة المعادى ، وأزيلت أسوار المعسكرات القائمة ، ابتداء من المعادى حتى مخر السيل بطرة . وأقيمت لها أسوار جديدة ، بعد أن ارتدت مبانيها الى الخلف . كما تم ازالة الأبنية المتداعية ، والتلال التى كانت تعترض شق الطريق فى منطقة طرة الفاروقية ، وأزيلت أسوار ليمان طره ، ومبنى مسكن مدير الليمان . ونقلت مصلحة مياه الليمان الى موقع آخر ، كما تم نزع ملكية بعض الأبنية بمنطقة طره الحجارة

وقد افتتح كورنيش أثر النبى ــ المعادى فى عيد الثورة الرابع ، أى

فى ٢٣ يوليو سنة ١٩٥٦ ، وقد كان مقررا لفتحه شهر مارس سنة ١٩٥٧، أى انه فتح قبل موعده بثمانية أشهر . وفى هـذا دليل على طريقة تنفيـذ المشروعات الحيوية فى عهد الثورة ، طريقة سداها ولحمتها الاخلاص والتفانى. فقـد كان المهندسون والمقاولون والعمال ، الذين أسهموا فى تنفيذ هـذا المشروع يواصلون العمل ليل نهار . ويتناوب العمل فيه كل يوم ، فى الليل والنهار ، أكثر من ألفى عامل ، بالاضافة الى مئات العمال الذين تولوا فى المصانع انتاج المواد التى استخدمت فى انشاء هذا الطريق ، يحدو الجميع الاخلاص للوطن ، وأداء الواجب على أكمل وجه . فجاء كورنيش النيل تحفة فنية تضارع أعظم كرانيش العالم ، مثل كورنيش مرسيليا وفلوريده

وقد جاء فى صيف عام ١٩٥٦ أيام اشتدت فيها الحرارة اشـتدادا لم يسبق له مثيل ، فهرع أهل القاهرة الى كورنيش النيل ، يقضون ليالى بأكملها على ضفة النيل ، يستنشقون نسيمه العليل ، ويستمتعون بمناظره الخلابة ، ورؤية أنوار الفلورسنت ، وهى تنعكس على صفحة الماء ، فتحيله الى نهر من الفضة الخالصة ، وتحيل الليـل نهارا . فقد تمت انارة الطريق بطريقة الاضاءة المختلطة ، المدهونة بالفلورسنت ، حيث أقيم على امتداد الطريق ، ابتـداء من أثر النبى حتى حلوان أكثر من ٣٠٠ عمود انارة مزدوج ، بمصباحين جانبيين ، قوة كل منهما ٤٥٠ وات . واتبع نفس الشىء فى الجزء الآخر ، الممتد من روض الفرج الى أثر النبى

ميادين القاهرة :

تعتبر الميـادين بالنسبة لمدينة ما كالرئة بالنسـبة للانسـان ، يتجمع فيها الهواء الخالص ، فينقى الدم من الشوائب ، ويخلصه من الأدران كذلك تفعل الميادين ، التى يتجمع فيها الهواء الصافى ، فيتوزع على أرجاء المدينة ، بواسطة شوارعها وبقية مسالكها

وتشبه الميادين أيضا البحيرات فى مجارى الأنهار ، يتجمع فيها الماء

فيترسب ما به من فتات الصخور والأملاح ، ثم يخرج بعد ذلك رائقا صافيا ، لاكدر فيه . هذا بالاضافة الى تهدئتها من حدة التيار ، وحدها من قوته . كذلك الميـادين ، فانها كلما اتسعت ، هدأت من ضـغط المواصلات على الشوارع التى تصب فيها ، أو تنبع منها

وهى فضلا عن هذا تضفى على المدينة جمالا وبهاء ، بما يقام فيها من نصب وتماثيل ، وما يغرس حواليها من أشجار ، وما ينثر فى وسطها من زهور . وهى أيضا المكان الفسيح لتجمع الشعب فى الاجتماعات الوطنية ، والمناسبات التاريخية ، والاستعراضات الحربيـة ، كلما جد من الظروف ما يستلزم شحذ الهمم ، واثارة الحماسة ، واذكاء الروح الوطنى . وأخيرا فهى عنوان رقى الدولة ، ودليل من أدلة تقدمها ورقيها

لذلك لم يكن غريبا أن تكون الميادين أول مايعنى به الوزير عبداللطيف البغدادى ، فى برنامج اصلاحاته العديدة ، فى عهد الثورة . فلقد أعاد تخطيط ميادين باب الحديد ، والتحرير ، والأوبرا ، والعتبة ، والسيدة زينب ، وأحمد ماهر ، وصلاح الدين بالقلعة ، والأزهار ، والجيزة ، وأبى العلا ، والعباسية ، والنزهة ، وأبى بكر الصديق بمصر الجديدة

أولى هذه الميادين عناية فائقة ، فوسع من مساحة الكثير منها ، وهدم لهذا الغرض العمائر والمبانى التى اقتضى التوسيع ازالتها ، وعدل سـير المواصلات بها ، وأنشأ فى وسطها المتنزهات النضرة ، وأضـاءها ليـلا بالأنوار الكهربائية القوية ، ووضع نظاما دقيقا لسير الناس حواليها ، فمدت لهم أفاريز مرصوفة رصفا فنيا جميلا . وكان أكثر هـذه الميادين حظا من الاصلاح والتعديل ميدانى المحطة ، والتحرير « الاسماعيلية سابقا »

ميدان المحطة (حاليا ميدان رمسيس) :

كان لابد من بذل عناية خاصة لتعديل تخطيط هذا الميدان واصلاحه ، لأنه أول جزء من القاهرة تقع عليه أعين السائحين بعد مغادرتهم محطـة القاهرة . ومع ذلك فقد كان أسوأ ميادين القاهرة تخطيطا ونظاما . يتجمع

حوله الباعة الجائلون من كل صنف ، وفى مقدمتهم بائعو الخبز والشواء ، والفاكهة والطعمية ، والمشروبات المثلجة ، والسلع الصغيرة ، وبعض أدوات الزينة والتحف . ويأوى الى كل هؤلاء جيش من المتسكعين والشحاذين والمتشردين والنشالين من الصبية والنساء والرجال . وكلها مناظر تؤذى العين ، وتضر بسمعة مصر ، اذ كانت أول ما تقع عليه عيون السياح ، فيظنون فى القاهرة وسكانها الظنون ، ويلتقطون هذه المناظر بآلات التصوير ، ويذيعونها فى بلادهم عند عودتهم اليها . ولا تسل عما تحدثه من تأثير سيء لمصر وبنيها ، فى البلاد الأوربية والأمريكية

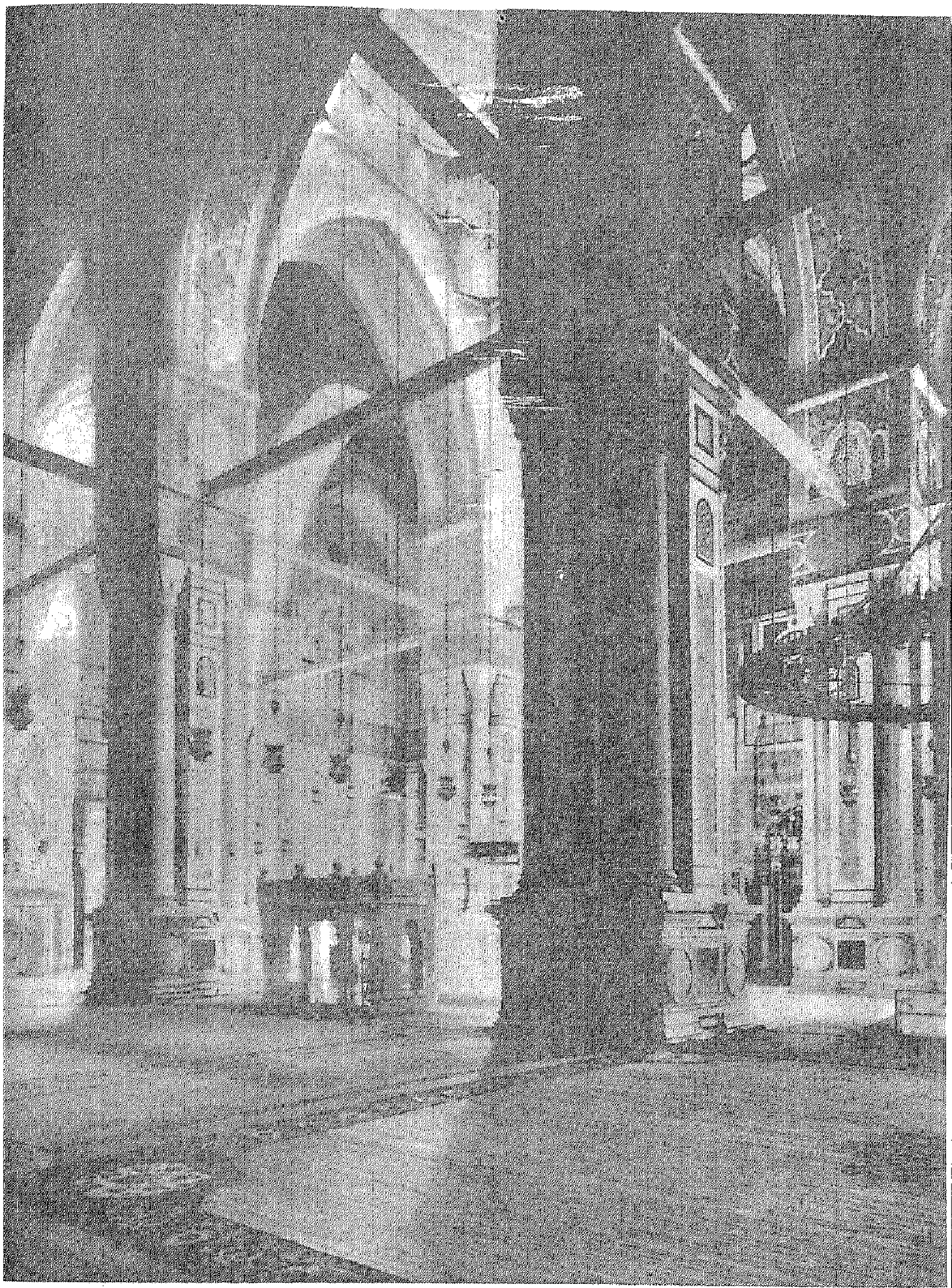
فأعمل البغدادى عصاه السحرية فى هذا الميدان ، فهدمت ابنية شامخة كانت تكتنفه من غربيه ، ومن قبليه كمبنى قسم الأزبكية . ونقل سوق السمك ، وكان مجاورا لمبنى هندسة السكة الحديد الى مكان جديد بغمرة. فازدادت مساحة الميدان ، وانتظمت دائرته . ومدّ فى وسطه متنزها تتوسطه نافورة بديعة . ونقل اليه تمثال رمسيس الثانى من البدرشين ، ليكون أول ما تقع عليه أنظار السائحين . ولا يجهل أحد من هو رمسيس ، رافع راية مصر ، وعنوان قوتها وسؤددها فى التاريخ القديم ، وصاحب امبراطوريتها العظيمة . وقد بذل فى نقله الى هذا المكان جهودا جبارة ، واتخذت تدابير محكمة لضخامة التمثال ، وضرورة العناية به ، كى يصل سليما من غير سوء . وأزيلت أوكار الباعة والمتسكعين ، وأصبح الميدان بعد ذلك تحفة للناظرين ، وعنوانا كريما للقاهرة والمصريين

ميدان التحرير :

وقد كان يطلق عليه قبل الثورة ميدان الاسماعيلية . وقد تهيأت لهذا الميدان فرصة ذهبية لأن تتسع رقعته ، وذلك بعد هدم ثكنات قصر النيل ، التى كان يحتلها الجيش الانجليزى طوال مدة الاحتلال ، والتى كانت فى عهد اسماعيل وتوفيق ثكنات للجيش المصرى . فأزيلت هذه الثكنات



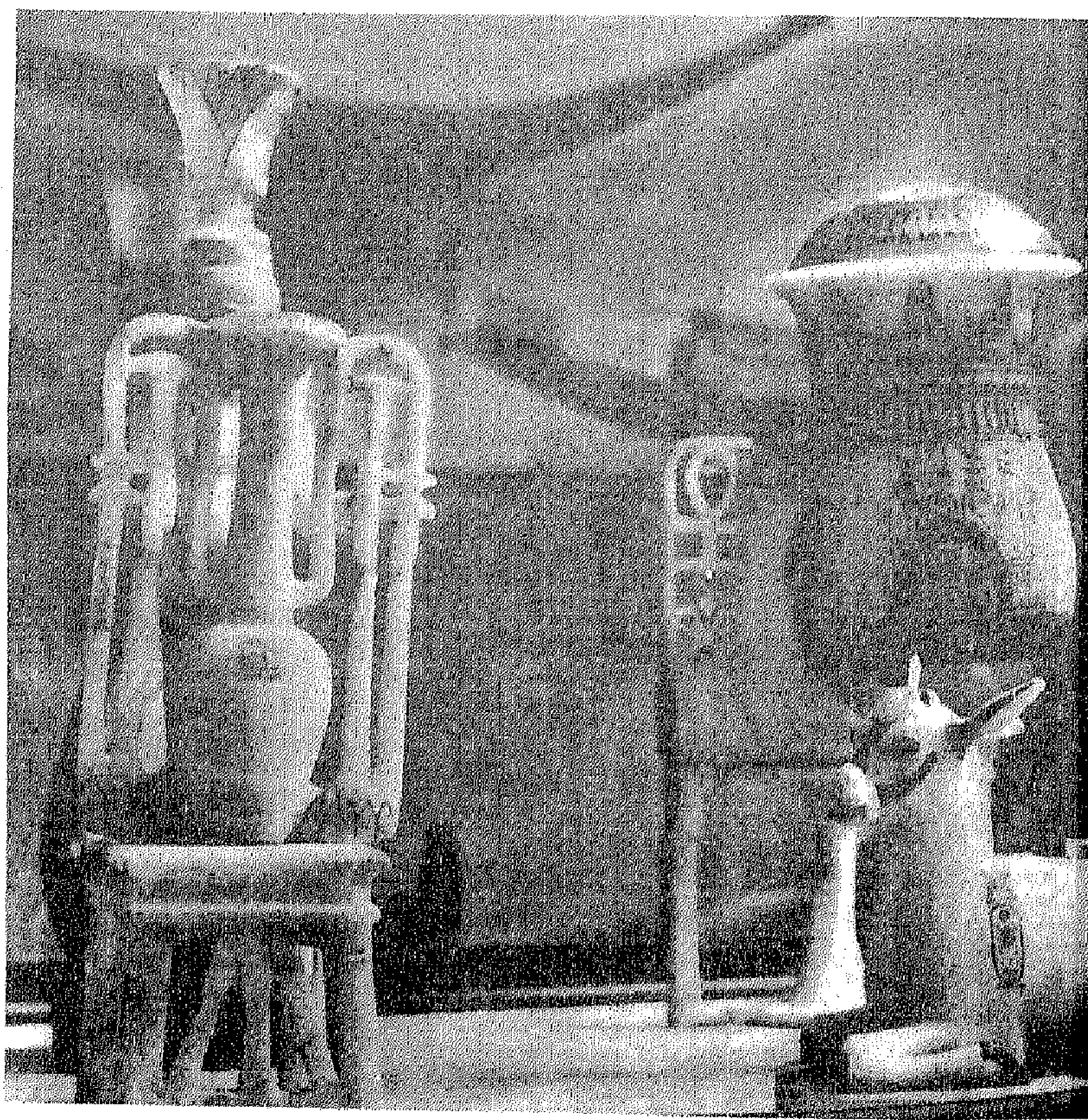
مئذنتا جامع الرفاعى بالقلعــــة ، وبينهما القبة ، وينتهى كل منها بهلال . ويغطى القبة نقوش بديعة

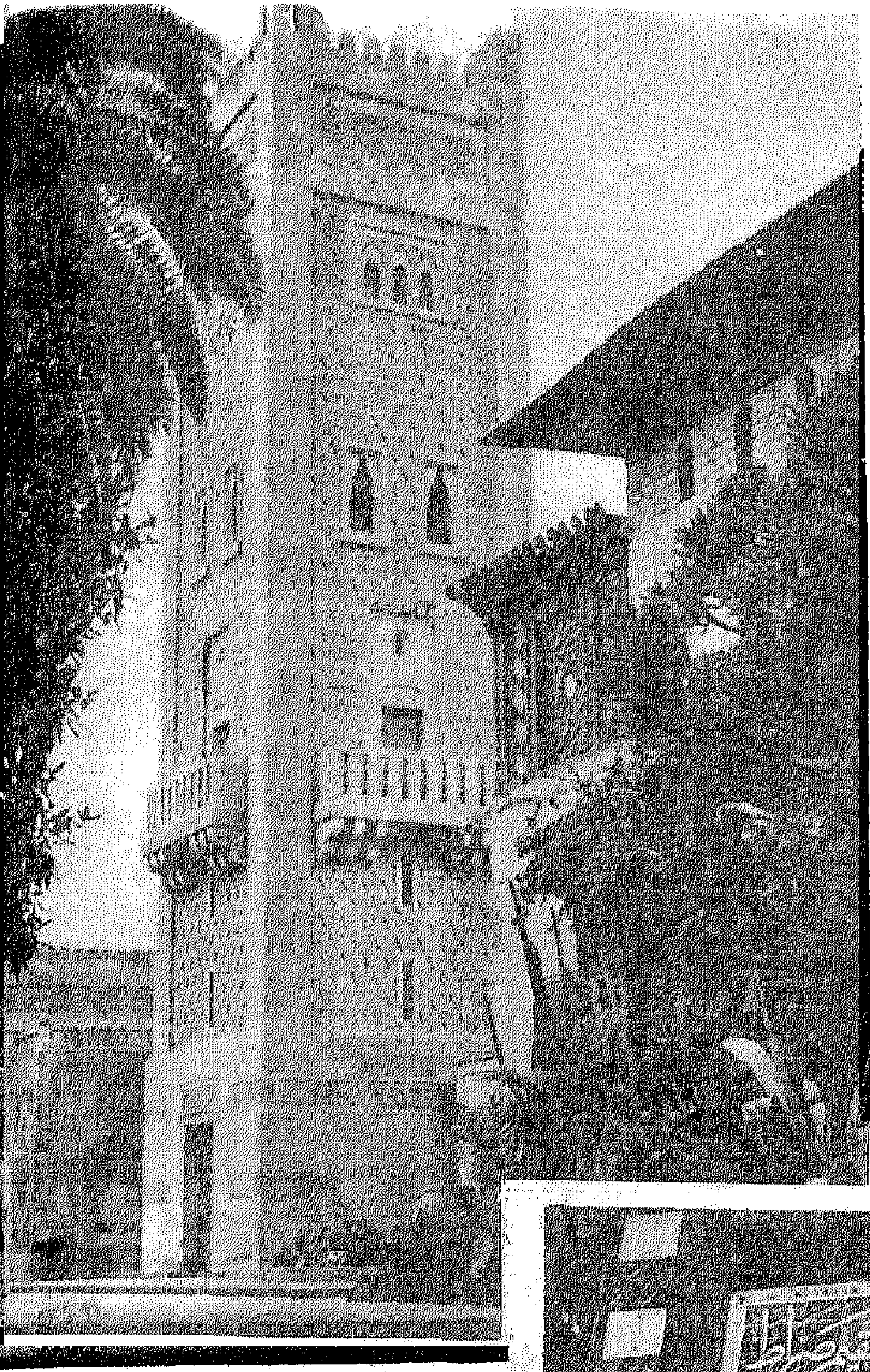


مسجد الرفاعى من الداخل

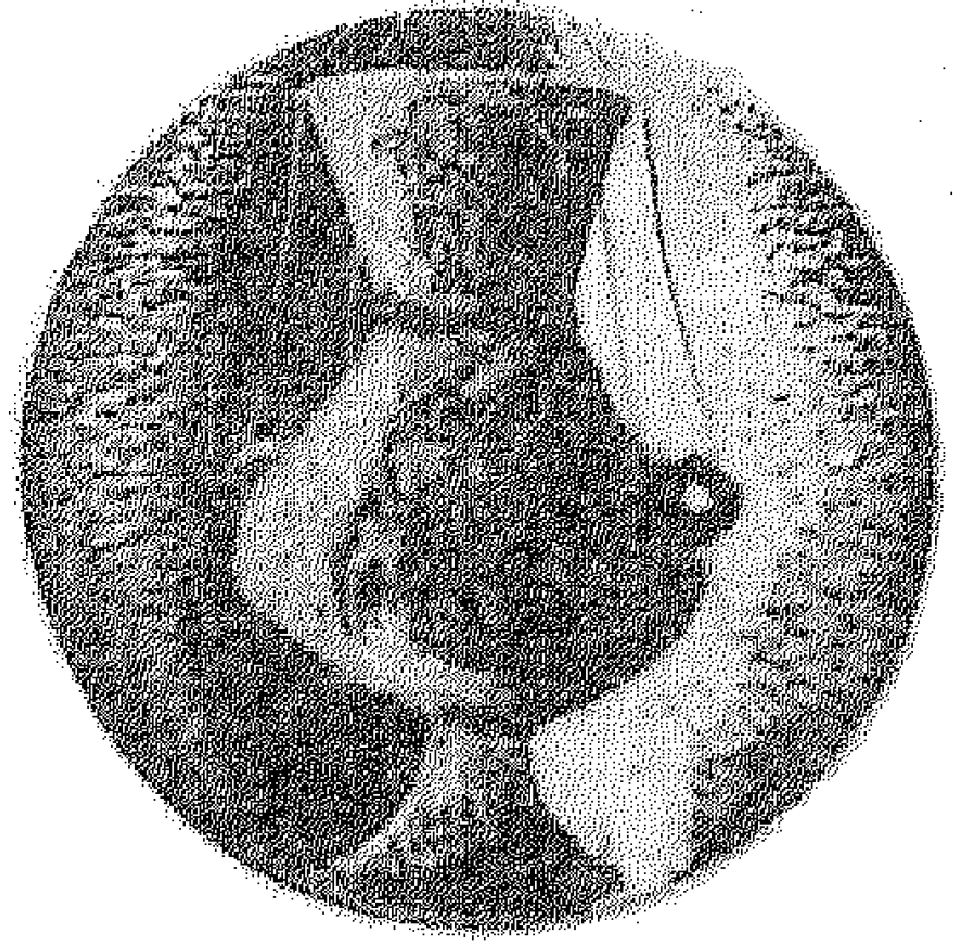
مبنى المتحف المصرى
بميدان التحرير بالقاهرة

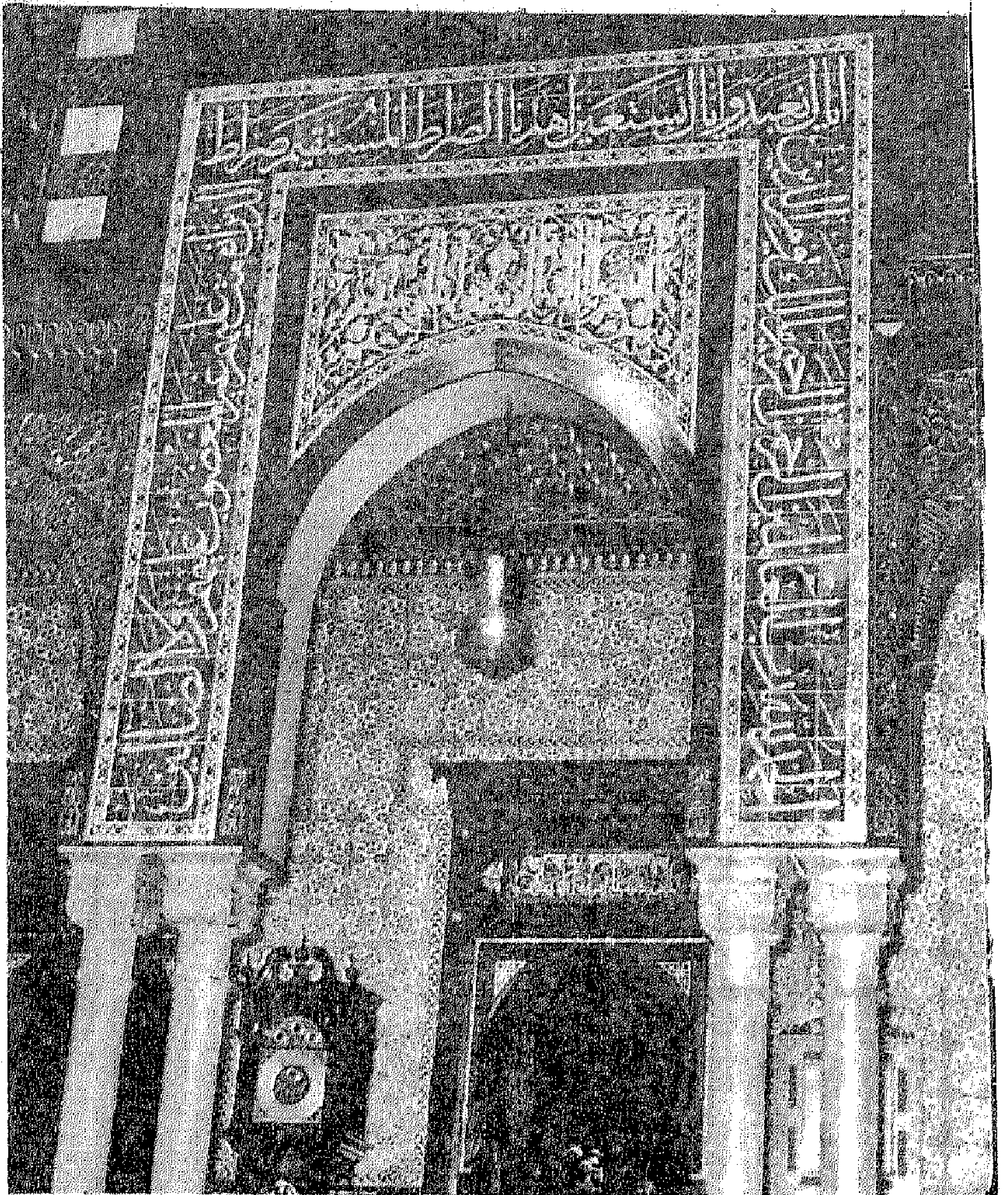




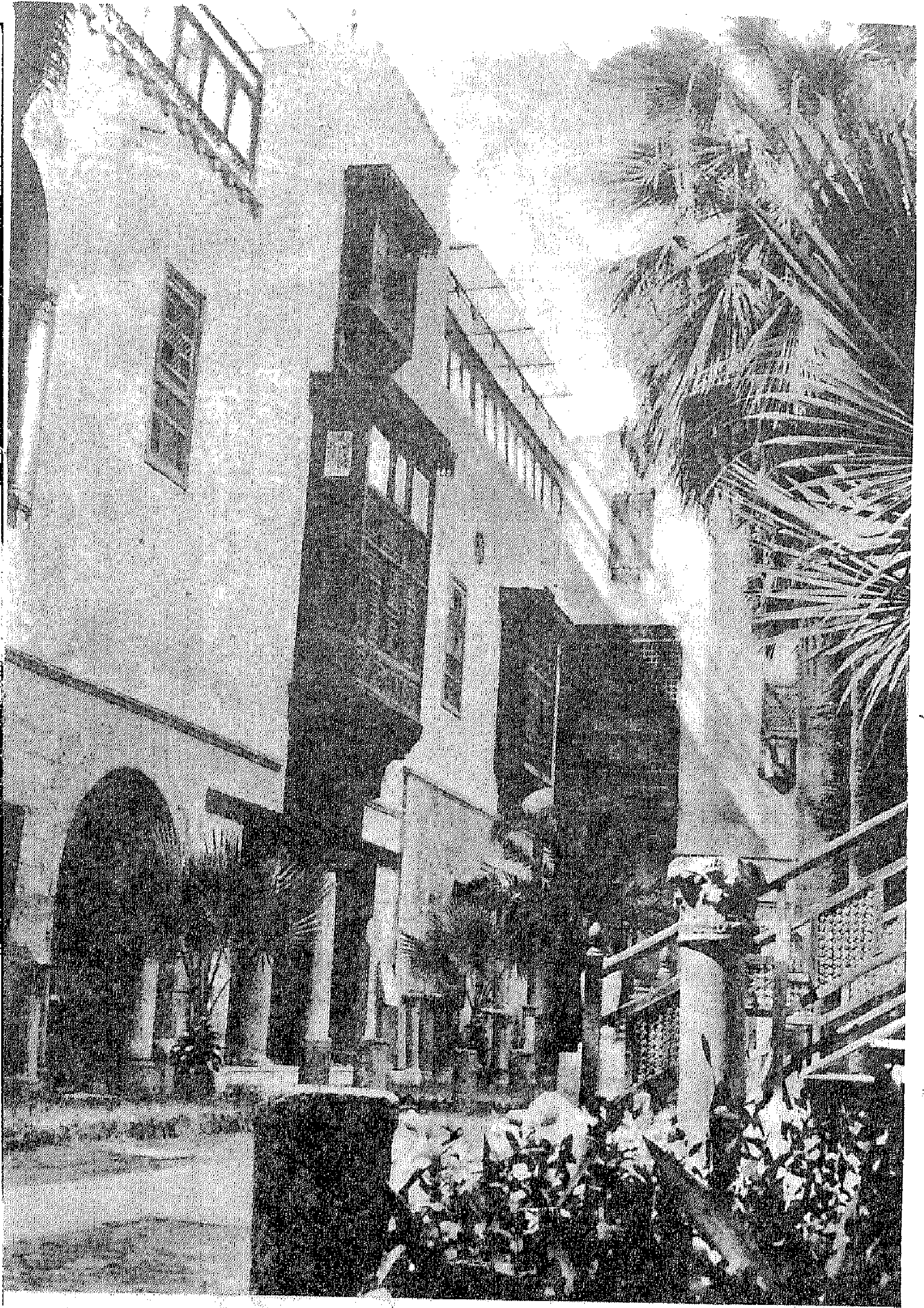


مدخل متحف قصر المنيل

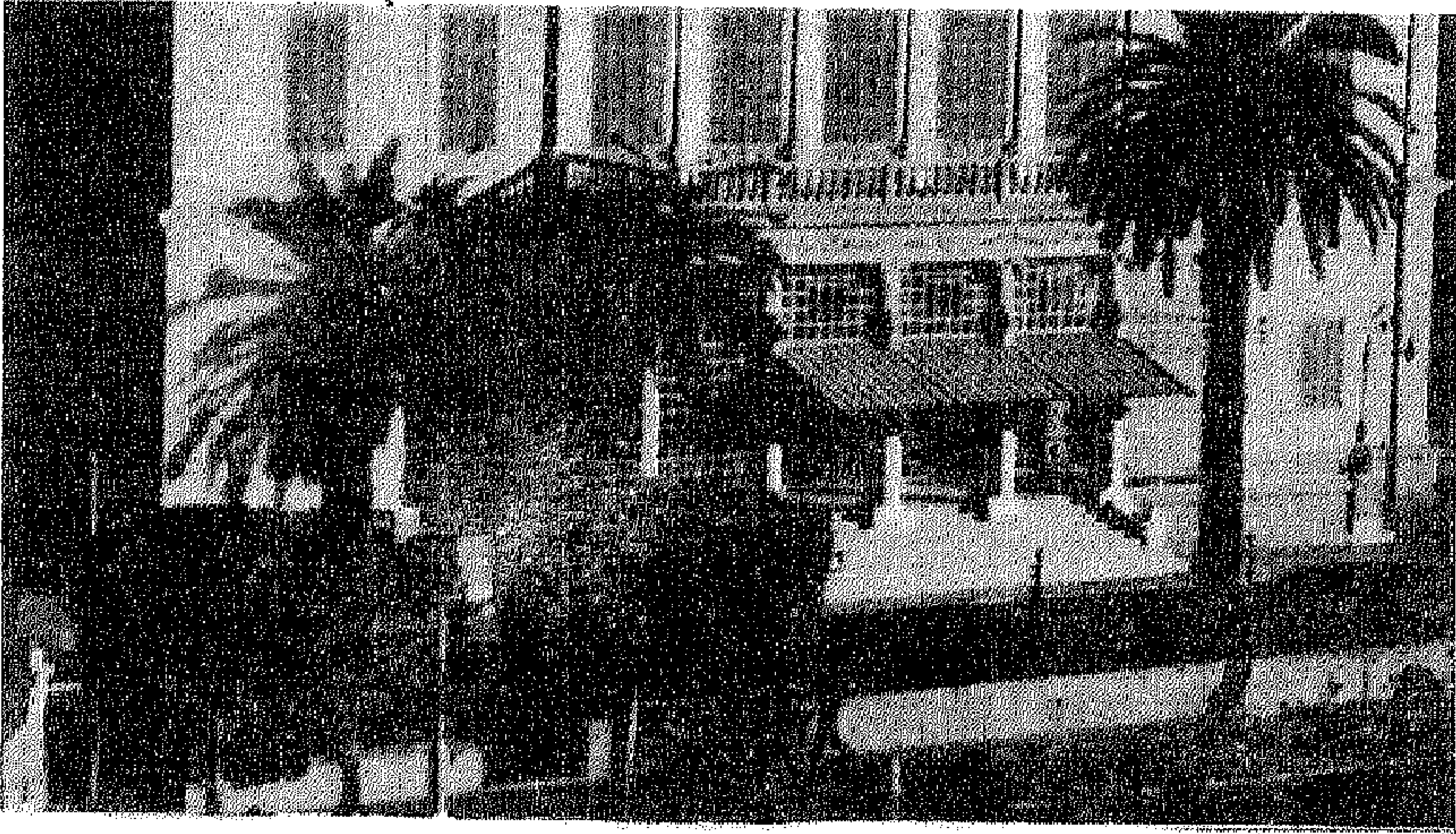




احدى قاعات متحف قصر النيل ، ويغطى جدرانها القاشانى ، وتحليها آيات من القرآن بخط بديع



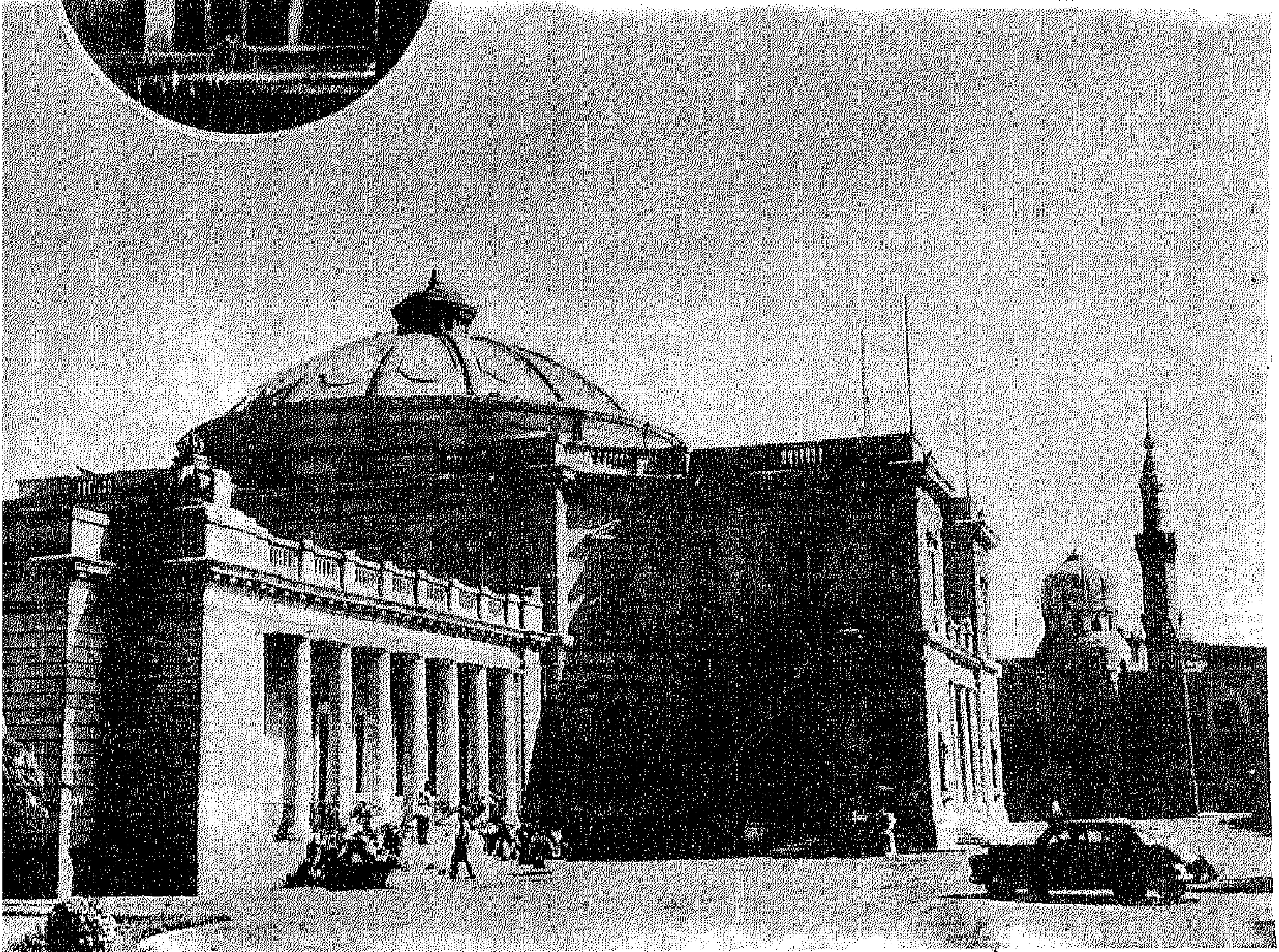
المتحف القبطى بمصر القديمة من الداخل



دار الاوبرا بالقاهرة



مبنى مجلس الأمة بالقاهرة ، والمسجد الملحق به





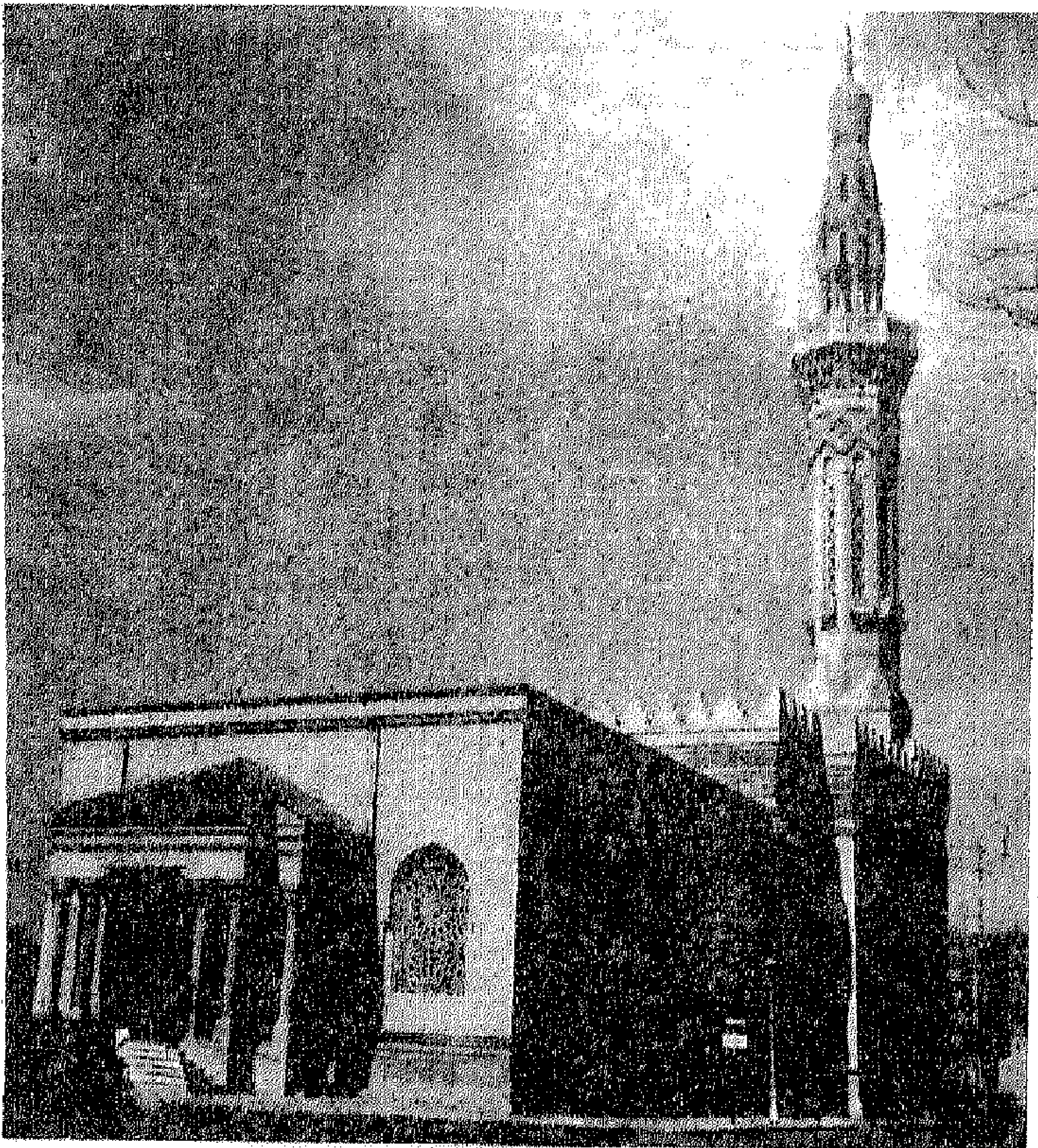
جامعة القاهرة : وترى قاعة الاحتفالات الكبرى تعلوها قبة كبيرة ، ومبنى ادارة الجامعة، يحيط بهما كليات الحقوق والآداب والتجارة والعلوم . ويشاهد ايضا برج الساعة التى تسمع دقاتها فى جميع أنحاء البلاد العربية

احدى قاعات استراحة الهرم وقد صنع أثاثها على الطراز المصرى القديم

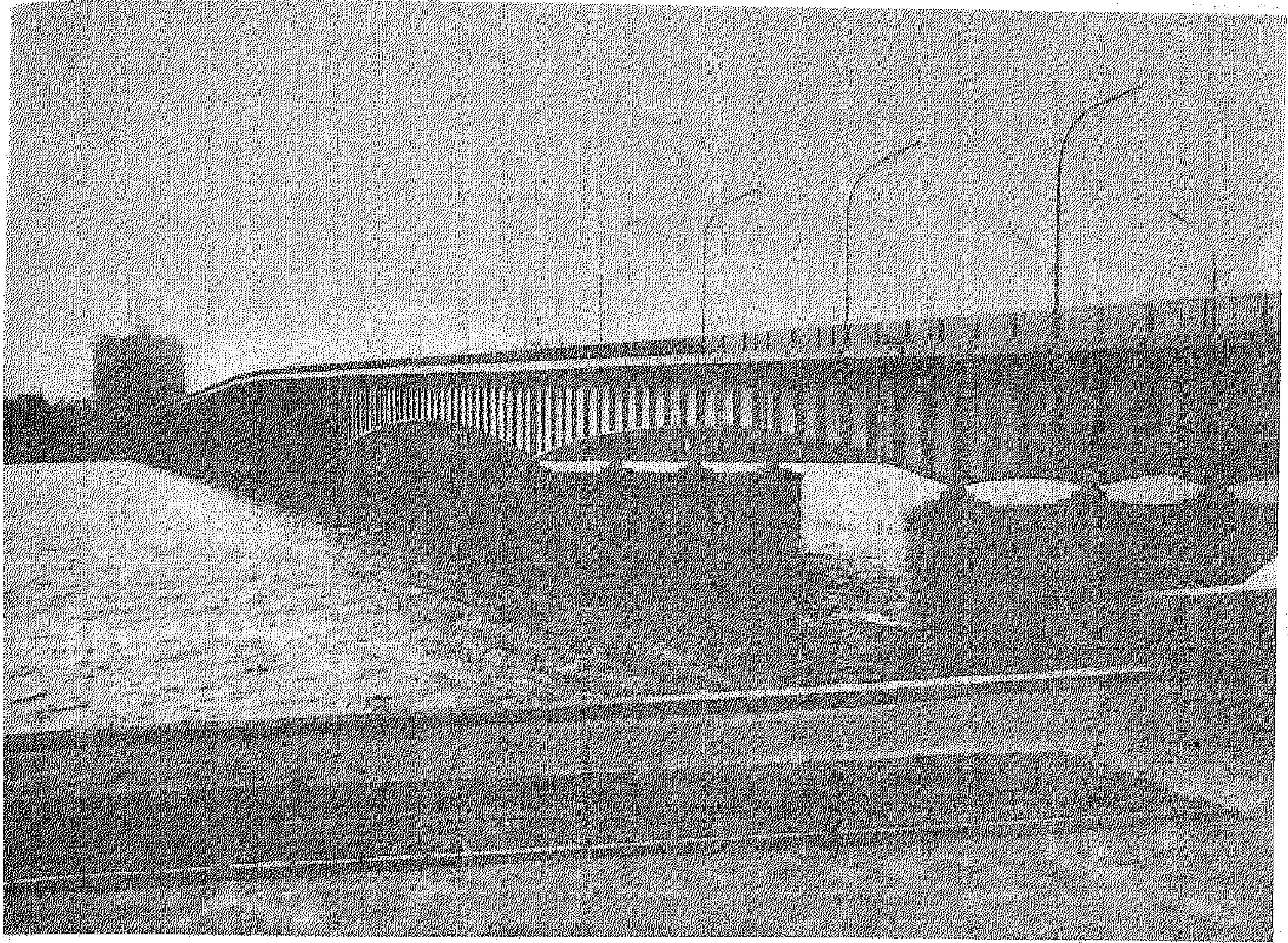
واجهـة استراحة الهرم
وهى مشـيدة على طراز
المعابد المصرية القديمـة



ميدان التحرير بالقاهرة : وتشاهد الفسقية ومبنى المجمع
ووزارة الخارجية والعمائر العظيمة الاخرى التى تحيط بالميدان



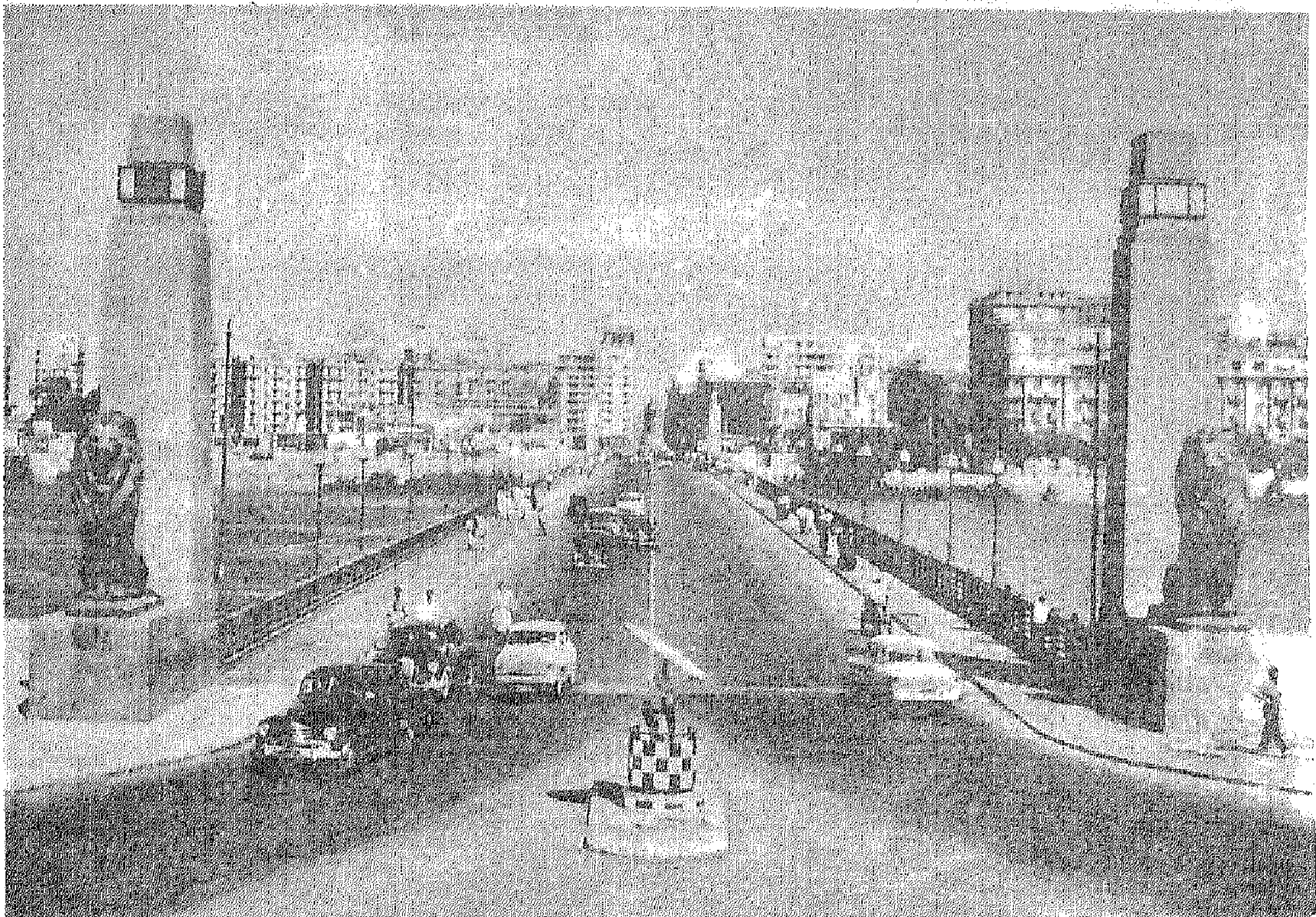
جامع السيد عمر
مكرم بميدان التحرير

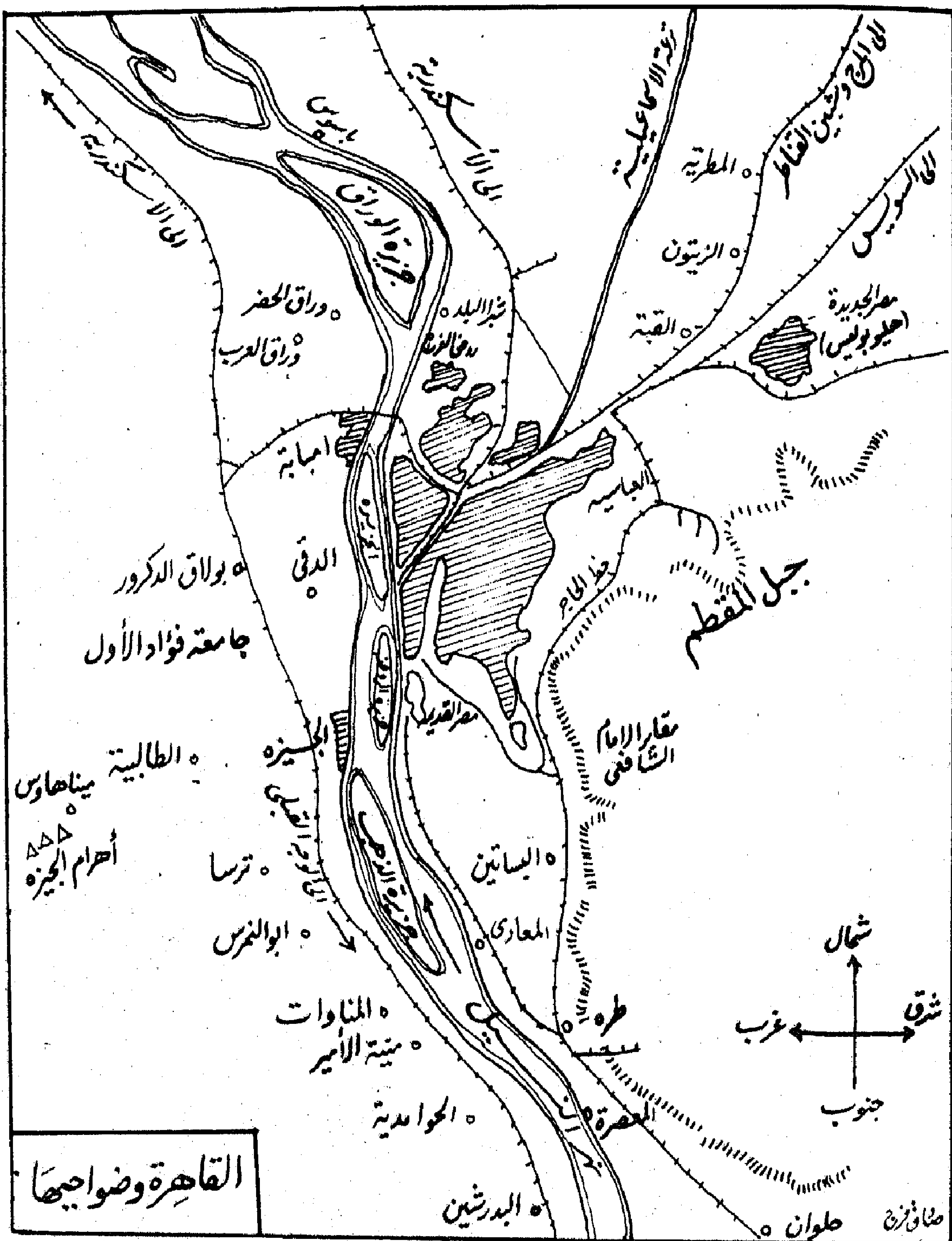


كوبرى الجامعة بالجيزة ، وهو احد المنشآت الحديثة فى عهد الثورة



كوبرى التحرير (قصر النيل سابقا) ويرى فى نهايته
الشرقية ميدان التحرير وفندق سميراميس ▼

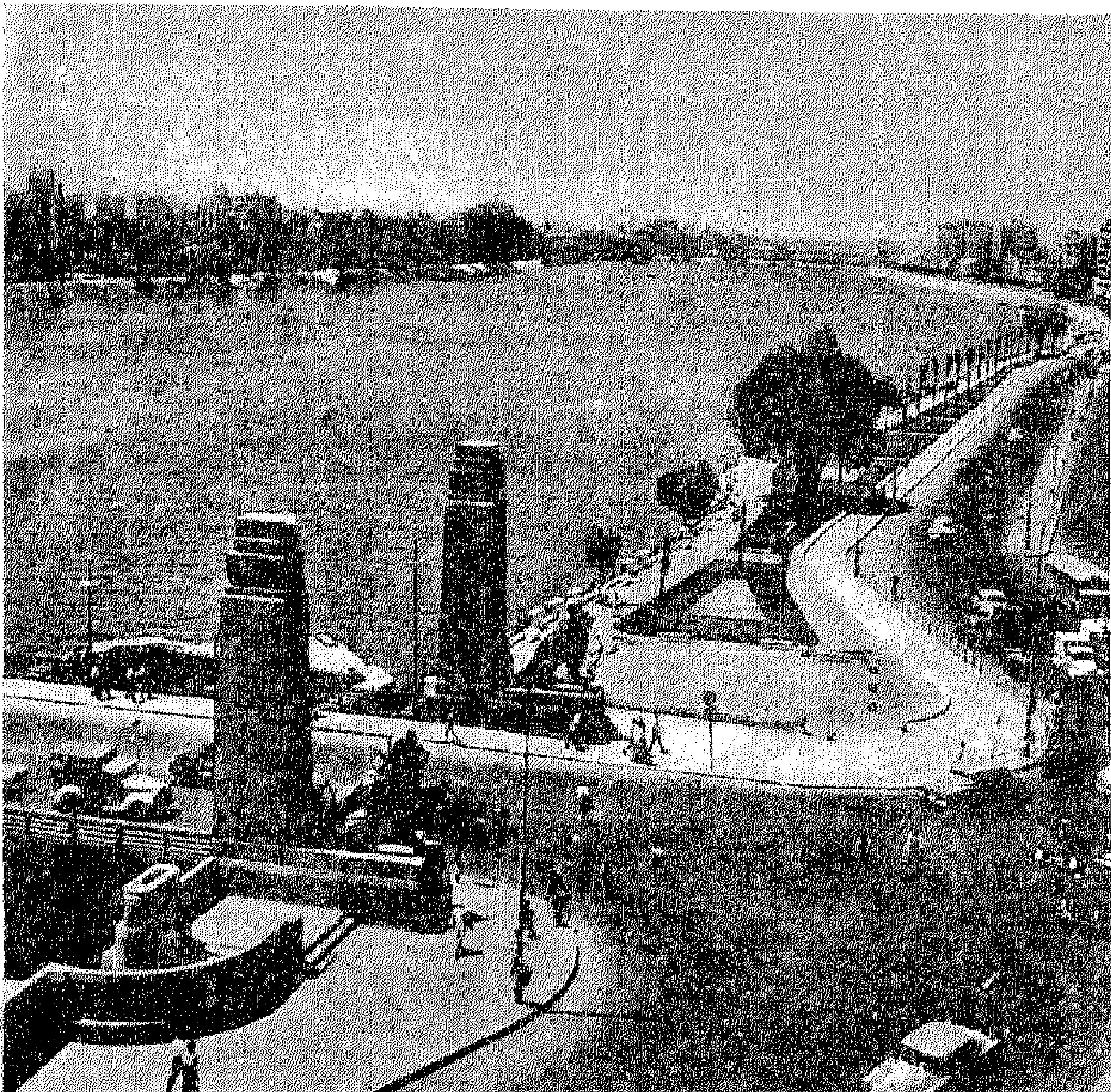




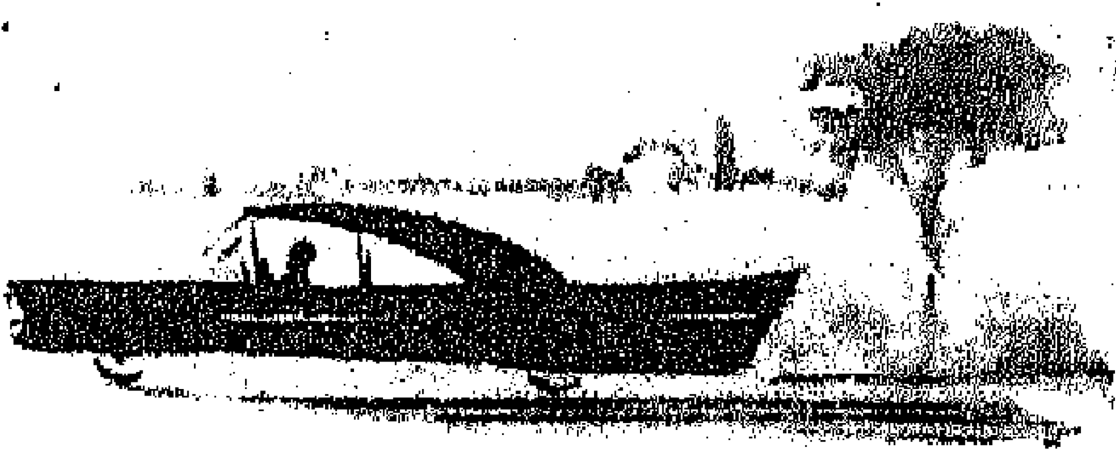
يمثل هذا الرسم ضواحي القاهرة التى دخل بعضها فى نطاق القاهرة وسيدخل الباقى فى نطاقها تجاوبا مع اتساعها وامتدادها . . .

كوبرى الجلاء ويرى فى مدخله الشرقى تمثال أحمد ماهر

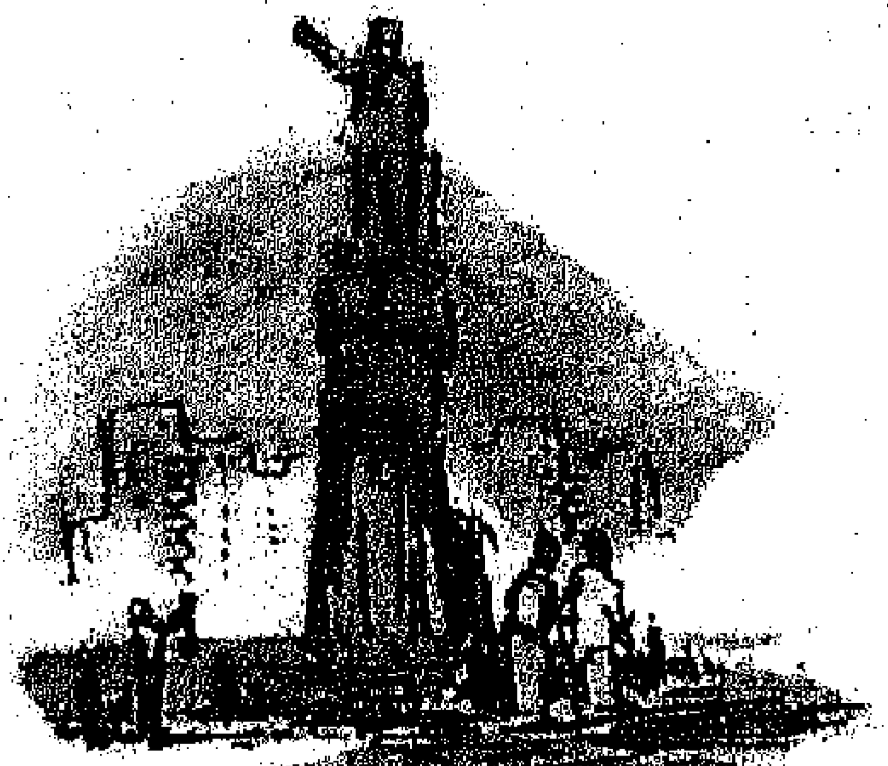
المدخل الشرقى لكوبرى التحرير ويظهر معه جزء من كورنيش النيل



كورنيش النيل فى شارع ماسبيرو ، مابين
كوبرى التحـــرير وكوبرى ابى العلاء ...

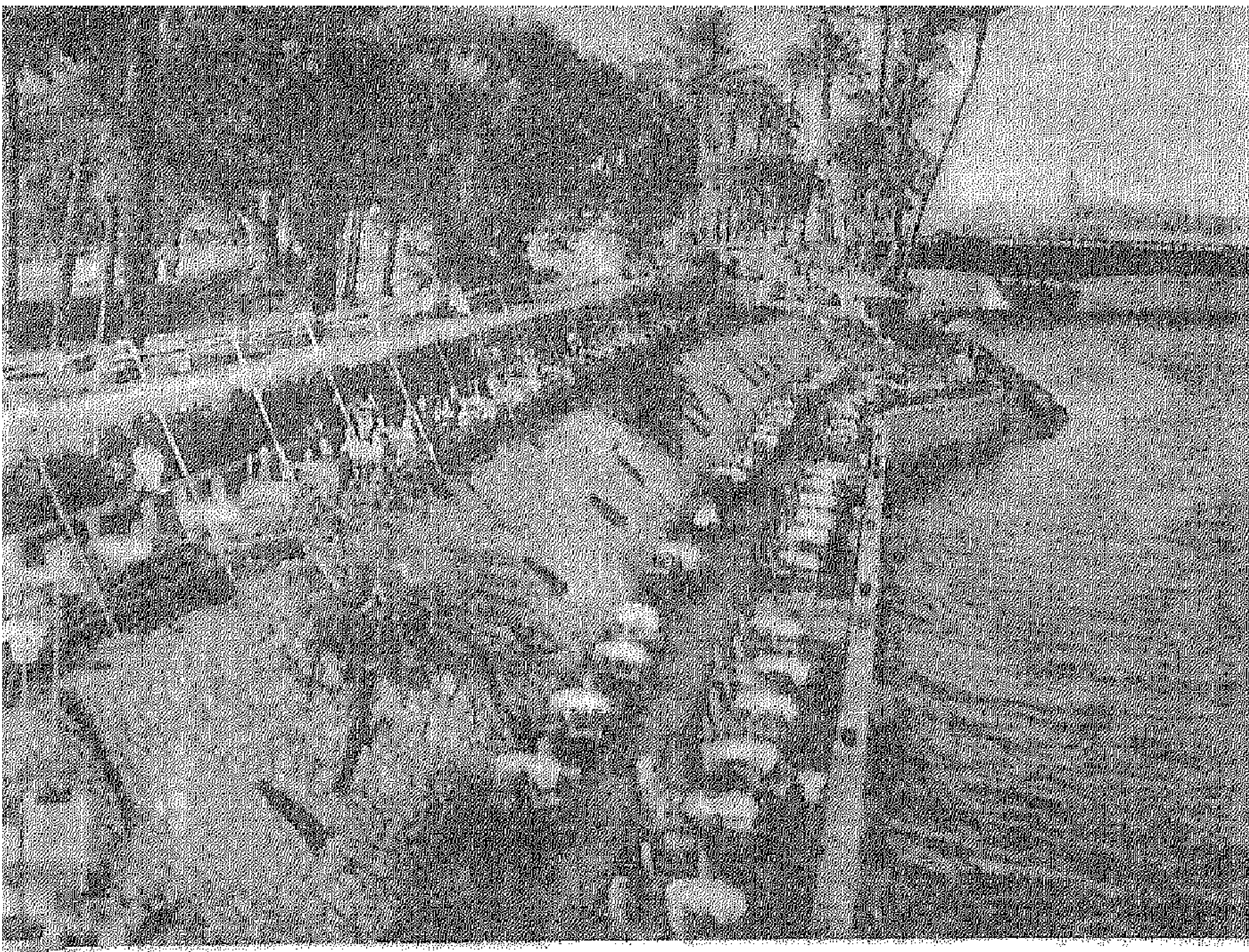


شارع بور سعيد (الخليج سابقا) بعد توسيعه وتنظيمه فى عهد الثورة



شارع بور سعيد (الخليج سابقا) بعد ردمه سنة ١٩٠٢ م . ويبدو ضيقا ملتويا لا يتسع لمرور عربتين متجاورتين

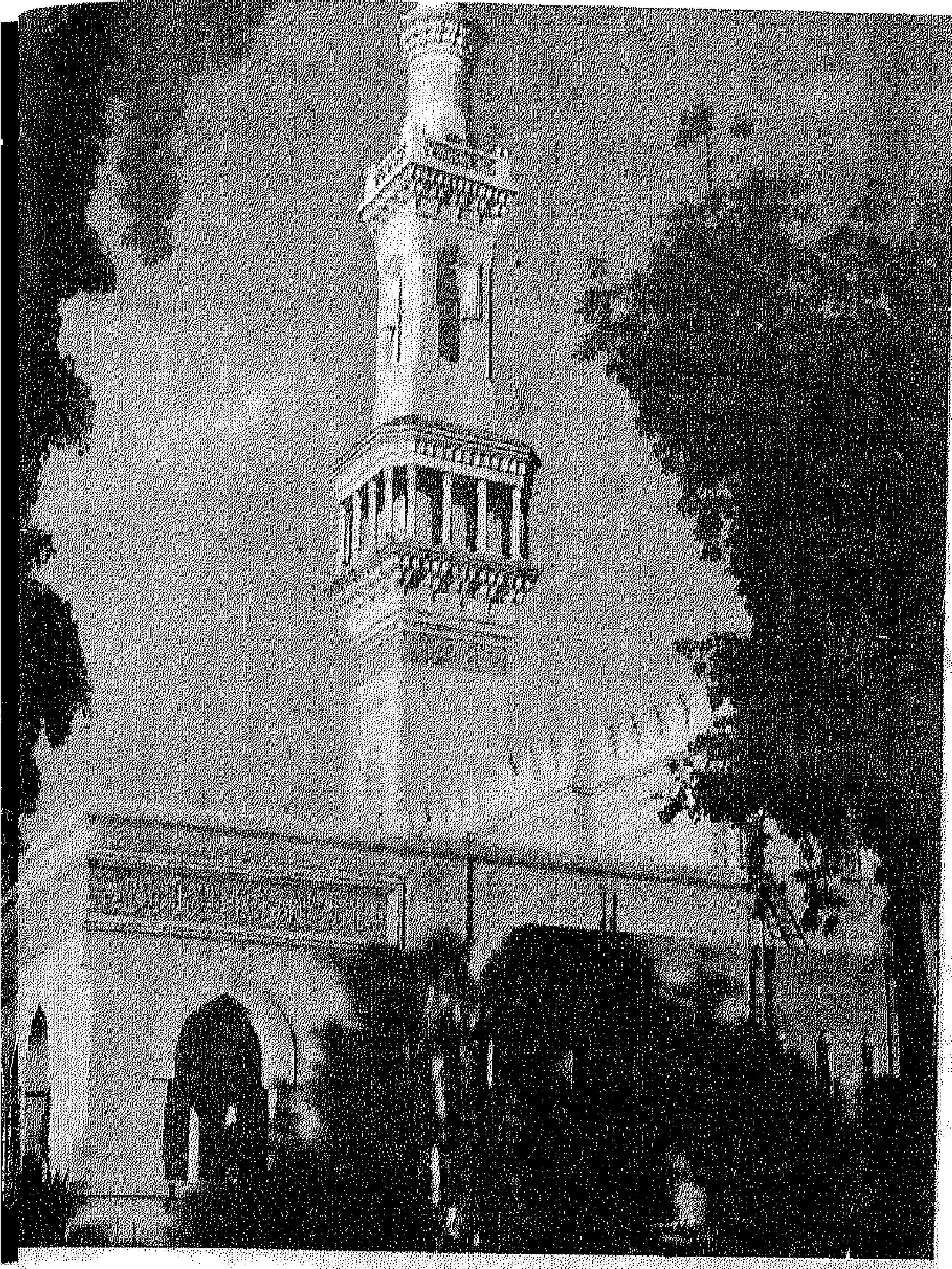


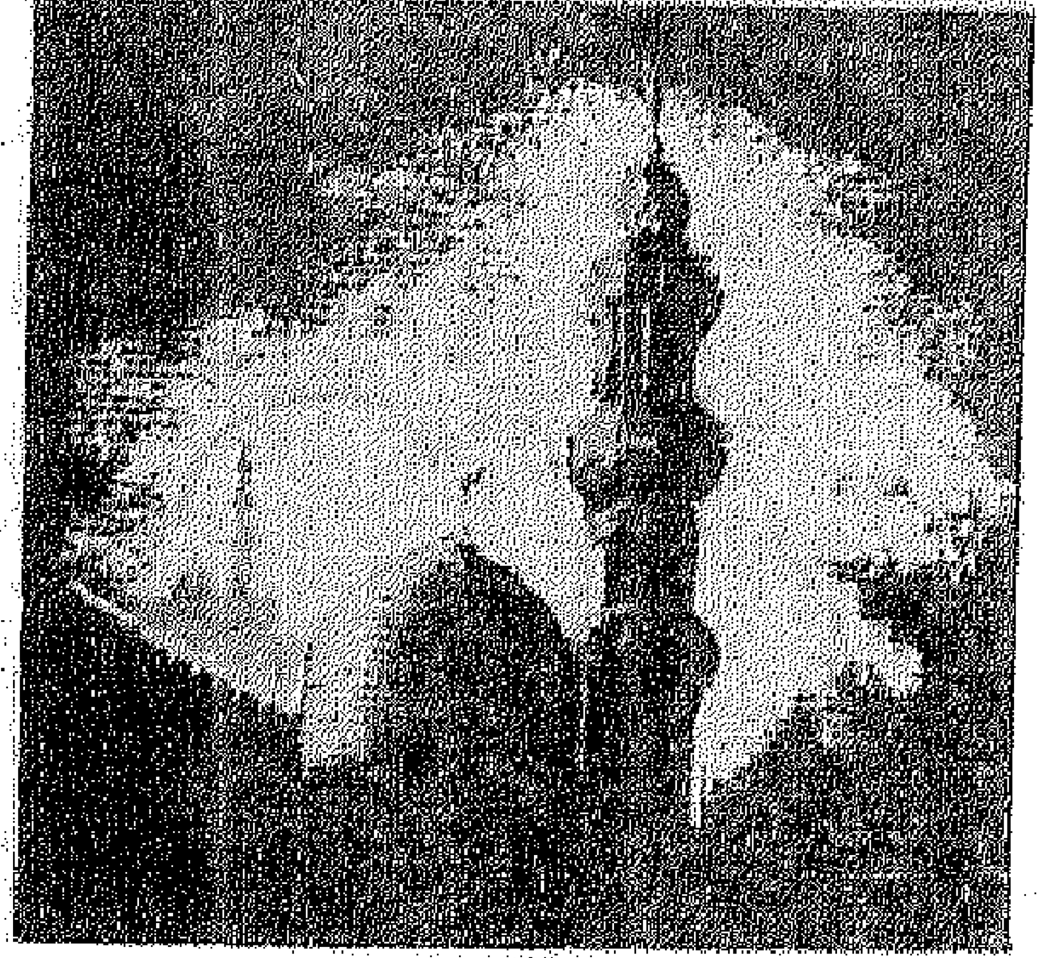


«كازينو» قصر النيل ، أحد الكازينات التي أقيمت على النيل بعد انشاء الكورنيش للاستمتاع بمناظر النيل ومشاهد الطبيعة الخلابة

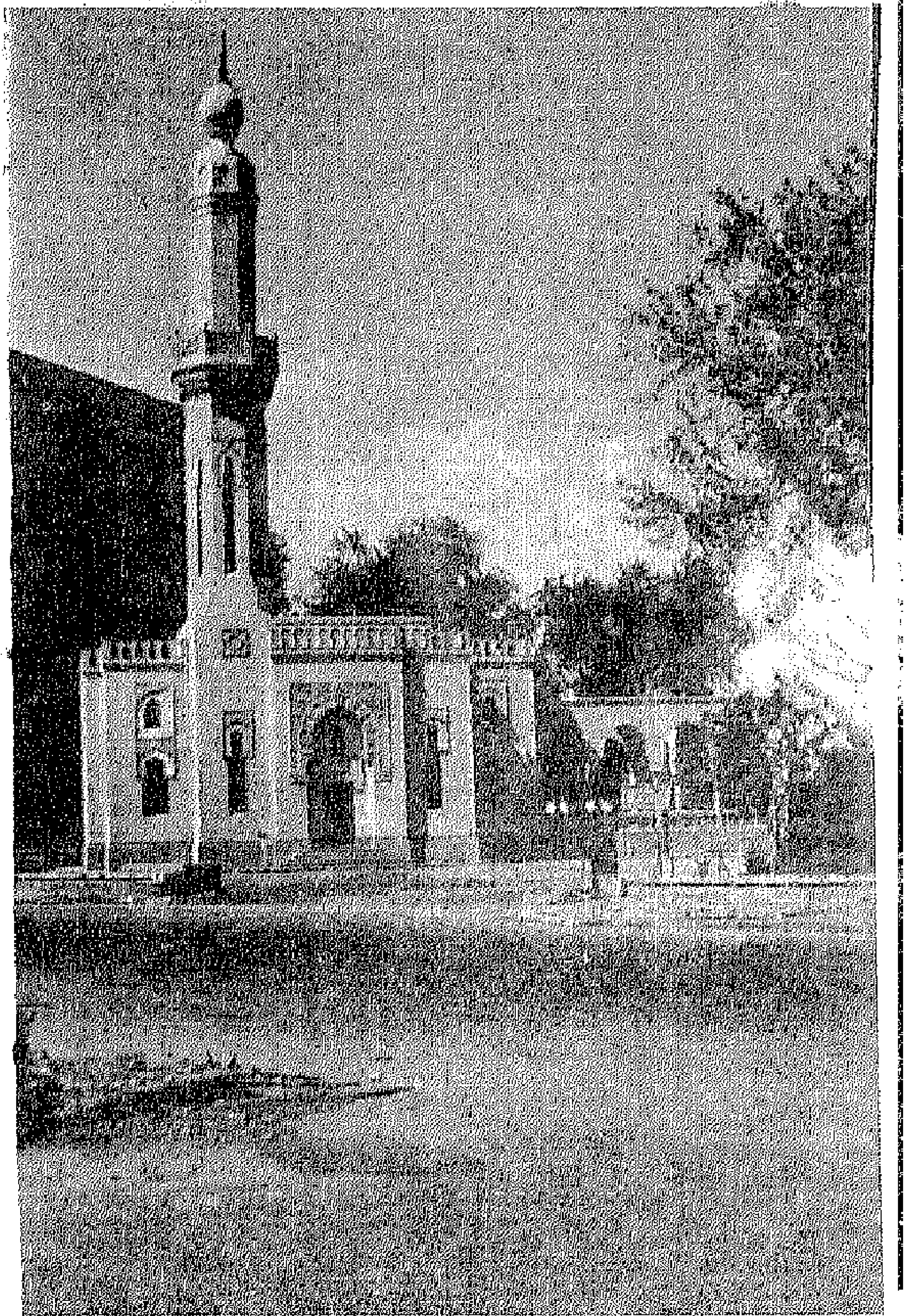


ميدان مصطفى كامل وشارع قصر النيل وهو أحد الشوارع الهامة بالقاهرة





مسجد الزمالك ، وهو أحد المساجد الجميلة الحديثة التى أنشئت فى عهد الثورة ...



مسجد الدقى ، أمام وزارة الزراعة ، ويرى من خلفه جزء من مبنى الاوقاف لمجمع بالدقى وهو من المنشآت الحديثة

وأنشيء فى مكان الجزء الأكبر منها متنزه عام ، تتوسطه نافورة ، غاية فى البهاء والجمال ، تتلون مياهها فى أثناء اندفاعها بالألوان الجميلة ، وتتشكل بالأشكال البديعة . فاذا ما أقبل المساء ، خصوصا فى ليالى الصيف ، توافد ألوف الناس من أطراف المدينة ، وتجمعوا حول هذه النافورة ، وربما قضوا الليل بأكمله ، يستمتعون بالنسيم العليل ، والمنظر الجميل

ويرى فى وسط الميدان نصب كان قد أمر فاروق باعداده قبل الثورة بقليل ، ليمتطيه تمثال لجده اسماعيل ، يقابله فى ميدان الجمهورية «عابدين سابقا» تمثال لوالده فؤاد . وكانت فكرة فاروق أن ينظر والده من ميدان عابدين فيرى اسماعيل رابضا فى ميدان الاسماعيلية ، فيتناجيان ما شاءت لهما النجوى ويتسامران . ولما كان الطريق الموصل بين التمثالين ضيقا ، ولكى تتاح الفرصة للتمثالين أن يرى أحدهما الآخر فى جلاء ووضوح ، فقد اقتضت ارادة فاروق ، أن يوسع شارع البستان ، وتهدم المنازل القائمة على جانبيه ، ويشرد سكانها ، ويبلغون أكثر من ألفى أسرة ، فى وقت ضاقت القاهرة بساكنيها ، وكان المسكن الخالى أندر وجودا من الكبريت الأحمر . وقد صدر فعلا قانون باخلاء تلك المساكن من ساكنيها ، واجراء عملية الهدم . ولم يجد صراخ تلك الأسر وعويلها أمام جبروت فاروق ، وممالأة وزرائه له فى طيشة ونزقه ، ولكن الله كان له ولهم بالمرصاد ، فأطاح بعرشه قبل أن تتحقق رغبته ، وأنقذ الناس من ظلمه وبغيه . وهكذا كانت أعمال فاروق ووزرائه ، لا تصدر عن رغبة فى خير الناس وصالحهم ، وانما رائدهم من ورائها المظهر الكاذب ، والمنفعة الشخصية . فاذا مهد طريق فلمنفعة أمير أو وزير ، واذا شقت ترعة فلمصلحة اقطاعى أو ذى نفوذ ، أما مصلحة الشعب ومنفعته فليستا محل تقدير أو تفكير

وشيد بميدان التحرير مسجد أقيم احياء لذكرى بطل من أبطال الكرامة والاستقلال ، ذلكم هو الشهيد السيد عمر مكرم . وأقيم أيضا على

أرض هذا الميدان مبان جديدة لوزارة الارشاد القومى، والاذاعة المصرية ، وبلدية القاهرة ، وفندق ضخم ، ومبنى لجامعة الدول العربية ، وبذلك أصبح هذا الميدان من أجمل الميادين فى عواصم الشرق الأوسط ، بل وفى عواصم أوربا وأمريكا

مداخل القاهرة :

وأمر آخر كان يحتاج الى علاج سريع ، وحل حاسم ، ذلك هو مداخل القاهرة ، فقد حلت هذه المشكلة التى طال عليها الأمد حلا موفقا ناجعا ، فأنشئت للقاهرة أربعة مداخل فى وقت واحد ، هى :

أولا — مدخل طريق الكورنيش: ويبتدىء من نقطة مرور الباسوسية ، الواقعة عند التقاء طريق مصر — الاسكندرية الزراعى فترعة الاسماعيلية ، فروض الفرج ، فشبرا ، فكوبرى أبى العلاء ، فكوبرى قصر النيـــل ، فداخل القاهرة

ثانيا — المدخل المحاذى للسكة الحديد : والذى يصل بين محطة شبرا ونفق السبتية ، وسيخصص للنقل السريع الى وسط المدينة . وقد اقتضى انشاؤه هدم العشش الواقعة على جانبى الخط الحديدى ، فى أثناء قدومه الى القاهرة ، والتى كانت وصمة عار فى جبين العاصمة ، لمواجهتها كل زائر للبلاد عند وصوله الى حاضرة البلاد

ثالثا — طريق ترعة غمرة المردومة : ويبدأ من محطة مجارى الأميرية على ترعة الاسماعيلية ، وينتهى بشارع الخليج المصرى. وقد أصاب هذا الطريق هدفين ، أولهما : تيسير حركة النقـــل السريع ، وثانيهما التخلص من ترعة غمرة الملغاة ، ذات المياه الراكدة ، والتى كانت قائمة فى وسط المساكن ، وتساعد على انتشار الأمراض . وقد أمكن بعد ردمها خلق منطقة صناعية جديدة ، على أرض مساحتها حوالى ٤٠٠ ألف متر مربع ، لها طريق خاص

رابعا — طريق جسر ترعة الاسماعيلية : ويسير على الجسر الأيمن لترعة

الاسماعيلية بعرض ٢٨ مترا ، ويبدأ من فم ترعة الاسماعيلية عند طريق الكورنيش حتى يصل الى كوبرى مسطرد ، بطريق المعاهدة ، ومنه الى مصر الجديدة . ويربط هذا الطريق جميع المداخل البحرية الأربعة بعضها ببعض

وقد تبع انشاء هذه المداخل أعمال أخرى كثيرة ، مرتبطة بها ، حتى يسهل على الناس والسيارات والمركبات الوصول الى داخل القاهرة فى سهولة ويسر وأمان . من تلك الأعمال :

١ ـ انشاء كوبرى علوى ثابت طوله ٤٠٠ مترا ، ليصل طريق الكورنيش على جانبى ترعة الاسماعيلية ، وانشاء كوبرى آخر على نفس الترعة طوله ٥٠٠ مترا ، ليصل المدخل المحاذى لخط السكة الحديد على جانبى الترعة

٢ ـ هدم العشش القذرة ، الموجودة فى الناحية البحرية من مدخل المدينة ، والتى كانت تواجه القادمين الى القاهرة بالسيارات

٣ ـ انشاء محطة نهائية لوقوف أتوبيسات وجه بحرى القادمة الى القاهرة ، دون دخولها المدينة ، ولوقوف ترام شبرا والأتوبيسات القادمة من القاهرة ، ومصر الجديدة الى شبرا ، وتتسع هذه المحطة لوقوف أكثر من ٤٠ أتوبيسا

٤ ـ مد شارع الترعة البولاقية ليصل الى محطة شبرا . وقد اقتضى هذا المشروع ردم الترعة البولاقية التى تقع فى وسط المساكن

٥ ـ توسيع شارع شبرا الحالى الى ٤٠ مترا ، ابتداء من محطة سكة حديد شبرا الى دوران روض الفرج ، ونقل الترام الى وسط الطريق ، وحصره بين جانبين أحدهما للذهاب والآخر للاياب . وذلك لعدم امكان الاستغناء عن هذا الشارع ، حتى بعد انشاء مداخل القاهرة

شوارع القاهرة :

أما اصلاح شوارع القاهرة ، فكان مجهود الوزير عبد اللطيف البغدادى فى هــذه الناحية مثــارا للاعجاب والدهشة . كما اتسم هــذا المجهود بالسرعة الفائقة ، والتنفيذ العاجل ، والدراسة الدقيقة ، والتفكير السليم. لذلك أصابت هذه الاصلاحات الهدف المطلوب ، وحققت نفعا أكيدا ، ومصلحة عامة ، كانت تتطلبها القاهرة منذ أمد طويل

وقد كان من أظهر عيوب شوارع القاهرة : ضيقها ، والتواؤها ، وعدم استقامتها ، واكتظاظها بالمارة ، واندساس عربات الترام ، الكريهة المنظر ، البطيئة السرعة ، بينهم ، تدهم هذا ، وتقتل ذاك ، وتصطدم بالسيارات ، وعربات النقل ، فتضطرب المواصلات ، وتتعطل مصالح الناس . وقد علت الشكوى من هذه الفوضى ، وسوء الحال . ولم تكن الحكومات السابقة لتحرك ساكنا . وكل ما كانت تفعله أن تنفق الوقت فى الدرس والبحث واستدعاء الخبراء ، فاذا جاء دور التنفيذ تعللت بقلة المــال ، وضرورة الانتظار ، حتى يغير الله من حال الى حال . فتوضع المشروعات على الرف ، أو فى أدراج الوزراء ، ليعفى عليها النسيان. فلما جاءت الثورة ، استخرجت هذه المشروعات من غياهب السجن ، وتعهدت بالتنفيذ السريع ما كان منها مدروسا وصالحا للتنفيذ ، وابتكرت كثيرا مما كان يتطلبه تقدم القاهرة ورقيها ، ولم يستطع الروتين الحكومى أو شركات الاحتكار الصمود فى وجه الثورة ، أو عرقلة شىء من مشروعاتها

لذلك سارع البغدادى بنزع قضبان الترام من شارع ٢٦ يوليو « فؤاد الأول سابقا » ومن الثلث البحرى لشارع عماد الدين ، ومن شارع نهضة مصر « الملكة سابقا » وشــارع عبد العزيز ، وحولت خطوط الترام التى كانت تسير بهذه الشوارع الى شارع الجلاء وشارع القلعة . وقسم شارعى ٢٦ يوليو ، ونهضــة مصر الى قسمين : قسم للذهاب وآخر للاياب ، كما

أعيد رصفهما وتنسيقهما ، وأضيئا بالأنوار الساطعة فى الليل . ومد شارع ٢٦ يوليو كى يخترق حديقة الأزبكية ، ولكى يتصل رأسا بميدان العتبة . ولقد بدا هـذا الشارع بعد رصفه وتنسـيقه ، وهو من أهم الشوارع التجارية بالقاهرة ، نظيفا ، جميلا ، هادئا ، منظما ، تتلألأ الأنوار الساطعة فيه ليلا ، فيخيل اليك أنك لست فى الليل ، وانما فى رابعة النهار

شارع الخليج المصرى (شارع بورسعيد الحالى) : (١)

كان شارع الخليج المصرى يمثل اهمال الحكومات السابقة واخلال شركات الاحتكار بتعهداتها ، واهتمامها باستنزاف أموال الشعب دون رعاية خيره. فقد كانت شركة الترام قد قطعت على نفسها عهدا عندما استخلصت من الحكومة المصرية امتياز مد خطوطها على هـذا الشارع ، أن تملأه نورا وضياء بالليل ، ولكنها ملأته ظلاما وقتاما . فأصبح المرء لايجرؤ على السير فيها منفردا ، والا دهمه اللصوص وقطاع الطرق . هذا فضلا عن التوائه وانثنائه كأنه ثعبان الكوبرا ، وقيام الخرائب والمنازل المتداعية على جانبيه. وكان يضيق بعربتى ترام تسيران جنبا الى جنب

وكانت الحكومات السابقة قد شمرت عن ساعد الجد ، ووسعت شارع الخليج فيما بين ميدان السيدة زينب ، وميدان أحمد ماهر . وقد قضت فى توسيع هذه المسافة أكثر من عشر سنوات . وبقى القسم الثانى الممتد من ميدان أحمد ماهر حتى غمرة كما هو الى أن جاءت الثورة ، فأولت الأمر كل عنايتها ، فأنجز فى عامين اثنين أضعاف ما أنجزته حكومات ما قبـل الثورة فى عشرات السنين

وقد كان انشاء مدخل القاهرة من جهة غمرة ، حافزا للبغدادى أن يسارع بتوسيع شارع الخليج للافادة منه ، كأحد الطرق الرئيسية الموصلة بين مداخل القاهرة وطرفها الجنوبى . وقد واجه فى سبيل تنفيـذ المشرع

---

(١) اصبح اليوم يعرف باسم شارع بورسعيد تخليدا لدفاع اهلها المجيد ضد القراصنة الانجليز والفرنسيين فى نوفمبر سنة ١٩٥٦ عندما هاجموا قناة السويس بعد تاميمها ، فأنزل بهم أهل بورسعيد هزيمة ساحقة

صعابا جمة ، منها هدم سوق الجمالية ، بشارع بين الصورين ، ذلك السوق التاريخي القديم ، الذي تتركز فيه تجارة الجملة للبقالة والعطارة ، وأنواع أخرى من السلع منذ مئات السنين

وبدأ التوسيع من الجنوب الى الشمال ، فهدمت الخرائب والمباني المتداعية ، التي تقوم على جانبيه ، والتي كانت تحول دون الهواء وضوء الشمس من أن ينفذا الى الأحياء المجاورة له ، والتي عاش أهلها أجيالا طويلة محرومين منهما . وأزيل سوق بين الصورين ، وأعيد انشاؤه على قطعة أرض فسيحة ، على مقربة من السوق القديم ، تطل على شارع الخليج الجديد . وقد أصبح شارع الخليج اليوم من أهم شوارع القاهرة وأفخمها ، وميادينه من أجمل ميادين القاهرة وأعمرها . وكان سند هذا العمل الرائع ، الذي يستثير كل اعجاب واكبار ، التفاني والجد والاخلاص

ويجرى الآن توسيع شارع السد في حي السيدة زينب ، ليكون امتدادا لشارع الخليج من ناحية الجنوب حتى فم الخليج ، وبذلك يصبح أطول شوارع القاهرة ، وبواسطته يمكن اختراق المدينة من أقصى شمالها الى أقصى جنوبها في سهولة ويسر ، وفي أقل وقت ممكن

ومن الشوارع الأخرى ، التي تناولها الاصلاح والتجديد الشوارع الآتية :

١ ــ شارع التحرير « الخديو اسماعيل سابقا » : وسع هذا الشارع ابتداء من ميدان كوبرى الجلاء الى خط سكة حديد الوجه القبلي ببولاق التكرور . وقسم الى قسمين : أحدهما للسيارات الذاهبة والآخر للآيبة . وقد كسي الجزء الأوسط من أوله حتى نهايته ببساط سندسي أخضر ، يسر الناظرين . وأضيء ليلا بالأنوار الكهربية القوية . وانك لتستطيع أن تقدر فائدة هذا العمل الجليل ، اذا أنت ركبت سيارة ، وسرت بها من أول هذا الشارع الى آخره ، في مساء يوم من أيام الصيف ، فانك تجد جميع سكان قرية الدقي وما جاورها من القرى ، وقد غادروا بيوتهم وأكواخهم ،

وهرعوا الى هذا المتنزه الجميل ، يفترشون بساطه السندسى، ويستنشقون ريح الطياب التى ترطب أنفاسهم ، وتنعش أرواحهم ، وكأنى بكل خلجة من خلجات نفوسهم ، تدعو للثورة ورجالها المصلحين

٢ ــ شارع الدقى : وتفرع عن توسيع شارع التحرير بالدقى، توسيع شارع الدقى نفسه ، ابتـــداء من ميدان الدقى حتى حديقـــة الأورمان ، وقسمته أيضا قسمين : للذهاب وللاياب

٣ ــ طريق انسيالة بالروضة : وتم انشاء طريق بالروضة ، يصل مابين قصر محمد على ، وقصر المانسترلى

٤ ــ ومد شارع سيدى اسماعيل الامبابى حتى يصل شـــارع النيل بامبابة الى مدينتى العمال بامبابة والأوقاف بالدقى

٥ ــ شارع ابن الحكم : وتم توسيع شارع ابن الحكم الموصل بين المطرية ومصر الجديدة

٦ ــ شارع دوبريه : وتم انفاذ شارع دوبريه ليتصل بشارع الجمهورية

٧ ــ الطريق بين مطار القاهرة الدولى ونفق العباسية : وقد عدل هذا الطريق ، فمنع الترام الأبيض من المرور به ، وقصر على تسيير الأتوبيس ، وخصص جانب للذهاب ، والآخر للاياب . وأنشىء شريط من الحدائق فى وسط الشارع ، تتخلله نافورات على مسافات متقاربة ، هذا مع رصف الطريق بأكمله

٨ ــ طريق المعاهدة : وتم رصف شارع المعاهدة بعد توسيعه ، ابتداء من أول كوبرى مسطرد حتى ميدان المطرية

٩ ــ طريق النزهة : وأنشىء على شـــاطىء النيـــل الغربى ، بمحاذاة حديقتى الفردوس والنهر ، طريق جميل لمن يريدون النزهة سيرا على الأقدام، والتمتع بالخضرة والماء ووجه الطبيعة الجميـــل عند شروق الشمس أو غروبها . ويمتد هـــذا الطريق الشاعرى من كوبرى قصر النيل حتى كوبرى أبى العلاء

١٠ ـ وأنشىء طريق من فم الخليج ليوصل شارع القصر العينى بشارع السيدة عائشة فى حى الخليفة ، ومنه الى القلعة ، ولم يكن ثمت قبل انشاء هذا الشارع طريق يوصل رأسا بين الجيزة وفم الخليج وبين القلعة ، اللهم الا باختراق ميدان السيدة زينب . لذلك يعد الطريق الجديد من أجل المشروعات وأنفعها

وفضلا عن ذلك فقد رصف عدد لا يحصى من الشوارع فى وسط القاهرة وضواحيها ، فاستوت ، وانبسطت ، وأصبح لا نقر بها ولا حفر ، تسير المركبات بها فى سهولة ويسر ، وبلطت أفاريزها بالبلاط الجميل ، وقام على نظافتها عمال مجهزون بمكانس ميكانيكية ، استحضرتها بلدية القاهرة حديثا

انشاء أحياء جديدة

حى الفوالة :

كان هذا الحى وصمة فى جبين القاهرة ، اذ يتكون من عشش ومبان متداعية ، وحارات وأزقة قذرة ، ضيقة ، يفترشها باعة الخضر والفواكه والدجاج والأسماك ، الذين يخلفون وراءهم أكواما من القمامة والفضلات ، تنفث فى جو هذا الحى الروائح الكريهة ، وتبرز الحوانيت بضائعها فى عرض الطريق مما يجعل السير فيه متعذرا

ولو كان هذا الحى قائما فى أحد أطراف المدينة لهان الأمر ، ولكنه يقع فى بقعة يحيط بها أجمل شوارع القاهرة ، كشارع قصر النيل ، وميدان مصطفى كامل ، وشارع محمد فريد (عماد الدين سابقا) ، وشارع رشدى ، وأحفلها بالنشاط الاقتصادى والتجارى ، وتوجد بها كثير من المصارف الهامة كالبنك الأهلى وبنك مصر ، والبنك العربى ، وبنك الجمهورية ، كما توجد بها الأبنية الشامخة والعمارات الفخمة

لذلك لم يكن غريبا أن يسارع الوزير البغدادى فى هدم هذا الحى ، وازالة مبانيه المتداعية ، وعششه الخلقة ، واعادة تخطيطه تخطيطا حديثا ،

يتفق وأهمية الشوارع المحيطة به ، والمبانى الفخمة التى تجاوره . وعما قريب يصبح حى الفوالة الجديد ثمرة شهية من ثمرات الثورة ، التى ينشرح لها الصدر ، وتبتهج لرؤيتها العين

كيمان زينهم :

وهذه الكيمان قد طال عليها الأمد ، فهى بقـايا من مدينتى العسكر القديمة والقطائع، اللتين تدخلتا بعضهما فى بعض، ثم تخربتاهما والفسطاط، بعد الحريق الذى أمر به شاور سنة ٥٦٤ هـ (١١٦٩ م) . فقد ظلت هذه الكيمان قائمة حوالى ثمانية قرون ، وتتوالى الدول والحكومات ، لايفكر أحد منها فى ازالتها ، وتخليص البـلاد من منظرها الكريه، وما يسببه وجودها من أذى وضرر : فهى تزداد حجما يوما بعد يوم ، بما يتراكم عليها من أتربة وبقايا ، حتى صارت معينا للأقذار ، ووكرا للصوص ، وقطـاع الطرق ، ومباءة لأهل الرجس والفساد ، يحتمون فى جحورها من أعين رجال الحفظ والأمن ، ويعتصمون فيها من يد العدالة والقانون . هـذا فضلا عن أن ازالتها تفسح فى رقعة القاهرة ، وتزيد من مساحتها ، وتحل أزمة المساكن ، التى تفاقمت وتعقدت ، حتى غدت أعقد من ذنب الضب

ظلت هذه الكيمان قائمة كالوتد ، لا تقوى حكومة من حكومات العهود الغابرة على مسـها بأذى ، بل ولا تعيرها التفـاتا الى أن جاءت حكومة الثورة ، التى بثت روح التضحية والايثار فى نفوس الشباب ، فسارعت جموعهم ، تحدوهم الرغبة فى تجميل مدينتهم ، وأعملوا سواعدهم الفتيـة فى ازالة تلك الكيمان ، وتسوية الأرض ، وشق الطرق فيها . وكم كان جميلا ، وباعثا على السرور ، أن ترى الشبان وهم يهوون بفؤوسهم على الأحجار فيزعزعونها ، ويقتلعونها من أماكنها ، ويحملونها على ظهورهم وأكتافهم الى أماكن أخرى ، ويدفعون عربات صـغيرة ، محملة بالأتربة والحصى الى الأماكن المنخفضة ليسووها . ألا بارك الله فى الشباب ، الذى يبذل الروح والنفس والقوة فى سبيل رفاهية الوطن ، واعلاء قدره

وقد أمدت الحكومة المدينة الجديدة بالمياه والكهرباء ، وشيدت مساكن شعبية بلغت ألف مسكن ، لذوى الدخل المحدود ، الذين أضرت بهم مشكلة المساكن ضررا بليغا ، كما شيدت ألف مسكن أخرى ، بنهاية لترعة البولاقية ، للأسر الذين زالت مساكنهم فى الأحياء التى هدمت ، والشوارع التى وسعت ، وألفين بمنطقة القبة . وستؤجر جميعها بأجور مخفضة ، حتى يتوفر لشاغليها السكن الصحى الملائم ، بأجر مخفض . وهكذا تكون حكومة الثورة قد تغلبت على مشكلة المساكن ، التى كانت تبدو عسيرة الحل ، بطريقة عملية ، مزدوجة النجاح

تلال المقطم :

وهذه تلال المقطم ، الرابضة فى مكانها منذ فجر التاريخ ، والتى كانت تقف حائلا دون نمو القاهرة وامتدادها من جهة الشرق ، قد طأطأت الرأس للثورة ، واستجابت لدعوتها فى التخلى عن مكانها ، لتسهم فى توسيع رقعة العاصمة ، وتمهيد السبيل أمامها ، للزحف شرقا

وتقع هذه التلال ، كما هو معلوم ، شرقى مدينة القاهرة . ومتوسط ارتفاعها عن مستوى سطح البحر حوالى ١٨٠ مترا . وتتكون من صخور جيرية . وقد وطد الوزير الثائر العزم على ازالة هذه التلال ، وتحويل الهضاب الى منطقة سكنية ، وبقعة سياحية ، اذ أن ارتفاعها يكسب هواءها جودة ونقاء ، لا يتيسران لهواء أية منطقة أخرى ، هذا فضلا عن تمكين قاصديها من استجلاء مفاتن القاهرة وآثارها من ذلك الارتفاع

وسينفذ المشروع على مراحل ، تستغرق كل مرحلة حوالى خمس سنوات . وقد أعد التقسيم الأول ، وهو عبارة عن ثلاث هضاب هى : هضاب القلعة والأهرام والزهراء ، وبدىء فعلا فى تنفيذ مشروع تقسيم هضبة الأهرام ، التى ترتفع عن مستوى سطح البحر بمقدار مائتى مترا ، وأزيلت صخورها لتمهيد الأرض ، ورصفت الشوارع ، وشيد كثير من المنازل ، وجلب الطمى ، وملئت به مساحات واسعة من الفجوات الرخوة فى الهضاب ،

وغرست فيها الأشجار ، ونسقت الحـدائق ، ووضعت المشروعات لمدها بالمياه ونور الكهرباء

ويسير العمل قدما فى تنفيذ مشروع الكازينو العالمى ، وكذلك الفندق والنادى الليلى ، وذلك فى مبنى واحد مساحته أربعة آلاف متر مربع . ولأول مرة سيدخل التلفريك أو المركبات الطائرة الى القـاهرة ، حيث سيستخدم فى نقل الناس من قلب القاهرة الى منطقة المقطم . وقد أعدت لهذا الغرض الآلات والمركبات وهياكل الأعمدة المصنوعة من الصلب . وستبنى محطة القيام فى حديقة الأزبكية ، لتسير منها المركبات فى خط مزدوج مستقيم وعلى ارتفاع حوالى ٢٠ مترا مخترقة شارع الأزهر حيث يمكن النزول فى محطة خاصة ومنها تسير المركبات فى خط مفرد دائرى ، وتمر بمحطات هضبات المقطم المختلفة ثم تعود الى حديقة الأزبكية ، وسيتم تشغيل التلفريك قبل نهاية عام ١٩٥٨ (١)

وهكذا تثبت الثورة مرة أخرى أنها لا تعترف بكلمة مستحيل ، وأنها قد محت هذه الكلمة من قاموسها . اذ من كان يصدق أن تتزحزح تلال المقطم من مكانها الذى ثبتت فيه آلاف السنين

استاد القاهرة :

وكان نقصا معيبا ألا يكون للقاهرة استاد ، يتفق ومكانة مصر العالمية فى الرياضة ، أسوة بمدن العالم الكبرى ، لكى تجرى فيه المباريات الدولية ، ولكى يجتمع فيه شباب مصر ، يعرضون فيه نشاطهم الرياضى ، وينشدون أناشيـدهم الحماسـية ، ويتسع لأكبر عدد من المصريين ، ليشـاهدوا الاستعراضات الرياضية والعسكرية ، والاجتماعات الشعبية ، فى الظروف الوطنية ، والمناسبات التاريخية

ولقد كان استاد القاهرة من أهم الموضـوعات التى عنيت بها حكومة الثورة ، لاتصالها بتربية الشباب التربية الرياضية ، ولاتصالها بعزة البلاد

(١) انظر مجلة الشئون البلدية والقروية العدد الاول

القومية . فعزمت على انشاء مدينة جديدة ، يقام بوسطها الاستاد المنشود. فوقع الاختيار على الفضاء العظيم ، الواقع بين العباسية ومصر الجديدة . لتنشأ فيه مدينة « نصر » ، وليقام فى وسطها استاد يتسع لمائة ألف شخص من المتفرجين ، ولخمسين ألفا من المشتركين فى المهرجانات . وقد روعى فى تخطيط المنطقة أن تسمح بانصراف هذا العدد الكبير من الأشخاص بعد الانتهاء من العرض فى هدوء ونظام ، وفى دقائق معدودات

ولهذا أعيد تخطيط طرق المواصلات المختلفة ، خارج هـذه المدينة ، وربطها بشبكة الطرق المحيطة بها ، كما روعى أن تكون مدينة نموذجية رائعة ، تحيط بها الحدائق الجميلة ، بالاضافة الى مناظر الجبل الأحمر الخلابة، كما ستتخللها النافورات البديعة ، والآثار الفرعونية المختلفة ، لتكون أيضا متنزها للشعب ، يقصد اليه المواطنون للترويح عن النفس ، فى غير أوقات المباريات (١)

وسيتكلف انشاء المدينة ، واقامة الاستاد والملاعب الأخرى المتفرعة عنه ، والمبانى الكثيرة التى ستلحق به خمسة ملايين من الجنيهات . وقد بدىء فعلا فى تنفيذ المرحلة الأولى منها هذا العام . والمأمول أن تتم ، وتصبح حقيقة واقعة سنة ١٩٦٢ ، حيث تقام فيها الاحتفالات بمرور عشرة أعوام على الثورة المباركة ان شاء الله

كوبرى الجامعة :

ولتسهيل انتقال طلاب جامعة القاهرة من قلب المدينة الى الجامعة وبالعكس، وتوفيرا لوقتهم الذى ينفقونه فى الدوران حول منيل الروضـة والجزيرة والجيزة ، للوصول الى جامعتهم، وتخفيفا لضغط المواصلات على الكبارى والشـوارع الموصـلة للجامعـة ، أنشـأت حكومة الثـورة كوبرى الجامعة العلوى ، وهو أطول كوبرى بالقـاهرة ، اذ يبلغ طـوله ٥٠٠ مترا ، وطول مدخليه ٣٠٠ مترا ، وعرضه ٣٠ مترا ، وقد تكلف مليون

(١) انظر مجلة الشئون البلدية والقروية العدد الاول

جنيه ، وهو كوبرى علوى ثابت ، لا يفتح أو يقفل لأغراض الملاحة ، ومع ذلك يسمح للمراكب بأن تسير من تحته ، مقام على سبع دعامات ، ذات فتحات مختلفة الأبعاد

ويصل هذا الكوبرى بين شارع قصر العينى بالقاهرة ، وشارع الجامعة بالجيزة رأسا ، اذ أن مدخله الشرقى يقع على امتداد شارع الأميرالسابق محمد على بالمنيل ، مارا فوق طريق كورنيش جزيرة المنيل ، الواقع خلف مستشفى المنيل الجديد . ويقع مدخل الكوبرى الغربى على امتداد شارع الجامعة بالجيزة ، مارا فوق شارع النيل

وباتمام هذا الكوبرى أصبح ميسورا للراجلين من طلبة كليات جامعة القاهرة وغيرهم الوصول من شارع قصر العينى الى الجيزة فى فترة لاتزيد على عشر دقائق . كما يعمل هذا الكوبرى على تخفيف الضغط عن باقى الكبارى بالعاصمة ، ويساعد على تنظيم حركة المرور . وقد تمّ بناؤه وأعد للمرور فى مايو سنة ١٩٥٨

وقد استتبع انشاء هذا الكوبرى ، واعداد مداخله،اعادة تخطيط عزبة المنيل القديم ، التى تطل على المدخل الشرقى للكوبرى ، وتقسيمها للبناء بشروط معينة ، وهدم الفيللا المقامة على شارع المنيل بالجيزة ، والتى كانت تعترض المدخل الغربى للكوبرى

تحسين طرق المواصلات :

لاريب أن شق الشوارع الجديدة كان خطوة موفقة نحو تحسين المواصلات فى القاهرة . وقد أعقب هذه الخطوة ، تحويل خطوط الترام الى أطراف المدينة . ومصر هىالدولة الوحيدة من بيندول العالم المتمدين، التى ما زالت تستخدم هذا الترام العتيق ، حتى اليوم . وقد استبدلت به الدول الأخرى التروللى باس . وقد شرعت مصر فى اتخاذ العدة لتسيير التروللى باس فى بعض شوارع القاهرة ، تمهيدا لتعميمه فى جميع الشوارع فى المستقبل القريب . لذا طرحت البلدية ، مناقصة فى الأسواق العالمية لهذا

الغرض . وبالتدريج سيحل الترولللي باس محل هذا الترام ، الذى أصبح لايتفق وجلال النهضة الحديثة فى مصر

وقد تخلصت الحكومة من شركات الأتوبيس القديمة ، التى كانت تستنزف أموال الجمهور ، دون مراعاة صالحه ، اذ كانت سياراتها هالكة ، لا تعمد الى تجديدها أو اصلاحها ، وأحلت محلها سيارات جديدة فاخرة مريحة ، يبلغ عددها ٧٠٠ سيارة ، ربطت جميع أطراف المدينة بعضها ببعض ، فصار سكانها ينتقلون من مكان الى مكان فى سهولة ويسر ، وفى وقت معقول ، فى أية ساعة من ساعات الليل أو النهار

كذلك تم تسيير أكثر من ٣٠٠ سيارة أجرة جديدة ، من أحدث طراز . وبهذا تحسنت المواصلات فى القاهرة تحسنا ملموسا ، وحلت مشكلة أخرى من المشكلات التى كانت تقلق بال السكان ، وتقض مضاجعهم ، وتؤثر فى حياتهم اليومية أسوأ تأثير

وفضلا عن تسهيل شارع الكورنيش الانتقال الى ضاحيتى حلوان والمعادى ، فى وقت قصير ، فقد تمت أخيرا كهربة سكة حديد حلوان ، وانتظمت القطارات الذاهبة اليها ، وقصرت المدة الى نحو النصف للقاطنين بهاتين الضاحيتين

المدارس والمساجد المنشأة حديثا

المدارس :

وصلت المدارس الى قبيل قيام الثورة الى حالة يرثى لها . فلقد ازدحمت بالتلاميذ ازدحاما يعوق السير بالتعليم السير المنشود ، واكتظت الفصول بالناشئة اكتظاظا يحول بين المدرسين وأداء واجبهم على الوجه المرضى . وانحصر واجب المدرسين فى فرض النظام على حشود التلاميذ ، الذين تجمعوا فى الأبنية العتيقة ، التى كان يطلق عليها ظلما اسم المدارس . وصار قبول تلاميذ جدد ، فى مفتتح كل عام دراسى من المشاكل التى تواجهها وزارة التربية والتعليم كل عام ، ولكنها لا تستطيع لها حلا . وكل

ما كانت تستطيع عمله هو مضاعفة عدد التلاميذ فى الفصول ، وعدم ترك مرفق من مرافق المدرسة ، دون تحويله الى فصول ، مثل دورات المياه ، والردهات ، والمطاعم . بل وأقيمت أكشاك خشبية فى الأفنية لتكون فصولا . ومع هذا فلم يجد كل ذلك فى حل مشكلة قبول التلاميذ . والغريب أن تعلن الحكومات المتعاقبة كل عام ، أنها دبرت أماكن لجميع التلاميذ ، ولا يوجد تلميذ بدون مكان ، الى غير ذلك من أقوال الدعاية ، التى كانت تتذرع بها لتوطيد مراكزها ، ودفع النقد عنها

والواقع انه منذ انقضاء الحرب الأوربية الثانية سنة ١٩٤٥ م . حتى قيام الثورة سنة ١٩٥٢ م لم تبن مدرسة واحدة فى القاهرة ، وكانت الطريقة التى تتبعها وزارة التربية والتعليم ، كلما وجدت حاجة الى انشاء مدرسة جديدة ، هى استئجار المنازل ، وتحويلها الى مدارس ، بأجور مرتفعة ، كثيرا ما تكون الشفاعة والمحسوبية وغيرهما من الطرق التى كانت متبعة فى الحكومة اذ ذاك ، العامل الأول فى استئجارها . ولا تفكر الحكومة فى استغلال الأراضى الفضاء والخرائب ، فى بناء المدارس. ويصرح المسئولون فى وزارة التربية بملء أفواههم أن سياسة الاستئجار أوفر وأكثر اقتصادا من تشييد المدارس . ومعلوم أن المنزل مهما كان حظه من الفخامة ، ومهما زركشت سقوفه وجدرانه ، وكان له حديقة يانعة ، فانه لا يصلح حتما لأن يكون معهدا من معاهد التعليم ، لأن لهذه شروطا خاصة تستلزمها طرق التربية ، لا تتوفر فى المنازل أو القصور ، مهما كان حظها من الفخامة

لذلك واجهت وزارة التربية والتعليم فى عهد الثورة مشكلة تتطلب حلا سريعا ، وعلاجا ناجعا . فعملت على انشاء مؤسسة لأبنيــة التعليم ، عهدت اليها بأن تنشىء بأموالها فى كل سنة ٤٠٠ مدرسة خلال عشر سنوات ، فى جميع أنحاء الجمهورية ، وبذلك يكون لنا فى تمام عشر سنوات أربعة آلاف مدرسة جديدة ، يكمل بها عدد المدارس الابتدائية عشرة آلاف مدرسة ، تتسع لتعليم أبناء الشعب وبناته

وقد باشرت هذه المؤسسة عملها فى جد وتفان ، فأنشأت بضع مئات من المدارس الابتدائية ، تصلح كل منها أن تكون بعد ساعات الدراسة ، ناديا ومركزا اجتماعيا عاما . وقد خص القاهرة من تلك المدارس بضع عشرات ، أنشئت فى أحياء شبرا والعباسية وعابدين ، والسيدة زينب ، والخليفة ، ومصر القديمة ، والدقى ، والعجوزة ، والزمالك وغيرها

والمدارس الجديدة أنموذج جيد لما يجب أن تكون عليه هندسة المدارس ، وتحمل طابعا يتفق وروح الثورة المجددة المتحررة . فهى فضلا عن متانة جدرانها ، يتخللها النور وضوء الشمس ، وتتوفر فيها أسباب الصحة ، وتستكمل جميع المرافق اللازمة للمدرسة كى تؤدى رسالتها على الوجه الأكمل ، ولتكون مركزا للاشعاع فى الحى الذى تقوم فيه ، اذ أن أفنيتها الواسعة تكفل لأهل الحى أن يجتمعوا بهيئة التدريس فى المدرسة لدراسة مشاكل أبنائهم وبناتهم ، وللاستماع الى محاضرات عامة توسع من ثقافة أهل الحى ، ولحضور الحفلات التى تقيمها المدرسة ، كى يقف أولياء الأمور على مدى نشاط أبنائهم فى النواحى الاجتماعية والثقافية والرياضية

المساجد :

وقد كانت بعض الأحياء خالية من المساجد ، فيضطر سكانها لاقامة الصلاة على قطع من الأرض الفضاء ، يسورونها بما تيسر من البوص والغاب وقطع الأخشاب والأحجار

لذلك سارعت وزارة الأوقاف الى سد هذا النقص ، وشيدت فى كل حى من تلك الأحياء مسجدا ، بسيط المظهر ، ولكنه جميل فى محتوياته وأثاثه وزخارفه : أحدها فى الروضة ، وثانيها فى الدقى ، وثالث بالزمالك ، ورابع بمنتصف شارع النزهة ، المحاذى لحديقتى الأندلس والنهر ، وخامس بميدان التحرير ، تخليدا لذكرى زعيم المقاومة الشعبية ، والكرامة الوطنية ، المرحوم السيد عمر مكرم

وحرصت وزارة الأوقاف على أن تكون هذه المساجد بيوتا للعبادة ،

ودورا للتثقيف الديني . فزودتها بمكتبات تجمع بعض الكتب الدينية ، من مصاحف وكتب التفسير والفقه ، ورتبت فيها دروسا دينية ، يلقيها بعض علماء الدين

وألحقت بهذه المساجد مظلات جميلة ، حتى لا يصلى الناس على الأفاريز ، وفي عرض الطريق ، اذا ما ضاق بهم المسجد ، وانما يصلون تحت هذه المظلات ، التي تحميهم من وهج الشمس صيفا ، ومن المطر شتاء

المباني المجمعة :

ويشاهد زائر القاهرة اليوم مباني ، غاية في الضخامة والمتانة والارتفاع ، لا عهد لها بها ، يشبه الواحد منها قصر التيه أو اللابيرانت الذي بناه امنمحيت الثالث ، عند هوارة في الفيوم . بل انه يشبه قلعة ضخمة أو مدينة عظيمة

وهذه المباني المجمعة على نوعين : أحدهما حكومي ، يضم عددا كبيرا من مصالح الحكومة وفروعها ، كمبنى المجمع بميدان التحرير ، ومبنى وزارة الصحة بشارع مجلس الأمة . ونوع ثان قامت بتشييده وزارة الأوقاف ، اسهاما منها في تفريج أزمة السكن ، واستثمارا لأراضيها الفسيحة ، واستغلالا لأموالها المدخرة ، في المشروعات الوطنية النافعة . فأنشأت مجمعين عظيمين بحي الدقي

وقد أعدت مشروعات لانشاء مجمعات أخرى ، تكون بمثابة مدن مستقلة ، لما يتوافر فيها من أنواع الحياة ووسائلها ، من أسواق وشركات ومصارف ومكاتب وغيرها . وأول هذه المشروعات مدينة العتبة والآخر عمارات شبرد

وأنشأت وزارة الأوقاف أيضا عددا من العمارات السكنية الحديثة ، في أحياء مختلفة من مدينة القاهرة ، لكي ينتفع بها المواطنون على اختلاف طبقاتهم ، فزادت من جمال القاهرة وبهائها ، ولأنها بنيت مكان خربات ومباني متهدمة ، كانت تؤذي النظر ، ولا تسر النفس . وقد تم خلال العام الماضي والحالي من هذه العمارات :

عمارة الرفاعى بالقلعـة ، وعمارة بامبابة ، وثالثة بأرض النقشبندية بشارع درب الجماميز ، ورابعة بجوار مدفن الشيخ بركات بجاردنسيتى، وخامسة شرقى سوق الخضر بالعتبة ، وسادسة بميدان الخازندار . وهناك عمارات فى دور الاعداد والتنفيذ ، منها عمارة شارع ماسبيرو بالقاهرة

— ٤ —

القاهرة مركز الحكم للجمهورية العربية المتحدة

ظلت القاهرة منذ نشأتها الأولى ، حتى اليوم ، أى منذ حوالى ألف عام ، مقر الحكم . وهى اليوم عاصمة الجمهورية العربية المتحدة الفتية ، ومركز الحكومة الاتحادية أو الهيئة التنفيذية ، ومكان الهيئة التشريعية أو مجلس الأمة ، ومستقر قيادة الجيش الباسل

ونظرا لأن نظام الحكومة الحالى فى الجمهورية العربية المتحدة هو النظام الجمهورى الرئاسى ، أى أن رئيس الجمهورية هو رئيس الهيئة التنفيذية ، أو بمعنى آخر رئيس الوزراء ، فان رئيس الجمهورية على هذا الاعتبار يقيم فى القصر الجمهورى ، بميدان الجمهورية أو القصر الجمهورى بالقبة ، ويقيم باعتباره رئيس الهيئة التنفيذية فى مبنى رئاسـة مجلس الوزراء ، القائم فى نهاية شـارع مجلس الأمة ، عند التقـائه بشارع القصر العينى ، وأمام مبنى مجلس الأمة

. وتتألف الهيئة التنفيذية من الوزارات المختلفة . وتقع أغلبها فى حى الوزارات ، فى المنطقة التى يحدها من شرقيها شارع نوبار (باشا) ، ومن غربيها شارع القصر العينى ومن جنوبيها شارع المبتديان ومن شماليها شارع الشيخ ريحان . فتوجد فى هذه المنطقة وزارة الداخلية ، ووزارة الصحة ، ووزارة العدل ، ووزارة المـالية والاقتصاد ، ووزارة التربيـة والتعليم ، ووزارة الدفاع ، ووزارة التجارة ، ووزارة الأشغال ، ووزارة

المواصلات ، ووزارة الشئون البلدية والقروية والتخطيط ، ووزارة الشئون الاجتماعية ، ووزارة التموين ، ورئاسة مجلس الوزراء

وتوجد الوزارات الأخرى خارج هذه المنطقة : فتقع وزارة الزراعة فى حى الدقى بالجيزة ، وكذلك وزارة الصناعة اذ تقع بشارع التحرير بالقرب من كوبرى التحرير « الكوبرى الانجليزى سابقا » ، ووزارة الارشاد القومى ، واللجنة العليا للاصلاح الزراعى فى القصر الجمهورى ، ووزارة الخارجية بميدان التحرير بالقرب من كوبرى قصر النيل (كوبرى التحرير حاليا) ، ووزارة الأوقاف بشارع محمد صبرى أبو علم بالقرب من ميدان الأزهار

ولكل من هذه الوزارات مصالح وادارات تابعة لها ، ومتفرعة عنها ، منبثة فى قلب المدينة أو قائمة فى ضواحيها ، فى مبان خاصة بها . غير أن كثيرا منها يوجد بمبنى المجمع بميدان التحرير ، وهو يضم عددا كبيرا من المصالح الحكومية ، التابعة لوزارات مختلفة ، كما يوجد بمجمع وزارة الصحة ، بشارع مجلس الأمة كثير من المصالح التابعة لوزارة الصحة. وبعمارة التأمين بميدان لاظوغلى كثير من المصالح التابعة لوزارات كثيرة . وبحى الدقى والجيزة أغلب المصالح التابعة لوزارة الزراعة

مجلس الامة :

ويوجد مجلس الأمة بسراى وزارة الأشغال ، فى الناحية القبلية منها ، بشارع مجلس الأمة ، تجاه مبنى رئاسة مجلس الوزراء . وقد كان يجاوره مبنى مجلس الشيوخ ، الذى تحول الآن ، بعد أن ألغى ذلك المجلس ، الى مقر المجلس الدائم للخدمات العامة

ثكنات الجيش المصرى :

وتوجد ثكنات الجيش المصرى فى المنطقة الممتدة من العباسية حتى منشية البكرى ، وعلى طول الطريق الموصل بينهما ، وعلى كلا جانبيه ،

يبهر ناظريك ، الحصون والقلاع ، والثكنات والمعسكرات ، تعج بالمدافع والدبابات والأسلحة المختلفة ، وترى الجنود والضباط والقواد فى حركات دائبة ، ونشاط مستمر ، الكل على أهبة الاستعداد ، لكل طارىء مفاجىء وفى مصر الجديدة والماظة ، توجد ورش الجيش ومصانعه ، وحظائر الطائرات والمطارات الحربية والمدنية ، وترى أسراب الطائرات تحوم فى سمائها ، وتقطع سكون الفضاء بأزيزها

وقد شيد للمدرسة الحربية أخيرا مبنى ضخم بمصر الجديدة ، يتفق وروح الثورة ، من حيث ضخامته واتساعه ، وفخامته ومتانة بنيانه . وتوجد كلية الطيران بمدينة بلبيس ، على مسيرة ساعة تقريبا من القاهرة

جامعة الدول العربية :

ونظرا لما تعلقه الدول العربية على مصر من أهمية فى ادراك أمانيها ، وبلوغ أهدافها ، وتمكين للقومية العربية ، واعلاء لشأن العرب ، واستعادة حضارتهم القديمة ، فقد اتفقت على أن يكون مقر جامعة الدول العربية والادارات المتصلة بها بمدينة القاهرة . فيوجد مبنى الجامعة فى قصر البستان بشارع يوسف الجندى بالقرب من ميدان الأزهار . كما يوجد قصر الضيافة التابع للجامعة بسراى المناسترلى بالروضة

المؤتمر الاسلامى :

كذلك انتهى التفكير الى ضرورة قيام هيئة تربط بين الدول الاسلامية بعضها ببعض ، بصرف النظر عن جنسياتها ، ودون التقيد بجامعة الدول العربية ، فقامت أخيرا هيئة المؤتمر الاسلامى ، وكان طبيعيا أن يكون مقرها القاهرة ، قلب العالم الاسلامى النابض ، وقطب رحاه . وواسطة العقد بين هذه الدول ، وساحة لقائها . وقد اتخذ المؤتمر الاسلامى مقرا له بحى الزمالك بشارع حسن صبرى

الاقسام الادارية لمدينة القاهرة

الاقسام الادارية ، ومساحة كل قسم ، وعدد السكان حسب الاحصاء العام لسنة ١٩٤٧ (١)

الاقسام والشياخات	مساحة الشياخة بالكيلو متر المربع	عدد السكان	جملة عدد السكان
الازبكية : وتشتمل على الشياخات الآتية : التوفيقية • الجيارة • الزهار • الظاهر • الفجالة • القبلية • القللى . قنطرة الدكة . كلوت بك	١ر٧٠٣	٧٥٤٢٢	
الجمالية : وتشتمل على الشياخات الآتية : البيرقدار • الجمالية • الخرنفش • الخواص • الدراسة • السلطان برقوق • الشعرانى • العطوف • الكوردى • المشهد الحسينى • اليهود الربانيين • اليهود القرائين • باب الفتوح • بين السورين • خان الخليلى • قايتباى • قصر الشوق	٤ر٤٦٩	١٠٧٦٩٢	
الخليفة : وتشتمل على الشياخات الآتية : الامامين • البساتين • البقلي • التونسى • الخطابة • الحلمية • الخليفة السيدة عائشة . الصليبة • القادرية • المحجر • درب الحصر • درب غزية • عرب اليسار	٢٥ر٤٢٠	١٢٢١٩٤	
الدرب الاحمر : ويشتمل على : الازهر • الباطنية • الحمزاوى • الداودية • الدرب الاحمر • السروجية • العمرى • الغريب • الغورية • القربية • المجاورين • المغربلين • باب الوزير • تحت الربع • حارة الروم • درب سعادة • درب شغلان • سوق السلاح	٢ر٧١٠	١٢٢٠٨٠	٤٢٧٣٨٨

١ ــ تعداد سكان المملكة المصرية (الجمهورية المصرية) لسنة ١٩٤٧ ، الجزء الاول ، الكراسة رقم ١٥ ، محافظة القاهرة .

الاقسام والشياخات	مساحة الشياخة بالكيلومتر المربع	عدد السكان	جملة عدد السكان
السيدة زينب : ويشتمل على الشياخات الآتية : الانشاء • البغالة • الحنفى • الدرب الجديد • السباعين • السيدة زينب • العتريس • العينى • الكبش • جاردن ستى • خيرت • درب الجماميز • زينهم • سنقر • طولون	٤ر٠٥٠	١٩٢٧٠٥	٤٢٧٣٨٨
الموسكى : ويشتمل على : العشماوى • كوم الشيخ سلامة • المناصرة • درب الجنينة • درب المهابيل	٠ر٥٨٨	٣٥ ٩٦٣	
الوايلى : يشتمل على الشياخات الآتية : الحدائق • الخاصة • الدمرداش • الزعفران • السرايات • السكاكينى • العباسية البحرية • العباسية الشرقية • العباسية الغربية • العباسية القبلية • القبيسى • المحمدى • الوايلى • بين الجناين • جناين الوايلية • حدائق القبة • غمرة • كوبرى القبة • منشية الصدر	١٥ر٧٧٨	٢٠٧٣٨٠	
باب الشعرية : ويشتمل على الشياخات الآتية : البنهاوى • الجامع الاحمر • الرملى • الشنبكى • العوالى • الطمار . العدوى . الفاروقية . المنسى • باب البحر • باب الشعرية . بركة الرطلى . درب الاقماعية • درب النوبى • درب مصطفى • سيدى مدين	١ر١٨٤	١٣٢٨٢٤	٩٩٦٢٦٠

الاقسام والشياخات	مساحة الشياخة بالكيلو مترالمربع	عدد السكان	جملة عدد السكان
بولاق : ويشتمل على الشياخات الآتية : أبو العلا • الاحمدين • الترجمان • الجلادين • الجواير • الحوتية • الخطيري • السبتية • السنديبسي • الشيخ علي • العدوية • الفرنساوي • القلاية • تاج الدول. جزيرة امبابة. جزيرة ميت عقبة • خوض الزهور • درب الشيخ فراج • درب نصر • سنان باشا • سوق العصر • شركس • عزبة عبد النعيم • عشش النخال• كفر الشوام• كفر الشيخ اسماعيل • ميت عقبة • ميت كردك	١٣ر٧٠٨	٢٣٢٤٢٣	٩٩٦٢٦٠
روض الفرج : ويشتمل على الشياخات الآتية : ابن الرشيد • اسعد • ساحل روض الفرج • قصورة الشوام • المبيضة • برهام • جزيرة بدران• روض الفرج • طوسون	٤ر٧٨٩	١٩٣٩٠٦	
شبرا : وتشتمل على الشياخات الآتية : الاميرية • البراد • الزاوية الحمراء • الشرابية• الشماشيرجي العزب • جسر شبرا • شريف باشا • منية السيرج	٢٥ ٧١٨	٢٢٧ ٠٠٣	
عابدين : وتشتمل على الشياخات الآتية : الاسماعيلية • البلاقسة • الجزيرة الجديدة • الجيزة • الخرطة الجديدة • الدقي • الدواوين •			١ر٦٤٩٥٩٢

الاقسام والشياخات	مساحة الشياخة بالكيلو متر المربع	عدد السكان	جملة عدد السكان
الزمالك البحرية • الزمالك القبلية • المساحة • الشيخ عبد الله • الفوالة • باب اللوق • بين السرايات • ثروت باشا • حارة السقايين • خرطة البرنسات • رحبة عابدين • عبد الرحيم صبرى • عجوزة الزمالك • عجوزة الصعايدة • عجوزة الكفاروة • عزبة البرنسيسة فاطمة هانم • غيط العدة • قصر الدوبارة . محطة بولاق الدكرور . معروف	٦ر٨٠١	١٥٩٣٠٠	١ر٦٤٩٥٩٣
مصر الجديدة : وتشتمل على الشياخات الآتية : البستان • الحلمية • الزيتون الشرقية • الزيتون الغربية • الزيتون القبلية • العزب • الماظة • المطرية • المنتزه • تل الحصن • خارجة المطرية • عرب الطوايلة • عزبة النخل • عين شمس الشرقية • عين شمس الغربية • كفر فاروق • منشية البكرى	٥٥ر٠٦٦	١٦٤٩١٩	
مصر القديمة : وتشتمل على الشياخات الآتية : أبو السعود والمدابغ • أثر النبى • الانور . الخوخة والقناية . الديورة • الروضة • الكفورة وساعى البحر • المعادى • المنيل • دار السلام • فم الخليج • كوم غراب	١٦ر٦٤٨	١١٦٨٤٣	
	١٧٨ر٦٣٢ ك • م م		٢,٠٩٠,٦٥٤ نسمة

- ٦ -

القاهرة مركز الثقافة فى مصر

مركز مصر الثقافى فى الشرق :

تسنمت مصر فى القرن الحالى مركز الزعامة فى المحيطين العلمى والثقافى، فى الشرق عامة ، والعالم الاسلامى خاصة ، عن جدارة واستحقاق ، بما أنجبت من علمــاء ومفكرين وكتاب وأدباء وشــعراء وفقهاء ومن رجال القانون ، وما تزخر به المكتبة العربية من بحوث علمية ، ورسالات أدبية ، ودراسات فقهية ، وموضوعات تاريخية وجغرافيــة وفلسفية ، وقصص طويلة وقصيرة ، موضوعة ومترجمة عن اللغات الأخرى ، وما تخرجه المطابع المصرية من صحف ومجلات ودوريات ، بلغت حدا كبيرا من الأناقة ، وحسن التبويب ، وغزارة المادة ، وقوة الأسلوب ، ووفرة ما أنشىء فيها من معاهد ثقافية ، وجمعيات علمية ، ومحافل أدبية ، ونواد اجتماعية تضرب فى كل فن من فنون العلم والمعرفة . وقد شاركها فى هذه النهضة أعلام الثقافة ممن أنجبتهم البلاد العربية الشقيقة

ولقد تركزت النهضة العلمية ، والحركة الثقافية فى القاهرة ، حتى غدت بحق منار العلم ، ومبعث النور فى الشرق الاسلامى . منها تنتشر شمس الحضارة والعلم على ربوعه ، ويفد عليها طلابه من كل حدب وصوب ، يرتشفون العلم فى معاهدها ، وينهلون من معين معرفتها . ثم يعودون الى بلادهم لينشروا ما تعلموه بين أهليــهم ومواطنيهم ، ذاكرين لمصر كرم ضيافتها ، وحسن وفادتها ، وفتحها لهم أبواب معاهدها على مصاريعها ، وتيسير مهمتهم بكل ما أوتيت من جهد

جامعة القاهرة :

وفى الأورمان بالجيزة ، وعلى مسيرة نصف ساعة من قلب القاهرة ، تقوم كالطود الشامخ جامعة القــاهرة ، أم الجامعات المصرية ، وأكبر جامعات

الشرق ، بكلياتها الاحدى عشرة ، على مساحة كبيرة من الأرض ، وهذه الكليات هى :

١ ـ كلية الآداب ٢ ـ كلية الحقوق ٣ ـ كلية التجارة ٤ ـ كلية العلوم ٥ ـ كلية الطب البشرى ٦ ـ كلية الصيدلة ٧ ـ كلية طب الأسنان ٨ ـ كلية الهندسة ٩ ـ كلية الزراعة ١٠ ـ كلية الطب البيطرى ١١ ـ كلية دار العلوم

وتوجد جميع هذه الكليات بالأورمان ، فيما عدا كلية دار العلوم التى توجد فى حى المنيرة ، وكليات الطب ، وطب الأسنان ، والصيدلة ، فتوجد فى القصر العينى ، والمستشفيات الجامعية ، وتوجد فى منيل الروضة ، وقسم الجغرافيا التابع لكلية الآداب وقسم الآثار فيوجدان فى ميدان الرماحة ، بشارع الجيزة

وتوجد مبانى كليات الحقوق والآداب والتجارة والعلوم ، وكذا الادارة العامة ، والمكتبة الرئيسية على مساحة من الأرض ، تبلغ أربعة وأربعين فدانا . وتشغل مبانى المستشفيات الجامعية وملحقاتها بمنيل الروضة أربعة وأربعين فدانا أخرى (١) . أما كليات الهندسة والزراعة والطب البيطرى ، فتوجد فى مبان منفصلة بالجيزة ، قريبة من المبنى العام

قاعة الاحتفالات الكبرى بجامعة القاهرة :

وملحق بمبنى الادارة العامة قاعة كبرى للحفلات والمؤتمرات الدولية ، والمحاضرات العـامة ، مسـاحتها ٣١٠٦ مترا مربعا ، تتسع لنحو ٣٥٠٠ شخصا ، وقد أعدت اعدادا خاصا للاذاعة ولعرض الأشرطة السينمائية

المكتبة العامة :

ويوجد فى حرم الجامعة مبنى المكتبة العامة ، فى بناء كبير مستقل ، على أحدث طراز ، خلف كلية الآداب . وتشـتمل على كل ما هو محفوظ فى

(١) تقويم جامعة القاهرة ١٩٥٤ ـ ١٩٥٥

المكتبة الرئيسية وفى المكتبات الفرعية بالكليات من الكتب المطبوعة والمخطوطة ، والنشرات الدورية ، والجرائد والخرائط والنماذج ، والصور الحفرية والفوتوغرافية ، والنقود والأنواط وأوراق البردى والأحجار الأثرية ، والأشرطة السينمائية وأشرطة التسجيل ولوحات الفانوس السحرى وغير ذلك

وتزيد مجموعة الكتب التى تحويها المكتبة الرئيسية وحدها على ٢٢٥,٠٠٠ مجلد فى مختلف الآداب والعلوم والفنون ، باللغات الأوربية والعربية والتركية والفارسية والأردية والحبشية وغيرها . هذا عدا مجموعات كبيرة من المجلات العلمية والمجلات ذات الصفة العامة ، مثل مجلات الآداب والفنون والاجتماع

ولما كانت جميع كليات الجامعة غير موجودة فى مكان واحد ، فقد أنشئت مكتبات فرعية فى مختلف الكليات ، بلغ عددها خمس عشرة مكتبة. وباضافة الكتب التى توجد بالمكتبات الفرعية الى مجموعات الكتب المحفوظة بالمكتبة الرئيسية، يبلغ المجموع أربعمائة وستة وثلاثين ألف مجلد

المعاهد الملحقة :

ويتبع بعض كليات الجامعة معاهد عالية ، أهمها :

١ ــ كلية الآداب ويتبعها معهد الدراسات الافريقية السودانية

٢ ــ كلية الحقوق : ويتبعها معهد الدراسات الجنائية ومعهد الدراسات الادارية والمالية ، ومعهد العلوم السياسية

٣ ــ كلية العلوم : ويتبعها معهد الأرصاد الجوية بحلوان ، ومعهد علوم البحار بعتاقة بالسويس وتتبعه محطة الأحياء البحرية بالغردقة

٤ ــ كلية الطب : ويتبعها معهد القاهرة للصحة وطب البلاد الحارة والمستشفيات الجامعية بمنيل الروضة ، ومدرسة المولدات والممرضات بمستشفى قصر العينى

استاد الجامعة :

وللجامعة استاد كبير يشتمل على ميادين وساحات للألعاب الرياضية ملحق به أبنية فخمة لاجتماع الاتحادات الرياضية ، وادارة شئونها . وهذا الاستاد والمبانى الملحقة به مقام على مساحة من الأرض تبلغ ثلاثة وأربعين فدانا ، فى الجهة الغربية من شارع عبد الخالق ثروت بالجيزة

المدينة الجامعية :

أنشئت هذه المدينة على اثنى عشر فدانا فى الاستاد الجامعى ، لسكنى الطلاب والطالبات ، ممن يفدون على الجامعة من خارج القاهرة ، اسوة بجامعات أوربا الكبرى . وقد تم الى الآن من المدينة الجامعية مبنيان ، وكذلك مبنى المطعم والنادى . والجامعة فى سبيل اتمام بقية مبانى المدينة

مطبعة الجامعة :

كانت الجامعة تعتمد فى انجاز مطبوعاتها على المطبعة الأميرية ، وبعض المطابع الأهلية ، حتى أواخر سنة ١٩٤٥ ، حيث أنشئت للجامعة مطبعة خاصة ، تقوم بطبع جميع المطبوعات الادارية بالجامعة وبقية الكليات ، وكذلك الرسائل والمجلات والكتب والأبحاث العلمية

حفائر الجامعة :

تقوم كلية الآداب ، بجامعة القاهرة ، بدراسات عملية للكشف عن تاريخ مصر القديم ، واستجلاء حقائقه . ولذلك تقوم بعثات تابعة للكلية بالحفائر فى ثلاث مناطق ، تمثل كل منطقة عصرا خاصا هى :

١ ـــ حفائر المعادى ، وتمثل عصر ما قبل التاريخ ٢ ـــ حفائر الأهرام ، وتمثل عصر صدر التاريخ الفرعونى ٣ ـــ حفائر تونا الجبل ، وتمثل نهاية العصر الفرعونى وبداية العصر اليونانى

وقد نجحت البعثات الثلاث فى الكشف عن حقائق خطيرة ، أضافت الى تاريخ مصر القديم معلومات هامة . وما تزال تواصل عملها فى صبر واناة

جامعة عين شمس :

وفى حى العباسية ، شمال شرقى القاهرة ، توجد الجامعة الثانية فى القاهرة ، وهى جامعة عين شمس ، وتشتمل على عدد من الكليات مماثل لعدد الكليات فى جامعة القاهرة بنقص كليتين هما : كليتا الطب البيطرى ، والصيدلة ، وزيادة معهدين للتربية : أحدهما للبنين ، والثانى للبنات

وتوجد الادارة العامة لهذه الجامعة بمبنى سراى الزعفران بالعباسية ، كما توجد به أيضا كلية العلوم . وتوجد كليتا الحقوق والهندسة بشارع السرايات بالعباسية . وتوجد كلية الآداب بشارع شبرا ، وكلية التجارة بشارع اسماعيل سرى بالمنيرة ، وكلية الطب بمستشفى الدمرداش بشارع نهضة مصر « الملكة سابقا » ومعهد التربية للمعلمين بشارع أمين سامى بالمنيرة ، ومعهد التربية للمعلمات بشارع اسماعيل محمد بالزمالك ، وكلية الزراعة بمسطرد

المعاهد العليا :

وبالاضافة الى هاتين الجامعتين ، توجد معاهد عالية أخرى ، تشرف عليها وزارة التربية والتعليم مباشرة هى :

١ ـ كلية المعلمين العليا بمنشية البكرى ٢ ـ المعهد العالى للتربية الفنية للمعلمين ٣ ـ المعهد العالى للتربية الرياضية للمعلمين بالهرم ٤ ـ المعهد العالى للتدبير المنزلى والفنون للفتيات ببولاق ٥ ـ المعهد العالى لمعلمات الموسيقى ٦ ـ المعهد العالى للفنون الجميلة للمعلمات ببولاق ٧ ـ المعهد العالى للتربية الرياضية للمعلمات بالجزيرة ٨ ـ المعهد العالى للخدمة الاجتماعية للفتيات بجاردن سيتى ٩ ـ كلية الفنون الجميلة بالزمالك ١٠ ـ كلية الفنون التطبيقية بالأورمان ١١ ـ المعهد العالى لفن

التمثيل ١٢ ــ المعهد العالى للموسيقى ١٣ ــ مدرسة الخدمة الاجتماعية بالقاهرة ١٤ ــ مدرسة الألسن بالدقى ١٥ ــ المعهد الثقافى العالى للبنات بالزمالك

الجامعة الازهرية :

وتوجد الجامعة الأزهرية التى ما زالت تؤدى رسالتها منذ عشرة قرون فى شرق القاهرة . فى حى الأزهر . وتوجد الادارة العامة فى مبنى ضخم مقابل للجامع الأزهر . وفيما يلى بيان بالمعاهد والكليات التى تنتظمها الجامعة الأزهرية :

١ ــ القسم العام بالأزهر الشريف ٢ ــ معهد القاهرة بالدراسة ٣ ــ معهد البحوث الاسلامية بشارع البرمونى بحى عابدين ٤ ــ كلية الشريعة الاسلامية بالدراسة ٥ ــ كلية اللغة العربية بالدراسة ٦ ــ كلية أصول الدين بشبرا . ــ هذا عدا أقسام الاجازات ومعهد القراءات

مدارس التعليم العام :

وتوجد بالقاهرة ، بالاضافة الى معاهد التعليم العالى مدارس لجميع مراحل التعليم الأخرى : ابتدائية وثانوية وفنية ، وفيما يلى بيان بمدارس القاهرة ، علما بأنه نظرا لاتساع القاهرة فى الوقت الحالى ، فقد قسمت الى منطقتين : شمالية وجنوبية (١) ، وتشرف على مدارس كل قسم ادارة تعليمية خاصة : المنطقة التعليمية للقاهرة الشمالية ومقرها بالعباسية ، والمنطقة التعليمية للقاهرة الجنوبية ومقرها بمبنى المجمع بميدان التحرير :

---

(١) قسمت القاهرة اخيرا الى ثلاث مناطق تعليمية هى : القاهرة الشمالية والقاهرة الوسطى والقاهرة الجنوبية ، ووزعت مدارس القاهرة ومعاهدها التعليمية على هذه المناطق الثلاث . واتخذت منطقة القاهرة الوسطى مقرا لها بشارع شبرا

	نوع التعليم (١)	عدد المدارس	عدد الفصول	جملة التلاميذ بنون	بنات	الجملة العامة
١	حضانة	٦٠	٠١٤٢	٢٩٢٧	١٨٤٤	٤٧٧١
٢	ابتدائى أميرى	٢٨٦	٣٠١٥	٨١٦٠٧	٥٨٤٣٢	١٤٠٠٣٩
٣	« حر معان	٣٥٠	٢٦٣٢	٥٩٠٥٤	٣٣٠٩٩	٩٢١٥٣
٤	« « غير معان	١١٣	٠٤٣٤	٩١١٨	٥١٤٦	١٤٢٦٤
٥	معاهد شواذ ومؤسسات	٢٦	٠١٣٨	١١٣١	٢١٢٦	٣٢٥٧
٦	ابتدائى راق	٠٤	٠٠٤٢	٠٤٣٠	٩٩٦	١٤٢٦
٧	اعدادى أميرى	٨٢	١٢٤٣	٢٧٤٢١	١٥٣٥٥	٤٢٧٧٦
٨	« حر معان	٩٨	٠٧٠٥	١٩١١٣	٩٨٧٢	٢٨٩٨٥
٩	« « غير معان	٢٥	٠٠٩٠	١٥٤٥	٨ ٥	٢٣٨٠
١٠	ثانوى أميرى	٣١	٠٦٦٤	١٧٠٦٥	٥٥٢٨	٢٢٥٩٣
١١	« حر معان	٢٤	٠٢٦٨	٦٣٩٠	١٤٢٣	٧٨١٣
١٢	« « غير معان	٠٣	٠٠٢٦	٨٠٨	٢٦٨	١٠٧٦
١٣	اعدادى فنى صناعى	٠٥	٠٠٩٧	٩٥٤	—	٩٥٤
١٤	« فنى تجارى	٠٢	٠٠٠٨	—	٢١٦	٢١٦
١٥	ثانوى فنى صناعى	٠٦	٠١٤٩	١٩١٩	—	١٩١٩
١٦	« « تجارى	٠٦	٠٠٩٩	١٨٩٦	٥٦٣	٢٤٥٩
١٧	« « زراعى	٠١	٠٠١٠	٢٢٠	—	٢٢٠
١٨	« « نسوى	٠٥	٠٠٦٧	—	١٥٥٣	١٥٥٣
١٩	معلمين ومعلمات عامة	٠٨	٠١٢١	١١٢٠	٢٨٦٢	٣٩٨٢
٢٠	« « خاصة	٠١	٠٠١٥	٥٠٦	—	٥٠٦
٢١	« « فرنسية	٠٢	٠٠٢١	٤٤٩	٢١١	٦٦٠
٢٢	مدارس أجنبية	٩٣	١٣٥٠	١٧٢٧٤	٢٤٧٥٨	٤٢٠٣٢
	الجملة	١٢٤٣	١١٣٠٦	٢٥٠٩٤٧	١٦٥٠٨٧	٤١٦٠٣٤

(١) المفكرة الاحصائية للتعليم ، الصادرة عن ادارة الاحصاء بوزارة التربية والتعليم المصرية ، للعام الدراسى ١٩٥٥ — ١٩٥٦

الهيئات الثقافية العلمية

وفى القاهرة عدد غير قليل من الهيئات التى تسهم فىخدمة العلم والثقافة العامة ، يتوفر أعضاؤها على الدرس والبحث ، وتلقى فيها المحاضرات العامة ، وتحتوى مكتباتها على عدد وافر من الكتب والمراجع ، وتصدر النشرات والكتب والمجلات العلمية والثقافية . ونذكر هنا على سبيل المثال بعضا من تلك الهيئات :

(ا) الهيئات الثقافية :

١ ــ الاتحاد الثقافى المصرى : بشارع الهامى ، بقصر الدوبارة ، بالقاهرة ، ويقوم بتنظيم سلسلة من المحاضرات والمناظرات والأحاديث ، يلقيها أعضاء الاتحاد أنفسهم، أو من يدعى لذلك من رجال الفكروالعلماء

٢ ــ الادارة الثقافية بجامعة الدول العربية : ١٠٢ شارع فاروقالأول بالعجوزة ، بالقاهرة . وهى قسم من الأمانة العامة ، لجامعة الدول العربية. ومن أخص واجباتها ترجمة أمهات الكتب العالمية فى اللغات المختلفة الى اللغة العربية ، وجمع صور للمخطوطات ، وتدعيم العلاقات الأثرية بين البلاد العربية ، وعقد المؤتمرات ، واقامة المعارض الثقافية

٣ ــ الجمعية المصرية للدراسات الاجتماعية : ٨٨ شارع القصر العينى بالقاهرة . وتقوم بدراسة المسائل الاجتماعية فى مصر ، واثارة اهتمام الجمهور بها ، واعداد المشتغلين بالخدمة الاجتماعية ، وتدريبهم ، ومنأهم مشروعاتها انشاؤها مدرسة الخدمة الاجتماعية بالقاهرة سنة ١٩٣٧ ، واجراؤها تجارب لاصلاح القرية

٤ ــ جمعية المعلمين : ٢ شارع عدلى باشا بالقاهرة ، وتنظم موسما سنويا للمحاضرات والبحوث والمناظرات ، وتدعو رجال العلم والتربية ، من مصريين وأجانب ، الى القاء المحاضرات التى تفيد رجال التعليم والمهتمين بشئونه وتصدر عنها مجلة ، هى مجلة العلوم

٥ ــ جمعية المكتبات المصرية : بقصر الدوبارة . ومن أغراضها توثيق الروابط بين المشتغلين بالمكتبات ، وافساح المجال أمامهم ، لرفع مستواهم العلمي والمادى ، مما يساعد على النهوض بالمكتبة الى المستوى اللائق برسالتها فى المجتمع المصرى . وتصدر الجمعية نشرة باللغتين العربية والانجليزية

٦ ــ رابطة التربية الحديثة : ١٣ ميدان التحرير بالقاهرة . وتعمل على النهوض بأساليب التربية ، وتعتمد فى تحقيق أغراضها على القاء المحاضرات واقامة المؤتمرات وتنظيم الرحلات العلمية والأبحاث التربوية واصدار كتب فى التربية

٧ ــ قسم الخدمة العامة بالجامعة الأمريكية : ١١٣ شارع القصر العينى بالقاهرة . وهدفه نشر الثقافة العامة للجمهور عامة ، وتنوير الأذهان فى المشكلات التى يواجهها المجتمع المصرى ، مستعينة بالمحاضرات العامة والسينما الثقافية ، والبحوث الخاصة والكتب والنشرات

(ب) الهيئات العلمية :

١ ــ الأكاديمية المصرية للعلوم : بدار الحكمة : ٤٢ شارع القصر العينى بالقاهرة . وهدفها تشجيع البحوث العلمية ، بكل الوسائل الممكنة ، ونشر هذه البحوث فى مجلة الأكاديمية

٢ ــ جمعية الآثار المصرية : ١١ شارع الألفى بالقاهرة . ومن أهم أغراض الجمعية القاء المحاضرات عن الفنون والآثار الاسلامية ، والمساعدة على نشر الوثائق العلمية والمؤلفات المتعلقة بالفنون والآثار الاسلامية

٣ ــ جمعية الآثار القبطية : ١٥ شارع والدة باشا بالقاهرة . وتعمل على دراسة كل ما يتصل بالعصر القبطى فى تاريخه ولغته وفنونه ، بالقاء المحاضرات ونشر المؤلفات المتصلة بالآثار القبطية والمساهمة فى صيانة الآثار القبطية

٤ ــ الجمعية الجغرافية المصرية : بشارع القصر العينى ، بحديقة وزارة الأشغال العمومية . أنشئت فى ١٩ مايو سنة ١٨٧٥ لدرس وتنشيط العلوم المتعلقة بالجغرافية . ولاسيما جغرافية افريقية ومصر والأقطار المجاورة لها. وتتخذ الجمعيــة لتحقيق أغراضها وســائل منها : انشاء الدروس وتنظيم المحاضرات والمناقشات ، ونشر المؤلفات والرسائل ، واصدار مجلة خاصــة بالجمعية ، وتنظيم الرحلات فى افريقيا بقصد الارتياد والاستطلاع والدرس، وتنظيم المؤتمرات والمعارض والاشتراك فيما يعقد منها فى مصر والخارج ، والاتصال بأكبر الجمعيات الجغرافية فى العالم

٥ ــ الجمعية الرمدية المصرية : دار الحكمة . شارع قصر العينى . القاهرة . وتهدف الى تتبع التطور العلمى والفنى لطرق العلاج الحديثة . وتتعاون مع مثيلاتها من الجمعيــات والهيئات الرمدية فى الخارج فى اقامة المؤتمرات والاجتماعات الرمدية الدولية

٦ ــ جمعية الصــيدلة المصرية : بدار الحكمة . شارع القصر العينى بالقاهرة . ومن أغراضها تنمية الروابط بين الصيادلة المصريين ، وصيادلة البلاد العربية ، وتوحيد المصطلحات العربية والسعى لسن دســتور أدوية مصرى ، لضبط وتوحيد العقاقير ومستحضراتها

٧ ــ جمعية الاقتصاد السياسى والاحصاء والتشريع : ١٦ شارع نهضة مصر بالقاهرة . وتنحصر أغراضــها فى الدراسة النظرية والعمليــة لمسائل الاقتصاد السياسى والاحصاء والتشريع

٨ ــ جمعية أوراق البردى : ٢٧ شــارع المنيرة بالقاهرة : ومن أهم أهدافها تشجيع البحث العلمى فى نطاق أوراق البردى ، وما تكشف عنه من معلومات تتناول تاريخ مصر القديم

٩ ــ جمعية علم الحشرات : ١٤ شارع نهضة مصر بالقاهرة : وتقوم بأبحــاث خاصة بعلم الحشرات فى مصر . وتحقق أغراضــها عن طريق

المحاضرات ، واصدار مجلة سنوية بأبحاثها فى كل عام

١٠ ــ جمعية الدراسات التاريخية : بمبانى المعرض الزراعى بالجزيرة ، وقد أنشئت لتنظيم الدراسات المتعلقة بالتاريخ وتشجيعها ، وخاصة التاريخ المصرى ، بنشر المؤلفات والبحوث واصدار مجلة دورية ، وتنظيم المؤتمرات والمعارض ، وتنظيم المحاضرات والمناقشات المتعلقة بالموضوعات التاريخية

١١ ــ جمعية المهندسين المصرية : ٢٨ شارع نهضة مصر بالقاهرة . ومن أهم أغراضها ترقية الفن الهندسى . وتعنى بوضع مواصفات قياسية مصرية لجميع الأعمال الهندسية ، على غرار المواصفات الهندسية بالدول الكبرى . وللجمعية مكتبة بها مجموعة قيمة من الكتب والمجلات الهندسية

١٢ ــ المجمع العلمى المصرى : ١٧ شارع السلطان حسين بالقاهرة. وقد تأسس سنة ١٧٩٨ م عند غزو الحملة الفرنسية لمصر ، فى القاهرة . ثم أعيد تكوينه بالاسكندرية سنة ١٨٥٩م ، ثم نقل الى القاهرة سنة ١٨٨٠ م، واستقر فى داره الحالية . وفى سنة ١٩١٨ أعيد الى المجمع اسمه القديم . وقد أخرج علماء المعهد سنة١٨٠٩م المؤلف الضخم المعروف باسم «وصف مصر» ، والذى يعتبر أهم مرجع لكل من تناول أى موضوع يهم مصر

ويعمل المجمع الآن تحت اشراف وزارة التربية والتعليم ، ويتلخص نشاطه الثقافى فى تنظيم سلسلة من المحاضرات العلمية ، ونشر مجلة تجمع تلك المحاضرات . وللمجمع مكتبة حافلة ، يتردد عليها عدد كبير من أعضاء المجمع وأساتذة الجامعات وطلبتها

١٣ ــ مجمع اللغة العربية : شارع الجيزة . وأهم أغراض هذا المجمع أن يحافظ على سلامة اللغة العربية ، وأن يجعلها وافية بمطالب العلوم والفنون فى تقدمها . ملائمة على العموم لحاجات الحياة فى العصر الحاضر . وأن يقوم بوضع معجم تاريخى للغة العربية . وأن ينظم دراسة علمية

للهجات العربية الحديثة ، وأن يبحث كل ما من شأنه تقدم اللغة

ويصدر المجمع مجلة لنشر ما يقره من البحوث اللغوية ، والمصطلحات العلمية ، والألفاظ والتراكيب التى يرى استعمالها أو تجنبها

١٤ ـ معهد الصحراء : بمصر الجديدة . وقد أنشىء لدراسة الصحارى دراسة علمية ، ودراسة الوسائل التى تساعد على تنمية موارد الثروة الزراعية والحيوانية والمعدنية فى الصحارى

(حـ) الهيئات الفنية :

١ ـ جمعية محبى الفنون الجميلة : شارع قصر النيل بالقاهرة . أنشئت لتشجيع الفنون ، أى الرسم والحفر والتصوير والهندسة المعمارية والتطبيق العملى للفن على وجه العموم ، وتربية الذوق الفنى . وذلك باقامة معارض محلية دولية ، والقاء محاضرات ، وبطرق أخرى

٢ ـ معهد الموسيقى العربية : شارع نهضة مصر بالقاهرة . وفى مقدمة أغراضه نشر الموسيقى العربية وضبطها ، وايجاد بيئة راقية تضم أنصارها ومحبيها ، وتوحيد جهودهم ، ويكون واسطة التعاون بينهم . وقد عمل منذ انشائه على محاربة الأغانى المبتذلة ، ومساعدة كل من تبدو منهم محاولات ناجحة نحو اختراع آلة جديدة من آلات الموسيقى العربية مساعدة مادية وأدبية ، وتدوين الموشحات والأدوار القديمة بالنوتة

وبالمعهد متحف يضم الآلات الموسيقية لمختلف الأمم والعصور ومكتبة موسيقية جمع فيها الكثير من الكتب الموسيقية باللغة العربية واللغات الأجنبية

(د) دور الكتب العامة :

١ ـ دار الكتب المصرية : وتوجد بميدان أحمد ماهر « باب الخلق سابقا » ويوجد لها فروع فى بعض أحياء القاهرة ، وفى كثير من مدن الجمهورية . وبلغت ثروة الدار وفروعها فى أواخر سنة ١٩٥٣ م ٥١٩٧٠٧ مجلدا باللغات العربية والشرقية والأوربية

وبالدار أقسام للمخطوطات والأوراق البردية ، والنقود والمداليات والأنواط ، وقسم المعرض الذى يقوم بترتيب الصور الزيتية والتحف الفنية ، والألواح المطبوعة ، والصور الشمسية ، والتعريف بها والمحافظة عليها

وملحق بالدار مطبعة مجهزة بأحدث الآلات لطبع الكتب التى تحققها الدار وتنشرها ، كما تقوم بتجليد كتب الرصيد وترميمها . ومن الكتب التى أصدرتها : النجوم الزاهرة ، وتفسير القرطبى ، والأغانى ، والمنهل الصافى ، والفاضل والمفضول ، ونهاية الأرب للنويرى ، والخصائص لابن جنى ، وأساس البلاغة للزمخشرى

٢ ــ مكتبة التحرير بمصر الجديدة : وقد تكونت مجموعات كتبها من مكتبة المرحوم طلعت حرب (باشا) ، ومن مجموعات أخرى أهديت اليها من الهيئات المختلفة . وبلغ رصيد المكتبة فى نهاية عام ١٩٥٣ م ٨٢٥٣ كتابا ، منها ٣٢٨٣ باللغة العربية ، ٤٩٧٠ باللغات الأجنبية

٣ ــ مكتبات الهيئات الحكومية : وتشتمل على مكتبات الوزارات الحكومية المختلفة . ومن أهمها : مكتبة وزارة التربية والتعليم ، وقد بلغ عدد مجلدات القسم العربى بها ١٤٩١١ مجلدا ، ومجلدات القسم الأفرنجى ٢٠٩١٤ مجلدا ، أكثرها باللغتين الانجليزية والفرنسية

٤ ــ مكتبات الهيئات الحرة : وتشتمل على مكتبات المعهد الفرنسى للآثار الشرقية ، والدار البطريركية الملحقة بالدار البطريركية بالقاهرة ، ومعهد الدراسات الشرقية للآباء الدومنكيين بشارع مصنع الطرابيش بالعباسية

٥ ــ مكتبات الجامعات : وتشمل :

ا ــ المكتبة العامة بجامعة القاهرة ، ومكتبات الكليات المختلفة ، وقد تقدم الكلام عنها

ب ــ مكتبات كليات جامعة عين شمس ، وهى كليات التجارة والزراعة بشبين الكوم والطب بالعباسية والهندسة

جـ ــ مكتبات الجامعة الأزهرية : وتشتمل على مكتبة الجامع الأزهر ، ومكتبة كلية الشريعة ومكتبة كلية اللغة العربية . ويبلغ عدد الكتب بمكتبة الجامع الأزهر ٦١٧٢٣ كتابا فى نحو مائة ألف مجلد . منها نحو ٢٢ ألف مجلد مخطوط ، بينها كثير من نوادر المخطوطات

د ــ مكتبة الجامعة الأمريكية بالقاهرة : ويبلغ مجموع مابها الآن نحوا من ٣١٥٠٠ مجلدا ، فى مختلف الفنون ، باللغة العربية واللغات الأجنبية

٦ ــ مكتبات المعاهد العليا :

ا ــ مكتبة كلية الفنون الجميلة : وقد بلغ رصيدها ٤٧٤٦ كتابا ، معظمها باللغات الأوربية ، وهى موزعة على فنون العمارة والزخرفة والنحت والتصوير والموسيقى وغيرها

ب ــ مكتبة كلية الفنون التطبيقية : وقد بلغ رصيدها من الكتب والمجلات الفنية ٣٠٤٥ كتابا ومجلة باللغات العربية والأجنبية

جـ ــ مكتبة معهد التربية للمعلمين بالمنيرة : وبلغ رصيدها من الكتب نحوا من ٤٠٧٥٠ كتابا باللغات العربية والأجنبية ، تبحث فى علوم التربية والنفس

(هـ) المتاحف :

تزدان القاهرة بعدد كبير من المتاحف ، تعالج النواحى الأثرية والفنية والعلمية ، ونسوق فيما يلى أمثلة من كل قسم :

المتاحف الأثرية :

١ ــ متحف الفن الاسلامى « دار الآثار العربية سابقا » : بميدان أحمد ماهر بالقاهرة ، وقد تقدم ذكره فى وصف القاهرة فى عهد اسماعيل ويبلغ عدد مابه من تحف ١٦٤٣٠ تحفة . ويعتبر هذا المتحف أعظم متحف

اسلامى فى العالم . وقد قام المتحف بحفريات فى أطلال مدينة الفسطاط ، فكشف عن جانب كبير منها ، وعثر على آلاف التحف النفيسة . واشترك فى خلال السنوات الماضية فى المعارض الدولية ، لتعريف القوم بما يضمه من كنوز أثرية ، ولنشر الدعاية للوطن وللحضارة الاسلامية الزاهرة التى قامت على ضفاف النيل

٢ ــ متحف الآثار الاسلامية بكلية الآداب : بجامعة القاهرة ، ويضم نحو ألفى قطعة من الصور والخزف والسجاد والأقمشة والزجاج والأحجار والمعادن والخشب والعاج ، وكلها من صناعة البلاد الاسلامية المختلفة ، فيما بين القرنين الثانى والثالث عشر بعد الهجرة

٣ ــ متحف جاير اندرسون : بجوار جامع ابن طولون ، بالقاهرة . أنشأه ميجورجايراندرسون ، ثم وهبه للحكومة المصرية . وبه مجموعات قيمة من بعض العصور الاسلامية والحديثة ، وقد تقدم ذكره عند الكلام على منازل العصر العثمانى

٤ ــ المتحف القبطى بمصر القديمة : أنشأ نواة هذا المتحف المرحوم مرقس سميكة (باشا) سنة ١٩٠٨ م ، داخل أسوار حصن بابليون الرومانى ، بمساعدة فريق من هواة الفنون والآثار القبطية للعمل على جمع كل أثر أو وثيقة تميط اللثام عن تاريخ مصر فى العصور المسيحية . وقد ظل ملكا للبطريركية القبطية حتى سنة ١٩٣١ م ، ثم ضم الى وزارة التربية والتعليم

وبالمتحف٩٦٢٦ قطعة من التحف الجصية والأحجاروالأقمشة والمنسوجات القبطية ، والزجاج والخزف والأخشاب والمعادن ، عدا قسم المخطوطات القبطية الثمينة المحلاة بزخارف جميلة . وللمتحف مكتبة بها ٥٣٠٠ مجلد منها نحو ١٥٠٠ مخطوط باللغات القبطية أو العربية أو اليونانية

٥ ــ المتحف المصرى : ويوجد بميدان التحرير بالقاهرة . وقد بنى سنة ١٩٠٠ وافتتح فى ١٥ نوفمبر سنة ١٩٠١ ، وسبق ذلك جهود كبيرة فى جمع

الآثار المصرية التى كانت نهبا للسرقة ، خصوصا من تجار العاديات الأوربيين وتسرب هذه الآثار الى فرنسا وأوروبا وأمريكا .

وقد أشرف على جمع التحف مسيو ماريت بتكليف من سعيد سنة ١٨٥٨ م ثم من اسماعيل سنة ١٨٦٣ م . وكانت محفوظة بمتحف ببولاق ، ثم خلف ماريت ماسبيرو ، فنقلت الى سراى الجزيرة ثم الى المبنى الحالى بعد بنائه ، حيث تعاون ماسبيرو وأحمد كمال (باشا) على تنظيم التحف وترتيبها . وهو مبنى على أرض تبلغ مساحتها ١٣٦٠٠ مترا مربعا ، ويعتبر من أهم متاحف العالم . وقد أصبحت مجموعته تفوق المجموعات المصرية المعروضة فى المتاحف الأجنبية

ويتألف المتحف من طبقة أرضية ، وطبقتين علويتين . وقد خصصت الطبقة الأرضية للمعروضات الثقيلة ، والآثار الكبيرة الحجم ، مرتبة حسب الترتيب التاريخى للأسرات . ويتوسط الطبقة الأرضية ساحة واسعة ، تشتمل على بعض التماثيل الضخمة . وتحتوى الطبقة الثانية على آلاف من المعروضات الرائعة من تماثيل ولوحات . أما الطبقة العليا فتحتوى فى قسمها الشمالى الشرقى على أهم كنوز المتحف ، وهى آثار الملك توت عنخ آمون ، وعلى قاعة الجواهر التى تضم أروع مجموعة من الجواهر . وللمتحف دليل عام يمكن الرجوع اليه لمعرفة محتوياته ، وله مكتبة كبيرة يبلغ رصيدها نحو ٢٢٤٠٨ كتابا ، كلها باللغات الأجنبية ، وخاصة الفرنسية والألمانية والانجليزية ، وبها مجموعة من الوثائق البردية باللغة اليونانية

٦ ــ متحف بيت الأمة : يقع هذا المتحف فى بيت الأمة ، بشارع سعد زغلول ، حيث كان يسكن الزعيم سعد زغلول . ونظرا لما ارتبط به هذا المنزل من ذكريات كبيرة فى الحركة الوطنية فقد اشترته الحكومة المصرية ، وأشرفت على تنظيمه وتجديده ، ليصبح فى الصورة التى كان عليها خلال حياة الزعيم الراحل وقرينته أم المصريين

١ ــ متحف التعليم:ويقع فى ١٨ شارع اسماعيل أباظة بالقاهرة.والغرض من انشائه توضيح الحياة الثقافية والتعليمية فى مصر منذ أقدم العصور الى الوقت الحاضر ، لاسيما تاريخ العصور الحديثة ، منذ انشاء ديوان المعارف سنة ١٨٣٧ م . ولذا فهو يشـــمل المخلفات التاريخية من وثائق وسجلات وكتب دراسية ، فضلا عن نماذج الأدوات الدراسية المستخدمة فى مختلف العهود . وهو مقسم بحسب العصور أو بحسب مراحل التعليم ، ويشتمل على سبعة عشر قسما ، تمت جميعا الى التعليم بصلة وثيقة

٢ ــ متحف الثقافة العربية بجامعة الدول العربية:١٠٢ شارع البحر الأعظم بالعجوزة . القاهرة : وهدف هذا المتحف جمع المعلومات والوثائق المتعلقة بشئون الثقافة ونظم المعارف والتعليم فى مختلف الأقطار العربية ، وتهيئتها للباحثين ، ثم اعطاء فكرة واضحة عن حالة المعارف والمدارس فى كل قطر من الأقطار العربية ، مصحوبة بمقارنات احصائية ورسوم بيانية

٣ ــ متحف الحيوان : بحديقة الحيوان بالجيزة . ويشغل مبنى خاصا داخل حديقة الحيوان وهو قسمان :

القسم العلمى : يحتوى على مجموعات للطيور المصرية وغيرها

وقسم المعروضـــات : ويحتوى على ثلاثة أبهاء بها هيــاكل عظميـــة للثدييات المصرية والزواحف والأسماك والطيور المصرية المحنطة .

٤ ــ متحف الرى بالقناطر الخيرية : ويشتمل على نماذج لجميع أعمال الرى والصرف بمصر والسودان . كما يحتوى على نماذج لأعمال الرى الصناعية من خزانات وقناطر وكبارى وغيرها

٥ ــ متحف طبقات الأرض : بحديقة وزارة الأشغال بالقاهرة.وهو قسم من مصلحة المناجم والمحاجر بوزارة التجارة والصــناعة . والغـرض من انشائه دراسة أنواع الصخور والتربة المصرية والبحث عن الرواسب من

معادن وغيرها . وبالمتحف ما يزيد على عشرين ألف عينة چيولوچية موزعة على خمس صالات رئيسية . وبه أيضا خرائط چيولوچية وقطاعات بارزة

٦ ـ متحف القاهرة الصحى : ويقع فى شارع المتبولى بالقاهرة،وتشرف عليه وزارة الصحة العمومية ، ويشتمل على أجهزة لأجزاء الجسم ، وبعض الأمراض ، بثا للثقافة الصحية بين الجمهور

٧ ـ متحف القطن : بمبانى الجمعيــة الزراعيــة بالجزيرة : ويتمثل فيه الدور المهم الذى تلعبه مصر فى زراعة القطن والصناعات المتفرعة عنه . كل ذلك ممثل بالصور والنماذج والمناظر المجسمة ، وأشرطة السينما واللوحات الاحصائية

المتاحف الفنية :

١ ـ المتحف الحربى بالقلعة:يشتمل‌هذا المتحف على‌تحف‌وأسلحة‌وملابس وأدوات ومناظر ولوحات وخرائط تعين على تتبع الفنون الحربية وأدوات الحرب من قديم الزمان حتى الوقت الحاضر ، وأشهر الوقائع الحربية التى حدثت فى عصور التاريخ ، خصوصا فى مصر

وبالمتحف مكتبة تشتمل على آلاف الـكتب العربية والأفـرنجية ، لتى تبحث فى التـاريخ المصري وجغرافية وادى النيـل ومجموعة من المجلات العسكرية

٢ ـ متحف الحضارة المصرية: بالسراى‌الكبرى بالجزيرة.وهدفه الرئيسى اظهار وحدة التاريخ ووحدة الحضارة فى وادى النيل ، وابراز كل عصر بطابعه الخاص . وهو لذلك ينقسم الى تسعة الأقسام التى ينقسم اليها تاريخ مصر ، ابتداء من عصر ما قبل التاريخ حتى العصر الحديث . وبكل قسم نماذج لأشهر آثاره ، وطرق الحياة فيه ، وأهم الحوادث التاريخية ، وعادات الناس وتقاليدهم ، وأشهر الوقائع التاريخية

٣ ـ متحف البريد: ويوجد بميدان العتبة بالقاهرة . ومعروض به كل ماله صلة بالبريد ، قديما وحديثا ، من طوابع وأدوات حمل البريد ، ووسائل نقله ، ونماذج لعربات البريد ، والكسى التى كان يرتديها موزعو البريد ، ومجموعة صور لخطوط الحمام الزاجل ، وبواخر نقل البريد ، ومجموعة أوراق البردى والمحاضر والوثائق والمنشورات واللوائح البريدية . ويتبع المتحف مكتبة الادارة العامة للمصلحة وهى تحتوى على مجموعة نادرة من الكتب

٤ ـ المتحف الزراعى بالدقى: والغرض من انشائه تمثيل الزراعة المصرية فى مختلف نواحيها ، وذلك بعرض شتى الحاصلات الزراعية التى تنتجها التربة المصرية ، وطرق الرى والصرف بالبلاد والصحارى والواحات ، ومايوجد بها من زراعات وصناعات وغيرها

وبالمتحف خمسة أقسام رئيسية : قسم الزراعة المصرية القديمة ، وقسم المملكة النباتية ، وقسم المملكة الحيوانية ، وقسم المجموعات النباتية ، وقسم التصوير ، والمكتبة ، وقسم الصيانة

٥ ـ متحف السكك الحديدية : بمبنى محطة مصر بالقاهرة . وقد أنشىء لعرض وسائل النقل القديمة والحديثة ، وبه أكثر من ٦٠٠ نموذج ، صنعت معظمها بورش مصلحة السكك الحديدية ، كما حصل المتحف على طائفة من النماذج للسكك الحديدية الأجنبية

وينقسم المتحف الى تسعة أقسام تبدأ باستعراض وسائل النقل قبل استخدام البخار حتى الوقت الحاضر ، ووسائل الاتصال منذ استعمال الاشارات الضوئية حتى التليفون اللاسلكى

٦ ـ متحف الفن الحديث : ٤ شارع قصر النيل ، بالقاهرة . وقد أنشىء فى أحضان جمعية محبى الفنون الجميلة . وبه مئات من الصور الزيتية والتماثيل والميداليات والآنية وقطع الأثاث وطائفة من الكتب هى نواة المكتبة

المتاحف السياحية :

بعد أن أقصى فاروق عن العرش فى ٢٦ يولية سنة ١٩٥٢ ، صودرت ممتلكاته ، وممتلكات أسرته فى مصر . فاستولت حكومة الثورة على قصوره وقصور أسرة محمد علي ، وماكانت تحتوىعليه من أثاث ورياش، وتحف ومجوهرات . اذ أن هذه القصور ما شيدت الا من دماء الشعب وعرقه . وبينما كان ينعم فيها هؤلاء القوم بالعيش الرغد ، مترفعين عن الشعب ، يولونه الازدراء والاحتقار ، ويسلبونه أقواته وأرزاقه ، كان هذا الشعب يعيش فى أكواخ وجحور ، عيشة البؤس والضنك

لذلك لم يكن بد من أن ترد هذه القصور وما اشتملت عليه من تحف ونفائس الى الشعب ، لتكون ملكا له ، ينعم بارتيادها ، واستجلاء ما فيها من مفاتن ومحاسن . وقد حولتها الحكومة فعلا الى متاحف عامة ، تشرف عليها مصلحة السياحة ، التابعة لوزارة الشئون الاجتماعية . وهذه القصور هي :

١ ـ متحف قصر الجمهورية « قصر عابدين سابقا » : ويقع فى ميدان الجمهورية « ميدان عابدين سابقا » وسبق أن ذكرنا أن هذا القصر بناه اسماعيل ، خديو مصر الأسبق ، واتخذه هو ومن أتى بعده من الخديويين والسلاطين والملوك مقرا رسميا لهم ، بدل القلعة ، ويحتوى هذا القصر علي جناحين هامين هما : الحرملك ، والسلاملك ، وملحق بالأخير جناح خاص للضيافة وأهم قاعاته القاعة البيزنطية ، وقاعة العرش ، وقاعة قناة السويس ، وقاعة الولائم

٢ ـ متحف قصر الجوهرة : سبق وصف هذا القصر ضمن الكلام عن المنشآت المعمارية فى عهد محمد علي . وهو موجود بالقلعة ، وذكرنا أن أكبر حجراته صالة العرش أو حجرة الفرمانات

ويستطيع جمهور الشعب زيارة هذا المتحف اليوم ، فى أى وقت شاء ،

بعد أن كانت لا تطأه سوى أقدام باشوات محمد على وأفراد أسرته ، ليرى المكان الذي كان يحكم منه حكما سداه البطش ولحمته العسف والاستبداد

٣ ـ استراحة الهرم : أحد الأركان أو الاستراحات التى كان فاروق يأوى اليها لينعم بملاذه وشهواته ، بعيدا عن أعين الرقباء . وقد أقيمت بجوار الهرم الأكبر ، وروعى فى تصميمها أن تتفق وطراز المنطقة الأثرية المحيطة بها ، ألا وهو الطراز الفرعونى القديم ، وأنشئت على نسق المعابد المصرية القديمة ، وحليت جدرانها برسوم فرعونية ، تمثل مناظر الصيد والحفلات ، وأثثت بأثاث شبيه بأثاث توت عنخ آمون

ويغزو الشعب اليوم هذه الاستراحة ، بعد أن كانت قلعة من القلاع المغلقة ، وحصنا من حصون الاقطاع الحصينة ، ليستريح اليها أفراده ، بعد تجوال فى منطقة الأهرام

٤ ـ استراحة حلوان : وهذه استراحة أخرى لفاروق، شيدها بالقرب من مدينة حلوان ، احدى ضواحى القاهرة ، المشهورة بطيب هوائها ، ومياهها المعدنية المفيدة . وحرص أن تكون أيضا واقعة على النيل مباشرة

واختيار هذا الموقع حالفه كثير من التوفيق : فهو يجمع بين هواء النيل الرطيب ، وهواء الصحراء الجاف ، هذا الى سهولة الوصول اليه بطريق البر وطريق النيل على السواء .

٥ ـ قصر المنيل: وهو أحد قصور أفراد أسرة محمد على. كان يملكه محمد على توفيق الأمير وولى العهد الأسبق . ويقع بمنيل الروضة ، ويشغل مساحة شاسعة من الأرض، ويشبه بأبراجه وأسواره العالية ، قلعة حصينة من قلاع العصور الوسطى

ويغلب الطراز المغربى على تصميم هذا القصر فى عقوده وأعمدته . ويكسو جدرانه القاشانى البديع. وتزينه الآيات القرآنية الكريمة . وتوجد به كثير من التحف الخشبية والخزفية والمعدنية من القرنين الرابع عشر

والخامس عشر ، وكثير من اللوحات الزيتية لأفراد أسرة محمد على ، وبعض الشخصيات الأوربية بريشة أشهر الرسامين

ويحيط بالقصر حديقة أنيقة ، جمعت كثيرا من الأزهار النادرة ، ونباتات الزينة الجميلة ، والأشجار العالية ، نسقت أجمل تنسيق .

٦ ــ متحف وضريح مصطفى كامل : كان مصطفى كامل مدرسة وطنية ، بما أنشأه من جرائد ومجلات ، وما شيده من مدارس لتربية الشعب تربية وطنية ، وما دبجته يراعته من مقالات ، وما ألقاه على أعواد المنابر من خطب تارية مهاجما الاستعمار والمستعمرين ، لذلك كان واجبا محتوما أن يتتبع الشباب آثار هــذا الزعيم العظيم ، ويدرس تعاليمه ، وينسج على منواله . وهذا ما حدا بحكومة الثورة أن تجمع كل آثاره ، بمــا فى ذلك كتبه ومكتبته ، وأن تودعها هــذا المتحف المجاور لقبره ، ليكون كعبة يزورها أفراد الشعب ، ويستلهم منها دروس العزة والكرامة والوطنية الخالصة

محطة الاذاعة المصرية :

أنشئت عام ١٩٣٣ م ، وتوجد بقرية أبى زعبل من ضواحى القاهرة ، ولها محطات فرعية للتقوية فى المنيا وأسيوط وسوهاج والأقصر ، أما استوديوهات التسجيل فتوجد برقم ٤ شارع الشريفين بالقاهرة

وتعد الاذاعة المصرية معهدا شعبيا من طراز فريد ، ويكاد لا يخلو منزل فى القاهرة وسائر المدن والقرى المصرية من جهاز للراديو للاستماع الى الاذاعة المصرية . وتغذى الاذاعة جميع طبقات الشعب بالثقافة والمعلومات المنوعة ، كلا بما يلائمه ، وباللغة التى تناسبه . وترفه عنه بالموسيقى والأغانى والتمثيل ، وتزوده بالنشرات الاخبارية والاقتصادية والجوية . هذا فضلا عن توجيه الشعب الوجهــة الصحيحة فى الحوادث الوطنيــة والأزمات الدولية ، وبث الحماس واشــعال الحمية ورفع الروح المعنوية ، وتثبيت القومية العربية ، ومناهضة الاستعمار فى أرجاء العالم العربى

فالاذاعة المصرية قوة لها خطرها ، اذ يدوى صوتها فى جميع بقاع الأرض بجميع اللغات، بالاضافة الى اللغة العربية، لذا يهابها المستعمرون ويحسبون لها ألف حساب . وكان أول هم للقراصنة الانجليز والفرنسيين ، عندما هاجموا مصر هجومهم الغادر فى ٣١ أكتوبر سنة ١٩٥٦ أنهم سددوا اليها قنابلهم يوم ٢ نوفمبر سنة ١٩٥٦ ، وظنوا أنهم أسكتوا الصوت الذى طالما أقض مضاجعهم ، وألب الأحرار عليهم فى كل مكان . ولكن لشد ما كان غيظهم عندما نجح مهندسو المحطة الأبطال فى اصلاح التلف ، واعادة المحطة الى سابق عهدها ، بعد ضربها بأربع وعشرين ساعة فقط ، تحت وابل الطوربيدات والقنابل الحارقة

وللمحطة مكتبة بها آلاف الأشرطة التى سجلت عليها أهم الأحاديث السياسية والاجتماعية والعلمية والدينية والقرآن الكريم لأشهر المقرئين ، والحفلات الموسيقية والمسرحيات السينمائية والتمثيلية . كما أن لها مجلة تصدر كل أسبوع حاملة للناس أهم الأحاديث والبرامج المصرية والأجنبية ، موضح أمامها مختلف الموجات

مصلحة الاستعلامات المصرية :

واذا كانت الاذاعة المصرية قد أثبتت أنها أداة لها شأنها الخطير فى بث الوعى القومى بين الشعب المصرى خاصة ، والشعوب العربية عامة ، فثمت منشأة أخرى لا تقل خطرا عن الاذاعة فى نشر الدعاية لمصر ، والأمة العربية بين شعوب العالم الأخرى ، فى جميع أنحاء المعمورة ، خصوصا فى أوربا وأمريكا ، تلك هى مصلحة الاستعلامات المصرية الموجودة فى رقم ٢٢ شارع سليمان (باشا) بالقاهرة

وتقوم هذه المصلحة بتوزيع النشرات والمجلات والكتب ، وعرض الأفلام السينمائية ، بجميع اللغات الحية ، موضحة فيها أهداف مصر وأمانيها ، وجهودها فى نشر السلام العالمى . وفضلا عن ذلك فهى لا تترك فرية ، يذيعها المستعمرون وأعداء مصر ، ليشوهوا سمعتها ، الا وتتصدى للرد

عليهم ، وتفند أكاذيبهم ، وترد كيدهم الى نحورهم . ولا أدل على خطر هذه المصلحة ، وشدة بأسها ، من تأليبها الرأى العام العالمى على انجلترا وفرنسا ، بنشرها صورا للأعمال البربرية التى اقترفتها جيوشهما ، عند غزوهما بورسعيد فى ٢ نوفمبر سنة ١٩٥٦ ، لاغتصاب قناة السويس ، مما جعلهما موضع احتقار جميع شعوب العالم ، وازدرائها الشديد

مصلحة السياحة : ٥ شارع عدلى بالقاهرة

أنشئت هذه المصلحة ، وهى احدى ادارات وزارة الارشاد القومى ، لتقوم على راحة السائحين ، الذين يفدون على مصر كل عام لينعموا بمشاهدة آثارها ، والاستمتاع بشتائها الدفء ، وتسهل لهم الانتقال من مكان الى آخر ، وترشدهم الى الأماكن التى يجدر بهم زيارتها . ولها بوليس سياحى خاص ، يضم نخبة ممتازة من الضباط والجنود ، ذوى الأخلاق السامية ، والدراية بشئون السياحة . يصطحبون السياح منذ قدومهم الى مصر حتى مغادرتهم لها . كذلك تقرر أجور الفنادق وأسعار المأكل والمشرب فى المطاعم ، ولها مفتشون يفتشون هذه المحال ، فلا يجرؤ أحد على غش السائحين ، والا عوقب بأشد العقاب

ولا تدخر هذه المصلحة وسعا فى الاحتفاء بالسائحين ، فتقيم لهم الحفلات ، وتقدم لهم الهدايا ، وتمدهم بالمطبوعات والخرائط والكتب والصور والمجلات ، فيغادرون البلاد وألسنتهم تلهج بمدح حكومتها والثناء على شعبها . ويصبحون خير اعلان لمصر فى بلادهم ، يدحضون الأكاذيب التى يفتريها المستعمرون والأفاكون والمضللون على مصر وحكومتها وشعبها

و ـ الصحف والمجلات ودور النشر والطباعة :

ويوجد بالقاهرة عدد كبير من دور النشر . ولكثير منها مطابع مجهزة أتم تجهيز ، بالمطابع والآلات الحديثة الصنع . وتخرج كل عام مئات الكتب فى كل علم وفن ، ويقوم بعضها على نشر التراث العربى فى ثوب قشيب ،

ويشرف على مراجعته وتحقيقه علماء راسخون ، هذا بالاضافة الى المطبعة الأميرية ومطبعة دار الكتب المصرية

ويصدر فى القاهرة من الصحف اليومية والمجلات الأسبوعية والشهرية عدد غير قليل ، تغذى أفراد الشعب بالأنباء والمقالات السياسية والأدبية والاجتماعية والعلميـة ، يشترك فى تحريرها قادة الفكر ورجال الأدب والعلماء والسياسيون . ولم تبلغ الصحف والمجلات من الكثرة والقوة ، واتقان الطباعة وجمال المظهر ، وسلاسة الأسلوب ورصانة التعبير وسمو اللغة مثل ما بلغته فى الوقت الحاضر

م ـ التمثيل والسينما :

لم تعد المسارح ودور السينما أماكن للهو والترفيه فحسب ، بل انها تعتبر أيضا وسيلة هامة لتثقيف الشعب وتهذيبه ، وتوجيهه الوجهة المثلى، وذلك نظرا لما تعالجه فى قصصها من مشكلات الأسرة والمجتمع ، وتحليل تلك المشكلات تحليلا دقيقا ، وما تعرضه من قصص تاريخية ، وأعمال البطولة الفذة ، وتصوير الأحاسيس الرقيقة ، والعواطف الدافقة ، وتبصير الناس بعواقب الأمور وخواتيمها

وتمتاز السينما بتقدم عظيم جعلها أداة ضرورية للثقافة ، وتتبـع أدوار الحضارة فى العصر الحالى ، وذلك بعد تلوين الفيلم وانطاقه ، فصـارت تعرض اليوم كثيرا من الأفلام العلميـة والتربوية والوطنية والتاريخية والاخبارية

وتعج القاهرة اليوم بصالات عرض السينما ، هذا عدا المعاهد والمدارس والجمعيات التى حرصت على أن يكون لها هى الأخرى صالات تعرض فيها أفلاما خاصة ، بالاضافة الى ما يلقى فيها من محاضرات

ولقد أصبحت صناعة الفيلم المصرى من أهم الصناعات فى القاهرة فى الوقت الحاضر ، لكثرة ما تدره من أرباح على المؤلفين والممثلين والمنتجين والمصورين والمخرجين ودور العرض

أما دور التمثيل فهى أقل من دور السينما عددا فى القاهرة ، لانصراف كثير من الممثلين الى السينما ، لكثرة ما يجنونه فيهـا من أرباح ، وقلة ما يكابدونه من عناء . وما تزال دار الأوبرا المصرية تحتل المكان الأول بين دور التمثيل فى القاهرة ، مع تقادم العهد عليها ، وهرمها . ولذلك أصبح الأمر يقتضى انشاء دار جديدة فخمة للأوبرا ، تتفق ومركز القاهرة فى الجمهورية العربيـة المتحدة ، وتتمشى مع مقتضيات العصر ، وترتفع بالتمثيل الى الدرجة المرموقة ، فهو أداة هامة لتوجيـه الشعب الوجهـة الصالحة ، ورفع مستواه الخلقى والمعنوى ، والسمو بذوقه الفنى

— ٧ —

القاهرة مركز الاقتصاد فى الجمهورية العربية المتحدة

ليست القاهرة مركز الحكم ، ومنبع النور والعرفان فحسب ، بل هى أيضا مركز الاقتصاد والمال ، والسوق العظمى للتجارة . ومكان التوجيه والتشجيع للزراعة والصناعة فى الجمهورية العربية المتحدة

فالسلع التجارية بجميع أنواعها ، ومن شتى أنحاء العالم ، من الشرق والغرب ، ترسو فى الاسكندرية أو بورسـعيد أو السويس ، ثم تأخذ طريقها الى القاهرة بالسكة الحديد أو السيارات ، فتتجمع فيها ، وتعرض فى المخازن للبيع

وفى مقدمة التجارة الشرقيـة البهار ، والبن ، والشـاى ، والكاكاو ، وجوز الهند ، والبذور الزيتية ، والجوت ، وكلها ترد الى القاهرة عن طريق السويس ، وما تزال سوقها السوق التقليدية القديمة ، فى الجمالية والتربيعة ، والغورية ، وتوجد بشارع القصبة القديم ، أو شـارع المعز لدين الله حاليا

ومن أوربا وأمريكا ترد المنسوجات الحريرية والصوفية والقطنية والفراء والمصنوعات المعدنية من آلات وعدد وأدوات وسيارات . وكذا الأخشاب

والفواكه طازجـة ومحفوظة ، وأنواع الجبن المختلفـة والزيتون وزيت الزيتون واللحوم والأسماك المحفوظة والمجففة والأدوية والأدوات المنزلية وأدوات الزينة والدخان وكثير غير ذلك . ترد جميعها عن طريق الاسكندرية وبورسعيد ، وتحمل الى القاهرة ، حيث تعرض للبيع ، اما بالتجزئة ، واما بالقطاعى ، فى محال خصصت لذلك . ولهذه المحال وكلاء يجوبون القطر من أقصاه الى أقصاه ، يعرضون بضائعهم على تجار التجزئة فى مدن الوجهين القبلى والبحرى

وتوجد محال بيع السيارات وأدواتها والآلات والماكينات ، خصوصـا ماكينات الرى والحرث والدرس وما الى ذلك فى شـوارع عماد الدين ، (حاليا محمد فريد) ، وعدلى ، والجمهورية ، وشارع نهضة مصر ، و ٢٦ يوليو ، وشارع قصر النيل

وتوجد مخازن بيع الملابس والمنسوجات بأنواعها فى شارع ٢٦ يوليو ، وشارع الموسكى ، وميدان العتبة ، وشارع البواكى ، والغورية ، وميدان الخازندار . وبعض هذه المخازن يضارع أعظم المتاجر فى كبريات العواصم الأوربية

كذلك توجد محال كثيرة لبيع الأغذية المحفوظة ، وهى المعروفة بمحال البقالة ، وهى منبثة فى كل حى من أحياء القاهرة ، الا أنها تتفاوت من حيث السعة والكبر من حىّ الى آخر . وقد كانت هذه التجارة الى عهد قريب وقفا على الجالية اليونانيـة بمصر ، لتنسيقهم السـلع بمحالهم ، ونظافتها ، وحسن ترتيبهـا . وأكثر ما تحتوى عليه محالهم الجبن والزبد والزيتون والزيت والمربيات والفواكه والبن والشـاى واللحوم المجففة والأسماك المحفوظة فى العلب . وقد اقتحم المصريون هذا الميدان ، وضربوا فيه بسهم وافر ، حتى غدت معظم محال البقالة فى القاهرة فى أيديهم وأيدى بعض الفلسطينيين . أما محال الجملة لهذه التجارة فتوجد فى شارع بين السورين ، كما كان الحال فى العهد المملوكى ، وما تلاه من العهود . وذكر المقريزى

فى خططه أنه كان يوجد بشارع القصبة « شارع المعز لدين الله حاليا » ، وهو أعظم أسواق مصر فى عهده ، اثنا عشر ألف حانوت . وكان يبدو لنا هذا الرقم أنه مغالى فيه ، أو كبير جدا ، ولكنه لا يبدو كذلك اذا ذكرنا أن عدد الحوانيت فى القاهرة قد بلغ اليوم ٨٨٠٣١ محلا ، طبقا لاحصاءات السجل التجارى (١) ، ولا شك أن هذه الزيادة تتناسب مع زيادة عدد السكان أضعافا مضاعفة ، عما كانت عليه فى القرن الرابع عشر

سواحل القاهرة :

ولم يكن للقاهرة حتى عام ١٩١٨ سوى ساحلين للغلال : الأول بروض الفرج ، وكان مخصصا لرسو جميع السفن المشحونة بالغلال والمسلى والبلح والعسل والبصل والماشية والخضر والفواكه وغير ذلك من السلع . والثانى بأثر النبى ، وكان مخصصا لرسو السفن المشحونة بأنواع التبن والحطب والبوص وأدوات العمارة كالجبس والجير والطوب والأوانى الفخارية وما شابه ذلك

ولقد اقتضت زيادة عدد السكان وانتشار العمران ، الافادة من النقل النهرى ، لتموين القاهرة بحاجياتها من مواد الطعام وأدوات البناء ، فزيد تبعا لذلك عدد السواحل ، فأصبحت خمسة وهى : سواحل روض الفرج ، وأثر النبى ، والجيزة ، وغمرة ، وشبرا ، والأخيران معدان لشحن وتفريغ الحبوب بأنواعها

وقد أنشأت مصلحة التجارة سنة ١٩٣٢ م ، بكل من ساحلى روض الفرج وأثر النبى سوقا منظمة لتجارة الحبوب ، يقوم العمل فيهما على أحدث الأساليب التجارية

اسواق الجملة للخضر والفاكهة :

١ ــ سوق العتبة : لم يكن بمدينة القاهرة قبل سنة ١٩٣١م أسواق منظمة لتجارة الجملة فى أصناف الخضر والفاكهة . وكانت هناك سوق واحدة

(١) نشرة الغرفة التجارية للقاهرة بمناسبة مرور عامين على بعث الثورة المباركة

تشغل ميدانا صغيرا خلف سوق العتبة الخضراء . وكانت أسواق الفاكهة والمقات تشغل عدة وكالات صغيرة فى نواحى القاهرة

٢ ـ سوق المدبولى : لذلك أنشأت وزارة التجارة عام١٩٣١م بالاتفاق مع الجهات الحكومية الأخرى سوق الجملة للخضر والفاكهة بجهة المدبولى بشارع الجمهورية ، متوخيـة فى ذلك غرضين أسـاسيين هما : التنظيم التجارى ، والمحافظة على الصحة العامة . ولما صارت هذه السوق مقصد الزراع من مختلف أنحاء القطر ، أخذت تضـيق بما يودع فيها من خضر وفاكهة . لذلك شرعت وزارة التجارة فى بناء سوق أخرى

٣ ـ سوق الخضر والفاكهة بروض الفرج:أقامت وزارة التجارة بالاتفاق مع وزارة الأوقاف هذه السوق سنة ١٩٤٧ على مساحة من الأرض بلغت ١٨ فدانا بجهة روض الفرج . فجاءت سوقا فسيحة تضم تجارة الجملة فى الخضر والفاكهة بمختلف أنواعها (١)

٤ ـ سوق الخضر والفاكهة بجهة أثر النبى : وكانت وزارة التجارة قد أنشأت سنة ١٩٣٥ سوقا أخرى لتجارة الجملة فى الخضر والفاكهة بجهـة أثر النبى ، يجرى العمل فيها وفقا للأنظمة المتبعة فى سوق روض الفرج

الغرفة التجارية لمدينة القاهرة :

كان لابد أمام ازدياد عدد المتاجر والتجار ، هـذه الزيادة الكبيرة فى مدينة القاهرة ، من أن تنشأ غرفة تجارية ، لتحل محل نظام الطوائف ، الذى كان سائدا فى القاهرة حتى القرن التاسع عشر ، ولتنظيم التجارة ، والعمل على ترقية الشئون الاقتصادية العامة

فبدأت المحاولة نحو تحقيق هذا الغرض سنة ١٩١٣ . ثم خرجت الى حيز الوجود سنة ١٩١٩ ، حيث تأسست غرفة مدينة القاهرة ، وانتخب المغفور له عبد القادر الجمال (باشا) ، سر تجار مصر اذ ذاك ، أول رئيس لها . وصدر أول قانون للغرف التجارية سنة ١٩٢٣ م . وبمقتضاه صـار

(١) المصدر السابق

اشتراك جميع التجار فيها اجباريا ، ولكل تاجر حق الترشيح لعضوية مجلس ادارتها بشروط خاصة

وانتهى الأمر بغرفة القاهرة الى تشييد البناء الفاخر الحالى بميدان الأزهار بالقاهرة ، وفق أحدث النظم للغرف التجارية العالمية . وفضلا عما يشتمل عليه من مكاتب الغرفة والطبقات الثلاث المؤجرة ، وقاعة العرض الفسيحة ، فهو يشتمل أيضا على قاعة محاضرات على أحدث طراز ، تتسع لنحو ألف شخص . وتدعو الغرفة المختصين من الأساتذة وكبار الموظفين والتجار ، لالقاء المحاضرات ، موضحة بالفانوس السحرى ، على جمهور التجار وغيرهم ، فى تلك القاعة الفاخرة

وتقوم الغرفة بأعمال هامة منها : تنظيم التجارة ، فتشترك فى اللجان الحكومية المختلفة لتحديد الأسعار ، ووضع القوانين المتعلقة بتجارة بعض السلع كالبن والصوف والشاى ، ورعاية صالح التجار والصالح العام فى نفس الوقت. والاشتراك فى المعارض المحلية والأجنبية ، والاتصال بالغرف التجارية الأجنبية لتنشيط التبادل التجارى بين مصر ودول العالم ، وتعريف التجار المصريين بالأسواق الأجنبية ، وأشهر المصانع فى العالم ، وأنواع منتجاتها وأثمانها وكل ما يتعلق بها

بورصة القاهرة :

هى عبارة عن سوق للأوراق المالية ، تتم فيها عمليات البيع والشراء ، بين البائعين والمشترين ، حسب الأسعار الحاضرة ، التى يحددها العرض والطلب

وتشغل هذه البورصة دارا فخمة ، بشارع الشريفين بالقاهرة ، أنشئت عام ١٩٢٨ ، وهى شركة مساهمة مصرية ، جميع أسهمها مقصورة على سماسرة البورصة والمنتمين اليهم

وتختص هذه البورصة ببيع وشراء الأوراق المالية من أسهم وسندات الشركات المساهمة ، والمدرجة فى جدول البورصة الرسمى ، والتى لا يقل

رأس مال احداها عن ثمانين ألف جنيه . وتحديد الأسعار خاضع كما هو معلوم للعرض والطلب . وحرصا على حقوق المتعاملين يقضى نظام البورصة بأن يدفع كل سمسار ألف جنيه ، كتأمين ، يتقاضى عنه فائدة سنوية قدرها ٥ ٪ . ويشرف على أعمال البورصة وأعمال القومسيون « اللجنة التنفيذية » نيابة عن وزارة المالية ، مندوب خاص ، لضمان حسن سير العمل فيها

المصارف :

ولقد اقتضى اتساع محيط التجارة فى مصر ونشوء علاقات تجارية بين مصر وكثير من بلاد العالم فى آسيا وأوربا وأمريكا ، وكذا تقدم الزراعة وتعميم الصناعة ، ازدياد عدد المصارف فى القاهرة ، وتعدد فروعها فى الأقاليم ، لقيامها بالأعمال المصرفية ، وتمويل التجارة والصناعة بالأموال . وتوجد أغلب المصارف فى قلب الأحياء التجارية ، فى شوارع قصر النيل وسليمان (باشا) والموسكى وطلعت حرب وروض الفرج ومصر الجديدة . وأكبر هذه المصارف البنك المركزى « البنك الأهلى » ٣١ شارع قصر النيل ، ثم بنك مصر : ١٥١ شارع محمد (بك) فريد

الصناعة :

ويوجد فى القاهرة وضواحيها من المصانع الكبيرة ، ومن الورش مايكاد يشمل كل نوع من أنواع الصناعات التى تباشر فى الجمهورية المصرية ، مثل صناعات الغزل والنسيج والتريكو والزجاج والجلود والمعادن والأثاث والأسمنت والبلاط والمواد الغذائية والمشروبات والزيوت ... الخ

وكثير من المصانع والورش منبث فى الأحياء السكنية فى القاهرة ، وهذا مما يعيب القاهرة ، ومما تعمل الحكومة على تفاديه فى الوقت الحاضر ، عند اعادة تخطيط القاهرة . ولذلك لايمكن تحديد المناطق الصناعية . ومع ذلك فنورد فيما يلى أهم الصناعات والأحياء الموجودة بها :

١ ــ حى بولاق : ويشتهر بأعمال الطباعة (المطبعة الأميرية ، ومطبعة الأهرام ، ومطبعة أخبار اليوم) ، والصناعات المعدنية كسبك المعادن ، وصناعة عربات السكك الحديدية « الورش الأميرية » وصناعة السفن واصلاحها (الترسانة ، وشركة كوك للملاحة النهرية)

٢ ــ حى السبتية : الصناعات المعدنية ، واصلاح القاطرات وعربات السكك الحديدية « ورش السكك الحديد »

٣ ــ حى معروف : اصلاح السيارات وصيانتها وصناعة الفطائر

٤ ــ الموسكى : صناعة الأحذية والحقائب الجلدية وحياكة الملابس

٥ ــ الدرب الأحمر والحلمية : صناعة الأثاث والأدوات الخشبية ، والمخابز

٦ ــ القلعة والخيمية : صناعة الخيام وصناعة البناء

٧ ــ النحاسين : صناعة الأوانى النحاسية والموازين

٨ ــ خان الخليلى والصاغة : صناعة التحف وصياغة الحلى الذهبية والمجوهرات

٩ ــ تحت الربع : خرط الأخشاب، والمصنوعات الرخامية والأدوات المنزلية

١٠ ــ سوق السلاح : صناعة بعض أنواع الأسلحة وسبك المعادن

١١ ــ مصر القديمة : قطع الأحجار، وصناعة الأوانى الفخارية وصناعة الطوب والجير

١٢ ــ العباسية : صناعة البلاط والطوب الصناعى واصلاح السيارات والطرابيش

١٣ ــ الحوامدية : تكرير السكر

١٤ ــ طره : صناعة الأسمنت ، والمواسير الفخارية ، وتقطير الكحول

١٥ ــ الجيزة : صناعة السجاير (مصنع ماتوسيان) ، وصناعة الحصر ،

والطوب الأحمر واصلاح القوارب

١٦ ــ امبابه : صناعة التريكو (مصنع الشوربجى) . والفواكهالمحفوظة والبلح المجفف . والطوب الأحمر . صباغة وتجهيز المنسوجات (شركة الشرق للغزل والنسيج)

١٧ ــ بولاق الدكرور : المياه الغازية (مصانع الكوكاكولا)

١٨ ــ ضاحية الأهرام : صناعة الأفلام السينمائية ، والميــاه الغازية (شركة البيبسى كولا)

١٩ ــ حلوان : صناعة الحديد (مصنع الحديد والصلب) . نسج الحرير (شركة مصر)

٢٠ ــ أبو زعبل : أحجار الرصف ، وصهر الحديد

٢١ ــ شبرا الخيمة : تعتبر ضاحية القاهرة الصناعية . وتقوم فيها كثير من المصانع والصناعات الكبيرة من ذلك صناعة الزجاج (مصانع السيدياسين) والغزل والنسيج ، وصناعة الكاوتشوك والبطاريات السائلة ، والسماد العضوى ، والورق ، والبلاستيك

٢٢ ــ حى الأزهر : طبع الكتب وتجليدها

٢٣ ــ حى درب البرابرة بالموسكى : صناعة الحلوى والفطائر والطباعة وصناعة الورق

٢٤ ــ حى عابدين : توجد به كثير من الصناعات المختلفة من ذلك : صناعة الأثاث وحياكة الملابس والطباعة واصلاح السيارات وعمل الأحذية وحقائب السيدات ، وصناعة الطرابيش والمخابز وترصيع الحلى واصــلاح الساعات وصناعة الكليشيهات

وفيما يلى احصاء لعدد المؤسسات الصناعية بالقاهرة وعدد العمال والمشتغلين فيها :

النوع	عدد المصانع	عدد العمال	عدد المشتغلين
الأثاث	٢٨٦١	٥١٤٩	٨١٤٦
عجينة الورق والكرتون	٠٠٥	٤١١	٤٢٩
طبع الكتب والجرائد	٣٤٣	٨٤٥٥	١٢٦٦٤
دباغة الجلود	١٠٤	١٦١٦	١٧٣٦
الكاوتشوك	١٠٤	٥٠٦	٦٣٢
البلاستيك	٠٠٨	١٤٤	١٥٥
الطوب الأحمر	٠٢٩	٧٤٦	٨١٩
الزجاج	٦٧	٨٧٣	١٠٠٤
الاسمنت	٠٣	٢٢٠١	٢٣١٨
الملابس	٤٢٥٦	٧٩٦٣	١٦٦٣١
البلاط	١٣٣	١١٥٦	١٢٨٨٢٨٨
الأحذية	٢٦٧٣	٥٣١٣	٨٢٠٧
خراطة الأخشاب	١٧٤	٦٠٥	٨١٦
المخابز	٩١٦	٦٧٣٤	٨٢٧٠
الحلوى	٥١٣	٤١١٠	١١٣٥٧
اصلاح السيارات	٤٢٤	٣٤٥٦	٤٢٥٢
الجملة	١٢٦١٣	٤٩٤٣٨	١٣٦٥٧٢٤

معارض القاهرة :

رأيت ان القاهرة أعظم سوق تجارية فى الجمهورية المصرية . وفضلا عن ذلك فهى تؤدى دورالموجّه للصناع والزراع فى جميع أنحاء الجمهورية ، بما هو قائم ويقوم فيها من مصانع وورش ومعارض ، حفلت بشتى المصنوعات والحاصلات والمنتجات الزراعية

ومن هذه المعارض ما هو دائم ، يفتح أبوابه طوال العام ، لتلقى الزائرين ، كمتحف القطن بالجمعية الزراعية بالجزيرة ، والمتحف الزراعى بالدقى ، ومتحف وزارة التجارة والصناعة ، ومعرض الغرفة التجارية بالقاهرة .. ومنها ما يقام فى فترات معينة ، على أرض الجمعية الزراعية

المصرية بالجزيرة أيضا ، وتعد له العدة ، ليكون معرضا عاما شاملا ، يمكن الشركات والمصانع من عرض أجود ما أخرجته من مصنوعات ومنتجات ، ليحفز الصناع والزراع الى مسايرة التقدم الذى تحرزه الصناعة والزراعة على الدوام

المعرض الزراعى الصناعى :

تؤدى الجمعية الزراعية المصرية خدمة لا تقدر بتخصيصها مساحة كبيرة من سراياها بالجزيرة ، لاقامة معرض عام ، كل خمس سنوات ، للحاصلات والمنتجات الزراعية ، وللصناعات . وقد أقيمت هذه المعارض فى سنوات ١٩٢٦ ، ١٩٣١ ، ١٩٣٦ ، ١٩٤٩.

ولقد كان معرض سنة ١٩٤٩ م أفخم تلك المعارض جميعا ، وأحفلها ، إذ لم تتسع له سراى الجمعية على رحابتها ، بل امتد فشغل أيضا حديقة الجزيرة المقابلة لها . ونسقت المعروضات تنسيقا بديعا . واشتركت فيه جميع الهيئات والمصالح الحكومية والشركات الصناعية ، والمؤسسات الأهلية ، والغرف التجارية ، فجاء معرضا حافلا شاملا ، أمه مئات الآلاف من الزوار ، من مختلف أنحاء القطر ، والأقطار المجاورة ، ووقفوا على أحدث المنتجات الزراعية والصناعية

معارض محلية اخرى :

وتستغل بعض الجهات الاقتصادية سراى الصناعات الصغرى بأرض المعرض بالجزيرة ، لاقامة معارض خاصة ، بين آن وآخر ، من ذلك : المعرض النوعى للصناعات ، وقد أقامته الغرفة التجارية للقاهرة فى ابريل سنة ١٩٤٠ ومعرض الأزياء ، وقد أقامته هذه الغرفة أيضا فى أواخر مارس سنة ١٩٣٩

معرض منتجات المركز الاجتماعى :

وفى يونية سنة ١٩٤٦ أقامت المراكز الاجتماعية ، التى أنشأتها مصلحة الفلاح التابعة لوزارة الشئون الاجتماعية معرضا فى سراى الصناعات الصغرى بأرض المعرض بالجزيرة ، لمنتجات الصناعات الريفية التى تباشرها

وتنشرها فى القرى ، لزيادة دخل الفلاح الصغير ، والعامل الزراعى الأجير ، بتعليمه وأسرته صناعة منزلية يباشرونها فى أوقات فراغهم

وقد عرضت فى هذا المعرض معروضات شتى من منتجات تلك الصناعات مثل الأكلمة ، والأقمشة ، والأثاث المصنوع من الجريد ، وأعمال التريكو ، والدواسات الليف ، والفرش ، ومنتجات الفواكه المجففة ، والشربات ، والمربيات ... الخ . وقد زار هـذا المصنع آلاف من الزائرين ، ولقيت معروضاته اقبالا كبيرا منهم

معارض وزارة التربية والتعليم :

كذلك تعرض وزارة التربية والتعليم فى سراى الصناعات الصغرى ، بين وقت وآخر ، منتجات المدارس الصناعية ، خصوصا صناعة الأثاث والمنسوجات والأبسطة والأكلمة وغيرها ، متيحة الفرصة للمواطنين أن يبتاعوا مصنوعات متينة ، بأسعار معقولة ، وبشروط مقبولة ، ولتنشر بين الصناع أساليب الصناعة الحديثة

المعارض الاجنبية :

ولا تقتصر الجمعية الزراعية على اقامة المعارض المحلية ، بل انها تلبى نداء الدول الأجنبية ، فى اقامة معارض لها بسراياها . وقد أقيمت فى سنتى ١٩٥٦ ، ١٩٥٧ عدة معارض بسراى الصناعات الصغرى والكبرى لتشيكوسلوفاكيا ، والصين الشعبية ، واليابان ، والجمهورية الألمانية الشرقية والغربية . وعرضت كل من تلك الدول أحدث صناعاتها ومنتجاتها ، وتهدف من وراء ذلك الى الاعلان عن صناعاتها ، وتقريب منتجاتها الى متناول يد المستهلك المصرى ، وايجاد سوق لها فى مصر ، وعقد الصلات التجارية المتينة بينها وبين الجمهورية العربية المتحدة ودول الشرق الأوسط

الباب العاشر

قاهرة الغد

استعرضنا فيما سبق ، نشأة القاهرة ، والمدن التي قامت قبلها ، وأوضحنا أن هذه المدن بما فيها القاهرة ، اتجهت من أقصى جنوب الوادى الى شماله ، فيما بين تلال المقطم من الشرق ، والشاطىء الشرقى للنيل من الغرب . ولما شيدت القاهرة المعزية أصبحت الفسطاط والقطائع كضاحيتين بالنسبة للقاهرة

وقد كانت حركتا الانشاء والتعمير تسير سيرا وئيدا ، اذ لم يكن عدد السكان يزداد زيادة كبيرة . بل لقد كانت الأوبئة والطواعين ، التى كانت تنتاب البلاد ، وخصوصا القاهرة ، بين آن وآخر ، عاملا فى نقصان عدد السكان حينئذ

وفى عهد المماليك ، أخذت القاهرة تغزو صحراء العباسية ، وأخذت المبانى تتناثر هنا وهناك ، حتى وصلت الى حدود مديرية القليوبية حاليا. وكان ذلك ايذانا بامتداد المدينة فى الاتجاه الشمالى الشرقى ، فى مستقبل أيامها . وقد حدث ذلك فعلا ابتداء من القرن التاسع عشر وفى القرن العشرين الحالى ، اذ أنشئت ضواحى العباسية ومصر الجديدة والقبة وحدائق القبة والمطرية وعين شمس ، وازدحم أغلبها بالسكان ازدحاما كبيرا ، بسبب اختناق القاهرة بساكنيها ، فنفست هذه الضواحى عنها ، وأسهمت فى حل الضائقة التى نجمت عن الزيادة المطردة فى عدد سكان العاصمة

كذلك اتجهت المدينة فى اتجاه آخر ، صوب الشمال الغربى ، حيث أنشىء حيَّان عظيمان ، هما حيَّا شبرا وروض الفرج ، وامتدت المبانى حتى وصلت الى شبرا الخيمة ، وغصَّا بالسكان ، وأضحيا كمدينة قائمة

بذاتها ، عامرة بالمبانى والمنشآت الحديثة ، آهلة بالسكان

ولم يعد النيل حائلا دون امتداد المدينة ناحية الغرب أيضا ، فقد كان بناء القناطر العديدة (الكبارى) عاملا هاما فى استيطان النـاس الأراضى الممتدة على الشاطىء الغربى للنيل ، تجاه القاهرة . فأنشئت أحياء الدقى والعجوزة والروضة والمنيل ، وصارت جميعا احياء عامرة ، آهلة بالسكان

كذلك امتدت المدينة جنوبا ، فعمرت المعادى وطره وحلوان ، وزحف اليها الناس ، وتكاثر عددهم ، وستزداد هذه المدن ازدهارا بعد أن أنشىء كورنيش النيل ، الذى قـرّب المسافة بينها وبين القاهرة كذلك عمّر شارع الهرم بما أنشىء على جانبيه من عمائر شاهقة ، ومبان فخمة ، وتحويل كثير من القرى هناك الى مناطق سكنية عامرة . وقد كان للجمعيات التعاونية السكنية يد فى الانشاء والتعمير بما أنشأته من منازل لأعضائها فى أحيـاء متفرقة فى العجوزة والدقى ودار السلام والقبة وغيرها

وقد كان تعدد طرق المواصلات الحديثة ، وتوافرها ، وسرعتها عوامل أساسية فى امتداد القاهرة فى كل اتجاه ، حتى لم تعد تعتبر هذه الأحياء ضواحى للقاهرة ، فان أقصاها لايبعد عن القاهرة اليوم بأكثر من دقائق معدودات

قلنا ان عدد سكان القاهرة فى زيادة مطردة : فقد كانوا ٣٩٨ر٦٨٣ نسمة سـنة ١٨٨٢ ، ٥٨٩٥٧٣ سـنة ١٨٩٧ ، ٦٧٨ر٤٣٣ سنة ١٩٠٧ ، ٧٩٠ر٩٣٩ سنة ١٩١٧ ، ١ر٠٦٤ر٥٦٧ سنة ١٩٢٧ ، ١ر٣١٢ر٠٩٣ سنة ١٩٣٧ ، ٢ر٠٩٠ر٦٥٤ سنة ١٩٤٧ (١) . ويستنتج من ذلك ان زيادة عدد سكان القـاهرة فى خمسـين السنة الأخيرة بلغت مليـونا ونصـفا . واذا اتخذت هذه الزيادة مقياسا فسيبلغ عدد السكان فى خمسين السنة القادمة ثلاثة مـلايين ونصـفا . وسـتدعو هـذه الزيادة المنتظـرة الى التفكير

(١) المعتاد أن تجرى عملية احصاء السكان فى الجمهورية المصرية كل عشرة اعوام ، وقد اجل الاحصاء الذى كان سيجرى سنة ١٩٥٧ الى عام ١٩٦٠

الطويل فيما ستكون عليه القاهرة سنة ٢٠٠٠ م ، وتعديل تخطيطها بما يتناسب والزيادة المرتقبة ، التى نعتقد أنها ستفوق المنتظر بكثير ، لعوامل متعددة ، لم تكن متوفرة فى الماضى ، بل ان مستقبل مصر الزاهر ، وعهدها الجديد المبارك ، بما ينطوى عليه من نهوض وتقدم فى جميع نواحى الحياة ، ليبشر بزيادة فى عدد السكان قد تزيد عما قدمناه ، قياسا على الزيادة فى خمسين السنة الماضية . وهذا ما يشغل اليوم بال وزارة الشئون البلدية والتخطيط ، وتعمل جاهدة بمعونة هيئة التخطيط التى أنشأتها لدراسة التدابير اللازمة وتحقيقها بالتدريج

وقد انتهت هذه الهيئة بعد دراستها الموضوع الى وضع تقرير رأت فيه وجوب الشروع فى تخطيط القاهرة تخطيطا جديدا ، يحدد المناطق السكنية والصناعية ، والأحياء التجارية ، وأحياء الأعمال ، والجبانات ، وشبكة الطرق البرية الرئيسية ، وشبكة خطوط المواصلات جميعا . وطالبت بضرورة تحديد الهجرة الى القاهرة ، وتوزيع الخدمات العامة توزيعا عادلا فى الأحياء المختلفة

والحقيقة ان الزيادة المطردة فى عدد سكان القاهرة لا ترجع فقط الى زيادة نسبة المواليد على نسبة الوفيات بسبب الاهتمام الفائق بالحالة الصحية بوجه عام فى جميع أنحاء البلاد ، وانما ترجع أيضا الى توالى الهجرة الى القاهرة ، اذ يتركز فيها النشاط الحكومى والصناعى والتجارى والثقافى والعلمى والفنى . ثم ان عدم تحديد الأحياء ، وتدخل المناطق الصناعية فى المناطق السكنية ، وشغل الجبانات مساحة واسعة من تلك المناطق ، وكذا المعسكرات الحربية ، مع عدم وجود احتياطى فى المناطق السكنية يستوعب الزيادة الناشئة ، كل ذلك يستدعى ، كما قدمنا ، ضرورة النظر فى اعادة تخطيط القاهرة

وقد اتخذت خطوات ناجحة بالفعل نحو تنفيذ هذه الخطة ، فبدىء فى نقل الجبانات مثل جبانة السيدة نفيسة وجبانة باب النصر من قلب القاهرة ،

الأولى الى أرض البساتين والثانية الى العباسية بأرض الغفير

كذلك أخذ فى نقل بعض المصانع الى غمرة فى الأرض التى تخلفت عن ردم ترعة الاسماعيلية ، هذا بالاضافة الى المصانع التى أقيمت فى شبرا الخيمة التى ستصبح مستقبلا ضاحية القاهرة الصناعية . ولقد تحولت كثير من الخرائب والكيمان والأحياء التى كانت منبثة فى أرجاء القاهرة الى مبان سكنية شاهقة استوعبت كثيرا من السكان الذين أجلوا عن مساكنهم التى تهدمت بسبب ازالة بعض الأحياء القديمة أو انشاء الشوارع والميادين الجديدة ، كما خططت هضبة المقطم ونظمت فيها الميادين والشوارع ، ونسقت المتنزهات والحدائق وأنشئت الفنادق والمقاهى وأقيمت القصور والمنازل

وقد أزيلت أحياء بأكملها من القاهرة ، كانت وصمة فى جبينها ، وأعيد تخطيطها أو اخترقتها الشوارع أو أنشىء فى مكانها الميادين الفسيحة ، من ذلك : حى الفوالة بعابدين وعشش الترجمان وحى الزهار ببولاق وعرب اليسار وعزبة الصفيح بالعباسية وتلال زينهم بالسيدة زينب

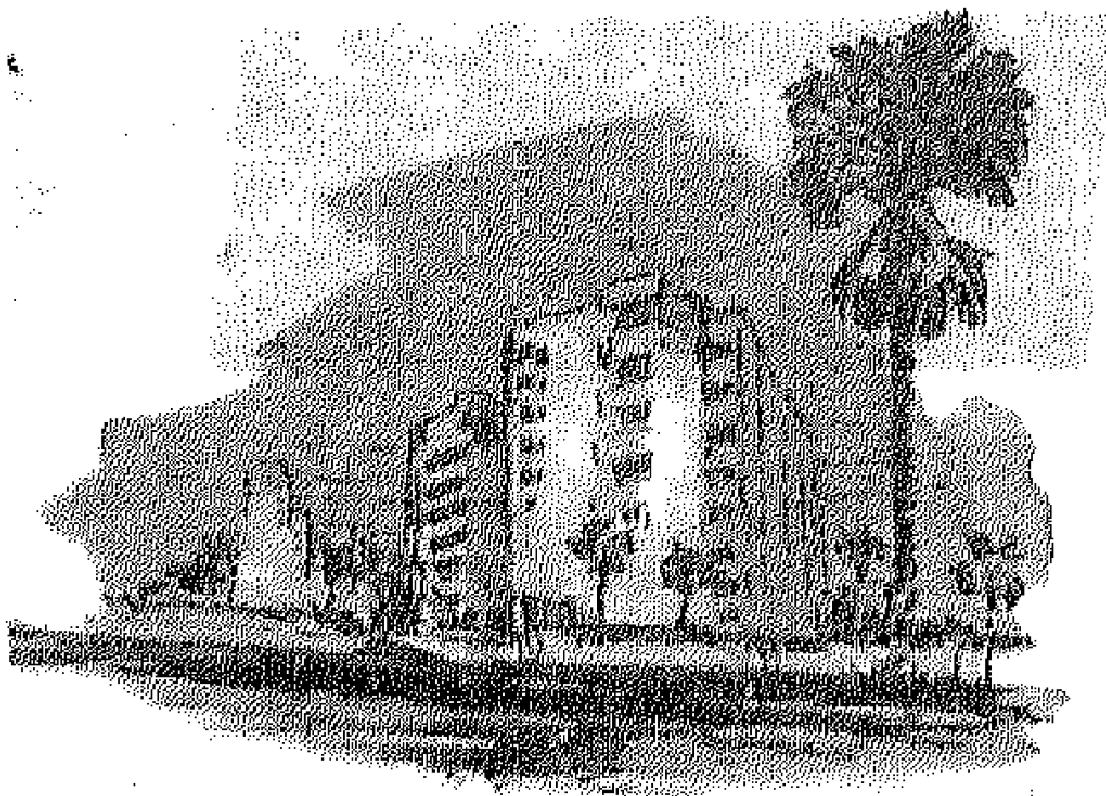
ولن تأتى سنة ٢٠٠٠ م الا وستكون القاهرة قد تضاعفت مساحتها ، فامتدت ناحية الشرق ، وتوغلت فى الصحراء مسافات بعيدة ، فتتصل العباسية بمصر الجديدة . ثم تمتد الأخيرة شرقا فى طريق السويس وغربا لتتصل بالزيتون والمطرية ، وتتصل الأخيرة بعين شمس وأبى زعبل

كذلك يحدث نفس الشىء فى القرى المقابلة للقاهرة على الشاطىء الغربى للنيل ، ابتداء من امبابة حتى الأهرام حيث تتصل بعضها ببعض ، يدخل ضمن ذلك مدينة العمال والعجوزة وعزبة الحوتية والدقى ومدينة الأوقاف وبولاق الدكرور والجيزة ومنطقة الهرم . وسيزداد توغلها غربا حتى تتصل بالطريق الصحراوى بين القاهرة والاسكندرية

ولا جدال فى أنها ستكون حينئذ أعظم مدن الشرق قاطبة ، ومن أعظم مدن العالم الحديث



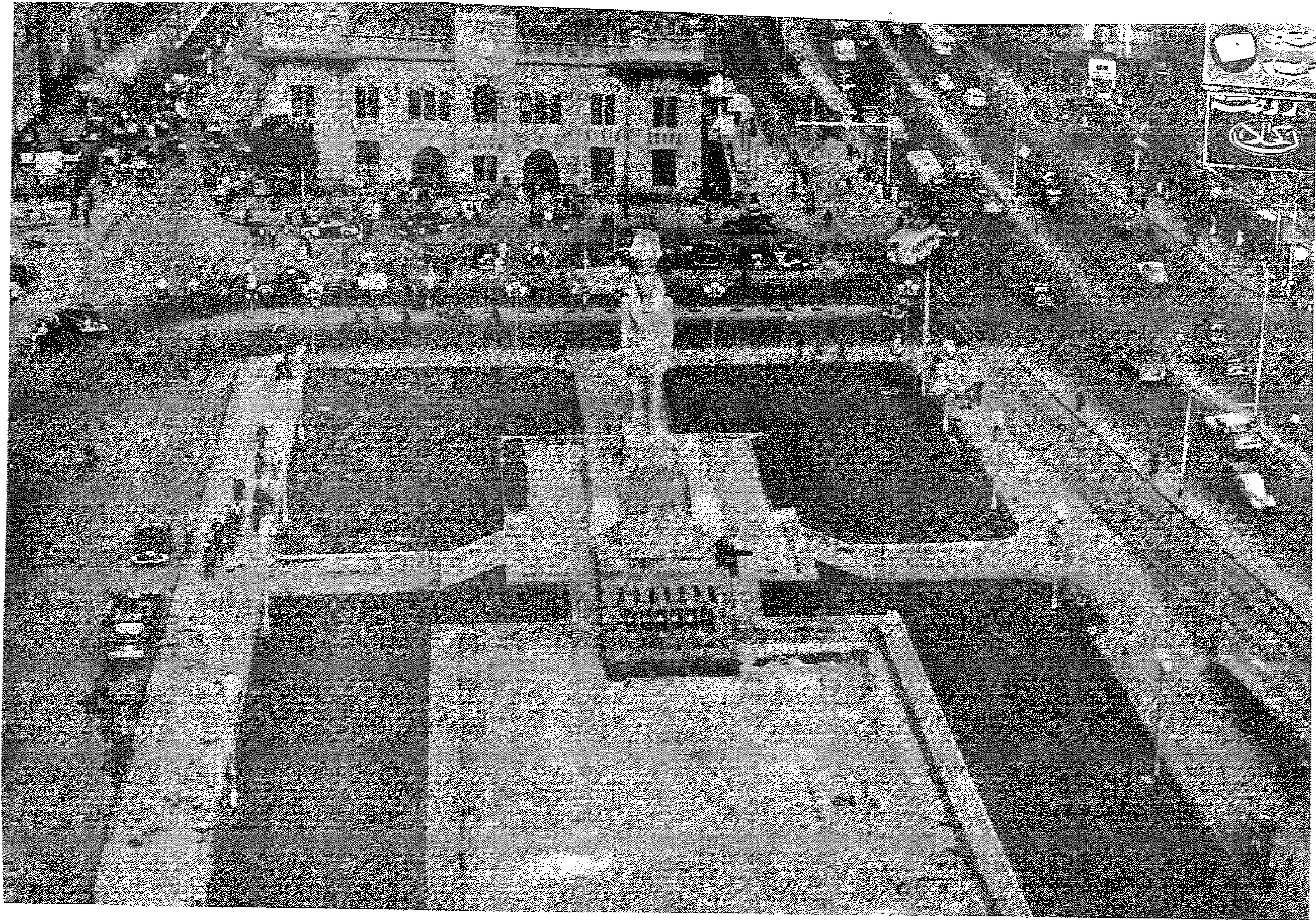
بعض المساكن الشعبية بمدينة العمال فى حلوان ، وهى احدى مدن كثيرة انشئت فى القاهرة وضواحيها للتخفيف من حدة ازمة المساكن ، ومعاونة ذوى الدخل المحدود



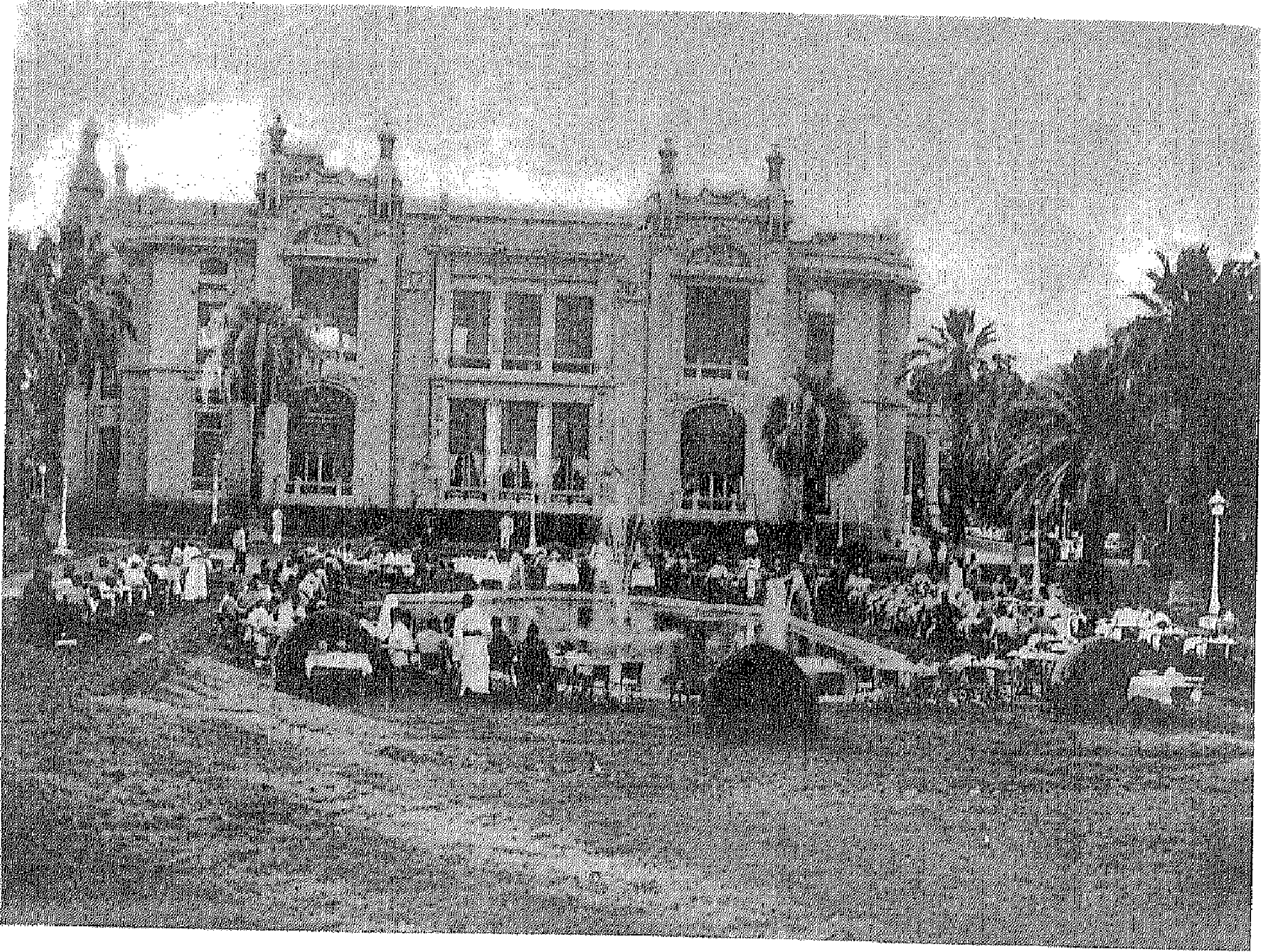
احدى العمارات الشاهقة بالقاهرة ، الواقعة على النيـــل ، والتى انشئت حديثا وفق الهندسة الاوروبية وتمتاز بمتانة الأساس ، واحـــكام البنـــاء ، وعلو الأرتفـــاع



متحف القطن بأرض الجمعية الزراعية بالقاهره، وهو نعتبر معهدا هاما يشاهد فيه الزائر ادوار زراعة القطن ، واطوار نموه ، وأنواعه ، والصناعات التى تتفرع عنه

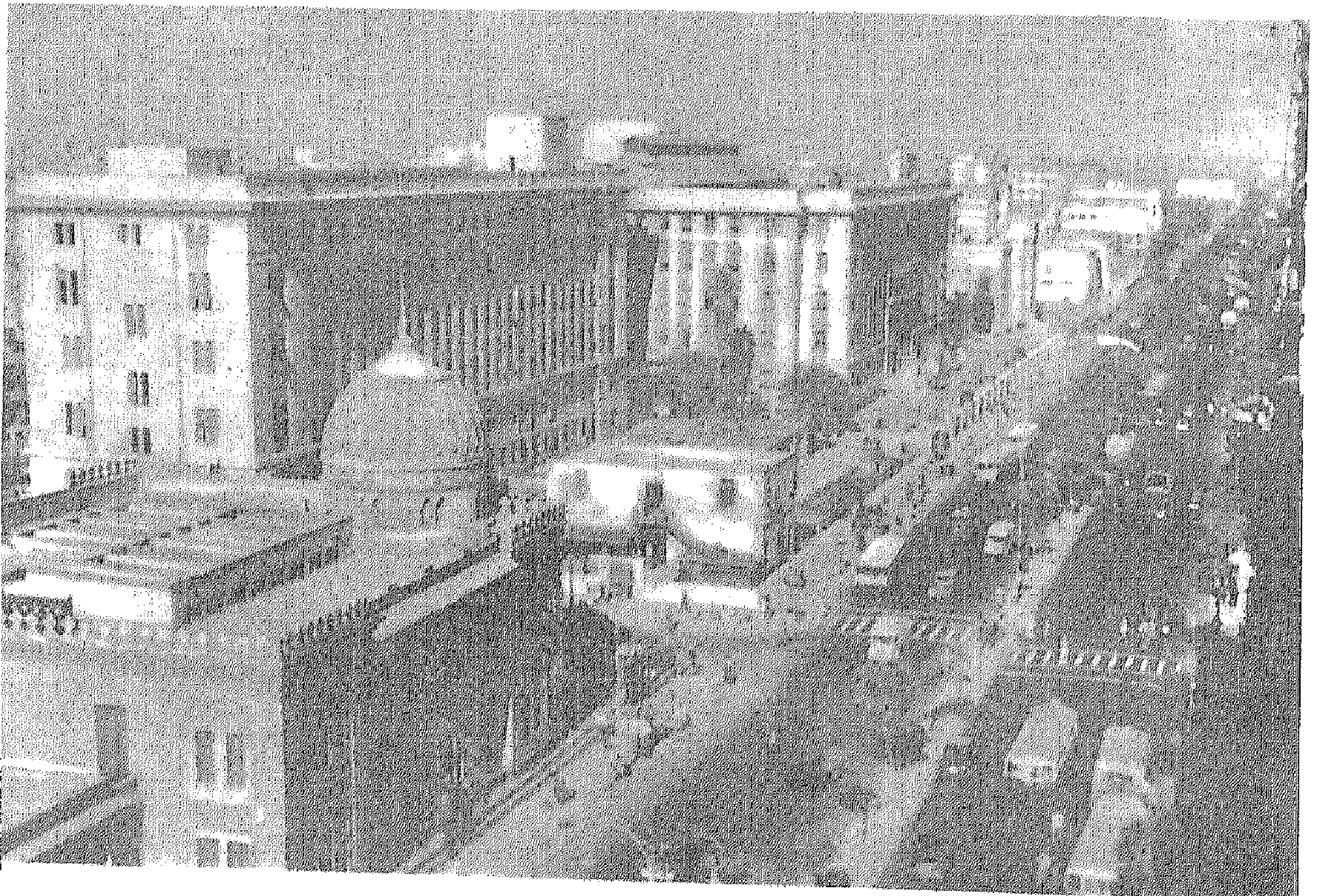


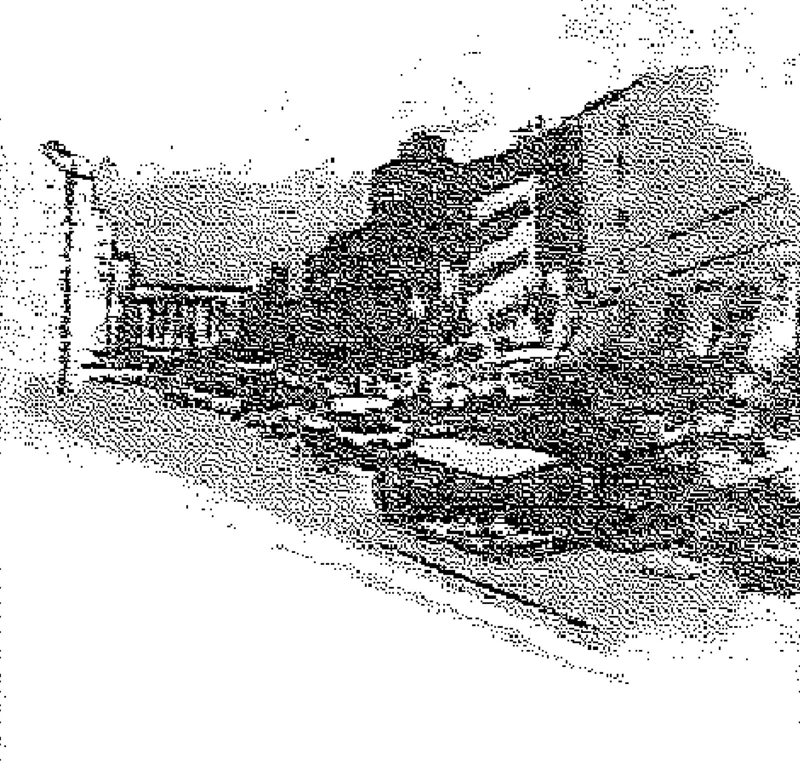
ميدان رمسيس (ميدان المحطة) بعد اعادة تنظيمه . ويرى فى وسطه تمثال رمسيس الذى نقل اليه من البدرشين



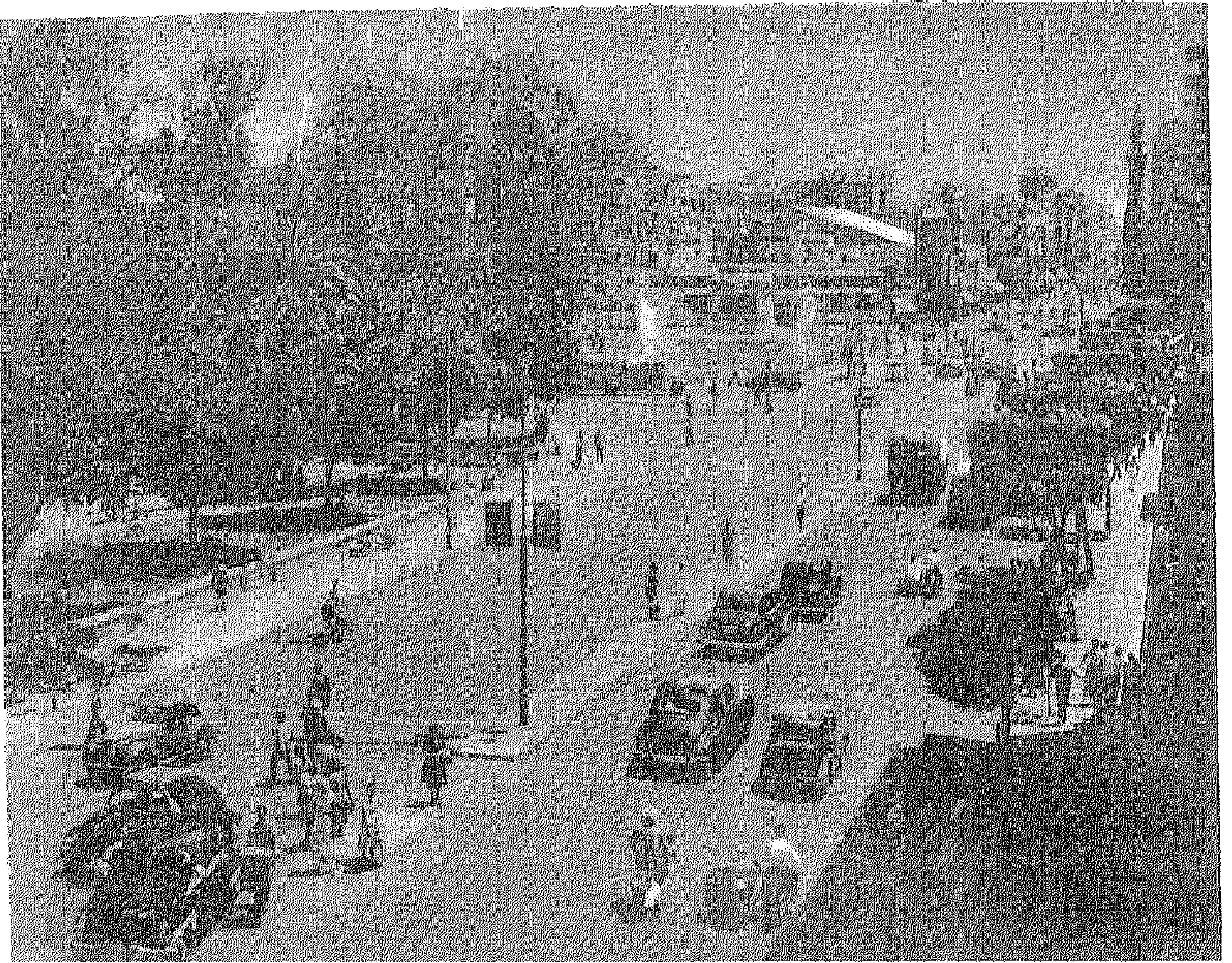
قصر الزعفران بالعباسية ، وقدتحول الى مبنى ادارة جامعة عين شمس

جزء من شارع رمسيس ، ويرى به معهد الموسيقى الشرقى،يليه المركزالرئيسي للتليفونات ، فمبنى ادارة مصلحة المواصلات السلكية واللاسلكية



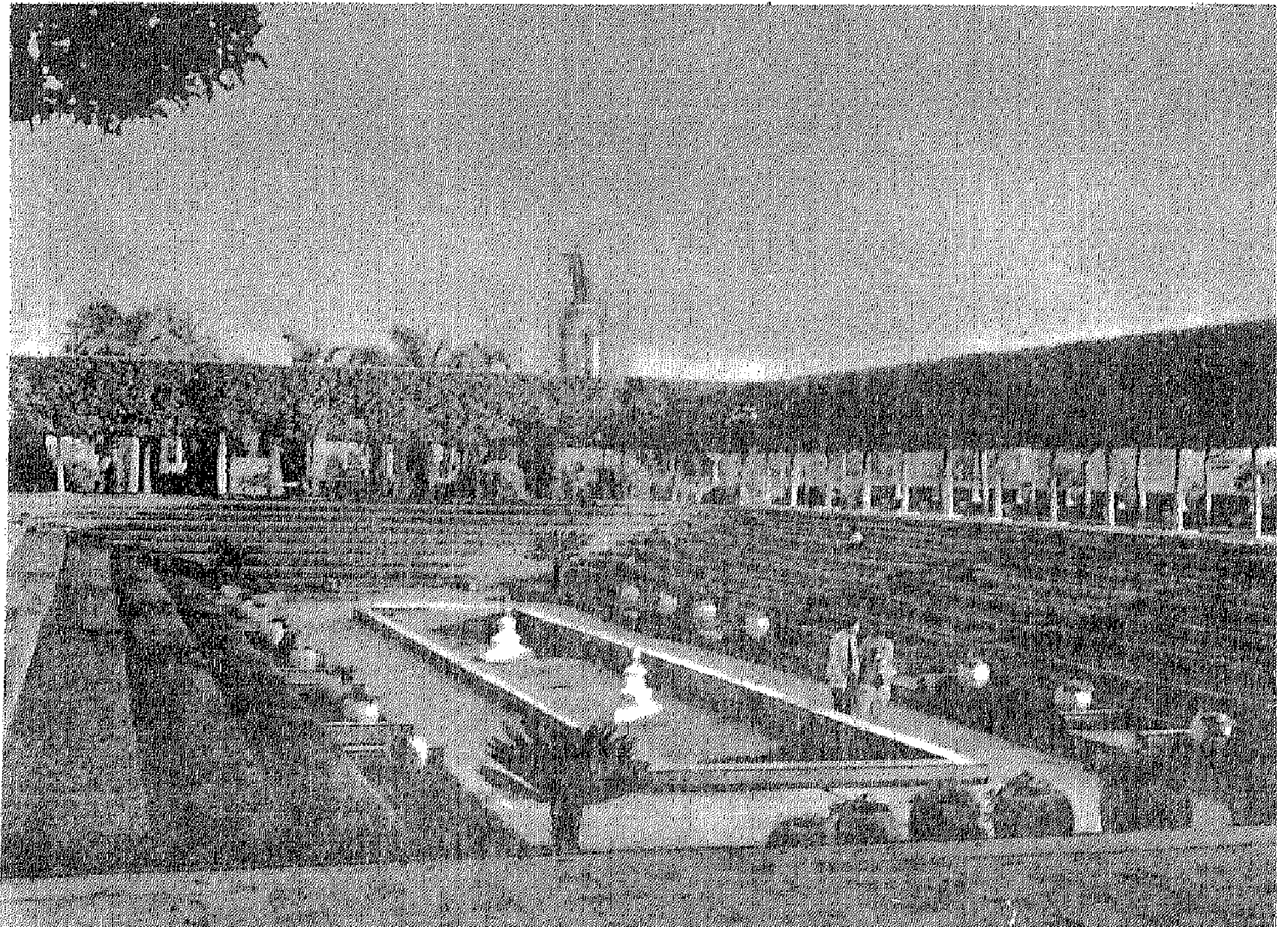


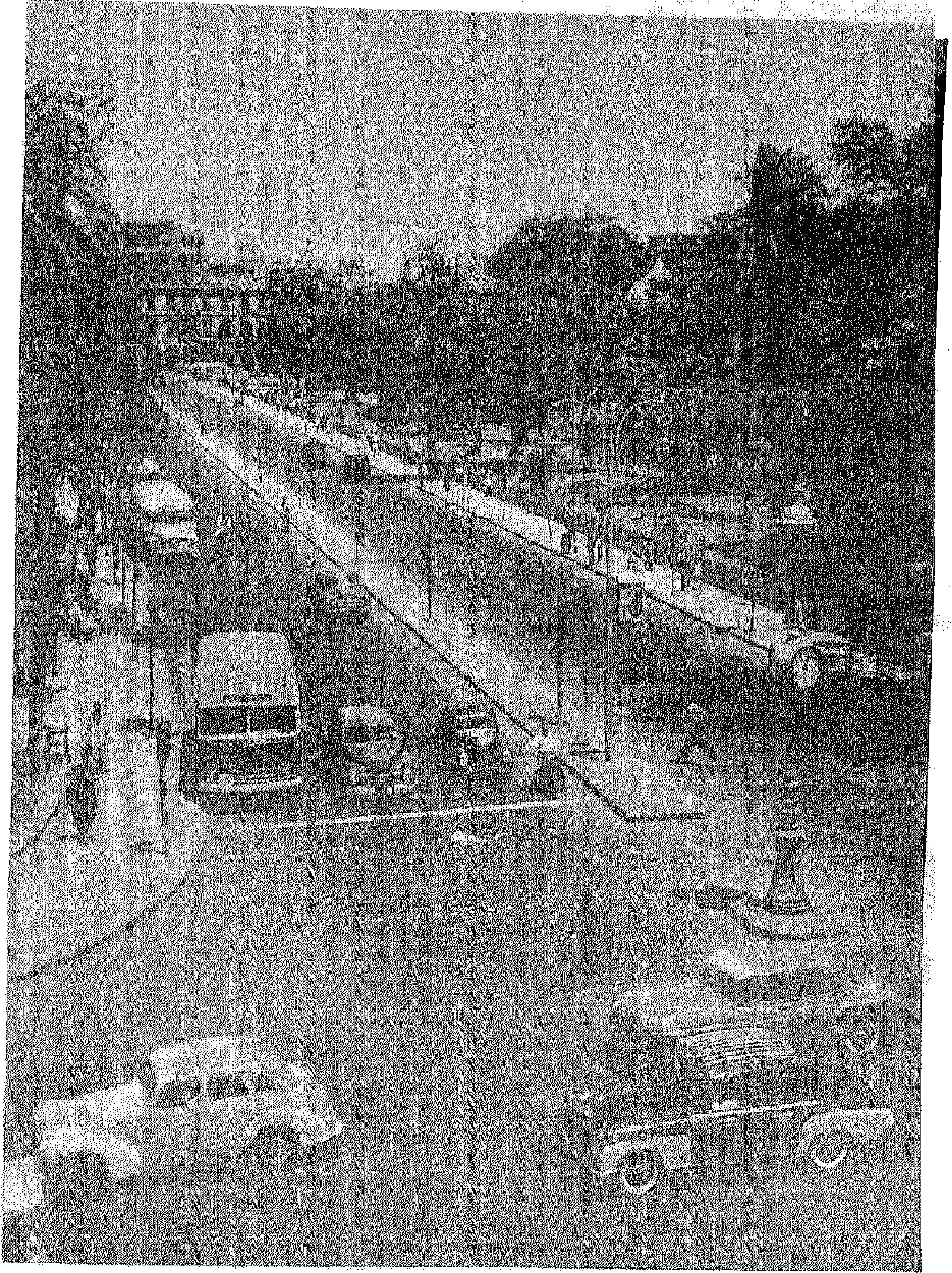
شارع ٢٦ يوليو وتقاطعه مع شارع محمد فريد . وترى المبانى الشامخة ، والمحال التجارية العامرة ، وحركة المواصلات الدائبة، والمبنى المستعرض فى نهاية الشارع من جهة الغرب هو مبنى القضاء العالى



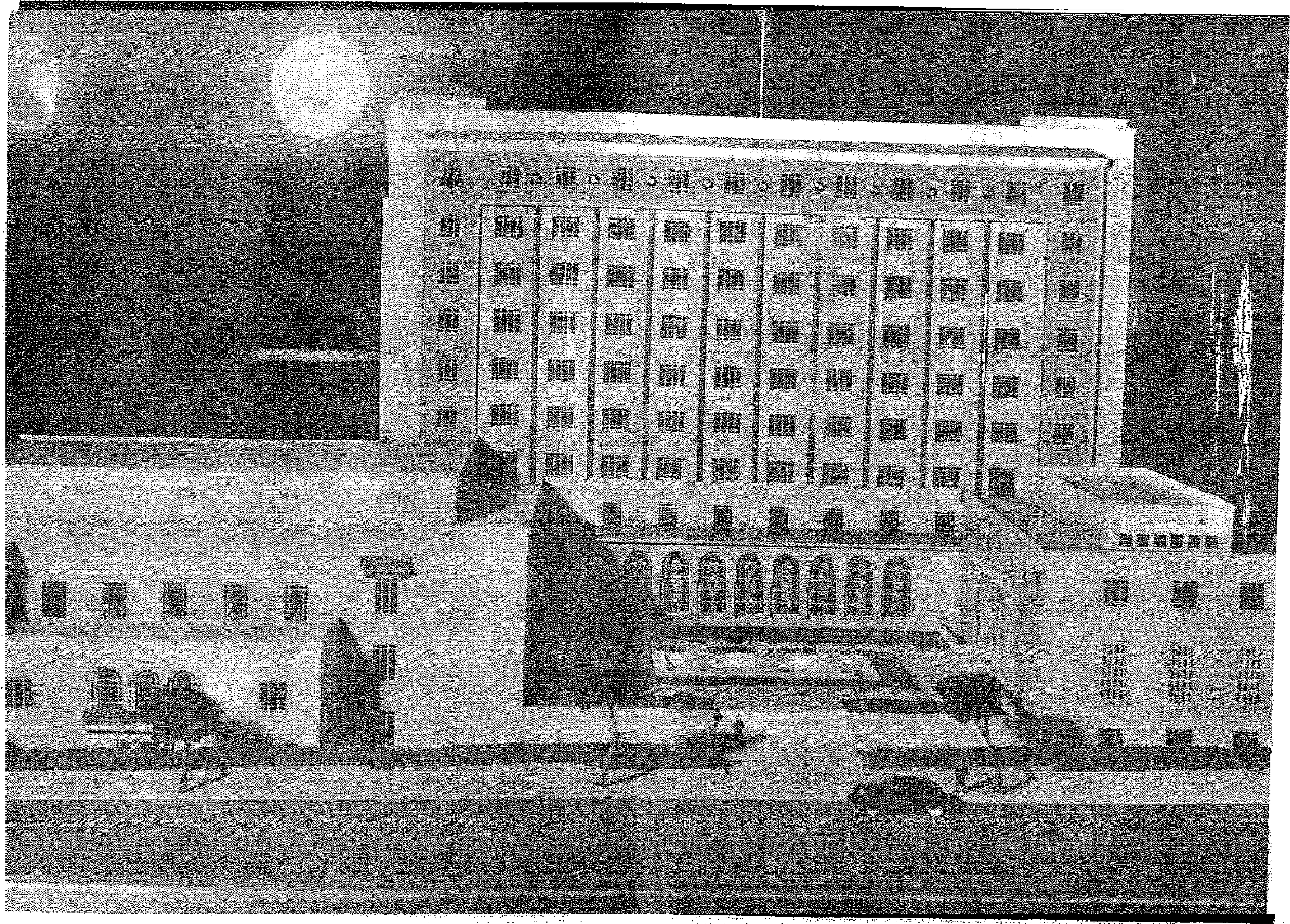
شارع الاوبرا : ويرى فى وسطه تمثال ابراهيم ، ومبنى الاوبرا وحديقة الازبكية. وهو من اكثر شوارع القاهرة حركة، وينتهى من جهته البحرية بميدان رمسيس

حديقة الاندلس بالجزيرة ، وهى من اجمل حدائق القاهرة وترى الفسقية يحيط بها المدرجات السندسية ، وصفوف الاشجار التى تشكل سياجا اخضر حولها

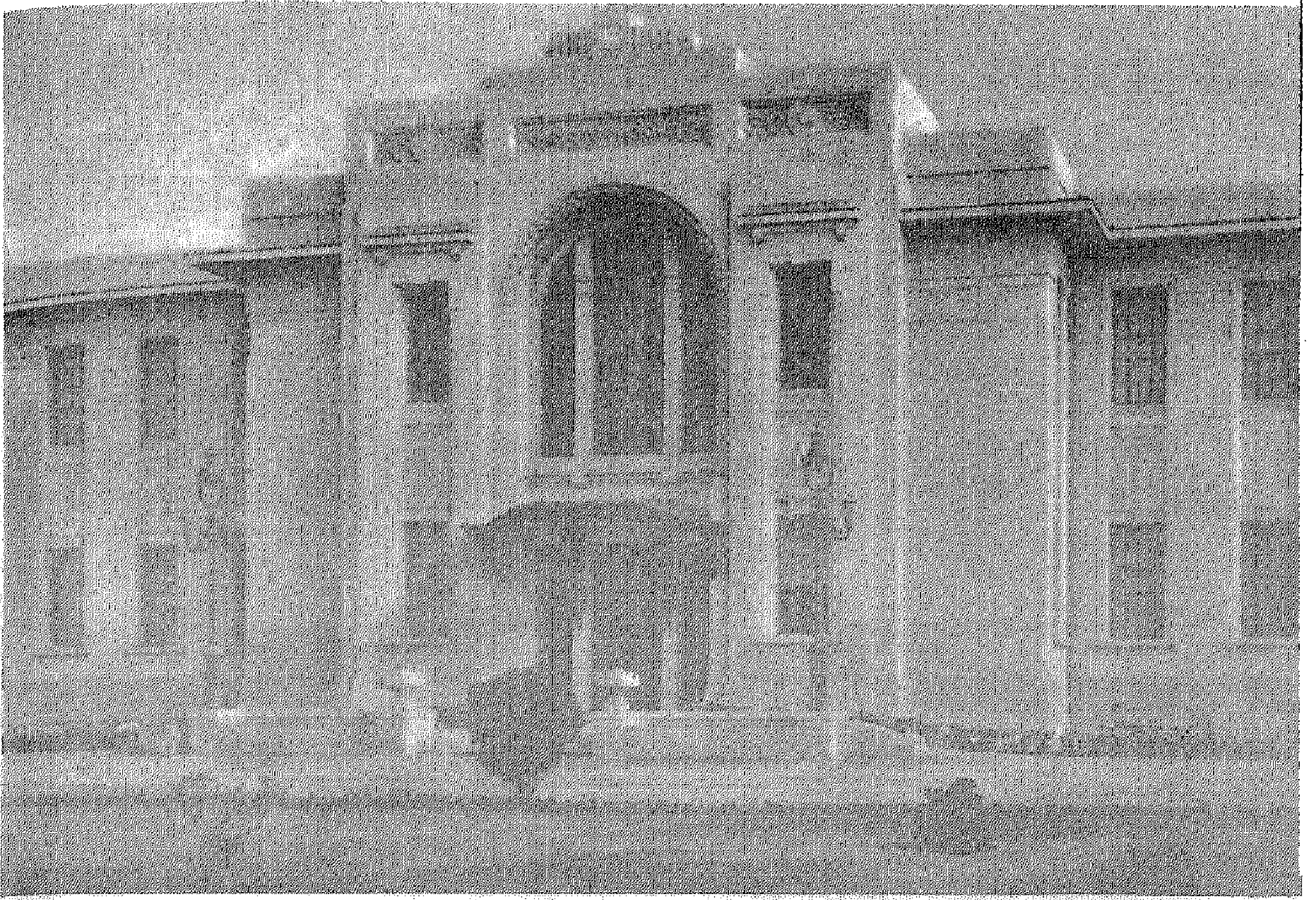




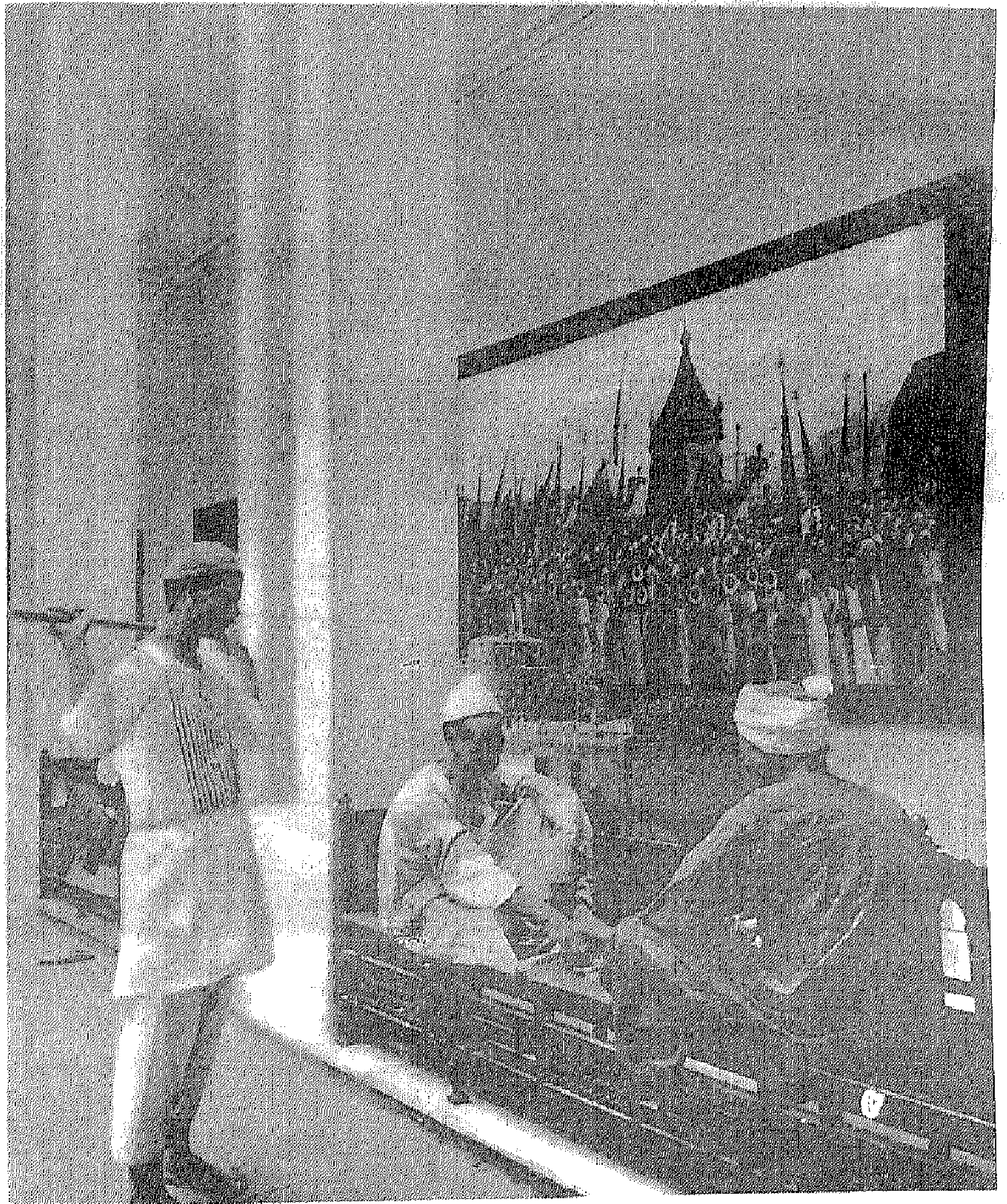
حديقــة الازبكية يخترقها شارع ٢٦ يوليو ، ويعتبر هذا الشارع من اعمال الثورة الجليلة اذ سهل الانتقال الى منطقة العتبــة والشوارع المتفرعة منهــا



مبنى جامعة الدول العربية على النيل،امام وزارة الخارجية. ويتكون من ثلاثة أجنحة ، تتوسطها نافورة . ويتكون كل من الجناحين الشرقى والغربى من ثلاثة طوابق . اماالجناح الاوسط فيتكون من عشرة طوابق . . .



▲
واجهة المتحف الزراعى



صالة حياة الفلاح فى المتحف الزراعى بالدقى . ويرى فلاحان يلعبان النرد ، وآخر يشاهدهما . وما ثلاثتهما سوى تماثيل اتقن الفنان صنعها . وعلى الحائط توجد صورة تمثل الاحتفال بالمحمل

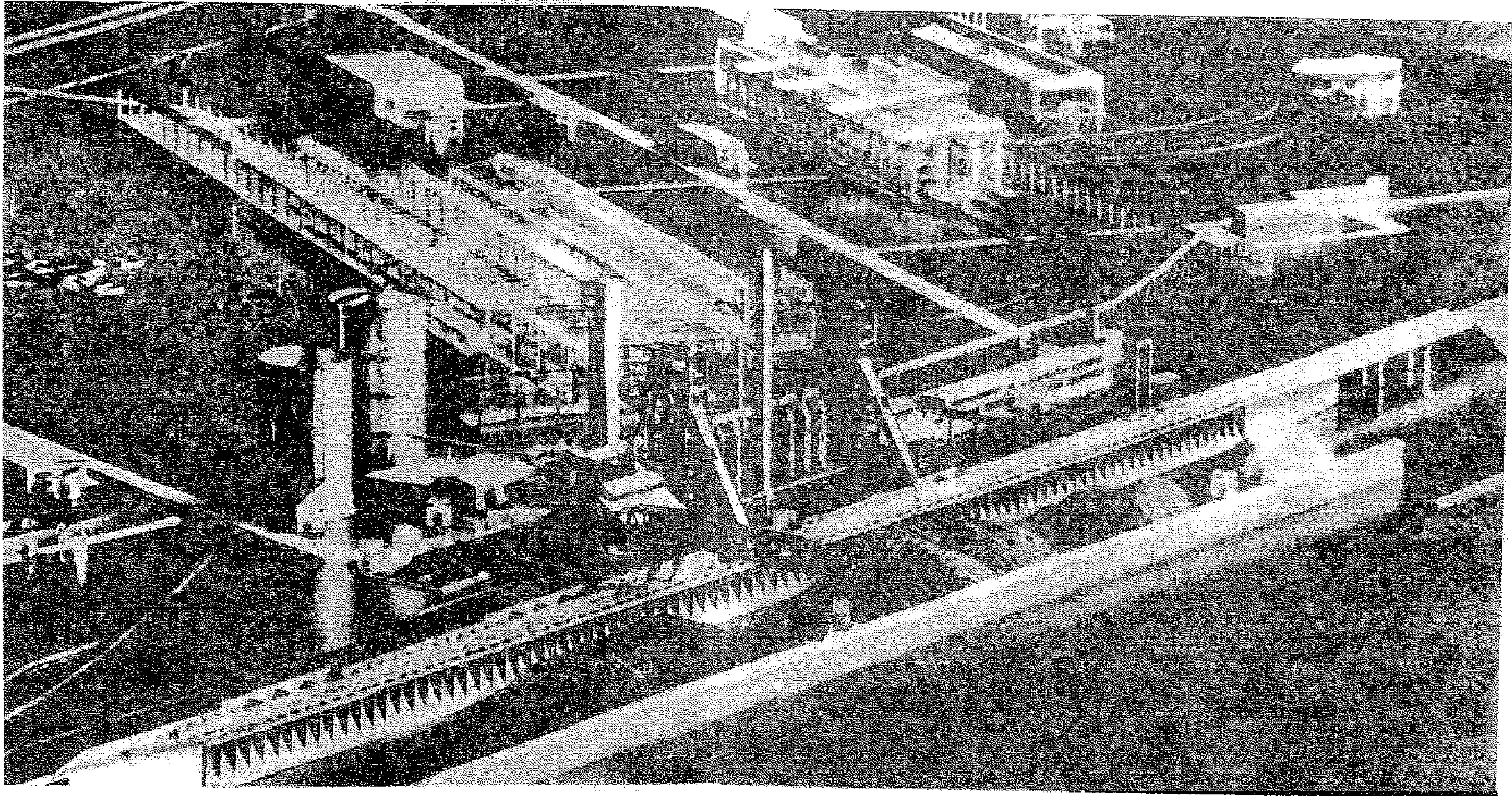




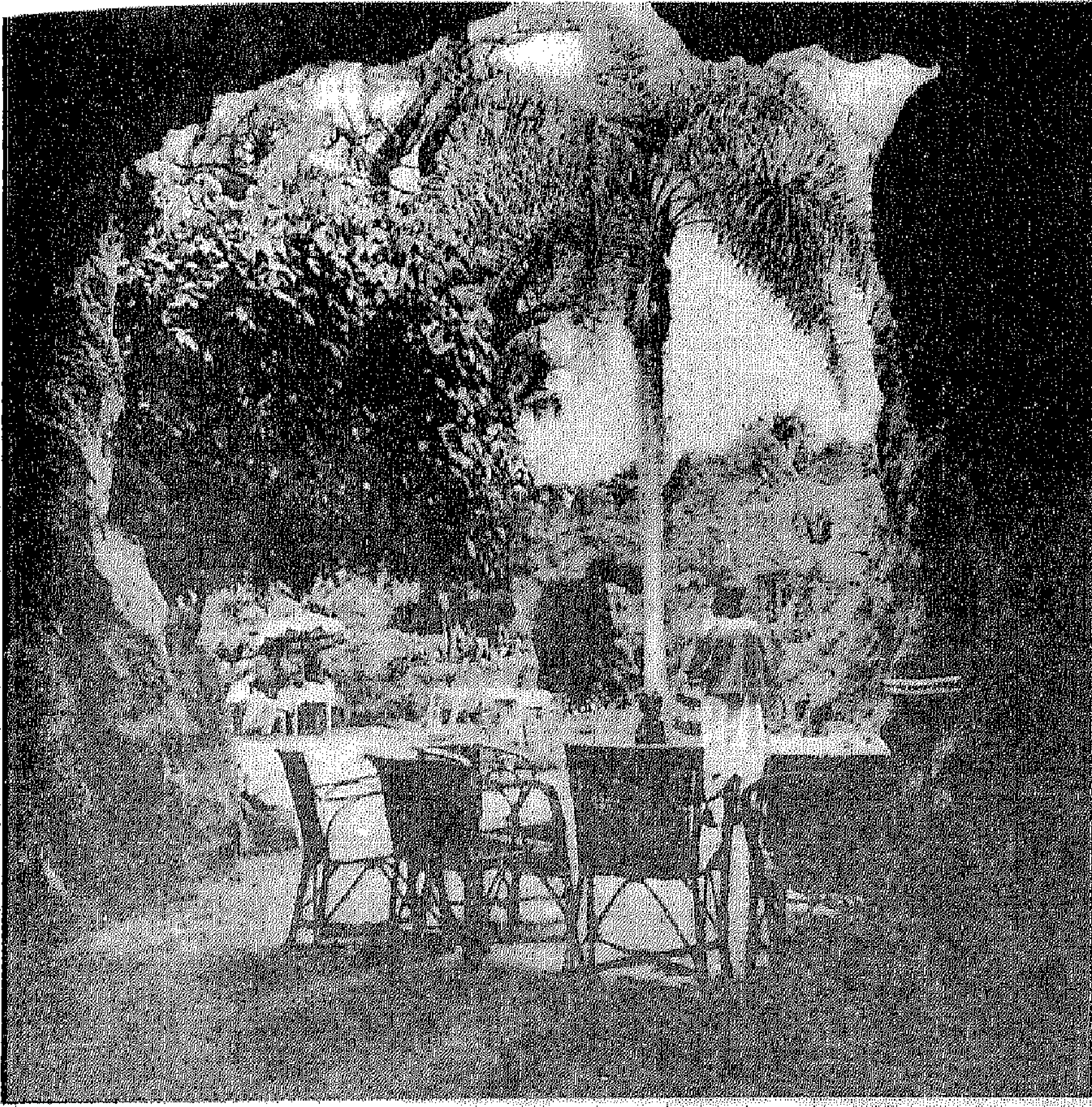
بعض اجنحة المستشفى الجامعي بالمنيل . وهو من اعظم مستشفيات العالم . مقام على أرض تبلغ مساحتها أربعين فدانا . ويقع على نهر النيل مما يتيح للمرضى جوا فاتنا ساحرا يعينهم على الشفاء

حديقة الحياة فى حلوان التى تعتبر أحد المشاتى العالمية.وهى من ضواحى القاهرة

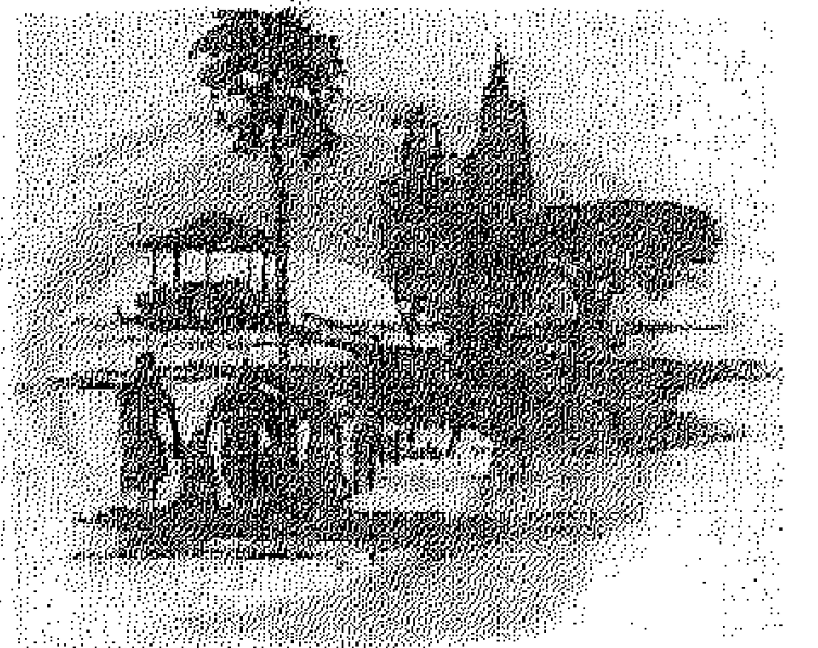
الحديقة اليابانية فى حلوان ، وقد جمعت بين المنظر الجميل والهواء العليل

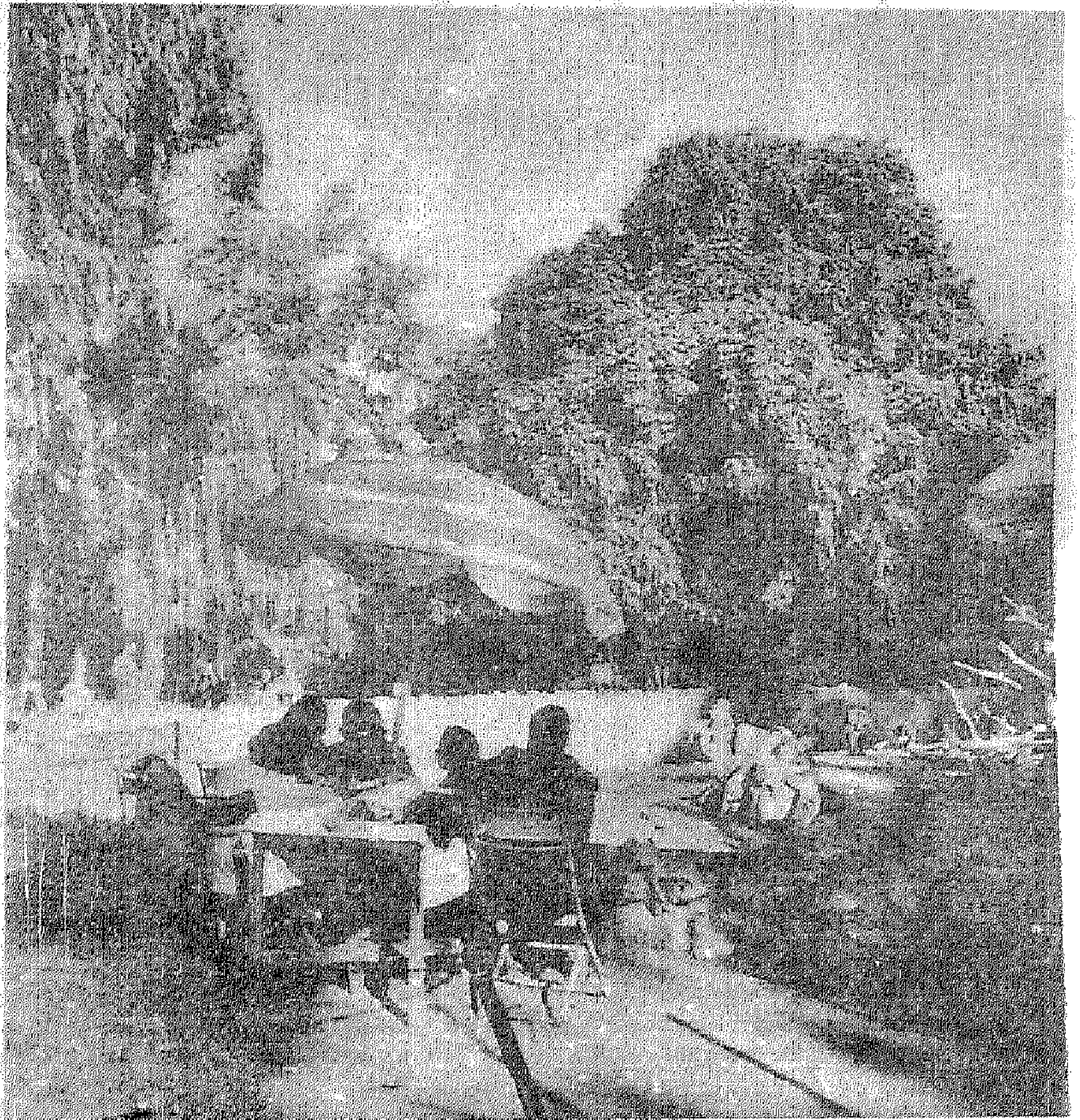


مصنع الحديد والصلب بحلوان ، احد المنشآت المجيدة التى انجزتها الثورة المباركة كأساس لحركة التصنيع فى مصر . ويقوم المصنع على مساحة قدرها الف فدان



احدى المغارات بحديقة الاسماك بالجزيرة . وفضلا عما تحتوى عليه من أسماك نادرة ، فهى احدى متع الطبيعة وروائع الفن بالقاهرة ...





جبلاية القرود الصناعية بحديقة الحيوان بالجيزة ، وهى احدى المنشآت الحديثة بالحديقة





مشهد رائع بالمعادى ، احدى ضواحى القاهرة الجميلة .
ويعد هـــذا المشهد من اجمل المشاهد الطبيعية العالمية



مبنى دار الهلال بشارع محمد عز العرب (المبتديان سابقا) وهى من أكبر دور النشر والطباعة فى العالم العربى واقدمها . وتصدر عنها كثير من المجلات الشهرية والاسبوعية والمؤلفات العلمية والادبية والقصصية . وقد أسهمت بنصيب وافر فى النهضة العلمية والادبية الحديثة . . _

مصادر الكتاب

المراجع العربية

١ ــ ابن الاخوة : معالم القربة فى طلب الحسبة ــ نشر ليفى ، لندن سنة ١٩٣٩

٢ ــ ابن اياس ، محمد بن احمد : كتاب بدائع الزهور فى وقائع الدهور ، اربعة أجزاء

٣ ــ ابو المحاسن ، جمال الدين بن يوسف بن تغرى بردى : كتاب النجوم الزاهرة فى اخبار ملوك مصر والقاهرة : ١١ جزءا مطبوعة . دار الكتب المصرية

٤ ــ احمد امين : كتاب ظهر الاسلام . القاهرة سنة ١٩٥٥

٥ ــ ارنولد وكريستى وبرجز : تراث الاسلام جـ ٢ تعريب وشرح زكى محمد حسن

٦ ــ اسرائيل ولفنسون : موسى بن ميمون

٧ ــ الجبرتى : عجائب الآثار فى التراجم والأخبار . اربعة اجزاء

٨ ــ السيوطى ، جلال الدين : حسن المحاضرة فى اخبار مصر والقاهرة

٩ ــ الشيزرى : نهاية الرتبة فى طلب الحسبة نشر لجنة التاليف والترجمة والنشر سنة ١٩٤٦

١٠ ــ القلقشندى ، أبو العباس احمد : صبح الاعشى فى صناعة الانشاء ، من مطبوعات دار الكتب المصرية

١١ ــ المقريزى ، تقى الدين احمد بن على : المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار ، اربعة اجزاء طبعة احمد على المليجى

١٢ ــ المقريزى ، اغاثة الامة بكشف الغمة : نشر الاستاذين محمد مصطفى زيادة وجمال الدين الشيال

١٣ ــ النويرى ، شهاب الدين احمد بن عبد الوهاب : نهاية الارب فى فنون الادب ، من مطبوعات دار الكتب المصرية

١٤ ــ بتلر ، فتح العرب لمصر : ترجمة محمد فريد أبى حديد

١٥ ــ جاستون فييت : البوم دارالآثارالعربية بالقاهرة تعريب حسن الهوارى

١٦ ــ جاستون فييت : دليل موجز لمعروضات دار الآثار العربية ترجمة زكى محمد حسن

١٧ ــ جاستون فييت : مقال عن جامع السلطان حسن بمجلة المقتطف ترجمة محمد وهبى

١٨ ــ جرجى زيدان : تاريخ مصر الحديث
١٩ ــ جرجى زيدان : تاريخ التمدن الاسلامي
٢٠ ــ جرجى زيدان : تاريخ آداب اللغة العربية
٢١ ــ حسن ابراهيم حسن ، الدكتور : تاريخ مصر السياسى
٢٢ ــ حسن ابراهيم حسن : تاريخ عمرو بن العاص
٢٣ ــ حسن ابراهيم حسن : الفاطميون فى مصر
٢٤ ــ حسن عبد الوهاب ، تاريخ المساجد الاثرية : جزءان . القاهرة ١٩٤٦
٢٥ ــ حسن عبد الوهاب : العمارة فى عصر محمد على . مقال بمجلة العمارة العدد ٣ ــ ٤
٢٦ ــ خطاب عطيه على : التعليم فى مصر فى العصر الفاطمى الاول
٢٧ ــ زكى محمد حسن ، الدكتور : الفن الاسلامى فى مصر ، جزء اول . مطبوعات دار الآثار العربية
٢٨ ــ زكى محمد حسن : الرحالة المسلمون فى العصور الوسطى
٢٩ ــ زكى محمد حسن : كنوز الفاطميين . من مطبوعات دار الآثار العربية ١٩٣٧
٣٠ ــ زكى محمد حسن : فى الفنون الاسلامية . من مطبوعات اتحاد اساتذة الرسم بالقاهرة ١٩٣٨
٣١ ــ زكى محمد حسن : فى مصر الاسلامية ، واشترك فى الكتابة فيه آخرون
٣٢ ــ ستانلى لين بول : سيرة القاهرة . ترجمة حسن ابراهيم حسن وآخرين
٣٣ ــ سيدة اسماعيل كاشف : مصر فى فجر الاسلام . القاهرة ١٩٤٧
٣٤ ــ سيدة اسماعيل كاشف : مصر فى عصر الاخشيديين . القاهرة سنة ١٩٥٠
٣٥ ــ عبد الرحمن الرافعى : الحركات القومية من عصر الحملة الفرنسية الى الوقت الحاضر
٣٦ ــ عبد الرحمن زكى ، الدكتور : القاهرة ، فى جزءين
٣٧ ــ عبد الرحمن زكى : دور التحف والجمعيات العلمية فى مصر
٣٨ ــ على ابراهيم حسن ، الدكتور : جوهر الصقلى
٣٩ ــ على ابراهيم حسن : مصر فى العصور الوسطى . القاهرة ١٩٥٤
٤٠ ــ على ابراهيم حسن : تاريخ المماليك البحرية . القاهرة ١٩٤٤
٤١ ــ على بهجت والبير جبرييل : كتاب حفائر الفسطاط . القاهرة ١٩٢٨
٤٢ ــ على مبارك «باشا» : الخطط التوفيقية الجديدة لمصر والقاهرة ٢٠ جزءا
٤٣ ــ فيليب حتى : تاريخ العرب . ترجمة المرحوم محمد مبروك نافع
٤٤ ــ متز ، آدم : الحضارة الاسلامية فى القرن الرابع الهجرى
٤٥ ــ محمد أمين حسونة : جمهورية مصر فى عامها الاول
٤٦ ــ محمد أمين حسونة : جمهورية مصر فى عامها الثانى

٤٧ ــ محمد جمال الدين سرور : الظاهر بيبرس
٤٨ ــ محمد جمال الدين سرور : دولة بنى قلاوون فى مصر، القاهرة : ١٩٤٧
٤٩ ــ محمد رفعت : تاريخ مصر السياسى ، جزءان القاهرة
٥٠ ــ محمد «بك» رمزى : القاموس الجغرافى للبلاد المصرية من عهد قدماء المصريين الى سنة ١٩٤٥ جزءان طبع مطبعة دار الكتب المصرية
٥١ ــ محمد «بك» رمزى : تعليقات على كتاب النجوم الزاهرة لابن تغرى بردى
٥٢ ــ محمد «بك» رمزى : الجغرافية التاريخية لمدينة القاهرة ، مقال بمجلة العلوم ، السنة التاسعة ، المجلد الخامس
٥٣ ــ محمد عبد العزيز مرزوق : مساجد القاهرة قبل عصر المماليك . القاهرة ١٩٤٢
٥٤ ــ محمد فريد أبو حديد : صلاح الدين الايوبى
٥٥ ــ محمد مبروك نافع : تاريخ مصر الاسلامية ، القاهرة ١٩٣٩
٥٦ ــ محمود «بك» أحمد : دليل موجز لاشهر الآثار العربية. القاهرة ١٩٣٨
٥٧ ــ محمود عكوش : تاريخ ووصف الجامع الطولونى . القاهرة ١٩٢٧
٥٨ ــ محمود عكوش : مصر فى عهد الاسلام . القاهرة ١٩٤١
٥٩ ــ هرتس «بك» : فهرس مقتنيات دار الآثار العربية تعريب على «بك» بهجت . القاهرة سنة ١٣٢٧ هـ
٦٠ ــ وليم موير : دولة المماليك فى مصر ، ترجمة محمود عابدين وسليم حسن القاهرة ١٩٢٤

المراجع الاجنبية

1. Briggs, M.S.: Muhammedan Architecture in Egypt and Palestine, Oxford, 1924
2. Creswell: Early Muslim Architecture, Oxford, 1932.
3. Devonshire, Mme R.L.: L'Egypte Musulmane et les fondateurs de ses monuments, Paris, 1926
4. Devonshire, Rambles in Cairo. Cairo, 1917.
5. Dimand, M.S.: A. Handbook of Mohammedan Decorative Arts, New York, 1947
6. Lane Poole, S. History of Egypt in the Middle Ages, London, 1925.
7. Lane Poole, The Art of the Saracens in Egypt, London, 1886.
8. Lane Poole, Cairo, Sketches on its History, Monuments, and Social Life, London, 1892
9. Migeon, G.: Manuel d'art Musulman, 2 vols. Paris, 1927.
10. Richmond, Moslem Architecture, London, 1920.
11. Wiel, G.: Album du Musée Arabe du Caire, 1930
12. Zaky Mohammded Hassan, Les Julunides, étude de l'Égypte musulmane à la fin du IXe siècle, Paris, 1933
13. Marcel Clergel, Le Caire, 2 vols.

محتويات الكتاب

الصفحة

الباب الخامس : قاهرة صلاح الدين

الباب السادس : القاهرة فى عهد المماليك

الصفحة

الصفحة

الصفحة

كشاف

اولا ـــ اسماء الأعلام

(أ)

(ب)

(ت)

ثانيا ـ اسماء الأماكن

(ب)

(ت)

(ث)

(ج)

(ح)

(خ)

(د)

(ر)

(ص)

(ض)

(ط)

(ع)

(غ)

(ف)

(ق)

(ن)

(هـ)

(و)

رقم الايداع بدار الكتب ١٩٩٩/٩٥٤٧
I.S.B.N 977 - 01 - 6216 - 7

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

المعرفة حق لكل مواطن وليس للمعرفة سقف ولا حدود ولا موعد تبدأ عنده أو تنتهى إليه.. هكذا تواصل مكتبة الأسرة عامها السادس وتستمر فى تقديم أزهار المعرفة للجميع. للطفل. للشاب. للأسرة كلها. تجربة مصرية خالصة يعم فيضها ويشع نورها عبر الدنيا ويشهد لها العالم بالخصوصية ومازال الحلم يخطو ويكبر ويتعاظم ومازلت أحلم بكتاب لكل مواطن ومكتبة لكل أسرة... وإنى لأرى ثمار هذه التجربة يانعة مزدهرة تشهد بأن مصر كانت ومازالت وستظل وطن الفكر المتحرر والفن والحضارة المتجددة.

سوزان مبارك





مكتبة الأسرة

مهرجان القراءة للجميع ١٩٩٩



٤٠٠ قرش